العلوم الإنسانية والاجتماعية
قضايا معاصرة
" التكامل أساس المعرفة "

تنسيق د. بحري صابر

العلوم الإنسانية والاجتماعية قضايا معاصرة " التكامل أساس المعرفة "
Human and Social Sciences Contemporary Issues

Human and Social Sciences
Contemporary Issues

Coordinated by: Dr. BAHRI Saber

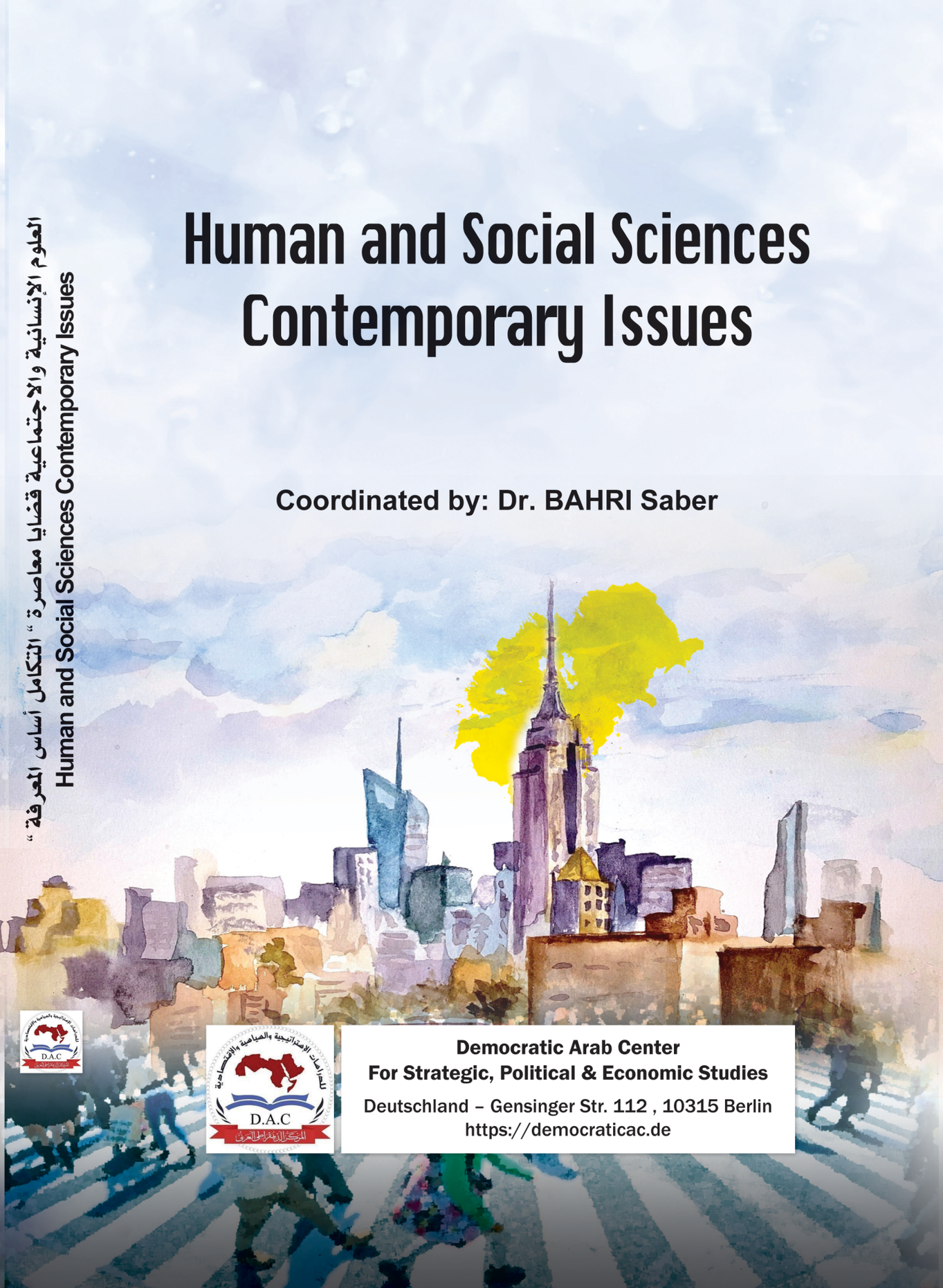

Democratic Arab Center
For Strategic, Political & Economic Studies
Deutschland – Gensinger Str. 112 , 10315 Berlin
https://democraticac.de

أعمال المؤتمر الدولي
العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة
التكامل أساس المعرفة
أيام 1-2-3 نوفمبر 2019
ألمانيا- برلين
الجزء السادس(06)

المؤتمر الدولي العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا
معاصرة التكامل أساس المعرفة
المنظم من طرف
المركز الديمقراطي العربي ألمانيا- برلين
بالتنسيق مع
مخبر الطفولة والتربية ما قبل التمدرس جامعة لونيسي
علي البليدة- الجزائر
أيام 1-2-3 نوفمبر 2019
ألمانيا- برلين

تنسيق: بحري صابر
كتاب: العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة التكامل أساس المعرفة
رقم تسجيل الكتاب :
VR.3373.6348.B
الطبعة الأولى
نوفمبر 2019
الجزء السادس

الناشر:
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.
ألمانيا- برلين
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه ه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر .
جميع حقوق الطبع محفوظة: للمركز الديمقراطي العربي
برلين- ألمانيا.
2018
All rights reserved No part of this book may by reproducted. Stored in a retrieval System or tansmited in any form or by any meas without prior Permission in writing of the publishe
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.
Germany:
Berlin 10315 GensingerStr: 112
Tel: 0049-Code Germany
54884375 -030
91499898 -030
86450098 -030
mobiltelefon : 00491742783717
E-mail: book@democraticac.de

العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة

التكامل أساس المعرفة

رئيس المركز الديمقراطي العربي ألمانيا- برلين

أ.عمار شرعان

مدير مخبر الطفولة والتربية ما قبل التمدرس جامعة لونيسي علي البليدة2- الجزائر

أ.د لورسي عبد القادر

تنسيق:

د.بحري صابر

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2- الجزائر

رئيس اللجنة العلمية

د.خرموش منى

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2- الجزائر

الرقم	العنوان	الصفحة
	تقديم: العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة التكامل أساس المعرفة د.بحري صابر جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2- الجزائر	
01	السياسة الجبائية وتأثيرها على الاقتصاد خارج قطاع النفط حالة الجزائر د. جاب الله مصطفى، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسييير جامعة محمد بوضياف بالمسيلة- الجزائر	9
02	المقاربات التعليمية في ضوء الاستراتيجيات الحديثة أ.د. عبد المجيد عيساني، جامعة قاصدري مرباح ورقلة- الجزائر	21
03	تحليل سوسيولوجي للتغير القيمي والثقافي في المجتمع الجزائري. د.عبد المالك مجادبة، جامعة طاهري محمد- بشار- الجزائر	34
04	مستقبل التنمية في الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر. د. نور الدين بن قدور، جامعة وهران-الجزائر	43
05	تنمية المزارات الدينية للوصول بها من مجرد مزار إلي مقصد سياحي أ.د شروق عاشور، رئيس قسم الإرشاد السياحي بالمعهد العالي للدراسات النوعية – أكاديمية المستقبل- مصر	65
06	المحاكاة وفلسفة الخلق الشعري العربي د.سحر فتحي، كلية الآداب، جامعة القاهرة- مصر	85
07	خطاب المهمشين في كتاب(المعذبون في الأرض) لطه حسين آليات التشكل والوظائف التواصلية د.عزة شبل محمد أبو العلا، كلية الآداب- جامعة القاهرة- مصر	101
08	الحراطين في المتخيل الاجتماعي بواحة فركلة - مقاربة أنثروبولوجية - *سمير الساعيدي*، مختبر دكتوراه التراث الثقافي بجامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مدينة القنيطرة- المغرب	116
09	ثقافة المرأة العاملة وتضارب أدوارها في المجتمعات العربية دراسة في الواقع د.إيمان حرفوش، جامعة قاصدي مرباح ورقلة- الجزائر	127
10	أخلاقيات الطبيب من خلال توجيهات الدين الإسلامي د.قاسمي بختاوي جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف – الجزائر	139

11	التقنيات الحديثة ودورها في العملية التعليمية د.طارق بولخصايم جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل- الجزائر	148
12	مقومات نجاح القطاع السياحي في ماليزيا وإمكانية الإفادة منها في تنمية السياحة في العراق – دراسة تاريخية اقتصادية مقارنة ا.م.د. ماهر جبار محمد علي الخليلي كلية الامام الكاظم – بغداد– العراق	164
13	حوض كيكات (حوض أم الربيع، المغرب) والإمتطاحات السيلية: التتبع، القياس، الإستخلاص والتحليل لحلو نادية، الغاشي محمد، الخالقي يحيى مختبر دينامية المشاهد المخاطر والتراث، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الاداب والعلوم الإنسانية، بني ملال-المغرب	188
14	جدل التخييلي والمرجعي في رواية ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية لواسيني الأعرج د. نجاة بوقزولة، جامعة امحمد بوقرة –بومرداس –الجزائر	196
15	واقع التمويل الإسلامي بالجزائر د. حميدي فاطيمة كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم الجزائر	211
16	اللغة العربية في الجزائر بين أسئلة الهوية ورهانات الانفتاح أ.د خليفة قرطي، كلية الآداب واللغات، جامعة البليدة2 - الجزائر	227
17	قلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين دراسة عيادية لـ 120 حالة د. فاطمة الزهراء مشتاوي، جامعة الجزائر 2 " أبو القاسم سعد الله "- الجزائر	243
18	فعالية برنامج سلوكي معرفي في تحسين مراتب الهوية (انغلاق تشتت) لدى الطالب الجامعي د. مليكي مروة أ.د رابحي اسماعيل جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر	257
19	القانون الدولي للبيئة –بين القانون الدولي للتنمية وضرورة حماية البيئة أ.:فازية نصاح، جامعة الجزائر 1 كلية الحقوق بن يوسف بن خدة- الجزائر	267

20	أنسنة المركز في فكر مالك بن نبي د.عواطف سليماني كلية الآداب واللغات - جامعة عباس لغرور- خنشلة، الجزائر	282
21	حماية الحياة الرقمية الخاصة للأفراد في ظل تنامي الجريمة الالكترونية د. بختة لعطب، المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي، تيسمسيلت- الجزائر أحمد لعروسي، المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي، تيسمسيلت- الجزائر	292
22	دور تكنولوجيا المعلومات والاتصال في دعم تنافسية المؤسسات في ظل الاقتصاد الرقمي ط.د بن طيبة فتيحة -د.نسيلي خديجة المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة –الجزائر	301
23	الحدث الديستوبي في الرواية العربية د. نجدي عبد الستار محمد نجدي، جامعة عين شمس	318
24	القلاع ومخازن الحبوب بمنطقة الأوراس د. درية حجاري جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2- الجزائر	332

تقديم:

لا يمكن لأي دولة أن تنمو وتتطور دون أن تطور مجال البحث العلمي الذي يعد الركيزة الأساسية لأي رقي يمكن أن تنشده الدول اليوم ، وتطوير البحث العلمي لا يكون في مجال دون غيره ذلك أن كل العلوم تتكامل فيما بينها لتحقيق هدف واحد وهو خدمة الإنسان بالدرجة الأولى ، لذا فيخطأ من يعتقد أن الإهتمام بمجال دون غيره هو المنفذ للتطوير ذلك أن المنفذ الوحيد لتطور وتقدم الأمم هو إيلاء كل مجال حقه دون أي تمييز أو تعصب وهو المسار الذي ننطلق منه للتطوير(بحري صابر ، 2018).

ولعل المؤتمر الدولي العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة التكامل أساس المعرفة قد إنطلق من فكرتين أساسيتين ، الأولى تؤكد أهم القضايا المعاصرة التي أضحت تعالجها العلوم الانسانية والاجتماعية في محاولة للتجديد والتطوير وهو أحد الرهانات والمسائل التي تطرح في ظل المقاربات المعرفية المختلفة ، والفكرة الثانية تنطلق من أساس المعرفة وهو تكامل العلوم لخدمة الإنسان بالدرجة الأولى.

إن مختلف حقول العلوم الانسانية والاجتماعية على الرغم من أنها تعيش اليوم العديد من الأزمات في دراسة المشكلات ومعالجة القضايا الراهنة إلا أنها لا تزال تشكل رصيدا معرفيا يساهم في بلورة المفاهيم والنظريات حول القضايا الانسانية والاجتماعية التي تحتاج لتكاتف جميع الجهود لمعالجتها وفق قضايا إنسانية.

إن إستشعارنا بأهمية تناول مقاربة تكاملية في دراسة المشكلات ليس وليد الساعة ذلك أن القضايا الانسانية والاجتماعية تطرح في تخصصات متعددة وفق مقاربات وزوايا مختلفة ما يجعل من حقيقة محاولة بناء جسر للتواصل المعرفي الجامع للعلوم الهدف الأسمى لتقريب الرؤية في معالجة قضايا الإنسان على إعتبار أن الهدف الأسمى لكل تخصص ومعرفة هو خدمة الإنسان وتحقيق الرفاه له بتنويره للسبيل نحو الهدف الانساني المنشود في تخطيط رؤية مستقبلية لبناء منحى إنساني في مجال تكامل العلوم لخدمة الفرد.

ولأن العلوم الانسانية والاجتماعية تلعب دورا أساسيا في عالم المعرفة اليوم خاصة وأن كل العلوم تنطلق منها في محاولة لتحقيق تنمية مستدامة على مختلف الأصعدة الإنسانية التي تتمظهر بقضايا إنسانية واجتماعية متنوعة ومتباينة إلى حدا ما.

ما فتأت الكثير من القضايا تطرح هنا وهناك وفق مقاربات معرفية في ظل كل التخصصات أين يمكن النظر إلى كل قضية إنسانية أو إجتماعية من عدة أبعاد تخصصية ، وهو ما يجعل من التناول النسقي المتكامل لمختلف التخصصات أمر جد هام بالنظر لتلاقح المعرفة لتكوين إنسان يتمتع بالرفاه.

تتوقف تطورات المجتمعات على تطور المعارف ومدى مساهمتها كفاعل أساسي في التنمية بشتى مجالاتها ، أين تعد مسألة النظرية والواقع أحد أهم الإشكاليات التي تطرح في مجال المعرفة الإنسانية ، ذلك أن رقي الأمم وتطورها يتوقف على مساهمة مراكز البحث ومؤسساته في دراسة المشكلات التي

تعاني منها المجتمعات في إطار إيجاد الحلول المناسبة للمعضلات البشرية كل على مستواه ومن منظوره ، على إعتبار أن العلوم لا تتنافس فيما بينها بقدر ما هي تكمل بعضها البعض خدمة للبشرية والإنسانية جمعاء بدون النظر لإختلاف العرق ، الدين ، الجنس.....

مركز إهتمام مختلف العلوم هو الإنسان من زوايات متعددة ، إن فهم الإنسان بكل تعقيداته ليس بالأمر السهل وهو ما يجعل الدراسات والأبحاث دائما تتجه نحو إستقصاء وتحليل سلوكياته المختلفة في محاولة لفهم الإنسان من حيث القدرات والمهارات والطاقات وهو أمر يستدعي تداخل الكثير من العلوم الانسانية والاجتماعية والطبيعية والبيولوجية والطبية في محاولة لرصد ما يحدث داخل هذا الكائن الحي الذي يبقى قابلا للدراسة في أي وقت وفي أي مكان من خلال فهم الماضي والحاضر وإستشراف المستقبل.

وإننا من هذه الزوايا نحاول أن نقدم إسهاما وفق رؤيتنا الخاصة في طرح مختلف القضايا المعاصرة في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية في ظل الآمال المنتظرة والآفاق المستقبلية التي سوف تحقق من خلال رؤية على المدى القريب والمتوسط والبعيد.

د.بحري صابر ، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2/ الجزائر

السياسة الجبائية وتأثيرها على الاقتصاد خارج قطاع النفط حالة الجزائر

Tax policy and its impact on economy outside the oil sector Study case of Algeria

د. جاب الله مصطفى ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسييير
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة- الجزائر

تمهيد

إن الإصلاحات الضريبية المتواصلة وإعطاء أهمية للجباية العادية ضمن الميزانية العامة أدى إلى استحداث بعض الضرائب الجديدة والاهتمام أكثر بالجباية العادية وجعلها تحل محل الجباية النفطية ، نظرا لارتباط هذه الأخيرة بالأسواق النفطية الدولية من جهة ، وعدم استقرار أسعار النفط وكذا العائدات النفطية من جهة أخرى.

ورغم ما حققته إصلاحات هذه المرحلة من إيجابيات خصوصا التوازنات الاقتصادية الكلية إلا أنها أهملت الآثار الاجتماعية القاسية الناجمة عن ذلك إذ ارتفع التضخم إلى معدلات قياسيه كما زادت نسبة البطالة نتيجة للتسريحات المتتالية للعمال من الشركات ، والمصانع كنتيجة للتطهير المالي للمؤسسات ، وهذا ما استدعى اللجوء إلى سياسة تصحيحية للاقتصاد تأخذ المعطيات الاجتماعية بعين الاعتبار ، وقد ارتكز التعديل الجبائي.

والسؤال المتبادر للذهن هو ما حجم الدور الحكومي في النمو خارج قطاع النفط من خلال السياسة الجبائية ؟ وعلى ما يرتكز هذا الدور ؟

وحتى نتمكن من الإجابة على هذا التساؤل طرحنا الفرضيات التالية:

-السياسة الجبائية هي السياسة الاقتصادية الوحيدة الكفيلة بالتأثير على القطاع خارج النفط.

-دور الحكومة يتجسد من خلال سياسة جبائية توسعية فقط.

أهمية الدراسة: تمثل الدراسة محاولة لكشف العلاقة بين الناتج الخام خارج النفط وباقي المتغيرات التي تجسدها السياسة المالية ، كما أنها لم تكتف بالمعطيات النظرية فقط بل نوعت دراستها في الإطار المفاهيمي والتطبيقي.

هدف الدراسة:

- استكشاف تجريبي قياسي للعلاقة بين الناتج الداخلي الخام ، وبعض محدداته.

- الخروج بمجموعة من النتائج المفسرة والشارحة لهذه العلاقة ، الأمر الذي يمكن أن يساعد على توفير توجيهات لمتخذي القرار الاقتصادي ، والشركاء في التنمية.

- التطرق إلى أبعاد العلاقة بين المتغيرات ، والتي نعني بها متغيرات السياية المالية من زوايا أخرى لم يتم تناولها.

- تحليل وضع التنويع الاقتصادي في الجزائر.

-اختبار مدى تبعية الإنتاج الداخلي الخام غير النفطي لمتغيرات السياسة الجبائية.

منهج الدراسة: تعتمد الدراسة على استخدام المنهج الوصفي التحليلي في شرح العلاقة بين المتغيرين ، كما تستخدم أسلوب الاقتصاد القياسي في الجانب التطبيقي ، مبرزة نماذج الانحدار الذاتي للإبطاء الموزع وكيفية تكييف هذه النماذج في عملية التقدير ، إلى جانب الاستعانة ببعض البرمجيات الإحصائية ، للمساعدة على اختبار الفرضيات حول ، تأثير أدوات السياسة المالية على النمو خارج النفط في الجزائر ، على غرار STATA.

أجزاء الدراسة: تنقسم الدراسة إلى أربعة اجزاء رئيسيه بالإضافة الى المقدمة والخلاصة ,لقد تم تقديم شروح نظرية في الجزء الأول للتعاريف والمفاهيم المتعلقة بالسياسة الجبائية ومفهوم التنويع الاقتصادي ، والجزء الثاني تم نتناول مسار الاصلاحات الجبائية في الجزائر اسقاطها على التوازن الاقتصادي ، واهتم الجزء الثالث بالدراسات السابقة التي تناولت تلك الفرضية ، وركزنا على الدراسات القياسية التي شرحت العلاقة بين المتغيرات ، واخيرا الجزء الرابع الذي يشرح اختبار تلك العلاقة على الاقتصاد الجزائري باستخدام التحليل القياسي ، وبعض الاختبارات الاحصائية

مسار الإصلاح الجبائي في الجزائر

جاء الإصلاح الجبائي كنتيجة حتمية للتغيرات الجذرية في البيئة للواقع الاقتصادي والاجتماعي ، ويقوم هذا الإصلاح على ترشيد الأداء الاقتصادي (بوزيان ، 2007) وتحرير المؤسسة بإخضاعها للواقع الاقتصادي وتحرير المؤسسة بإخضاعها لإفرازات السوق مهما كانت طبيعته غامضة في بلد شهد تغيرات سياسية واجتماعية كالجزائر(قدي ، 1995).

إذ طرح الإصلاح الجبائي في الجزائر على أساس مبدأين هما:

مبدأ حياد بالنسبة للرسم على القيمة المضافة TVA(1992. Bouzidi).

مبدأ "الدخل متساوي ضريبة متساوية" بالنسبة للضريبة على الدخل القومي IRG.

ينصب الإصلاح الجبائي في الجزائر على ثلاثة محاور أساسية هي:

-محور مالي يتمثل في إيجاد موارد مالية لتمويل ميزانية الدولة(بري ، 2001).

-محور اجتماعي يتمثل في إعادة توزيع الدخل.

-محور اقتصادي يتمثل في ضبط الأنشطة الاقتصادية وتوجيه التنمية.

إن النظام الجبائي الذي طبق في الجزائر منذ الاستقلال إلى غاية أواسط السبعينات هو نظام موروث عن الاستعمار ، ولو أنه قد حدثت بعض التغيرات الطفيفة ، ويبرر المشرع تطبيقه لهذا النظام أنه لم يكن هناك خيار آخر بسبب الفراغ والقانوني وتطبيق سياسة ملئ الفراغ آنذاك ، ومع كل هذا لجأت الدولة إلى تسوية بعض العراقيل الجبائية وهذا نتيجة لذهاب الإطارات الجبائية الفرنسية ، ومن أهم هذه الإجراءات المتخذة:

-رفع معدل الضرائب على الأرباح التجارية والصناعية من 15% إلى 20% ، ومعدلات الضرائب المباشرة (ماعدا الضريبة على مجموع الدخل) من 12% إلى 15%.

-إنشاء الرسم الوحيد الإجمالي (TUGP).

-من أجل تحقيق مبدأ العدالة لجأت الدولة إلى فرض رسم على الأجور المرتفعة التي تفوق 2400 دج.

والجدول التالي يوضح تطور عائدات الجباية العادية ما بين سنتي 1963 و 1967.

الجدول رقم:01 تطور عائدات الجباية العادية للفترة ما بين 1963-1967.

الوحدة مليون دج

السنوات	1963	1964	1965	1966	1967
الضرائب المباشرة	478.0	515.4	545.0	696.0	749.5
الضرائب غير المباشرة	626.0	638.6	617.8	648.4	708.8
التسجيلات والطوابع	75.5	92.2	64.0	93.9	86.2\شص11
الضرائب المختلفة على رقم الأعمال	723.9	746.0	711.2	752.2	756.0
المجموع	1903.4	1992.2	1938.0	2186.5	2300.5

المصدر: المديرية العامة للضرائب.

وبعد سنوات قليلة من تطبيق الإجراءات الجديدة بدأت تظهر عيوبه شيئا فشيئا ، لذلك كلفت لجنة خاصة لإعداد التعديلات وفق ما تتطلبه السياسة الاقتصادية ذلك الوقت ، ومن أهم التعديلات

التعديلات التي مست الضرائب غير المباشرة: التغيير الذي طرأ على النظام الجبائي الجزائري محاولة تعويض كل من الضريبة(13) على الأرباح الصناعية والتجارية (IBIC) والرسم على النشاط المهن والتجاري (TAIC) والرسم الوحيد الإجمالي على الخدمات (TUGPS) بضريبة وحيدة إجمالية ، وكذلك رفع معدلات الضرائب على المواد الكمالية وهذا سنة 1977.

التعديلات التي مست الضرائب المباشرة:

1-الضريبة على الأرباح الصناعية والتجارية: نص قانون المالية لسنة 1974 على وجوب تطبيق ضريبة على الأرباح الصناعية والتجارية ، باسم كل مستغل ابتداء من 1975/01/01 على الربح المحقق في كل بلدية تتواجد بها الوحدة الإنتاجية وليس على أساس المؤسسة ككل. (Kendil .1970)

2-الضرائب على الرواتب والأجور: تم إنشاء جدول جديد لحساب الضريبة على الرواتب سنة 1979 حيث حدد الحد الأقصى للأجور بـ 15000 دج.(Gilis 1990).

3 -المساهمة الوحيدة الإجمالية: أنشئت بموجب قانون المالية لسنة 1977، وتفرض على المؤسسات العمومية المعفية من الضريبة الفلاحية.

4- الضريبة على المداخيل الزراعية: أدمج قانون المالية لسنة 1969 الأرباح الفلاحية والرسم على النشاط الفلاحي في ضريبة واحدة إلا وهي الضريبة الجزافية والمطبقة على قطاع التسيير الذاتي.

أما قانون المالية لسنة 1972 ألغى الرسم العقاري على الأملاك المبنية وهذا ما أجل تخفيف العبء على الفلاحين ، ولضعف مردوديتها تحتم إلغاء الضريبة على القطاع الفلاحي وهذا سنة 1975.

5-الضريبة التكميلية على مجموع الدخل: تم تعديل سلم الضريبة التكميلية على مجموع الدخل لسنة 1977، ومنه ألغي السلم الذي نص عليه قانون الضرائب المباشرة لسنة 1976 (بن عناية 2011)، ومرحلة الإصلاح التي مرت بها الجزائر إلى غاية 1982 كانت تقوم على أساس توازن بين الإيرادات والنفقات فكانت الضريبة ترفع حسب الأوضاع أي أنه حددت الأهداف كتشجيع لبعض النشاطات الاقتصادية ، وتخفيف العبء

الضريبي على الممولين ، وتبسيط النظام الجبائي تبعا للنظام الجزائري الذي يرغب في الدخول إلى اقتصاد السوق.

السياسة الجبائية في الجزائر بعد الاصلاحات: إن الإصلاح الجبائي الذي عرفته الجزائر سنة 1991 كان نتيجة لعدد من الخصائص السلبية التي سادت النظام الجبائي في الفترة الزمنية السابقة سواء كانت ناتجة عن طبيعة النظام الجبائي السائد آنذاك وارتباطها بعوامل خارجية عنها كنقص الموارد المالية وسياسة الانفتاح الحديثة.

سوف نتطرق إلى مسار السياسة المالية والجبائية بعد الإصلاحات الأخيرة التي اعتمدت مطلع التسعينات ومن اهم هذه الخطوات:

-إنشاء ضريبة الدخل الإجمالي IRG سنة 1992 هذه الأخيرة جاءت لتحل محل مجموعة كبيرة من الضرائب كانت سائدة آنذاك وهي:

المرتبات والأجور والمنح العمومية TS

الأرباح الصناعية والتجاري BIC

الأرباح غير التجارية BNC

مدا خيل القيم المنقولة RCM

المداخيل العقارية RF

المداخيل الفلاحية RA

وتتميز هذه الضريبة بما يلي ضريبة وحيدة تطبق على دخول الأشخاص الطبيعيين ؛

التميز بالشفافية والبساطة ؛

تخضع بعض المداخيل فيها إلى معدلات ثابتة مثلما هو عليه في المداخيل العقارية 15% ، الإيجار السكني 07%.

وعليه ضريبة الدخل الإجمالي IRG تجمع بين الضرائب النسبية (الثابتة) والضرائب التصاعدية (بالشرائح).

الرسم على القيمة المضافة

لقد جاءت هذه الضريبة لتعوض الرسمين السابقين:

الرسم الوحيد الإجمالي على الإنتاج TUGP

الرسم الوحيد الإجمالي على تقديم الخدمات TUGPS

ومن خلال التسمية وبالمفهوم المحاسبي ، فالرسم الأول يفرض على القطاعات المنتجة أما الرسم الثاني فهو خاص بقطاع الخدمات المنتجة ، وهذا حسب منظور المحاسبة الوطنية.

وقد تم توحيدهما في الرسم على القيمة المضافة التي تضم كل القطاعات ، ومن خصائص هذه الضريبة أنها:

ضريبة غير مباشرة: بمعنى أنها ضريبة بعدية يظهر أثرها في السعر تدفع على مدار الدورة الاقتصادية للمنتج (الإنتاج-التوزيع-الاستهلاك) بمعنى أن المستهلك النهائي هو من يدفعها.

ضريبة نسبية ثابتة: أي لا يفرض الرسم على القيمة المضافة بزيادة رقم الأعمال, وهي مستقرة حاليا في معدلين مخفض 7% ومرتفع 17%.(جاب الله 2015)

وفيما يتعلق برصيد الميزانية العامة الذي هو الفرق بين الإيرادات العامة فقد تطور كما يلي:

جدول رقم02 : تطور الإيرادات والنفقات العامة الوحدة: مليار دينار.

السنة	الإيرادات العامة	النفقات العامة	رصيد الميزانية
2006	3639.8	2453	1186.8
2007	3687.8	3108.5	579.3
2008	5190.5	4191	999.5
2009	3676	4246.3	-570.3
2010	4379	4512.8	-133

المصدر: تقرير بنك الجزائر 2011. عن المديرية العامة للخزينة

والشيء الملاحظ هنا أننا سجلنا بعض التراجع في رصيد الميزانية حتى تحول إلى عجز ويتعلق الأمر بسنتي 2009 و 2010 على التوالي ويعود الأمر إلى:

-سياسة الإنعاش الاقتصادي التي تعتمد أساسا على التوسع في الإنفاق ؛

-تناقص إيرادات المحروقات لتلك السنتين تباعا رغم معاودتها الارتفاع فيما بعد ؛

-تناقص قروض الخزينة الممنوحة لبنك الجزائر كنتيجة للسبب السابق له.

-وحتى نؤكد بالأرقام التبعية المتزايدة للاقتصاد الجزائري لقطاع المحروقات وتحديدا في الجباية البترولية نستعين بالجدول التالي:

جدول(03): تطور الإيرادات الجبائية العادية ونسبتها إلى الجباية البترولية

الوحدة: مليار دج ، %

السنة	الجباية العادية	الجباية البترولية	نسبة الجباية العادية من البترولية
2012	645.2	2019	% 31
2013	714.3	2618.5	%27
2014	869.5	4003.5	%21
2015	981	2114.6	%46
2016	1309.4	2820	%46
2017	1584.5	3829	%41

المصدر وزارة المالية 2017.

ومن خلال وصفنا لهذا الجدول نلاحظ ما يلي:

-النمو الملحوظ للجباية البترولية للجباية العادية, وهذا بثمرة لجهود الإصلاح الضريبي ؛

-لا تزال الجباية العادية تمثل نسبة يسيرة من مجموعة الجباية.

-والشيء الملاحظ أنه في سنة 2014 التي تمثل اختلالا على صعيد التوازنات الاقتصادية الكبرى سجلت نسبة الجباية العادية أعلى قيمها ، ومرد ذلك طبعا إلى انخفاض إيرادات الجباية البترولية.

ونتيجة لهذه الأرقام الإيجابية في مجملها والمتعلقة بالسياسة المالية ، ونتيجة للعلاقة بين متغيرات السياسة المالية والنمو الاقتصادي ، وخاصة ما يتعلق بمتغير الإنفاق الحكومي ، فقد ارتأينا أن نتناول النمو الاقتصادي في الجزائر ، ومدى تحقيقه في إطار سياسة مالية.

التحليل القياسي: بعد أن تطرقنا في معرض بحثنا هذا إلى السياسة الجبائية في الجزائر ، أردنا تعزيز هذه الدراسة الكلية ، بدراسة قياسية نختبر بها الأثر الذي يمارسه الدور الحكومي من خلال السياسة الجبائية غير النفطية على النمو خارج قطاع النفط ، بمعنى كيف يمكن لهذه الجباية أن ترتقي بالقطاع غير النفطي في ظل فرضية وجود علاقة بينهما.

ومن أجل إجراء هذه الدراسة اقترحنا الأدوات الإحصائية التالية:

- النمو خارج قطاع النفط ,هو المتغير التابع ورمزنا له بالرمز LPIBHH.
- إيرادا الجبائية العادية ، وهي المتغير المستقل الأول LRFO .
- إيرادات غير جبائية ، مثل أرباح البنك المركزي ، وتمثل المتغير المستقل الثاني LRNF.
- حجم العينة ، نظرا للتناقض الكبير من مصادر المسح الإحصائي, وعدم دقة بعض المعطيات لم نتمكن من جمع الا عينة حجمها n=37 مشاهدة.
- الاستعانة ببرنامج stata14.

وبعد التقدير بواسطة طريقة المربعات الصغرى العادلة, وإجراء الانحدار للنموذج المقدر بواسطة Eviews9

$$\hat{PIBHH} = \hat{B}RFO + \hat{B}RFH$$

تحصلنا على ما يلي:

$$PIB = 4.87 - 0.21RFO + 0.06RNF$$
$$t = (1.84)t = (-014)t = (0.36)$$
$$R^2 = 0.06, F = 0.05, DW = 0.87$$

ومن دون أي تركيز ,ومن الوهلة يمكن أن نحكم على ضعف النموذج من الناحيتين الإقتصادية والإحصائية.

وبعد إدخال اللوغاريتم, وتحويله إلى نموذج لوغريتم مضاعف تحصلنا على النموذج التالي:

$$LPIBhh = \underset{(1.16)}{3.52} \underset{(-0.87)}{-0.77LRFO} + \underset{(1.4)}{0.44LRNF}$$
$$R^2 = 0.07, F = 099, DW = 0.96$$

(القيم بين القوسين تمثل إحصائية t .student)

نلاحظ أن الصيغة اللوغارتمية لم تؤثر على معنوية هذا النموذج لا من الناحية الاقتصادية كوجود إشارة سالبة للجباية العادية, ولا من الناحية الإحصائية مثل قيمة معامل التحديد القريبة من الصفر.

ولهذا يجب التفكير في منهجية التقدير, ودراسة سلوك المتغيرات والسلاسل الزمنية.

دراسة فترات الإبطاء: أن من خصائص السلاسل الزمنية هي تغير السلوك عبر الزمن ، والمسار الديناميكي للسلاسل الزمنية قد لا يظهر في اللحظة ذاتها, ولهذا وجب علينا معرفة فترات الإبطاء أو الفجوات المثلى لعملية التأخير وفي حقيقة الأمر, لا يوجد هناك مقياس محدد لعدد فترات الإبطاء غير أن هناك من يرى بأن هذا يتوقف على إختبار LM ، أو الإرتباط الذاتي التسلسلي فعندما يصبح هناك إرتباط تسلسلي نتوقف عن التأخير ، وعندما درسنا المعيار الأمثل لفترات الإبطاء وجدناه موضحا في الجدول التالي:

معايير فترات الإبطاء المثلى:

التعيين	Log L	AIC	BIC	HQ	Adj.R- sq.
ARDL(1.1,0)	-5.29	0.94	1.23	1.01	0.53

بالإعتماد على مخرجات برنامج stata 14.

وكما أشرنا سابقا حول فترات الإبطاء ، وعدم معيارية الأخذ بها فإن إحدى الفترات المثلى استخدم صيغة الابطاء التاليARDL هي الفترة المشار إليها في الجدول السابق بمعنى أن:

- LPIBHH:تؤخر بفجوة واحدة.
- LRFO:تؤخر بفجوة واحدة.
- LRNF: لا تؤخر.

وهذا أصل تسمية هذا المنهج وهو الإنحدار الذاتي ذو الإبطاء الموزع ، وهو أحد أحدث نماذج الانحدار الذاتي ، ومن خصائصه:

- إمكانية تطبيقه في العينات الصغيرة.
- اختلاف إستقرارية السلاسل الزمنية ، وتكاملها ما بين الدرجة الصفر والدرجة الأولى.
- بإمكانه فصل التقدير في الأجل الطويل عنه في الأجل القصير ، وذلك باستخدام المرونة.

لكن قبل أن نقوم بعملية تقدير هذه العلاقة, واختبار مدى تكامل متغيرات هذه السلاسل الزمنية يجب علينا أولا دراسة الإستقرارية وصفه السكون.

دراسة الإستقراية أو صفة السكون: اختبارات الإستقرارية عددية منها ما يعتمد على الشكل البياني مثل: Box- Pierce أو Ljung- Box ومنها ما يعتمد على إجراء الفروق وهذه الاختبارات عديدة غير أن البعض وفي العينات الصغيرة يفضل إختبار Phillips- perron عن باقي الاختبارات مثلDF و ADF و KPSS.

جدول رقم 04 إختبار: Phillips-Perron

المتغير	فترات الابطاء المثلى	Adj. t. stat	المعنوية		القرار
$LPIB_{HH}$	1	-4.27	%10	-3.72	I(0)
			%5	-2.98	
			%1	-2.63	
LRFO	1	-2.78	%1	-3.72	I(1)
			%5	-2.98	
			%10	-2.63	
LRNF	0	-3.91	%1	-3.72	I(0)
			%5	-2.98	
			%10	-2.63	

من خلال الجدول نلاحظ أن كل سلاسل مستقرة معنوية 10% بمعنى عدم إحتوائها على الجذر الأحادي عند هذا المستوى من المعنوية ، فهي متكاملة من الدرجة الصفر لكن عند مستوى معنوية 1% فإننا نرفض الفرضية الصفرية لكل من LRFO و LRNF نظرا لعدم استقرارهما إلا عند الفرق الأول, وعند الفرق الأول يصبح

للسلسلة جذر أحادي ,وبالتالي نقبل الفرض البديل ,وبشكل عام فإن إستقرارية هذه السلاسل الزمنية له مدلولية اقتصادية.

اختبار التكامل المشترك: بعدما قمنا باختبار إستقرارية السلاسل الزمنية ورأينا مدى سكونها في المستوى بصفة عامه نختبر الآن إمكانية وجود أشعة تكامل مشترك بين متغيرات النموذج, والاختبار المناسب عند القيام باستخدام منهج ARDL هو اختبار الحدود ,والذي يعتمد على مقارنة قيم F غير المعيارية بين الحدود المعروفة حسب مستويات المعنوية وهي:

I(0): تكامل من الدرجة 0.

I(1): تكامل من الدرجة الأولى.

ففي حالة وقوع قيمة F غير المعيارية أقل من I(0) ، فهذا يعني عدم وجود علاقة تكامل مشترك على المدى الطويل ، ولا داعي للتقدير باستعمال نماذج تصحيح الخطأ او نماذج اشعة الانحدار الذاتي ، ونعتمد على استخدام طريقة OLS مع ضرورة تحسين النموذج المقدر.

أما في حالة وقوع نفس القيمة بأكثر من I(1) في كل درجات المعنوية ، فهذا يعني وجود تكامل مشترك ، وفي حالة كون متغير واحد فقط يتميز بهذه الميزة ، نسمي هذه الحالة تكامل مشترك فريد وهذا حسب اختبار الحدود ، أما في حالة وقوع نفس القيمة غير المعيارية بين I(0) و I(1) فلا يمكن الخروج بقرار وعلينا تغيير العلاقة الدالية بين المتغيرات.

وفي حلتنا هذه نختبر العلاقة التوازنية طويلة الأجل (التكامل المشترك) بهذه الصيغة.

$LPIB_{HH}= f(LPIB_{HH}/LRFO,LRNF)$

بمعنى أننا نختبر التكامل المتزامن عندما يكون $LPIB_{HH}$ هو المتغير التابع ، وهذا حسب الجدول التالي:

جدول 05: إختبار الحدود.

العلاقة	K	F.statistic	المعنوية %	I(0)الحد	I(1)الحد
f(LPIBHH/LRFO.LRNF)	2	10.7	10	3.17	4.14
			5	3.79	4.85
			2.5	4.41	5.52
			%1	5.15	6.36

من إعداد الباحث بناء على مخرجات برنامج14 stata

وحسب الجدول السابق نلاحظ وقوع قيمة F.غير المعيارية

أكبر من قيمة I(1) لكل مستويات المعنوية مما يعنى ,وجود علاقة توازنية طويلة الأجل بين $LPIB_{HH}$ كمتغير تابع وباقي المتغيرات المستقلة ، وهذا يعني أننا سوف نقدر هذه العلاقة التوازنية ، نماذج تصحيح الخطأ , مع الإشارة أننا نختار نموذج UECM ,أي نموذج تصحيح الخطأ غير المقيد.

ومن خصائص التقدير منهج ARDL أنه نفصل مقدرات الأجل القصير عن مقدرات الأجل الطويل

التقدير في الأجل القصير المتغير التابع هو $D(LPIB_{HH})$

المتغير	القيمة	الإحتمال
$DLPIB_{HH(-1)}$	0.61	0.00
DFRFO	0.25	0.13
DLRNF	1.22	0.003
Coint Eq(-1)	-0.29	0.01

التقدير في الأجل الطويل "المتغير التابع هو $LPIB_{HH}$

المتغير	القيمة	الاحتمال	المؤشر	
$LRFO_{(-1)}$	1.99	0.008	R^2	0.89
LRNF	0.4	0.03	F	18.43
C	8.46	0.087	D-W	1.8

ومن خلال تحليل هذه العلاقة على الأمدين الطويل والقصير نلاحظ ما يلي:

1- وجود علاقة عكسية من LRFO والمتغير التابع لكنها غير معنوية, ويظهر هذا في المرونة السالب.

2- وجود علاقة موجب بين LRNF والمتغير التابع بالإضافة إلى كونها معنوية.

3- إشارة معلم حد تصحيح الخطأ جاءت سالبة ومعنوية ,وهذا يعني أن الوضع الذي يأخذ هذه العلاقة للعودة إلى الوضع الأصلي يقدر بحوالي 29% أي بمعنى أنه كي يعود $LPIB_{HH}$ إلى وضعه الأصلي ,ويصحح انحرافه يلزمه من الوقت 1/0.29=3,44, 1-3,44 = 2,44أي حوالي ثلاث سنوات في حالة انحرف المتغير المستقل مدة سنة انطلاقا من ان البيانات هي عبارة عن معطيات سنوية.

4- أما في المدى الطويل فإن علاقة LRFO بالمتغير التابع تصبح موجبه ,ومعنوية وهذا ما تقتضيه النظرية الإقتصادية.

5- وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقة LRNF بالمتغير التابع.

6- أما بالنسبة للمعايير الإحصائية التقليدية مثل R^2=0.89 وF=18.43 فقد دعمت المعنوية الاحصائية للنموذج

في ما يخص احصائية D-W فانها في هذه الحالة تتحيز حول قيمة (2) لان المتغير التابع محدد بمتغير تابع مؤخر اي $LPIB_{HH(-1)}$ وهذا سبب التحيز وفي هذه الحالة نستبدل اختبارD-W باختبار آخر هو h-durbin يعتمد على قيمة ρ حيث

$$\hat{\rho} = 1 - \frac{DW}{2} = 0.1$$

$$h = \rho \sqrt{\frac{n}{1 - n(\delta^2 t - 1)}}$$

$\delta^2 \gamma_{t-1}$ تباين المتغير التابع المؤخر(المحدد سلفا)

وفي حالتنا هذه هو تباين $LPIB_{HH}(-1)$

$h = 0.1\sqrt{\frac{26}{1-26(0.018)}}$ وهذه القيمة هي 0.69 وهي اقل من القيمة الجد ولية للتوزيع الطبيعي اي z= 1.96 > 0.69 وبالتالي نقبل الفرضية الصفرية أي لا يوجد إرتباط ذاتي للأخطاء في هذا النموذج

جدول رقم06 الإختبارات التشخصية:

وهي بعض الإختبارات المساعدة التي تمكننا من معرفة مقدرة النموذج وكفاءته التنبؤية.

الاختبار	المعيار	القيمة	الاحتمال	القرار
خطأ التحديد	RESET	F=0.032	0.85	لا يوجد خطأ في تحديد النموذج
طبيعة البواقي	Jarque-Bera	J B=1.68	0.43	الأخطاء تتوزع توزيعا طبيعيا
الارتباط الذاتي التسلسلي	LM	n.R=1.93	0.47	لا يوجد إرتباط ذاتي تسلسلي
تجانس التباين	ARCH	n.R=1.47	0,25	التباين متجانس

خاتمة:

1-النتائج:

- يمثل الدراسة السابقة علاقة إنحدارية من متغيرات إقتصادية كلية تتمثل في النمو خارج قطاع النقط المحدد بواسطة إيرادات الجبائية العادية ,وإيرادات غير جبائية.
- العلاقة الخطية بطريقة OLS بينت ضعف النموذج قياسيا وإحصائيا.
- بعد إدخال اللوغارتم العشري على نفس النموذج لم نتمكن من تحسينيه.
- اخترنا منهج الإنحدار الذاتي ذا الإبطاء الموزع المعروف اختصارا بمنهج ARDL من أجل تقدير هذه العلاقة للأسباب التالية:
- ملائمته للتقدير عندما يكون حجم المشاهدات قليلا.
- لا يحتاج أن تكون أشعة السلاسل الزمنية من نفس درجة التكامل, ما عدا حالة وجود تكامل من الدرجة الثانية.
- إمكانيه فصل العلاقة التوازنية طويلة الأجل عنها في الأجل القصير.
- يقوم المنهج هذا من خلال تسميته على فكرة توزيع فترات التأخير أو الإبطاء من المتغيرات ولهذا كانت الفترة المثلى هي ARDL (1، 1 ،0)
- تعتمد فترات التأخير على بعض المعايير منها AIC ، BIC وغيرهما والتي تأخذ أدنى قيمة.
- بينما معيار معامل التحديد المصحح يقوم على فكرة أعلى قيمة.
- لا يوجد مقياس موحد يحدد فترات الإبطاء ,غير أنه يمكن إعتماد معايير الإرتباط الذاتي التسلسلي باختبار LM, ففي حالة كونه معنويا أي إحتماله أقل من 5% فإننا نتوقف عن التأخير عند تلك الفجوة.

- إعتمدنا في دراسة الإستقرارية على إختبار P-P الذي يناسب حالة العينات الصغيرة, وقد بينت نتائج هذا الإختبار سكون السلاسل الزمنية بصفة عامه سواء في المستوى أو في الفرق الأول ، مما يعني تكاملها من الدرجة **0** و الدرجة**1**.

- تماشيا مع تطبيق منهج ARDL ,فقد إستخدمنا إختبار الحدود الذي أكد لنا وجود تكامل مشترك فريد من المتغيرات لما كان $LPIB_{HH}$,هو المتغير التابع ,مما يؤكد وجود علاقة تزامنية طويلة الأجل من السلاسل الزمنية للمتغيرات.

- ولهذا السبب قمنا بتطبيق أسلوب تصحيح الخطأ غير المقيد أي ARDL-UECM.

- تم تقسيم العلاقة التوازنية إلى طويلة الأجل ، وقصيرة الأجل وفق المرونات.

- بالنسبة لتفاضل RFO فقد جاءت مرونتها سالبة ومعنوية ، أما عن تفاضل RNF فقد كانت مرونته موجبة ومعنوية وهذا تحقيق للعلاقة للاقتصادية بين المتغير التابع والمستقل.

- بالنسبة لمعلم تصحيح الخطأ, وكما أشرنا سابقا فهو سالب ومعنوي, ويؤكد سرعة التعديل والعودة إلى الوضع التوازني.

- في حين أن الأمد الطويل تميز بما يلي:

- تحولت مرونة LRFO من سالبة إلى موجبة , وأصبحت ذات مدلولية إحصائية.

- في حين بقيت مرونة LRNF موجبة المعالم مع تمتعها بمدلوليه إحصائية

- تحقق النظرية الاقتصادية القائلة بوجود علاقة موجبة بين $LPIB_{HH}$ ومحدداته.

- جاءت المؤشرات الإحصائية الأخرى ذات دلالة إحصائية ,كمعامل التحديد وقيمة F..

- اختبارh. durbin الذي هو إختبار معوض لاختبارD-W ، في مثل هذه الحالة "عندما يتحدد المتغير التابع بمتغير تابع مؤخر ، او محدد سلفا, و قد تأكد عدم وجود إرتباط ذاتي للأخطاء في النموذج حسب هذه الاختبار.

- بالنسبة للاختبارات التشخيصية فقد كانت كلها إيجابية وهي:

- طبيعية البواقي "البواقي تتوزع توزيعها طبيعيا".

- خطأ التحديد في النموذج غير موجود اي اننا وفقنا في تحديد المتغير التابع

- عدم وجود ارتباط ذاتي تسلسلي, ويتم التوقف عن التأخير عند الفجوة الثانية.

- تباين الخطأ ثابت كما أكده اختبارARCH .

- ومن خلال الاختبارات هذه نؤكد أن الأخطاء تمثل ضجيجا أبيض White noise.

2 - التوصيات :

على ضوء النتائج المستوحاة من الدراسة, وبنظرة شاملة للاقتصاد الجزائري نقترح التوصيات التالية من اجل تعزيز الدور الحكومي من خلال السياسة الجبائية المسطرة :

-ضرورة إصلاح السياسة الجبائية ,وإيجاد التوازن بين ترشيد النفقات العامة وتنويع الإيرادات غير النفطية ,وهذا بعيدا عن النفط .

-ضرورة تكييف الايرادات العامة بشكل يسمح للجزائر بتحقيق مستويات ملموسة من معدلات النمو

-ضرورة إيجاد مستويات مضمونة من الرخاء الاجتماعي وللتحكم في الأسعار والتحكم في معدل الضغط الجبائي.

-الاهتمام بمرونة الجهاز الإنتاجي في قطاعي الزراعة ,والصناعة لأن الجهاز يضمن تحقيق مستويات مهمة من النمو خارج النفط , وذلك عن طريق الجباية العادية لهذين القطاعين

-تنويع موارد صندوق ضبط الايرادات ,و توسيعها الى ايرادات الجباية العادية كذلك

-اتخاذ إجراءات تتعلق بمعالجة الأسباب الهيكلية لتحقيق النمو خارج النفط في الجزائر من خلال تفعيل الجهاز الإنتاجي

-الاهتمام بالمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ,لأنها فعلا تمثل أحد مقاييس التطور الاقتصادي لبلدان العالم ,

-ضرورة إيجاد مستويات عادلة للجباية العادية, بما يتماشى مع الظروف الاجتماعية خصوصا, وأن غالبية المجتمع الجزائري تمثل الطبقة المتوسطة

المراجع والاحالات:

1الهادي خالدي: المرأة الكاشفة لصندوق النقد الدولي. دار هومة ، الجزائر 1996 ، ص116.

2 درواسي مسعود السياسة المالية ، ودورها في تحقيق التوازن الاقتصادي ، 2005 ، ص222.

3 بنك الجزائر 2014 ، .24 Anx.stat.

4 صندوق النقد العربي التقرير الإحصائي العربي الموحد 2011.

5 المجلس الوطني الاقتصادي ، والاجتماعي 2003-2004.

6 زين العابدين بري: العلاقة بين الإنفاق الحكومي ، والنمو الاقتصادي في المملكة العربية السعودية لفترة 1970-1998 ، مجلة الاقتصاد والإدارة ، العدد 2 ، جامعة الملك عبد العزيز ، 2001 ، ص49.

7 بوزيان عبد الباسط دور السياسة المالية ، في استقطاب الاستثمار الأجنبي ، دراسة حالة الجزائر 1994-2004 ، الجزائر 2007 ص 55

8 بن عناية جلول: أثر السياسات الجبائية على النمو الاقتصادي ، في المدى البعيد ، ENSSEA ، الجزائر 2011 ، ص184 .

9 جاب الله مصطفى ، قياس العلاقة بين الانفاق الحكومي والنمو الاقتصادي ، حالة الجزائر ، اطروحة دكتوراه جامعة الجزائر 3 ، سنة 2015 ، ص 221

10 عبد المجيد قدي فعالية التمويل بالضريبة في ظل التغيرات الدولية ، دراسة حالة النظام الضريبي الجزائري 88-95 ، جامعة الجزائر ، ص 133.

11 المديرية العامة للضرائب.

12 Ministère des finances : la situation économique. Et financière a la fin de 2011 ، nov. 2012 n°= 18033.

13 ONS : collections statistiques N°=176/2012 série E.

14 ONS l'Algérie en quelques chiffres résultat 2012/2013 N°=42 éd 2014 opérations ، Des trésor DGPP

15 Finance & développement / décembre2001. P 88.

16 La lettre de la DGI ، janvier 2002 ، n°003.

Perspectives ، n°19 ، séminaire du 11 au 17/07/1991.

17 La lettre de la DGI vos impôts pour 2003.

18 Perspectives ، n°19 ، séminaire du 11 au 17/07/1991.

19 Amar Kandil ، théorie fiscale et développement ، "l'expérience algérienne" SNED 1970

المقاربات التعليمية في ضوء الاستراتيجيات الحديثة

The Educational Approaches In The Light Of The New Strategies

أ.د. عبد المجيد عيساني ، جامعة قاصدري مرباح ورقلة- الجزائر

يعتبر التعليم والتّعلّم في عمومه ركيزة الحياة البشرية بمختلف أنواعها ، لأن التعليم رسالة عظمى في حياة المجتمعات ؛ باعتباره مفتاح التفاعل مع الذات والمحيط. لذلك يُعدُّ من أرقى المهمات التي تهتم بها الأممُ بشكل عميق وبصفة مستمرة. ومن التحديات الكبرى التي تواجه تعليمية اللغة العربية في مختلف الأقطار العربية وغيرها مشكلة كيفيات تدريسها في مختلف المستويات التعليمية الجامعية وغير الجامعية. ويقرّ كل من يتتبع الوضع الراهن للغة العربية الفصيحة تعليما وتعلما وممارسة وتوظيفا ، ومن خلال مستويات المتعلمين ، بأنها تعيش وضعا متدنيا غريبا في مختلف المؤسسات الحيوية العامة والإدارات الرسمية للمجتمع. والغربة التي تعيشها اللغة العربية في الإدارات والمؤسسات الحيوية التي تشكل كيان المجتمع على اتساعه تعكس حجم وطبيعة المضايقات التي تحاصرها وتخنق أنفاسها.

وأزمة تعليم وتعلم اللغة العربية مسألة ذات أبعاد متعددة ، تمثلت ملامحها في العديد من الأوساط ، منها تدني مستويات المتخرجين من المنظومات التربوية العربية على تفاوت ، بسبب السلبيات والاختلالات في المقررات والمناهج والأداءات البيداغوجية جراء السياسات اللغوية المنتهجة. وقد يسعى الفرد بكل طاقاته أن يُعلِّم نفسَه أو أن يتعلَّم من غيره بشتى الوسائل بغية تجاوز العقبات ، ولكن تظل العوائق قائمة ما لم تأخذ المؤسسات الرسمية المسألة بجدية كاملة وفق استراتيجيات علمية شاملة.

ولقد كرست المنظومات التعليمية مقاربات وطرائق قديمة إلى حد ما ، وظلت سائدة في مختلف المنظومات بالرغم من التطور الاجتماعي الحاصل في مختلف الميادين. وكانت النتيجة الضرورية هي تدني مستويات المتعلمين إلى الحدود غير المقبولة مما ينبئ عن مخاطر جسيمة لدى الأجيال الحالية والقادمة. لذلك نبّه كثير من الباحثين في تعليمية اللغة العربية إلى ضرورة البحث عن مقاربات وطرائق أكثر سلاسة وأعمق أثرا وصولا إلى تعليم جيد ومتميز. وفي الموضوع هذا أردنا البحث في الطريقتين وصولا إلى التمييز الدقيق بين إيجابيات وسلبيات كل صنف ، عملا على التغيير إلى ما هو أجدى وأنفع.

أولا: المقاربات التعليمية في المنظومات التربوية العربية وطرائقها:

لقد عرفتْ مسيرةُ المنظومات العربية في مختلف أطوارها في العصر الحاضر منذ ظهور التعليميات التطبيقية الحديثة في منتصف القرن العشرين عددا من المقاربات والأساليب ، تراوحت بين النجاح في جوانب ، والفشل في جوانب أخرى ، وتقلبت تكرارا بحثا عن الجديد والأنجع ، فوفقت جزئيا في جوانب ، ولكنها لم تصل بعدُ إلى الحدِّ المرضيِّ. وانطلاقا من هذا الوضع الذي عايشتُ بعضَهُ أو جزءا من مسيرته على الأقل ، رأيت أنّه من الضروري في موضوعي هذا ، في محور التعليمية أن أتصفح بقدر ما يسمح به العنوان أشهر تلك المقاربات والتطرق إلى مختلف الرؤى التي انتقدتها أو ثمّنتْها بناء على واقع ما زالت أغلب البلدان في العالم تسلكه في منظوماتها التربوية. وأهمها: المقاربة بالمضامين ، والمقاربة بالأهداف ، والمقاربة بالكفاءات ، والمقاربة النصية.

أ) المقاربات التقليدية:

1. المقاربة بالمضامين: تعتبر المقاربة بالمضامين من المقاربات القديمة التي عرفت في الحقل التعليمي. وهي مقاربة بسيطة لا تعتمد على رؤية فلسفية عميقة كما هو الحال في المقاربات الجديدة التي استفادت من علوم

مختلفة لها علاقة مباشرة بشؤون المتعلم وقضايا اللغة وتشابكاتها المتعددة. ولذلك فهي مقاربة تقليدية بامتياز ، حيث كانوا يتصورون أن المولود صفحة بيضاء ، وأنهم قادرون على أن يرسموا في تلك الصفحة ما يريدون ، فوضعوا مقررات وبرامج وصيغتْ جملة من مواد دراسية ، وطرائق وأهداف تدريسية وتربوية ، مركزين على تنشئة الجانب العقلي وحشوه وتكديس المعارف بعضها على بعض لا غير. ومن أبرز سمات هذه الطريقة ، اعتماد أسلوب الإلقاء التقريري وسيلة مناسبة في التدريس ، وغلبة الطابع الاستعراضي المهيمن من قبل المعلم باعتباره السلطة الوحيدة والمصدر الأساس في التلقي.

ولا شك أن هذا النوع من المقاربات بالعودة إلى تاريخ المنظومات التربوية في تناول موضوع تعليمية اللغات نجد جذوره الأولى تعود إلى عصر ابن خلدون (2001) حين أورد في مقدمته بعض ملامح تلك المقاربة وهو يتحدث عن طرق التعليم ، ذكرا: "أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا ، يلقى له مسائل من كل باب ، ويفصل له في شرحها على سبيل الإجمال ، حتى ينتهي إلى آخر الفن ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين ، ويخرج عن الإجمال(ص ص 143 ، 144)، وهي ثلاث خطوات أساسية هي: التدرج في أخذ المسائل ، وتقديم أوليات العلوم مجملة دون تفصيل ، ثم العودة إلى التفصيل وزيادة التلقين. وقد كان هذا التصور سائدا في مختلف المنظومات التربوية قبل ظهور المدارس النفسية. وظلت هذه التصورات هي الأكثر سيادة ورسوخا ، وظلت النظرة إلى حقل التعليم تسوده الخلفية التاريخية المذكورة.

وخلاصة القول في هذه المقاربة أنها ظلت تقليدية نظريا وتطبيقيا من خلال الممارسات التي أكدت جملة من المعطيات والملامح ظلت قائمة إلى وقت ليس بالبعيد في وقتنا الحاضر ، وهي بالضرورة تقود مباشرة إلى إيجاد نماذج منغلقة في التصور والرأي والتنوع ، متحجرة إلى حد بعيد تنأى عن كل نقد أو حوار. وأهم الملامح القائمة حينها يمكن حصرها في عدم إيلاء أي اعتبار لميول المتعلم ورغباته وحاجاته الضرورية وقدراته ، لا فرق بين الموهوب والبسيط ، ولا بين الذكي والأقل ذكاء ، وكذا عدم مراعاة مختلف المكونات النفسية والحسية التي يمكن أن تساعد أو أن تثبط العملية التعليمية ، ونعني بذلك مختلف الحالات الوجدانية التي يتوفر عليها المتعلم ، ومختلف المهارات الجسدية التي يتمتع بها كذلك وظروفها. إضافة إلى أن نظام التقويم في هذا التصور لا يخضع للشروط الموضوعية والمنهجية ، حيث المعلم هو وحده من يقوّمُ عمل التلميذ ، ويقدّر تفوقه من عدمه ، باعتبار أن المعلم هو المحور الأساس يستعمل كل طاقاته المعرفية تبليغا وتقويما للمتعلم ، وبالتالي مطالبته بحفظها واستظهارها ، وهو سيد الموقف وصاحب الهيمنة ، أما المتعلم فمساهمته ظلت بسيطة وضئيلة.(محمد الدريج ، 2000 ، ص52)

02. **المقاربة بالأهداف**: تعتبر المقاربة بالأهداف من المقاربات التعليمية الحديثة إلى حد بعيد باعتبار سابقتها ، ويذكر المربون أن القصد منها أن يتعلم التلميذ وهو يطمح إلى تحقيق جملة من الأهداف نتطلع أن تظهر في ممارساته وسلوكاته في جميع المستويات ، فعـلا ولفظا وحركـة ، وكذا جملة من التغيرات تحدث على مستوى الاتجاهات والمواقف والأفكار والقدرات المختلفة. (جودت أحمد سعادة ،2001 ، ص139) والمراد بهذا أن التلميذ يكلف بإنجاز أعمال محددة تكسبه خبرات مستهدفة لذاتها ، لكونها أنماطا من الممارسات تقوي دافعية التفاعل عند المتعلم ، وبالتالي تعد الأهداف في ذاتها جزءا من الشبكة التعليمية. ومصطلح "الهدف" لغة يفيد الدقة والإصابة ، وعليه يكون الهدف من العملية التعليمية هو الوصول إلى نقطة نهاية محددة ، هذه النهاية هي الهدف الذي نود الوصول إليه (مادي لحسن ، 1998 ، ص06) وبناء على ذلك يعد الهدف من الناحية التربوية هو السلوك المرغوب الذي يتحقق لدى المتعلم نتيجة نشاط ممارس من المعلم والمتعلم سواء ، وهو سلوك قابل لأن يكون موضع ملاحظة وقياس وتقويم. (الدريج محمد ، 2000 ، ص86) وقد وجدتْ هذه المقاربةُ رواجا كبيرا في مختلف الأنظمة التربوية في البلاد العربية ، بحثا عن الأجدى في

ميدان التعليم والتعلم. ويشير المتتبعون إلى وجود مصطلحات ودوال عديدة لمفهوم ومدلول واحد، منها: بيداغوجيا الأهداف وتكنولوجية الأهداف (مادي لحسن، 1989، ص20) والتّدريس بواسطة الأهداف والتّدريس الهادف، وكلّها أسماء لمسمى واحد هو التركيز على الأهداف المحددة مسبق.(وزارة التربية الوطنية الجزائرية ،1995، ص53)

وبالعودة إلى الخلفية المعرفية والجذور التي تعود إليها المقاربة بالأهداف، هناك إجماع كبير من المتتبعين والباحثين في مجال التربية على أن بيداغوجيا الأهداف ترتبط فلسفيا ومعرفيا بالنظرية السلوكية بمختلف توجهاتها، حيث يعتبر السلوكيون أن اكتساب اللغة عند الطفل لا فرق بينها وبين أي سلوك آخر, لأن اللغة شكل من أشكال السلوك. ويدور محتوى النظرية السلوكية حول أن السلوك اللغوي عبارة عن مجموعة من الاستجابات الناتجة عن مثيرات للمحيط الخارجي، مختلفة من حيث أنواعها بين أنْ تكون المثيرات طبيعية أو اجتماعية أو غيرها، حاضرا فعلا أو غائبا خارجيا أو داخليا. وهذا السلوك اللغوي هو الناتج عن تلك الاستجابة لمثير محدد، فإذا تعززت تلك الاستجابة بالتكرار والإعادة، تحولت إلى عادة لغوية راسخة يتعامل بها الطفل بتلقائية، وتصبح ضمن سلوكه اللغوي، وعليه فاللغة في منظورهم شكل من أشكال السلوك الإنساني، ولذلك فإنهم لا يقرون بوجود أي تباين بين مسار تعلمها وتعلم أي مهارة أخرى أو سلوك آخر.(عبد المجيد عيساني، 2012، ص67)

وتتلخص الأهداف التي ترمي إليها هذه المقاربة في عدد من المستويات، تتفاوت وتتكامل بحسب درجاتها، وتتلخص في الغايات العامة التي تشمل الفلسفة العامة للمجتمع بكل أفكاره وعقائده، ومبادئه، والسياسات المختلفة للدولة، للحفاظ على ثوابت وقيم الحضارة التي ينتسب إليها. والغايات التربوية مادة ومنهجا. وجميعها تنعكس في حياة المتعلم وسلوكه، متمثلة في مختلف قدراته ومهاراته وخبراته الجديدة التي يكتسبها من خلال التوجيهات والإرشادات التي يكتسبها في مسيرته التعليمية.

3: المقاربة بالكفاءات: المقاربة بالكفاءات سياسة تربوية ظهرت بداية في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1968، كرد فعل على التقنيات التقليدية القائمة على تلقين المعارف النظرية، وترسيخها في ذهن المتعلم في شكل قواعد تخزينية نمطية. لذلك وأمام الانفجار المعرفي الغزير الذي شهده العالم في جميع المجالات من ناحية، وفي ظل قصور النظام التربوي التقليدي القائم على طريقة التدريس بالأهداف، والقاصر عن تلبية الحاجات والطموحات الفردية والاجتماعية المتزايدة بما يحقق التطور والرقي المنشودين على جميع الأصعدة، كان لزاما على واضعي المناهج في البلاد العربية عموما أن يعيدوا النظر في أوضاع التعليم ونتائجه المتدنية، وتبنّي إستراتيجية جديدة تنأى عن تزويد التلميذ بالمعارف الجاهزة التي يكيفها مبدأ المثير والاستجابة، وتسعى إلى تحويل المعرفة النظرية إلى سلوكات عملية وظيفية ذات قيمة نفعية في حياة الفرد، بحيث لا تكون المعرفة غاية في حد ذاتها، وإنما وسيلة لبناء الكفايات التعليمية المختلفة، التي "تجعل المتعلمين قادرين على الاستخدام الناجح لمجموعة مندمجة من القدرات والمعارف والمهارات والخبرات والسلوكات لمواجهة وضعية جديدة غير مألوفة، والتكيف معها بما يجعلهم يجدون لها الحلول المناسبة، متغلبين على العوائق التي تعترض سبيلهم.(خير الدين هني، 2005، ص ص 57،56) وذلك من خلال طرق التعليم المبتكرة التي سلكتها وكانت وسيلتها لتحقيق مضمون هذه المقاربة، وتتلخص طرقها في التدريس بالمشروع، والتعليم التعاوني، والتعليم بواسطة حل المشكلات، والتعليم الاستراتيجي. وجميعها تجعل من المتعلم شريكا في العملية التعليمية بل هو فاعلها الأساس، ولا يكون المعلم إلا داعما وموجها. وذلك خلافا تماما لبيداغوجيا التدريس بالأهداف التي تأسست على مبادئ النظرية السلوكية. وبالرغم من بعض الايجابيات

الممكنة في هذه المقاربة إلا أن الجانب التطبيقي والممارسات الفعلية لم تكن في مستوى المنصوص عليه نظريا لأسباب عديدة تتفاوت من بلد إلى أخر ومن منطقة إلى أخرى.

مرجعيات نظرية المقاربة بالكفاءات: تعود الأصول النظرية للمقاربة بالكفاءات إلى علوم ونظريات مختلفة، نذكر منها: المذهب النفعي الذي ظهر في النصف الأول من القرن العشرين وغلبت عليه النزعة العلمية الواقعية، أو المعروفة بالفلسفة **البرغماتية**، التي كان لها تأثير هام في الميدان التربوي، منهم الفيلسوف التربوي الأمريكي ديوي جون(Dewey John) زعيم النزعة البرغماتية، الذي يرى أن الإنسان وحدة تسعى باستمرار إلى التكيف مع البيئة التي يعيش فيها، ويعمل على إخضاعها لحاجاته (توفيق حداد وآدم محمد سلامة ،1997، ص75) ثم المدرسة المعرفية التي جاءت ردً فعل على النظرية السلوكية ومعدلة للنظرية اللغوية من حيث أن المعرفية ترى أن الطفل يولد وهو مزود باستعدادات فطرية تؤهله على أن يتعلم اللغة بكفاءة عالية. وهذا يمثل فرقا مع ما قاله تشومسكي الذي تحدث عن موروثات. لذلك فإن مفهوم المعرفة عند بياجيه هي مجموعة آثار الخبرات المترسبة في العقل، نتيجة للربط بين المعلومات البصرية وغير البصرية، ومكان المعرفة هو الذاكرة طويلة المدى، التي هي بمثابة المخزن الدائم لمعلوماتنا المتصلة بالعالم والبيئة التي نحيا فيها. ثم النظرية التوليدية التحويلية على يد اللغوي تشومسكي كرد فعل على النظرية السلوكية وتطبيقاتها التربوية سنة 1957، فقد قدم تشومسكي نقدا شديدا لأراء سكينر (المدرسة السلوكية) وأثبت أن فهم سكينر لطبيعة اللغة فهم خاطئ، ويرى أن اللغة وسيلة تبليغ خاصة بالإنسان، وأن جميع وسائل التبليغ الأخرى التي تصدر عن الحيوانات، قاصرة لا ترقى إلى اللغة الإنسانية. وقد ميز في مجال التعليم والتعلم بين السليقة التي يستوي فيها العام والخاص، والأداء الذي يتباين فيه المتكلمون ويختلفون.(خليل إبراهيم، 2007، ص91) لذلك حدد مصطلحي La compétence الملكة أو الكفاءة أو الكفاية، مقابل Performance وهي الأداء، أو التأدية، أو الإنجاز. والحقيقة أن الفصل بينهما أحيانا يكون تعسفيا، لأن الأداء الجيد لا يحصل إلا إذا كانت هناك كفاءة جيدة، أما الفصل بينهما والتمييز فيكون لتسهيل الدراسة ومعرفة حدود كل مصطلح على حده، وبالتالي فالمتأمل في المقاربات الحديثة في التعليم، يجدها تهتم بالكفاءة بمعزل عن الأداء أو الانجاز.

4: المقاربة النصية: تعد المقاربة النصية من المقاربات الراهنة في أغلب المنظومات التربوية إلى اليوم، وهي بالعودة إلى الجانب البيداغوجي تتخذ هذه المقاربة النصّ محوراً أساسا تدور حوله جميع علوم اللغـة، صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا، فهو المنطلق في تدريسها والأساس في التحكم فيها، وبالتالي تنعكس عليه جميع المؤشرات السياقية التي تظهر في مختلف الخطابات المتداولة، مقاميا وثقافيا واجتماعيا. والمقاربة النصية في مدلولها اللغوي لا تعني سوى الدنو من النص والتعامل مع علوم اللغة بالتقرب منه والتعايش مع سياقاته المختلفة. وانطلاقاً من تفحص المستويات الأربعة المحددة للدراسة، صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا، تتجلى آليات المقاربة النصية من منظور لسانيات النص (سعيد يقطين ،2001، ص15) كما أن البنية تقتضي اعتبار كل التخصصات والانجازات النصية، تكون الإحالة إلى أنظمتها المعرفية من خلال النُّظُم اللغوية نفسها (منذر عياشي، 1998، ص156) وبوجه عام فإن المقاربة النصية تسعى إلى إثراء الرصيد اللغوي للمتعلم من خلال الإجراءات العلمية لمستويات التحليل، والنص هو الحقل الخصب لها دون غيره.

ولا شك أن للمقاربة النصية أهمية بالغة من حيث عدة أوجه، منها: مشاركة المتعلم وجعله يُسهم في بناء معارفه بنفسه من خلال الملاحظة والاكتشاف والتعامل المباشر مع النص، وتعتبره أساس العملية التربوية، بالارتكاز على التعليم التكويني وتعزيز المشاركة والحوار في مختلف نشاطات النص في المجالات المختلفة المعجمية، والتركيبية، والدلالية، والتذوق...الخ، وذلك من خلال الإفادة من رصيد المتعلم وخبرته السابقة، والعمل على تطويرها والبناء عليها انطلاقاً من كون عملية النمو متكاملة، وذلك بناء على أن اللغة

وحدة متكاملة ومترابطة في فروعها. وأشار الباحث منذر عياشي إلى أن هذه المقاربة تهيئ المتعلم إلى الانفتاح على مبادئ إبداء الرأي، والتدرب على إعمال العقل، والتدرب على الشجاعة الأدبية من خلال التواصل الشفهي والكتابي التفاعل الايجابي مع غيره.(منذر عياشي ، 1998 ، ص156) تلكم هي مبادئ المقاربة النصية التي تستند إليها، وهي في مجملها أرادت أن تغير النمط القديم إلى نمط حديث يؤدي فيه المتعلم دورا أساسا في العملية التعليمية ويتعامل مع اللغة في سياقاتها المختلفة أثناء التعرف على قضاياها المختلفة، صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا. وبهذا تكون قد تقدمت خطوة معتبرة إلى حد ما نحو تغيير مطلوب في التعليمية الحديثة، ولكنها تظل في النهاية خطوات غير كافية لمردود جيد نطمح إليه.

ب) الاستراتيجيات التعليمية التقليدية

وهي استراتيجيات قائمة على جهد المعلم غالبا، منها ما هو قديم قدم التعلم في حياة البشرية، وهي استراتيجيات شاعت عند المعلمين القدامى بشتى أنواعهم ومختلف مشاربهم، ونقصد خصوصا(إستراتيجية التلقين والإلقاء)، ومنها ما هو شبه حديث ظهر تماشيا مع متطلبات العصر الحديث من الناحية التعليمية، ونقصد تحديدا إستراتيجيتي الاستقراء وإستراتيجية القياس.

01. **إستراتيجية التلقين والإلقاء:** وهي طريقة "تعتمد على نقل المعلومة إلى المتعلم بصفة مباشرة، وبصورة شفهية. ويلجأ المعلمون إلى هذه الطريقة، لأنها تمكنهم من عرض أكبر قدر من المعلومات في أقصر وقت ممكن وعلى أكبر عدد من الطلاب. (عبد السميع قورة ووجيه المرسي، 2012، ص81). والفارق الضئيل بين التلقين والإلقاء أن التلقين يكون عادة للمبتدئين في التعليم في المراحل الأولى للمتعلم، حيث يُعمد إلى تزويدهم بمادة علمية جديدة، بينما يكون الإلقاء للفئات التعليمية العليا، خصوصا للأعداد الكبيرة كما يحصل اليوم في مختلف الجامعات في العالم. وبناء على هذا المفهوم فهي طريقة تعتمد على جهد المعلم بصفة شاملة تلقينا أو إلقاء، علما أن اعتماد الطريقتين ينبغي أن يكون المعلم على دراية كافية بالمادة العلمية، وبكفاءة عالية من حيث سلامة اللغة والقدرة على الاسترسال الجيد، مراعيا في ذلك المستوى اللغوي والعلمي والعقلي للطلاب تحقيقا لحسن استيعاب المادة، ووضوح الأفكار والمعاني المقدمة خلال الإلقاء.(علي عبد السميع قورة، ووجيه المرسي أبو لبن، 2012، ص83) وفي العموم هي طريقة لم تحقق الأهداف المرجوة ولم تحقق الرغبة المطلوبة عند المتعلمين، وظلت كغيرها من الطرائق العقيمة التي لم تجد نفعا، بل قد يستأنس بها لا غير.

02. **إستراتيجية الاستقراء**: وهي إستراتيجية قائمة على جهد المعلم والمتعلم معا، وهي "عملية تفكير يعيد فيها المتعلم بناء المعلومات السابقة، تمكنه من تكوين مفاهيم أو علاقات أو مبادئ جديدة، وأن يصل المتعلم إلى المعلومات بنفسه، معتمدا على جهده وتفكيره. (محمد حميميد فرحات ،2017، ص30) حيث تساعد المتعلم على تذليل صعوبات تعلم مفردات اللغة وتجديد معارفه اللغوية وإعادة النظر فيها، كما أنها تعرّضه لظواهر لغوية جديدة يستفاد منها في تحصيله اللغوي فتنمي رصيده اللغوي باستمرار. وتتضمن المراحل الإجرائية التالية: الشعور بالمشكلة، وتحديد المشكلة وجوانبها، ووضع حل تجريبي للمشكلة وفحصه أثناء البحث، والوصول إلى قرار وتطبيقه في مواقف عديدة.(محمد محمود الحيلة. 2009، ص ص192 ، 194) وهذه الإستراتيجية يستند عليها غالبا في الأنشطة ذات النمط القاعدي المحكم كنشاط النحو والصرف وبعض علوم البلاغة، ولا شك تعدّ تجربة من بين عدد من التجارب في حقل التعليمية، قد تؤتي أكلُها مع فئات معينة وقد تفقد جدواها مع غيرهم.

03. **إستراتيجية القياس:** تأتي إستراتيجية القياس على النقيض تماما من سابقتها (الاستقراء) **و**تعتبر هي كذلك من أقدم طرائق تدريس النحو، يتم فيها تقديم القاعدة، ثم تقاس عليها أمثلة وشواهد من أجل فهمها وتثبيتها.

وبالرغم من بعض المميزات الايجابية التي لا تتعدى الجوانب الشكلية، ومنها اختصار الوقت، وإراحة المعلمين من كثرة النقاش وتفريع الخلافات، إلا أن عيوبا كثيرة تكتنف هذه الإستراتيجية كغيرها من الطرائق التقليدية، وأبرز تلك المساوئ تتمثل في أنها تعود المتعلم على الحفظ والمحاكاة العمياء، وعدم الاعتماد على النفس والاستقلالية في البحث، وتضعف قدرتهم من حيث الإبداع والابتكار، وتحول بينهم وبين جودة الفهم لأنها تبدأ بالأحكام العامة الكلية ثم تنتهي بالجزئيات مما يؤدي إلى نفور المتعلمين من دراسة النحو.(علي أحمد مذكور، 2000، ص301)

هذا النوع الأول الذي يشمل المقاربات الأربعة، وأقصد مقاربات (المضامين والأهداف والكفاءات والنصية)، وبالرغم من الايجابيات الكثيرة التي حققتها بعد التعديلات والتحسينات المستمرة والتركيز في بعضها على المتعلم إلى حد ما وجعله محور العملية التعليمية، ومع ذلك لم تفلح في الخروج بالتعليم إلى تحقيق الطموحات المنتظرة، والدليل أن المخرجات العلمية في التعليمية ظلت متواضعة جدا، وبالتالي ظلت عاجزة إلى اليوم على الأقل تطبيقيا لإيجاد نموذج تعليمي متميز. ويرى أغلب الملاحظين والمتتبعين بتطبيق المقاربات السابقة بما في ذلك المقاربة النصية في المجال التربوي أن عدم تحقيق النتائج المرجوة منها، يعود إلى عدد من الأخلال تتعلق بأطراف العملية التعليمية (معلما ومتعلما ومادة). أما فيما يتعلق بالمعلم يعود عزوفه بل وعدم قدرته على استخدام المقاربة النصية مثلا إلى ضعف زاده المعرفي، وعدم فهمه وإلمامه بالتوجيهات المنصوص عليها في التوجيهات التربوية التي تقرب المفاهيم وتيسر المقاصد من المقاربة، وذلك لقلة التربصات والتكوينات المستمرة المفترضة للمعلمين والممارسين، والتي من المفترض أن يظل المعلم مواكبا لها لمعرفة مختلف التطورات الحاصلة. وكذا قلة علمهم بواقع اللسانيات عامة والتعليمية منها خاصة، وهذا أمر ذو شأن عظيم، فإذا كان المعلم ذاته يفقد الشيء فكيف به يستطيع ممارسته أو تدريب متعلميه عليه. أما فيما يتعلق بالمتعلم فيعود لعدم تهيئته علميا من معارف ضرورية أولية وسابقة لمسايرة المستوى المطلوب، ويرجع ذلك لأسباب عديدة يطول سردها في هذا المقام، منها أن المتعلمين الذين يتفاوتون في القدرات والمدارك، ويفدون من أوساط اجتماعية متنوعة من حيث المستويات التعليمية والثقافية، وغيرها جميعها لا تهيء المناخ العلمي المفترض داخل الصفوف التربوية وخارجا، وعليه ستكون من العوائق التي تحول دون تحقيق هذه المقاربات. أما فيما يتعلق بغير المعلم والمتعلم فيرجع إلى قلة المعينات التعليمية وخاصة الوسائل الحديثة التي تؤثر في المتعلم وتشد انتباهه، لأنه من المفيد جدا أن نشير إلى أن دمج التقنيات في التدريس يؤدي إلى جذب انتباه المتعلمين نحو الدرس، وكسر شوكة الملل من الحصة، لأن الوسائل تضفي نوعاً من الجاذبية للمتعلمين، وأهمها الوسائل السمعية البصرية في العصر الحديث، لما تتصف به من خصائص تشويقية وفنية في عالم تؤدي فيه الصورة دورا فاعلا ومؤثرا في النفوس، ونظرا لما يوظفه من الحواس البشرية في الإنسان، ولما تعرضه من "الأدوات والمواد التي تعتمد على حاستَيْ السمع والبصر معا". (عبد المعطي حجازي، 2009، ص132) ونظرا لهذا الدور الفاعل أظهرت دراسات أكاديمية أن الطفل العربي يقضي قرابة العشرين ساعة وأكثر أسبوعيا أمام التلفاز، مؤكدة أن البدايات الأولى تتم في وقت مبكر اقتداء بسلوكات الكبار في مشاهدتهم للتلفزيون، حينها سرعان ما يشرع الطفل في الاستطلاع على عالم التلفزيون الفسيح والمتنوع، (سامية أحمد علي، ص243) ولقد تطورت التقنيات الحديثة تطوراً مذهلًا في الوقت الراهن، وأصبحت متسارعة إلى حد كبير، لذا ينبغي مراعاة ذلك التطور الذي ينعكس على حياة الأطفال في جانبه اللغوي، يضاف إلى هذا مسألة الوقت المخصص للنشاط، وإلى وجل القضايا الفنية المساعدة كالإدارة المتخصصة والمناسبة التي تسهل العديد من القضايا. ويكمن الأمل الوحيد لنجاح هذه المقاربات في ضرورة توفير هذه النقائص. إنّ مختلف هذه المقاربات التي سادت مختلف المنظومات التربوية

تصيب في جوانب وتعجز في غيرها ، فليس ثمة من كمال تام إلا إذا فكرنا مليا في لملمة الإيجابيات المتوفرة وُصولا إلى ما نطمح إليه.

ثانيا: المقاربات التعليمية الحديثة وطرائقها: هذا النوع الثاني من المقاربات يشكل نقلة نوعية في مجال تعليمية اللغة ، فهو مجال يقوم على مبدأ بالانتقال من تعليم اللّغة ذاتها إلى تعليم التّواصل باللّغــة والتفاعل معها في مختلف سياقاتها. أي الانتقال من أن يكون هناك وسيط بين اللغة المستهدفة والمتعلم وهو لا شك المعلم وما يقوم به من جهد بليغ إعدادا وإلقاء ، إلى إزاحة هذا الدور الكبير للوسيط وجعله دورا موجها ومرشدا ، وترك المتعلم يتفاعل مع اللغة ذاتها ، ويتواصل بها بالطرائق المناسبة التي ستكون محل حديثنا في المقاربات التالية المتمثلة في: المقاربة التواصلية ، والمقاربة التّكاملية ، والمقاربة الوظيفية ، ومقاربة الانغماس اللغوي.

أ) المقاربات التعليمية الحديثة:

1. المقاربة التواصلية: يعد مصطلح التواصل أساسا في هذه المقاربة باعتبار أن من أسمى وظائف اللغة وظيفة التواصل ، لذلك تأتي هذه المقاربة الحديثة إلى تجسيد مبدأ التواصل باللغة مباشرة والتفاعل معها ، عملا على تسهيل عملية التواصل باللغة باعتباره الهدف المرجو من تعلم اللغة ذاتها ، وذلك وفقا لخطط تربوية محددة يرسمها التخطيط اللغوي وفق المعايير التربوية المعهودة. والتواصل الذي نعنيه هو التعامل باللغة منطوقة باعتبار الأصل وكذلك مكتوبة باعتبار الكتابة تمثيلا للغة وأنه لا غنى عنها في التعامل اللغوي اليومي في حياة المجتمعات البشرية ، والمقاربة التواصل تعمل على تحقيق هذين الشكلين المعهودين بين المتعاملين في مختلف المستويات في حدها الأدنى على الأقل. وبناء على ذلك دعا الباحثون والمربون وخبراء التعليمية إلى ضرورة الانتقال بتعليمية اللغة إلى تعليمها في ضوء مفهوم نظرية الاتصال التي تقوم على أركانها الأساسية ، والتعامل بها على المباشر ، وهي (المرسِل ، والمرسَل إليه ، والرسالة اللغوية ، وقناة الإرسال ، والشفرة اللغوية) والنّظر إليها على أنّها نظام متكامل ، تتداخل فيه جميع هذه الأركان متفاعلة فيما بينها ، يؤثّر أحدها في الآخر في إطار أهداف عملية الاتصال ، وهذا يمثل الجانب الواقعي من اللغة في تفاعلها مع المجتمع. (محسن علي عطية ، 2008 ، ص69) وفي الجانب العملي لهذه المقاربة يقف دور المعلم في إعداد الحصص وتهيئتها وتوجيه المتعلمين نحو الاعمال المطلوبة ميدانيا وإرشادهم لما هو أفضل تحقيقا لأهداف كل حصة. ومن هنا يجدر التنبيه إلى ضرورة الاهتمام ميدانيا بكفاءة الاتّصال ، باعتبارها المستهدف من العملية التعليمية ، بمراعاة جملة من القضايا كهدف المتحدث ، والعلاقة بينه وبين المتحدث إليه ، والموقف ، والموضوع ، والسياق اللغوي.(أحمد عيد عوض ، 2008 ، ص68) وهذا المنظور بهذه الكيفية يتقارب والانغماس اللغوي الذي يجعل من المتعلم يتعامل مع اللغة تعاملا طبيعيا في سياقاتها الاجتماعية دون تصنع ، لأن اللغة كما تراها النظرية التكاملية كلٌّ متكامل ، وكل خلل يتعرّض له أي جانب أو فنّ من فنونها يحصل للّغة كلّها ، وتصبح قاصرة عن أدورها ، وخصوصا دورها الاتصالي.(عطية ، ص ص 81، 82)

ولا شك أن نجاع العملية التعليمية وفق هذه المقاربة يتوقف على مدى تفعيل جانبها الميداني بكفاءة عالية من طرف المعلم الذي يحرك العملية برمتها ، وكلما كانت كفاءة المعلم ونشاطه ومتابعته الذكية للموضوع كان الموضوع أكثر نجاحا وتأثرا في حياة المتعلمين ، وهذا ما يجعل"المتعلم قادرا على التفاعل والتعبير مع الآخرين ، وقادرا على استخدام وسائط التواصل والاتصال المتنوعة. (وليم عبيد ، 2009 ، ص166) شريطة أن تطّبق وفق خطة يرسمها المعلم بإحكام. وإذا طبقت هذه الإستراتيجية بإتقان وإحكام فستسهم بفاعلية في تنمية القدرات اللغوية للطالب وتكسبه شجاعة التحدث والتواصل مع الأخر والمحيطين به تحقيقا للمرسوم من الأهداف ، كما تنمي فيه تذوق اللغة من خلال استماعه الجيد ، والتفاعل المتواصل.

2. المقاربة التّكاملية: تقوم هذه المقاربة على بيداغوجية الرّبط بين المواد الدراسية ونشاطاتها المختلفة، والتّعامل معها من منطلق وحدة المعرفة متكاملة دون تجزئة، وذلك برفع الجداريات التي أقيمت بين نشاط لغوي وآخر، لتكون التعامل مع اللغة كما هي واقعا وتعاملا كلا متكاملا. ولا شك أن الفصل بين الأنشطة كان لتسهيل لا أكثر، ومع ذلك أوهم كثيرا من المتعلمين كأنها مفصولة، ولا تفهم إلا هكذا مفصولة. وهذه المراقبة حقيقة ليست جديدة كل الجدة، لأن القدماء علماء اللغة وحلقات الدرس اللغوي لم يفصلوا بين نشاط وآخر بل كانوا يتناولون كلا متكاملا بمختلف المستويات دون فصل، فالمصنفات القديمة وأمهات الكتب ذات الصيت العظيم مثل مصنفات الجاحظ والمبرد وغيرهما كانت خير شاهد على ذلك، لذلك اتخذ القدماء " من النّصوص الأدبية التي يختارونها مركزا وأساسا تتجمّع حوله أنواع البحوث اللّغوية المختلفة، لتفسير مفردات النّص وشرح عباراته، وتوضيح ما اشتمل عليه من الصور البلاغية والمسائل النحوية، وما ورد به من الإشارات التاريخية، والارتباطات الجغرافية، وبيان ما عسى أن يلوح به من محاسن ومآخذ" (محمد صالح سمك، 1998، ص ص 55، 56) ولم يحصل الفصل إلا في وقت متأخر من الدرس اللغوي. لذلك وبناء على هذا المفهوم يتوجب على واضعي المقررات والبرامج إعادة تنظيمه بطريقة تزول فيها الحواجز بين المواد الدّراسية المختلفة، وتتكامل فيها مع بعضها، فتقدم الخبرات المختلفة في صورة متآزرة تؤدي إلى تمكين المتعلّم من إدراك العلاقات بين المواد التعليمية، والخبرات التي تقدّمها للمتعلّم ،(وليم عبيد، 2009، ص82) ويرون أن ثمة خطورة في تعليم اللّغة فروعا منفصلة عن بعضها، لأن ذلك يجعلنا ننكر على اللّغة حقيقتها عندما نعلّمها شرائح معرفية منعزلة. (علي أحمد مدكور، 1984، ص) ويصر الكثير على هذا المدخل باعتبار أن هذا الأسلوب لا يقرُّ من المعرفة إلا النّوع المتكامل منها، باعتبارها الطريقة السليمة لإدراك الواقع الذي نعيشه، والوسيلة الفعّالة لحل المشكلات، والمواقف الصعّبة التي تواجهنا في حياتنا. (مبارك فتحي يوسف، 1988، ص04) وتلك حقيقة واقعية لا تنكر. وهذا المنحى كسابقه ينسجم وتعليم اللغة بالتفاعل المباشر، أي الانغماس اللغوي، ومن ثمة تسهيل العملية التعليمية.

وقد سعت بعض المنظومات التربوية كالجزائر مثلا في الأخذ بما يشبه الإستراتيجية التكاملية في بعض أجزائها متمثلة في تدريس اللغة العربية كوحدة متكاملة من خلال التدريس بالمقاربة النصية التي تعد إستراتجية جديدة في التعليم تهدف إلى التعليم اللغوي المتكامل، وذلك بتناول المعارف اللغوية خلال أسبوع من وحدة لغوية واحدة هي النص ليكون مصدرا لجميع الأنشطة اللغوية. وقد جاء هذا الأسلوب بديلا عن إستراتيجية الاستقراء التي تنطلق من أمثلة متناثرة، وكذا ليتخلى عن تعلم اللغة العربية فروعا مستقلة، ولكن الملاحظ والمتتبع يجد أن هذا المسعى وإن كان شبيها بالطريقة التكاملية من ناحية الانطلاق من النص الواحد، إلا أن المسألتين مختلفتان تماما، ووجه الاختلاف يحصل في تناول الأنشطة ذاتها، بحيث أن الطريقة النصية لا تشبه الطريقة التكاملية إلا من حيث المصدر الواحد لجميع الأنشطة المدرسة، لكنها تدرس الأنشطة مفصولة وموزعة في أزمنة متقاطعة خلال أسبوع بأكمله.

3. المقاربة الوظيفية: تعد المقاربة الوظيفية من المقاربات القديمة الجديدة إلى حد ما، باعتبار أن عددا من الباحثين نادوا بها في تعليم قواعد النحو العربي منذ زمن بعيد من القرن العشرين، ولم تجد لآذانا صاغية لدى المنظونات التربوية والجهات الوصية الفاعلة وظلت حبرا على ورق، والدعوة الجديدة اليوم تتعدى القديمة منها إلى تعليم اللغة وليس القواعد انطلاقا من أن المطلوب هو تعليم اللغة وليس تعليم القواعد لأن القواعد جزء من اللغة. وتنطلق أسس هذه المقاربة من أن الهدف من اللغة هو التواصل بداية خصوصا فيما يحتاج إليه المتعلم ويوظفه في حياته اليومية، لذلك فالأولى أن يتعلم اللغة انطلاقا من هذا الاساس المتين الذي لا يفصل بين حاجيات المتعلم وما يتلقاه في المؤسسات التعليمية في علاقته باللغة. والباحثون الذين أكدوا هذا المنحى الوظيفي للغة انطلاقا من أن وظيفة اللغة في الحياة أنها "وسيلة لتحقيق التواصل بين

الناس للتعامل مع شؤون الحياة المختلفة ، ولما كان للّغة هذا الدور تَوجّب أن تُلبّي حاجة الفرد لاستعمالها في المواقف التي تتشكل منها الحياة." (محسن علي عطية ، ص84) والمقصود هو أن يتم بالتعليم الوظيفي تحقيق القدرات اللّغوية عند المتعلم ، بحيث يتمكّن المتعلم من ممارستها في وظائفها الطبيعية العملية ممارسة صحيحة دون تصنع. (علي النعيمي ، 2004 ، ص126) وهي دون ريب استراتيجية واقعية يجعل المتعاملين باللغة يتأقلمون معها بيسر وفاعلية بحكم أنهم يتناولونها في حياتهم الواقعية دون تكلف ، وتسهم بعمق في إتقان المهارات اللغوية الأساسية متمثلة في فهم اللّغة كلا متكاملا وبالممارسة دون تصنع ، فيتفاعل معها مسموعة ومقروءة ، ويعبر بها شفاهة وكتابة ، وحينها يكون قد حقق المرجو من تعلم اللغة ، لأن وظيفة اللغة أساسا هي التواصل الجيد فهما وإفهاما كتابة وشفاهة ، فنختصر الوقت ونحقق الهدف.

4. **مقاربة الانغماس اللغوي:** من المقاربات الجديدة التي أخذت في الاتساع والتفعيل الميداني مقاربة الانغماس اللغوي الذي أعطى دورا بالغ الأهمية في الاكتساب اللغوي الصحيح ، لأنها انتقلت بالتعليمية من مجال تعليم اللغة إلى التفاعل المباشر مع اللغة دون حواجز. وقد برهنت التجارب المتعددة التي أجراها العديد من الباحثين للغة العربية ولغيرها على مدى تأثير هذا الأسلوب في تطوير الأداء اللغوي للأطفال ، خصوصا عندما تتوفر الظروف المناسبة وتستكمل الشروط الضرورية لأداء المهمة على أحسن وجه ، ونقصد بذلك ضرورة التقيد بالتعاليم والارتباط بالأسباب التي تحقق الأهداف المرسومة. ويُقصد بالانغماس اللغوي أن يوضع المتعلم الجديد في ظروف تعليمية لا يَسمع خلالها إلا اللّغة التي نستهدفها أصواتا ومقاطع وكلمات وجملا ومعان ، بحيث يجد نفسه منغمسا كلية في أجواء لغوية تطرقُ سمعَه ليتجاوب معها إيجابا وفق الطرق التعليمية المستخدمة ، وبالتالي "الانغماس اللغوي الذي يطلق عليه أحيانا التدريب اللغوي الانغماسي ، هو برنامج يعرض للطالب للغة الجديدة باستخدام اللغة الجديدة وحدها ، وتقدم الدروس بمستوى مناسب للمتعلم ، ويتم إجراء كافة التدريبات والنشاطات باللغة. ويقوم الانغماس على مفهومين أساسيين البيئة اللغوية والكفاءة التواصلية." (محمد أبو بكر محمد ، 2018 ، ص03)

وأعتقد أن مسألة الانغماس اللغوي أو ما يشبهه ليست غريبة عن الثقافة العربية القديمة حيث كانت للأسواق الأدبية التي عهدتها الجزيرة العربية ، ك"سوق عكاظ" و"ذي المجنة" و"ذي المجاز" أثر في اللغة والأدب وفي ترقية العمل اللغوي ، في وقت كان فيه لكل قبيلة لغتها التي تختلف بشكل أو بآخر عن بقية القبائل الأخرى ، وبعد مراحل كثيرة وغلبة لهجات على أخرى استقر الوضع اللغوي على جملة من القواعد واللغات تداولتها الألسنة بعد ذلك وشاعت بين الناس وعرفوا بها ، وكانت تلك الأسواق سببا في ذلك التحسين والتقريب ، وبالتالي ليس الأمر بدعا في الثقافة العربية. وهكذا كان العرب القدامى يُرسِلون أولادَهم للبادية ؛ كي يكتسبوا فصاحة اللغة من أفواه مستعمليها ، باعتبار اللغة وضع واستعمال ، وكذلك يفعل الكثير في الوقت المعاصر بجعل المتعلّم الأجنبي عن اللغة في وضع لغوي تامّ مع الأهالي الخلّص ، حيث يستعملون اللغة الأمّ بصورة عفوية في مختلف المقامات والسياقات ، باكتسابهم القدرات التواصلية والثقة بالنفس فيكونون أكثر استقلالية عن الآخرين سواء على المستوى التواصلي أو الاحتياج لمن يترجم لهم ، وبذلك يسمع المتعلّم أنماط اللغة ومختلف صيغها في صورتها الطبيعية ، ويحتذيها ليصبح ناطقاً عفوياً في تلك اللغة ، إن لم نقل يأخذ صورها الشكلية التي تجعله يستعمل تلك اللغة استعمالاً جيدا في زمن وجيز جداً. ويبدو لي أن هذا الأمر هو الذي أشار له ابن خلدون في المقدمة عندما ذكر أن "المتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها...ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم." (ابن خلدون ، 2007 ، ص 607)

وهكذا يمكن أن نقول: إنّ متعلّم تلك اللغة يصبح متحّكماً في اللغة ويستطيع من خلال التداول أن يستعملها في التواصل بشكل طبيعيّ وعفوي. وقد ظهرت دراسات عديدة ومتنوعة تتعلق بهذا النمط الحديث في تعليمية اللغات منها العربية ومنها الأجنبية، ونذكر من ذلك ما تعلق باللغة العربية من طرف الباحث ميليمان (Miliman) في جامعة تكساس، حول "المكونات الأساسية الفاعلة في نجاح برنامج الانغماس اللغوي العربي تعليم اللغة العربية". كذلك دراسة للغة الانجليزية في إطار الانغماس اللغوي تقدم بها الباحثان روكاسكين (Rugasken) وهاريس(Harris)، وغيرهما من باحثين آخرين. ومن الباحثين العرب نذكر الدراسة التي قدمها عادل أبو الروس متحدثا عن "دور الانغماس في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى" بجامعة كوالا لمبور بماليزيا.

ب) الاستراتيجيات التعليمية الحديثة:

تعد الاستراتجيات الحديثة من أهم ما يطرحه الباحثون اليوم كبديل أو خيار جديد يستعان به في مسائل التعليمية، وهي كثيرة ومتعددة، تتقاسم وتتقاطع مع بعضها البعض، وهي تتجدد بتجدد البحوث والتصورات من خلال مختلف آراء الباحثين والمشتغلين في مجال التعليمية، وأهمها: إستراتيجية المناقشة والحوار، وإستراتيجية حل المشكلات، وإستراتيجية التعليم التعاوني، وإستراتيجية التعليم الالكتروني، وإستراتيجية العصف الذهني، وهكذا عدد آخر من الاستراتيجيات التي تتجدد يوميا بحثا عن الأفضل. ونشير في مقدمة الحديث عن هذه البدائل إلى مسألتين هامتين تعدان من إيجابيات هذه الاستراتجيات وهما:

أولا: إن كل إستراتيجية منها قد تصلح لفئة دون أخرى بحسب المستوى والسن وغيرها من معايير أخرى. فما يصلح لهذه الفئة قد لا يصلح للأخرى. إلا أنها في المجمل تعد فاعلة في توصيل المحتوى، وأكثر تأثيرا في المتعلم بحكم أنها تشركه بصفة مباشرة مع الموضوع وتجعله متفاعلا بطريقة مستمرة بحكم أنه المحرك للعملية التعليمية دون غيره، وليس للمعلم من دور إلا دور الموجه والمعدل والمصحح والرقيب على حسن سير الحصة بالطريقة التي تتلاءم والموضوع.

وثانيا: إن جميع هذه الاستراتيجيات هي بمثابة فتح ورشات عمل داخل الصفوف، فالمتعلم لا يكتفي بالحضور وحده بل يجعل منه صانع الحدث ومحركه، وهذا الذي ينمي فيه الحرص الشديد على مواصلة العمل باجتهاد عندما يشعر أن ما يقوم بانجازه يعود عليه بالنفع والفائدة. فالتعليمية الحديثة همها الأول مشاركة المتعلم مشاركة فاعلة تصل إلى حد صنع الحدث وإنجازه. وهذان الأمران يعدان نقلة نوعية في مجال التعليمية تيسر العملية على المعلم والمتعلم ويجعل منهما متجاوبين يكمل أحدهما الآخر وصولا إلى الأهداف الطموحة.

01. إستراتيجية الحوار والمناقشة: هي واحدة مما يراه الباحثون بديلا عن الطرائق التقليدية، وهي طريقة فاعلة تبنى أساسا على أن يكون للمتعلم دور أساس في بناء الموضوع وتحليله والتوصل إلى نتائجه، فالطريقة عبارة عن "المحادثة التي تدور بين المعلم ومتعلميه أو بين المتعلمين أنفسهم تحت إشراف المعلم باعتباره مديرا للجلسة داخل الصف، حيث يتيح الفرصة للجميع لإبداء الرأي في الموضوع وفق حرية التعبير عن الرأي والجدال حول قضايا أو أفكار أو موضوعات (سهيلة محسن، كاظم الفتلاوي، 2006، ص 396) ويبين العديد من الباحثين إيجابية هذه المقاربة في تعليم اللغة العربية من حيث بناء أفكار الطلبة وتنميتها، لأنها تعتمد أسلوب الفهم والتحليل وتعميق الشرح بالمناقشة ثم الاستنتاج والتلخيص كمحصلة نهائية للموضوع. وكل هذا لا شك يساعد الطالب على ممارسة التفكير والتحليل وتقليب القضايا واستخدام جميع مهاراته. وبالتالي تحسين مهارة الاستماع والاتصال الشفهي. (الأكاديمية المهنية للمعلمين، ، ص22) ونذكر أن الحوار يمكن أن يكون بطريقتين بحسب الفئة المتعلمة، إما أن يكون حوارا حرا يناسب الفئات العليا في المستويات

المتقدمة التي تتمكن من تغطية موضوع الحصة من جميع جوانبه ، أو أن يكون حوارا موجها يتناسب عادة والفئات المبتدئة التي يخشى من خلال إدارة الحوار من ضياع الهدف من الحصة وبالتالي سوء استخدامه.

02. **إستراتيجية حل المشكلات**: وهي طريقة أخرى من طرائق التعليم الذي يعتمد على وضع المتعلم إزاء قضايا لغوية تقتضي حلا مناسبا معتمدا في ذلك على جهده الخاص ، لذلك فهي "نشاط تعليمي يسعى فيه المتعلم إلى إيجاد حل (حلول) للموقف المشكل(السؤال) ، فيقوم بخطوات تماثل خطوات الطريقة العلمية في البحث."(غسان يوسف قطيط ، 2008 ، ص60) وهذا يعني اشغال المتعلم وجعله المحور الأساس في تذليل صعوبات الموضوع والبحث عن حلولها. ويتم تطبيق هذه الإستراتيجية

بتحديد مشكلة الموضوع وجمع المعلومات الضرورية حولها ، ثم الشروع في اقتراح الحلول المناسبة للمشكلة بوضع فرضيات قابلة للتحليل والمناقشة ، ومن ثمة التوصل إلى حل أنسب وصحيح دون شك ، ليتم تطبيقه في مواقف جديدة. (محمد حميميد فرحات ، ص28) وتستهدف هذه الإستراتيجية تحريك العمليات العقلية للمتعلم وجعلها في مواقف حيوية منتجة ، من ذلك الملاحظة ، والتحليل ، والتفسير والتطبيق ، التقويم) لارتكازها على الأسئلة المنشطة للتفكير ، ففي كل مرحلة يراجع المتعلم أداءه ويصححه وبذلك يقوم بتغذية راجعة تحت إشراف الأستاذ. (محمد حميميد فرحات ، ص28)

وأعتقد أن العمل وفق هذه الإستراتيجية في المجال اللغوي يفيد أكثر في المجالات التي تعتمد طريقة تحديد القواعد والأنظمة اللغوية عامة التي تتطابق في أنشطة القواعد النحوية والصرفية وبعض العلوم البلاغية. وتتمثل طريقتها في وضع المتعلم أمام أساليب لغوية محددة ويستطيع المتعلم بتأمله الخاص أن يصل على تحديد القواعد المحددة لهذا الأسلوب أو ذاك.

03. **إستراتيجية التعليم التعاوني:** يعد هذا النوع من التعليم واحدا من الطرائق التي رأى الكثير أنها تثمر أكثر من غيرها. ومفاد هذا النوع من التعليم هو اعتماد العمل الجماعي أساسا بديلا عن العمل الفردي في تبليغ المعلومة والتفاعل معها ، أي أن يتم التعليم ضمن مجموعات في الحصة الواحدة ، أثناءها يتعاون أفراد كل مجموعة في البحث عن المعلومة أو تحليلها أو شرحها أو غير ذلك مما يتطلبه الموقف التعليمي. و"تتلخص فكرة هذه الإستراتيجية أن التنافس يكون بين مجاميع الفصل التي سبق تقسيمها بشكل متعادل وتتعاون كمجموعة في دراسة الموضوع" (عبد اللطيف بن حسين ، 2005 ، ص33) وبالتالي أثناء العمل وفق هذه الإستراتيجية لا تزيد المجموعة الواحدة عن خمسة أو ستة أفراد ، ويتم اعتمادُ مجهود الجماعة المتعاونة لتحقيق المأرب المقصودة من التعليم ، وهو نوع من التعليم التفاعلي والتشاركي يدرب المتعلم على ضرورة العمل الجماعي ويدفعه إلى التنافس ، ويشجع كل أفراد المجموعة على حسن التفكير وجودة العملية التعليمية.

04. **إستراتيجية التعليم الالكتروني:** التعليم الالكتروني من الاستراتيجيات الحديثة التي ينظر لها على أنها يمكن أن تفتح آفاق التعليم أكثر ، وتجعل مصادره أكثر مرونة وسلاسة عند المتعلم ، بحيث لا تقف الحواجز المادية ولا الزمنية عائقا دون طلب المعلومة والاستفادة منها ، وفحوى هذا النوع هو كل تعليم يعتمد الوسائل الحديثة بكل أشكالها وأنواعها وسيطا بين المعرفة والمتعلم ، وهي اليوم كثيرة تبدأ بشبكة الانترانت ومختلف أبوابها والرسوم والأقراص ومختلف الألعاب الحاسوبية والآلات ، وبالتالي لا يكون التعليم حينها حكرا على مكان محدد كقاعات الدرس يحرم منه المتغيبون والمتعطلون لأي سبب من الأسباب ، أو زمان محدد كجداول الزمن التي تجبر المتعلم على وقت محدد دون غيره ، ولذلك فإن هذا النوع من التعليم يستطيع أن يحقق النتائج متجاوزا القيود الشكلية المتعارف عليها تقليديا. وقال فيه المشتغلون في المجال أنه "ذلك النوع من التعليم الذي يعتمد على استخدام الوسائط الالكترونية في الاتصال واستقبال المعلومات واكتساب المهارات

والتفاعل بين الطالب والمدرسة."(عد اللطيف بن حسين ، 2005) والمتتبع لمسيرات التعليم على أنواعه تقليديا يلاحظ مدى تأثره سلبا بهذه القضايا التنظيمية زمانا ومكانا في تحديد حصص الدرس وأمكنته ، وظل التعليم رهين توفير المكان والزمان دون غيرهما ، لذلك أرى أن هذا النوع المعروف بالتعليم الالكتروني يسهل علينا تجاوز العديد من المعوقات لأنه يتجاوز تنقل جميع المتعلمين إلى مكان محدد في وقت محدد إلى أن يحصلوا على المادة التعليمية في أماكنهم دون عناء ، وبهذا يوفرون أوقاتهم ويستغلونها أحسن استغلال ، كما نتجاوز مشكلات الحضور الإلزامي ومشكلات التنقل وهكذا لجميع المعوقات المعهودة. هذا عندما يكون التدريس عن بعد ، علما أنه يمكن أن يكون التعليم الالكتروني في الفصول الدراسة ، فذلك يخضع للأمور التنظيمية لا أكثر ، وحينها يكون دور المعلم هو التوجيه والسهر على حسن سير العملية التعليمية ، والتفاعل الايجابي مع المتعلمين الكترونيا بالرد على تساؤلاتهم ومدهم بكل ما يساعدهم على حسن الاستفادة من المعلومة وكيفيات تطبيقها والتعامل معها.

05. إستراتيجية العصف الذهني: تعد هذه الإستراتيجية واحدة مما رأى فيه الباحثون طريقة جديدة تمكن من تحريك فكر المتعلم وتدفعه إلى إجادة التفكير ، فهي طريقة تشغل ذهن المتعلم إلى أقصاه باحثا عن المعلومة وصائغا لها بطريقته الخاصة وبما يملكه من معلومات سابقة ومما يمليه عليه فكره. أو كما قيل تعمل على:"توليد الأفكار في أذهان الطلبة للحصول على أكبر عدد ممكن منها ، بغية الوصول إلى حلول إبداعية."(محمود عوض بني ذياب ، 2013 ، ص79) لذلك تعتبر إستراتيجية العصف الذهني عاملا تعليميا يقوم وفق تنظيم محكم يديره المعلم نفسه داخل الصف ويتابع مراحله خطوة خطوة وصولا إلى الحلول والنتائج التي يصبو إليها. وبالتالي هو عمل ينشط العقل ويطوع مدركاته ويجعله حاضرا باستمرار وصولا إلى الحلول الممكنة.(عبد الحميد حسن عبد الحميد شاهين ، ص 114)

خاتمة: بعد الحديث عن الاستراتيجيات التعليمية الفاعلة في تعليم اللغة تأكيدا على الناجعة منها في تعليم اللغة العربي.

إن المقاربات الاستراتيجيات الحديثة القائمة على جهد المتعلم وبتوجيه من المعلم راعيا ومرشدا تعد الوسائل الأكثر نجاعة والأعمق أثرا في تنمية المهارات اللغوية والمعرفية للمتعلم ، لأنها تغيّر من النظرة التقليدية المألوفة لمتعلم اللغة ، تلك النظرة القائمة على حشو المعلومات ، وإهمال دور المتعلم ، خلافا لما تقوم عليه المقاربات والاستراتيجيات الحديثة التي تحول المتعلم إلى باحث ودارس للظاهرة اللغوية مع توظيفه لها في سياقاته التواصلية والوظيفية وفق طريقة تكاملية ودون تجزئة لمفاهيم اللغة ككل متكامل.

إن المقاربات الحديثة وفق الاستراتيجيات الجديدة تستهدف في حقل التعليمية الطاقات الإبداعية الكامنة لدى الطلبة ، وتسهم في بعث النشاط التواصلي اللغوي وتحسين المهارات اللغوية. وذلك أسمى ما تصبو إليه التعليمية اللغوية على وجه الخصوص وهو أن يصل المتعلم إلى إجادة التواصل باللغة وبكفاءة عالية.

مصادر البحث ومراجعه:

01- أحمد عيد عوض ، مداخل تعليم اللغة العربية ، دراسة مسحية نقدية ،سلسلة البحوث التربوية والنفسية ، جامعة أم القرى ، ط1 ، 2000 ،

02- جودت أحمد سعادة ، صياغة الأهداف التربوية والتعليمية ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2001 ،

03- حافظ إسماعيل علوي وليد أحمد العناني ، أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ، ط1 ، دار العربية للعلوم ناشرون ، لبنان ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، دار الأمان ، الرباط ، 2009 ،

04- حداد توفيق وآدم محمد سلامة ، التربية العامة ، ديوان المطبوعات المدرسية ، الجزائر ، ط1 ، 1997 ،

05- حسن محمد أبو رياش ، حل المشكلات -غسان يوسف قطيط ، دار وائل ، دط ، 2008 ، الأردن ،

06- حداد توفيق وآدم محمد سلامة ، التربية العامة ، ديوان المطبوعات المدرسية ، الجزائر ، ط1 ، 1997 ،

07- خالد لبصيص ، التدريس العلمي والفني الشفاف بمقاربة الكفاءات والأهداف ، دار التنوير ، المغرب ، 2004

08- خليل إبراهيم ، في اللسانيات ونحو النص ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2007 ،
09- خير الدين هني ، مقاربة التدريس بالكفاءات ، ط1 ، 2005 ،
10- مادي لحسن ، الأهداف والتقييم في التربية ، مطبعة المعارف الجديدة الرباط ، 1989
11- محمد الدريج ، التدريس الهادف ، مساهمة في التأسيس العلمي لنموذج التدريس بالأهداف التربوية ، قصر الكتاب ، البليدة ، 2000.
12- محمود عوض بني ذياب ، أثر استخدام طريقة العصف الذهني في تنمية التحصيل الدراسي في مادة قواعد اللغة العربية ، الشارقة ، 2013 ،
13- دليل المدرس ، تقنيات التدريس وفق مناهج الجيل الثاني ، محمد حميميد فرحات ، دار جيطلي ، ط 2017 ،1 ، الجزائر ،
14- الاستراتيجات الحديثة في تعليم وتعلم اللغة ، علي عبد السميع قورة ، وجيه المرسي أبو لبن ،
15- استراتيجيات التدريس المتقدمة واستراتيجيات التعلم وأنماط التعلم ، عبد الحميد حسن عبد الحميد شاهين ،
16- استراتيجيات التعليم والتعلم أطر مفاهيمية ونماذج تطبيقية ، وليم عبيد ، دار المسيرة ،ط2009 ،1 ،الأردن ،
17- استراتيجيات التعليم والتعلم ،دليل المشارك /ة ، الأكاديمية المهنية للمعلمين ، جمهورية مصر ،
18- سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، المركز الثقافي العربي ، ط 2 ، 2001 ،
19- طرق التدريس في القرن الواحد والعشرين ، عد اللطيف بن حسين فرج ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2005 ،
20- عبد الرحمان مقدمة ابن خلدون ، مراجعة: زكار سهيل ، دار الفكر ، بيروت ، 2001
21- عبد الرحمن ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، بيروت ، 2007
22- عبد اللطيف بن حسين ، طرق التدريس في القرن الواحد والعشرين ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 2005 ،
23- عبد المجيد عيساني ، نظريات التعلم وتطبيقاتها في علوم اللغة ، دار الكتاب الحديث ، دط ، 2012 ،
24- عبد المعطي حجازي ، هندسة الوسائل التعليمية ، دار أسامة ، عمان (الأردن) ، ط1 ، 2009 ،
25- علي أحمد مذكور: تدريس فنون اللغة العربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2000 ،
26- علي النعيمي ، الشامل في تدريس اللغة العربية ، ط1 ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2004م ،
27- مادي لحسن ، الأهداف والتقييم في التربية ، مطبعة المعارف الجديدة الرباط ، 1989 ،
28- محسن علي عطية ، مهارات الاتصال اللغوي وتعليمها ، ط1 ، دار المناهج للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2008 ،
29- محمد أبو بكر محمد ، مجلة الراسخون ، الانغماس اللغوي في قرية اللغة العربية انغالا ، نجيريا ، ع2 ، م3 ، 2018 ،
30- مبارك فتحي يوسف ، الأسلوب التكاملي في بناء المناهج (النظرية والتطبيق) ، القاهرة ، ط3 ، 1988
31- منذر عياشي ، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1998.
32- المنهاج التعليمي والتدريس الفاعل ، سهيلة محسن ، كاظم الفتلاوي ، الشروق للنشر ، الأردن ، ط1 ، 2006.
33- مهارات التدريس الصفي ، محمد محمود الحيلة ، دار المسيرة ، الأردن ، ط3 ، 2009.
34- طه علي حسين الدليمي ، سعاد عبد الكريم الوائلي ، اتجاهات حديثة في تدريس اللغة العربية
35- وزارة التربية الوطنية (بيداغوجيا الأهداف) مجلة همزة الوصل ، الجزائر ، العدد5 ، 1995.

تحليل سوسيولوجي للتغير القيمي والثقافي في المجتمع الجزائري.

Title of the Intervention: Sociological analysis of the value and cultural change in Algerian society.

عبد المالك مجادبة ، جامعة طاهري محمد- بشار- الجزائر

مقدمة:

يزداد الاهتمام بالقيم وأبعادها والقضايا المرتبطة بها خاصة في ظل التحولات السريعة والعميقة التي يعيشها عالم اليوم ، وفي ظل الثورة المعلوماتية التي أحدثت هزة في البنية الاجتماعية للمجتمعات ، وقد انعكس هذا الاهتمام على البحث العملي حيث أجريت العديد من الدراسات حول منظومة القيم الاجتماعية والثقافية وتغيرها ، وإن كان التغير القيمي والثقافي هو قضية كونية فإن دراسته وتتبعه على مستوى المجتمعات المحلية وخاصة مجتمعاتنا العربية والإسلامية يزداد أهمية .

وبالتالي فأن تناول موضوع التغير القيمي والثقافي يجب أن لا ينفك عن بعد ديناميكا المجتمع بصفة عامة فالتحولات التي عرفها المجتمع الجزائري أحدثت تغيرات جذرية في نسقه القيمي والثقافي.ونجد مختلف البنى الاجتماعية مسرحا لهذا التغيير في قيم وسلوك الفاعلين على اعتبار أنها امتداد للنسق الاجتماعي الأكبر فيما يخص قيم الأفراد واتجاهاتهم ، ومن هذا المنطلق تكتسي هذه الورقة البحثية أهمية بالغة كوننا بصدد البحث عن أثر هذه التحولات محليا وعالميا على تغير منظومة القيم الثقافية ، وذلك من خلال التطرق لوظيفة سوسيولوجيا التغير الاجتماعي ، وعوامل التغير ، وكذلك تتبع السياق التاريخي للتغير القيمي والثقافي في المجتمع الجزائري ،وأخيرا رصد أهم مظاهر هذا التغير.

أولا: ماهية سوسيولوجيا التغير الاجتماعي: غالبا ما تصادفنا بعض المصطلحات المتداخلة أثناء البحث في معنى التغير الاجتماعي مثل (التغير ، التحول ،التبدُل)، وهذه المصطلحات متناولة بكثرة في علم الاجتماع وهي احد أهم المداخل في دراسة المجتمعات في إطار السياق الزمني ، وليس من السهل فهم المجتمعات ومختلف الظواهر الاجتماعية بعيدا عن عامل الزمن أو خارج نطاق التاريخ البشري ، فالتاريخ مادة مخبرية هامة في فهم بنية المجتمعات وصيرورة الظواهر ، وفي سبيل محاولة فهم جملة التحولات التي عرفها المجتمع الجزائري لابد بداية من معرفة ماهية سوسيولوجيا التغير الاجتماعي وآلية التحليل التي تتبعها.

إن التغير الاجتماعي يرتبط بعوامل تسمى قوى التغيير وهذه القوى لا تحدث التغيير على مستوى واحد فقط وإنما على مستويات عديدة ، حيث يرى "**أفريت أ. هاجين** " أن النموذج الذي يفسر النمو الاقتصادي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الجوانب الغير اقتصادية للسلوك الإنساني لأن الوضع الاقتصادي للمجتمع يرتبط ارتباطا وثيقا بوضعه السياسي (هاجين.أفروت ، دون سنة)، بمعنى لا يمكن فهم آلية التغير في نسق معين بمعزل عن أنساق أو عوامل أخرى ، فمثلا المجتمع الذي لا يحدث تغييرا في تكنولوجيته لا يحدث تغييرا في عناصر حضارته وهذه من الصفات التي تميز المجتمعات التقليدية ،فالعلاقة بين متغيرات التغير الاجتماعي واضحة وانعزالها عن بعضها البعض شيء لا يمكن تبريره. (هاجين.أفروت ، دون سنة).

إن نقطة اهتمام السوسيولوجيا العامة منذ نشأتها في أوروبا مع التعريج على جذورها الخلدونية هو ردة فعل للتحولات التي عرفتها المجتمعات البشرية وتسير في منحى ديناميكية الظواهر الاجتماعية وتتبع آلية تغيرها .

يعد التغير أحد أبرز الخصائص الجوهرية للمجتمع ، وهو ما يبرز جليا في العبارة المجازية (الحياة الاجتماعية). فشأنها شأن الحياة نفسها ، تتألف الحياة الاجتماعية من تغيرات مستمرة لا تتوقف ،وعمق وإيقاع التغيرات تختلف من مجتمع إلى أخر ، ويشير أكثر المفاهيم عمومية للتغير باعتباره تحولا في كيان معين مع مرور الوقت (سكوت.جون ، 2013) ، والمجتمع ككيان كلي يرتبط بوجود شبكة من المؤسسات الاجتماعية والعلاقات والتفاعلات وهذه الكيانات تتوزع بين (الماكرو والميكرو) بمعنى أن التحول يمس جميع الكيانات بصفة أو بأخرى دون توقف. وعليه يمكن القول أن التغير الاجتماعي هو تحولا في المجال الاجتماعي على مر الزمن (سكوت.جون ، 2013).

يربط الكثير من السوسيولوجيين بين التغير الاجتماعي ومفهوم الحداثة الذي تمثله بدرجة اكبر التقنية الحديثة ،فالحداثة تعتبر صدمة للكثير من المجتمعات التي أدت إلى تغيرات سريعة وعميقة ولا زالت تؤدي وظيفتها كأحد أهم قوى التغيير الاجتماعي ،**فأنتوني جدنز**(Giddens.A, 1991) مثلا يرى أن التحولات الاجتماعية الراهنة تضفي على العصر الحالي سمات تميزه عما سبقه ،وهذه السمات ترتبط حسب غدنز بما يسميه الحداثة الفائقة (**High modernity**، حيث يعتبر أن الحداثة المتقدمة أو الفائقة أدت إلى تغيير وجه الحياة الاجتماعية في المجتمعات الحديثة وخاصة الغربية فيما يخص الزمان والمكان لعلاقات الأفراد وتفاعلهم ، وكذا نسبية المعرفة كونها متغيرة ومؤقتة عكس ما كان في المجتمعات التقليدية (ملحس.استيتية.دلال ، 2008). لذلك فإن فهم المجتمعات الحديثة يرتبط بقدرة السوسيولوجيا على فهم آلية التغير الاجتماعي وما يقدمه هذا الفهم من إمدادات نظرية تعيد صياغة المفاهيم السوسيولوجية باستمرار تبعا لسرعة تغير المجتمعات والحياة الاجتماعية.

لقد عرف المجتمع الجزائري تحولات وتغيرات عديدة مست بنياته الأساسية سواء بتأثير عوامل خارجية أو داخلية لا يمكن التغافل عنها وتتبع هذه التحولات يساعدنا في فهم بعض الظواهر الموجودة اليوم من الناحية السوسيولوجية خاصة التحولات الاقتصادية والسوسيوثقافية.

ثانيا: عوامل التغير الاجتماعي: لا شك أن التغير الاجتماعي رغم انه مسألة حتمية إلا أن حدوثه ليس وليد الصدفة أو عوامل غير معروفة ، بل يتفق أغلب المهتمين بحقل السوسيولوجيا أنه يحدث نتيجة لتشابك وتداخل عدة عوامل أو قوى تغيير خارجية أو داخلية ، ورغم اختلاف وتمايز المجتمعات والسياق التاريخي والفكري إلا أنه يمكن التعرف على العوامل الديناميكية الأساسية التي تدفع بالمجتمعات للتغير ، علما انه لا يمكن تحديد عدد هذه العوامل ، وهل تعمل في نفس الوقت (بطريقة متناغمة)؟ أو كل عامل على حدا؟ .

1- العوامل الخارجية:ويقصد بها تلك العوامل التي لا دخل للإنسان فيها بل تحدث بطريقة تلقائية وتتمثل عادة في البيئة الفيزيقية والتغيرات الديموغرافية والاتصال الثقافي (ملحس.استيتية.دلال ، 2008) . فالبيئة الفيزيقية مثلا تترك أثرا واضحا في التغير الاجتماعي ، فالإنسان منذ القدم سعى للتكيف مع تقلبات الطقس وتضاريس الأرض ، كما تحدد نمط عيشه ونشاطه الاقتصادي من زراعة ورعي ،ومن المعروف أيضا أن البيئة الفيزيقية تؤثر حتى على السمات الفيسيولوجية للبشر وتركيبتهم النفسية ونمط حياتهم بصفة عامة ومن هنا

نجد أن البيئة الفيزيقية عامل مهم في التغير الاجتماعي ، ونجد أيضا العامل الديموغرافي من حيث حركة السكان وتغير تركيبتهم وتوزيعهم دور حاسم في التغير والتحول الاجتماعي ، فحجم السكان مثلا يؤثر على نشاط السكان وإنتاجيتهم وتغير بنية الأسرة والسكن ،**فايميل دوركايم** مثلا يرى أن زيادة عدد السكان ينتقل بالمجتمع من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي وتقسيم العمل (عبد.علي.سليمان ، 1985). وهي نفس المسلمة التي انطلق منها **ابن خلدون** – كما أشرنا له في فصل سابق- أثناء حديثه عن انتقال العمران البشري من حالة البداوة إلى الحضارة ، ويأتي أيضا عامل الاتصال الثقافي كأحد العوامل الهامة في التحول الاجتماعي لأن السمات الثقافية الجديدة في المجتمعات تنتقل عن طريق الانتشار (ملحس.استيتيةدلال ، 2008)، والتثاقف أو التلاقح الثقافي بين المجتمعات والجماعات البشرية فيما يخص التكنولوجيا الحديثة والأفكار والمعتقدات وأساليب الحياة ،فالمجتمعات الأكثر اتصالا ثقافيا بمجتمعات أخرى هي الأكثر عرضة للتغير السريع من خلال رفض القيم الاجتماعية التقليدية ومجاراة القيم الجديدة ،ولكن هذا لا يعني أن التغيير يتم بنفس الصورة في جميع المجتمعات وفي كل الحالات فأحيانا نجد مقاومة الثقافة التقليدية أمام الثقافات الحديثة الوافدة ،كما لا ننسى دور العامل الاقتصادي في التغير الاجتماعي من خلال تغير أشكال الملكية ونمط الإنتاج وتوزيع الثروة حيث ينعكس ذلك على البناءات الاجتماعية ومنظومة القيم بصفة عامة.

يمكن القول أن العوامل الخارجية في التحول الاجتماعي تتلخص في العوامل الثلاثة التي ذكرناها ، فالبعض يلحق بها دور العامل البيولوجي مثل العرق والوراثة حيث يعتبر محرك أساسي في تغير المجتمعات وهي نظرة نابعة من تفوق بعض الأجناس عن غيرها وقدرتها على التغيير في مجرى التاريخ ، وعموما يمكن اعتبار العوامل التي ذكرناها الأكثر أهمية وتأثيرا إلى جانب عوامل أخرى متداخلة تعمل أحيانا بطريقة متناغمة ،وفي بعض الحالات يظهر أثر عامل بصورة جلية على حساب العوامل الأخرى ، وعلى العموم فإن تأثير العوامل الخارجية التلقائية يختلف من مجتمع إلى آخر.

2- **العوامل الداخلية:** مصدر العوامل الداخلية هو المجتمع نفسه ،وتتمثل هذه العوامل في التكنولوجيا والنظام السياسي ودور بعض الفاعلين الاجتماعيين (ملحس.استيتية.دلال ، 2008). ومن المسلم به أن هذه العوامل تساهم في تغيير بنية المجتمع ونمط الحياة الاجتماعية واتجاهات الأفراد وقيمهم مواقفهم ، ومن الملاحظ أن التكنولوجيا والتقدم التقني والاكتشافات تعد أهم العوامل في التحول الاجتماعي بل ينعكس على جميع مناحي الحياة وسلوك الأفراد وقيمهم ، فقد ساهمت الاكتشافات العلمية والاختراعات في تسهيل حياة الناس وتغيير أساليب العمل وزيادة التخصص وتقسيم العمل وتحسين الرعاية الصحية ، وتغير أساليب التفاعل بين الأفراد وظهور قيم اجتماعية جديدة ، كما أن التكنولوجيا عامل مهم في تطور الصناعة والتخلي عن أنماط الإنتاج التقليدية وهذا ما ساهم في الهجرة من الريف إلى المراكز الصناعية ، وعموما يساهم العامل التكنولوجي من خلال وسائل الاتصال والنقل في تغيير العلاقات الاجتماعية ، وسلوك البشر ونمط تفكيرهم (علي.كاظم.أمينة ، 1993).

ومن جهة أخرى يبرز العامل السياسي كعامل حاسم في إحداث التحول والتغير الاجتماعي ، فالأنظمة السياسية والحكومات من أقوى الفاعلين في حركية المجتمعات وتغييرها من خلال رسم السياسات على المدى القصير والمتوسط والبعيد ، كما يمكن ملاحظة دور بعض الأحداث السياسية التي تقع فجأة في التغير

الاجتماعي كثورات الشعوب والانقلابات وانهيار التحالفات والقرارات السياسية للقادة والرؤساء ...الخ ، كما لا يمكن إغفال دور بعض الحركات الاجتماعية والاتجاهات الإيديولوجية في التغيير الاجتماعي ،فماركس مثلا يرى أن مهمة الفكر هي تغيير العالم وليس تفسيره كما يفعل معظم الفلاسفة (عادل.مختار.الهواري ، 1981) ، وهذه المقولة تبين مدى دور الفكر والإيديولوجيات التي يحملها الأفراد الفاعلين في المجتمع وكذا الحركات الاجتماعية في التغيير الاجتماعي الهادف . وغالبا ما يرتبط العامل الإيديولوجي بالمذاهب الفكرية والتيارات الدينية والتي تحدث تشريعات جديدة أو تسعى لترسيخ قيم واتجاهات معينة وهذا ينعكس على البناءات الاجتماعية وسلوك الأفراد وتغير نمط تفكير معين ليحل محله نمط آخر يعبر عن مواقف وقيم تمثل نزعة إيديولوجية معينة.

ولا يزعم أحد بقدرته على حصر جميع العوامل المساهمة في التغير والتحول الاجتماعي ، لكن قد يتفق الكثير مبدئيا على الدور الحاسم للعوامل التي تناولناها وهي من المسلمات الأساسية في فهم عوامل وآليات الديناميكا الاجتماعية.

ثالثا: السياق التاريخي للتغير السوسيوثقافي في المجتمع الجزائري: إذا تتبعنا التاريخ نجد هناك ثلاثة عوامل أساسية ساهمت في هذه التحولات وهي إرهاصات لواقع جديد متعاقب ،فالبنى الاجتماعية التقليدية تعرضت لثلاث صدمات وهي صدمة الإسلام والاستعمار والحداثة (*بوطالب.محمد.نجيب ، 2002*) ، ما يهمنا في مظاهر التحول السوسيوثقافي هو محاولة تتبع تغير دور ووظائف بعض المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والتعليم باعتبارهما أهم مصادر القيم لدى الأفراد إلى جانب المؤسسة الدينية ، وأيضا بعض مظاهر الحداثة ودورها في السلوك الفرداني في مقابل المرجعية الجمعية التقليدية ،بالإضافة إلى ملامح التحول في القيم لدى أفراد المجتمع وأثر ذلك على السلوك والفعل الاجتماعي.

إن العودة إلى الأحداث التاريخية الهامة ضروري في فهم عوامل التحول الاجتماعي والقيمي ، فالدين مثلا يعتبر من أهم العوامل التي ساهمت في تشكيل هوية وبنية المجتمع الجزائري وسلوك أفراده عبر الزمن ، فالفتوحات الإسلامية في أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلاديين محطة هامة في تاريخ المجتمع الجزائري حيث أصبح الدين معتقد الكثير من أفراده وساهم في تشكيل نظام الدولة ووسيلة للضبط الاجتماعي والتشريع وتسيير مختلف جوانب حياة الأفراد ، كما حمل الفاتحون معهم اللغة العربية كوسيلة لها ارتباط بالدين الإسلامي وبالتالي تغير لسان الكثير من أفراد المجتمع ، وقد ساهمت الدول الإسلامية التي قامت في المغرب العربي في تلك الفترة في ترسيخ الدين الإسلامي واللغة العربية ووحدة تماسك المجتمع رغم أن ذلك لم يمنع ظهور صراعات واضطرابات اجتماعية وسياسية. (*فركوس.صالح ، 2002*).

وإلى جانب الدين واللغة نجد عوامل أخرى ساهمت في تشكيل البعد السوسيوثقافي للمجتمع الجزائري وتحوله وعلى رأسها المرحلة الكولينيالية والثورة التحريرية ، فالاستعمار مثلا ساهم في تغيير بنية المجتمع الجزائري وحركيته من خلال الثورات الشعبية و سياسة التفكيك والتهجير والقمع وكذلك حاول تشويه بعض البنى الاجتماعية وتحريف وظيفتها مثل الأسرة والقبيلة كما رسخت هذه المرحلة الكثير من القيم الثقافية والاجتماعية فيما يخص الدفاع عن الهوية والعلاقة اتجاه المستعمر والتي زالت تبعاتها إلى يومنا هذا ، أما الثورة فيرى" **محمد السويدي**" (السويدي.محمد ، 1990) أنها من أهم عوامل التغير الاجتماعي في المجتمع

الجزائري والتي تعبر عن حاجة الأفراد للثورة وتعبيرا عن إرادتهم مستوعبة حاجاتهم ومشكلاتهم وهادفة لتحقيق تطلعاتهم المستقبلية فالثورة لم تحقق الاستقلال السياسي فحسب ،بل وضعت أسس حياة اجتماعية جديدة،كما أن التحولات السوسيوثقافية ارتبطت بسياسة الدولة بعد الاستقلال – والتي كانت قصدية ورفضا لبناء اجتماعي تقليدي الذي اتسم بالطابع الاستعماري التقليدي (السويدي.محمد ، 1990)- فيما يخص التعليم والتنمية والاقتصاد وبناء ركائز الهوية وهذه المتغيرات أيضا لها الأثر البارز في تشكيل منظومة قيم اجتماعية كما ساهمت في تحول ملامح الحياة الاجتماعية وظهور التجمعات الحضرية والمصانع وهجرة سكان الريف إلى المدينة وظهور تقسيم العمل – والتي أنتجت نمطا جديدا من الحياة الاجتماعية نتحدث عنه لاحقا-.

إن مظاهر التحول السوسيوثقافي في المجتمع الجزائري يمكن رصدها عبر فترات زمنية معينة ،كما أنها لازالت مستمرة ويمكن ملاحظتها خاصة مع الحداثة والعولمة والانفتاح الإعلامي وما لذلك من أثر في تحول القيم والبنى الاجتماعية والثقافية.

ومن هذا المنطلق يمكننا إدراك أهمية أبعاد هذه التحولات وعلاقتها بمسألة القيم لدى أفراد المجتمع ،فالقيم اليوم تتشكل ويعاد تشكيلها انطلاقا من جملة متغيرات وتحولات سياسية واجتماعية واقتصادية نتيجة انفتاح العوالم والمجتمعات على بعضها ونتيجة لتلاقح الأفكار والثقافات والتطور التقني السريع هذا إلى جانب دور المجتمع الشبكي- الذي تحدث عنه " **دارن بارني** " (بارني.دارن ، 2015)- في إعادة تشكيل القيم بعيدا عن دور البنيات الاجتماعية والمؤسسات وهذا ملاحظ في المجتمع الجزائري مع ظهور وسائط التواصل الاجتماعي والشبكات العنكبوتية وإقبال الشباب عليها .

ثالثا: مظاهر التغير القيمي والثقافي في المجتمع الجزائري:

لا شك أن مظاهر التغير القيمي والثقافي تتجلى في بعض البنى الاجتماعية كالأسرة ،والمؤسسات الاجتماعية الأخرى ،وقيم الشباب ،والعمل .....إلخ ،وهذا ما يقودنا إلى محاولة رصد بعض مظاهر التغير في بنية وقيم الأسرة خصوصا والمجتمع عموما .

1- أثر وانعكاس التحولات على قيم الأسرة:

من الواضح أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها المجتمع الجزائري في العقود الأخيرة قد غيرت التركيبة الأسرية – من أسرة ممتدة إلى أسرة نواة –فبدأت الأسرة الممتدة تتقلص نتيجة لتغير الظروف المادية والثقافية التي أصبحت غير متلائمة مع طبيعتها بل تتلاءم مع نسق الأسرة النواة ،وبذلك تضاعف عدد الأسر النواة حيث تشير الإحصائيات إلى أن 60 بالمائة من الأسر الجزائرية هي أسر نواة بعدما كانت لا تتجاوز 46 بالمائة في أواخر ستينات القرن الماضي. (بوشلوش.طاهر ، 2018)

ولم يقتصر انعكاس التحولات الاجتماعية والاقتصادية على بنية الأسرة فحسب بل انعكست أيضا على قيم أفرادها ووظائفها ، فقد أجمعت بعض الدراسات الجزائرية (سلاطنية.بلقاسم ، 2017) ،على أن التغير الوظيفي للأسرة الجزائرية يمكن تناوله من خلال عناصر أساسية وهي:

- التغير على مستوى نظام الزواج والاعتراف الاجتماعي به.
- التغير على مستوى استمرار الجنس البشري وتكاثره عن طريق الإنجاب.
- التغير على مستوى التنشئة الاجتماعية وتأهيل الأفراد لتبوء مكانتهم الاجتماعية.

- التغير على مستوى تأمين الاستقرار النفسي.
- التغير على مستوى الوظيفة الاقتصادية للأسرة .

لقد تغيرت الأسرة الجزائرية الحديثة من حيث البنية – الدور والمكانة داخل الأسرة – وأيضا من حيث الوظيفة (التنشئة وإنتاج القيم) فظهرت بعض المتغيرات لم تكن معهودة في النموذج التقليدي فيما يخص الأدوار والمكانة داخل الأسرة مثل رأسمال التعليمي والخبرات الشخصية والدخل لدى الزوجين (Benali.Radjia, 2009) وهذا ينعكس على توزيع الأدوار ومكانة الزوجين والسلطة داخل الأسرة كما ينعكس على تنشئة الأولاد وحتى على العلاقات الاجتماعية بصورة عامة.

إن المعروف عن الأسرة الجزائرية التقليدية انطلاقا من دراسة " مصطفى بوتفنوشات" (بوتفنوشات.مصطفى ، 1984) أنها أسرة "ممتدة" أو موسعة تضم عدة عائلات زواجية في فضاء سكني واحد كما أنها"بطريركية" أبوية وهي الأسرة التي تخضع لسلطة الجد والأب الروحية بناء على تقاليد حضارية وتاريخية ،وهذا النمط التقليدي من الأسرة بدأ يتلاشى شيئا فشيئا حيث حل نمط جديد وهو الأسرة الحديثة "النواة" (بوتفنوشات.مصطفى ، 1984) نتيجة للتغيرات في المجتمع ،حيث عرفت نقلات نوعية مند الثمانينيات بعد التحول الاقتصادي الذي وفر حياة أفضل حيث بدأ يظهر القطاع الخاص هدا أدى إلى تراجع الأسرة الممتدة وظهور الفردانية كوسيلة لتحقيق المصلحة المادية كون الفرد موظف له أجر خاص يجعله في غنى عن الآخرين ، وبالتالي ظهرت معايير جديدة لمتوقع الفرد وتحديد مكانته ، فقل اهتمام الفرد بالأسرة الكبيرة ، ومن جهة أخرى تغير دور ومكانة المرأة بخروجها للتعلم والعمل وما صحبه من اكتساب قيم جديدة ،هدا كله سيؤثر على تنشئة الأم للأطفال بالإضافة إلى دخول قيم جديدة في عملية التنشئة.

2- انعكاس التحولات على النسق القيمي للمجتمع:

إن المسألة القيمية في المجتمع الجزائري لا يمكن الإحاطة بها نظرا لتشعب عوامل تشكيلها وإعادة تشكيلها وأيضا لاختلاف التصور حول مفهوم القيم في حد ذاته إذا أخذنا بعين الاعتبار الخصوصية الثقافية والدينية والتاريخية للمجتمع الجزائري التي تختلف عن باقي المجتمعات ، فعلماء الاجتماع الغربيين أجمعوا على أن المجتمع والجماعة هو معيار الحكم على القيم في حين أن العلماء المسلمين يرون أن المعيار هو القرآن والسنة (محمود.مصطفى.نادية.وآخرون ، 2011) ، فالدين له دور مهم في تحديد مفهوم القيم بالنسبة للمجتمع الجزائري ،فالقيم الدينية قد يفسره البعض ويرجعه إلى نسق القيم التقليدية التي تجد نفسها في مواجهة قيم الحداثة وهنا تبرز إشكالية مهمة وهي كيفية تعايش قيم التقليد والحداثة إلى جانب إشكالية أخرى تتعلق بفاعلية نسق القيم بصفة عامة وهو ما أشار إليه "برنار لويس"حيث يرى أن المجتمعات قد تواجه إشكالية فاعلية القيم حين تتحول من قيم ميدانية توجه السلوك الاجتماعي والسياسي لأفراد المجتمع إلى قيم غير مفعّلة في الواقع ، وذلك من خلال تبني الأفراد للقيم نظريا فقط دون أن يكون لها دور في السلوك العملي. (محمود.مصطفى.نادية.وآخرون ، 2011).

ولا شك أن التغير الاجتماعي بصفة عامة أدى إلى اختلال نسق القيم في المجتمعات العربية حيث حلت القيم المادية والاقتصادي في القمة في مفهوم القيم وذلك من خلال السعي للكسب السريع في مقابل العمل المنتج وحل الاستهلاك في مقابل الادخار والاستثمار ،والنمطية في مقابل الإبداع واللاعقلانية في مقابل

العقلانية ،وتفضيل المصالح الشخصية على المصالح الوطنية (بيسوني.محمد.أحمد ، 1990) ، هذا على صعيد القيم المجتمعية بصفة عامة.

أما على صعيد الأسرة فقد تغيرت القيم الأسرية هي الأخرى حيث حلت قيم جديدة مثل: قيم تأخر زواج الشباب ، والمعايير المادية في الاختيار للزواج ، وعدم القدرة على التخطيط للمستقبل ، والإحباط....الخ ،فالشباب يجد نفسه عاجزا عن تحقيق حاجاته الأساسية المشروعة(بيسوني.محمد.أحمد ، 1990).

ولا شك أن التحولات التي عرفها المجتمع الجزائري في العقود الأخيرة سوف تتجلى انعكاساتها بصورة واضحة على نسقه القيمي ،وقيم الأسرة ،والشباب ،وقيم العمل ،ومن بين تجليات آثار التحولات على نسق القيم في المجتمع نجد:

إن التحولات التي شهدها المجتمع الجزائري في العقود الثلاثة الأخيرة أثرت على الكثير من المعايير والقيم لدى أفراد المجتمع ، ولعل تغير نظرة أفراد المجتمع لتعليم وعمل المرأة نحو النظرة الايجابية وتلاشي القيم التقليدية شيئا فشيئا فيما يخص عمل وتعليم المرأة ،كل هذا يعد أحد ثمرات هذا التحول ،حيث حققت المرأة مكاسب كثيرة نتيجة لهذا التحول حيث ارتفع مستوى تعليمها في مختلف التخصصات ، وهذا ما يساعدها على اقتحام سوق العمل في عدة مجالات كالطب ،والإدارة ،والتعليم ،والمحاماة ...الخ .

فإقبال الفتيات على التعليم ، وخاصة التعليم الجامعي ودخول سوق العمل لهو دليل قاطع على تغير منظومة القيم الاجتماعية لدى أفراد المجتمع ، وتغير نظرة المجتمع إزاء تعليم الفتاة وعملها خارج البيت. (بوشلوش.طاهر ، 2018)

كما أن الاحتلال الفرنسي يعتبر أكبر صدمة للتحول القيمي في المجتمع الجزائري حيث عملت المقاومات الشعبية على غرس بذرة التغيير والمقاومة ،كما عمل الاستعمار على تفكيك منظومة القيم التقليدية ،لتأتي الثورة التحريرية لتوقع على أعمق تغير في القيم المجتمعية ،حيث لم يعد ترتيب العلاقات الاجتماعية يخضع لمعيار السن ،كما تحررت المرأة من النظرة الدونية وأصبحت تشارك الرجل في المهام البطولية في الثورة.

أما في العهد الأخير فقد تدعمت مكانة المرأة بفضل عدة تشريعات منها ،حماية المرأة من التجاوزات الأسرية وتحريرها نسبيا من الوصاية (ولدخليفة.محمد.العربي ، 2016). وبالتالي نجد أن نظرة المجتمع للمرأة بدأت تتغير شيئا فشيئا من حيث مكانتها والنظرة لعملها وخروجها من البيت....الخ.

من جهة أخرى فقد أدت التحولات في المجتمع الجزائري إلى ظهور قيم جديدة لدى الشباب ، وهنا لسنا بصدد الحديث عن مشاكل الشباب أو تطلعاتهم وإنما رصد ملامح التحول لدى قيم الشباب (قيم العمل ،القيم الدينية ،الفردانية.....الخ) باعتبارهم جيل جديد هو محصلة منظومة اجتماعية محلية وعالمية خاصة فيما يتعلق بالتعارض بين قيم التقليد والحداثة وصراع الأجيال ،فالشباب في كل مكان وفي جميع أدوار التاريخ حتى يومنا هذا ،أداة التغيير في المجتمعات ذلك لأن لديهم من القدرة ما ليس عند غيرهم من الفئات في تغيير المجتمعات وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أن الأجيال الشابة أكثر تقبلا للتطور والتغير ولا ترى حرجا في تقبل أي تغير اجتماعي أو اقتصادي بل ربما تجد هذا التغير ما يتفق مع طبيعتها وخصائص نموها ،وبالتالي الرغبة في التغير والصراع مع القديم. (الشيباني.محمدالتومي.عمر ، 1984).

يمثل الشباب من الناحية الديموغرافية غالبية المجتمع الجزائري ، بمعنى أن معظم أفراد المجتمع الجزائري معاصرين لقيم الحداثة بغض النظر عن تنشئتهم الاجتماعية ، فأصبح الشباب يشكلون ضغطا على البنى الاجتماعية التقليدية وعلى رأسها العائلة ، فأصبحوا يتلقون تنشئة اجتماعية خارج النظام العائلي وبالتالي أصبح الشباب يحمل تصورات وسلوكات تخالف تلك التي كان عليها آباؤهم وأجدادهم ، فنتج عن دلك صراع بين الطرفين أساسه تمرد الشاب على سلطة أبيه في معظم السلوكيات خاصة مع الانفتاح الإعلامي وزيادة انتشار شبكات التواصل الاجتماعي حيث تتجلى بعض قيم الفردانية لدى الشباب الجزائري من خلال مايلي:

- رفض بعض القيم التقليدية واستبدالها بقيم حديثة وهذا ينتج عنه تعارض القيم بين جيل الآباء والأبناء.
- تراجع دور الأسرة في اختيار الزوجة للابن حيث يفضل معظم الشباب الاختيار بأنفسهم.
- الاهتمام بالموضة وأنماط اللباس ومجاراة النجوم والشخصيات الشهيرة والتأثر بهم.
- الاستقلالية في اختيار التخصص الدراسي الجامعي والعمل أيضا لدى الكثير من الشباب.
- التوجه للاستقلالية في الإنفاق والسكن بعد الزواج .
- السعي لإشباع حاجات نفسية وشخصية مرتبطة بالحرية الشخصية.
- ظهور قيم عمل جديدة تتماشى مع تصورات الشباب لواقعهم الاجتماعي ومستقبلهم .

3- انعكاس التحولات على نسق قيم العمل: يعتبر نسق قيم العمل أحد أهم تجليات انعكاس التحولات الاجتماعية والاقتصادية على القيم في المجتمع الجزائري ،حيث تغيرت نظرة الشباب والكثير من أفراد المجتمع نحو العمل وقيمته ،حيث تغيرت نظرة الشباب للعمل كقيمة اجتماعية واقتصادية ،فالشباب لم يعد ينظر للعمل من ناحية الجدوى الاقتصادية بمعنى أن يكون لعائده المادي القدرة على إشباع الحاجات المختلفة مثل : المأكل والمشرب والملبس ،وتحقيق ثروة لشراء مسكن أو تكوين أسرة مستقبلا.

بالإضافة إلى ذلك تغيرت النظرة اتجاه العمل الحرفي والمهني ، فلم يعد ينظر للعمل الحرفي نظرة دونية طالما انه عمل شريف يتفق مع قيم المجتمع ،وله عائد مادي محفز لصاحبه (بوشلوش.طاهر ، 2018)، ولهذا يفضل الكثير من الشباب الاتجاه إلى التكوين المهني أو الحرفي بحثا عن عمل يضمن دخلا أفضل .

لقد غيرت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجديدة الكثيرة من تصورات واتجاهات الشباب نحو العمل ، فارتفاع معدلات البطالة وارتفاع تكاليف المعيشة وركود سوق العمل وضعف فرص التوظيف قد جعل الكثير من الشباب يحمل تصورات سلبية اتجاه العمل وينظر إلى مستقبله المهني نظرة تشاؤمية وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى التسرب المدرسي وتراجع مستويات التعليم لدى الشباب الذكور خاصة لاعتقادهم بعدم جدوى التعليم في الحصول فرصة عمل .

ومن جهة أخرى نجد أن الشباب ينظر نظرة سلبية لبعض المهن والحرف الشاقة خاصة اليدوية مثل البناء وقطاع الفلاحة ، مما يؤدي إلى عزوف الكثير منهم عن العمل بهذه القطاعات التي تعرف عجزا كبيرا وهذا راجع للعامل الثقافي بالدرجة الأولى حيث يفضل الكثير من الشباب العمل المريح والذي يمنح صاحبه بريقا اجتماعيا ،وهذا ما سوف يخلق مشكلة حقيقة تنمية القطاعات المنتجة في الاقتصاد الوطني - التي لا تلقى إقبالا من الشباب عليها- وبالمقابل نجد تشبعا في ببعض القطاعات كقطاع الغدارة والخدمات والتي تستقطب شريحة واسعة من الباحثين عن الوظائف بها.

خاتمة:

لقد انعكست التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة عالميا ومحليا -التي شهدها المجتمع الجزائري- على بنيته ونسقه القيمي ، وتعد منظومة القيم الثقافية إحدى أهم مظاهر تأثير هذه التحولات

فنسق القيم الثقافية دينامي متحرك ويتأثر بعدة متغيرات محيطة به شأنه شأن نسق القيم الاجتماعية بصفة عامة ،حيث تعمل مختلف المؤثرات الداخلية والخارجية على تغيره باستمرار وبوتيرة مختلفة ،ومن اجل فهم آلية تغير نسق القيم يجب دائما الرجوع إلى السياق التاريخي العام الذي تتشكل فيه منظومة القيم وتتبع تطورها على اعتبار أن التاريخ هو مادة مخبرية هامة لفهم واقع أي ظاهرة أو بناء اجتماعي ،وهذا ما ينطبق على حال المجتمع الجزائري.

إن منظومة القيم الثقافية والاجتماعية رهان كبير في البناء الحضاري والتنمية الاجتماعية والاقتصادية ،لهذا ينبغي الحرص على تنميتها عن طريق الغرس الثقافي والتنشئة الاجتماعية التي تضطلع بها مختلف المؤسسات الاجتماعية وعلى رأسها الأسرة ،والمدرسة ،والمسجد ،وإن كانت هذه المؤسسات لا تؤدي وظيفتها الحقيقية في هذا المسعى ، وجب إعادة النظر في الدور المنوط بها ،لأن القيم الايجابية في المؤسسات هي تثمين لرصيد ثقافي لدى الأفراد بحيث تتجلى هذه القيم في صور سلبية أو ايجابية حسب ما تم ترسيخة وتعليمه لهؤلاء الأفراد.

كما أنه ومع التطور الحاصل على جميع الأصعدة وانفتاح الأفراد على مختلف المرافد الثقافية جعل التنشئة الاجتماعية والثقافية للأفراد تعتمد على عدة مرجعيات وليس على المرجعية الكلاسيكية المتمثلة في مؤسسات التنشئة (الأسرة ،المدرسة ،الدين)، فنجد للإعلام ووسائل التواصل الشبكي دورا لا يستهان به في إعادة تكوين القيم الاجتماعية للفرد ، فالعولمة قلصت وقزمت من دور مؤسسات التنشئة الأم بحيث جعلت الأفراد يتشربون قيما جديدة قد لا تتماشى مع خصوصية المجتمع والتي تستند إلى الحرية والفردانية.

قائمة المراجع:

افيروت أ ، هاجين. حول نظرية التغيير الاجتماعي. ترجمة عبد المغني سعيد. القاهرة . مكتبة الأنجلو مصرية.
سلاطنية ،بلقاسم . (2017) . تغير الأدوار الوظيفية للأسرة الجزائرية. جامعة بسكرة . مجلة التغير الاجتماعي (العدد الثاني).
سكوت ،جون. (2013).علم الاجتماع (المفاهيم الأساسية). ترجمة محمد عثمان. بيروت. الشبكة العربية للأبحاث والنشر .
بارني ، دارن.(ط1 ، 2015). المجتمع الشبكي. ترجمة أنور الجمعاوي . المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
ملحس إستيتية ،دلال.(ط2008 ،2) . التغير الاجتماعي والثقافي. عمان . دار وائل للنشر .
الشيباني ، عمر محمد التومي.(ط9 ، 1984) . الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب . ليبيا. الدار العربية للكتاب.
فركوس ،صالح.(2002). المختصر في تاريخ الجزائر. الجزائر .دار العلوم للنشر والتوزيع.
بوشلوش ،طاهر محمد.(2018). التحولات الاجتماعية والاقتصادية وآثارها على القيم في المجتمع الجزائري. الجزائر. دار الكتاب الحديث.
عبد علي ، سلمان.(1985) . الانثروبولوجيا الاجتماعية. مطابع جامعة الموصل ،.
السويدي ،محمد. (1990) . مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري.الجزائر. ديوان المطبوعات الجامعية.
بوطالب ،محمد نجيب.(ط2002 ،1) .سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي . بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
بوتفنوشات ،مصطفى. (1984). العائلة الجزائرية (التطور والخصائص الحديثة) . ترجمة ، أحمد دمري. الجزائر. ديوان المطبوعات الجامعية.
نادية ، محمود مصطفى وآخرون.(ط2011 ،1). القيم في الظاهرة الاجتماعية .القاهرة. دار البشير للثقافة والعلوم.
Giddens, A.(1991). Modernity and self- Identity. Cambridge. Polity Press.
Radjia,Benali(2009) .Rôles et statut dans la famille Algérienne contemporaine. ARABPSYNET E. Journal .N°21-2.

مستقبل التنمية في الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر.

Search Title: The Future development of modern Maghreban philosophical speech

د. نور الدين بن قدور ، جامعة وهران-الجزائر

مقدّمة:

سنُحاول من وجهة نظر مستقبليّة إستشراف ما سيؤول إليه مستقبل التنمية في الخطاب المغاربي في عالم ، ومن خلال دراسة نقديّة ، نقد المشروعين وموظّفين منهجا مقارنا للبحث عن مواطن الإتفاق- والإختلاف— وعن الطبيعة العلائقية التي يلتقي فيها هذين المشروعين ،كما سنتطرّق إلى موضوع التنظير المستقبلي ، تنمية الوعي بالمستقبل ،وضرورة تجديد الخطاب المغاربي.

إنّنا إزّاء مشكلات العصر وصراعاته أحوج ما نكون إلى ما يشبه الأورجانون الجديد ،إلى آلة نرسم بها خارطةً للطريق تنير لنا دروب التفاعل ، مع تحديات الواقع وأزمته وتوجهنا إلى الكيفية التي نتعامل بها لتحقيق الأفضل لمستقبل أجيالنا ، إنّ الماضي مضى ولن يعود والحاضر سيصير ماضيا ومن ثمَّ علينا أن نجتهد للتفكير في المستقبل والتخطيط لما ينبغي أن يكون ،بفكرٍ مُنفتحٍ وعقلٍ مُستنير.

كيف إذن: يستطيع الخطاب الفلسفي المغاربي في المستقبل ،أن يبدع مشروعا فكريّا تنمويًّا جديداً لإعادة توزيع الثروة وتحقيق أكبر قدر من المساواة كأمن للوطن من الثورات الإجتماعية؟ وكيف لهذا الخطاب الفلسفي المغاربي في المستقبل أن يصوغ أيديولوجيا في التّنمية في مغربنا العربي الكبير تعتمد على الذات وتنمية الموارد المادية والبشرية وإعطاء الأولوية للعوامل الداخلية قبل العوامل الخارجية؟ وكيف لهذا الخطاب أن يحمي الهويّة في عصر الإستقطاب والتغريب والأصولية ، بين الانبهار بالآخر والانكماش على الذات إلى حدّ الخصام الوطني أحيانا والنزاع المسلّح والقتال بين الإخوة الأعداء أحيانا أخرى؟ !!

كيف للخطاب الفلسفي المغاربي مُسْتَقْبَلاً أن يعقد حوارا وطنيا بين التيارات الفكرية والسياسية ، حماية للثقافة الوطنية **والتعدّد والتنوّع** اللغوي والثقافي والإثني والديني؟ كيف يستطيع الخطاب الفلسفي أن يصوغ رسالة في الأمانة وحفظ كرامة الإنسان المغاربي؟ كيف يستطيع أن يحوّل الجماهير المغاربية إلى طاقة للبناء والإعمار ومن الكم والحجم إلى الكيف والنّوع؟ كيف يمكن بلورة وعي تاريخي فلسفي مغاربي يفكّ أسرنا الأيديولوجي حتى لا يظل الغرب وحده صاحب الوعي التاريخي؟ يقودنا كيف يشاء؟

كيف يستطيع الخطاب الفلسفي المغاربي في المستقبل أن يصوغ نظرية في التنمية قادرة على أن تنزع جذور التسلط من وجداننا المعاصر والمترسبة في وعينا الثقافي ومشروع الوحدة مايزال بعيد المنال ، بل ازددنا تشرذما وتجزئة وحدودا وتأشيرات دخول وقطِريّة ونزاعات حدودية وشكاوى في محاكم العدل الدوليّة وفي مجلس الأمن والمنظّمات الدوليّة؟ كيف للخطاب الفلسفي في المستقبل أن يضمن للشعوب المغاربية حقها بفلسفة في الوحدة تنبع من التوحيد بين الثقافات والأعراف المتعددة والمتنوّعة لكنها منسجمة ومتكاملة في عصر لا يؤمن إلاّ بالتكتلات الكبرى والشركات العملاقة العابرة للقارات؟ وما الدور الذي يمكن أن يؤدّيه الفكر

الفلسفي المغاربي مستقبلا في دعم برامج التنمية الشاملــة؟ وهل للخطاب الفلسفي وقعٌ وتأثيرٌ في برامج التّنمية؟

وما الذي سيؤول إليه حال الأقطار المغاربيّة إذا استمر مشهد التجزئة الذي يعيق إمكانية التكتّل؟ وهل تتوفّر هذه الأقطار على إمكانيات المقاومة والصمود في ظل المتغيرات الدولية الجديدة ، سواءا على المستوى العربي ، أو على المستوى الإقليمي والدولي؟ وما السبيل إلى إبتكار آليات لتغيير نمط تفكيرنا من النمط التقليدي الجامد إلى النمط المتجدّد القادر على التفاعل مع كل جديد سواء من حيث مناهج التفكير أو من حيث أدوات التحليل؟

أولا: دراسة نقديّة مُقارِنَة لمشروعي: د. عبد الله شريّط ، و د. عبد الله العروي:

1: دراسة نقديّة للمشروعين:

نعتقد أنّ إشكالية استيعاب دروس الحداثة الغربية لم تعد مطروحة اليوم بنفس الطبيعة التي بلورتها جهود المُفكِّرَيْنِ د.عبد الله شريّط ، ود.عبد الله العروي ، رغم قيمة مشروعيهما ، وعليه فإنّ الأسئلة الجديدة التي تُطْرَح اليوم في مجال الواقع المغاربي والعربي الرّاهن تدعونا إلى إعادة قراءة هذين المشروعين من جديد وإعادة التفكير فيما لم يفكّرا فيه في ضوء مستجدات العصر. وعلى إثر الهزّات التي ما فتئت تزعزع كيان الحاضر المغاربي والعربي ضمن متغيرات أشمل أصابت المجتمع الدولي ، وتركت آثارها على أنساق الفكرومدارس الفلسفة ، وواقع الأنظمة والاختيارات السياسية.

إنّ الثقافة الماركسية التي تبنّاها وحمل لواءها كلاّ منهما ، في حقيقتها هي رافد من الروافد العديدة للثقافة الغربية ولا يمكن أن تفهم وتستوعب خارج استعاب شامل لتطور الثقافة الغربية ، وبدءا بالثقافة اليونانية– الرومانية ، و اليهودية – المسيحية اللّتين هما مرجع الثقافة الغربية المعاصرة ، مرورا بعصر الأنوار وبآدم سميت وبهيجل وانتهاءا بالاتجاهات الفلسفية السياسية الحديثة ،حيث المدارس الماركسية تعدّدت وتصادمت والمدارس الليبرالية والقومية ما تزال حية بأشكال مختلفة بعد أن اقتبست واحتضنت الكثير من المفاهيم الماركسيّـة.

وعلى هذا الأساس فإن الماركسيّة لا يمكن أن تستوعب على حقيقتها بمعزل عن محيطها الطبيعي وإلا فقدت مدلولها وشُوِّهتْ ، وخاصةً أنّ الماركسيّة بحد ذاتها هي من التعقيد بحيث أنّه لا يمكن فك ألغازها وتناقضاتها دون الالمام بالتيارات الفكرية التي أثرت وما تزال تؤثر فيها ،ودون الالمام بالمعطيات الاقتصادية والسوسيولوجية التي واكبت ظهور فكر ماركس وأتباعه أي الثورة الصناعية ،وكذلك تطور الرأسمالية البريطانية وبروز مفهوم الدولة الحديثة التي نَظَّر لها هيجل.

أمّا الأخذ بالماركسية كشعار سياسي وثقافة سياسية مبسطة خارج محيطها الطبيعي فهذا عمل يخالف العقلانية ذاتها التي دعى إليها ماركس نفسه كَمُكَمِّلَة للخط العقلاني للثقافة اليونانية ، وعليه فعلى كل المجتمع أن يكوِّن عقلانيته حسب الظروف والزمن. إنّ العقلانية الصحيحة ليست منطقا قائما بذاته بل هي قدرة المنطق على التطّور مع تغيير الظروف والبيئة والزمن ، فالماركسية بذاتها تشكل عقلانية إنما عقلانيتها هي ما قدّمته من إمكانيات لتطوير الفكر الأوروبي وأدوات تحليل جديدة للواقع الاجتماعي ، وفي أفكار ماركس ذاته الكثير من

الغموض والتناقض الذي يعكس الاتجاهات المتناقضة السائدة حينذاك في مجتمعه والذي أفسح المجال لتعدّد المدارس الفكرية التي تدّعي كلها الولاء لفكر ماركس.

لكل هذه الأسباب فإن الأخذ بالماركسية يجب أن يكون في إطار واسع بحيث يتمكن المرء من إستيعاب لب تجربة التطور الحضاري الغربي ،الذي يمثل الفكر الماركسي فيه حلقة ضمن سلسلة معقّدة من التيارات الفكرية— السياسية— الحضارية ،أما إذا استوردت الماركسية مبتورة عن تعقيداتها الذاتية وعن عوامل تكونها المحيطة ، فإنّها ستكون عنصر اختلال جديد في المجتمع المستضيف لها بهذا الشكل وستأتي كجسم غريب عليه. كما أنّ إفتقار الثقافة القوميّة يجعل الماركسية— بعد تبسيطها وإن كانت مكيفة لبعض الخواص المحلية كما في الصين بصورة خاصة بمنزلة العقيدة السياسية الثقافية الوحيدة والقسرية وبذلك تُستبدل العقائد التقليدية باستبداد عقيدة أخرى حديثة في الشكل ولكن تقليدية في الجوهر ،لأنّها تستعمل في المجتمع بالأساليب الاستبدادية التقليدية.

وفي كثير من الأحيان تستورد الماركسية بطريقة غريزية لسد فراغ حضاري أحدثه الانحطاط والاستعمار و بالتالي تستعمل للتعويض عن المخاطر الناجمة عن تعرض القيم التقليدية في المجتمع للإنهيار ، وبالتالي لخطر إبطال مفعولها في اللعبة السياسية والماركسية كونها تكملة للحضارة الرّسولية اليهودية— المسيحية التي تتجسّد سياسيا بسهولة بشكل التهذيب الديني المتعصّب. ولهذا يمكن أن نقول أن:المشروعان التنمويان اللذان جاءا في الخطاب الفلسفي المغاربي للمفكّرين د.عبد الله شريّط ،ود.عبد الله العروي ، لم يتمكّنا في أن يتحوّلا إلى أيديولوجيا للتنمية ، والدليل على ذلك ، إصرار الواقع المغاربي على اتخاذ وجهة مغايرة لهما فكريّا وسياسيّا وثقافيّا.

أ :نقد مشروع د. عبد الله شريّط:

لا شكّ أنّ د.عبد الله شريط مفكر متشبّع بالأيديولوجيا الاشتراكيّة ، وأحد المتأثّرين بها وأبرز مُنَظِّريها والمدافعين عنها ، الفلسفة بالنسبة له قريبة من النّاس ترصد همومهم وتطرح قضاياهم ، باحثةً عن حلول لمشاكلهم ومنتقدة لتصوّراتهم وطرق تفكيرهم ، كما يعدّ أحد أبرز منظّري الحركة الوطنية الإيديولوجيّين ، وقد كتب وحاضر وناقش كل المسائل تقريبا التي ارتبطت بدولة الاستقلال.

ركّز على محاور متّصلة بالرّاهن وتحدّيات الإنتقال من زمن كولونيالي إلى زمن بناء الدّولة الوطنيّة ، محلّلا التناقضات المضادة للطموح الوطني ، كان يمتلك بحكم خبراته المعطيات التي تجعله يحيط بالخلفيات والأبعاد ويحيط بالصراعات والرّهانات وهو صاحب مشروع فكري متكامل ، يأخذ من الأدب والفلسفة ، ويوفّق بين الحداثة والتراث. لكن رغم ذلك تعرّض للإقصاء من الحظيرة الحداثية ، إذ نَظَرَ إليه عامّة المثقّفين أنا ذاك ،على أساس أنّه مثقّفُ سلطةٍ ، كما قُدّم بعد المناظرة الشهيرة التي جرت بينه وبين مصطفى الأشرف الذي كان وزيرا للتربية الوطنيّة بعد إستقلال الجزائر بخصوص مشكلات التربية والتعليم.

ونتيجة لهذه المناظرة ، تمّ تصنيف الأشرف كمثقّف حداثي ، لأنّه دعا إلى الازدواجية والتعريب المرحلي بينما تم وضع الدكتور شريط في خانة المثقف التقليدي بعد أن دافع عن التعريب ورفض الازدواجية اللغوية ، فأصبح الأشرف حداثيا ، لدفاعه عن الفرنسية وتحوّل د. عبد الله شريّط إلى متعصّب تراثي تقليدي لأنّه دافع عن اللغة العربيّة ؟!!

ومن وجهة نظر د.عبد الله شريط أنّ «اللغة هي أحد المكونات الأساسية الأكثر أهميّة للشخصية وعدم استعمالها ولو لفترة مؤقتة يعرّضها لخطر الاستيلاب» (معيرش.مصطفى ، 2006). و عكس ذلك فقد رأى مصطفى لشرف- أنّ الازدواجية اللغوية في التعليم ، هي السبيل الوحيد للولوج إلى الحداثة.

لقد حاول د. عبد الله شريّط ربط الفلسفة بواقعها ، وهي العلاقة التي رآها قائمة بين الفلسفات الناجحة وأشكال الواقع ، حيث استندت فيه السياسة إلى الفلسفة ، وهذا في تصوّره -ما نفتقده نحن العرب -الذين صرنا ،كما يقول ننظر إلى الأمور نظرة مزدوجة ، حيث الدّين في واد والواقع في واد آخر ، واللغة المكتوبة في واد والمنطوقة في واد آخر وهكذا مع بقيّة المجالات

كما أكّد على دور الإنسان في التنمية ، وأنّ أيديولوجيا التنمية الحقيقيّة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا هي أيديولوجية نقل المعرفة ، لا نقل المصانع ، ونقل المعرفة معناه تنمية الإنسان. وحقيقة فإنّ الإنسان هو المرتكز الجوهري والأساسي في عملية التنمية ،وعدم الإهتمام بتربيته وتكوينه ،وتأهيله ، سببٌ لضياع فرص التنمية في المغرب العربي.

ب- نقد مشروع د. عبد الله العروي:

يؤكّد ، د. محمد سبيلا على أنّنا من خلال تتبع نصوص وكتابات د. العروي نجده يدعو وبصيغ مختلفة إلى أنّه لا سبيل ولا إمكانية للتخلص من التخلف الحضاري والتأخر التاريخي الذي تعاني منه الشعوب العربية إلا بتملك روح الحداثة وفكر الحداثة في حين أننا لا نجد في مشروعه ، تقديم وصفة تفصيليّة جاهزة لهذه الحداثة وفكرها ولهذا فالدكتور العروي - في إعتقاد د. محمد سبيلا - لم يقدّم شيئا عدا أنّه حاول رسم بعض المعالم الفكرية إنطلاقا من نموذج تاريخي أصبح كونيا هو "الحداثة الأروبية" وبخاصّة عقلانية القرن التاسع عشر وفلسفة الأنوار في أروبا ، فهو يدعو كما يقول «إلى استيعاب مقوّمات ومكاسب العقل الحديث من عقلانية وتاريخانية ، ونسبيّة وفردانيّة وفعّاليّة ، مميّزا بين أيديولوجيا وسياسة الغرب الامبريالي الحالي وبين الفكر العقلاني الأوروبي الحديث ذاته أي بين المنهج والأيديولوجيا» (سبيلا.محمد ، 2007) نجدد العروي يتخلى عن هذا الدور في استشرافه لمستقبل العالم العربي ، بدعوته الحاسمة إلى القطيعة مع التراث ، وكأننا يمكن أن نحقّق الحداثة خارج تاريخنا الحي ، والمنطق والواقع يثبت أن جميع المجتمعات الأوروبيّة لم تحقّق الحداثة بقفزها الإرادي عن محددها الثقافي هذا المحدد الذي يعتبر بمثابة الشرط الوجودي لتاريخها ، وكأن التراث زينة إضافية يمكن أن نتخلى عنها متى نشاء.

كما أن التجربة الأوروبية التي ينادي بالاقتداء بها د. العروي نفسها تشهد على ذلك ، فهي قامت على العودة إلى التراث اليوناني والروماني والمسيحي وإعطائه معنى جديدا ومحفزا. ودليل ذلك إعتراف كبار المفكّرين الغربيين بدور الإصلاح الديني في الحداثة الأوروبية أمثال هيجيل وماكس فيبر ، ومارتن هيدجر...وغيرهم وهو دليل على أنّ التحديث إما أن يكون داخليا وأهليا وذاتيا أولا يكون ، فكيف هو الحال لأمّة تعرّضت لكافة أنواع العنف والتفكيك والسيطرة ونهب الموارد والإحتقار.ولذلك نقول إنّ الحداثة إذا لم تنبثق عن تطور ذاتي فهي وجه آخر للإستعمار والسيطرة ولعل هذا ما تعاني منه الحداثة العربية الإسلامية الهجينة من إلتباس ورفض وردود فعل دفاعية ، أوَ ليس القول بضرورة القطيعية مع الماضي والتراث هو في حد ذاته دعوة لإلغاء التاريخ ؟!!

في نفس السياق يرفض د. محمّد عابد الجابري الكونية الموهومة للعروي التي تعتبر الماركسية هي النظرية الوحيدة الكفيلة بتحقيق التقدم لشعوب الأرض قاطبة والقطيعة مع التراث في اعتقاده تصّور عقيم غير منتج.
وعلى العكس من ذلك فنجد د. محمّد عابد الجابري يتشبث بأهمية محاورة التراث لتملكه والانتفاع منه وجعله معاصرا لنا ، وإلى النظر إليه نظرة تاريخية تعتمد على إضفاء المعقولية على ما نقرأه والبحث فيه عما يمكن أن يساهم في إعادة بناء الذات العربية وهي ما نحتاجه في الظرف الراهن.
فليس ارتباطنا بتراثنا مثلما يعتقد د. العروي عبارة عن هدم بل هو إحياء وبعث أو بناء بشرط مراعاة الخصوصية في هذا التراث الإنساني ذلك لأنّه عندما يطلب من العرب أن يستوعبوا الليبرالية الأوروبية فإن ذلك يعني أن عليهم أن يستعيدوا على صعيد وعيهم تراثا أجنبيا عنهم بمواضيعه وإشكالياته ولغته وبالتالي لا يشكل جزءا من تاريخيهم. « إنّ الشعوب لا يمكن أن تستعيد في وعيها ولا يمكن أن تستعيد إلا ثراثها أو ما يتصل به أما الجانب الإنساني العام في التراث البشرى كله فهي تعيشه داخل تراثها لا خارجه» (الجابري.محمد.عابد ، 1980)
في هذا السياق يرى عبد الكبير الخطيبي: أنه لكي نقطع الصلة مع التراث يجب أن نعرفه جيدا كما يجب أن نكون قد أحييناه وتشبّعنا به كما يعتبر الخطيبي أن التاريخانية لم يعد لها من مبرر لأنها ترتبط بمفهوم معين عن الهوية والاختلاف المتوحّش الذي يقذف بالآخر في خارج مطلق ، إنّ ما يعيبه الخطيبي على العرويهو فقر نظريته في الاختلاف وخلط بين الأنثروبولوجية الثقافية وفكر الإختلاف» (الخطيبي.عبد.الكبير ، 1980)
ورغم ما قدّمه د. العروي من حجج بليغة لإثبات رؤيته حول ظاهرة التأخر التاريخي ، الذي طال العالم العربي ، ودعوته إلى مشروع التاريخانية الماركسية ، إلا أننا نعتقد أن مشروعه رغم أهميته من الناحية المعرفية والحضارية ، باعتبار الماركسية إبداع عالمي يحضى بقيمة تاريخية متميزة ، إلا أننا نعتقد أنه يستحيل على البلاد العربية اليوم أن تعيش تاريخ شعوب أخرى ولا يمكنها أن تحقق حداثتها إلاّ من خلال التشبّث بهويّتها وأصالتها.
فهذا ليس من عادة التاريخ ودروسه فالتاريخ لا يعيد نفسه ، ولو في الفضاء الذي حدث فيه (الثورة الاقتصادية ، والسياسية ، والإصلاح الديني) فإذا كانت قوانين الحداثة الغربية واضحة لدينا اليوم وعلى مستوى العالم ، فإنها ليست مطلقة بحيث تصبح شرطا للتحديث في المستقبل ولأي طرف في العالم .
لكن رغم كل الانتقادات التي وجّهت لمشروع د. العروي لا يزال يحظى بالاهتمام لدى الكثير من أبناء الأمة العربية ، «بل لازالت العديد من الأحزاب العربية* وبعضها في السلطة يستبطن نظريته الإصلاحية بشكل أو بآخر» (جبرون.امحمد ، 2012)إنَّ المغرب العربي الذي يريده د. العروي يحتمل حقيقة تاريخية سيبقى الوعي مشحونا بها إلى حين التخلص منها ، فهو سيبقى- كما يؤكّد على ذلك د. هشام جعيّط - دون شك متأخرا عن المشرق في العدد وفي تنوّع الأعمال المؤلفة ، لكنَّه سَيَسْبِقُ المشرق في النوع والقيمة وهو بصدد القيام بذلك.

*- نذكر على سبيل المثال: "حزب الاتحاد الاشتراكي" في المملكة المغربية ، الذي مارس المعارضة والسلطة في الدول المغربية.

وهنا يشيد د. جعيط بالعمل الذي يقوم به د. عبد الله العروي حينما يذكر ذلك صراحة بقوله «إنّي بصدد التفكير مثلا في آراء د. عبد الله العروي ، التفكير الذي يتصف بالاتزان والدقة والمتانة» (جعيط.هشام ، 1984)

ثانياً: دراسة مقارنة (الإختلاف - الإتفاق – العلاقة):

1_ مواطن الإختلاف:من خلال استقصاء كتابات كل من المفكّرين دعبد الله شريط ،ود. عبد الله العروي ، اتضح لنا أنّ ثمّة إختلاف عميق في كيفيات طرح ، وفهم وتبني بعض المفاهيم والتصورات المحورية في خطابهما الفلسفي ، ومن هذه المفاهيم الماركسيّة ، الحداثة والأيديولوجيا ، والديمقراطية ، والعقلانية وكذا الإختلاف من حيث المنهج الذي يقترحه كل منهم لنجاح أوفشل تطبيق هذه الرؤى والتصورات في مشروع التنمية وهذه الإختلافات في المناهج ، ترتدّ إلى طبيعة الإختلاف الكامن في المرجعية العلمية والمعرفية ، والفكرية التي ساهمت في تكوين كل مفكر على حدى وبالتالي تحوّلت إلى أيديولوجيا يدافع عنها ويتبناها ، والتي تجسّدت في شكل الخطاب الفكري الذي يمثّله كلّ منهما.

أ إختلاف في المفاهيم:

بالنسبة للدكتور عبد الله شريط :

ثمّة مجموعة من المفاهيم الناظمة لمساق الخطاب الفلسفي التنموي والتي تميّزُ جلَّ كتابات د. عبد الله شريّط ومنها: التنظيم الاشتراكي المُؤطَّر بالروح الإسلامية والنضالية للجماهير ، والمنهج الماركسي المبني على العدالة الإجتماعية ، وكذلك الإهتمام بالتعليم ، وبتكوين الإنسان.

وفي هذا السياق يرى د. شريط أن أيديولوجية التنمية الحقيقية - اجتماعا واقتصادا وسياسة- هي إيديولوجية نقل المعرفة ، لا نقل المصانع ، ونقل المعرفة هو المقصود بتنمية الانسان ولهذا فهو يهتمُّ بالتعليم وهو رأس المال البشري ، ذلك أنّ المهارات التي يكتسبها الأفراد نتيجة التعليم والتدريب تساهم في تنمية الاقتصاد ، وفي إعتقاده فإنّ الطريق السليم لتنمية بلدان العالم الثالث هو أن ينمو كل شعب فيها وكل نظام وفق قانونه الخاص.

فسلامة العالم الثالث هي عدم الانحياز في السياسية الدولية والبحث عن معايير جديدة «مناهج جديدة للتنمية في السياسة الوطنية ، وفي نفس الوقت النجاح في إقامة حوار حضاري بين الشرق والغرب ، وبين المتخلفين علميا والمتقديمن تقنيا » (شريط.عبدالله ، 2009)لابتعاد عن التقليد الأعمى للإيديولوجيات التي يسوّقها الغرب سواءا الليبرالية والتي بتنافسها تؤدي إلى التنازع والحروب ، أو الأنظمة الاشتراكية الدكتاتورية التي تؤدي إلى القضاء على ابتكارات الفرد وحرمانه من الحرية ، وهذه الحرية في كلا النظامين ، -كما يرى د. عبد الله شريّط- بقيت مثلا أعلى نلهث وراءه ولا ندركه ومجرد حلم ينسجه خيال البؤساء والمحرومين.

فهو يؤكد على أنّ الاشتراكية لن تنجح في العالم الإسلامي إلا إذا اعترفت بالإسلام واحترمته كطاقة هائلة قادرة على تجنيد الجماهير الكادحة المحرومة حول المثل المشتركة لكل من الاشتراكية والدين هي: العدالة الاجتماعية ، ومحاربة الطغيان في الحكم والمال ،ومحاربة التفسخ والترف في السلوك الاجتماعي ومحاربة الأنانية والتكالب على الربح في الحياة النفسيّة والخُلُقِيَّة.

أماّ بالنسبة للدكتور العروي: فعلى غرار مفهومي التاريخانية ، والماركسية الموضوعية الظاهرين بجلاء والذين يطبعان جل كتاباته ، يمكننا القول أن مشروعه يرتكز على مفاهيم ثلاثة أساسية وهي أوّلا: إعادة إدراك الذات

في اتجاه إلغائها ، ويدخل في هذا السياق عمله الدؤوب على اختزال الإسلام وإعادة تعريفه ،المفهوم الثاني: إعادة تعريف "العقل" في المجتمع العربي المعاصر ، بصورة تسمح للعرب بالاندماج في العصر والتخلص من العقلانية الوهمية التي يدّعونها ، المفهوم الثالث: تجاوز المفاهيم التقليدية وعلى رأسها مفهوم الدّولة ، وتبني مفاهيم حديثة قادرة على تأطير الفعالية الحضارية للإنسان العربي وتوجيهها لخدمة المعاصرة.

تَعَامُلُ دعبد الله شريّط ،ود.عبد الله العروي مع إشكالية "النموذج" تتعدّد وتختلف وفقاً لمقتضيات التحليل من ناحية ، وبالإستراتيجية الخطابية للمفكّر نفسه أحيانا أخرى. ورغم ذلك فإنّها تتسم بتنوّع يرقى إلى مستوى الخلاف لكنّه خلاف إبداعي مبني على اختلاف في طبيعة التكوين أحيانا واختلاف التأثيرات التاريخية لدى هذه النخبة من المفكرين ممّا أدى لاختلاف الحلول التي ما فتئوا يقدّمونها لبعض الإشكاليات التي تطرح في الساحة الفكرية العربية منذ بدايات هذا القرن. حول مفهوم الأيديولوجيا نجد د. عبد الله شريط يؤكّد أنّه لا يمكن لشعب من الشعوب أن يتبنى إيديولوجيّة شعب آخر لأنّ الإيديولوجيّة فلسفة ذات تعبّر عن هويتها الخاصة في حين د. العروي يقترح إيديولوجيته الماركسية التاريخانية ويريدها وفق الخصوصية الغربيّة .

ب_ إختلاف في البيئة السياسية والإجتماعيّة والثقافية:

د.عبد الله شريط ينتمي إلى فضاء إجتماعي وثقافي وسياسي واكب منهجين اقتصاديين وسياسيين مختلفين هما: النظام الاشتراكي بعد الاستقلال وحتى نهاية الثمانينيات ثمّ الانفتاح على النظام الاقتصادي الحر أوالرأسمالي ، يعني تغيير جذري وراديكالي على مستوى الساحة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر. أمّا د. عبد الله العروي فينتمي إلى بيئة سياسية مخالفة للبيئة التي ينتمي إليها د. عبد الله شريّط والتي كما هو معروف تنتهج نظاما سياسيا يختلف عن النظام الموجود في الجزائر وهو النظام الملكي ، والذي يُقرّ بالملكية الخاصة والحرية الاقتصادية في إطار قوانين المملكة .وبالتالي ثمّة فرق جوهري في طبيعة التصوّرات والرؤى لدى كلٌّ منهما. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ د. عبد الله شريط ، حاول التوفيق بين الحداثة والانتماء الإسلامي عكس د. العروي الذي أعلن عن قطيعته النهائية مع التراث بما فيه الإسلامي.

يرى كلّ منهما إمكانية ابتكار ماركسية قادرة على إتاحة فرصة للتنمية الناجحة لكنّهما يختلفا في فهمهما لآلية تجسيد هذه الماركسيّة ،لهذا يمكن القول أنّ د العروي يراهن على دور الدولة أمّا شريّط فيراهن على دور المجتمع بإصلاحه أخلاقيّا وتربويّا ومعرفيًّا ومن ثمّ يصلح سياسيًّا لأنّ مشروع تحقيق التنمية- في تصوّر د. عبد الله شريّط- مرتبط بالتعليم وهو أساس النهضة الثقافية والعلمية.

ج- إختلاف في طريقة التعامل مع التراث:

د .عبد الله شريط ، يدعو إلى تحمّل التراث الثقافي والروحي وإحيائه ، في حين يدعو "د. عبد الله العروي" إلى قطيعة كاملة مع التراث ، كما أنّ د. عبد الله شريط يدعو إلى تكييف الماضي مع الحاضر بالمواكبة مع القوانين الوضعية والأخلاق الدينية وانسياق القيم التقليدية في حين أنّ د. العروي يرى عكس ذلك ويدعو إلى ماركسية تاريخانية أي ماركسية تتوافق مع صيرورة الحضارة الغربية ، ليس استنساخا للماركسية وإنّما إيداع ماركسية عربية لها خصوصيتها الإيديولوجية بعيدا عن انجرا فات الإغتراب.

عبد الله شريط ، يدعو إلى إصلاح الإنسان العربي بإرجاعه إلى أصالته وجعله كائنا متشبّعا بالماضي لتوجيهه إلى التحقيق في الكونية الإنسانية في إطار البعد الإسلامي في حين لا نجد الإهتمام من قبل د. العروي بمسألة

دور الإسلام في الإصلاح ، وهو يدافع عن ضرورة التعلّم من درس الحداثة الغربية كما يدعو في نصوصه إلى التخلّص من أوزار الماضي العقائدية والفكرية لمصلحة حضارة يعتقد بكونيتها المستقبلية بناءا على حسابات ومؤشرات واقعية.

يقول العروي في هذا السياق "قد يتقدّم المجتمع العربي بصورة ما ، قد يُحْرِزُ بعض الانتصارات حتى ولو استرسل في طريقه الحالي إلاّ أنّه سيقتحم الحاضر والمستقبل ظهريا مدفوعا مرغما وأعينه محدّقة في الأمل المتباعد تحت قيادة القوى المسيطرة حاليا فيعيش حياة ازدواج وانفصام دائمة ،في ظل نكسات متوقعات» (كمال.عبداللطيف ، 2008)

د_إختلاف في مسألة دور الدين في المجتمع وكيفية التعامل معه:

حيث نجد أن **شريط**، يدعو إلى تجديد الدين وابتكار أدوات جديدة للتعامل معه في تماس مع العصر دون الارتباط بالعصور الماضية عن طريق تحديد علمانية جديدة تخلّص الدين من المحتوى المؤسساتي أي إعادة دراسة القوانين التشريعية وفق مستجدات العصر ، في حين لا يرى د .العروي ضرورة لذلك.

- **مواطن التشابه:** في الحقيقة نقاط التشابه في أعمال المفكرين عبد الله شريط ،عبد الله العروي قليلة ، فهما يختلفان أكثر مما يتّفقان بالمقارنة مع نقاط التمفصل والاختلاف التي يتّسم بها خطابهما ، ولهذا يمكن القول أنّ كلاهما يشتركان في أنّ ثمّة مفاهيم جوهرية محدّدة راسمة لمنحنى كتاباتهم وخطابهم الفلسفي ، وهذه المفاهيم هي: الماركسيّة ، والعقلانيّة ، والحداثة والهوية والتاريخ والتراث ، والإيديولوجيا.

رغم اختلافهما في صياغتها وتحديدها ولكن بمنطق أكثر خصوصية لمغاربيتهم ،هذه الخصوصية المتمثّلة في ذلك الإتصال الذي حصل بين دول المغرب العربي في تاريخها القديم والمعاصر مع أوروبا والذي أضفى تلك السمة العقلانية في الرؤى على كتابات المغاربة خلافا للكتّاب المشارقة.

كما تبرز للعيان في نصوص كليهما تلك الصورة البارزة للخصوصية المغاربية والتي تنبعث من تلك التجربة التاريخية المرتبطة شمالا بأوروبا وجنوبا بالقارة الإفريقية ، ولذا فهما يشتركان في مناداتهما بضرورة الوحدة العربية واعتزازهم بعروبتهم وقوميتهم العربية التي يلتزمون بها ، كما أنّهما يتميّزان ، بفكر نقدي وحسّ تحليلي فرضته طبيعة الموضوعات التي تناولوها ، ويتميّز فكرهما كذلك بالجرأة وعدم التهيّب في إبداء الرأي وبقوة أسلوبية في النّقد.

كلاهما يُجْمِعَانِ على أنّ: هناك شروط ضرورية لتحقيق مشروع التنمية هذه الشروط تتلخّص في نقطتين أساسيتين هما: الاصلاح السياسي والاصلاح الثقافي ، وهما يتّفقان على أنّ الإصلاح الثقافي يتقدّم على الإصلاح السياسي ، وأنّ المسؤولية يتحمّلها المثقّف قبل السياسي وأنّنا كمغاربة لم نقم بما يجب من إصلاح ، أي خلق ثقافة جديدة تواكب العصر الذي نعيشه كما فعلت شعوب أخرى. كلاهما يعتقد أنّ المنهج الصالح لخلق التغيير في المجتمع المغاربي هو المنهج الماركسي ذلك أنّ ثمة إختلاف شاسع بين المنهجين الليبرالي والماركسي ، فالمنهج الغربي-الليبيرالي- يغيّر الفرد أما الماركسي فهو يغير محيط الفرد الاقتصادي والاجتماعي. وهما يتّفقان على أنّ المثقّف في العالم العربي ، تقع على عاتقه مسؤوليّة ، أن يبيّن ذلك للناس ، فالمُثقّف هو ضمير المجتمع ولا بدّ عليه أن يعالج مشاكل المجتمع عن طريق الكتابة وبكل حرية بشرط أن يتمكّن من

الثقافة الفلسفية والممارسة المجتمعية إلى جانب ثقافته اللغوية لهذا ضرورة فلسفة الأدب حتى يستطيع الأديب أن يغيّر الحياة الاجتماعية.

ولهذا فهما يتّفقان على أنّ مهمّة الخطاب الفلسفي في حياة المجتمعات المغاربيّة مستقبلا هي إبداع مفاهيم جديدة لإستغلال طاقات الأفراد ، والتأثير في علاقات الناس واتجاهاتهم في ضوء تطورات العلم الحديثة والتغيّرات الإجتماعية الرّاهنة وإبراز القيم المرغوبة.

3– مواطن التداخل(العلاقة): لمحاولة فهم أوجه التداخل ، من الضرورة المنهجية أن نتسائل عن طبيعة العلاقة التي تجمع بين المشروعين ،من خلال القواسم المشتركة بين هذين المُفَكّرَيْنِ المغربيين في تناولهما لإشكاليتي التنمية والتخلّف في المغرب العربي ، وعن الآفاق التي ستفتحها هذه المقاربة.

لا بدّ أوّلاً أن نشير إلى أنّ كلاً منهما يشكّلان نموذجا متميزا في الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر ، بمشاريعهما وزوايا رؤيتهما لقضايا الفكر والوطن المغاربي ، إذ أنّ هذه الرؤى تتداخل في ما بينها في الطرح ، وفي النسق الناظم لزوايا فلسفية وتنموية متعدّدة (الفكر ، التاريخ ، الهوية ، الدولة ، الأيديولوجيا - التنمية– التقدم– النهضة- المعاصرة- الحداثة...الخ)، وإضافة إلى ذلك فإنّنا نجد أعمالهما تتداخل من خلال الإلتقاء في طبيعة الموضوعات التي يكتب فيها كلّ منهما . هذه الموضوعات تلتقي في إشكالية واحدة ، تعبّر عن هاجس فكري وهم أنطولوجي تاريخي يعبّر عن المصير والتاريخ المشترك من خلال تلك الصور عن علاقة الإنسان المغاربي بتاريخه وعن الأسباب المسؤولة عن تخلّفه.

ولهذا يمكن القول أنّ كلاً منهما يدعو إلى تبنّي فلسفة في التاريخ تكون بمثابة قاعدة ينطلق منها الخطاب المغاربي المعاصر ، تعبّر عن العلاقة الجدلية البنيوية بين الكائن الإنسان والمصير ، هذه الفلسفة تقوم على تحليل الحاضر ، وتعمل على مسائلة الرّاهن ، والتعامل الرّشيد مع الإحتمالات الممكنة في المستقبل ، وبالإضافة إلى هذا فإنّ أعمال د. العروي ود.شريّط تتداخل من حيث كونها تروم إلى تَتَبُّعِ بناء الشخصية المغاربية وعدم فصلها عن المصير التاريخي المشترك .

لذلك بمكن القول أنّ هذه المحاولات في تجديد الخطاب المغاربي المعاصر ،لا تخرج عن كونها امتداد لذلك التطوّر الحاصل اليوم في مطارحات الخطاب المغاربي المعاصر بما يحمله هذا الخطاب من دلالات فلسفية وتاريخية ، تعبّر عن إمكانات فكرية إبداعية تحملها هذه الرؤى ، وتبشّر بانتعاش في ساحة الكتابة الفلسفية المغاربية ، وهي محاولات لاشكّ تنبئ بمستقبل واعد.

الملاحظ أيضا أنّ أعمال كلا المُفكّرين تتداخل من حيث أنّها خطاب موجه إلى المحيط العربي دون تمييز وهو خطاب يقدّم موضوعاته في إطار إشكالات تتجاوز المحيط المحلي لتقترب من الفضاء الثقافي العربي في أبعاد عامّة ، منها أنّ الأيديولوجيات العربية الرّاهنة ،وبشكلها الحالي لا يمكنها أن تشكّل أفقا للمستقبل وأنّه آن الأوان للمفكّرين العرب المعاصرين أن يبدعوا مشروعا حضاريا جديدا. كما أنّهما يلتقيان في الدعوة إلى ظهور إنسان مغاربيّ جديد تعاد هيكلته جذريا ، كما نجدهما يدعوان إل تحمّل الحداثة ،والاستفادة من التجربة التاريخية الحديثة للعقل الغربي العملي وابتكار حداثة وفق التجربة التاريخية للشعوب العربية.

وفي الحقيقة فإن أهداف المشروعين تتمحور حول همٍّ واحد وهو: كيف يمكن تغيير الإنسان العربي ومن ثم تحقيق تنميته وتقدّمه وإصلاحه جذريا لِيَتِمَّ تَحْدِيثُه؟ والبحث عن الآليات والمكانيزمات التي تعقلن النظام

السياسي الاجتماعي في العالم العربي والبحث عن نموذج للتنمية الشاملة؟ لهذا نجدهما يسعيان إلى إقامة صلة بين مفهومي الوحدة والإصلاح.

يلتقيان حول مسألة هامة وهي أنَّ ما جعل الفلسفة تؤدي وظيفتها في المجتمعات الغربية (المصنَّعة) هو ما يسودها من روح "العقلانية" عكس المجتمعات المتخلّفة وعلى رأسها المجتمعات المغاربية ،التي تخضع فيها الأفكار للغيبيات. كما أنّهما يتّفقان على أنَّ الفرق بين المجتمعات المتخلّفة والمجتمعات المتقدِّمة يكمن في مقدارهذه "العقلانية" في كلٍّ منها. نستخلص من هذا التحليل أن هاجس التجديد الفكري، والثقافي والحضاري، كان مطلبا وشعارا استولى على أذهان العديد من المفكرين والمثقفين المغاربة، والذي أفضت به عدة عوامل منها ما هو تاريخي (الحرص على وصل الماضي بالحاضر) وعوامل أخرى قوميّة سياسيّة متّصلة بالوعي والشعور بالهويّة والقوميّة، وعوامل حضاريـة متصلـة بعمق الهـوة وتزايدها بين الأنا والآخر.

لقد جاء المشروعان (مشروع د. عبد الله شريط، مشروع د. عبد الله العروي) رغبة في طرح البديل من خلال إمّا مدارسة التراث أو من خلال القطيعة معه، وهما مشروعان في غاية الأهميّة، أبرزا مدى الترابط المنهجي والمعرفي والتماسك الداخلي وتوظيف الاستدلال الحجاجي بما يتناسب والمجال التداولي لغة ومنطقا ومعرفة.

وقد إستفدنا من قراءتنا لهذين المشروعين ما يلي:

أنّ فهم التراث ووعيه والتعامل معه بمفاهيم خاصة من شأنها أن تجعله واقعا حيا ومتحركا فالتراث لا يمكن فصله عن الحداثة لأنها مصيرنا وأن علينا فتح كياننا على تاريخنا لا من حيث أنها تربط حاضرنا بجذورونا وبالحضارات التي تعاقبت علينا فقط، بل وأيضا من حيث أنها انفتاح على الاقبال والمصير، ففي الحداثة شيء من تراثنا وبهذا المعنى تصبح الحداثة نقطة إلتقاء بين الشعوب والأمم، ويصبح الصراع بين الحداثة والتراث في حد ذاته مغالطة لأن التراث يستوجب التغيير والتجديد والحركة.

ومنه فالخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر مدعو اليوم، وأكثر من أي وقت مضى— كما يؤكد ذلك د. فتحي التريكي إلى «تجاوز هذا الحوار بين التراث والحداثة وبين الأصالة والتفتح لأنها مفاهيم أيدلوجية غر مجدية على الصعيد الفكري والفلسفي» (التريكي.فتحي.التريكي.رشيدة، 1992)فتراثنا لا يوجد في ماضيينا وفي حضارتنا العربية الإسلامية فقط، بل يوجد أيضا في ماضي الشعوب الغربية أيضاً.

فالغرب الأوروبي في عصر النهضة وهو يصوغ طريقه نحو الحداثة لم يأخذ بالحداثة الإسلامية السائدة أنا ذاك إلا في جوانب محدودة علمية وفلسفية وتقنية، والمواقف التي وقفها الغرب من تاريخه وتراثه الديني والفكري وهو يطلب الحداثة والتي تمخضت عنها مبادئ التحديث من فردانية وعلمانية وعقلانية وليبرالية، وماركسية...الخ ليست بالضرورة هي نفس المواقف التي يجب أن نقفها نحن.

وذلك لأنّ تاريخنا مختلف تماما عن تاريخهم، وعلى سبيل المثال، في المسألة الدينية مثلا، لا يمكننا أن نتّخذ نفس الموقف الذي اتخذه رجال الإصلاح الديني في أوروبا كـ: "كالفن" و"مارتن لوثر" من الديانة المسيحية في شكلها الكاثوليكي، ذلك أنّ الكنيسة في العصر الوسيط كانت العائق الأساسي أمام تحرر إرادة وعقل الانسان الغربي وبالتالي «كانت العائق الأساسي أمام التحرر السياسي والاقتصادي الشيء الذي لا ينطبق تماما على الإسلام» (جبرون.امحمد، 2012) فالمفاهيم والقيم والمبادئ التي ينتظر منها أن تؤطر الحداثة والتحديث والتنمية في عالمنا العربي، والمغاربي تحديدا، هي التي ستتبلور في سياق نقد شامل

للتاريخ العربي والإسلامي وبالتزامن مع تاريخ جديد نعيشه ، ولن تكون بالضرورة مطابقة للمفاهيم والمبادئ الغربيّة.

ثانيا: الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر وسؤال المستقبل: كيف يجب أن يهتمَّ الخطاب الفلسفي المغاربي بالمستقبل ؟

كيف يمكن ، إذن تغيير منهجيّة الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر ، تغييرا شاملا ليصبح خطابا متينا وحديثا ، يتمكّن من القضاء على آثار التقليد والتبعيّة فيه ، وبتالي يُصبِحُ قابلا لإنتاج ثقافة مستقلّة ضمن بيئته الطبيعية وهي البيئة المغاربية المنتمية إلى فضاء الحضارة العربية الاسلامية ، ويتفاعل معها في سبيل تحرير الإنسان المغاربي من فقره الحضاري ؟

ما السبيل إلى كسر حلقة التخلّف ونزع الأفكار المسبقة المتعددة التي تكبّل خطابنا الفكري المغاربي ، الذي غدى أسير الإديولوجيات الداخلية والخارجيّة ؟ كيف يمكن بناء خطاب فكريّ مستقلّ عن اللعبة السياسية الضيّقة وجعله خطابا حضارياً ، يدافع عن شخصية المجتمع المغاربي بكل شرائحه ؟ ما السبيل إلى ابتكار خطاب فلسفي تتجدّد من خلاله حياة الإنسان المغاربي ونقضي من خلاله على الفروقات الاجتماعية التي تأخذ حجما مأساويا في مجتمعاتنا المغاربية ؟

إنَّ تحدّي ظروف الواقع هو ما يخلق الإبداع في الحاضر ويصنع لدى الأمم والشعوب الحافز لاختراق حاجز الزمن والريادة في المستقبل ، فالتحدّي الحقيقي والصحيح ليس استعادة الماضي بل فتح المستقبل بسلاح الحاضر وما يوفّره هذا الحاضر من إمكانيات شرط استعمالها استعمالا عقلانيا أي دون الوقوع في انفصام الشخصية وضياع الهوية ، التفكير في مشكلات الحاضر والتوجه نحو المستقبل سمة أساسية للحضارة الغربية المتقدمة وهو سمة كل شعب يريد أن يتقدم ، ونحن في المغرب العربي لسنا أقلَّ شئناً من هذه الشعوب ، ولكن ما ينقصنا هو امتلاك إرادة التقدّم وأن يأتي الفعل مساوقا للإرادة ومكافئا لها.

يقول **د.** مصطفي النشّار «إنّنا نملك من إمكانات التقدّم البشرية والمادية مالا تملكه الشعوب الغربية المتقدمة ، ونملك من الدافع الديني والتاريخي ما ليس لدى هذه الشعوب ومع ذلك نتقاعس عن استغلال كل هذه الامكانيات المدفوعة بكل الدوافع الدينية والتاريخية» (النشار.مصطفى ، **2014**)

فمستقبلنا كما يقول د. زكي الميلاد: «يجب أن نصنعه نحن بأيدينا لا أن يصنعه الآخرون لنا ونبتكره من داخل حضارتنا وهويتنا وثقافتنا لا من داخل حضارة وهوية وثقافة الآخرين والمستقبل الذي نريده لأنفسنا ليس هو بالضرورة المستقبل الذي يريده الآخرون لنا ونحن من يجب أن نختار طريقنا إلى المستقبل لا أن نقع في طريق الآخرين بوعي أو بدون وعي»(الميلاد.زكي ، **1999**)وإذا كنا نعيش لمستقبلنا أكثر مما نعيش لحاضرنا ، وإذا كانت مطالب المستقبل لا تقل أهمية عن مطالب الحاضر وآماله فإنَّ الخطاب الفلسفي السَّديد الصحيح كما يقول د. عبد الفتاح الفاوي:[*] «يجب أن يعالج المستقبل بالقدر والهمَّة نفسهما الذين يعالج بهما الحاضر لأنّ في الإهتمام بالمستقبل إهتماما بالحاضر لا العكس» (الفاوي.عبدالفتاح ، **2002**)

[*] - عبد الفتاح الفاوي: مفكر مصري

نهضت أمم لم تكن أحسن حالا منّا ،لأنّها استطاعت أن تطوّر خطابها في التقدّم والتفوّق والتنمية نحن نتوفر على كل عوامل التقدّم والتفوّق لا تنقصنا عبقرية ولا تنقصنا ثروة ، ولكن ينقصنا الضمير والمنهج والفلسفة الناجحة ، ثرواتنا بين أيدينا وتحت أرجلنا ولكننا نبددها يمينا وشمالا مرّة على ملذاتنا ، وأحيانا أخرى على أسلحة نتقاتل بها بيننا وندمّر بها كياننا. فالخطاب الفلسفي من المفروض أن يهتمّ «بمشاغل الناس الفكريّة المرتبطة بحياتهم الواقعيّة المعاشة واستكشاف المستقبل من خلال نبضات الحياة الراهنة بطريقة تتجاوز الواقع ومحاربة المعطّلات الخرافية والإنفعالية المفرطة سواءا على مستوى الجماهير أوالسّاسة» (شريط.عبدالله ، 1981)وكذا محاربة التبعية الفكرية.

ولذلك نقول أنّ الإهتمام بالخطاب الفلسفي ، هو إهتمام بالمستقبل لذلك فإنّ العالم المتمدّن مايزال يعتبر الفلسفة هي المشعل الذي يضيئ المستقبل ، وإنّ العلم ليس إلاّ الأداة أو المطيّة التي نركبها للسير في هذا الطريق بعد أن أضاء ، ومن ثمّ كانت المجتمعات التي لا تمتهن الفلسفة أكثر من غيرها هي التي تسير أسرع من غيرها ، رغم بطئ تقدم الفلسفة ذاتها.

والمجتمعات التي لا تمتلك فلاسفة على الإطلاق أو تعتبر الفلسفة معوّقا في طريق التقدّم كما هو شأن في أكثرية بلدان العالم الثالث هي التي تتعثر أكثر من غيرها في السير لأنّها لا تملك المشعل المضيئ ، وتقضي وقتها في دواران حول نفسها ، وتسمي ذلك سرعة في السير «لأنّها لا ترى المسافة التي قطعتها أو بالأحرى التي لم تقطعها على الإطلاق» [(1)] ،(عبد الله شريط -)—لذلك نؤكّد ضرورة مايلي:

أن يهتم خطابنا الفلسفي بالحاضر والمستقبل أكثر من إهتمامه بالماضي وأن يعالج معضلات تخلفنا وتقهقرنا الذي طال أمره ، أن نغيّر نمط تفكيرنا ومنهج فلسفتنا بما يتلاءم ومقتضيات عصرنا ،- أن نعقلن خطابنا الفلسفي ونؤخلقه فتكون علاقته بالخطاب العقلي علاقة توجيه وإرشاد وعلاقته بالدين علاقة تعاون وتوجيه وهداية ، فإن لم نؤسّس خطابا تنمويا فلسفيا وإيديولوجيا ، يعبّر عن هويتنا وخصوصية حضارتنا وعروبتنا وعقيدتنا سنضيع حتما لأنّ مشهد الصراع يبرز عن واقع لا يرحم ، فيتحوّل حالنا إلى مثل من يلهث ظمئان في صحراء جذباء قاحلة ، نحو سراب يحسبه ماءا وما هو بماء.

2- استشراف المستقبل: كيف يمكن إبتكار بديل لمستقبل التنمية في الخطاب الفلسفي المغاربي ؟:

الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر ، في هذا الأفق مرشّح أكثر من غيره لدراسة المستقبل ضمن سؤال المصير ليس فقط من أجل فهمه وتشخيصه وإنّما من أجل قراءة جديّة وموضوعية للمستقبل ،لرسم ملامح الخريطة الجغرافية لمصير الانسان المغاربي ومعرفة علاقته مع الآخر وفق مقولات الكونية والحداثة ثمّ «لتنشيط أفق المستقبل في تأملات الفيلسوف من أجل تجاوز العفوية والتلقائية في تدبير الذات» (باليمام.عبدالقادر ، 2014)مع اتقان ثقافة التخطيط والتشريع لنظم حياتية تساعدنا على التواجد الحضاري ، في عصور لن تُعْرَفَ إلاّ بلغة المعرفة والتخطيط.

[1] - المرجع نفسه ،ص 10.

ومن هذا المنطلق فإنَّ مهمة الخطاب الفلسفي المغاربي هي تنمية قيم المستقبل وقراءة ما سيكون وفق فرضيات موضوعية تمكننا من رسم إحداثيات منحنى صيرورة الأحداث المقبلة والسيناريوهات المنتظرة لتوفير الحلول قبل حدوث المشكلات.

إنّ ساحة الفكر المغاربي في أمس الحاجة إلى دراسة مستقبلية تتسمً بالشمول تتفاعل فيها معطيات الحاضر والمستقبل ، من هنا نطرح بعض الأسئلة: كيف يمكن إبتكار بديل لمستقبل المغرب العربي ، انطلاقا من دراستنا لواقع المغرب العربي بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية بالقدر الذي يمكننا من التوصّل إلى الوضع المرغوب ؟ إنَّ تنمية الوعي بالمستقبل معناه السعي إلى إثباتِ أنّ الواقع الحالي لأقطار المغرب العربي بكلّ سلبياته ليسَ قدراً مكتوباً لا يمكن الفكاك منه ، بل أنَّ هناك بدائل مختلفة للمستقبل ، وهناك خيارات وأنّنا نستطيع أن نحدّد مستقبلنا تبعاً لإرادتنا وقدرتنا ورغبتنا في دفع الثمن المطلوب للمستقبل المرغوب.

إنَّ الواقع المغاربي الرّاهن هو حصيلة تطوَّر تاريخي طويل ومعقَّد قد أفرزته جدليات داخلية وخارجية ، وهو يحتوي على كثير من البذور الجنينية التي ستحكم تطوره المستقبلي ، وعليه لا بدَّ من الكشف عن هذه البذور وتقدير احتمالات تطوَّرها في ظل الظروف التي تحيط بنا سواءا عربيًا أو اقليميًا أو عالميًا ،وفي ظل ما تشهده البيئة الدولية من ثورة علمية وتقنية سوف تطرح آثارها وتداعياتها علينا. المستقبل عبارة عن بدائل متنوَّعة تتدخل في صياغتها قوى داخلية وخارجية يمكن تحليلها والتعامل معها بالتعديل والتغيير ، وهذا يبرز دور المفكّرين المغاربة في صنع الخطاب الذي يقترح بدائل للمستقبل.

الخطاب الفلسفي المغاربي تقع على عاتقه مسؤوليات عديدة أهمها التكتّل ضد التجزئة ، أو على الأقل المحافظة على وحدة القطر الواحد ، إذ أصبح كل قطرٍ مستهدف على حدى ومنه المحافظة على الاستقلال ، وَرَسْمِ خُطَطٍ لمواجهة التبعيّة ، و ابتكار برامجَ استشرافٍ لتحقيق التنمية الشاملة مستقبلا ، ومحاربة "النموّ المشوَّه" ومناهضة الاستغلال والفوارق الاجتماعية والاستبداد وأنظمة الحكم الديكتاتورية. إنَّ الفقر في التصوَّر المستقبلي والغموض في اختبار التوجه المقصود كانا ولا يزالان من أكبر معوِّقات الخطاب الفلسفي المغاربي.

إن من بين التوجّهات التي يعتمدها الوعي بالمستقبل إقناع المجتمع بضرورة تغيير الواقع وبناء مجتمع جديد ، وتتضمن عملية الانتقال الرشيد من الموارد والقدرات وصولا إلى إقامة مجتمع جديد ، والإقتناع بضرورة تغيير الواقع له أهمية بالغة في حياة المجتمع لأنَّه أساس التمسّك بإرادة التغيير.

يقول الكاتب العراقي د. هادي نعمان الهيثي «إذا كان علم المستقبل يُسْهِمُ في رسم الصور المستقبلية الجديدة ، فإن حركة إنماء الوعي تستدعي تحقيق ذلك الإقتناع كي لا يبدو التغيير لذاته بل وصولا إلى أوضاع أفضل للمجتمع» (الهيثي.هادي.نعمان ، 2003)وهذا يعني أنّ التأمّل في منطلقات علم المستقبل يكشف أنَّه يركز على أنَّ الانسان قادر على الاسهام في صنع مستقبله. وكما نعلم فإنَّ التنمية عملية مركّبة يشكّل بناءُ الانسان فيها ، المحور الرئيسي والمرتكَّز الجوهري والأساسي لتحقيقها ، إذ هي في تماس دائم مع المستقبل فهما مفهومان مترادفان ومتلاحمات ووجهان لغاية واحدة ومشروع واحد هو التخطيط الرشيد والمعقلن في

جميع الجوانب الانسانية والاجتماعية للحصول على أفضل النتائج التي تعود بالرفاهية على الانسان ،وحفظ كرامته وقدسيَّته دون اهتمام لجنسيّتة أو لغته ، أو لونه أو عرقه أو دينه.

ومن ثمّ فإنّ إستشراف مستقبل التنمية في الخطاب الفلسفي المغاربي ، يرمي إلى بحث الآفاق المختلفة لمستقبل الأقطار المغاربية بكلّ تشابكاته وتفاصيله لرصد المتوقع والمأمول ، قصد ترجمة الطموحات إلى وقائع إذ «يجمع الدارسون للآفاق العالمية على أنّ العالم يواجه الآن ومستقبلا العديد من التغييرات الأساسية والمآزق الحيوية والإنقلابات التقنية ، وتُقَدَّمْ بعض الآفاق على أنّها بطبيعتها سوف تعيد تشكيل مسار التنمية في البلدان المختلفة وكذا علاقات التبادل والتبعية على المستوى العالمي» (حسيب.حير.الدين ، 2002)وأبرز هذه الآفاق تأتي الثورة المعلوماتية والتي ستهدّد اللغة والثقافة والقيم لأنّ إنتشارها سوف يؤثّر على مفاهيم الأمن القومي ودور الدولة والحدود الوطنية ، يضاف إلى ذلك التهديد الذي ستمارسه تقنيات أخرى مثل: الثورة البيولوجية وتقنيات إستخدام الطاقة النووية وتقنيات إحلال الموارد. إنّ قائمة التساؤلات المطروحة أمام الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر هي قائمة واسعة تتطلب التفكير فيها والبحث عن إجابات عليها أمّا أن نقف مكتوفي الأيدي فهذا سيفقدنا مشروعية الحديث عنها في الحاضر والمستقبل.

المستقبل إذن مليىء بدواعي القلق ودواعي الفكر في عدة أمور ، ولعلّ أبرز ما يدعونا لدراسته بغية الإستشراف هو «إنهيار التوازن الأيكولوجي الإنساني ، في الأفق ما يهدّد بثورة في الهياكل الإجتماعية القائمة حاليا ، وإحتمالُ العودة إلى البربريّة من خلال بعض أنواع التقنية» (ميروسلاف.بتسوليتش ، 1985) كما أنّ تحوّل السيطرة من الشركات الدولية على الفئات الإجتماعية إلى السيطرة على الأفراد والإنفراد بهم قد تكون سببا في ظهور صور أشد عمقا للتبعية ، وما يَعْقُبُ ذلك من المشاكل التي تهدّد الصحّة النفسيّة للأفراد وإنتشار العنف الرافض لذلك.

الرعب النووي ، وغزو الفضاء الخارجي ، الإضرار بالبيئة والمناخ ، ...الخ من الحقائق التي تدفع بالخطاب الفلسفي المغاربي في الوقت الرّاهن إلى مزيد البحث عن الفرص المتاحة ، وسط الساحة العالميّة في المستقبل ، والبحث في الإطارين الدولي والإقليمي عن آفاق الظواهر الإجتماعية ، و الإقتصادية والتقنية وعلى مستقبل النظام العالمي وعلى جميع الإحتمالات على مستوى الإقليم المحيط مباشرة بمغربنا الكبير. سيواجه المغرب العربي إذن خيارات حادة ينطوي كل منها على فرص ومخاطر ومع إستمرار الصراع والتوتر بين القوى الكبرى في العالم ،فإنّ التنافس داخل التحالف الغربي بين القوتيين الصاعدتين: اليابان والإتحاد الأوروبي يمكن أن تخلق تمايزات في المواقف ، والمصالح والقول نفسه ينطبق على الصعود النسبي للهند والصين ودول النمور الآسيوية ، وهو ما سيفسخ المجال أكثر أمام الخطاب الفلسفي المغاربي في المستقبل ، لدراستها واستشراف مآلاتها ، وتأثيراتها في الأمد البعيد. وفي ظل هذه التحدّيات ، ستظلّ المشكلة الأكبر هي: كيف سيتعامل الخطاب الفلسفي المغاربي معها ، وكيف سيواجهها وماهي المناهج والآليات التقنية التي سيوظّفها ؟

فرغم الروابط الحضارية المعروفة (التاريخ— الثقافة— اللغة—...الخ) فإنّ المغرب العربي منقسم إلى فواعل مختلفة ليس سياسيا فقط أو من خلال تباين أنماط التنمية ،وإنّما أيضا في القناعات الإيديولوجيّة والرؤى المستقبليّة التي تفصح من خلال خطابها عن مزيد من الإنقسام والتشذرم ، في عالم لا يؤمن إلّا بالوحدة والتكتّل والتكامل وإن كان هذا لايعني أن المغرب العربي محكوم عليه بالإنقسام إلى الأبد.

ولكن يعني أنّ الأسئلة المطروحة عليه، أصبحت أكثر تعقيدا بكثير عما كانت عليه منذ عقود مضت والمشكلة الأخرى هي: لماذا لاتتعامل أقطار المغرب العربي مع القوى الكبرى من موقف تعتمد على إمكانياتها وموقعها الجيوسياسي الإستراتيجي؟ وكيف تتجنب هذه الاقطار ضياع الفرص التاريخية المتاحة أمامها؟.

يعتبر الصراع العربي الاسرائيلي بِغَضْ النّظَر عن الأصول التاريخية لهذا الصراع وتطور حركة الإحتلال الصهيوني في فلسطين، من أبرز الصراعات وأكثرها أهميّة لذلك فإنّ واجب تنمية الوعي بالمستقبل يفرض على الخطاب الفلسفي المغاربي المعاصر النظر بالتحليل لهذه الظاهرة، خاصة الآن وبعد نجاح إسرائيل في تأكيد وجودها وفرضه والأهم من ذلك ،توسّعها إلى مابعد حدود الدولة الصهيونية(*) وأكثر من ذلك فإنّ إسرائيل قد وسعت من مفهومها الأمني لكي تشمل منطقة الشرق الأوسط إلى باكستان شرقا وأوغندا جنوبا.

في ضوء هذه النظرة الإسرائيلية لأمنها، فإنَّ التحدي الرئيسي لها يظَّل كامنا في الأقطار العربية، فهي تسعى إلى إقامة تحالفات مع تركيا وإيران وإيثيوبيا، هذه الدول التي لها تناقضات مع الأقطار العربية- من شأنه محاصرة المغرب العربي وإنهاك قواه ومازال المخطط الرئيسي للصهيونية تفتيت الأقطار العربية.

من هذا الإطار يمكن اعتبار الخطاب الفلسفي المغاربي بحثا في محددات المستقبل المغاربي وبدائله وما يقدمه سيمثَّل قراءة للحاضر من منظور مواجهة تحديات المستقبل والتي يتمَّ فرزها والتنبيه لآثارها المحتملة وكلها معطيات لاستشراف المستقبل المغاربي وخلق جسور معه ،والوحدة أو(**التكتّل**) تعطي دائما مقدرة على التنافس والتفاوض أمام الأطراف الأخرى في العالم، و هما السبيلان الكفيلان بدرء العدوان في حال اشتعال صراعات إقليمية كانت أو حتى عالمية.

وبناءا على واقع الجزائر والمغرب على جميع الأصعدة نعتقد أنَّ ثمَّة مشهدين رئيسيين إثنين في المستقبل وهما: المشهد الأوَّل: نتوَّقع استمرار التجزئة وهو احتمال يؤدي إلى مزيد من احتمالات التفتيت واستمرار التردي والتدهور بما يترتب عليه مزيد من التبعية للخارج والتعثر في تحقيق التنمية. كما يتضح ذلك جليًّا في أنّ الدّولة القطرية ستظل هي السمة الغالبة لنمط النموَّ المشوَّه واستمرار الممارسات الغير ديمقراطية رغم بعض المحاولات، إلاَّ أنَّها ستبقى على الأغلب مرتبطة بمصالح وأمزجة النخب الحاكمة ومواقف القوى الأجنبية منها. المشهد الثاني: المشهد التحوّلي أو الثوري وهو يدور حول مفهوم "الوحدة" وجوهرها احترام التعدّد والتنوّع الاجتماعي والثقافي واللغوي والاثني والديني القائم في دول المغرب العربي وهو يحتاج للوصول إليه عددا من الخطوات المتقدَّمة عن طريق التنمية الديمقراطية واحترام الأصالة الحضارية والثقافية .

إنّ السبب الذي يجعلنا نتوقع هذين المشهدين له ما يبرره ،فالملاحظ في الوقت الراهن أن المشهد الحالي تغلب عليه النزعة القطرية (هذا إن لم يشهد مزيدا من التجزئة) فالسياسات المغاربية الحالية لا تتعدى حد العلاج الحاسم للقضايا بل تقف عند مجرَّد إبقاء الكيان القطري وحمايته، من التفتيت ويقضي المنطق القطري بكسب ود الفئات التي تتطلع إلى مشاركة النخب الحاكمة للسلطة (إن لم يكن كليا على الأقل جزئيا). كل هذا

*- للتذكير في أوّل أكتوبر 1986 تمّ الاغارة على تونس.

يدعو المشتغلين في الخطاب الفلسفي المغاربي الرّاهن ، إلى المزيد من البحث ، وبذل الجهد من أجل دراسة أكثر دقّة ، لما يمكن أن تصير عليه الأحداث مستقبلا.

3الخطاب الفلسفي المغاربي والمتغيّرات الإقليميّة والدّولية:

كيف يمكن للخطاب الفلسفي المغاربيّ -مستقبلا –أن يساهم في مشروع التكتّل والوحدة؟ وكيف يمكنه مواجهة سياسات الإخضاع والهيمنة الأجنبيّة ،وتأثيرات النظام الدولي الجديد -السلبيّة -المتساقطة على مستقبل المنطقة؟ وما الآليات الجديدة التي يجب أن يوظّفها ، لمواجهة التحدّيات الرّاهنة والتهديدات الأمنيّة مستقبلا؟ وهل يتوفّر على أدوات المقاومة لدَفْعِ خطر العولمة؟ وكيف يقاوم مخطّطات التّجزئة وإضعاف الهويّة والإنتماء ، ونمو أنماط استهلاكية تكرّس التبعيّة للخارج؟

إنّ طبيعة التجزئة الحالية للمغرب العربي ، ومحتوى خيارات النخب الحاكمة في التنمية ومفهوم كلّ منها للأمن القومي ، لن يتيح لأيّ قطر من الأقطار ، أن يُحَقّقَ نسبةً معقولة من الإكتفاء الذاتي في استهلاكه ، والمناعة في أمنه ، واحتياجاته الثقافية والإستقلالية خاصّة في اتخاذ قراراته المصيريّة ، ويؤدّي هذا الوضع إلى تزايد فقدان المناعة المكتسبة للأنظمة المغاربيّة ،أمام التأثيرات السلبيّة من خارج الحدود ونقصد هنا النظام الدّولي.

مفهوما التكتّل والوحدة لا ينحصران فقط في الجانب الاقتصادي ،وإنَّما تتعدد أهدافهما في جوانب عدَّة استراتيجية وسياسية ، أمنيّة واجتماعية ، وثقافية ، وحضاريّة ،وتكتسي هذه الأهداف أهميَّة متزايدة في ظل العولمة ، نظرا لتشابك مختلف جوانب حياة المجتمعات المعاصرة ، وكذا طبيعة العلاقات الناظمة لأشكال التعاملات الدّولية المعاصرة.

لذلك فإنّ الإتحاد والتكتّل ضرورة تفرضها المبادئ كما يفرضها الواقع لذلك -كما يقول د.عبد اللطيف عبادة – فإنّ « كثيرا من الميكرو دويلات لا تستطيع تحقيق تَنْمِيَة ٍ منسجمة واستقلالاً حقيقيًّا» (عبادة.عبداللطيف ، 2012)ولهذا يُعتبرْ التكتّل الإقليمي مدخلاً حيوياً للاعتماد الجماعي وأمرا لازما لمواجهة التحدّيات التي تعترض الدّول المغاربيّة ، لما يتيح من تجاوز لعوائق التنمية خاصّة في أقطار المغرب العربي ، التي تفتقر إلى مقوّمات الاستقرار بفعل الواقع الأمني والجغرافي والاقتصادي والسياسي المعاصر.

وغنيً عن البيان أن العالم اليوم يعيش عصر التكتلات والتجمعات[*] لمواجهة الصراعات والمشكلات ولعلّ من الأمثلة على ذلك :الاتحاد الأوروبي ، رابطة جنوب شرق آسيا ، وفي الأمريكيتين (النافتا والميركوسو) وتجمع دول شرق وجنوب إفريقيا (الكوميسا)...إلخ وغير ذلك وكلها تكتلات تبحث عن مزيد من تضافر الجهود وتوحيد الرؤى قصد البحث عن سبل التعاون الاقتصادي والسياسي والأمني في ظل الساحة العالمية من تشابك وتدافع وتعقيد في العلاقات الدولية والتي يحكمها منطق القوة والتكتلات الاقليمية وفي نهاية

[*] - كانت هناك محاولات عربية عديدة في هذا الاطار تذكر: السوق العربية المشتركة (1964) ومجلس تعاون دول الخليج (1981)،*في 1989/02/17 وقع رؤساء البلدان المغاربية الخمسة ما يعرف ب **"معاهدة مراكش"** تكوَّنت المعاهدة من تسعة عشرة مادة تعلَّقت بمختلف مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتقدَّمتها دباجة نصت على أن قادة دول المغرب العربي انفقوا على اقامة **"الاتحاد"** إيمان منهم بما يجمع شعوب المغرب العربي من أواصرمتيببة قوامها الإشتراك في التاريخ والدين واللغة أملا في تحقيق اندماج أشمل في ما بينها.

الثمانينيات من القرن الماضي سعت بلدان المغرب العربي للتأقلم مع هذه البيئة الدولية الجديدة من خلال إقامة إتحاد إقليمي يوَّحد سياستها ومواقفها وقراراتها الاقتصادية.

لكن هذا الاتحاد للأسف الشديد، وُلِدَ مَيّتاً، تأتي الدولة القطرية في مقدمتها، فبعد أن وحَّد الكفاح ضدَّ الاستعمار أبناء المغرب العربي، تفرَّقوا بعد بروز الدولة القطرية، عندما اهتم كل حاكم بتقوية الأسوار حول الجزء الذي أصبح دولة مستقلة ذات اسم وعَلَمْ ونشيد. لذلك تعمَّد عدد من المفكّرين عند الحديث عن الإتحاد المغاربي« تأكيدا أنَّه مشروع ولد ميّتا، أو على الأقل في حالة موت سريري لكنّنا نفضّل أن نصفه بالقطار الذي بدأ رحلته ثمَّ توَّقف في محطَّة لا تحمل اسما ولا عنوانا ولا تاريخا لتحرَّكه» (حجيج.آمال، 2013) ففي حين استطاعت الدول الغربية الوصول إلى قمَّة التقدَّم الحضاري في إطار تحقيق التكامل والشراكة والاتحاد بين مناطقها المتعددة والمتباينة، وهي شعوب تفتقد إلى المقوَّمات الدينية واللغوية والتاريخية التي تتوَّفر لدينا.

لكن للأسف الدول المغاربية تواجه ظروف وتحديَّات داخلية سياسية واقتصادية ومالية وأوضاع دولية معقَّدة ومتشابكة ومتجددة، في ظل موجة العولمة وبروز العامل الاقتصادي بقوة، وتحدَّي الشراكة مع الدول المتقدَّمة وفي مقدَّمتها الشراكة الأورو متوسطَّية والتي سارعت إليها الدول المغاربية متفرَّقة بدل أن تكون مجتمعة، فاوضت ودخلت الشراكة من جهة قطرية ضيَّقة ووقعت في فخ الشراكة الغير متكافئة. كذلك الأمر نفسه مع مشروع الشراكة الأمريكية المغاربية والذي لا يرى في المنطقة إلاَّ سوقا مفتوحا وحقلا خصبا للحصول على الثروات لمضاعفة هيمنتها وقوتها الاقتصادية.

في ظل هذه التحديات ضرورة "التكتل المغاربي" لم تعد مجرَّد شعارات ترفع بل أصبحت واجب مقدَّس على حكام وشعوب هذه الدول، وخاصة لابد هنا من التنويه بدور المجتمع المدني[*] الذي تقع على عاتقه جوانب مهمّة من المسؤلية وهنا يأتي دور المنظمات الغير حكومية أو هيئات المجتمع المدني لسد الفجوة التي تركتها الدّولة.

كيف يمكن تجاوز المعوَّقات العديدة[**] التي تقف حاجزا يمنع إمكانية تجسيد عمل مشترك مغاربي؟ في اعتقادنا فإنّ المسؤولية متعدَّدة ومتشابكة ولعلَّ في مقدَّمتها: العمل على المشاركة الشعبية للجماهير المغاربية فالعمل الديمقراطي يساعد على تكوين سلطة فوق وطنية، تسهر على متابعة العمل التكاملي ولا تتأثر بالخلافات السياسية، وكذا العمل على تضافر جهود كل أعضاء الاتحاد وتوحيد إرادتهم لمواجهة التحديات الراهنة والمتمثلة في سياسات الهيمنة الاقتصادية والإخضاع السياسي.

---

* - مساهمة المجتمع المدني في التنمية في المنطقة المغاربية تبقى في تصوَّرنا مرهونة بمسألتين الأولى هي *طبيعة العلاقة التي تربط بين المجتمع المدني وبين الدولة والثانية تتعلَّق بالمجتمع المدني نفسه (القدرة على التخطيط) بحكم أن المجتمع المدني أكثر قدرة على الوصول إلى القواعد الشعبية وأكثر فعلية في ملامسة هموم الجماعات المستهدفة

** - تتعدد هذه المعوُقات منها: الاقتصادية والقانونية وحتى الأمنية وفي مقدَّمتها الخلافات السياسية (انظر المبحث الثاني من الفصل الأوَّل) (المجتمعات المغاربية واشكالية التنمية).

فالمطلوب ضرورة التنسيق مع الأطر العربية وكذلك التجمعات الإقليمية الأخرى كذلك إعادة النظر في النصوص القانونية المنشئة للإتحاد وتحيينها تماشيا مع التطورات على المستويين الجهوي والدولي. يجدر بنا الإشارة إلى أنَّ عملية "التكتل المغاربي" تعتبر الوسيلة للوحدة السياسية وذلك عن طريق الاتفاق على المسائل الاقتصادية الأكثر يسرا وسهولة عن طريق توفير المعلومات التجارية والمالية الخاصة بالاستثمار في دول الاتحاد المغاربي .

بالإضافة لهذا فإنَّ التكامل الاقتصادي يعتبر الشرط الحاسم والجوهري في مختلف التكتلات الجهوية والاقليمية وهذا بفضل تكثيف اللقاءات الثنائية والجادة والمستمرة وإن اقتضى الأمر تقديم تنازلات من جميع الأطراف إلى أن يتم التوصل إلى حل نهائي للخلافات السياسية التي تعتبر جوهر الأسباب المعرقلة لمشروع التكتل المغاربي.

4/تجديد الخطاب الفلسفي المغاربي بما يتوافق ومستجدّات العصر:

تأتي أهمية الدور الذي يمكن أن تؤدّيه النُّخَبْ الفِكْرِيّة المغاربيّة ، والتي يقع على عاتقها مسؤولية التربيّة والتنوير في تهيئة الجو للتغيير ، عن طريق كتاباتهم الفكرية والأدبية الثورية الهادفة ، من خلال مدارسة مشاكل الحياة الإجتماعية والسياسية وغيرها تغرس الوعي في النفوس وتُوجِد في النهاية إحساسا بعدم الرضا ، بالوضع القطري القائم مما يدفع الأفراد والجماهير إلى تغييره. فالمثقّف هو أكثر الناس قدرة وإستطاعة على الإحساس «بظروف المجتمع ونقل هذا الإحساس للمواطنين بشكل مؤثر وفعال» (حسيب.خيرالدين ، 2002) فالمسؤولية كبيرة على عاتق النخب المثقفة وهي مسؤولية صياغة مستقبل هذا الوطن والنضال من أجل دولة الوحدة والمؤسسات محل دولة القطر والفرد والعشيرة ، وحتى إن لم يتحقق هذا التأثير في الوقت الراهن ولم يأتي أكله الآن ، حتما سيثمر ولو بعد حين.

ورغم كثرة الموانع التي تعترض وصول الخطاب الفلسفي المغاربي سواءا في شكله الفكري النخبوي أو في شكله الأدبي الشعبوي ، فهو بالتأكيد قادر على تشكيل الرأي العام المؤثر ومن ثمّ التأثير في صانعي القرار وحينها يتحقق الوَصْلُ بين الفكر والواقع وصنع قوة الضغط لإحداث التغيير المطلوب في الواقع المغاربي ، المتسم بفشل في السياسات التنموية من أجل تقديم الوسائل الرشيدة الكفيلة بتحليل الواقع المجتمعي المغاربي ، من أجل تغييره في إتجاه التنمية الحضارية الشاملة. إنّ هذا الواقع يضع المشتغلين في حقل صياغة الخطاب الفلسفي في المغرب العربي المعاصر على المحك ويتطلب منهم أن يعيدوا النظر في أسلوب كتابتهم ومفاهيمهم حول التنمية والتحديث دون الوقوع في الصوفية أو الإستسلام إلى القنوط.

لقد ساعد تطوَّر العلوم الانسانية في الغرب على استيعاب التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتقليصها ممَّا سهَّل استمرار التطوَّر التصنيعي والتكنولوجي في الدول الغربية ، فالمنهج الماركسي مثلا في العلوم الانسانية لا يختلف من حيث الجوهر على المنهج الليبرالي فالهدف واحد يكمن في تأمين استمرار التقدُّم المجتمعي عن طريق توضيح مسار التطور.

ومن الجدير بالملاحظة أنَّ العلوم الإنسانية قد إسْتُعْمِلَتْ أيضا في الهجمة الاستعمارية الغربية على العالم ، فالأنثروبولوجيا والإستشراق مثلا أدَّيا دوراً هامًّا في بسط سلطة المستعمر على الشعوب المُسْتَعْمَرَة ، وكان الدافع في تطوير هذه العلوم مزدوجا «الدافع العلمي من حيث الميل إلى استكشاف أسرار صيرورة المجتمعات

غير الغربية من جهة والدافع السياسي من حيث ضرورة معرفة مكوِّنات الحياة المجتمعية للشعوب المستعمرة من أجل تسهيل السيطرة عليها من جهة أخرى» (قرم.جورج ، 1981)

فعلى المشتغلين بمهمَّة صياغة خطاب فلسفي مغاربي معاصر يُبْدِعُ فلسفةً في التنميَّة أن يبذلوا الجهد الكافي لنقد المنهجيات المطبقة في المحيط الاجتماعي والاقتصادي المغاربي بوضعها في إطارها التاريخي والمجتمعي الصحيح ، وذلك حتى يتمكَّن من استعمالها استعمالا فعالا ومجديا في محيطه والتركيز على الشكل الداخلي العميق للتنمية والحداثة بعيدا عن الأوجه القانونية والدستورية للأنظمة السياسية والاقتصادية ومستويات المعيشة وأنماط الاستهلاك وتوزيع الدخل ، وإعطاء الأهميَّة الكافية إلى جوهر التّنمية أي إلى أولويات التغيير في العلاقة المجتمعية المدنية والعلاقات السلطوية بين أفراد المجتمع في حياتهم العائلية والمهنية.

فقد وقع المفكرون العرب المعاصرون عامة ، والمغاربة على وجه التحديد فريسة الصراعات السياسية والعقائدية الدائرة داخل نطاق العلوم الانسانية الغربية.

هذه الصراعات كما يؤكّد عل ذلك د. جورج قُرم استولت على عقولهم فأصبحوا يرون أنَّ الطريق إلى التنمية والتطوَّر تكمن في إتباع نموذج قانوني معين في البنى الفوقية الإقتصادية والسياسية وأن لا حاجة لممارسة قوة الإبداع والتخيل في البحث والنماذج موجودة لبيرالية كانت أم ستالينية وعليه أن يطبّقها حسب معتقده السياسي والأيديولوجي الخاص.

أكيد أنّ هذا الوصف ينطبق تماما على المفكرين المغاربة المعاصرين ، فمن مناد بماركسية تاريخانية ،ونقصد هنا د. العروي إلى آخر يدعو إلى ماركسية إسلامية د. شريط وغير ذلك من صور التقليد والإتباع وقد وقع الباحث العربي أيضا فريسة التطورات الأسطورية السياسية العقائدية حول الثورة الصناعية في الغرب وروسيا ، ولم ينظر إلى التاريخ الإقتصادي المقارن الذي وحده يمكن أن ينور بعض الشيء جذور أسرار وأولويات التنمية ، بتحديدها السليم أي: كقدرة الفئات القيادية في المجتمع على السيطرة على البيئة وتحولاتها تحولا عقلانيا بحيث تتمكن هذه الفئات على الأمر البعيد من توجيه البنى المجتمعية نحو المزيد من التغلب على معرقلات التقدم التقني.

وهذا ما يفسّر السمة الثانية لعمل الباحث العربي وهي تخلّيه عن البحث الدقيق الطويل المدى لإستكشاف وقائع تخلف مجتمعه التاريخية بعيدا عن الشعارات السياسية أو المذاهب العقائدية التي طالما أ صبحت بديلا عن البحث المضني والمنتج حيث «قليلا هي الدراسات الميدانية الإقتصادية والإجتماعية التي تسبرغور الفئات الإجتماعية العربية والحقيقية وتبرز تطلعاتها وتفسيرها حسب موقعها من الإنتاج ومن أولويات الحكم»[2] (جورج قرم(-) فالباحث العربي حقيقة نجده يتعامل بمعيار ذهني تجريدي بعيدا عن واقع تقسيم المجتمع إلى فئات وطبقات حسب مناهج سوسيولوجيا الدول الصناعية ، دون تكييفها مع واقعنا المحلي.

لابدّ إذن من الحيطة والحذر في إستعمال المقولات ، والنماذج الخاصة بالدولة الصناعية إستعمالا آليا ليس من ناحية نظام القيم الذي تحتوي عليه تلك المفاهيم ، بل من ناحية النماذج المفترضة للوصول إلى حالة

[2]- جورج قرم – المرجع السابق – ص 172.

التنمية والتقدم لأن هذه النظريات في غالبها لا تخدم إلا مصالح الدولة المتقدمة صناعيا ، وهي المسؤولة عن تعميق تخلفنا ، والمطلوب إذن من الشتغلين في خارطة الفكر المغاربي المعاصر تحديدا أن يستوعبوا جيدا الثقافة التاريخية الواسعة وإمتلاك قوة النّقد والمقارنة والتحليل لتوضيح الرؤيا في المسائل النظرية والمنهجية بعيدا عن التمذهب وبعيدا كذلك عن حلقة الإغتراب في المناهج الفكرية العربية وخاصة بالجدل حول الأصالة والحداثة او الخصوصية والتفرنج.

في هذا السياق يحدّد العلامة محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى سنة 332هـ، أصناف العلماء الباحثين فهم «إما رجل سبق إلى مالم يكن مستخرجا قبله فورثه من بعده ، وإما رجل شرح مما أبقى الأوّلون ماكان مستغلقاً فأوضح طريقه ، وسهل مسلكه وقرب مأخذه وإما رجل وجد في بعض الكتب خللاً فلمَّ شَعْثَهُ وأقام أودّه وأحسن الظن بصاحبه ، غير راد عليه ولا مفتخرٍ بذلك من فضل نفسه (الخوارزمي.محمد.بنموسى ، 1968)وهذا القول فيه تصنيف لأنواع المؤلّفين والكتّاب ، المشتغلين في حقل الفكر والمعرفة. فيمكننا أن نعدّ الباحث إما مبدعاً وإما شارحاً وإما مصحّحاً ، ويبدو لنا أن حال الشارح لا تختلف كثيراً عن حال المصحح «لرجعوهما كليهما إلى نص موجود ، في حين أن المبدع يوجِد النّص ، وبهذا الاعتبار يكون الباحث في الفلسفة ، إما سالكاً مسلك المبدع وإما سالكاً مسلك المؤرّخ للفلسفة» (اليعقوبي.محمد ، 2009)

ولعلّ من أهم شروط إبداع خطاب فلسفي تنموي مغاربي وعربي معاصر ما أكّده الإمام **أبي حامد الغزالي** الذي حذّر من مغبة التعصّب للرّأي ، غير المؤسّس على الحجّة البيّنة ، والذي وجد أنّ الإنسان قد يكون له ما يعتقد أنّه حق ، غير أنّه لاينبغي له أن يطّلع عليه إلاّ من هو شريكه في الإطّلاع على ما اضَّطَلَعَ عليه أو بلغ رُتْبَةً يقبل الإطّلاع عليه ويفهمه .

وذلك بأن يكون المسترشد« ذكياً ولم يكن قد رسخ في نفسه اعتقادُ موروثٍ نشأ عليه وعلى التعصّب له ، ولم يكن قد انصبغ به قلبه ، انطباعاً لايمكن محوه منه ، ويكون مثاله ككاغد كتب عليه من غاص فيه ، ولم يمكن إزالته إلاّ بحرق الكاغد وخرقه ، فهذا رجلٌ فسد مزاجه ، ويئس من صلاحه ، فإنّ كل ما يذكر له على خلاف ما سنعلمه لا يقنعه ، بل يحرص على أن لا يقنع بما يذكر له ، ويحتال في دفعه» (الغزالي.أبي.حامد ، 1964)لقد سلك الإمام الغزالي جميع مسالك المعرفة المتعارفة في زمانه وشك في تعاليم مختلف المذاهب الإعتقادية ، والتي تتمثل في جملة من الآراء يتناقلها الأخلاف عن الأسلاف ، فيتوارثوها أحكاماً مسبقة مسلمة يدعون إليها ، لذلك نجده يخبرنا ويوصنا قائلاً «فجانب الالتفاف إلى هذه المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، ليكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة أعمى ، تقلد قائداً يرشدك إلى الطريق وحولك ألف مثل قائدك ، ينادون عليك بأنّه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل ، وستعلم في عاقبة أمرك ، ظلم قائدك فلا خلاص إلاّ في الاستقلال»— (الغزالي.أبي.حامد ، 1964)لذلك فالنهي هنا ليس معناه أن يكون لصاحب الخطاب مذهب ، وإنّما أن يؤسّس فكره على تقليد غيره وتعليمه ، وعلى التسليم بما يقرّره غيره دون إعمال النّظر فيه.

وهذا لا يعني أنّ ابتكار الخطاب الفلسفي مشروطاً برد كل آراء الآخرين ، بل المطلوب النظر فيها ، لمعرفة قيمتها الذاتية ، بقطع النظر عن قيمة أصحابها لأنه كما يقول حجة الإسلام أبي حامد الغزالي «الحاذق في صناعة وحدة ، ليستلزم أن يكون خاذقاً في كل صناعة» (الغزالي.أبي.حامد ، 1959)لهذا نعتقد أن الإعجاب

بالمذهب قد يكون عائقاً عن الابتكار في مجال الخطاب الفلسفي ، على غرار أنّ الإعجاب بالعالم أو بالنظرية قد يكون عائقاً عن الابتكار في مجال الخطاب العلمي .

بالمعنى الذي تحدث عنه الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار.Gaston Bachelard حينما قال «عندما نبحث عن الشروط النفسية لتقدّم العلم ، سرعان ما نقتنع بأنّ مشكلة المعرفة العلمية ، ينبغي طرحها بلغة العوائق ، وليس المقصود بذلك هو اعتبار العوائق الخارجية مثل تعقيد الظواهر أو إفلاتها ، ولا إتهام ضعف الحواس والعقل البشري ، بل إنّ التباطؤات والإضطرابات من الضرورة الوظيفيّة ، وهنالك سنكتشف عن أسباب ركود وحتى عن أسباب تقهقر ، وهناك سنكشف أسباب جمود سنسميها عوائق إبستمولوجية» (Bachelard.Gaston, 1967)

خاتمة :

نصل في الأخير على أن الخطاب الفلسفي التنموي المغاربي المعاصر-بصورته الراهنة - يعاني أزمة في الإبداع ، وسبب ذلك تبعيّة النّخب للنموذج السلف سواء تعلق الأمر بأطروحات الداعية السلفي أو الداعية الليبرالي ، أو الداعية الماركسي ، فهناك دوما نموذج سلف ، يشكل الإطار المرجعي لكل منهم.

إنّ إخفاق الخطاب الفلسفي المغاربي حتى الآن في تناول حقيقة المجتمع المغاربي بتشعباته وتعقيداته وخصوصياته ، يعكس في نهاية التحليل إخفاق النخب الجامعيّة المثقّفة في المجتمع المغاربي تحديدا في تغيير المجتمع وإخراجه من حلقه التخلف والتبعية. التحدي إذن اليوم هو تطوير علوم إنسانية أكثر شمولية وإدراكا لواقع التخلف والتبعية تتجاوز ما يأتينا من العلوم الإنسانية في الدول الصناعية.

الخطاب الفلسفي المغاربي — بوضعه الرّاهن- عاجز عن تفهّم مشكلات الحاضر التي هي من صنعنا لكننا لا نستطيع إحتواءها ربما لأنَّ خطابنا الفلسفي يهتم بالماضي أكثر ممَّا يهتَّم بالحاضر ويعكف على الترادف أكثر ممَّا يخطط للمستقبل. ويكرَّر ويجتر بل وينسخ ما يسوَّق إلينا من الغرب ، الخطاب الفلسفي ضروري باعتباره آداة النظر ووسيلة الفهم والاستيعاب والمراجعة ، وبات واجبا عليه أن يكون لسيقا بمشكلات واقعنا الملّحة وبات واجبا عليه أيضا أن يتدخّل بشكل حاسم في قضايا حيويّة مثل معضلة غياب التنمية وانعكاساتها.

لقد أقبل القرن الحادي والعشرون ويحمل من تغيّرات ، تتبدى ملامحها على كل الصعد الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها وهذا يقتضي منا تطوير خطابنا الفلسفي ليلائم هذه التغيرات المنتظرة خاصة بعد افرازات ما عاد يعرف بثورات الربيع العربي وتداعياتها وتصدَّع بعض الأنظمة الديكتاتورية وبقاء البعض الآخر منها.

من الممكن إذن أن يكون مستقبل أجيالنا في المغرب العربي أفضل من حاضرنا بل أفضل من ماضينا إن نحن طوَّرنا خطابنا الفلسفي التنموي وقضينا على عقدة النقص وشعور الخوف وسياسة الخلاف ، لنتخطى مرحلة الانهزامية والتبعية ، ولكن هذا لن يكون إلاَّ إذا تجاوزنا الإرتجالية والعشوائية في التفكير والتخطيط والتقدير والتدبير وعملنا جميعا من أجل مغربنا الكبير.

وإن كان الغرب قد سبقونا علما وتقنية واستطاعوا ابتكار نظم سياسية واقتصادية ناجحة بل وإيديولوجية ، فليس لأنَّهم أفضل منا في فطرة أو سلالة أو نسب أو خصائص ، بل لأنَّهم فقط طوَّروا خطابهم الفلسفي نسوا ذواتهم من أجل تحقيق نجاحهم وطرحوا كل خلافاتهم وعداواتهم وعمل كل واحد منهم من أجل الآخر ،

وعمل الجميع للجميع ولو ألزمنا أنفسنا ما ألزم به الغرب به نفسه من جدِّية وصرامة وحسم وعزم لاستطعنا أن نصل إلى ماصلوا إليه لأن الوصول ليس صعبا ولا مستحيلا.

قائمة المصادر و المراجع باللغة العربية:

أبي حامد الغزالي ، المنقذ من ضلال ، اللجنة الدولية للترجمة الروائع ، بيروت لبنان ، ط ،01 سنة 1959م
أبي حامد الغزالي ، ميزان العمل ، دار المعارف ، مصر ط 01 ، سنة 1964م.
آمال حجيج وآخرون— المغرب العربي: ثقل المواريث ونداء المستقبل ، مركز.دراسات الوحدة العربية- بيروت -لبنان — ط1 — 2013
أمحمد جبرون— إمكان النهوض الإسلامي- إمكان النهوض الإسلامي: مراجعة نقدية في المشروع الإصلاحي لعبد الله العروي - مركز نماء للدراسات والأبحاث —ط1 -2012.
الجابري محمد عابد— نحن والتراث— المركز الثقافي العربي— الدار البيضاء- 1980.
جورج قرم- التنمية المفقودة — دار الطليعة —بيروت-لبنان-ط1— 1981.
الخطيبي عبد الكبير— النقد المزدوج— دار العودة— بيروت 1980.
خير الدين حسيب- مستقبل الأمة العربية: التحديات والخيارات — التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي — مركز دراسات الوحدة العربية- لبنان —ط 2 — 2002.
زكي الميلاد- المسألة الحضارية- كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغيِّر- المركز الثقافي العربي — الدر البيضاء- المغرب — ط1- 1999.
شريط عبد الله ،الأعمال الكاملة الج1 -المجلد 1— منشورات السهل — الجزائر— 2009.
عبد الله شريط — مشكلة الإديولوجية وقضايا التنمية — ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر ط1 -1981.
عبد القادر باليمام وآخرون- الفلسفة وسؤال المستقبل: أعمال المؤتمر- الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية- الجزائر- ط1- 2014.
عبد اللطيف كمال- الفكر الفلسفي في المغرب: قراءات في أعمال العروي والجابري-رؤية للنشر والتوزيع - ط1- 2008.
عبادة عبد اللطيف- فقه التغييرفي فكر مالك بن نبي- بن مرابط للنشر- الجزائر- ط1- 2014.
فتحي التركي ورشيدة التريكي— فلسفة الحداثة —مركز الانماء القومي- بيروت —لبنان — ط1 1992
كمال عبد اللطيف— الفكر الفلسفي في المغرب: قراءات في أعمال العروي والجابري— رؤية للنشر والتوزيع— القاهرة— ط1 — 2008.
محمد بن موسى الخوارزمي: كتاب الجبر والمقابلة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ، د ط ، 1968.
محمد سبيلا— في الشرط الفلسفي المعاصر- إفريقيا الشرق- المغرب -د.ط-2007.
محمود اليعقوبي ، أصول الخطاب الفلسفي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط02 ، سنة 2009.
مصطفى النشار- الأرجانون العربي للمستقبل — الدار المصرية اللبنانية- القاهرة ط1 -2014
مصطفى معيرش-المفاهيم في فلسفة عبد الله شريط ، جريدة النصر29/07/2016 ،دخول على الساعة:20و00-يوم يوم 12 - 07 — http://moussamairech.com/index.php/blog/113-article12010
ميروسلاف بتسوليتش وآخرون— العلم والتكنولوجيا— ترجمة حسن توفيق- الهيئة المصرية العامة للكتاب— القاهرة— مصر— ط 1— 1985.
هادي نعمان الهيثي- إشكالية المستقبل في الوعي العربي- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- لبنان —ط1 2003.
هشام جعيط— الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي— نقله إلى العربية: المنجي الصيادي- دار الطليعة—بيروت-ط1- 1984.

قائمة المجلات:

عبد الفتاح الفاوي- تطوير الخطاب الفلسفي وأثره في بناء المستقبل — المستقبل العربي -السنة 25 العدد 283-2002.

مراجع باللغة الفرنسية:

Gaston. Bachelard —Laformation de l’esprit —scientifique —vrin 1967. 25

تنمية المزارات الدينية للوصول بها من مجرد مزار إلي مقصد سياحي

The development of religious — shrines to reach From a mere shrine to a touristic destination

أ.د شروق عاشور ، رئيس قسم الإرشاد السياحي بالمعهد العالي للدراسات النوعية — أكاديمية المستقبل- مصر

الدراسات النظرية:

1) مصر والديانات السمائية:

تعتبر مصر من أكثر البلدان التي احتوت كل الديانات السماوية ولم تفرق بينهم إطلاقاً والتي حفظت كل العقائد الدينية فقد ذكرت 698 مرة في الإنجيل والتوراة (مصر — المصري — المصرية) في كل من أسفار العهد القديم(*) سفر العهد الجديد والتكوين وسفر الرؤيا وكذلك الأناجيل الأربعة مبارك شعب مصر (سفر أشعيا إصحاح(1)) ، كهيئة الرب أرض مصر (التكوين إصحاح(22)).

مصر التي المرة الأولي والأخيرة يتجلي فيها رب العزة علي بشر ويكلمه سيدنا موسي في جبل الطور بسيناء ، مصر التي منها ستنا هاجر زوجة أبو الأنبياء أم سيدنا إسماعيل أبو العرب وأول من نطق العربية كانت قبطية مصرية ، وكذلك مصر التي كان منها القائم علي خزائن الأرض وأنقذ العالم من مجاعة. وكان علي خزائن مصر ووزيرها سيدنا يوسف.

مصر التي باركتها العائلة المقدسة (السيدة العذراء والسيد المسيح ويوسف النجار) (متي الإصحاح الثاني) وأقامت بها مصر التي ذكرت في القرآن الكريم صراحه خمسة مرات و34 تلميحاً (أدخلوا مصر إن شاء الله أمنين) (سورة يوسف آيه 99).

مصر التي باركتها آل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم ومن لم يدخل بجسده ومقبرته أقيم له مرقد رمزي للمقام الديني لأهل البيت.

مصر التي منها ماريا القبطة التي تزوج بها رسول الله وأنجب منها ابنه إبراهيم.

مصر الأزهر الشريف الذي كان ولا يزال يمثل قلعة الإسلام عبر العصور. لذا ينظر لمصر كأرض حجيج سواء للأماكن المسيحية أو مزارات آل البيت وهي تؤكد الهوية الفكرية لكل المعتقدات الدينية بل وتحافظ عليها أيضاً ويستمر العطاء العقائدي حتى عصرها الحديث فالدمج واحد بين المعتقدات كلاً يدعو إلي الحب والسلام والفضيلة فكثير من أبناء مصر الأقباط مثل نظمي لوقا — الأب متى المسكين — الأب سرجيوس التحقوا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب وتعرفوا علي القرآن الكريم حفظاً وتجويداً وكذلك الأب قنواتي رجل الدين المسيحي الذي له ما يقرب من 27 مؤلفاً منها 13 كتاب عن الإسلام وحتى وقت قريب 2 مارس 2019 عقد حواراً للسلام والطمأنينة حضره ممثلونعن الرهبان الفرنسي سكان وشيوخ الأزهر بالقاهرة وكان لقاءاً يسوده الحب والوئام يؤكد علي وجود مجتمع سوي يسوده الإيمان كلاً بعقيدته (اسماعيل حامد ، 2009).

2.السياحة الدينية: تعتبر مصر ذات شهرة عالمية في هذا النمط السياحي من حيث التنوع فمن يرغب أن يري صور عديدة للديانات السماوية الثلاثة ودور عبادتها وما ارتبط بها من منشآت سيجدها وبكثرة فيها أربعة عشر

معبد يهودي أهمها معبد آل عذرا بمصر القديمة (نموذج تطبيقي) وكذلك معبد موسي بن ميمون بحارة اليهود بالموسكي (نموذج تطبيقي) بالإضافة إلي مزار أبو حصير (نموذج تطبيقي) (سراج ، 2002).وكذلك عدد هائل من الكنائس من الإسكندرية شمالاً حتى الصعيد جنوباً وهي متعددة الطرز وبها ما يميز الكنيسة المصرية دون سواها فضلاً عن أن بعضاً منها تعد محطات أقامت بها العائلة المقدسة في زيارتها إلي مصر التي استغرقت ما يقرب من أربع سنوات وعشرة أيام وبدأت من الفرما قرب العريش حتى وصلت أقصي صعيد مصر ثم العودة وينظر لتلك الأماكن مسيحوا العالم علي أنها أماكن الحج الثانية بعد بيت المقدس (متاوس ، 2001) كنيسة أبي سرجة (نموذج تطبيقي) التي أقامت بها العائلة قرابه ثلاثة شهور ولم يكن انتشار الكنائس وأهميتها بالقاهرة أو ما يحيط بها فقط بل أكثر من ذلك مثل محافظة الدقهلية وبها كنيسة هامة مارجرجس ميت دمسيس (السرياني ، 1968م)(نموذج تطبيقي) ولا يمكن تجاهل جزئية هامة وهي أن الرهبنة تعتبر من أهم المظاهر التي قدمتها مصر للعالم المسيحي وقد ذاع صيت نساك مصر فتوافد عليها الناس من جميع أركان العالم المسيحي الشرقي والغربي (ابن خلدون ، 1978م) فقد ذكر أن القديس هيلاريون الفلسطيني تتلمذ علي يد الأنبا انطونيوس ثم عاد إلي بلاده ومعه رهبان من الأقباط وأنشأ الأديرة في فلسطين وكذلك القديس أوجين الذي ذهب مع عدد من الرهبان الأقباط وأنشأ الأديرة بالموصل وقد نقلت إلي العالم وسافر رهط من الأقباط إلي روما فكانوا نواة الأديرة التي قامت في إيطاليا ومنهم من وصل إلي جنوب فرنسا حيث أسس 400 ديراً في لوران كما أنشأ القديس كاسيان ديراً بإسم القديس بطرس في مدينة مرسيليا بفرنسا (Meinordms, 2004)بعد عودته من مصر علي نظام الأديرة المصرية وقد نقلت القوانين والنظم وكذلك المنشآه التي يقيم بها الرهبان وهي الدير بعناصره المعمارية المختلفة دير السيدة العذراء قسقام (نموذج تطبيقي) ومع الإسلام ودخوله مصر كانت المساجد بالطرز المعمارية المتنوعة بدايةً بجامع عمرو (نموذج تطبيقي) أول مسجد إسلامي بمصر (المقريزي ، 1987م) وتوالت المساجد متنوعة التخطيط وكذلك مباركة أرض مصر بمراقد آل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم ومن لم يدخل مصر بجسده أقيم له مرقد رمزي للمقام الديني له كمشهد تذكاري ويعتبر المصريون هذه المراقد ملاذاً لهم سواءً للنذور أو التبرك وحمل التعب والمعاناه مثل المشهد الحسيني رضي الله عنه بجنوب القاهرة ومرقد السيدة زينب والسيدة عائشة والسيدة فاطمة النبوية والسيدة سكينة والسيدة نفيسة (نموذج تطبيقي) رضوان الله عليهم جميعاً وكذلك عديد من المزارات التي تردد عليها تابعي الطرق الصوفية(*) كالسيد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي وبها العديد من أماكن سكنا الصوفية ما تعرف باسم الخانقاه (نويصر ، 1988م) وهي ذات تخطيط معماري مميز خاص باستخدامها مثل خانقاه بيبرس الجاشنكير (نموذج تطبيقي) وعديد من الأماكن بمصر جمعت بين منشآت العقائد الدينية الثلاثة معاً منها مجمع الأديان بمصر القديمة وبه المعبد والكنيسة والمسجد وبعد ما ذكر لابد أن ندرك أن التعايش السلمي ضرورة حياتية لا يستغني عنها الناس وقد أراد الله تعالي أن تتعدد الأديان وأن يتعايش الناس في سلام.

الدراسة التطبيقية:

المزارات الدينية اليهودية: وهي دور العبادة الخاصة بالعقيدة اليهودية أو ما يعرف حاملي Hebrew Bible الكتاب المقدس اليهودي (التوراه)(*) كما يطلق عليهم بلاد الغرب وقد أشار بعض العلماء أن كلمة توراه في أصلها عربي مشتقه من كلمة طوراً وطور سيناء العربية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم قال الله سبحانه

وتعالي (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين) (المؤمنون 20)والعقيدة اليهودية مثلها مثل باقي العقائد لابد لها من ممارسات أو عبادات لذا تواجد دور العبادة الخاصة بهم.

أ.معبد إبراهام بن عذرا بالفسطاط: يذكر أن مكانه الحالي كان منذ القرن السادس الميلادي كنيسة للأقباط (سراج ، 2002م) ويدل علي ذلك استمرارية التصميم المعماري البازيلكي الطراز وأسند لطائفة يهودية في القرن التاسع مع مساحة من الأرض محيطة به وتم تغيير بسيط فيه يتماشي مع الممارسات العقائدية اليهودية وهو من أقدم المعابد اليهودية بمصر وقد زادت أهميته بعد أن تم الكشف به علي كميات هائلة من المخطوطات التي تعرف بالجنيزة في حجرة بالطابق الثاني من المعبد عام 1896م من أهمها سفر توراة بخط عذرا وبه أيضاً مكان كان العامة يتردد عليه للأستشفاء تبركاً بالمكان والمعالجة علي أيدي طبيب يهودي موسي ابن ميمون قد اقام في المعبد ق 12م فترة طويلة وكذلك يوجد مبني مجاور للمعبد يوجد منه بقايا يذكر أنها كانت تستخدم كمحكمة(الوقاد ، 1971م). والمعبد من الداخل مستطيل مقسم إلي ثلاث أجزاء بالمنتصف حيث يوجد ما يعرف (بالمنصه) أو (البيما)[*] التي يتم قراءة التوراة عليها مع عدم لمس الكتابوفي نهاية المساحة بالمنتصف يوجد ما يعرف بالهيكل حيث يوجد صندوق التوراة مصنوع من الخشب المطعم بالعاج ويتم الصعود إليه بواسطة خمسة درجات وقد زين هذا الصندوق بكلمات عبرية هي عبارة عن الوصايا العشر نصها:

ابن إلهك

لا يكن لك المواخري

لا تصنع لك تمثال منحوت

أذكر أنك كونت عبداً في أرض مصر

احفظ يوم السبت لتقديسة

لا تقتل

لا تزن

لا تسرق

لا تشهد زور

لا تشتهي أمراة قريبك

والدور العلوي أهم ما في أروقه مماثلة بالجانبين والمنتصف كشف وتظهر حجرة الجنيزة عبارة عن غرفة صممت بشكل يتوائم مع ما استخدمت من آجله وارتفاعها خمسة أمتار وليس لها مدخل سوي نافذة عالية يمكن الوصول إليها بواسطة درج فقط حيث كان علي يهود هذا العصر الصعود لألقاء أوراقهم من تلك النافذة إلي داخل الغرفة.

ب.معبد موسي ابن ميمون: يوجد من حارة اليهود وهي منطقة كانت تقيم فيها خمسة عشر يهودي حتى عام 2005 ويوجد بها بقايا لمعبد يعرف باسم معبد أبو حاكم كابوس بدرب نصير (موسي ابن ميمون) وقد كان استخدام هذا المعبد للصلاة قبل نقلها إلي معبد هشمايم بشارع عدلي وسط البلد معبد موسي بن ميمون بن عبد الله القرطبي الحاخام سوشيه بن ميمون ولقب أبو عمران ولد عام 1135م بقرطبة بالأندلس وقد تبحر في

علوم الطب والفلسفة وتركها وذهب إلي فلسطين ومنها إلي مصر وقد أقيم في البداية بمعبد إبراهام بن عذرا سابق الذكر وقد ألف كتب عديدة في الطب ويذكر أنه كان طبيب صلاح الدين الأيوبي وقد توفي بمصر عام 1204م ودفن بضريح ملحق بالمعبد إلي أن نقلت رفاته إلي فلسطين حيث دفن بمنطقة طبريا (ميطال ، 1995م) وتوالت علي المعبد صيانة وترميم في الفترات القريبة بعد أن ظل مغلق فترة طويلة من الزمن ويتقدم مدخل المعبد درج صاعد خمس درجات ثم شرفة حديدية يعلو المدخل لوحة رخامية علي شكل كتاب مفتوح سجل عليها (معبد ومقام السيد موسي بن ميمون هرمبام) يقسم من الداخل المعبد إلي ثلاث أقسام الأول جزء للصلاة والثاني حجرة المقبرة التي دفن فيها قبل نقل الرفات والثالث حجرة للإقامة طالب الشفاء ويحاط بكل هذا مجموعة من الحجرات الصغيرة وبئر بالركن الغربي ثم يواجهنا درجة صاعد من الرخام يؤدي للهيكل حيث توجد المنصه أو ما تعرف بالبيما وازدانت الجدران بكتابات عبرية وزخرفة النجمة السداسية وأشكال الشمعدان اليهودي (الوقاد ، 1971م).

ج.مزار أبو حصيره: ينسب هذا المزار إلي الحاخام أبو حصيره وهو يعقوب هارون الباز ولد سنة 1807م بالمغرب وتوفي بدمنهور أحد القري بمصر محافظة البحيرة سنة 1880م فقد أقام في مصر واستقر بها حين كان في طريقه من بلاد المغرب إلي القدس وتوفي بها ودفن بها وقد ذاع صيته بالكرامات من اليهود المقيمين في ذلك الوقت ويذكر أنه لم يملك ولميكتنز شيئاً سوي الحصيرة فعرف بذلك أو بعض الأساطير للرحيل بها وله اتباع ويحتفل به في نهاية شهر ديسمبروأول يناير مصاحب له احتفالية دينية ، والمزار أو مقبرة أبو حصيره عبارة عن حجرة فوق ربوة ترتفع عشرة أمتار بداخلها والمقبرة مستطيلة بداخلها صندوق يعلوه تكسيه رخامية يحمل كتابات نصها (هنا يرقد رجل صالح جاء من المغرب عائداً إلي التراب) ويجاوره أربعة من مريديه مدفونين أيضاً محاطة ثمان وثمانين مقبرة تعرف بجبانه اليهود ويزوره عديد من يهود شمال أفريقيا خاصة المغرب الآتي هو منها(حسن خليفه ، 1999م).

يرتبط المزار بموروث شعبي (مولد أبو حصيره) يشار له في خطة التنمية السياحية.

المزارات الدينية المسيحية: تعتبر المنشآت الدينية المسيحية فصلاً هاماً من فصول التاريخ المسيحي عاماً والقبطي خاصاً والاهتمام بها ووضعها علي خريطة السياحة العالمية يعد إحياءاً لحقبة تاريخية هامة في تاريخنا القومي فدراسة تاريخ وتراث أباء الكنيسة المصرية يؤكد شخصية مصر واستقلالها الفكري ، فمصر تحتضن الطوائف المسيحية الثلاثة الأرثوذكسية(*) والكاثوليكية والبروتستانية وكذلك الطوائف المنبثقة منها كالموارنه والأرمن والروم وبين ربوعها العديد من الأنماط المعمارية بنيتعليها الكنائس البازيلكي(*) والصليبي(*) واختصت بتخطيط خاص بها هو (التخطيط القبطي)(*)وقد امتاز بعناصر معمارية وزخرفية تخص الكنيسة بمصر دون كنائس العالم فكل كنيسة مما يذكر يعد متحف مفتوح (المصري ، 1952) متنوع ولعل أهم الأحداث التي حدثتبمصر دون بلدان العالم هي قدوم العائلة المقدسة إلي مصر فإن استقبلت فلسطين ميلاد السيد المسيح فمصر آتي إليها بنداء إلهي (قم وخذ الصبي وأمه وأهرب إلي مصر) (انجيل متى – الإصحاح الثاني) مصر الأرض التي قدمت الملاذ والملجأ والحماية للعائلة المقدسة أرض الحج بعد أورشليم خاصاً بعد زيارة بابا الفاتيكان وإدراجها تبع منظمة اليونسكو وقد نشر في ألمانيا بردية بالقبطي الفيومي تعود للقرن الرابع ذكر منها أن مدة الزيارة أربع سنوات وصلت لنا المعلومات عن هذه الرحلة بواسطة وثائق وتراث الوثائق ممثلة

في البابا ثاؤفليس البطريرك 23 أسقف البهنسا ق 6م وأسقف سخا 6-7م - تاريخ البطاركة 11م – تاريخ الكنائس 12م احباش دير المحرق 14-15م(غورغوريوس ، 1991م). والتراث الذي يحاكي لنا الرحلة عديد تحطم الأوثان شواهد البهسنا والأشمونين ومنابع مياه في مناطق قاحلة – مياه عذبه في منتصف مياه مالحة بحيرة الحمراء – شجرة مريم وشجرة العابد والكنائس والأديرة المنتشرة بشكل كبير في كل المناطق التي ذكرت في الوثائق مثال منطقة مير بصعيد مصر ثم يأتي أهمية السياحة الدينية المسيحية بمصر أيضاً لنقلها المنهاجية الدينية إلي العالم ممثلة في الرهبنة والرغبة في زيارة المنشآت (الديرية) التي يقيم فيها الرهبان والتعرف علي عناصرها المعمارية والتبارك بها لوجود إناس تركوا العالم وفضلوا الأنفراد للعبادة فقط(البراموس ، 1924م).

أ.**كنيسة أبي سرجة:** تقع في منطقة مصر القديمة(*) في حارة نسطورس وسط الحصن الروماني(*) تأخذ أسمها من أسم القديسين سرجيوس وواخيس اللذان استشهدا بسوريا (Butler, 1884) وذلك لاعتناقهما الدين المسيحي وقد أخذت الكنيسة مكانه دينية خاصة لإرتباطها بوجود العائلة المقدسة فترة طويلة من رحلتها إلي مصر بالإضافة إلي أن تلك الكنيسة كان يتم فيها انتخاب بطاركة الكنيسة القبطية حتى القرن 12م وتتكون تلك الكنيسة من جزئين أولهما الكنيسة الدينية والجزء الثاني المغارة (غورغوريوس ، 1996م) كنيسة بازيليكة الطراز مستطيلة مقسم إلي ثلاثة أروقة أوسعها أوسطها بواسطة صفين من الأعمدة وبها أمبون(*) من الرخام يرتكز علي 10 أعمدة وفي النهاية الشرقية الهيكل به المذبح(*) يحيط به حجرتين الجزء الثاني بالكنيسة وهو المكان المقدس المحبب للزيارة روحانياً هو المغارة وهي مستطيلة الشكل ولكن مساحة صغيرة مقارنة بمساحة الكنيسة وهي محفورة في الصخر ويغطيها قبو حجري مقسمه إلي ثلاث أجزاء أيضاً والأوسط أوسعها ينتهي بتجويف ويوجد لوحه رخامية يتوسطها صليب محفور وتعتبر المغارة بهذا الشكل كنيسة صغيرة تحت الأرض ومنخفض عن أرضية مستوي الشارع بقدر 6م (Buranester, 1955).

ب.**كنيسة الشهيد مارجرجس:** قد قاست الكنيسة القبطية من الاضطهاد ما لم تقاسيه كنيسة أخري في العالم ولعل أشد أنواع العذاب في فترة حكم دقلديانوس 284م ولشدة المعاناة أخذ الأقباط تقويم قبطي(*) يعرف (بالشهداء) وقد أسفر أن الاستشهاد قصة المسيحية المبكرة لذلك ضرب بجذوره في أعماق البشرية اعترافاً بأنهم وإن ماتوا فهم أحباء الله فتقرب المصري من شهدائه يجعله في حالة إيمان وتسليم للعقيدة فالكنيسة تهتم بالشهداء وتحتفل بذكري استشهادهم (يوأنس ، 1979م) تكريماً لهم وتذكرهم في صلواتها ومن أشهرهم مارجرجس حيث له ما يقرب من 373 كنيسة علي أسمه في ربوع مصر. فالمسيحي القبطي عادة ما يذكر الشهداء ولا يتخيل حياته بدونهم فهو اعتاد علي التقرب منهم وطلب العون والوساطه الألهية منذ طفولته وقد تعددت الأسماء التي يعرف بها شرقاً وغرباً يعرف بمارجرجس وسان جورج والخضر(*) وأمير الشهداء وهو موضع احترام المسيحيين شرقاً وغرباً ولا سيما انجلترا ترسمه علي نقودها وروسيا ترسمه علي حصونها كان استشهاده 263م (أيوب ، 1989م).

توجد هذه الكنيسة في قرية صغيرة ميت دمسيس بمحافظة الدقهلية علي الشاطئ الشرقي للنيل وهي عبارة عن كنيسة كانت بداخل دير ولم يتبقي منه سوي الكنيسة حيث أعيد بنائها علي يد الملكة هيلانه أم الأمبراطور قسطنطين الكبير فيذكر أنها زارت مصر بعد زيارتها لأورشليم وأمرت عام 337م ببناء كنيسة في المكان الذي خاطب فيه موسي الله وهو مكان دير سانت كاترين ثم زارت أماكن عديدة بمصر وأمرت بإنشاء

كنائس عديدة لعل من أهمها هذه الكنيسة وهدمت وأعيد بنائها عدة مرات مع الاحتفاظ بالمقتنيات الأثرية بها أخر تطوير لها 1880م ، منخفضة عن منسوب الأرض بمترين والوصول لها بواسطة درج هابط من أربعة عشر درجة والكنيسة عبارة عن مساحة مستطيلة قسمت من الداخل إلي ثلاث أقسام بواسطة تسع دعامات حملت فيما بينها ست عقود نصف دائرية وبالجهة الشرقية يوجد ثلاث هياكل الأوسط علي اسم مارجرجس والأيمن باسم تكلا هيمانوت الحبشي(*) والأيسر باسم السيدة العذراء والهياكل عبارة عن مساحة مربعة بجهة الشرق حنيه والمنتصف مذبح يفصل الثلاث هياكل عن الكنيسة وحجاب خشبي مطعم وقد سجل عليه تاريخ صنعه علي ثلاثة أجزاء 954 للشهداء وقد تنوعت أساليب التصنيع والزخرفة بالحجاب وكتب عليه أيه (عاشور ، 2011):

(هذا هو باب الرب وفيه يدخل الأبرار)

(برسم ـ تكلاهمانوت الحبشي)

وقد ألحقت الكنيسة الأثرية بكنيسة أخري مستحدثة 1875م وكنيسة ثالثة 1976م متشابهة في التخطيط السابق وأكثر ما يميز تلك الكنيسة هي المقتنيات الأثرية التي بها مجموعة هائلة من المنسوجات الكهنوتية نفذت بطريقة القباطي(*) المشهورة بها مصر منذ العصور المسيحية الأولي ومجموعة من الأواني المقدسة أدوات مذبح(*) وشورية(*) بالإضافة إلي مجموعة هائلة من الأيقونات(*) المتنوعة.

وترتبط هذه الكنيسة بموروث شعبي هام هو (الموالد) ويتم الاحتفال لمدة أسبوع كامل تتكدس الزوار في البلدة كلها وليست الكنيسة فقط (يشار له في خطة التنمية السياحية).

ج.دير السيدة العذراء (قسقام) أورشليم الثانية: لا بد أن نشير علي صفحة هامة من صفحات التاريخ المسيحي بمصر وهي الرهبنة وهي عبارة عن نظام ديني ارتبط بالدين المسيحي والرهبنة هي التعبد ورهب أي خاف والاسم رهبوتي يقال الرهباء في الله والرغباء إليه وترهب الرجل حيث صار يخشي الله والجمع رهبان وقد ذكر في القرآن الكريم (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمه ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله). والراهب هو المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوه للعبادة وكلمة الرهبنة في اللغة القبطية (موناخوروم) (Monochorom) وهي من الكلمات اليونانية المستعارة في اللغة القبطية ومنها اشتقت كلمة راهب ومصطلح الديرية Manosticism مشتق من الكلمة اليونانية Mones أي التوحيد وقد استعمل للدلالة علي من انعزل عن العالم وتبع نظام ديني والدير هو المنشأة التي يعيش فيها الرهبان ولها مواصفات معمارية خاصة بها وسنقوم بعرض نموذج من تلك المنشأة (دير السيدة العذراء قسقام) كتنوع للعمارة الدينية وهو أيضاً دير هام جداً يعتبر أرض حجج في قسقام وهذه البلدة مكثت بها العائلة المقدسة حين أتت برحلة إلي مصر(*) وأقامتفي بيت بالقرب من سطح الجبل الغربي لها لمدة ستة شهور وعشرة أيام وعرفت البلده قسقام وهي كلمة قبطية معناها مدفن الحلفا (نبات الغاب) (رهبان المحرق ، 1990م)وهي في أسيوط إحدي محافظات صعيد مصر وقد صار المكان الذي سكنوا فيه هذه المدة هيكلاً تقام فيه الصلوات اليومية كما بشر بذلك (في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر وعموداً للرب عند تخومها) (أشعيا إصحاح 19 أية 19) ومن هذا المكان كانت عودة رحلة العائلة المقدسة إلي فلسطين وظل المكان الذي تواجدت فيه العائلة حيث نجد أول كنيسة بالوجة القبلي لإقامة الصلوات ولكن الشكل الذي عليه الدير الآن هو في نفس المكان

والكنيسة القديمة بالدير تعود للقرن الرابع الميلاديويحتوي الدير علي ما يعرف بالقلالي (الحجرات التي يعيش فيها الراهب) وعددها ثمان وثمانون تبعاً لأعداد الرهبان به وبداخله ثلاث كنائس مماثلة لما ذكر في وصف الكنائس وبه مائدة تعرف بمائدة الأغابي (المحبة) يجتمعون فيها للطعام وما يعرف باسم الحصن مبني للجوء إليه في حال أي هجوم علي الدير قديماً ولا زال باقي إلي الآن بالدير ومكتبة كبيرة وطافوس وهو المقبرة التي يدفن فيها الراهب بعد مماته ومحاط كل هذا بسور كبير محاط به العناصر المعمارية سالفه الذكر ويوجد أقدم جزء من هذا السور بالركن الشمالي الغربي يعود للقرن السادس الميلادي (Meinordms, 1901).

المزارات الدينية الإسلامية: حين الحديث عن الحضارة الإسلامية يتطرق إلي الذهن ما ترك من موروثات عديدة خلفتها لنا الحضارة التي يحكمها تعاليم إسلامية ولقوتها فرضت وصبغت تلك التعاليم علي العديد من المنشآت المعمارية والفنية أيضاً ونستطيع بشيء من البساطة تقسيم عمارتنا الإسلامية إلي عديد من المراحل أولاً عصر النبي صلي الله عليه وسلم وهو التخطيط البسيط التقليدي وقد استمر إلي العصر الأموي (سامح ، 1987م) ولدينا في مصر نماذج عديدة منها مثل جامع عمرو بن العاص واستمر التخطيط طوال فترة الدولة الفاطمية إلي أن ظهر تخطيط المسجد الثاني وهو تخطيط المدرسة لصحن مكشوف وأربعة أيوانات لتعليم المذاهب الإسلامية الأربعة ثم الطراز الثالث الذي يميزه القبة المركزية محاطة بقباب صغيرة في العصر العثماني وقد ظهرت العديد من المنشآت التي بوركتبوجود رفات آل البيت وبجانب تلك المنشآت العديدة من أسبلة وكتاتيب وقلاع وحصون ولعل من أهم المنشآت المعمارية الإسلامية الخوانق لسكنه الصوفية مثال خانقاة بيرس الجاشنكير.

أ.**جامع عمرو ابن العاص:** المسجد العتيق – تاج الجوامع – الجامع العمري كما يلقب أنشأ عام 21هـ - 641م بالفسطاط[*]وهو أول جامع إسلامي بمصر وأفريقيا والرابع علي مستوي العالم العربي وقد قام علماء الأثار بإلقاء الأضواء علي ذلك الجامع الهام (أبندقماق - المقريزي – علي مبارك – فريد شافعي – حسن الباشا) وقد تتبعوا إنشاء المسجد منذ عام 21هـ و حتى العصر الحديث حيث قاموا بمحاولات لعمل تخطيط معماري مثل سابقاً والتجديدات التي مر بها والمسجد منذ البداية التزم تخطيط مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم بحصن مكشوف وأربعة أروقة أعمقها رواق القبلة وقد أضيف للمسجد زيادات في عصور مختلفة ولكن يبقي المساحة التي أقيم عليها المسجد في النصف الشرقي من رواق القبلة في اتجاه المحراب وبه أربعة أبواب وللمسجد مئذنين وكل زياداته أضيفت علي فترات متتالية مسلمه ابن مخلد وعبد الله ابن طاهر ثم مراد بك وتوالت عليه الصيانة والترميم من قبل وزارة الأثار وبه عديد من الأعمدة تقريباً 356 عمود يحملون البائكات ومتوجه بتيجان متنوعة بالإضافة إلي الروابط الخشبية التي مزدانه بزخارف إسلامية (عبدالجواد ، 1970م).

ب.ضريح السيدة نفيسة: السيدة نفيسة نفيسة العلم والمعرفة – نفيسة الطاهرة – نفيسة الداريني – نفيسة المصريين تعرف بكل هذا بين ربوع مصر وقد استقرت في قلوب الناس واقترب اسمها بالصلاح والتقوي والعلم ودوماً يقترن اسمها عند المصريين بالورع والزهد والتقوي ابنة الأمام الحسن الأنور بن زيد بن الأبلج بن الأمام الحسن بن علي بن ابي طالب ولدت بمكة سنة 145هـ ونشأت بالمدينة حجت ثلاثون حجة وكانت تبكي بكاء شديداً وتتعلق بأستار الكعبة أقامت في مصر ومرضت وماتت عام 208هـ وقد حفرت قبرها بيدها وأول من بني علي قبرها هو عبد الله بن السري بن الحكم والي مصر من قبل الدولة الأموية وأعيد بناء الضريح في عهد

الدولة الفاطمية ودون تاريخ هذه العمارة علي لوحة من الرخام علي الضريح في فترة الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله 482هـ وقد عمر المشهد النفيسي أيضاً الأمير عبد الرحمن كتخدا وبني الضريح علي ما هو عليه الآن عام 1173هـ عبارة عن ردهة متسعه ومدخل للنساء وأخر للرجال ومسجد للصلاة ملحق به وقد ذكر أنه أوقف 450 فدان وغيرها للصرف علي الضريح بصفة دائمة(جاويش ، 2010).

ج.خانقاه بيرس الجاشنكير: كما تحدثنا عن ساكني (الدير) المنشأة المسيحية التي يقتن بها (الرهبان) لابد أن نشير إلي ساكني الخانقاوات أيضاً (الصوفية) فالصوفية أو التصوف وفق الرؤية الإسلامية ليست مذهباً بل هي منهج يسلكه العبد للوصول إلي الله بعلم ومعرفة ويكون عن طريق الاجتهاد في العبادات وتربية النفس وتطهر القلب ويستمد هذا المنهج أصوله من القرآن الكريم وسنة نبينا محمد صلي الله عليه وسلم وقد انتشرت الصوفية والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف مثل شمس التربيزي وخلال الدين الروحي ولكنها قد اختفت من بعض البلاد إلا مصر فشعبها لا زال يضم العديد منهم ويعلنون عن أنفسهم في جماعات يظهرون في موالد آل البيت شعارهم (حب الله من أجل ذاته فقط ولا خوفاً من النار ولا تطلعاً للجنه) من تلك الجماعات الأحمدية – البرهامية – الشاذلية – الرفاعية – القادرية – الخلوتية – المولوية – أبو الحجاج وهؤلاء لأجل تحقيق الوصول إلي الله لابد من المجاهدة في قطع عدة مقامات وهي أشبه بمراحل التوبه – الورع – الزهد – الفقر – الصبر – التوكل – الرضا وفي نهاية راحة النفس أو السلام الروحي وسنقوم بعرض لنموذج من منشأة معمارية يسكنها الصوفية وهي الخانقاه.

والخانقاة كلمة فارسية تعني المكان الذي ينقطع فيه المتصوف للعبادة حيث تجمع بين تخطيط المسجد والمدرسة تقع تلك الخانقاة بشارع الجمالية في رحبه باب العبد مقابل الدرب الأصفر الذي يؤدي لباب النصر ومجاورة لخانقاة سعيد السعداء وقد أنشأها بيبرس الجاشنكير كان من مماليك السلطان قلاوون تدرج في عمل حتى صار أمير ثم جاشنكير وهي كلمة تركية يقال من الكلمات الفارسية المستعارة وهي متذوق الطعام.

شرع في بناها 1306م وتم بناها 1309م وقد الحق بها قبه ضريحية له بدايتها من المدخل الذي يعلوة مئذنه مطله علي شارع الجمالية إلي ردها بها بابان باب إلي القبة والباب الأخر إلي صحن الخانقاة بها أيوانين كبيرين مغطيانبقبو يحيط بهما خلاوي تطل نوافذها علي الصحن تلك الخلاوي لسكنه الصوفية وكل خلوة عبارة عن غرفة صغيرة جداً تسمح بالجلوس وبها نافذة وما يشبه الكتبية بالحائط ربما لوجود الكتب الدينية التي ينفرد بها الصوفي للعبادة(نظيف ، 1989م).

خطة التنمية السياحية: بعد أن تم عرض المقومات السياحية الدينية المتنوعة (يهودية – مسيحية – إسلامية) والإدراك بأن الأماكن المقدسة ليست مجرد أثار فحسب فهي لم تكن حجارة وحوائط ورسومات فنية بقدر ما هي حياة صامتة بأحداث التاريخ ونبضات الماضي وتعطر الحاضر بعطر الذكريات الروحانية فهي كائنات حية إن صح التعبير لا تموت بل توجد في أعماق الإنسان فهي جغرافيا مقدسة لا تزال رسالتها تؤكد المعني الألهي في فكر الإنسان لذلك لابد بعد أن تحدثنا عن العقيدة والممارسات للشعائر يظهر لنا المنتج التراثي (الحي) لذا لابد من التذكير علي السياحة الدينية وكيفية الوصول بها للقصد دون سواها لتطويع الماضي لخدمه المستقبل ولا يكون هذا بالسهولة الوصول له دون أن يكون الإنسان مستشعراً لقيمة هذا التراث وعلي

وعي كامل وإدراك تام لهذا الموروث الضخم مع عمل سلسلة من العمليات المنظمة التي تحدث تغيراً مرغوباً في واقع موجود وقد تم عمل خطة للتنمية السياحية الدينية في ثلاث محاور:

أ.التؤمة مع سياحة المهرجانات (الموالد).

ب.الاهتمام والتلازم مع السياحة الخلفية.

ج.تنمية الموارد البشرية للعاملين في مناطق المزارات الدينية.

المحور الأول: التؤمة مع سياحة المهرجانات (الموالد):

وصفت سياحة المهرجانات بالعملاق القادم وقد استخدم كثيرا ليشمل سياحة الأحداث الخاصة والاحتفالات من أي حجم أو تنظيم أو شكل حيث يتم تناولها من وجهات نظر متنوعة من منظور اجتماعي وترفيهي وتنمية المجتمع وصناعة السياحة فهي الفرص المتاحة فالمهرجانات والاحتفالات التي تقام سنوياً في بعض المناطق الحضرية والريفية علي المستوي العالمي والمحلي قد تساعد علي تحقيق الكثير من المردود الاقتصادي ومع مرور الوقت في كل مجالات السياحة معاً أصبحت العلاقة بين ثقافة الشعوب والعادات والتقاليد السائدة في المجتمعات والموروث الشعبي فالسائح الذي يحضر احتفال ديني هو النواة لسياحة المهرجانات الشعبية التي تعتمد علي الموروث الشعبي بغض النظر عن دوافعه واهتماماته وقد يساعد هذا علي تشجيع السكان المحليين علي الاستمرار في الإقامة في الموقع الذي به المهرجان ومن هنا يظهر منتج سياحي جديد بعمل Event وهو (الموالد) ولم يشار له ومناقشته من قبل ، لذلك يعتبر هذا عمل جديد يضاف لسوق السياحة مصدراً لمقصد نربطه بالإشباع الروحاني للمزار الديني.

الموروث الشعبي (الموالد) له جذور في مصر منذ الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) وكانت تعرف باسم الأعياد (أعياد فرعون – أعياد الحصاد – أعياد الفيضان – أعياد الألهة) وتقدم قرابين والقيام ببعض الممارسات وارتبطت بعبارات مشابهة تطلق علي الألهة(عرفه ، 1982).

(لهب الحياه – النور الذي يهدي الناس – القادر والمسيطر ليس لقوته حدود) واستمر هذا الموروث إلي الآن سواء موالد يهودية – مسيحية – إسلامية وبمصر لازال الاحتفالات مستمرة ومواقع بعينها أرتبط بها الموروث الشعبي (الاحتفالية المعروفة (الموالد)) فعادةً ما يرتبط الشخص بالأشخاص التي خصهم الله بقدرات متميزة تجعل في مقدورهم أداء أفعال إعجازية تعرف بالكرامات أو المعجزات بشكل إيحائي للإنسان الذي يتقرب منهم.

ومن أهم الموالد اليهودية بمصر مولد أبو حصيره بدمنهور والطقوس التي يمارسها الزائرين تتمثل في الوقوف أمام الضريح مع تلاوة بعض الصلوات وقراءه أجزاء من التوراة والبعض يجثو علي ركبته ويلصق وجهة بالقبر وينخرط في البكاء مع رائحة البخور الممزوجة بالتماثيل حول الضريح يصاحبه صلوات بصوت مرتفع وبمصر ما يقرب من 62 مولداً مسيحياً ويقام أكثر من مولد علي شرف قديس واحد مارجرجس مثلاً له ثلاث موالد (ميت دمسيس – دير الراهبات – زريق المنيا) والسيدة العذراء أيضاً مثل (مسطرد – الزيتون – جبل الطير – المحرق أسيوط) وكذلك مولد الست دميانه والأنبا برسوم العريان.

والمظاهر تبدأ قبل ميعاد الميلاد أو الاستشهاد بأسبوع ويعرف الأسبوع بأسبوع النهضة الروحية الصلاة يومياً ، قداس صباحاً ومساءاً ، ليس بواسطة كاهن المكان بل من كنائس أخري وفي نهاية الأسبوع تقام صلاة ختامية

بواسطة أسقف المنطقة ويحيط به الكهنة ككل ويتم عمل دورة بخور بأيقونة مزدانه يلف بها داخل الهيكل ثلاث مرات مصاحب ذلك صلاة وتسابيح بصوت مرتفع.

الموالد الإسلامية من أشهرها مولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوي والإمام الشافعي والسيدة نفيسة ويقام سرادق بداخلها إنشاد ديني وذكر لله والصلاة علي نبية في حلقات وتقدم الولائم بداخل السرادق من ذبائح وعادة ما يسبق ميعاد المولد بأسبوع.

وترتبط الثلاث موالد بمظاهر متشابهة بداية الكل يتعامل أمام مائدة روحية تشبع نفسه وتغذي روحه وتشده إلي شيء مختلف وتجعله في ارتباط سوي بالقديسين أو الأولياء فيقومبتقديم النذور والشموع المترددون لهم رغبات مثل الزواج والإنجاب أو إتساع الرزق – دق الوشم شراء بعض تذكارات من المولد صور أو سبح – ملابس ويسجل عليها كتابات مرتبطة بالحدث مثل شفيعي يا مارجرجس يا عذراء يا أم النور يا ست (السيدة زينب) يا أم العواجز يا نفيسة العلم (السيدة نفيسة) وهكذا(عاشور ، 2012).

مما ذكر نلاحظ أن العلاقة بين ثقافة الشعوب والعادات والتقاليد السائدة في المجمعات والموروث الشعبي والسياحة أصبحت قوية جداً فأن استطعنا ربط المزار الديني بهذا الموروث القوي (الموالد) والتنسيق باختيار هذه الزيارة في وقت عمل هذا ال Event وتجهيزة بشكل لائق ولكن لابد أن يصاحب ذلك عديد من التسهيلات والخدمات لكي تتلاقي مع رغبات السائح المصري والأجنبي علي السواءالتلاحم مع وزارة البيئة لتوسيع رقعه الأراضي المحيطة بالأماكن التي يقام بها ألEvent وإحاطاتها بمساحات تسمح للحافلات عمل البرنامج السياحي بما يتناسب مع التوقيت الEvent سواء يهودي أو مسيحي أو إسلامي توفير وهل هي زيارة سريعة أم يتطلب عنصر هام من الخدمات وهو إقامة منشآت فندقية تجاور تلك المزارات في شكل موتيل صغير يحاكي الموروث والمزار الديني سواء معبد أو كنيسة أو مسجدمع نشر المعلومات السياحية وإلتصاقه بالمنشآت الدينية كمزارات أثرية عن الEvent كموروث شعبي علي شبكات التواصل الإجتماعي.

المحور الثاني: الاهتمام والتلازم مع السياحة المجتمعية (سياحة الكواليس):

وهي كيفية التعامل مع السائح والمجتمع المحيط بالمزارات الدينية حتى تكون السياحة المستدامة هي الاستغلال الأمثل للمواقع السياحية هو المعرفة والوعي حتى يقدم عليها السائح وهو علي علم مسبق ومعرفة بأهمية المناطق والتعامل معها بشكل مسئول والمحافظة علي البيئة المحيطة فبالرغم من ثراء المواقع التاريخية والمزارات الثقافية إلا أن أهالي هذه المناطق يفتقرون للمعارف الفنية والوسائل المادية التي تؤهلهم للعمل في مجال السياحة والاهتمام بهم لخلق بيئة سياحية صديقة تشجعهم علي حماية المصادر الثقافية المحيطة بهم والتي تساعد في إشهار الهوية الثقافية والتاريخية والدينية وأن يكون لقطاع السياحة أهدافه ربما في المناطق المهمشة والمناطق التي تكون محيطة بالمزارات الدينية تمثل هذه فرصة غنية لتمكن السكان المحليين لتنشيط المنتجات المحلية كالصناعات اليدوية ويكون تصميم السوق للمنتجات يحاكي الحقبة مع تهيئة مناطق البيع ووجود دورات مياه مع استغلال مواد القري أو المكان الذي به المزار والأغذية كما توفر للسكان التدريب لإكتساب المهارات والمعارف التي تؤهلهم للعمل في قطاع السياحة وكذلك لفتح مشروعات صغيرة خاصة بهم حتى يصبح السائح (مسافر اجتماعي) حتى يكون أكثر اختلاطاً وتعايشاً مع سكان المنطقة ويشاركهم في أنشطة حياتهم اليومية ويعمل معهم ويتصرف علي تقاليد المنطقة كل هذا يوجد الحميمية التي

تقتل رهبة أي مكان للزيارة ويساعد في الإشهار ولا ننسي البائع الجائل الذي يحب السائح التعامل معه فلابد من تأهيله للتعامل وهذا يجعلنا ننتقل إلي المحور الثالث.

المحور الثالث: تنمية للموارد البشرية للعاملين:

المزار الديني سواء يهودي أو مسيحي أو إسلامي علينا جميعاً أن نغرس بذور الثقافة وتهيئة المناخ المناسب والتوجية الملائم لكل المحيطين به من أول عامل النظافة حتى المرشد السياحي الذي يدخل المكان والبيئة المحيطة أو ما أشارنا إليه من قبل باسم (سياحة الكواليس) حتى نصل إلي عديد من الأفراد الذين تتعامل معهم بواسطة الإدماج مع المزار الديني وسياحة المهرجانات التي تخيرنا منها الموروث الشعبي (الموالد) الكل لابد أن يتعامل مع المزارات أنها واقع ملموس يخاطب العقول ومن قبلها الحواس ويحكمها الوجدان بالإرتباط ببعض بعينهم كما أشارنا إلي أبو حصيره وكرماته في دمنهور ومارجرجس فبالرغم من أن له 372 كنيسة تحمل اسمه بمصر إلي أن مكان مزار ميت دمسيس له دوافعة عند البعض وكذلك نفيسة العلم والمعرفة بالرغم من التواجد لكثير من آل البيت.

سأخاطب إناساً بعينهم تضع رؤيتها لتنمية الموارد البشرية المذكورة من خلال العديد من النقاط الإنسان ثم الإنسان ثم الإنسان أخاطبه بأن يكون مستشعر لقيمة هذا التراث وأن يكون علي وعي يقوده للحب والانتماء لما بين يديه لابد أن نغرس بذور الثقافة وتهيئة المناخ المناسب للتربية الملائمة وإزدهارها لدي الإنسان عن طريق التوجه المستمر والرعاية الدائمة وكذلك الحفاظ علي احترام الملكية الفكرية الابتكارية لتراثنا خاصة المجتمع المحيط بالأثر أن لا يقوم علي شراء أو استيراد أشياء من الخارج للتسوق لابد أن يكون منتجه محلي لينعم عن فكرة وربط هذا الإنسان بنوع من الشراكة المقننه مع مراعاة الربط بين الأصالة والحداثة ولكن بعيد عن آليات عمل المنتج الذي سيعرض للزائر كتذكار من أماكن المزارات الدينية وأن تحاكي كل منطقة مثلاً في المعابد اليهودية لا يمكن أن أبيع صلبان أو كتب دينية إسلامية وسبح بل أراعي الموقع وما يتناسب معه وقد ذكرنا من قبل أن البائعين الجائلين وجودهم هام بعد تأهيلهم وتزويدهم بثقافة موقعه فهم يمثلوا شراكة ووساطة للمنشأة مع تأهيل فريق عمل مميز للتعامل بالتكنولوجيا الحديثة من شبكات التواصل الإجتماعي للتسويق لفكرة الEvent.

التوصيات

-لا بد عمل سلسلة عمليات منظمة تحدث تغير مرغوب في واقع موجود والمستهدف منها أن نصل إلي اقتصاد متزن بواسطة نمط هام من أنماط السياحة وهي السياحة الدينية والتركيز علي ما لم يتم استثمارة بالقدر الكافي.

-تنظيم رحلات تعريفية Familiarization Trips لدعوة منظمي الرحلات ووكلاء السفر وكذلك من يتناول الكتابة في الجرائد والمجلات ومقدمي البرامج السياحية للمشاركة في رحلات مدفوعة الثمن بالكامل لحضور Event (المولد) لعمل دعاية له والتعرف عليه.

-الحفاظ علي الآثار الدينية فهي الأداة الوحيدة لتوصيل التراث الغير ملموس من حياة دينية وفكرية وموروثات شعبية.

-التركيز علي جميع الأنماط للمزارات الدينية سواء يهودية – مسيحية – إسلامية أو حتى من إنبثق من إحداهم مثل مزار الضريح الكاثوليكي.

-إحياء مشروع تطوير المناطق التي بها الرحلة لتنفيذ بابا الفاتيكان من إدراجها كمكان حج وليس مزار سياحي ديني.

-إقامة المعارض الخارجية للتعرف علي المزارات الدينية مثل (مصر المسيحية التي لا يعرفها أحد) وإلقاء الضوء علي رحلة العائلة المقدسة لمصر (مصر الإسلامية التي لا يعرفها أحد) وتتبع مزارات آل البيت من هنا نصل إلي عمل 2 برنامج سياحي ديني مميز.

-الإهتمام بالبرامج السياحية الدينية المتخصصة وليس إدماجها مع البرنامج السياحي العام فهي ليست زيارة عابرة بل لابد أن يخصص لها برنامج منفصل.

-جعل المناطق التي يتواجد بها المزارات المجمعة للثلاث عقائد تعامل كمحمية أثرية.

-إلقاء الضوء علي المزارات الغير تقليدية (الدير – الخانقاة – الأسبلة).

-إقامة احتفالات بمناطق المزارات حلقات الذكر والترانيم المسيحية (طرب ديني).

-الصيانة الدورية والترميم الدائم يساعد علي إطالة عمر المنتج السياحي والحفاظ عليه حتى يمكن أن يكون مصدراً لزيادة الدخل القومي.

-التذكارات بالأماكن تتماشي معها المسابح – الصلبان – أغطية الرأس ولا نتغافل أن السائح ثلث ميزانيته للتسوق.

-عادةً ما تكون المزارات الدينية في مناطق إلي حداً ما شعبية فلابد من الاهتمام بالبنية الت حتى ة خاصة المياه الجوفية وقد تكون يجاورها منشآت سكنية لابد أن ينالها هي أيضاً الرعاية والاهتمام حتى لا تؤثر علي ما يحيط بها ويتم تطورها بما يحاكي الأثر المجاور لها.

-يلازم التطوير والصيانة للأنشطة التجارية والصناعية المحيطة ولا نستطيع تجاهل ضيق الطرق في كثير من الأحياء مثل شارع الموسكي الذي به معبد موسي بن ميمون أو كنيسة مارجرجس بإحدي القري فلابد من وجود ا حتى اطات لقدر الله لمواجهة بعض المشكلات مثل الحرائق مثلاً.

الحواشي

الجنيزا: للكلمة ترادفات للفعل (جنيز) الذي اشتقت منه بمعني (جمع – كنز – دفن – أخفي – ستر – حذف) كما وردت كلمة جنازة في العربية بمعني الميت وهي عبارة عن دفن الكتب والادراق الدينية البالية والتي لا يجوز إبادتها لقدسيتها وأضيف لها كذلك صناديق التوراة وأدوات الصلاة وقطع الستائر التي تعلق في المعابد والهدف من دفنها حفظها تكريماً لضفتها المقدسة ولذلك بعد العثور عليها أصبحت سجلات واقعية وحقيقة المياه اليهودية.

النبوي جبر سراج: المعابد اليهودية ودورها في حياة اليهود بمصر – مصر للطباعة – سنة 2002.

الأسفار بالتوراة هي: سفر التكوين – سفر الخروج – سفر الأولين – سفر العدد – سفر التثنيه العادة أن يسمي كل سفر من هذه الأسفار الخمسة أما باسم الكلمة الأولي التي يبدأ بها السفراء أما أول كلمة مهمة فيه أو ما يتضمنه.

اسماعيل حامد: التوراة بين الوحي الألهي وتحريف اليهود – دار مشارق - الجيزة 2009م.

Meinordms.O: Monks and Momastcries of the egyption desert – cairo – 1992.

التصوف: هو أن يمتلك الحق عن شهواتك ويحيبك به أي بمعرفته والأنسي بقربه وهو من يشغل نفسة في جميع أوقاته بطاعة الله سبحانه وتعالي ومداومه ذكره لقولة تعالي (فأذكروني أذكركم) أنهم يجعلون من ذكر الله طمأنينه لقلوبهم كما قال سبحانه وتعالي (إلا بذكر الله تطمئن القلوب) لأن من لم يذكره تشتت فؤاده وفزع قلبه وضاق رزقه ومرض بدنه ولكل هذا أداب بدايةً التوبة – الطهارة (الاغتسال والوضوء) – السكون – الاستغفار – الصلاة علي الرسول صلي الله عليه وسلم.

التوراه: يذكر أحد الأباء الدومنيكان إلي القول أن التوراة في أصلها عبري (تورا) مشتقة من الجذر العربي (أر) الذي يدل علي ايقاد النار أو النور الذي يدل مجازاً عن العلم والتعليم والشريفة.

اسماعيل حامد: التوراة بين الوحي الألهي وتحريف اليهود – دار مشارق - الجيزة 2009م.

المنصة: وتسمي بالعبرية "بيماة أو تيفاة تعتبر كالمذبح الذي نداء رقوقة الصلاة وقراءة أسفار التوراة وهي ترتفع قليلاً عن مستوي أرض المعبد ويصعد إليها بعدة درجات ومعظمها من الرخام وتكون بوسط المعبد بالقرب من الحائط المقابل للهيكل.

محاسن الوقاد: اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجينزا 1971م.

(الأرثوزكسية – الكاثوليكية – البروتستانية): تعني الأرثوزكسية استقامه الرأي أو الرأي الصحيح والكاثوليكية تعني المسيحيين التبع والبروتستانت هم المجتمعون دائماً.

ايريس حبيب المصري: قصة الكنيسة القبطية – مطبعة دار العالم العربي – سنة 1952م.

التخطيط البازيليكي: يعتبر أقدم الطرز المعمارية في تخطيط الكنيسة وقد انتشر إلي حد كبير وقد اختلفت الأراء في مصدره الأول سواء المعبد الروماني أو المعبد المصري القديم وهو عبارة عن ثلاثه أروقة طولية أوسطها أوسعها وتفصل فيما بينها بائكات.

مصطفي شيحة: دراسات في العمارة والفنون القبطية – مشروع المائة كتاب – وزارة الثقافة سنة 1984م.

التخطيط الصليبي: أو ما يعرف بالتخطيط البيزنطي عالمياً وقد انتشر بكثرة خارج مصر وظهوره في مصر قليل بدايتاً من كنيسة بدنقله بالنوبة ق8م ثم كنيسة بدير الملاك بنقاده صعيد مصر ق14م.

صموئيل السرياني: الكنائس والأديرة الأثرية – القاهرة – 1968م.

التخطيط القبطي: يميز الكنيسة بمصر وقد استمد جوهرة من البازيلكي والصلبي ولكن له مميزات تخصه وهي تعدد الهياكل وجود الأمبون وجود الحجاب الخشبي الفاصل بين الهياكل والكنيسة وجود الأعمدة ذات التيجان المزدانه بسلال أو صلبان – قبه المذبح المزدانه – الشرقية المزدانه - الأيقونات.

مصطفي شيحه: مرجع سبق ذكره.

التقويم القبطي: أتخذه الأقباط منذ عام 284م بعد مذبحة دقلديانوس واستمد هذا التقويم حتى دخول الإسلام وصار جنباً إلي جنب مع التقويم الهجري وقد أبطل استخدامه الخديوي اسماعيل اعتباره من أول توت 1875م وأقر العمل بالتاريخ الميلادي والهجري فقط.

سليم سليمان الفيومي: مختصر تاريخ الأمة القبطية – القاهرة – 1914م.

مصر القديمة: تعتبر من أقدم المواقع أعماراً أو استيطاناً منذ أقدم العصور بداية من عصر الأسرات بمدينة منف التي صارت عاصمة القطرين طوال أسرة بناه الأهرام وظلت أثارها إلي الآن بميت رهينة وهي شاهد علي العصر اليوناني لوجود بقايا الحصن ومجموعة كنائس تقدر 13 كنيسة ومعبد يهودي وديرين وجامع عمرو أول جامع إسلامي فهي بحق مجمع للأديان.

Buranester. H.P.E.C, A guide to the Anchient Coptic Churches of cairo (Le Cairesociete – archeology copte (cairo 1955).

حصن بابليون: مدينة بمصر القديمة وقد تضاربت الآراء حول نشأتها حيث ذكر بتلر ان الأمبراطور تراجان هو الذي بني الحصن عام 100م وقد جاء في سفر أرميا الإصحاح 46 أن المنشيء هو نبوخذ نصر عندما احتل مصر واعتني بها اليهود بعد خراب أورشليم وكان اسم الحصن باللغة القبطية (بابليون – ان كيي) ومعناها بابليون مصر.

الفريد بتلر: فتح العرب لمصر – ترجمة محمد فريد أبو حديد – الكنائس القبطية في مصر جزءان ترجمة إبراهيم سلامه – الهيئة العامة للكتاب – سنة 1989م.

الأمبون أو الأنبل: كلمة مستمدة من اللغة الأمهرية الشرفة المرتفعة يقف عليها الأسقف أو القسيس للوعظ والاعتماد علي الصوت الجمهوري قبل انتشار مكبرات الصوت يقابله في المسجد المنبر.

شروق عاشور (الباحثة): كتاب الاتحاد العام للآثارين العرب – المنعقد بليبيا عام 2010م – نشر علمي محكم.

المذبح Altar: عبارة عن بناء مربع أو مستطيل الشكل يتوسطه هيكل الكنيسة ويكون بناؤه من الأجر أو اللبن أو الحجر أو الخشب يقام عليه الطقس الديني وتستخدم به أدوات المذبح وأهم ما يميز الكنيسة القبطية تعدد المذابح بها وعادة ما يعلوه قبه بها رسوم المسيح بالمنتصف يحيط به الأربعة حيوانات المتجسدة.

شروق عاشور: مجلة الاتحاد العام للآثارين العرب – العدد الحادي عشر سنة 2010م – نشر علمي وجدة المغرب العربي محكم.

الخضر: وهو الأسم المعروف به مارجرجس في بلاد الشام لدي غير المسيحية وذلك لوجود كنيسة باسمه في بلده (حمده الخضر).

القمص أيوب: بهجة النفوس في أعجوبة الشهيد جاؤر جيوس – مكتبة المحبة – 1989م.

تكلا هيمانوت الحبش: من أصل حبش ولد من أبوين مسيحين تقيين وله معجزات وهو طفل صغير لمباركة الأكل وظل في حياة تقشف وعبادة حتى قيل عنه أنه سائحاً ويحتفل به بكنيسة وادي النطرون وكنيسة ببلده اشمون منوفية وله رفات في كنيسة القديسة بربارة وكنيسة بدير قسقام.

الأنبا غورغوريوس: الأماكن الأثرية بالكنيسة القبطية – كنيسة مدارس الأحد – 1991م.

القباطي: اشتهرت مصر منذ أقدم عصورها بصناعة المنسوجات ومع دخول العرب مصر أطلقوا علي فنون النسيج اسم القباطي ونقل إلي أوروبا وعرف باسم Tapestry.

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار: المرجع السابق.

أدوات المذبح: تستخدم في الطقس الديني للصلاة (سر الأفخارستيا) داخل الكنيسة وهي الكأس – كرسي الكأس – الماستير (الملعقة) – القبة (الصينية والغطاء) – الصليب – الإبريق – القارورة - الألواح.

الشورية: كلمة يونانية محرفة من شوري ونقلت إلي القبطية وتعني بالعامين المحجرة ثم المبخرة وهي هامة بالكنائس والتبخير عمل كهنوتي لا يجوز إلا للقس فقط ويكون ثلاث مرات بالهيكل ومرتين بالكنيسة ككل وذكرت بالإنجيل في العهد الجديد – أعمال الرسل – الإصحاح الثاني.

مجدي عياد يوسف: قاموس اللغة القبطية عربي – المعهد العالي للدراسات القبطية.

الأيقونة: كلمة أيقونة (Icon) مشتقة من الفعل اليوناني القديم Eiko ومعناها أنا أشبه أو أماثل والاسم (Eikon) ومعناها الأيقونة أو الصورة وهي لوحات مسيحية مستمدة من الكتاب المقدس.

Linda – Langen: Hams. Hande.Link (Icons Coptic Encyclopedia) vol.4 – New York – 1991.

رحلة العائلة المقدسة: بدأت الرحلة من فلسطين ثم الفرما (سيناء) ثم تل بسطا (المحمي) بلبيس – منيه سمنود – دقادوس – إقليم البرلس – سخا – وادي النطرون – عين شمس – المطرية – وسط البلد – مصر القديمة – المعادي – منف – البهنسا – جبل الطير – انصنا – الأشمونين – ديروط – القوصية – مير - قسقام ثم مروراً بدرنكا والعودة إلي فلسطين.

Butler (Alfred): Ancient Coptic Churches of Egypt, vol.1, Oxford 1884.

الفسطاط: سميت فسطاط لأن عمر بن العاص لما آراد التوجه إلي الإسكندرية لقتال من بها من الرومان أحد نزع فسطاطه (خيمته) فإذا بطائر فرخ بها فأوصي به وقالوا أين نزل الفسطاط فسطاط عمر والذي كان خلفة وكان مضروباً في مواضع الدار التي بجوار المسجد.

تقي الدين المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – جزءان – الناشر مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – 1987م.

المراجع

أولاً: قائمة المراجع العربية

1. الجبرتي ، عبدالرحمن ابن حسن ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار المعروف بتاريخ الجبرتي - بولاق -1882م.
2. النبوي جبر سراج: المعابد اليهودية ودورها في حياة اليهود بمصر – مصر للطباعة – سنة 2002.
3. الفريد بتلر: فتح العرب لمصر – ترجمة محمد فريد أبو حديد – الكنائس القبطية في مصر جزءان ترجمة إبراهيم سلامه – الهيئة العامة للكتاب – سنة 1989م.
4. القمص أيوب: بهجة النفوس في أعجوبة الشهيد جاؤر جيوس – مكتبة المحبة – 1989م.
5. ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بمقدمة بن خلدون – القاهرة – 1978م.
6. أبو المكارم جرجس مسعود ، المعروف بأبو صالح الأرمني – كنائس وأديرة مصر – أكسفورد – 1895م.
7. اسماعيل حامد ، التوراة بين الوحي الألهي وتحريف اليهود – دار مشارق - الجيزة 2009م.
8. الأنبا غورغوريوس ، الأماكن الأثرية بالكنيسة القبطية – كنيسة مدارس الأحد – 1991م.
9. الأنبا متاؤس ، أسقف ورئيس دير السريان – رحلة العائلة المقدسة – مكتبة المحبة – 2001م.
10. الأنبا يوأنس – أسقف الغربية (الاستشهاد في المسيحية – 1979م).
11. ايريس حبيب المصري: قصة الكنيسة القبطية – مطبعة دار العالم العربي – سنة 1952م.
12. تقي الدين المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – جزءان – الناشر مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – 1987م.
13. توفيق أحمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية – دار وهدان - القاهرة – 1970م.

14. حسن الباشا ، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية – مكتبة الدار العربية للكتب – القاهرة – 1999م.
15. حسن عبدالوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية – القاهرة 1966م.
16. حسني محمد نويصر ، الأثار الإسلامية – مكتبة زهراء الشرق – 1988م.
17. رهبان دير المحرق: جبل قسقام قدس – تراث – دار نوبار للطباعة – القاهرة – 1990م.
18. سعاد ماهر ، دراسات في العمارة الإسلامية – وزارة الأوقاف – 1962م.
19. سعد سعد جاويش – التبرك بالأماكن – القاهرة – 2010.
20. سعد عرفة : الموالد المصرية – 1982م.
21. سليم سليمان الفيومي: مختصر تاريخ الأمة القبطية – القاهرة – 1914م.
22. شروق عاشور : مجلة الاتحاد العام للأثارين العرب 2011.
23. شروق عاشور : مجلة الاتحاد العام للأثارين العرب 2012.
24. صموئيل السرياني: الكنائس والأديرة الأثرية – القاهرة – 1968م.
25. عبدالرحمن بن شهاب الدين – سلسلة آل البيت والصحابة.
26. عبدالسلام أحمد نظيف ، دراسات في العمارة الإسلامية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1989م.
27. عبدالمسيح المسعودي البراموسي ، تحفة السائلين في ذكر أديرة الرهبان المصريين – القاهرة – سنة 1924م.
28. كمال الدين سامح ، العمارة الإسلامية في مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1987م.
29. مجدي عياد يوسف: قاموس اللغة القبطية عربي – المعهد العالي للدراسات القبطية.
30. محاسن الوقاد: اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجينزا 1971م.
31. محمد خليفة حسن والنبوي جبر سراج ، الجينزا والمعابد اليهودية في مصر – مركز الدراسات الأفريقية – 1999م.
32. مصطفي شيحة: دراسات في العمارة والفنون القبطية – مشروع المائة كتاب – وزارة الثقافة سنة 1984م.
33. منقريوس عوض الله ، منارة الأقداس في شرح طقوس الكنيسة والقداس – القاهرة – سنة 1947م.
34. يورام ميطال - ترجمة الضوي يونس (الأثار اليهودية في مصر) القدس – دار الفكر الحديث – 1995م.

ثانياً: قائمة المراجع الأجنبية

1. Buranester. H.P.E.C, A guide to the Anchient Coptic Churches of cairo (Le Cairesociete – archeology copte (cairo 1955).
2. Butler (Alfred): Ancient Coptic Churches of Egypt, vol.1, Oxford 1884.
3. Linda – Langen: Hams. Hande. Link (Icons Coptic Encyclopedia) vol.4 – New York – 1991.
4. Meinordms .O: Monks and Momastcries of the egyption desert – cairo – 1992.
5. Mulack and Long Don, The Icons of Yuhanna and Ibrahim the scribe, London, 1946.
6. Mustafa Shiha: the Islamic architecture in Egypt. P.114.
7. Poulvanmoaresl: Coptic icon, biden university – 1992.
8. Wolters .cc. Monostic Archeology in Egypt. London 10,74.

اللوحات

معبد اليهودى آل عذرا

تخطيط المعبد

البيما

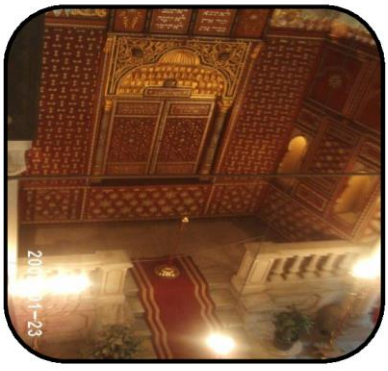

الهيكل

حجرة الجينزا

موسى بن ميمون (الطبيب اليهودى)

لوحة تذكارية للمعبد

داخل معبد موسى بن ميمون

الهيكل

أبو حصيره

ضريح أبو حصيره

كنيسة أبو سرجة

مغارة كنيسة أبو سرجة

كنيسة مارجرجس ميت دمسيس

مدخل كنيسة مارجرجس

بقايا الكنيسة القديمة

الحجاب الخشبى للكنيسة القديمة

أدوات المذبح

منسوج القباطى

دير قسقام

حصن دير قسقام

مذبح بدير قسقام

جامع عمرو بن العاص

واجهة المسجد

الصحن والأروقة

ضريح السيدة نفيسة

مقام السيدة نفيسة

خانقاة بيبرس الجاشنكير

صحن الخانقاة

الخلاوى

المحاكاة وفلسفة الخلق الشعري العربي

د.سحر فتحي ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة- مصر

إن تدهور الأوضاع الثقافية والحضارية في الأندلس كان الدافع إلى اتجاه حازم لمشروع من شأنه أن يصلح تدهور هذه الأوضاع هذا من ناحية ، ونشأته واتصاله بالعلوم العقلية كانت المبلور الأساسي لهذا المشروعمن ناحية أخرى فخرج على النحو الذي خرج به حيث الاتجاه إلى وضع قوانين كلية منطقية ، وهو اتجاه يتفرد به حازم عن غيره وينص على ذلك بقوله"ولقد سلكت في... ذلك مسلكا لم يسلكه أحدقبلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرامه ، وتوعر سبيل التوصل إليه ... فإني رأيت الناس لم يتكلموا إلا في بعض ظواهر لما اشتملت عليه تلك الصنعة ، فتجاوزت أنا تلك الظواهر... إلى التكلم في كثير من خفايا هذه الصناعة ودقائقها"[1] ، وكان اتصال حازم بالتراث اليوناني ، وبابن سينا خاصة ،"دافعا إلى سلوكه هذا المنهج التنظيري الذي يضفي على عمله قيمته الكبرى في تاريخ النقد العربي"[2] ، إذ لابد من معرفة القوانين الأساسية الضابطة لعلم الشعر ؛ لذا سعى إلى الاهتمام بكل من الأديب والناقد حيث يوقد للأديب سراجا ينير له دروب القول (سراج الأدباء)، ويرسي للناقد منهاجا يتبعه في تحليل وتقييم وتذوق الشعر (سراج الأدباء)، ولعل تأمل هذا العنوان يكشف عن وعي حازم الشمولي بذوي التأثير في العملية الإبداعية في دائرتها المتصلة فالعلاقة بين المبدع والناقد ليست علاقة بداية ونهاية وإنما هي حلقة متصلة يؤثر كل منهما في الآخر ؛ لذا فالخطاب موجه لهما وليس لأحدهما هذا من ناحية ، كما يكشف عن وعيه بأهمية مواجهة هذا الوضع الثقافي المتأزم الذي يعايشه عبر العلم والتعلم من ناحية أخرى.

فوضع حازم لنفسه منهجا عاما يسير عليه حيث يأتي ـ على حد قوله ـ "بقوانين كلية ، يعرف بها أحوال الجزئيات من كانت له معرفة بكيفية الانتقالات من الحكم في بعض الأشياء إلى الحكم به في بعض"[3] ، ولقد كان هذا "طموح كثير من الباحثين خلال القرنين السابع والثامن ، صونا للقوانين العامة من الاندثار أمام بداية التراجع لحضارة أهل الإسلام آنذاك"[4]. من هنا جاء منهاج حازم على ـ حد تعبير الأستاذ الفاضل بن عاشور ـ بمنزلة الأصول من الفروع ، أو بمنزلة فلسفة العلم من العلم ،وأنهبموقفه في تأصيل علم البلاغة قد أخرج "ما وراء البلاغة" من البلاغة[5] ، كما صنفه تصنيفا خاصا داخل كتب البلاغة بقوله "ليس هو صنف دلائل الإعجاز ، كما أنه ليس صنف كتاب العمدة لابن رشيق ، ويحق أن يسمى "أصول البلاغة" أو "فلسفة البلاغة" أو "روح الصناعة" كما اختار هو ذلك بنفسه ، لأن الناحية التطبيقية العملية ، التي يراد بها تكوين ملكة البلاغة ، أو التي يراد بها تكوين ملكة المقارنة النقدية لمعرفة إعجاز القرآن ، ناحية ليست مقصودة لحازم ، بل إن مقصوده أن يتخطاها"[6].

وحتى يحقق حازم هذه الأهداف التي وضعها لكتابه ، نلاحظ أنه اتجه إلى الشعر العربي وعكف على قراءة دواوين أعلامه ، ومدارسة جهود من سبقه من النقاد العرب إلى جانب انشغاله بمنجز الفلاسفة المسلمين حيث شروحهم أو تلخيصاتهم لكتابي الشعر والخطابة لأرسطو ، كان اهتمام حازم بما سبق اهتمام يسعى إلى

الاستيعاب الكامل حتى يتمكن من تجاوزه لما يلبي حاجة مرحلته وثقافته العربية التي ينتمي إليها وينطلق من احتياجاتها.

هذا بالإضافة إلى دافع لا يمكن إغفاله وهو حرص حازم على إتمام واستكمال حلم ابن سينا(429هـ)الذي يقول في نهاية تلخيصه لكتاب الشعر لأرسطو "هذا هو تلخيص القدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب الشعر للمعلم الأول وقد بقي منه شطر صالح ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق ، وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلاما شديد التحصيل والتفصيل"[7] ، فهذا الكلام لابن سينا يكشف عن طموحه في وجود محاولات نقدية عربية تسعى لتأسيس تنظير خاص بالأدب العربي وقد كان هذا الطموح محفزا لحازم في اتجاه إلى محاولة التوصل إلى علم الشعر المطلق ، كما أنه التقط بحرص شديد إشارة ابن سينا بضرورة الالتفات إلى ما يناسبنا بحسب أزماننا فكان حرصه على طلب المعرفة بالشعر العربي حتى يستطيع أن يجمع بين التوصل إلى علم الشعر المطلق من ناحية مع الحفاظ على إبراز خصوصية الشعر العربي من ناحية أخرى[8] ،وقد صرح حازم برغبته في إتمام ما تمناه الحكيم بقوله "وقد ذكرت في هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجو أنه من جملة ما أشار إليه أبو علي ابن سينا".[9]

على هذا النحو كان طموح حازم أن يصل إلى "علم الشعر المطلق" ، " فراح يستعين بجهود الفلاسفة المسلمين لمقاربة ذلك المطلق ، حاول أن يبحث عما هو ثابت أو يمكن أن يكون كذلك ، في أي شعرية من دون اعتبار للزمان والمكان"[10] ، وقد كان هذا المنحى نظرة نقدية لحازم تتجلى على المستوى التطبيقي ، فحازم يتجاوز فكرة الزمان والقائل ليعطي الاعتبار للنص بقوله "ولا يُعتبر الكلام بالنسبة إلى قائل ولا زمان البتة ، وإنما يعتبر بحيث ما هو عليه في نفسه من استيفاء شروط البلاغة والفصاحة بحسب ما وقع فيه ، أو استيفاء أكثرها أو وقوع أقلها فيه أو عدمها بالجملة منه ، ووجود نقائضها أو أكثرها ، فبهذا النحو يصح الاعتبار"[11].

يصيب كتاب المنهاج قارئه عند مطالعته مجرد مطالعة أولية بقدر كبير من الدهشة والاستغراب والإعجاب في الوقت نفسه ؛ ولا يستطيع إثر هذه المشاعر المختلطة إلا أن يتعمق قراءته ، فالمنهاج يحاصره بقدر هائل من المصطلحات وبما يتضمنه من آراء نقدية عديدة ومتنوعة ، فضلا عن بنائه المحكم المنسق ، فـ"لا يسع دارس الأدب العربي ـ والنقد منه بخاصة ـ إلا أن يقف مستغربا كيف نبتت في زمان ما هذه الدراسة الفذة الغريبة ، ثم تركت هكذا بغير الاهتمام اللازم ، والأدب والأدباء بحاجة إلى مثله ، ولو أنهم اهتموا به ، وأفادوا منه ، لتغير وجه الدراسات من بعده ، بل لأثر في مجرى الشعر العربي نفسه ، ولكنه بالقياس إلى موضوعه يشبه ابن خلدون في بابه: نجم سطع فلم يستضئ بنوره إلا القليل"[12].

فثمة إجماع على جدة المنهج عند حازم "لا لكونه خرج عن النمط التقليدي في معالجة القضايا النقدية والبلاغية الكبرى إلى عصره ، ولكن أيضا لما يميز خطواته في البحث من ضبط ، وما يطبع آراءه من عمق وتنظيم ، ويميز نتائجه من طرافة ، مع براعة في استثمار التراث النقدي والبلاغي قبله"[13].

ويلاحظ شكري عياد أنه على الرغم من كون الموروث النقدي والبلاغي في عصر حازم وقبله ، كان قد بدأ ينحو منحى مدرسيا ، سيساهم السكاكي في إرساء دعائمه ، فقد استطاع صاحب منهاج البلغاء أن يتخلص من التفريعات والتقسيمات الجافة ، ويتجنب التقرير والاجترار ، ليقيم لنفسه منهجا متفردا لم يسبق إليه ، ولم يستطع خَلَفَه مجاراته ، وهذا ما جعله يعتبر كتابه قمة من قمم النقد الأدبي في اللغة العربية ، ويعجب بمنهجه

المنظم أيما إعجاب ، بل يذهب مذهبا بعيدا فيعتبره خاتمة للجهود المبتكرة في النقد العربي[14] ، ويراه سعد مصلوح "من أخطر كتب النقد العربي القديم من حيث سعة أفق كاتبه وسداد نظرته ، وحسن تذوقه وتفهمه لقضاياه ، والصياغة التقنينية التي اتسم بها أسلوبه ، وتأثره بتيارات فكرية من خارج ميدان النقد الصرف"[15].

على هذا النهج في تكاملية وشمولية الرؤية والانطلاق من وعي بالثقافة العربية وخصوصيتها يتناول حازم مفهوم المحاكاة تناولا متكاملا ؛ ورد مصطلح المحاكاة مائة وثمانية وثمانين مرة على مدار صفحات المنهاج ؛ وفضلا عن هذا التراكم الكمي الذي يسجله ورود المصطلح في المنهاج فهو مصطلح مركزي مهيمن في التنظير الحازمي ، فالمحاكاة جوهر الشعرية عند القرطاجني ولا يخفى التأثير الأرسطي عند الحديث عن مصطلح المحاكاة إلا أن ما يسترعي انتباه الباحث هو ما أضفاه حازم عليه من خصوصية عربية ، واتخاذه المحاكاة أساس بناء نظرية شعرية مكتملة العناصر حيث يحدثنا عبر المحاكاة عن ماهية الشعر وأداته ووظيفته.

فحديث حازم عن المحاكاة يجعل "الذهن يتوجه مباشرة إلى هذه الكتابات الفلسفية عند الفارابي وابن سينا وابن رشد ذلك أن المصطلح نفسه جديد على النقد العربي في ذلك الحين فقد وقف النقد العربي عند التشبيه وأشكاله المختلفة وعند الاستعارة كذلك وقد يكون في كل هذه الأساليب شيء من معنى المحاكاة ولكنها فضلا عن اختلاف المصطلحات فإنها محاكيات جزئية لا تصل إلى محاكاة الصورة العامة أو المحاكاة بمفهومها عند أرسطو"[16] ؛ فالمحاكاة عند الفارابي " إيهام بالشبيه لا النقيض"[17] وقال عنها ابن سينا "المحاكاة هي إيراد مثل الشيء وليس هو .... كما يحاكى الحيوان الطبيعي بصورة هي في الظاهر كالطبيعي"[18].

على هذا النحو تغدو "المشابهة شرط لازم لتحقيق المحاكاة ؛ إذ بدون المشابهة تفقد المحاكاة صلتها بالواقع ، وبالتالي تعجز عن ردنا إلى الأشياء التي تحاكيها في عالم الأشياء. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يشير الجذر اللغوي للمحاكاة إلى اقتران الشيء بغيره أو إيقاع ائتلاف بين شيئين على أساس من تشابههما في جانب أو أكثر"[19] ، ولا تعني المشابهة هنا التشبيه فعلينا "أن نفهم صفة "التشبيه" لا بالمعنى البلاغي الحرفي الذي يقصرها على "التشبيه" ، وإنما بالمعنى العام الذي يبيح دخول "الإرداف" و "التمثيل" و "الاستعارة" و "المجاز" بعامة. وذلك أمر طبيعي ، لأن الموضوع ـ في هذا النوع من المحاكاة ـ يقترن بغيره ، على أساس من المشابهة التي يمكن أن تنحصر في التشبيه أو تتجاوزه إلى الاستعارة أو التمثيل أو الإرداف أو المجاز بوجه عام ، فكل واحد من هذه الأنواع البلاغية يقترن فيه طرفان في الأغلب ، على أساس من المشابهة في صفة أو حالة ، أو مجموعة من الصفات والأحوال"[20].

وهنا يكمن الجهد الحازمي في محاولاته المقاربة بين مفهوم المحاكاة الأرسطي اليوناني والخصوصية الثقافية العربية ومن ثم خصوصية الشعر العربي فكان تعامله"مع المحاكاة من منطق استنباط هذا المفهوم داخل تربة الثقافة العربية الإسلامية ، دون أن يخفي الأثر الخارجي الذي أطر تصوره بشكل عام"[21].

وهو ما أشار إليه سعد مصلوح بقوله فحقيقة الأمر أننا في كتاب حازم نجد لأول مرة في كتاب بلاغي نقولا عن المحاكاة وإشارات لأرسطو ، ولكنا لا نلتقي وأرسطو بقدر ما نلتقي وعقلية حازم ، تلك العقلية الفذة التي تقتضينا كل إعجاب وتقدير[22] ؛ فهذا الإعجاب إنما يرجع إلى أن حازما كان "قد نظر في الشعر العربي وأطال النظر ، وأسعفته موهبته الشعرية الممتازة فأخرج لنا مبحثا تفصيليا في المحاكاة ـ بالمفهوم العربي ـ هو غاية في الدقة والإحاطة"[23].

ويمكننا هنا الاختلاف مع مصلوح في قوله ، فحازم ونحن معه نعرف أنه ليس هناك مفهومها عربيا للمحاكاة ، وإنما فهما يجانبه الصواب من جانب المترجمين والفلاسفة ، وضرورة هذا التعقيب إنما لتحديد وإظهار الدور المدهش الذي قام به حازم وهو ابتكار مفهوم عربي وربما نستطيع القول مفهوم حازمي للمحاكاة مضيفا به مصطلحا جديدا وخطيرا لكل من البلاغة والنقد العربيين.

والحقيقة أن حازما لم يطل النظر في الشعر العربي فقط ، وإنما وصل إلى ما هو أبعد من ذلك فاتخذ من المحاكاة عدسة ينظر ويحلل من خلالها الثقافة العربية والمجتمع المحيط به عامة ، فمثلت المحاكاة بالنسبة لحازم على هذا النحو وسيلة إدراكه التي يدرك من خلالها فلسفة بناء القصيدة الشعرية العربية بل فلسفة وجود الشعر أصلا ليقدم عبر عدسة المحاكاة تفسيرا محكما متكاملا يربط بين خلق الفن الشعري من الأساس وبين البيئة العربية وخصوصية الثقافة العربية.

ومن ثم فإن حديث حازم عن المحاكاة واستنباط مفهوم عربي أصيل لها ما كان ليكتمل دون الإشارة للسياق الذي يمثل التربة التي استنبته فيها. بكلمة أخرى السياق وربما نطلق عليه المناخ الثقافي بتراثه العريق وبحاضره الطموح ثقافيا مقابل ما يحدث داخل السياق من سقوط للحضارة الأندلسية والإسلامية.

وربما كان انطلاق حازم في طرح هذا التفسير يكمن في مقولته النقدية الهامة بأن الإنسان جُبل على فعل المحاكاة والالتذاذ بها منذ الطفولة ، حيث يقول **"ولما كانت النفوس قد جبلت على التنبه لأنحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا،وكانت هذه الجبلة في الإنسان أقوى منها في سائر الحيوان -فإن بعض الحيوان لا محاكاة فيه أصلا،وبعضها فيه محاكاة يسيرة: إما بالنغم كالببغاء،وإما بالشمائل كالقرد- اشتد ولوع النفس بالتخيل،وصارت شديدة الانفعال له حتى أنها ربما تركت التصديق للتخيل. فأطاعت تخيلها وألغت تصديقها. وجملة الأمر أنها تنفعل للمحاكاة انفعالا من غير روية، سواء كان الأمر الذي وقعت المحاكاة فيه على ما خيلته لها المحاكاة حقيقة، أو كان ذلك لا حقيقة له فيبسطها التخييل للأمر أو يقبضها عنه. فلا تقصر في طلبه أو الهرب منه عن درجة المبصر لذلك. فيكون إيثار الشيء أو تركه طاعة للتخييل غير مقصر عن إيثاره أو تركه انقيادًا للرؤية"**[24].

ليبلور لنا من خلال هذه الرؤية للمحاكاة النظرية الشعرية وفلسفة تكونها وتشكلها والحاجة إليها وما تحققه من وظائف بلورة متكاملة تتضح عبر نصه التالي الذي سنورده كاملا على طوله لأهميته: "ولما كان أحق البواعث بأن يكون هو السبب الأول الداعي إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة وألافها عند فراقها وتذكر عهودها وعهودهم الحميدة فيها ، وكان الشاعر يريد أن يبقي ذكرا أو يصوغ مقالا يخيل فيه حال أحبابه ويقيم المعاني المحاكية لهم في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم ويحاكي فيه جميع أمورهم حتى يجعل المعاني أمثلة لهم ولأحوالهم أحبوا أن يجعلوا الأقاويل - التي يودعونها المعاني المخيلة لأحبابهم المقيمة في الأذهان صورا هي أمثلة لهم ولأحوالهم - مرتبة ترتيبا يتنزل من جهة موقعه من السمع منزلة ترتيب أحويتهم وبيوتهم ، ويوجد في وضع تلك بالنسبة إلى ما يدركه السمع شبه من وضع هذه بالنسبة إلى ما يدركه البصر ، فقد تقدم أن المسموعات تجري من الأسماع مجرى المرئيات من البصر ، وتوجد لحال حال من هذه أشياء من حال حال من تلك ، فقصدوا أن يحاكوا البيوت التي كانت أكنان العرب ومساكنها ، وهي بيوت الشعر ، لكونهم يحنون إلى ادكار ملابسة أحبابهم لها واستصحابهم لها واشتمالها عليهم بالأقاويل التي يقيمون

المعاني المنوطة بها في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم ويجعلونها أمثلة لهم ولأحوالهم،فيكون اشتمال الأقاويل على تلك المعاني مشبها لاشتمال الأبيات المضروبة على من قصد تمثيله بها وأن تجعل تذكرة له ،ويكون ما بين المعنى والقول من ملابسة مثل ما كان بين الساكن والمسكن ،ومتى أمكن أن يهيء الشيء الذي يجعل تذكرة لشيء آخر ويقصد به تمثيله في الأفكار بهيأة تشبه هيأة ذلك الشيء المقصود تذكره من وجوه كثيرة يتسق بها الشبه كان أنجع في التحريك اليه والانصباب في شعب الولوع به.

ولما قصدوا أن يجعلوا هيئات ترتيب الأقاويل الشعرية ونظام أوزانها متنزلة في ادراك البصر تأملوا البيوت فوجدوا لها كسورا وأركانا وأقطارا وأعمدة وأسبابا وأوتادا ، فجعلوا الأجزاء التي تقوم منها أبنية البيوت مقام الكسور لبيوت الشعر ، وجعلوا اطراد الحركات فيها الذي يوجد للكلام به استواء واعتدال بمنزلة أقطار البيوت التي تمتد في استواء.

وجعلوا ملتقى كل قطرين وذلك حيث يفصل بين بعضها بعضا. بالسواكن ركنا لأن الساكن/ لما كان يحجز بين استواء القطرين المكتنفين له صار بمنزلة الركن الذي يعدل بأحد القطرين اللذين هما ملتقاهما عن مساواة الآخر ومسامتته ، ولأن الساكن له حدة في السمع كما للركن في رأي العين.

وجعلوا الوضع الذي يبنى عليه منتهى شطر البيت وينقسم البيت عنده بمنزلة عمود البيت الموضوع وسطه.

وجعلوا القافية بمنزلة تحصين الخباء والبيت من آخرهما وتحسينه من ظاهر وباطن. ويمكن أن يقال: إنها جعلت بمنزلة ما يعالى به عمود البيت من شعبة الخباء الوسطى التي هي ملتقى أعالي كسور البيت وبها مناطها.

وقد يقال: إنهم جعلوا العروض والضرب وهما نهايتا شطري البيت في أن وضعوهما وضعا متناسبا متقابلا منزلة القائمتين في وسط الخباء اللتين يكون بناؤه عليهما.

وجعلوا الاعتماد على السواكن وحفظ نظام الوزن بانبثاثها في أثناء متحركاته على النحو المناسب وتحصين وضعه من الاختلال باعتراضها في المواضع المقدرة لها وإمرارها سلك الكلام وتلافيها له بما فيها من القوة والجزالة عند توقع وقوع الفترات بتضاعف الحركات وتواليها بمنزلة الأوتاد التي تحفظ وضع الخباء وتمسك جوانبه. فإذا تُلُوفِيَ ذلك في مظان تلافيه طاب الكلام واعتدل ، وإذا حوفظ في إطابته بذلك وتعيين المراتب التي يجب فيها إيقاع ذلك استبدعت النفس حفظ ذلك الترتيب واشتد ولعها به وتعجبها منه ،فهذا أيضا من الوجوه التي حسنت موقع الكلام من النفس.

ولما كانت الأوتاد: منها ما ثباته ضروري في إمساك الخباء وتحصينه ، ومنها ما في ثباته تحصين ما وقد تحتمل إزالته ، جعل الخليل الضروريات من السواكن أوتادا وجعل غير الضرورية أسبابا ، والأحسن أن يقال: إن هذه وتلك أوتاد ، لكن ثبات إحداهما ضروري في حفظ بنية البيت ، فهو بمنزلة الوتد الذي لا بد منه في الخباء ، وثبات الأخرى ليس ضروريا في حفظ بنية البيت بل يستقل البيت به ودونه ، فهي بمنزلة الأوتاد التي تستعمل في إمساك جوانب البيوت وقد يستغنى عنها.... وفي الأسباب ما لا يمكن الاستغناء عنه كألف متفاعلن مع السلامة من الإضمار ونون مفاعلتن مع السلامة من العصب. فسواكن هذه الأسباب مع سلامة الأجزاء ضرورية الثبات في حفظ بنية الوزن ، فهي جارية مجرى الأوتاد بل هي أوتاد كما قلناه. وكأن حركة ما قبل كل وتد منها سبب له ، ولكن الخليل سمى كل حركة وساكن مقترن بها لا يعتمد عليه في أكثر المواضع

سببا ، فإذا اعتمد على ساكن بعد متحركين أو بينهما سمي مجموع ذلك وتدا. ولا تشاح في الألفاظ كما أنه لا حرج على من عدل عما تقتضيه تلك الأسامي في المسميات إذا أراد الإفصاح عن جهات مشابهاتها لما نقلت إليها منه التسمية والتمثيل الصحيح في ذلك"[25].

عبر تحليل النص السابق ـ في سياق الحديث عن المحاكاة ـ يمكننا التوصل إلى صورة كلية عن نظرية حازم الشعرية وفلسفتها وعناصرها وأطرافها ، حيث يبدأ حازم بالحديث عن البواعث التي يعدها المحفز الأساسي لإبداع أي نص ، ولأنه يبحث عن محفز وراء ابتداع وخلق الفن الشعري من الأساس فلابد له من البحث عن باعث قوي بل أقوى البواعث على الإطلاق فكان الوجد والاشتياق والحنين في صدر البواعث وأقواها ، والوجد والاشتياق والحنين إنما يكون للمنازل المألوفة وألافها عند فراقها وتذكر عهودها وعهودهم الحميدة فيها ، لينتقل التفسير الحازمي بعد الحديث عن البواعث ـ التي تعد بمثابة الخطوة الأولية في العملية الإبداعية ـ إلى دافعية المبدع وأهدافه ؛ فلما كان الشاعر يريد أن يبقي ذكرا أو يصوغ مقالا يخيل فيه حال أحبابه ويقيم المعاني المحاكية لهم في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم ويحاكي فيه جميع أمورهم حتى يجعل المعاني أمثلة لهم ولأحوالهم ، ليتشكل الفن انطلاقا من هذه البواعث والأهداف محاكيا لكل عنصر يتعلق بباعثه الأساسي ومحققا لهدفه في إقامة المعاني المحاكية للأحبة في الأذهان مقام صورهم ؛ لذا كان تشكل الفن الشعري العربي عبر محاكاة البيوت التي كانت أكنان العرب ومساكنها ، وهي بيوت الشعر ، لكونهم يحنون الى ادكار ملابسة أحبابهم لها واستصحابهم لها واشتمالها عليهم بالأقاويل التي يقيمون المعاني المنوطة بها في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم ويجعلونها أمثلة لهم ولأحوالهم.فيكون اشتمال الأقاويل على تلك المعاني مشبها لاشتمال الأبيات المضروبة على من قصد تمثيله بها وأن تجعل تذكرة له.ويكون ما بين المعنى والقول من ملابسة مثل ما كان بين الساكن والمسكن. ومتى أمكن أن يهيء الشيء الذي يجعل تذكرة لشيء آخر ويقصد به تمثيله في الأفكار بهيأة تشبه هيأة ذلك الشيء المقصود تذكرة من وجوه كثيرة يتسق بها الشبه كان أنجع في التحريك إليه والانصباب في شعب الولوع به.

لينتقل حازم من بناء هذا الإطار العام إلى تفسير جميع تفاصيل القصيدة الشعرية طبقا لنظريته التي يقدمها عن دور المحاكاة في بناء الشاعر العربي للقصيدة العربية ، فيتوقف عند جميع أجزاء البيت الشعري عبر عدسة المحاكاة التي ينظر من خلالها لبيوت الأحبة في الواقع والتي يستطيع باستخدامها التوصل إلى نظراته التفسيرية حول الكسور والأركان والأقطار والأعمدة....إلخ ، في البيت الشعري كما اتضح من خلال نصه السابق.

إن هذا النص لحازم دال قوي على محلية حازم وسعيه وراء استكناه خصوصية مجتمعه وثقافته العربية مستعينا بما توصل إليه من معارف ثقافة مغايرة حول تقنية مثل المحاكاة ، حيث يستثمر هذه المعرفة بغية الكشف والتوصل إلى أدق التفاصيل التي تخص الشعر العربي الذي هو نتاج الثقافة العربية ، ليقدم هذا التصور الذي يربط الفن بالمجتمع ، ويقدم التفسيرات الاجتماعية له ؛ ليتماس مع ما يعرف في العصر الحديث بعلم اجتماع الأدب.

كما يكشف النص الحازمي السابق كذلك عن دورة العملية الإبداعية ـ إن جاز التعبير ـ عند حازم ، كما يكشف عن وعيه بجميع عناصرها ومكوناتها وأطرافها حيث يؤكد القرطاجني تكاملية أربعة عناصر عبر عملية المحاكاة ،

"أولها العالم أو الواقع الذي تمثل معطياته المادة الخام للعملية الإبداعية ، وثانيها المبدع الذي يتعامل مع هذه المعطيات باعتبارها موضوعا للمحاكاة ، وثالثها العمل الذي يشكله المبدع نتيجة تفاعله مع موضوعه أو ما يكشفه في المعطيات من علاقات ، ورابعها المتلقي الذي يتأثر بالمحاكاة تأثرات متعددة أو متباينة ، بحسب تكوينه أو استعداده ، والعلاقة بين هذه العناصر علاقة متبادلة عند حازم ؛ بمعنى أن كل عنصر فيها يؤدي إلى ما يليه حتى آخر العناصر ، ثم يردنا آخر العناصر إلى ما يسبقه ، حتى يعود بنا إلى البداية ، ولكن بعد تغير المنظور"[26].

ومن الطريف هنا أننا يمكننا ربط هذا التصور للعملية الإبداعية ومنتجها بعناصره المتعددة التي يؤدي كل عنصر منها إلى جميع العناصر الأخرى بالبنيوية الشكلية فما ذكرناه في السطور السابقة يشبه الحديث عما يسمى بالبنية العميقة للقصيدة الشعرية ، وكأن حازم في تصوراته الفلسفية ينشىء بنيوية حازمية تهيكل فكرة المحاكاة عنده.

وهو ما يمكن توضحيه من خلال الشكل التالي:

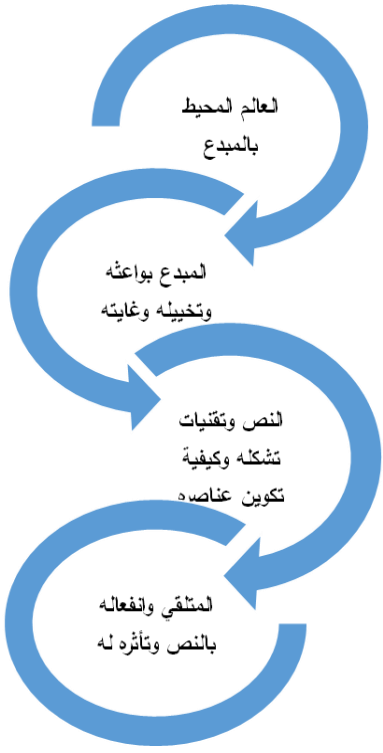

فهذا الشكل في مواجهة النقد الحديث يجعل من الدائرة الأولى نظرية للسياق ، ومن الدائرة الثانية لعلم نفس الإبداع ، ومن الدائرة الثالثة مدخلا لفلسفة البنيوية ، والدائرة الأخيرة مدخلا لما يُعرف اليوم بنظريات التلقي.

ومع ذلك فجميع الدوائر أعلاه في ارتباط تَأَثُّري ديناميكي تراتبي بعضها ببعض فـ"المعنى الذي تقدمه المحاكاة إلى المتلقي هو معنى متميز ، مرتبط أصلا بموقف المبدع وغايته ، وبالتالي فإن تأثر المتلقي بهذا المعنى إنما هو استجابة مرتبطة بموقف المبدع من العالم ، ومرتبطة بالكيفية التي انتقلت بها الموجودات إلى هذا المتلقي من خلال محاكاة ، هي صورة أو صور متميزة للعالم أو الواقع على السواء"[27].

وللمحاكاة تأثيرها القوي عند حازم ؛ حيث يوضح الفرق بين من يرى المرأة الجميلة في اللوحة والمرأة الجميلة في الطبيعة بقوله "المرأة في الطبيعة تحرك النفس بالصبابة إلى حسنها وبما للنفس فيها من مآرب عملية مباشرة ، أما المرأة في اللوحة فتحرك النفس "بالتعجيب من حسن محاكاتها وإبداع الصنعة في تقديرها على ما حكي بها"[28] ، هذا فضلا عن محاكاة القبيح الذي لا يتقبل على المستوى الواقعي بينما يتقبل بل ويستلذ به عبر المحاكاة المولدة للتخييل عند المتلقي حيث يقول حازم "**ومن التذاذ النفوس بالتخيل أن الصور القبيحة المستبشعة عندما قد تكون صورها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة لذيذة إذا بلغت الغاية القصوى من أشبه بما هي أمثلة له، فيكون موقعها من النفوس مستلذا لا لأنها حسنة في أنفسها بل لأنها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به**"[29]، **وهو ما أشار إليه ابن سينا أيضا بقوله أن المتلقي يسر بـ**"تأمل الصور المنقوشة للحيوانات الكريهة المتقزز منهاولو شاهدوها أنفسها لتنطوا عنها. فيكون المفرح ليس نفس تلك الصورة ولا المنقوش بل كونها محاكاة لغيرها إذا كانت قد أتقنت"[30].

وتقترن درجة هزة النفوس وتحريكها عند حازم بدرجة الإبداع في المحاكاة فـ" ليست المحاكاة في كل موضع تبلغ الغاية القصوى من هز النفوس وتحريكها ، بل تؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الإبداع فيها ، وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها"[31].

*) **تقسيمات المحاكاة:** وقد تعددت تقسيمات حازم للمحاكاة تعدد الزوايا التي يقسمها تبعا لها ، بحيث يمكن تصنيفها على النحو التالي:

أ.يقسم حازم المحاكاة باعتبار تأثيرها أو بتعبيره بحسب ما يقصد بها إلى:

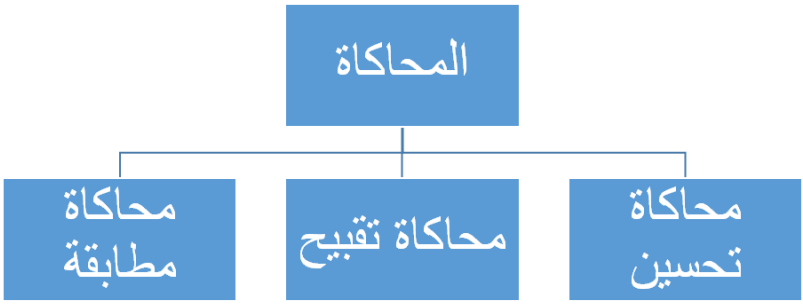

حيث يقول حازم "وتنقسم التخاييل والمحاكيات بحسب ما يقصد بها إلى: محاكاة تحسين، ومحاكاة تقبيح ،ومحاكاة مطابقة ، لا يقصد بها إلا ضرب من رياضة الخواطر والملح في بعض المواضع التي يعتمد فيها وصف الشيء ومحاكاته بما يطابقه ويخيله على ما هو عليه. وربما كان القصد بذلك ضربا من التعجيب أو الاعتبار"[32].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قوله تنقسم التخاييلوالمحاكيات يوحي بترادف مصطلحي التخييل والمحاكاة كما ذهب عدد من الدارسين ، غير أن الباحثة ترى أن اجتماعهما إنما هو اجتماع العناصر المختلفة والمؤثرة في رؤية حازم للعملية الشعرية ذلك أنه بانقسام المحاكيات إلى تحسين وتقبيح فإن ذلك يتبعه بالضرورة أن ينقسم التأثير على النفس/ المتلقي إلى استحسان واستهجان وهو ناتج التخييل الذي تولد عن المحاكاة المشكلة للأبيات الشعرية فحازم في ذكره للمصطلحين مجتمعين معا إنما ينظر للتقنية وتأثيرها ، وهو ما يدعم حرصه على تكاملية رؤيته.

أما هذا التقسيم الثلاثي للمحاكاة فقد "سنه أرسطو وبعده الفلاسفة المسلمون لمعالجة المحاكاة مع فارق في البنى الثقافية لكل وضعية حضارية"[33]، حيث يأتي التقسيم عند أرسطو تبعا لأفعال الناس من خير أو شر بقوله "وإذا كان من يحدثون المحاكاة إنما يحاكون أناسا يعملون ، وكان هؤلاء المحاكون ـ بالضرورة ـ إما أخيارا وإما أشرارا .... فينتج من ذلك أن المحاكين إما أن يكونوا خيرا من الناس الذين نعهدهم أو شرا منهم أو مثلهم"[34].

ولم يكن تقسيم حازم نابعا من الفضيلة والرذيلة أو الخير والشر ذلك أن حازم عنايته واهتمامه إنما ينصب على التنظير الشعري ومن ثم جاء تقسيمه ثلاثيا ولكنه نابع من الوظيفة والتأثير الذي تحدثه المحاكاة في المتلقي مناط تركيزه وعنايته ؛ ولأن تقسيمته تأسست على تأثيرية المحاكاة في المتلقي تبلور موقفه النقدي إزاء محاكاة المطابقة حيث تبين توقفه المتقلقل إزاء هذا النوع ليحسم رأيه في نهاية شرحه لها بأنها لابد وأن تقترب من إحدى المحاكاتين الأخريين ، فـ "محاكاة المطابقة لا تعني النقل الحرفي في النسق التنظيري لحازم ، بل إنها تدخل في إطار التقسيم الثنائي للمحاكاة من حيث التحسين والتقبيح"[35]، يؤكد ذلك قول حازم "ومحاكاة المطابقة لا يقصد بها إلا ضرب من رياضة الخواطر والملح في بعض الأوضاع التي يعتمد فيها وصف الشيء ومحاكاته بما يطابقه ويخيله على ما هو عليه ، وربما كان القصد بذلك ضربا من التعجيب أو الاعتبار. وربما كانت محاكاة المطابقة في قوة المحاكاة التحسينية أو التقبيحية ، فإن أوصاف الشيء الذي يقصد في محاكاته المطابقة لا تخلو من أن تكون من قبيل ما يحمد ويذم وإن قل قسطها مثلا من الحمد والذم ، فكأن التخييل بالحملة لم يخل من تحريك النفس إلى استحسان أو إلى استقباح ، فلهذا كانت قوة محاكاة المطابقة في كثير من المواضع قوة إحدى المحاكاتين التحسينية أو التقبيحية ، لكنها قسم ثالث على كل حال ، إذ لم تخلص على تحسين ولا تقبيح"[36].

إن عبارته لكنها قسم ثالث على كل حال هي التي تكشف عن موقفه المرتبك إزاء هذا النوع حيث"لا يستطيع حازم أن يفهم إمكان أن تغدو هذه المحاكاة غرضا مستقلا ، ولكنه لا يستطيع أن ينكرها بعد أن أثبتها أساتذته من الفلاسفة أمثال ابن سينا وابن رشد ، فيكتفي بذكرها ذكرا يشك في استقلالها وتميزها الواضح"[37]، وهو ما يقره صراحة بقوله "وقد ذكر هذا أبو علي بن سينا ، وقسم المحاكيات هذه القسمة"[38].

وفي شرح ابن سينا لهذا النوع من المحاكاة "يتباعد ابن سينا عن أرسطو ، أو ـ على الأقل ـ يضيف إلى الفكرة الأرسطية ؛ فيقول إن محاكاة المطابقة "محاكاة معدة" يمكن أن يمال بها إلى قبح أو أن يمال بها إلى حسن"[39] ، مثل من شبه شوق النفس الغضيبة بوثب الأسد الظالم ، أو توثب الأسد المقدام ، فالأول يكون مهيئا نحو الذم ، والثاني يكون مهيئا نحو المدح ، فالمطالبة تستحيل إلى تحسين وتقبيح بتضمن شيء زائد"[40].

على هذا النحو تغدو محاكاة المطابقة بمثابة مادة خام تتشكل وفق ما يضاف إليها إما حسن فتميل إلى محاكاة التحسين ، وإما قبيح فتميل إلى محاكاة التقبيح.

ب.ويقسمها من حيث علاقتها بالواقع إلى:

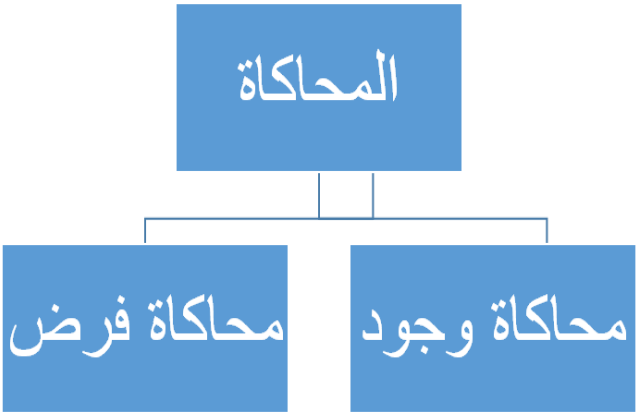

ومحاكاة الوجود أي" محاكاة الموجود بالموجود"[41] وهي "إما أن تكون محاكاة كلي بكلي ، أو جزئي بجزئي ، أو كلي بجزئي أو جزئي بكلي ، وكل قسم من هذه فإما أن يحاكى فيه محسوس بمحسوس ، أو محسوس بغير محسوس ، أو غير محسوس بمحسوس ، أو غير محسوس بغير محسوس"[42].

ومحاكاة الفرض أي "محاكاة الموجود بمفترض الوجود" وهي محاكاة غير مقبولة داخل تنظير حازم النقدي ، ذلك أنه يرى أن المحاكاة "ينبغي أن تكون على الوجه المختار بأمر موجود لا مفروض"[43].

ج.ويقسمها من حيث الواسطة إلى:

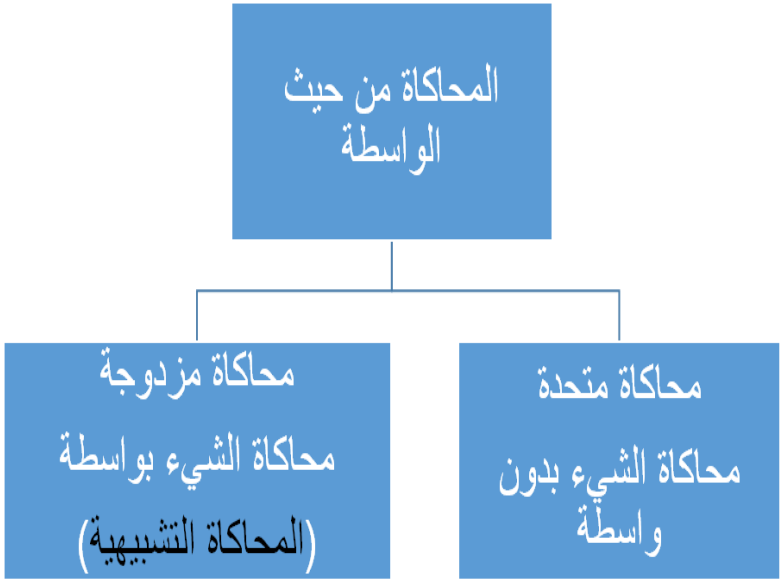

يشرح حازم الفرق بين النوعيين باستفاضة بقوله "وكما أن المحاكي باليد قد يمثل صورة الشيء نحتا أو خطا فتعرف المصور بالصورة وقد يتخذ مرآة يبدي لك بها تمثال تلك الصورة فتعرف المصور أيضا بتمثال الصورة المتشكل في المرآة ، فكذلك الشاعر تارة يخيل لك صورة الشيء بصفاته نفسه ، وتارة يخيلها لك بصفات شيء آخر هي مماثلة لصفات ذلك الشيء ، فلا بد في كل محاكاة من أن تكون جارية على أحد هذين الطريقين: إما أن يحاكى لك الشيء بأوصافه التي تمثل صورته ،وإما بأوصاف شيء آخر تماثل تلك الأوصاف ، فيكون ذلك بمنزلة ما قدمت من أن المحاكي للشيء ،بأن يضع له تمثالاً يعطي به صورة الشيء المحاكي ،قد يعطي أيضا هيئة تمثال الشيء وتخطيطه بأن يتخذ له مرآة يبدي صورته فيها ، فتحصل المعرفة بما لم يكن يعرف: إما برؤية تمثاله ،وإما برؤية صورة تمثاله ، فيعرف الشيء بما يحاكيه ،أو بما يحاكي ما يحاكيه ، وربما ترادفت المحاكاة وبني بعضها على بعض فتبعد الكلام عن الحقيقة بحسب ترادف المحاكاة وأدى (ذلك) إلى الاستحالة ، ولذلك لا يستحسن بناء بعض الاستعارات على بعض حتى تبعد عن الحقيقة برتب كثيرة لأنها راجعة إلى هذا الباب ، فمحاكاة الشيء نفسه هي المحاكاة التي ليست بواسطة ،ومحاكاة الشيء بغيره هي المحاكاة التي بواسطة"[44]. يتضح من هذا النص الحازمي أنه **"إذا كانت المحاكاة المباشرة تبتعد عن المدرك الحسي بدرجة واحدة، فإن المحاكاة غير المباشرة أو التشبيهية ترسم صورة للمدركات من خلال الابتعاد عنها بدرجات عدة"**[45].

وهي فكرة يتأثر فيها حازم بالفارابي حيث يرى "أن الشاعر يحاكي الموضوع بأكثر من طريقة ، قد يحاكي الشاعر الموضوع محاكاة مباشرة ، فتصور كلمات القصيدة موضوعها في ذاته ، أو يحاكي الشاعر موضوعه محاكاة غير مباشرة فيصفه من خلال شيء آخر: "فيكون القول المحاكي ضربين: ضرب يخيل وجود الشيء في

شيء آخر"[46]. المحاكاة المباشرة ـ عند الفارابي ـ تضعنا في حضرة الشيء كما تفعل اللوحة ، والمحاكاة غير المباشرة تجعلنا نتعرف الموضوع من خلال غيره[47].

ويتوقف حازم مرة أخرى عبر مثال آخر (الدمية) لشرح الفرقبقوله"كالذي يحاكي بالدمية صورة امرأة فتعرف صفاتها بها ،ومنها ما يترك فيه المعنى المخيل للشيء ويخيل بما يكون مثالا لذلك المعنى ،كالذي يتخذ مرآة فيقابل الدمية بها فيريك تمثالها فتعرف أيضا صورة الشيء المحاكى بالدمية بالتمثال الذي يبدو للدمية في المرآة ، وقد رأينا من يرى الدمية أو تمثالها في المرآة لا يتحرك لها ولا لتمثالها بنسبة مما كان يتحرك لرؤية الشخص الذي حوكيت صورته بالدمية ، فيجب على هذا ألا يكون التحرك لما يتخيل من الشعر بنسبة من التحرك لمشاهدة الأشياء التي خليت ، وأنتم تقولون إن الأقاويل الشعرية ربما كان التحرك لما يتخيل من محاكاتها أشد من التحريك لمشاهدة الشيء الذي حوكي ،وابتهاج النفس بما تتخيله من ذلك فوق ابتهاجها بمشاهدة المخيل. فيقال له أولا: إن الدمية والشخص الذي صورت على صورته يختلف اعتبارهما في تحريك النفوس. فالدمية تحركها بالتعجيب من حسن محاكاتها وإبداع الصنعة في تقديرها على ما حكي بها ،والشخص الذي هو تمثال له إن كان مستحسنا فإنه يحرك الذي هي تمثال له من هذا الطريق ،بل الأمر في الأكثر على ذلك"[48].

على هذا النحو "تتميز المحاكاة التشبيهية ـ على المستوى الجمالي ـ بعدة أشياء: أولها ، أنها تكشف عن درجة أرقى من فاعلية الخيال الشعري ، وثانيها ، أنها تنطوي على " لذة تعرف" متميزة عن لذة تعرف المحاكاة المباشرة ، وثالثها ، أنها تثير مساحة أكبر من مخيلة المتلقي وملكاته"[49] ؛ ذلك أن "المحاكاة التشبيهية تقوم على ضرب متميز من العلاقات المجازية ، تربط بين طرفين أو أكثر ، هذه العلاقات يسميها حازم "الاقتران" ويراه خاصية أساسية في المحاكاة التشبيهية ما دامت تقرن الشيء بغيره"[50].

ويشرح حازم هذا النوع من المحاكاة بأمثلة شعرية موضحة لمقصده بقوله "ونظير ذلك من المحاكاة في حسن الاقتران أن يقرن بالشيء الحقيقي في الكلام ما يجعل مثالا له مما هو شبيه به على جهة من المجاز تمثيلية أو استعارية كقول حبيب: (الخفيف -ق- المترادف)

دمن طالما التقت أدمع ال مزن عليها وأدمع العشاق

وقول ابن التنوخي: (الطويل -ق- المترادف)

لما ساءني أن وشحتني سيوفهم وأنك لي دون الوشاح وشاح

فحسن اقتران أدمع العشاق ،وهيحقيقة ،بأدمع المزن وهي غير حقيقية ،واقتران الوشاح الذي هو حقيقة بالوشاح المراد به التزام المعتنق وهو غير حقيقي يجري في حسن موقعه من السمع والنفس مجرى موقع حسن اقترن الدوح الذي له حقيقة بمثاله في الغدير ولا حقيقة له من العين. فإن المسموعات تجري من السمع مجرى المتلوناتمن العين "[51] .

د) وتنقسم المحاكاة بحسب تنوعها إلى:

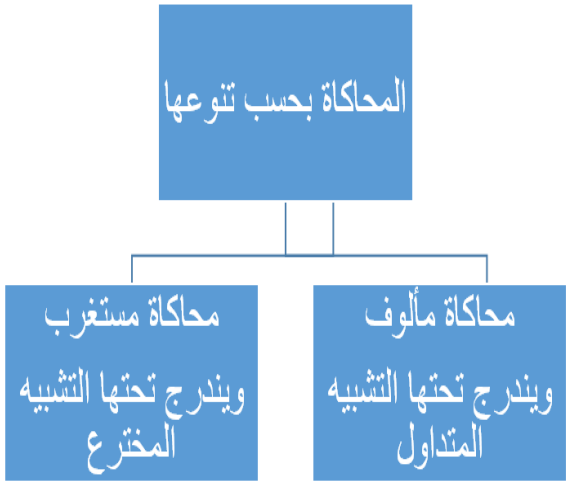

المحاكيات المستغربة: لقد فضل حازم هذه المحاكيات لاهتمامه بالجانب الفني التخييلي وما يحدثه من وظيفية تأثيرية على المتلقي ، فتفضيله للمحاكاة المستغربة هو تفضيل لها من حيث وظيفتها وما تحدثه من تأثير ومن حيث فاعليتها مع المتلقي "وللنفوس تحرك شديد للمحاكيات المستغربة ، لأن النفس إذا خيل لها في الشيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله وحدت من استغراب ما خيل لها مما لم تعهده في الشيء ما يحده المستطرف لرؤية ما لم يكن أبصره قبل، ووقوع ما لم يعهده في نفسه موقعا ليس أكثر من المعتاد المعهود ، وفنون الإغراب والتعجيب في المحاكاة كثيرة ، وبعضها أقوى من بعض وأشد استيلاء على النفوس وتمكنا من القلوب"[52].

فالاستغراب مقترن إذن بمفارقة تحدث عند المتلقي نتيجة الأشياء التي يضعها الشاعر في إطار جديد غير الإطار الذي اعتاده المتلقي ، إلى درجة يستشعر معها المتلقي جدة هذا الشيء وكأنه لم يعرفه قبل ذلك.

د.وتنقسم المحاكاة باعتبار المُحَاكى إلى:

يوضح حازم الفرق بينهما بقوله "المحاكاة التامة في الوصف هي استقصاء الأجزاء التي بموالاتها يكمل تخييل الشيء الموصوف ، وفي الحكمة استقصاء أركان العبارة عن جملة أجزاء المعنى الذي جعل مثالا لكيفيات مجاري الأمور والأحوال وما تستمر عليه أمور الأزمنة والدهور. وفي التاريخ استقصاء أجزاء الخبر المحاكى وموالاتها على حد ما انتظمت عليه حال وقوعها ،كقول الأعشى: (البسيط -ق- المترادف):

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به

في جحفل كسواد الليل جرار

إذ سامه خِطَّتَي خسف ،فقال له:

قل ما تشاء ،فإني سامع حار

فقال: غدرٌ وثكلٌ أنت بينهما

فاختر وما فيهما حظ لمختار

فشك غيرَ طويلٍ ، ثم قالَ له

اقتل أسِيرَكَ ،إنّي مانعٌ جارِي

فهذه محاكاة تامة ؛ ولو أخل بذكر بعض أجزاء هذه الحكاية لكانت ناقصة ، ولو لم يورد ذكرها إلا إجمالا لم تكن محاكاة ولكن إحالة محضة"[53].

فالمحاكاة التامة عند حازم تتحقق مع " قدرة الشاعر الوصاف على محاكاة عناصر المشهد الطبيعي الذي يحاكيه ، وترتيب هذه العناصر ترتيبا مقبولا يخيل المشهد بمخيلة المتلقي فينكشف ما ينطوي عليه المشهد من جمال"[54].

عبر هذه التقسيمات المفصلة للمحاكاة من ناحية والتوقف عند مفهومها في التنظير الحازمي من ناحية أخرى ، نستطيع اكتشاف سعي حازم وراء استكناه خصوصية مجتمعه وثقافته العربية مستعينا بما توصل إليه من معارف ثقافة مغايرة حول تقنية مثل المحاكاة ، حيث يستثمر هذه المعرفة بغية الكشف والتوصل إلى أدق التفاصيل التي تخص الشعر العربي الذي هو نتاج الثقافة العربية ، ليقدم هذا التصور الذي يربط الفن بالمجتمع ، ويقدم التفسيرات الاجتماعية له ؛ ليتماس مع ما يعرف في العصر الحديث بعلم اجتماع الأدب ، هذا بالإضافة إلى الكشف عن وعيه بدورة العملية الإبداعية ،إن جاز التعبير ـ كما يكشف عن وعيه بجميع عناصرها ومكوناتها وأطرافها ، واتخاذه المحاكاة أساس بناء نظرية شعرية مكتملة العناصر حيث يحدثنا عبر المحاكاة عن ماهية الشعر وأداته ووظيفته.

[1]أبو الحسن حازم القرطاجني. منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. ط3. بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1986م ، ص18.

[2]صفوت عبد الله الخطيب. نظرية حازم القرطاجني النقدية والجمالية في ضوء التأثيرات اليونانية.د.ط. القاهرة: مطابع الدجوي ،1986م ، ص54 ،

[3]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص353.

[4]عباس أرحيلة. حازم القرطاجني ومسألة التأثير الأرسطي في النقد العربي القديم ، ص213.

[5]حازم القرطاجني. المنهاج ، مقدمة المحقق ، ص11.

[6]المصدر السابق ، ص10.

[7]أرسطو. كتاب أرسطوطاليس في الشعر / تحقيق شكري عياد. د. ط. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1993م ،ص198.

[8]صفوت عبدالله.نظرية حازم القرطاجني النقدية والجمالية في ضوء التأثيرات اليونانية ، ص53.

[9]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص 70.

[10]عباس أرحيلة. حازم القرطاجني ومسألة التأثير الأرسطي في النقد العربي القديم ، ص214.

[11]حازم القرطاجني.المنهاج ، ص265.

[12]محمد رضوان الداية. تاريخ النقد الأدبي في الأندلس. ط 2. بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1993م ، ص539.

[13]علي لغزيوي. نظرية الشعر والمنهج النقدي في الأندلس حازم القرطاجني نموذجا ، ص285.

[14]ينظر كتاب أرسطوطاليس في الشعر ، تحقيق شكري عياد ، ص 243 ـ 246.

[15]سعد مصلوح. حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر ، ص58.

[16]صفوت عبد الله الخطيب. نظرية حازم القرطاجني النقدية والجمالية في ضوء التأثيرات اليونانية ، ص121.

[17]أرسطو. كتاب أرسطوطاليس في الشعر/ تحقيق شكري عياد ، ص150.

[18]المرجع السابق ، ص150.

[19]جابر عصفور. مفهوم الشعر ، ص279.

[20]جابر عصفور. مفهوم الشعر ، ص 279.

[21]السعيد أخي. نظرية الشعر بين فلسفة ابن رشد وبلاغة القرطاجني ، ص306.

[22]سعد مصلوح. حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر ، ص114.

[23]المرجع السابق ، ص103.

[24]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص116.ولا يفوتنا التنبيه هنا على عبقرية حازم عندما جعل الغريزة مدخلا للمحاكاة ، لما يمكن أن نسميه الغرائز الأولية عند الصبية والحيوانات وعلى رأسها القرود.

[25]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص249-252.

[26]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص243.

[27]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص244.

[28]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص127.
[29]المصدر السابق ، ص286.
[30]أرسطو. كتاب أرسطوطاليس في الشعر/ تحقيق شكري عياد ، ص171.
[31]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص121.
[32]حازمالقرطاجني. المنهاج ، ص92.
[33]السعيد أخي. نظرية الشعر بين فلسفة ابن رشد وبلاغة القرطاجني ، ص304.
[34]أرسطو. كتاب أرسطوطاليس في الشعر/ تحقيق شكري عياد ، ص3.
[35]السعيد أخي. نظرية الشعر بين فلسفة ابن رشد وبلاغة القرطاجني ، ص305.
[36]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص92.
[37]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص 212.
[38]حازم القرطاجني.منهاج البلغاء ، ص92.
[39]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص210.
[40]أرسطو. كتاب أرسطوطاليس في الشعر/ تحقيق شكري عياد ، ص170 ـ171.
[41]حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص92.
[42]المصدر نفسه ، ص92-93.
[43]المصدر نفسه ، ص94.
[44]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص95.
[45]السعيد أخي. نظرية الشعر بين فلسفة ابن رشد وبلاغة القرطاجني ، ص 320.
[46]الفارابي.جوامعالشعرتلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر/ ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي. د. ط. بيروت: دار الثقافة ، 1973م ، ص174.
[47]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص272.
[48]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص126-127.
[49]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص 289.
[50]المرجع السابق ، ص290.
[51]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص128.
[52]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص96.
[53]حازم القرطاجني. المنهاج ، ص106.
[54]جابر عصفور.مفهوم الشعر ، ص276.

خطاب المهمشين في كتاب(المعذبون في الأرض) لطه حسين آليات التشكل والوظائف التواصلية

The discourse of the marginalized in *Al Mu'athabun fi-el- Ard* (The Tortured on Land) by Taha Hussien The mechanisms of formation and communicative functions

د.عزة شبل محمد أبو العلا، كلية الآداب- جامعة القاهرة- مصر

مر المجتمع المصري في فترة الخمسينيات بالعديد من التغيرات على المستوى الاجتماعي، انعكست في تحول أدباء تلك الفترة من الرومانسية نحو الواقعية للتعبير عن قضايا المجتمع، وكان أبرزها ظهورًا قضية المهمشين، وهم «جماعات يرتبط ازديادها بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... جماعات غير مندمجة في المجتمع، تعيش على هامشه...هم يحلون مشاكلهم على نحو ينحرف بهم مزيد انحراف عن المجتمع الذي يعيشون على هامشه، وعلى الرغم من أنهم يتألفون من شرائح غير متجانسة اجتماعيًّا مفتتة متنافرة أحيانًا، فهم آخر الأمر ظاهرة واحدة»(مجدي أحمدتوفيق، 2006، ص23)

باتت هذه القضية المجتمعية محط أنظار الأدباء، وكان من بينهم طه حسين(1889-1973)، وهو «شخصية بارزة في حركة الحداثة في الأدب المصري تشمل كتاباته الروايات والقصص والنقد والمقالات الاجتماعية والسياسية.... في أعماله الأدبية الأخيرة أظهر اهتمامًا كبيرًا بمحنة الفقراء،واهتمامًا بالإصلاحات الحكومية»(Taha-Husayn ,2018)، فتصدى لها في كتابه (المعذبون في الأرض 1949م) من منظور أدبي تنويري، محاولاً طرح حلول لما يعانيه المجتمع من مشكلات، ومن ثم تسعى الدراسة إلى الوقوف على طبيعة خطاب المهمشين، بعد أن حظي موضوع الهامشية marginality بالعديد من الدراسات الاجتماعية والنفسية التي تعرض لمفهوم التهميش وأنواعه وعلاقته بالمجتمع، أو تأثيره على سمات الشخصية.وسوف تستعين الدراسة بمنهج تحليل الخطاب النقدي discourse analysiscritical الذي يلقي الضوء على السلطة التي يمارسها الخطاب، من خلال مناقشة «علاقة النص بما يحيط به آخذًا بعين الاهتمام العلاقة بين لغة النص والسياقات الاجتماعية والعقدية والثقافية التي استعملت فيها، وكيف انعكست هذه العلاقة في ثنايا النص، كما يحاول الكشف عن المسالك والوسائل المستعملة في تأليف الخطاب.»(محمد محمد يونس علي ،2016، ص22)

يقدِّم العمل رؤيتين متناقضتين للمجتمع المصري في فترة الخمسينيات. توزعت هاتان الرؤيتان بين (اليوتوبياutopia) أو رؤية الأغنياء الموسرين للمجتمع الفاضل، و(الديستوبيا dystopia)، وهي رؤية الفقراء المعدمين للمجتمع الفاسد. وتتمثل إشكالية هذه الدراسة في كيفية توجيه خطاب واحد لكلا الفريقين، يهدف إلى إصلاح المجتمع، «فالخطاب هو ممارسة ليست فقط تمثل العالم، ولكنها ممارسة تبني العالم وتشكله.» (James Thomas Zebroski, 2006,p.532)، ومن ثم تهدف الدراسة إلى الكشف عن تشكل الخطاب ووظائفه التواصلية التي تجلت في:

1.تحويل قضية الفقر المهمشة إلى خطاب إعلامي جماهيري: لم تكن قضية الفقر الشديد هي القضية الأساسية التي تناولها طه حسين في عمله الإبداعي ، وإنما كانت قضيته الكبرى هي وجود الفقر المدقع مع انعدام التضامن والتكافل الاجتماعي ، مما شكَّل خطورة على بنية المجتمع المصري في تلك الفترة ؛ بانتهاء وجود الطبقة الوسطى ، وانعزال الطبقة الغنية في برجها العاجي عن طبقة الفقراء المهمشين ، فنتج عن ذلك استقرار الوضع المجتمعي بقناعة كلتا الطبقتين.

حاول طه حسين زلزلة هذا الوضع الثابت الراسخ الراكد بكتابة عدة مقالات منجمة في الصحافة ، ولكن يبدو أن استجابة الجماهير لها كانت منطلقة من النظر إلى كاتبها بوصفه أديبًا قاصًّا ، له العديد من الأعمال الإبداعية ، فلم تحظَ من المتلقي بالقدر نفسه من الالتفات إلى أهميتها عندما جمعت في كتاب يحمل عنوان (المعذبون في الأرض).

بدأ التنبه بقوة إلى محتوى هذا الكتاب ، خاصة أن طه حسين ندد فيه بدور الدولة ، وضرورة فرض الضرائب على الأغنياء لصالح الفقراء ؛ مما أدى إلى منعه من النشر في مصر ، فنُشِر في لبنان أولاً سنة (1949)، ثم بعد ذلك أعادت نشره مؤسسة دار المعارف سنة (1951). وبذلك فقد استطاع طه حسين تحويل قضية المهمشين الذين عرض صورهم المتنوعة في مقالاته الصحفية وكتابه المطبوع من قضية اجتماعية مهمَّشة إلى قضية رأي عام ، ولم يكتفِ بلفت الأنظار إليها ، وتسليط الضوء عليها ، وإنما دعا من منبره الثقافي والاجتماعي والوطني إلى ضرورة تغيير هذا الوضع القائم الثابت ، والتحذير من خطورة اختلال توازن بنية النظام الاجتماعي.

2.عتبات الخطاب وبناء مخطط المسئولية الأخلاقية: حاول الكاتب ممارسة سلطة خطابية إقناعية بصنع مخطط للمسئولية الأخلاقية schema of moral responsibility يحفز به القارئ ويرفع معدل شعوره بالتعاطف مع الفقراء المعدمين ؛ لتحقيق التضامن والتكافل المجتمعي ، وهو هدف يتجاوز التعاطف والشفقة مع المعدمين إلى تأصيل الشعور بالواجب والمسئولية الذي يدفع إلى فعل الإصلاح الدائم وليس المؤقت. من هنا كان لعتبات الخطاب ذات الطابع السيميائي الدال دور رئيس في بناء ذلك المخطط ، وقد تمثلت تلك العتبات في العنوان الرئيس للكتاب ، والإهداء ، والمقدمة ، وعناوين الفصول ، ودلالات الأسماء.

1.2 عنوان الكتاب ومفهوم الحلقة القصصية: «هناك مؤشرات أولية بسيطة قد تدفع القارئ من البداية إلى تأمل مجموعة القصص باعتبارها حلقة قصصية ، أي باعتبارها تمثل كلاًّ واحدًا. من ذلك مثلاً أن يكون عنوان المجموعة ليس عنوانًا لإحدى قصصها.. ومن ذلك أيضًا أن يكون للمجموعة مقدمة ، أو خاتمة ، أو قصة تمهيدية تحاول توجيه القارئ إلى الإطار الجامع. ومن ذلك أيضًا الإهداءات والأقوال المأثورة التي تتصدر المجموعة والقصص.»(خيري دومة ،1998 ، ص271)، لقد عمد طه حسين إلى اختيار عنوان شامل للكتاب ، وهو اختيار مقصود يعكس الوعي بمفهوم الحلقة القصصية ، فالقصص الواردة في الكتاب ليست منفصلة عن بعضها البعض ، إنما هى متصلة ومتراكبة ، تصنع في مجملها حلقة قصصية واحدة تبني الدلالة الكلية لصورة المعذبين فى الأرض.

فالعنوان باعتباره «قصدًا للمرسل يؤسس أولاً: لعلاقة العنوان بخارجه ، سواء كان هذا الخارج واقعًا اجتماعيًّا عامًّا ، أو سيكولوجيًّا ، وثانيًا: لعلاقة العنوان ليس بالعمل فحسب ، بل بمقاصد المرسِل من عمله أيضًا.»(محمد فكري الجزار ،1998 ، ص21) فجاءت دلالة الجمع لكلمة (المعذبون) مشيرة إلى كثرة هؤلاء

البؤساء ، أما استخدام (ال العهدية)، فإنها تؤكد على أن هذه الصور قد أصبحت مألوفة ومعتادة لدرجة أننا لم نعد نلتفت إليها بسبب اعتيادها ، وقد عكس اختيار شبه الجملة (في الأرض) دلالة عمومية صورة المعذبين ، متجاوزةً قيود البعدين الزمني والمكاني.

2.2 الإهداء: صدَّر طه حسين مقدمة الكتاب بإهداء تناول فيه موقف الناس من مفهوم (العدل)، وقد قسمه إلى قسمين ، القسم الأول ، عكس بثنائياته المعجمية المتضادة ثنائية بنية المجتمع القائمة على التناقض الحاد ، فقد انقسمت بنية المجتمع إلى فريقين ، الفريق الأول وهم المعذبون الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، ولا يجدون ما ينفقون ، وهم محور اهتمامه ؛ لذا فقد جعلهم في صدارة الإهداء ، ولكنه أحال إليهم باسم الإشارة (أولئك) ؛ لدلالته على بعد الالتفات إليهم ، أما الفريق الثاني ، فهم الأغنياء الذين يؤرقهم الخوف من العدل ، ويجدون ما ينفقون ، ونراهم عن قرب ؛ لذا فقد أحال إليهم باسم الإشارة (هؤلاء). وجاء التقابل بين الكلمات (يحرقهم ، يؤرقهم)، (الشوق إلى ، الخوف من)، (أولئك ، هؤلاء)، (يجدون ، لا يجدون)، (ما لا ينفقون ، ما ينفقون) مؤكدًا هذا التناقض.

وفي القسم الثاني من الإهداء ، عكس طه حسين محور اهتمامه ، فقد جعل الأغنياء في الصدارة ، مقدمًا الحل الإصلاحي من خلالهم ، واستخدم التقابل للتعبير عن تلك البنية الثنائية المجتمعية المتناقضة ، فبدت العلاقة الرابطة بين جزئي الإهداء هي علاقة المشكلة بالحل.

3.2 مقدمة الكتاب: وقد اشتملت على عدة قضايا وضعها طه حسين بين يدي القارئ تبصرةً له بخطورة الوضع الحالي ، أولها تصوير الحياة في مصر أثناء الأعوام الأخيرة من العهد الماضي ، وانقسام المصريين إلى فريقين ، أحدهما الكثرة الكثيرة البائسة التي تتحرق شوقًا إلى العدل ، وما يصحب هذا الفريق من الجوع والبؤس والعري والعلل والذل والهوان ، أما الفريق الآخر فهو فريق تلك القلة القليلة التي لا تحفل بما ترى ولا تلتفت إليه ، كما أشار طه حسين في المقدمة إلى الدور السلبي للحكومات في تحقيق العدل ، وانتقاد الزعم بالحرية ، ومصادرة كتابه ، وأنه في ظل غياب الحرية يميل الكُتَّاب إلى الرمز والتلميح والإشارة والتعريض بدلاً من التصريح ، مؤكدًا هدفه من تأليف هذا الكتاب الذي يعده بمثابة الشعلة التي تضيء الطريق للقراء وتهديهم السبيل ؛ رغبة في تغيير حياة هؤلاء المعذبين من الشقاء إلى السعادة. فمثلت المقدمة نصًّا شارحًا للإهداء الذي جاء دقيقًا موجزًا ، وفي الوقت نفسه يمكننا القول إنها كانت أيضًا نصًّا موازيًا لفصول الكتاب.

4.2 عناوين الفصول: تضمن الكتاب أحد عشر عنوانًا فرعيًّا لفصول الكتاب ، هي: (صالح- قاسم- خديجة- المعتزلة- رفيق- صفاء- خطر- تضامن- ثقل الغنى- سخاء- مصر المريضة). وهي عتبة دالة من عتبات بناء الخطاب ، فجاءت موجزة ومكثفة ، يحمل بعضها أسماء أعلام ، مثل (صالح- قاسم- خديجة- صفاء)، وجاء البعض الآخر بصيغة المصدر (تضامن- سخاء- ثقل الغنى- خطر)، وهى فصول اتخذت من شكل الحديث قالبًا لها ، يقدم فيها معنى التضامن والتكافل الاجتماعي بين الناس ، ويحذر من خطورة افتقاد العدل في المجتمع ، أما العنوان الوصفي (مصر المريضة) فقد اختاره الكاتب ختامًا لعمله ، يصوِّر فيه ما آلت إليه أحوال البلاد من تخلف وفقر ومرض.

5.2 دلالات رمزية الأسماء: يمثل اختيار الأسماء عتبة أخرى دالة من عتبات بناء الخطاب. وقد انقسمت الشخصيات في العالم السردي إلى قسمين ، أولهما الشخصيات المتخيلة ، والآخر هو الشخصيات التاريخية ، وقد استطاع الكاتب توظيف كلا النوعين لتحقيق مقاصده الخطابية.

ظهرت الشخصيات المتخيلة في القصص الأولى من الكتاب ، لتعرض صور البؤساء ، فقد جاءت عناوين القصص تحمل أسماء تلك الشخصيات(صالح ، وقاسم ، وخديجة ، وصفاء)، أو اللقب الذي اشتهرت به الأسرة ، كما في قصة (المعتزلة)، أو سمة من سمات الشخصية ، كما في قصة (رفيق)، وقد قدَّمت هذه القصص نماذج مختلفة لصور المعدمين في المجتمع ؛ للفت الانتباه إليهم ، وإثارة الشعور بالشفقة والتعاطف نحوهم.

وربما كان اختيار الأسماء في تلك القصص اختيارًا مقصودًا من الكاتب ؛ لأنه يدعم فكرته الأساسية عن المعذبين في الأرض ، هؤلاء الناس الذين يملئون مصر نعمة وخيرًا ، وعلى الرغم من ذلك ، فهم في بؤس وشقاء دائم ، فأول ما يطالعنا من أسماء متخيلة: (صالح)، و(أمين)، «وأكبر الظن أن **صالحًا** هذا لم يوجد قط ؛ لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها...رفيقه ذلك الصبي..نتفق على أن اسمه **أمين**.»(طه حسين ،2013 ، ص18)وهذين الاسمين يمثل كل منهما رمزًا إلى أحد الفريقين. الفريق الأول فريق البؤساء الذين يملئون مصر نعمة وخيرًا ، ويرمز إليهم (صالح بن الحاج علي) بدلالة الصلاح ، ودلالة العلو في اسم الأب ، للنفس وللمجتمع. والرمز الآخر للفريق الثاني هو (أمين) ودلالة الأمانة والواجب الذي أن يحمله تجاه الفريق الأول.

كما نجد الرمزية في اختيار اسم (قاسم) في القصة الثانية ، وهو صورة أخرى من صور البؤساء في المجتمع ، وتشير دلالة هذا الاسم إلى كون البؤس قد أصبح قاسمًا مشتركًا بينهم جميعًا ، أو أن مصير هؤلاء المعذبين قد أصبح قدرهم وقسمتهم. وإذا طالعنا أسماء الشخصيات المختارة للبؤساء في الخطاب القصصي برمته ، سنجد أنها أتت محمَّلةً بالصفات الإيجابية ، مما يعكس رؤية الكاتب التي يريد أن يعيها المتلقي ، فهؤلاء الفقراء يمثلون ثروة الوطن الحقيقية ، إذ إنهم يتمتعون بكل الصفات الإيجابية التي تبنى المجتمع ، ولكنهم لا يجدون ما ينفقون ؛ لذا يجب إعمال العقل ، والقلب ، والضمير تجاههم. فنجد صفة السكينة مصاحبة لشخصية (سكينة)، والأمن فى اسم الأم (أمونة) في قصة قاسم ، والصفاء في اسم الابنة(صفاء)، والحنان في اسم الأم (حنينة)، ونفاسة الجوهر في رمزية اسم الأم (مرجانة) في قصة صفاء ، والرفق في قصة (رفيق)، وصفات التمام والعلو والسعادة ، لأسماء الأبناء (تمام ، وأبو العلاء ، وسعدى) في قصة الأسرة الفقيرة المعتزلة.

أما الشخصيات التاريخية الواردة في الكتاب ، فقد جاء اختيارها لبنة أساسية في بناء الخطاب الموجه للحكومات ، والأفراد الأغنياء. فقد جعل طه حسين في قصة (تضامن) شخصية عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رمزًا للإمام العادل ، وحكمة ولى الأمر فى تدبير شؤون الدولة في المحنة القاسية التي مرت بها الدولة الإسلامية عام 18هـ وهو عام الرمادة ، فأعطى مثالاً لدور الدولة في تحقيق التضامن والتعاون والتعاطف.

وعن دور الأفراد الموسرين في المجتمع ، فقد جعله طه حسين مكملاً لدور الدولة ، ورمز إليه بشخصية (عبد الرحمن بن عوف) في قصة (ثقل الغنى)، وشخصية (عثمان بن عفان) في قصة (سخاء). وقد ساق طه حسين هذه الأمثلة من التاريخ على سبيل الحجاج بالمشابهة ، ليقتدى الأغنياء بتلك الرموز التاريخية ، فهو «حديث

قديم ، ولكن الأيام التي نعيش فيها تجعله جديدًا كل الجدة ، وأنا أسوقه إلى الذين أتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما أتيح لعبد الرحمن... فلينظر أغنياؤنا إلى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا في أن أموالهم عارية مردودة ، وفي أن الذين يقرضون الله قرضًا حسنًا يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة.»(طه حسين ،2013 ، ص102-103).

3.التقابل بين رؤية المجتمع اليوتوبي والمجتمع الديستوبي لإظهار حدة التناقض: قدَّم هذا العمل رؤية للوضع الاجتماعي في مصر في فترة الخمسينيات ، بوجود تقابل ثنائي بين طبقتي الفقراء والأغنياء ، ويعد تناول وجهات نظر كل منهما في التعامل مع القضية المطروحة وسيلة من وسائل الخطاب نحو إضفاء سمة الموضوعية في العرض ، والتأثير على المتلقي بتقديم «مظاهر عدم المساواة وعدم التناظر في الحقوق الخطابية واللغوية»(نورمان فيركلوف ،2015 ، ص284) بين الطبقتين.

فنرى الكتاب يقسِّم المصريين إلى فريقين«أحدهما يصور الكثرة البائسة التي تتحرق شوقًا إلى العدل مصبحة وممسية ، وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التي تشفق من العدل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفرغ من العدل حين تجنها ظلمة الليل.»(طه حسين ،2013 ، ص7) ، وقد أظهرت علاقة التقابل الدلالي التناقض بين الفريقين ، من خلال تقابل الوصف بين (الكثرة البائسة ، القلة القليلة) ، و(تتحرق شوقًا إلى العدل ، تشفق من العدل) ، واستخدام التقابل الزمني بين (آناء الليل ، أطراف النهار) ، و(ضوء النهار ، ظلمة الليل) في وصف تقابل حالتي بؤس الفقراء ، ونعيم الأغنياء ؛ لذا نلاحظ دور علاقة التقديم والتأخير في بناء ذلك التقابل ، فعند وصف فريق المعدمين بدأ الخطاب بدلالة الإظلام الممتد حتى الصباح (آناء الليل ، أطراف النهار) ؛ تأكيدًا على حالة الظلام التى يعيشونها ، واستمرارها. أما عند وصف فريق الموسرين ، فقد بدأ الخطاب بدلالة النور الممتد حتى الإظلام (ضوء النهار ، ظلمة الليل) ؛ موازيًا بذلك دلالة الراحة والسعادة لهذا الفريق ، واستمرارها حتى انتهاء يومهم ، وتسهم علاقتا الترادف المتدرج ، والتكرار في تأكيد البون الشاسع بين الفريقين. فنجد الترادف المتدرج في الكلمات التي تصف شقاء المعدمين إلى حد إذعانهم ، فهم في (شقاء ، عناء ، خضوع ، إذعان) ، والترادف المتدرج الذي يصف تفاقم ما يمر به المعدمون ، من (محن ، وخطوب ، وكوارث ، ونائبات) ، وكذلك الترادف المتدرج الذي يصف رد الفعل السلبي من الموسر تجاه المعدم ، فهو (لا يلتفت ، لا يرى ، لا يحس ، لا يحفل) وتكرار أداة النفى (لا) ، وزمن المضارع للدلالة على تأكيد استمرار حالة عدم اكتراث الأغنياء بالمُعدَمين.

قدَّم طه حسين ذلك التقابل ليشرك معه القارئ في تبنى وجهة نظره نحو الإصلاح الذي يعدُّ السبيل الوحيد لنجاة المجتمع من الهلاك ، موجهًا خطابه للقارئ: «أظن أنكَ قد رأيتَ الخطر الذي يسعى إلينا مسرعًا ، أو الذي نسعى إليه مسرعين ، وأظنك توافقني على أننا بين اثنتين: إما أن نترك الأمور تجري على سجيتها فيكون ما لا بد أن يكون ، ويجري علينا ما جرى على الأمم من قبلنا ، وإما أن نستقبل من أمرنا ما استدبرنا ، وأن نحاول الإصلاح.»(طه حسين ،2013 ، ص92)وبذلك فقد جعل طه حسين المتلقى شريكًا له في حتمية الإصلاح.

4.الحجاج المنطقي وتضفير الخطاب السردي بالخطاب التقريري: إن القضية التي يناقشها الكتاب ليست قضية خاصة بالأفراد ، وإنما هي قضية المجتمع ذاته ؛ لذا فقد كانت الحاجة إلى تغييره دافعًا إلى استخدام

وسائل خطاب متعددة ، منها الإقناع المنطقي في الخطاب التقريري المباشر الذي اتخذ شكل الحديث ، لنجد أنفسنا أمام نوع مميز من الإحالات يمكن أن نطلق عليها الإحالات القِيَمِيَّة. فإذا كان المرجع يمثل «ما تحيل عليه اللغة من أشياء في الوجود ، ابتداءً من أبسط وحدة دالة وهي الكلمة وانتهاءً بأكثرها تركيبًا وأشدها تعقيدًا وهو النص.. فالمرجع إذا ليس متجانسًا ، والإحالة ليست متماثلة ، إذ إنها تخضع لمعرفة المتلقي.»(خديجة غفيرى ،2012 ، ص70)، فقد جعل طه حسين المرجعية النصية تشير إلى قيمة العدالة في المجتمع ، وهذه الإحالة تربط بين النص ومقصدية الكاتب ، والسياق الاجتماعي المفتقِد تلك القيمة الإنسانية.

وبذلك فلم يكتفِ المؤلّف بتقديم رأيه ، وإنما جعل المتلقي يشاطره فكره وقناعاته ، عن طريق (الحجاج بالقيم المشتركة)، وهو وسيلة من وسائل تطويع أذهان الجمهور للاقتناع ، فاستدعاء القيم «يشكِّل في حد ذاته حجة ، فهو يؤطر الواقع بقوة ، إذ تمتلك القيم غالبًا حمولة واسعة كما تمتلك قوة حث نافذة»(خديجة غفيري ،2012 ، ص91)، تحمل المتلقي على الاعتقاد بحرية اختياره ، وفي الوقت نفسه يصبح منقادًا لحجج البناء.

فزاوج الكاتب بين ذلك الخطاب التقريري ، والخطاب السردي لنماذج من صور هؤلاء المعدمين ؛ حيث يعد تقديم القصص وسيلة من وسائل الحجاج بالتمثيل ، فضلاً عن دورها في استمالة المخاطب المرتبط بوظائفها الأدبية الجمالية. فلم يكن أبطال قصص البؤساء التي أوردها طه حسين (صالح)، و(خديجة)، و(قاسم)، و(رفيق)، و(صفاء) سوى نماذج لمجتمع المهمشين المعذبين في مصر ، سواء كانوا شخصيات حقيقية ، أو رموزًا لنماذج البائسين التي ملأت مصر ، فـ «أكبر الظن أن صالحًا هذا لم يوجد قطُّ ؛ لأنه يملأ المملكة المصرية من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد في القرى ، ويوجد في المدن ، ويوجد في كل مكان.. لأننا نراه في كل ساعة وفي كل مكان.»(طه حسين ،2013 ، ص18 ، 24) فاستخدم الكاتب العديد من الوسائل اللغوية لتأكيد دلالة عموم البؤس ، باختيار دلالة الفعل المعجمية (يملأ)، واستخدام الزمن المضارع المشير إلى استمرار وتزايد الخطر ، فضلاً عن دلالة استقصاء المعنى بوجود هؤلاء البؤساء في البعدين الزماني والمكاني والذي عبرت عنه الفقرة بالتقابل بين الكلمات (من ، إلى)، و(شرقها ، غربها)، و(شمالها ، جنوبها)، و(القرى ، المدن).

فالتعميم يؤدي إلى تكثيف حضور المعنى في وعي المتلقي ؛ لذا فلم يتوقف تعميم صورة البؤس فقط عند تقديم النموذج الفردي المتمثل في وجود أشخاص بؤساء داخل المجتمع ، بل نجد التعميم يتسع ليشمل نموذج الأسرة المصرية كلها ، بكل أفرادها ، كبارًا وصغارًا ، رجالاً ونساءً. ويسهم التكرار في التأكيد على ذلك النموذج الجمعي البائس ، فالأسرة في قصة (قاسم) هي «الأسرة البائسة »(طه حسين ،2013 ، ص38)، ويتكرر الوصف مع قصة (خديجة)، فهي« أسرة بائسة شقية »(طه حسين ،2013 ، ص41)، وفي قصة (المعتزلة) هي «أسرة مصرية بائسة.»(طه حسين ،2013 ، ص50)، وهذا التكرار يعد وسيلة من الوسائل الحجاجية تؤدي دورها في تأكيد الرؤية الكلية للقضية المثارة ؛ حيث يقوم التكرار على «التعبير عن الموضوع الواحد بأفكار مختلفة. ويستعمل بطريقتين: إما أن نكرر ببساطة الشيء نفسه ، وإما أننا نتكلم عن الشيء نفسه...فهو طريقة في تقديم أطروحة تسمح بإنتاج تأثير البروز ، ورؤية الفكرة الواحدة من زوايا عدة.»(فيليب بروطون ،2013 ، ص108)، ويعمم طه حسين صورة البؤساء لتشمل كل فئات مجتمع المهمشين ، في طبقة

الفقراء، ويمثلها الصياد في قصة(قاسم)، والبنَّاء، في قصة (خديجة)، وتتسع دائرة البؤس لتشمل الطبقة المتوسطة التي مثَّل لها طه حسين بطبقة الموظفين في قصة (خطر)؛ للتأكيد على تفشي مرض البؤس في المجتمع، وبناء صورة ذهنية في وعي القراء برؤية مستقبلية كابوسية تزداد سوءًا إذا لم ينتبه المصريون إلى حتمية التغيير والإصلاح السريع، كما صرَّح طه حسين بذلك في الفصل الأخير من كتابه (مصر المريضة).

5.التقنيات اللغوية وسلطة الخطاب: وظّف الكاتب بعضالتقنيات اللغوية؛ لممارسة سلطة خطابية تؤكد خطورة الوضع الاجتماعي، وتدعو إلى حتمية التغيير، حيث إنَّ الخطاب «هو سلطة الممارسات اللغوية لتشكيل الموضوع الذي نتحدث عنه»(James Thomas Zebroski 2006, p.529)، فكان لكل من المجاز والتناص والأفعال الإنجازية دور في ممارسة تلك السلطة على المتلقي.

1.5 المجاز: يتضافر المجاز مع التكرار في رسم صورة نموذج المهمش، فيجعلها شاخصة أمام أعين القراء، ويخرجها من المخزون الذهني الإدراكي إلى الحيز النشط المرئي. «فالاستعارة، وهى إضمار للتماثل، يمكنها أن تكون حجة، عندما تخدم الإقناع..وتتميز الاستعارة عن المثال بحرية أوسع في الإيحاء، فهي تسمح بتشابهات خفية تغترف أحيانًا من أعماق وجودنا وثقافتنا.»(فيليب بروطون ،2013 ،ص122، 123)فنرى المهمَّش في قصة (خطر) «قبر متحرك يحيا حياة ظاهرة ولكن قلبه ميت، قد **أماته البؤس والشقاء والهم**.»(طه حسين، 2013، ص91)، فتعد الاستعارة بذلك وسيلة من الوسائل الحجاجية المستخدمة في التأثير على المتلقي، حيث «تعلو الاستعارة استعمال ألفاظ الحقيقة، وذلك لأنه لا يفضِّل المُرسِل استعمالها، إلا لثقته بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيًّا، وهذا يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجى أيضًا.»(عبد الهادى بن ظافر الشهري ،2015، ص279).

كما تعد الصورة المرسومة للمعدمين جزءًا من بناء قضية الكاتب الأساسية وهي افتقاد العدل، فقد كان العدل «**بطيئًا مسرفًا في البطء، كأنه يمشي في القيد، لا يكاد يخطو خطوات قصارًا حتى يجذبه من ورائه جاذب فيرده إلى مكانه** الذي **استقر فيه** بعيدًا كل البعد عن الناس الذين **يحبهم** ويحبونه.»(طه حسين، 2013، ص8)، تلك الصور المجازية المتتالية قد أظهرت افتقاد العدل، فنجم عن افتقاده تلك الأخطار المحدقة بالبلاد. من هنا جاء عنوان الفصل الأخير مصرحًا بهذا الخطر في عنوان الفصل (مصر المريضة)، الذي ساهم المجاز أيضًا في بنائه.

2.5 التناص الديني والتاريخي: يعد مبحث التناص مبحثًا رئيسًا في تحليل العلاقة بين النصوص، ويستخدمه الكُتَّاب وسيلة من وسائل تغيير الوعي الثقافي والاجتماعي، فالنص«يستجيب إلى نصوص سابقة ويعيد تمثيلها وصوغها، ويساعد بذلك على صناعة التاريخ، ويسهم في عمليات التغير الواسعة النطاق، إلى جانب استباق نصوص لاحقة ومحاولة تشكيلها. وهذا الطابع التاريخي الراسخ فى النصوص يمكنها من القيام بالأدوار الكبرى التي تقوم بها في المجتمع المعاصر باعتبارها السلاح الرئيسي في التغيير الاجتماعي والثقافي.»(نورمان فيركلوف ،2015، ص130).

لقد استعان طه حسين في بناء خطابه بنوعين من التناص، هما التناص الدينى، والتناص التاريخى، فقدم سبل التقويم في ذلك الخطاب الاجتماعي الإصلاحي social reform discourse، واعتمد على التناص مع القرآن الكريم. وهذه الآلية تعد من الآليات الأساسية في عملية الإقناع، وقد وظَّف الكاتب هذا النوع من

الحجاج لأداءعدة وظائف ، أولاها بناء صفات شخصية الفقراء المستحقين العطاء ، فهم آمنون مطمئنون ، سيماهم التعفف ، وهذا يستوجب العطاء ، أسوةً بما ورد في قوله تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾.(طه حسين ، 2013 ، ص54).

والوظيفة الثانية هي وصف صورة الأغنياء الذين يبخلون بمالهم ، فقلوبهم «قاسية كالحجارة بل أشد قسوة... يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ، ويجعلون على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا ، ويجعلون على قلوبهم أكنة وأقفالاً حتى لا يصل إليهم ما يثير فيها شيئًا من تضامن أو تعاطف أو رحمة أو إشفاق.»(طه حسين ، 2013 ، ص115، 106)والوظيفة الأخيرة هي الحث على العطاء ؛ «لأن الله وعد الأغنياء إذا أنفقوا في سبيل الله مخلصين لا يبتغون رياء ولا شهرة ولا نفاقًا أن يخلف عليهم ما أنفقوا»(طه حسين ، 2013 ، ص109).

أما التناص التاريخي مع قصص شخصيات إسلامية تصلح للاقتداء بها فيعد نوعًا من أنواع حجاج المتلقي بالتمثيل ، يصنع حوارًا خارجيًا ، ويُقصد به «حوار النص مع النصوص الخارجية التي ليست من صميمه- ما يقع بينه وبينها من علاقات تعضيد أو علاقات تنافر.»(محمد مفتاح ، 2006 ، ص 82)، فقد استخدم الكاتب تلك الإحالات لتعضيد مقصده بضرب المثل في العطاء والجود بمواقف حدثت بالفعل لشخصيات تاريخية ، كما هو الحال مع شخصية (عبد الرحمن بن عوف)، و(عثمان بن عفان)، و(عمرو بن العاص)، و(عمر بن الخطاب). ولقد امتد توظيف التناص التاريخي في العمل إلى تحقيق وظيفة تواصلية أخرى ، وهي نقد الوضع الاجتماعي ، أو ما يمكن أن نطلق عليه (الهجاء الضمني)، أو (الهجاء المقنَّع)، بتقديم اليوتوبيا المثالية عبر التاريخ الإسلامي من خلال تلك القدوة. ففي اليوتوبيا المثالية «يصور الكاتب مجتمعًا فاضلاً، يستخدمه ، إما لنقد المجتمع القائم عن طريق تقديم صورة مناقضة له ، أو لاقتراح مثل أعلى.»(حسين عيد ،1985 ، ص223).

3.5 وحدات الأفعال الإنجازية وأيديولوجيا الكاتب: «يعود الفضل في تعميق الفهم بالأفعال الكلامية إلى الفيلسوف الإنجليزى أوستن J.L. Austin في كتابه How to do things with words.. ميز أوستين بين نوعين من الملفوظات: الملفوظات التقريرية الوصفية constative sentences/descriptive وتظل خاضعة لمعيار الصدق والكذب ، والملفوظات الإنجازية performative sentences ..التي تنجز فعلاً.»(جواد ختام ، 2016 ، ص86- 78).

وباعتبار الخطاب وحدة كلية واحدة ، يمكننا أيضًا النظر إليه بوصفه يمثل فعلاً إنجازيًا خطابيًا ذا طابع تداولي ، يوظفه الكاتب لتحقيق مقاصده ، وقد ارتبطت تلك المقاصد في (المعذبون فى الأرض) بخلخلة الوضع المجتمعي الراسخ الذي يرضى عنه كلا الطرفين معًا ، الفقراء والأغنياء.

احتوى العمل شكلين أساسيين من أشكال الوحدات الإنجازية الخطابية الكبرى ، هما الوحدة الإنجازية الخبرية ، وقد مثلتها الفصول التي اتخذت من بنية الحديث قالبًا لها ، أما الوحدة الإنجازية النصية الأخرى ، فهي الوحدات القصصية ؛ حيث تعد كل قصة من القصص الواردة في الكتاب وحدة إنجازية كبرى ، وتضم كل واحدة منها مجموعة من الأفعال الإنجازية الصغرى المتضافرة ، والتي يمكن تصنيفها على النحو التالي:

الأفعال الإنجازية الوصفية: التي تصور حال المهمشين في المجتمع.

الأفعال الإنجازية التحذيرية: التي تحذر من خطورة استمرار ذلك الوضع الاجتماعي على مصر في المستقبل.

الأفعال الإنجازية الحُكمية: وتتمثل في الخطاب الصادر من الكاتب بإدانة الأغنياء، وإدانة الدولة؛ لتقاعسهما عن إسعاف المعدمين.

الأفعال الإنجازية الطلبية: سواء باستخدام الأفعال الدالة على الأمر لوجوب مساعدة الفقراء، أو الأفعال الدالة على النهي عن تجاهلهم وعدم الالتفات إليهم، فالأوامر والنواهي تندرج «حسب تصنيف (سورل) للأعمال اللغوية ضمن قسم الطلبيات، حيث تقوم جهة الإنشاء على زج المخاطب إلى عمل من الأعمال يأتيه لتحقيق إرادة المتكلم.. وليست الطلبيات سوى أفعال إنشائية ذات قيمة أمرية تستوجب معمولاً في المستقبل.»(الصحبي هدوي ،2016، ص132-134)

الأفعال الإنجازية التعبيرية: وتتمثل في تعبير الكاتب عن الحالة النفسية لكلا الفريقين الفقراء والأغنياء.

ويؤدي تنوع وتوظيف استخدام تلك الوحدات الإنجازية دوره التعبير عن أيديولوجيا الكاتب تجاه القضية المطروحة، مستحثًا المخاطبين على ضرورة الإصلاح، فمرة يستخدم الكاتب الفعل الإنجازي الاستفهامي الذي يمثل دعوة للتفكير حول القضية بقوله: «إلى أى الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا: إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة؟ »(طه حسين، 2013، ص54)ومرة نراه يستخدم الفعل الإنجازي الدال على التمني ويكرر أداته (ليت) بقوله: «**فليت** أغنياءنا يفكرون في أنهم يستطيعون أن ينفقوا من فضول أموالهم..**وليت** أغنياءنا يصدقون وعدالله..**ليتهم** ينفقون مخلصين غير مرائين»(طه حسين، 2013، ص109)، ومرة أخرى يستخدم الفعل الإنجازي الطلبي بأسلوب الأمر؛ لحثهم على العطاء، بقوله: «**فلينظر** أغنياؤنا إلى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت، **وليفكروا** في أن أموالهم عارية مردودة.»(طه حسين، 2013، ص103)وفي سياق تقديم الكاتب حلول مقترحة للإصلاح، سواء من الدولة أو الأفراد، تتوالى الأفعال الإنجازية الإلزامية على نحو ما نرى في قوله: «العدل **يقتضي أن تضاعف** الضرائب، **وأن تضاعف** المرتبات، **وأن تكف** الدولة عن الإسراف في الأموال العامة، **وأن يكف** الأغنياء عن الإسراف في أموالهم الخاصة.»(طه حسين، 2013، ص92).

6.التكرار السردي وبناء السُّلم الانفعالي: تميز البناء السردي لقصص الكتاب بنوع خاص من أنواع التكرار، يمكن أن نطلق عليه (التكرار السردي)، ونعني به ذلك التكرار الذي يقع على مستوى عناصر البنية السردية، في الشخصيات، والأحداث، والزمان، والمكان. وقد كانت هذه الآلية بمثابة العمود الفقري للعمل، فجعلت عناصر بنائه، على الرغم من تنوعها من قصة إلى أخرى، تتجمع في خيط واحد بواسطة التكرار؛ فتمارس سلطة خطابية تؤكد القضية الكبرى للعمل، وتسهم في بناء تعاطف القارئ مع هذه الحياة المأساوية بصورة تدريجية. «ففي وضعيات التواصل التي ترمي إلى جعل شخص أو مجموعة من الأشخاص تتبنى وجهة نظر معينة أو تقوم بسلوك معين، يكون الإقناع أهم وجه من وجوه التواصل فيها»(منية عبيدي، 2016، ص283)، ووظيفة السارد «وظيفة خطيرة، وأن ما يمكن أن يعبر عنه السارد بسرده أكثر بكثير مما يظن أو يعتقد؛ فهو يتحكم في عالم القصة أو الرواية: العناصر والشخصيات، والزمان والمكان، والعقد، والحوار، وغير ذلك؛ أى إنه ينسج عالمًا جديدًا من خياله..وفى خدمة أغراضه وغاياته، وبذلك يكون السارد قد تسلح

بأنواع من السلطات منها سلطة تجاوز الواقع سلطة الإبداع، وسلطة التأليف، فضلاً عما له من سلطات ومسالك أخرى ليس أقلها شخصنة المجرد والمتخيل؛ لتكثيف شحنة الإقناع العاطفي.»(محمد محمد يونس علي، 2016، ص121)، على اعتبار أن «الخطاب فعل، وأن الفعل اللغوي قصد مشروط، يقود إلى دمج الحالات الذهنية والنفسية في نظرية تداولية اللغة، لتصبح المقاصد والرغبات حالات ذهنية مسئولة عن برنامج الفعل والتفاعل، وهذه الحالات هي مناط اهتمام الوصف والتفسير التداولي؛ بوصفها السياق النفسي لإنتاج اللغة وفهمها.»(عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2015، ص81-82).

ينبني ذلك السلم الانفعالي من خلال تكرار وصف شخصية الفقير المعدم، وصفًا داخليًّا يعبر عن مشاعره، وفكره، والمعاناة التي يعيشها، ووصفًا خارجيًّا يظهر حالة البؤس والشقاء المغرق فيها، لقد صنع طه حسين في خطابه مونواليزا أخرى للبؤساء، فعلى الرغم من تنوع شخصيات المهمشين بتنوع القصص المقدمة، فإنها مثَّلت في مجملها وحدة كليّة، هي لوحة المهمشين في المجتمع المصري، إينما نظرتَ إليها من أي جانب نظرت إليك بملامح البؤس.

إن الوصف القصصي أداة من أدوات التأثير في الجمهور؛ لأنه «مسار كامل يُراد به إنشاء إقناع بواسطة الحكايات المثلية أو النوادر أو الرموز المحركة لدعم دليل معين أثناء المحاجة.»(منية عبيدي، 2016، ص281)، فالصورة المرئية تظهر علامات البؤس والشقاء، كما نرى في وصف (صالح)، وما يرتديه من «**الثوب البالي القذر..الثوب البالي القديم ..ثوبهالممزققد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغي. وقد انشق عنه كتفه فظهرتا نابيتين، والثوب على ذلك رث قذر، يُظهر من جسم الصبي أكثر مما يُخفي.**»(طه حسين، 2013، ص14)وهي تلك الصورة التي نراها في وصف (أمونة) وابنتها (سكينة)، «وقد استقبلتا النهار **بائستين** كما استقبلتا الليل **بائستين**...الفتاة **عارية** أو **كالعارية، لا تستر جسمها إلا أسمال.**»(طه حسين، 2013، ص34).

ويرتبط تكرار تلك الصورة المرئية للمهمش بتكرار الوصف الوجداني له، فمن رآه رأى «**بؤسًاشاحبًا** يشيع فيه، ورأى **ابتسامة فيها كثير من حزن، وكثير من أمل**»(طه حسين، 2013، ص14)، ويتكرر ذلك الوصف مع (قاسم)، و«**صوته الخافت المريض.**»(طه حسين، 2013، ص32)وخديجةالتي كان «**صوتها**.. قد جرت فيه **نغمة حزينة متكسرة**»(طه حسين، 2013، ص48)، وامتد الوصف ليشمل الأسر المصرية كلها؛ مما يشير إلى فداحة الأمر، فأسرةخديجة «**أسرة بائسة شقية..الأسرة المعسرة**..»(طه حسين، 2013، ص41، 43)، وفي قصة (المعتزلة) «**أسرة مصرية بائسة**»(طه حسين، 2013، ص50)؛ مما ينذر بخطورة الوضع المجتمعي.

وتتأكد صورة المهمشين **بتكرار الحدث الأساسي** للقصص وهو وصول المُعدَم إلى حالة من اليأس والقنوط، فينعكس في الحل المتكرر الملازم للمقطع الختامي للقصص كلها بموت شخصية المهمَّش، فقصة (صالح) تنتهي بأن القطار قد أكله هو وأخيه سعيد، «لقد كانت القُطر شرهة منذ اليوم، أكل أحدهما سعيدًا مع الظهر، وأكل الآخر صالحًا مع الليل.»(طه حسين، 2013، ص27)، وتنتهي قصة (قاسم) بأنه لم يعد، فقد «سعى إلى النهر من آخر الليل، ولكنهما أطالتا الانتظار، ولم تظفرا منه بشيء.»(طه حسين، 2013، ص40)، وكذلك في قصة (خديجة) فقد «وُجِدتْ على شاطئ النهر.»(طه حسين، 2013، ص48)، وفي قصة (رفيق) يعلم الصديق أن حمى التيفوئيد أنهت حياة صاحبه، فقد «أسلمته إلى الموت أثناءالصيف.»(طه حسين،

2013 ، ص72)، وفي قصة (صفاء) وُجدت «جثة قد احتزَّ القطار رأسها احتزازًا.»(طه حسين ، 2013 ، ص78)، فتكرار المقطع الختامي بموت الشخصية يعبر عن فكر هؤلاء المعدمين ، كما أنه يبني تعاطف القراء مع الحياة القاسية التي يعيشونها ، والنهاية البائسة لحياتهم.

ومع التأطير الزماني والمكاني لصورة المهمش نجد التكرار تيمة سردية متكررة، فالوصف العباري المتكرر على مدار الكتاب لتلك الفترة هو «الأيام السود.» فيا لها من «ليالي قاتمة مظلمة كثيفة الإظلام... ازدحمت فيها الظلمات يركب بعضها بعضًا.»(طه حسين ، 2013 ، ص11)، أما المكان الذي يعيش فيه المهمشون رجالاً ونساءً ، فهو دائمًا يتصف بالحقارة والوضاعة ، حيث «أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة.»(طه حسين ، 2013 ، ص33)، وقد انتهينا إلى «دار متواضعة حقيرة ،»(طه حسين ، 2013 ، ص72)، و«كان لا يخرج من بيته الحقير المتضائل»(طه حسين ، 2013 ، ص30)، وكان يؤثر«هذا البيت الحقير»(طه حسين ، 2013 ، ص34)و«يسعى إلى بيته الحقير متباطئًا»(طه حسين ، 2013 ، ص38)، وهي قد «انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقير»(طه حسين ، 2013 ، ص47)، عائدة «إلى بيتها ذاك الوضيع الحقير.»(طه حسين ، 2013 ، ص42)

7.تعدد الأصوات الخطابية: الفواعل الصريحة والضمنية وتحويل أيديولوجيا المجتمع: تتنوع قنوات تواصل المؤلف مع الجمهور ، من خلال الأدوار المتعددة للفواعل الصريحة والفواعل الضمنية داخل الخطاب ، فداخل نموذج التواصل ، هناك «المؤلف الفعلي ، والراوي ، والمروي عليه ، والقارئ الضمني ، والقارئ الفعلي..ويمكن إدراج الشخصيات أيضًا داخل نموذج التواصل ؛ لكونها فواعل ضمنية ، وإن لم تكن فواعل صريحة...فهي قناة ثالثة لتواصل المؤلف مع الجمهور من خلال البنية القصصية نفسها... فالمؤلف لا يتحدث مباشرة ، وإنما تعد هذه القنوات وسائط تواصلية...فالمؤلف الفعلي نفسه يمكن أن يوظف نسخًا متنوعة من ذاته في التواصل السردي.»(James Phelan, 2011,pp.58/64/66/69).

اتخذ طه حسين من ذاته في (المعذبون في الأرض) أصواتًا متعددة لخطاب الجماهير ، بعضها يأخذ شكلاً صريحًا ، منها صورة المؤلف الفعلي الذي يقوم بأدوار متعددة داخل العمل الأدبي ، منها الأديب ، والناقد الاجتماعي ، والمثقف ، والراوى للأحداث ، ومنها ما يأخذ شكلاً ضمنيًا ؛ حيث يتوارى صوت المؤلف خلف أصوات الشخصيات في القصص.

فنجد طه حسين **بوصفه أديبًا** دائم التأكيد على مفهوم (الحرية) ، وهو مفهوم أساسي نحو تقدم المجتمعات. فيجب أن تكون هناك حرية للأديب فيما يكتب ، وهذه الحرية يوازيها حرية أخرى هي حرية القارئ فيما يحب أن يقرأ ، فالحرية «هي الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبيني.. لأني حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ، ولأن القارئ مضطر إلى أن يتلقى حديثي كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك في أن يقبله أو يرفضه.»(طه حسين ، 2013 ، ص17 ، 24).

من هنا يرى طه حسين دور الأدب في مناقشة أحوال المجتمع من خلال **صوت الناقد الاجتماعي** الذي يتخذ من أدبه قناةً يصل من خلالها إلى المجتمع ؛ لذا ففعل الكتابة لا يرجع إلى اختيار الأديب ، بقدر ما هو يرجع إلى ظروف المجتمع ؛ لذا نراه يقول: «أكاد أقطع بأني لم أختر ، ولم أكن أستطيع أن أختار أن اتخذ هذه القصة موضوعًا لهذا الحديث ، وإنما هي التي اختارتني لتصل من طريقي إلى القراء.»(طه حسين ، 2013 ،

ص74)، ومن خلال هذه القناة يوجه طه حسين رسالته لهؤلاء الذين ينشغلون بأنفسهم، ولا يحفلون بغيرهم من البؤساء، وكان خليقًا بهم أن يلتفتوا إلى جحيم البؤساء، ولكنهم يمضون في الحياة «شغلتهم أنفسهم عن كل شيء وعن كل إنسان.»(طه حسين، 2013، ص40)، فتلك إذن هي العلاقة التفاعلية بين الأدب والمجتمع.

تشكل تلك الأصوات المتغلغلة في نسيج الكتاب مجتمعة مخططًا لبناء الإحساس بالمسئولية من الدولة، ومن الأغنياء الموسرين تجاه الفقراء المعدمين، وتقوم على نقد الخضوع والاستسلام الذي تعارف عليه المجتمع، مما أدى إلى اتساع الهوة بين طبقة الأغنياء وطبقة المعدمين؛ والدعوة إلى تصحيح مبادئ الأخلاق في ضوء ما يُسمى بأدب الإصلاح «أي ما تواضع عليه المجتمع من عادات وتقاليد، لا تغوص جذورها فيالضمير الفردي...بل تستند إلى رأي الجماعة في الفرد وحكمهم عليه، ومدى سيطرتهم على الفرد.»(طاهر عبداللطيف عوض،1989، ص114).

كما يؤكد الكتاب على الدور الإيجابي المنوط **بصوت المثقف** في تحويل أيديولوجية المجتمع. فيرى طه حسين أن تعديل الأيديولوجيا هو المرحلة الأولى لإصلاح الفكر، وتغيره، والتحفيز نحو بناء أيديولوجية مضادة للموقف السلبي الراسخ الراكد تحت مظلة استمرار الوضع السيىء، تسعى تلك الأيديولوجية الجديدة إلى حراك اجتماعى يقوم على مفهوم التضامن، فعلا صوت المثقف الوطني الذي يرى أن له دورًا مهمًّا في تثقيف المجتمع وتوعيته بالمخاطر التي يتعرض لها، فقد نشأ وجوم طه حسين، بوصفه مثقَّفًا مثل غيره من المثقفين، عن «هذا الشعور الحزين المستخذي الذي يجده المصري المثقف حين يرى آماله وأعماله وجهوده، وآمال كثير من نظرائه وأعمالهم وجهودهم تنهار»(طه حسين، 2013، ص114)؛ لذا يعد صوته تنبيهًا للغافلين، وإيقاظًا لضمائر النائمين، ووعظًا وإرشادًا للعمل من أجل مصر؛ لإنقاذ أهلها من الأهوال التي تنتظرها، والدفع بها إلى التطور والرقي، بل يرى طه حسين أن المثقف مضطر أشد الاضطرار إلى ذلك الوعظ والإرشاد، معللاً ذلك بأنه واجب وطني بقوله: «وأنا مع ذلك مضطر إلى هذا أشد الاضطرار، أراه واجبًا تفرضه الوطنية الصادقة، وتفرضه الكرامة الإنسانية، ويفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة.»(طه حسين، 2013، ص89)، فتسهم دلة الفعل (يفرضه)، وتكراره في التأكيد على دور صوت المثقف في المجتمع.

ولم يكتف طه حسين بالديالوج، وإنماوظَّف أيضًا **المونولوج الداخلي** أو خطاب الذات، ليصبح شكلاً من أشكال الحجاج، يعتمد على سلسلة من المقدمات تفضي إلى نتائج منطقية في سلم حجاجي لإقناع القارئ بقضيته، فالسلم الحجاجي كما قدمه ديكرو يتسم بخاصيتين هما أن «كل ملفوظ يرد في مرتبة ما من السلم، يكون الملفوظ الذي يعلوه أقوى منه، وكل ملفوظ في السلم يؤدى إلى نتيجة معينة، فإنه يستلزم أن ما يعلوه يؤدي إلى النتيجة نفسها.»(جواد ختام ،2016، ص 149،148)جاءت المقدمة المنطقية الأولى بمونولج يصور فيه طه حسين الوضع الذي آلت إليه البلاد، ورد فعل الموسرين تجاه المنكوبين بوباء الكوليرا الذي اختطف من أسر كثيرة رجالاً كانوا يعولونها، فاضطرها إلى إعدام لا سبيل إلى تصوره، بقوله: «استقبلتُ هذا كله ونظرت فيمن حولي من الناس، لأرى كيف يرفق بعضهم ببعض، وكيف يعطف بعضهم على بعض، وكيف يسرع الموسرون منهم إلى معونة المعسرين، فلم أر شيئًا ذا خطر، وإنما رأيتُ كرمًا قليلاً وكلامًا كثيرًا،

واستباقًا إلى التفاخر الكاذب...ووجدتُ قومًا ينفقون على كره للإنفاق، وقومًا آخرين يترددون بين الكرم والبخل، ثم يؤثرون البخل بعد طول التردد واتصال التفكير، وقومًا آخرين لا ينفقون ولا يترددون ولا يفكرون.»(طه حسين، 2013، ص106، 107).

تتدرج تلك المقدمة التى تصور رد فعل الأغنياء تجاه المنكوبين في بناء الصورة، فتبدأ بتوجيه اللوم الضمني للأغنياء باستخدام الفعل (يسرع) بدلالته المعجمية على وجوب سرعة المبادرة بالإنقاذ، وزمن المضارعة للدلالة على وجوب استمرار تلك المعونة حتى تنتهى الأزمة، ثم تأكيد هذا اللوم بنفي فعلهم أي شيء، (فلم أر شيئًا ذا خطر)، ثم إثبات الصورة المضادة، بقوله: (وإنما رأيتُ كرمًا قليلاً وكلامًا كثيرًا، واستباقًا إلى التفاخر الكاذب)، ثم علاقة الإجمال بالتفصيل التي تكشف عن موقف الأغنياء، ما بين منفق على كره، أو متردد في الإنفاق، أو غير منفق، ولا متردد، ولا مَعْنِيٌّ بالتفكير في هؤلاء البؤساء.

أفضت هذه المقدمة إلى تخيير الكاتب، وتخيير القارئ معه بين نتيجتين حتميتين، بقوله: «أي بأس عليَّ إذ رأيتُ هذا كله، وضقتُ بهذا كله، فوجدتني بين اثنتين: إما أن أبغض الحياة والأحياء، وأنكر المواطن والمواطنين، وإما أن ألتمس العزاء حيث أستطيعُ أن ألتمسه، وكما أستطيعُ أن ألتمسه، لعل الغمرة أن تنجلي.»(طه حسين، 2013، ص108)وبذلك فقد قدَّم طه حسين مبررات الكتابة، وهى أيضًا مبررات سُلَّمية، بدأت بالمعايشة للوضع كله، ثم ارتقت إلى ما ولدته تلك المعايشة من شعور بالضيق والضجر دفعته إلى الكتابة.

وأصبحت هذه المقولة مقدمة لنتيجة منطقية أخرى، وهى الحلم بتغيير الواقع، الحلم «بجيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبدًا للمال، ولا مرموقًا للثروة، وإنما يكون المال فيه عبدًا لمالكه، وتكون الثروة فيه وسيلة إلى إعانة المنكوب وإغاثة الملهوف، وإنقاذ المحروم، ثم إلى إثارة العاطفة الحلوة التي يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد أعان منكوبًا.»(طه حسين، 2013، ص108) فالتعرف على المعاناة «يجبر المرء على التعاطف، والتعاطف بدوره يجبر على الشعور بالمسئولية الاجتماعية، وهذا يشكل وسيطًا للحد من أنانيته.»(Janet Gabler-Hover,1988, pp.43-44).

وقد تضافرت وسائل دلالية كثيرة في بناء هذه النتيجة ؛ لخلق الشعور بالمسئولية المجتمعية العامة، فجاء اختيار استخدام كلمة (جيل) مرتبطًا بالتغيير، فإصلاح المجتمع يحتاج إلى الجهود الجمعية، فلن يتحقق بجهود فردية. ويتولد عن ذلك نتيجة منطقية إيجابية هى شعور هؤلاء الأغنياء بالعاطفة الحلوة التي يحسونها عند إغاثة المنكوبين والمحرومين، وبذلك فقد زاوج أسلوب طه حسين في عملية الحجاج بين الإقناع المنطقي، بتقديم مبررات الكتابة، والإقناع العاطفي بالحديث عن الشعور بلذة العطاء.

أما الأصوات الأخرى في العمل الأدبي، فهي فواعل ضمنية يشكِّلها المؤلف، لتتفاعل مع القارئ، وتتمثل في **أصوات الشخصيات** التي تعد جزءًا أساسيًّا من اختيارات الكاتب لتغيير نظرة المجتمع إلى الفقراء. فالمهمشون كلمة تحمل دلالات سلبية في الوعي الجمعي، تشمل العجز والإقصاء والدونية والفقر والإذلال وعدم التكيف مع المجتمع، والانعزال عنه، وقد حاول طه حسين تصوير الضغوط النفسية والاجتماعية التي تتعرض لها الطبقات الدنيا، فقدَّم شخصيات إنسانية واقعية فأحدث عملية موازاة بين الشخصيات المهمَّشة في العالم الفعلي (المجتمع المصري)، والشخصيات المهمَّشة في العالم المتخيل (عالم القص)، فالانتقال

داخل العمل السردي هو في الحقيقة انتقال لتفاعلات الجمهور مع المؤلف ، فالكاتب «يختار أشخاصه على صورته ، ويقتطعهم من نفسه اقتطاعًا...وسيرى القارئ أن صورة أم تمام ليست مني في شيء ، فيدله ذلك من غير شك على أني لم أخترعها ولم ابتدعها..وإنما هي حقيقة واقعة خلقها الله الذي يخلق الحقائق كلها.»(طه حسين ، 2013 ، ص56).

فيوظف طه حسين أصوات الشخصيات لبناء فكرته الأساسية ، فيقول الصياد الفقير في قصة (قاسم): «ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات!»(طه حسين ، 2013 ، ص39) ، متحسرًا على ما فعله الفقر بابنته ، وجلبها العار لهم ، وفي قصة (صفاء) تتكرر عبارة عدم أحقية الفقراء في الشعور بالحب ، فما «ينبغي للفقراء أن يحبوا.»(طه حسين ، 2013 ، ص85)وصوت المعلِّم (يونان) يقول «قد عرفنا الموت الذي هو أقوى من المال والحب جميعًا.»(طه حسين ، 2013 ، ص88)وهو قول يجمل حرمان الفقراء من كل شيء ، المال ، والحب ، والحياة أيضًا ، فالفقراء يشعرون بعدم أحقيتهم في أي شيء ؛ لذا فإن كل القصص التي قدمها طه حسين تنتهي بتيمة متكررة وهي موت الفقير ، فنراه ينهي حياته في النهر ، أو يلتهمه القطار ، وكلاهما يعدُّ رمزًا لتلك الحياة البائسة.

ومما سبق ، فقد أسفرت دراسة خطاب المهمشين في كتاب (المعذبون في الأرض) لطه حسين عن وجود قضية أساسية سعى الكاتب إلى إظهارها للرأي العام الجماهيري وتسليط الضوء عليها ، بدلاً من الخضوع والاستسلام لاستقرارها في المجتمع ، ألا ضرورة وجود التضامن الاجتماعي ، وهو دور منوط بالدولة والأغنياء الموسرين.

من هذا المنطلق أكد طه حسين على دور الأدب والأدباء في الرؤية الإصلاحية للمجتمع ؛ فلا يقتصر دور الأدب على الوظيفة الجمالية فقط ، وإنما يمكن أن يؤدى عدة وظائف خطابية أخرى ، منها الوظيفة التنويرية التي تهدف توعية القارئ بالوضع الاجتماعي والتحذير من خطورته على المجتمع ،إن عملية تأصيل الشعور بالواجب تجاه هؤلاء المهمشين يحتم علينا «إدراك معاناة هؤلاء في ضوء سياقات أكبر من الظروف والملابسات المحيطة بهم.»(John J. Pappas,1975, pp.28-29) فضلاً عن الوظيفة النقدية المتمثلة في انتقاد دور الحكومات والأغنياء تجاه المهمشين ، والوظيفة التأثيرية التي يمكن أن يمارسها الخطاب بإقناع المتلقي واستمالته نحو ضرورة التغيير.

وفي سبيل تحقيق تلك الوظائف التواصلية ، استعان الكاتب بمجموعة من الآليات الخطابية تمثلت في عمليات التأكيد على فكرته الأساسية ، وإظهار التناقضات الحادة في بنية المجتمع عبر آلية التقابل بين طبقتي المجتمع ، وتوظيف عتبات النص في بناء مخطط المسئولية تجاه المجتمع ، وتضفير الخطاب السردي بالخطاب التقريري ، وتكرار الوحدات السردية للتأكيد على صورة المهمشين البؤساء ، وتعدد الأصوات للمناداة بضرورة تغيير أيديولوجيا المجتمع.

قائمة المراجع:

جواد ختام (2016): التداولية أصولها واتجاهاتها ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان.
خديجة غفيري (2012): سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي ، ، أفريقيا الشرق ، المغرب.
- خيري دومة (1998): تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة 1960-1990 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر.
- الصحبي هدوي (2016): الإنشاء بالقول ، مقاربة نحوية تداولية للأوامر والنواهي أعمالاً لغوية ، ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان.
-طه حسين (2013): المعذبون في الأرض ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، مصر.

عبد الهادي بن ظافر الشهري (2015): استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، ج1 ،ج2 ، ط2 ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان.
فيليب بروطون (2013): الحجاج في التواصل ، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، مصر.
- محمد فكري الجزار (1998): العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر.
- محمد محمد يونس علي (2016): تحليل الخطاب وتجاوز المعنى ، نحو بناء نظرية المسالك والغايات ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان.
- محمد مفتاح (2006): دينامية النص (تنظير وإنجاز) ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب.
منية عبيدي (2016): التحليل النقدي للخطاب ، نماذج من الخطاب الإعلامي ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان.
نورمان فيركلوف(2015): الخطاب والتغير الاجتماعي ، ترجمة محمد عناني ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، مصر.
حسين عبد (1985): قراءة في رواية (السيد من حقل السبانخ) أو يوتوبيا عصر العلم ، مج 6 ، ع1 ، فصول مجلة النقد الأدبي (تراثنا النثري) ، القاهرة ، مصر.
طاهر عبد اللطيف عوض (1989): ظاهرة الصراع النفسي في قصص الدكتور طه حسين ، ع7 ، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية (جامعة الأزهر) ، القاهرة ، مصر.
- مجدي أحمد توفيق (2006): أدب المهمشين ، أدب ونقد ، ع 246 ، فبراير ، مصر.
James Phelan (Spring/Summer 2011): Ethics, And Narrative Communication: Or, from Story and Discourse to Resources, and Audiences, Soundings: An Interdisciplinary Journal, Vol. 94, No. 1/2, Published by: Penn State University Press.
James Thomas Zebroski(2006): Social Class as Discourse: Mapping the Landscape of Class in Rhetoric and Composition, Vol. 26, No. 3/4. JAC.
Janet Gabler-Hover(Winter, 1988): "Adventures of Huckleberry Finn," "The Bostonians," and Henry Ward Beecher: Discourse on the Idealization of Suffering , South Central Review, Vol. 5, No. 4, Published by: The Johns Hopkins University Press on behalf of The South Central Modern Language Association.
John J. Pappas(May 1975):Women And Men In The Fiction Of The New World: A Community Of Suffers, CEA Critic, Vol. 37, No. 4, Special Issue: WomenIn Literature And Criticism, Published by: The Johns Hopkins University Press.
Taha-Husayn (2018).Available at: https://www.britannica.com/biography/Taha-Husayn. Accessed date: 03-8-2018.

الحراطين في المتخيل الاجتماعي بواحة فركلة - مقاربة أنثروبولوجية -

the Haratin in the social imagination in the oasis of Farkela

سمير الساعيدي[1]

تتخذ هذه الدراسة من واحة فركلة[2] نموذجها الأساس في البحث، وتنتمي هذه الواحة إلى منطقة الجنوب الشرقي للمغرب (جهة درعة تافيلالت) وتُعرف بأنها مجال حاضن لإثنيات أمازيغية وعربية، أما الفئة المعروفة محليا باسم إقْبْلِيِيْنْ[3]Iqbliyn أو "الحراطين" فإنها تشكل قاعدة المجتمع الفركلي بالنظر لتواجدهم بأعداد غفيرة متفوقين بذلك من حيث العدد عن باقي المكونات الإثنية الأخرى. لكن، على الرغم من التفوق العددي لإثنية "إقبليين" إلا انهم لم يحظوا قديما إلا بنض يسير من الموارد وذلك بخلاف الأحرار من العرب والأمازيغ وكذا الشرفاء الذين حظوا بمكانة اعتبارية - رمزية ودينية -جعلتهم يحتلون قمة الهرمية الاجتماعية.

نهدف من خلال هذه الدراسة الميدانية الأنثروبولوجية لصورة "الحراطين" في المتخيل الاجتماعي بالواحات إلى فهم جانب من العلاقات الإثنية بين فئات اجتماعية مختلفة - في الماضي من حيث موقعها في هرم التراتب الاجتماعي، حيث مثل العنصر "الحرطاني" الجماعة الإثنية الأقلّ حظا تاريخيا، بينما حظي الشرفاء وبعض القبائل الأمازيغية الحاملة للسلاح[4] بمكانة اجتماعية لائقة، أما الأحرار من العرب والأمازيغ فإنهما يتراوحان بين المنزلتين كل حسب ملكيته من الأراضي وحظه من الموارد.

وعطفا على ما سبق سنحاول الإجابة على السؤالين الآتيين:

-كيف ينظر المتخيل الاجتماعي بالواحات إلى العنصر الحرطاني ذي البشرة "السمراء"؟

-ما هي أبرز معالم الثبات والتحول في العلاقات الإثنية بالواحات المغربية الواقعة جنوب شرق البلاد في الوقت الراهن؟

اعتمدنا في هذه الدراسة الميدانية على منهجيتين؛ الأولى تتجلى في اعتماد الإرث الوثائقي والمكتبي الذي دُون بعضه في وثائق محلية (أعراف محلية، وثائق تاريخية، اتفاقيات) لكونه يساهم في إعطاء صورة شاملة حول المجال المدروس.

---

[1] طالب باحث في مختبر دكتوراه التراث الثقافي بجامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية-مدينة القنيطرة/ المغرب.

[2] تقع هذه الواحة بمنطقة الجنوب الشرقي المغربي، وهو مجال حاضن لإثنيات أمازيغية وعربية ولقاعدة كبيرة من إثنيات سمراء تعرف بمسميات عديدة مثل "الحراطين –أو القبالة، وإيسوقيين...إلخ.

[3] هي مجموعة إثنية تتواجد بالمغرب وتسمى كذلك بـ "الحراطين"، أعضاؤها يتميزون ببشرة برونزية وسمراء، عُرف عنهم امتهان الفلح والغرس قديما.

[4] ونقصد بذلك القبائل التي عاشت على حمل السلاح والترحال مثل قبائل أيت مرغاد الأمازيغية التي تنتمي إلى حلف يافلمان وكذلك قبائل أيت عطا المعروفة بتسلطها قديما.

والثانية على تقنية الملاحظة بالمشاركة observation participanteالتي تعد أهم طريقة ومنهج في استجلاء المعلومات بشكل فعّال، والتي تمكن الباحث من فهم المحيط السوسيوثقافي والتاريخي للمجال محل الدراسة.

المفاهيم المفتاحية: المتخيل الاجتماعي، الإثنية، الواحة.

1- **المتخيل الاجتماعي** :يعد مفهوم المتخيل الاجتماعي من بين المفاهيم المتداولة في عدة حقول معرفية: فلسفية واجتماعية وأدبية وهو بذلك مفهوم مفتوح على عدة تأويلات وفقا للحقل المعرفي الذي يُتداول فيه، فالفيلسوف سارتر في مؤلفاته "الخيال" 1936 و"الخيالي" 1940 يعتبر أنه لفهم المتخيل لابد من الانطلاق من الوعي، الذي يعتبر حسبه أحد العناصر الأساسية لفهم المتخيل، فالصورة المتخيلة لواقع معين لا يتم إدراكها إلا من خلال التأمل الانعكاسي، الذي بدوره يخضع لمنهج الوصف التأملي، الذي ينطلق من وصف الصورة المتخيلة قبل أن تكون موجودة في الواقع. بمعنى أنها توجد على نحو مغاير للوجود الذي توجد عليه الأشياء في الواقع.[5]

وثمة تعريف للمتخيل نجده في قاموس علم الاجتماع[6] يشير إلى "عملية استرجاع واستعراض الأفكار والصور والمواقف أو إعادة تنظيمها وتركيبها لتكوين نماذج جديدة". وهذا التعريف يكاد يكون شاملا وجامعا ومعبرا عن ماهية المتخيل الذي وظفناه في هذه الدراسة والذي يشير إلى الآتي:

"المتخيل الاجتماعي هو صورة ذهنية ينتجها العقل البشري في مجتمع من المجتمعات حول الموجودات المجردة والمادية وحول الأفراد. وقد تكون هذه الصور صحيحة وقد تكون خاطئة، لكنها في النهاية تعبر عن مواقف مُدركة وتصورات وقناعات راسخة".

2- **مفهوم الإثنية** :يشير مصطلح "إثنية" - حسب أنتوني جيدنز- إلى مجمل الخصائص والممارسات الثقافية التي تعيشها أو تعتنقها جماعة من الناس، ويتميزون بها عن الجماعات الأخرى، ومنها اللغة والتاريخ، والسلالة (سواء أكانت حقيقية أو متخيلة) والدين وأساليب اللباس والزينة وهي كلها مظاهر قد تميز جماعة إثنية عن أخرى[7].

وبالرغم من شمولية هذا التعريف، فإن السجال حول تحديد مفهوم "الإثنية" Ethnicité قد اشتد بين الباحثين وخلق تشتتا في حدوده بحسب الحقول المعرفية ؛ فالسوسيولوجي البريطاني أنتوني د. سميث مثلا يستخدم مصطلح "إثنيه" ليصف جماعات تشترك في أساطير معينة عن أصلها ومنحدرها، وترتبط برقعة أرض معينة، وتمتاز . في الحد الأدنى . ببعض العناصر الثقافية المشتركة وبوجود إحساس بالتضامن بين معظم أفرادها. ويرى بأن الوعي بالانتماء المشترك هو ما يميز الإثنية عن القوم، لأن القوم جماعة ذات ثقافة مشتركة

[5] سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1992، بيروت، ص 156 - 158

[6] محمد عاطف غيث، قاموس في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، 2005، ص 236- 237

[7] أنتوني جيدنز، علم الاجتماع، تر. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط، 4، 2005 نفسه، ص 312

وأساطير مشتركة عن الأصل ، لكنها تفتقر إلى التضامن كما تفتقر إلى النزوع المقصود للحفاظ على حدودها المميزة[8]. لكن كليفورد غيرتز يقر بان الإثنية هي "المعطى النابع من ولادة الفرد إلى جماعة دينية تتكلم لغة محدودة أو حتى لهجة من لغة وتتبع ممارسات اجتماعية محددة"[9].

وعطفا على ما سبق استخدمنا مفهوم إثنية في هذه الدراسة باعتبارها جماعة بشرية يرتبط أعضاؤها فيما بينهم بنفس العادات والتقاليد والأصل التاريخي والمجال الجغرافي واللغة أو اللهجة ، كما أنهم قد يتميزون بخصائص مورفولوجية متشابهة مثل لون البشرة الذي يشكل أحد المحددات الأساسية في تمييز الجماعات البشرية.

3- **الواحة** :استأثرت الواحات باهتمامات أكاديمية مختلفة وطنيا ودوليا ، ويعبر مصطلح الواحة عموما عن تلك البقعة الخضراء في وسط جغرافي قاحل أو شبه قاحل ، وأصبحت كذلك بسبب وجود الماء والأشجار المُعَمَّرة مثل النخيل ، فيقال استقرت القافلة في واحة من واحات الصحراء: بمعنى في أرض خصيبة في الصحراء فيها ماء وشجر.

وفي معجم المصطلحات الجغرافية يعرف **بيير جورج** Pierre George الواحة باعتبارها جزرا صغيرة للحياة والزراعة في الصحراء مرتبطة بوجود المياه ، ويكون الري[10] حسب **بيير جورج** الشرط المطلق لقيام كل زراعة منتظمة أو كل حياة قائمة ، وتسمى القرية المجمّعة للواحات باسم قُصر Ksar (جمع قصور Ksour) في المناطق القاحلة من افريقيا الشمالية والصحراء الكبرى.[11]

أما الباحث عبد اللطيف بنشريفة Bencherifa ، فيحدد الواحة من خلال اعتبارها: "مجالا منتشرا على بضع المئات من الهكتارات ، تنتشر بها حضارة مائية بمكوناتها التقنية ، كأشكال تعبئة المياه وتوزيعها ونظامها الاجتماعي المتمثل في حقوق المياه وكذلك التوازي بين المورفولوجية الاجتماعية وأشكال توزيع المياه ، ثم العلاقة بين قوانين المياه والتراتب الاجتماعي والهوية الفردية والجماعية[12]. تعتبر الواحات عموما - بحسب تحليل جورج سبيلمان[13] - "مراكز فلاحية مزدهرة أحيانا ، يمارس فيها الأهالي غالبا زراعة ذات مستويات ثلاثة: النخيل ، وتحته بساتين غنية ، وحقول جميلة من الشعير والقمح."

---

[8] - مجموعة مؤلفين ، المجتمع العراقي: حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات ، منشورات معهد الدراسات الاستراتيجية ، بغداد ، مطبعة الفرات للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 2006 ، ص252.

[9] - شفيق الغبرا ، "الإثنية المسيسة: الأدبيات والمفاهيم" ، مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الثالث ، خريف 1988 ، ص44.

[10] وسائل الري حسب بيير جورج متعددة منها: حفر التربة للوصول إلى المياه الجوفية ، الري عن طريق الأنهار والأودية ، الري بمياه السيول ، استعمال مياه الينابيع ، الاستعانة بسحب مياه الآبار بواسطة بكرة أو السحب الحيواني.

[11] بيير جورج ، معجم المصطلحات الجغرافية ، تر. حمد الطفيلي ، مر. هيثم اللمع ، ط 2 ، 2002 ، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ص 891

[12] امحمد مهدان ، الماء والتنظيم الاجتماعي — دراسة سيوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي للسقي بواحة تودغى ، منشورات جامعة ابن زهر أكادير ، 2012 ، ص 12

[13] جورج سبيلمان ، **أيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا** ، تر+ تقديم امحمد احدى ، ط 2 ، 2011 ، كلية الآداب ، جامعة ابن زهر ، أكادير ، ص 34

من خلال هذه التعاريف يمكن صياغة المعنى الاجرائي التالي:

"الواحة هي تعبيرعن **مجال جغرافي** يرتكز على جود الماء داخل بيئة شبه صحراوية ، وتحتضن هذه المجالات **مجموعات إثنية** وقبلية ذات انحدارات عرقية مختلفة. وهو ما يجعلها فضاء **تفاعل إثني** بامتياز وتشكل **الأرض** المحور الأساس في العلاقات الإثنية في المجالات الواحية." (أنظر الشكل)

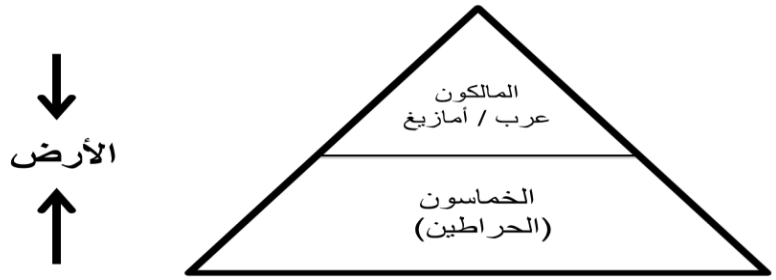

تشكل الأرض محور تجاذبات اثنية (بين المالكين والخماسين) عبر تاريخ المجال الواحي بفركلة، وهذه العلاقة أرخت بظلالها على كافة مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الماضي ولا تزال لها انعكاسات مباشرة وغير مباشرة على بنية العلاقات الاجتماعية العامة بين الواحيين في الوقت الراهن.
لا يمكن فهم العلاقات الاثنية (المعقدة) بدون استحضار ما للأرض من رمزية وقيمة تاريخية في مجالات «الندرة» هاته.

تتخذ هذه الدراسة من واحة فركلة نموذجها الأساس في البحث ، وتنتمي هذه الواحة إلى منطقة الجنوب الشرقي للمغرب (جهة درعة تافيلالت) وتعرف بأنها مجال حاضن لإثنيات أمازيغية[14] وعربية[15] ، أما الفئة المعروفة محليا باسم **إقْبْلِيِيْنْ Iqbliyn**"الحراطين" فإنها تشكل قاعدة المجتمع الفركلي بالنظر لتواجدهم بأعداد غفيرة متفوقين بذلك من حيث العدد عن باقي المكونات الإثنية الأخرى. لكن ، على الرغم من التفوق العددي لإثنية "إقبليين" إلا انهم لم يحظوا قديما إلا بنض يسير من الموارد. وذلك على خلاف الأحرار من العرب والأمازيغ وكذا الشرفاء الذين حظوا بمكانة اعتبارية رمزية ودينية جعلتهم يحتلون قمة الهرمية الاجتماعية.

وكسائر المجتمعات ، خضعت الواحات لمجموعة من التحولات السوسيو اقتصادية نتج عنها انهيار نظام التراتب الاجتماعي ، كما هاجرت أعداد من "الحراطين" صوب أوروبا فمكنتهم هجرتهم تلك من اقتناء الأراضي وإحداث دينامية في السكن العصري كما حدث نوع من الحراك من لدن الحراطين الذين تعاطوا "للخِمَاسة" حيث قاموا "برمي فؤوس الخماسة"[16] في عدد من المناطق وغادروا الواحات بأعداد كبيرة من أجل العمل في المعامل والموانئ والمقاولات تاركين الأراضي لملاكها. لكن ، قبل أن يشهد المجال الواحي هذه الدينامية المتجسدة فيما أشرنا إليه سالفا - من انهيار لنظام التراتب الاجتماعي القائم على الميز الإثني إلى الهجرة

[14] نميز هنا بين قبائل أيت عطا وأيت مرغاد وفئة أخرى تعرف باسم إيمازيغن ، وهي جميعها إثنيات تحتضنها واحة فركلة.
[15] يعرف عرب واحة فركلة بمسمى آخر هو: إيكرامن أو المرابطون ، وظيفتهم الأساس التوسط في حل النزاعات بين القبائل بالإضافة إلى اضطلاعهم بأمور دينية مثل تحفيظ القرآن في الكتاتيب وكذا الأوراد والاحاديث النبوية.
[16] عبارات ذات حمولة ثقافية قوية وهي تعني باللغة الامازيغية (إكْلْزَامْ نْ تْخْمَّاسْتْ بمعنى فْؤُوس الخِماسة)

والحراك الجماعي والفردي- فقد كانت هناك مظاهر الميز والتهميش الممارس تجاه الحراطين استوجب المنطق رصد ملامحها لأن لها انعكاسات وآثار على العلاقات الإثنية في الوقت الراهن بفركلة. لكن قبل ذلك يتوجب علينا التساؤل حول الحراطين وأصولهم.

من هم الحراطين ؟

من المؤكد أن الوقوف عند دلالات مصطلح "إحرطان" أو"الحراطين" سيسهم كثيرا في فهم الفئة التي يشملها وتندرج ضمنه. وهو مصطلح اختلف حوله جل الباحثين في الدراسات التاريخية والسوسيولوجية التي تعرضت له ، إذ تضاربت الآراء وتنوعت في تحديد معانيه ، كما تضاربت وتنوعت في تحديد تاريخهم (أي الحراطين) وتاريخ تعميرهم بالمغرب.

إن تاريخ الحراطين يلفه الكثير من الغموض والتعقيد الناتجين عن تهميشهم في كتابات المؤرخين القدامى والجدد ، والذي قد يعزى سببه إلى ضعف مشاركتهم في واجهة الحياة السياسية والاقتصادية بالمنطقة والبلاد ، وإن كانوا ينحدرون .في الأساس .من جيش عبيد البخاري الذي ارتبط الحديث عنه بسياسة السلطان العلوي المولى اسماعيل ، ومن العبيد الذين ذكروا غير ما مرّة في أبحاث الرحالة والأدباء وبعض المؤرخين الذين تعرضوا بالحديث لتجارة الرقيق.

فما هي حقيقة مصطلح حرطاني وأهم مرادفاته؟ وما هي أهم خصائصه ومميزاته الاجتماعية؟ وهل يشكل في صفته الجماعية فئة منصهرة أم هوية مستقلة؟

إن جماعة "الحراطين" لا تعد . حسب توصيف المؤرخ إبراهيم حركات . لغزا تاريخيا يتجاوز قضية العنصر البربري[17] فحسب ، بل وهو أيضا لغز اجتماعي يتجلى من خلال تعدد المرادفات التي أعطيت للـ"**حرطاني**"، إذ يسجل "نيقولا ف.ج" أنه سمي أيضا بـ **كحلوش** بقسطنطينة وبـ **العطربة** في غدامس. كما سجل الباحث **دارد** أن الموريتانيين نعتوا سودها بمصطلح **بوروني**، وسجل اللساني **كازميرسكي** مرادفا آخر وهو **كافور** والذي أطلقه العرب على العبيد السود[18].

وفي الواقع ، إن المرادفات للفظة "حرطاني" تتجاوز ما سبق ذكره بكثير ، إذ تستخدم له مرادفات أخرى في مناطق متنوعة من المغرب ، ففي بعض المناطق يستخدم مصطلح "أقبلي" ، وفي بعضها مصطلح "أسوقي" من السوق والتسويق ، وفي بعضها الآخر يستعمل الناس مصطلحات للتمييز بينهم وبين "الملونيين" من الحراطين أو العبيد ، مثل: "عزي/ العزوة ، أو مورينو في شمال المغرب وما إلى ذلك من التعابير والنعوت والتوصيفات التي تضع تمييزا بين الأنا "الأبيض" والآخر "الملون".

وإذا كانت دلالات مصطلح "الحراطين" غنية وزاخرة تبعا للأقاليم والمجالات التي تحتضن وجودهم ، فإن تحديد هوية هذا العنصر لا يزال يلفه الغموض ، ويحتاج إلى مزيد من التوضيح ، فبينما يستخدم بعض الدارسين مصطلح "الحرطاني" للتعبير عن كل أسود بشمال أفريقيا حيث يصبح بذلك مرادفا للأسود والزنجي

---

[17] إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، ج1 ، دار الرشاد الحديثة ، طبعة 2000 ، ص 23

[18] مجموعة من الباحثين (ندوة): "الرق في تاريخ المغرب" ،مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني حسن ، تنسيق عبد العزيز عينوز ، عبد العزيز بل الفايدة ، محمد الغرايب ، 2010 ص 225/222

والخلاسي ، فإن "ج. بيسون" في كشافه يطلعنا "أن الحرطاني هو خلاسي ينحدر من زواج رجل أبيض بامرأة سوداء كما أن ابن الحرطاني من الحرطانية هو كذلك حرطاني"[19].

وهناك من يربط المفهوم بالجدر "**حرث**" ، فالحراطين أو الحراثين[20] بناء على هذا التصور هم المباشرون للأرض ولأعمال الزرع والفلح ، لكن بفعل تغير الأحوال وتبدل اللسان مع مرور الزمان ؛ استبدلت الثاء طاء نظرا لثقل الأولى فأصبح "الحرث" "حرطا" والحراثين حراطينا ، ونجد تصورا آخر يربط المفهوم (الحراطين) بالوضعية الاجتماعية للفئة التي تندرج فيه ، فهو مشتق من "حرّ ثان" أو الحر من الدرجة الثانية. ليصبح بذلك "الحراطين" أحرارا ومواطنين ثانويين[21].

وعلى الرغم من صعوبة القبض على الأصل الصحيح للفظة "حرطاني" ، فأن بعض الباحثين حاول تحديد شخصية "الحرطاني" من خلال أوصاف وخصائص جسدية واجتماعية ونفسية تميزه ؛ مثل ابراهيم حركات الذي يرى بأن "الحراطين" هم فئة متميزة ببشرتهم البرونزية وأكفهم البارزة من الداخل وبدقة تقاسيمهم ، ويمتازون بروح العمل والمهارة في تزيين الحدائق وفن الغراسة ، وتلاحظ فيهم طبيعة الصدق والصراحة والقناعة ، وهي مجموعة من الفضائل التي يندر أن تتوفر في غيرهم من العناصر. وقد يكونوا منحدرين . بحسب رأي بعض العلماء . من الجنس الأثيوبي أو جماعة الجيتول الذين استقروا بالصحراء منذ آلاف عديدة من السنين[22].

ومن جهة أخرى ، ارتأت مجموعة من الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية ضرورة وضع تمييز بين الحراطين والعبيد باعتبار أن الفئة الأولى في وضع أفضل في قاع الترتب الاجتماعي مقارنة بالثانية ، فلو عدنا . على سبيل المثال . للمجتمع الصحراوي بالمغرب ، سنجده في عمقه مجتمعا قبليا قائما على التراتب في المكانات الاجتماعية ، يحتل بنو حسان (حَمَلَةُ السلاح) قمته ، ويتموقع بجانبهم أهل الزوايا المطلعون بالشأن الثقافي والعلمي ، بينما الفئات التابعة من حرفيين ومغنيين (زفانين) ورعاة وحراطين وعبيد يشكلون فئات تابعة[23] ، يختلف فيها وضع "الحرطاني" نسبيا عن وضع "العبد" ، لأنه كلما تم تحرير عبد إلا وتحول إلى حرطاني. إلا أن هذا الترقي ليس إلا ترقيا صوريا ، إذ لا يجعل العبد بصيغته الجديدة مستقلا بشكل نهائي عن اولئك الملاك القدامى ، وإنما يتحول إلى تابع ضمن المشكلين لحلفاء للقبيلة ، وفي هذا يقول "ألبيرت كريش": "إن الرابطة

---

[19] مجموعة من الباحثين (ندوة): "الرق في تاريخ المغرب" ،مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني حسن ، تنسيق عبد العزيز عينوز ، عبد العزيز بل الفايدة ، محمد الغرايب ، 2010 ص 223

[20] علال الفاسي في كتابه منهج الاستقلالية ، نقلا عن الأستاذ محمد باكيلي ، مقال له بعنوان ؛ الحراطين ثقة أم خلق لا يستحق التقدير ، بتاريخ/ 18 أبريل/ 2018 بالموقع الالكتروني: www. kiffainfo.net

[21] عبد الصمد الديالمي ، الجدران اللامرئية للعنصرية ضد السود في المغرب ، بتاريخ: 12 فبراير 2017 بموقع : www. Alawan.org

[22] - إبراهيم حركات المغرب عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص 23.

[23] - محمد دحمان ، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب ، مطبعة كوثر ، الرباط ، 2006 ، ص 124- 146.

التي تجمع على الدوام بين السيد والحرطاني هي تحالف دفاعي وهجومي في نفس الآن ، ذلك أن قطع تلك العلاقة ليس من صالح أي أحد من الطرفين"[24].

وفي واحات الجنوب الشرقي المغربي ، يلاحظ أن نظام التراتب الاجتماعي القائم يضع الحراطين في وضع أدنى من العبيد خلافا لما هو الأمر عليه في جنوب البلاد. وقد يعود الأمر في ذلك إلى اضطلاع أو تفرغ عبيد الواحات مبكرا إلى الوظائف الإشفائية مستفيدين من انتمائهم الرمزي إلى بلال بن رباح مؤذن رسول الإسلام ، مما منحهم مكانة اعتبارية رمزيا داخل المجالات الواحية ، فجعلهم ذلك يحصلون على هبات وهدايا مقابل بركتهم التي تتجلى غالبا في تخليص الناس من مس الشياطين وإقامة طقوس تعبدية صوفية كإحياء ليال كناوية.

لقد كانت هذه أهم وظائف عبيد الواحات بعد توقف تجارة الرقيق ، بينما لم يكن بيد الحراطين رموز تحتمي بها ، فظلت معتمدة على قوة سواعدها ومباشرة الأرض مقابل خمس أو سدس الانتاج في أراضي القبائل القوية: أيت عطا و أيت مرغاد وفئات إيمازيغن الإثنية.

من خلال ما سلف ، يمكن التمييز بين فئتي العبيد والحراطين ، باعتبار أن العبيد قد أوجدوا لأنفسهم شجرة نسب يربطون بها أنفسهم ، بينما لم يجد الحراطين ما يستندون إليه في أصولهم وتاريخهم ، تماما كحراطين قرية المنشية التونسية التي تحدث عنها الجويلي الذي يرى أن أهم مواطن ضعفهم هو فقدانهم لشجرة نسب يستندون عليها في المواجهات التي تحدث بين المجموعات في اثبات الهوية[25]. لكن رغم ذلك ، فإن ثقافة الواحة تتجه في عمومها الى اعتبار كل أسود "ملون" حرطانيا ، أي مواطنا هامشيا مقارنة بالإنسان "الأبيض" ذات الامتيازات الكثيرة.

نظرة المخيال الاجتماعي إلى العنصر الحرطاني

يشكل الحراطين مجموعة إثنية ذات مكانة اجتماعية منخفضة بالنظر لامتهان أعضائها -على نطاق واسع - لمهن تبدو في عرف القبائل الحاملة للسلاح المعتمدة على الترحال منحطة وذليلة. وتعد خدمة الأرض أهم المهن التي عني بها الحراطين بالواحات قديما وحديثا حيث برعوا في فنون الغرس وكل ما له علاقة بمجال الفلْح ، بيد أن النسبة الكبيرة منهم فقدت أراضيها خلال فترات تاريخية سابقة لتضطر إلى الاشتغال في أراضي المالكين الجدد الذين استولوا على الأرض إما عن طريق حمل السلاح أو بطرق أخرى.

يعبر لفظ الخِمَاسَة / بالأمازيغية **"تاخمّاسْت"** عن نظام طبقي بين فئتين ؛ الأولى مالكة للأراضي بينما الثانية لا تمتلك الأرض ، ويقوم نظام الخماسة على أساس وهب المالك الأرض لفلاح بلا أرض والأخير يشتغل بقوة عمله مقابل نسبة محددة من المحصول يقدر في الغالب بالخمس. ومن هنا جاءت تسمية نظام الإنتاج هذا بالخماسة ، بينما الفلاح الذي لا يملك الأرض يدعى خماسا "أخمّاسْ" ، وبالنظر لكون معظم الخماسين من

---

[24] -- مجموعة من الباحثين (ندوة): "الرق في تاريخ المغرب" ،مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني حسن ، تنسيق عبد العزيز عينوز ، عبد العزيز بل الفايدة ، محمد الغرايب ، 2010 ص 178

[25] - محمد الجويلي ، سود الواحات دراسة سوسيوأنثروبولوجية في استراتيجية المعنى ، أطروحة دكتوراه ، جامعة تونس ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، شعبة السوسيولوجيا ، السنة الجامعية 2000-2001 ، ص 37

إثنية الحراطين قديما فقد ظلت الخماسة في المتخيل الاجتماعي بالواحات لصيقة بهذا العنصر اكثر من سواه. غير أن مشكلة نظام الخماسة أنه يقوم على الاستغلال ، بحيث أن وضعية الخماسين بالواحات ظلت أبد الدهر متأزمة ، فرغم المجهودات التي تبدل من لدن الخماسين إلا ان حصادهم في النهاية هزيل مقارنة بما يحصل عليه المالكون ، أضف إلى ذلك أن وضعية الخماسة تلك أرخت بظلالها على صورة الخماسين أنفسهم وأضرت كثيرا بمكانتهم الاجتماعية ، بحيث يظهرون وكأنهم بلا أي قيمة تذكر. بل إن لفظة الخماس في الوقت الراهن تستخدم في التفاعلات الاجتماعية لتذكير شخص ما بتاريخه أو الحط من قدره وقيمته. بمعنى أن لها استعمالات أخرى تحمل حمولة عنصرية بسبب ما تعبر عنه اللفظة من دونية.

بحسب نتائج تفريغ المقابلات - وبحكم تعايشنا في المنطقة محل الدراسة- ، فقد كان لاطلاع معظم اقبليين "الحراطين" قديما بخدمة الأرض[26] مقابل خمس المحصول[27] دور كبير في النظر إلى هذه العناصر بنوع من الازدراء والاحتقار من لدن أعضاء القبائل الأمازيغية القوية مثل أيت مرغاد وأيت عطا[28] تلكم القبائل اعتمدت في معاشها قديما على الترحال والرعي ويعد حمل السلاح رأسمالها الحقيقي فبه تُغِيرُ وتَهْجُم وبه تدافع عن مصالحها وتذود عنها. وكان حمل السلاح واستراتيجيات الدفاع والهجوم الذي ميز تاريخ هذه القبائل قد منها شهرة وأكسب أفرادها إحساسا بعظمة الانتماء وفخره ، فأدى بهم ذلك إلى الانغلاق تحصينا لمكتسباتهم الرمزية والمادية ولهويتهم الاجتماعية "المرموقة". كما قادهم الانغلاق ذاك إلى رسم معالم من الصور النمطية تجاه العناصر الحرطانية التي تعيش معها جنبا إلى جنب في المناطق التي يحتلونها اليوم وكان من نتائج ذلك أن تكونت حدود وفواصل إثنية صارمة بالواحات تمنع قيام الزواج المختلط[29] أو أي روابط بين- إثنية عميقة.

كما ظل وضع "الحراطين" هامشيا من الناحية الاجتماعية والنفسية وتزداد الهامشية الاجتماعية لهذه الفئة اقصاء لعدم وجود شجرة نسب يستندون عليها في صراع الهويات الاجتماعية الذي يحصل في الواحات[30]. حيث ظلت الأصول التاريخية والاثنية لهذه الفئة تشكل - بتعبير المؤرخ المغربي إبراهيم حركات - لغزا تاريخيا يتجاوز قضية العنصر "البربري" نفسه[31]. أمام هذا الأمر الواقع فَقَدَ الحراطين هويتهم الحاضنة وتفرقوا في الواحات واختلطوا مع عناصر أمازيغية وعربية لكنهم لم يندمجوا بعد مع هذه العناصر بالنظر لما طالهم من ميز يصل في كثير من الأحيان إلى العنصرية.

---

[26] نقصد هنا بخدمة الأرض ؛ العمل في أراضي المالكين على اعتبار أن معظم أعضاء جماعة إقبليين بواحة فركلة ظلوا يعيشون بدون ملكية للأراضي وهو ما جعل وضعهم الاجتماعي والاقتصادي في غاية التردي.

[27] تسمى هذه المهنة باللغة الأمازيغية المحلية للأهالي "بتاخماست" يرادفها بالعربية لفظ "الخِماسة" أما ممتهن هذا العمل فيسمى خمّاسا. وبالأمازيغية "أخمّاس" ، ويطلق أيضا هذا اللفظ للحط من قدر الشخص.

[29] يعد الزواج المختلط مع الحراطين خطا أحمر بالواحات

[30] محمد الجويلي ، سود الواحات دراسة سوسيوأنثروبولوجية في استراتيجية المعنى ، أطروحة دكتوراه ، جامعة تونس ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، شعبة السوسيولوجيا ، السنة الجامعية 2000-2001 ، ص 37

[31] إبراهيم حركات ، **المغرب عبر التاريخ** ، ج1 ، دار الرشاد الحديثة ، طبعة 2000 ، ص 23

لقد كان الميز الذي يتعرض له الحراطين في الماضي يطال مساكنه ولباسهم وتقييد تصرفاتهم كما أن العرف المحلي بدوره اتجه إلى إبعادهم عن المشاركة الاقتصادية وعن تدبير الشؤون الجماعية بالواحات[32]، كما أن العرف يميز بشدة بين شرائح المجتمع ويضع الحراطين في موقع الدونية " وأما من قتل حرطاني فنصابه عشرة مثاقيل .. وإن جرحه فنصابه مدين شعير للقبيلة"[33]. هذا علاوة على إخضاعهم للمراقبة الدقيقة التي تستوجب العقاب مع ابسط تراخ معها سواء أكان هذا التراخي من طرف الخماسين أو من طرف بعض الملاك أنفسهم. كما أن الحراطين يتعرضون للكثير من مظاهر السخرية بسبب لون بشرتهم "السمراء" وبسبب لهجتهم، وهناك أمثال شعبية تصور الحراطين بأنهم عنوان الغباء والسذاجة تفوح من اجسامهم رائحة كريهة.[34]

لقد كانت نظرة المخيال الاجتماعي بالواحة عموما تجاه الحراطين نظرة سلبية قائمة على الميز والاحتقار ورسم الحدود والقيود مع أعضاء هذه الفئة باعتبارهم فئات هامشية في المجتمع الواحي. لكن، هذا الوضع أندر مع مرور الوقت وتحولات الزمان بعلاقات متباعدة ومعقدة بين الاثنيات، حيث أن انهيار نظام التراتب الاجتماعي جعل العلائق الاثنية في الواحات اليوم أكثر تعقيدا، بالنظر للدينامية التي تحققت للعنصر الحرطاني الذي أخذ أعضاؤه حظهم من الموارد والسلطة في تدبير الشأن العام بالواحات. وهذا الوضع الجديد جعل العلائق الاجتماعية أفقية بعد أن كانت فيما مضى عمودية بسبب التراتب الاجتماعي القائم.

كيف ينظر إلى الحراطين في الوقت الراهن ؟

يقول الباحث المغربي محمد أعفيف[35]: "لاحظ نادر معروف أن المالكين القدامى (شرفاء، مرابطون، وعامة) ساءت أحوالهم الاقتصادية بعد أن اختل ميزان التعامل لصالح الحراطين الذين أضحوا بالتدريج مالكين لوسائل الإنتاج ومحددين لشروط التعاقد، وهذا ما حمل المالكين على كراء أراضيهم ومواردهم من الماء بدل زرعها بأنفسهم بسبب استنكافهم عن القيام بأعمال يعتبرونها من اختصاص من هم ادنى مكانة"[36]

مما لا جدال فيه أن وضع الحراطين قد تغير في واحة فركلة كما هو الحال في واحات أخرى، لكن الاشتغال على حالة واحة فركلة مكننا من النظر إلى هذه التحولات من زاويتين هامتين ؛ داخلية وخارجية.

العوامل الداخلية: تجلت في وجود نوع من الحراك الداخلي من لدن الحراطين الناتج عن ارتفاع منسوب الرفض لأوضاع الخِمَاسة نحو ضرورة التحرر من التبعية الاقتصادية الناجمة عن عدم ملكية الأرض، وهذا الامر مكّن الحراطين في بعض المناطق من "التمرد" بحثا عن التغيير على نحو ما نجد بمنطقة قصر الخربات[37]

---

[32] مستجوب: 60 سنة، مستشار جماعي سابق بجماعة فركلة السفلى، ينتمي إلى قصر الخربات (واحة فركلة)

[33] Larbi Mezzine, **contribution a l'histoire du Tafilalt**, publications de la Faculte des Lettres et des Sciences Humaines - Rabat, 1987, p 325

[34] من خلال جمعنا للتراث المحلي الشفوي اكتشفنا وجود تراث ذي طابع عنصري إثني سواء بواحة فركلة أو في الواحات القريبة منها.

[35] محمد أعفيف، **توات**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 70، ص 152

[36] Nadir Marouf lecture de l'espace oasien, la bibliotique arabe Sindibad, p 218

[37] يعد هذا القصر من ضمن التجمعات السكنية المهمة الذي يأوي مجموعتين إثنيتين متمايزتين: الأولى ملكت البلد قديما وتدعى "أيت مرغاد" والثانية عمل أفرادها بقوة سواعدهم باعتبارها خماسين، مقابل خمس المحصول. وجميعهم أعضاء المجموعة الثانية من إثنية إقبليين أو الحراطين.

Ksar El khorbat بواحة فركلة ؛ حيث تمرد الحراطين وأجمعوا أمرهم على "رمي فؤوس الخماسة" بشكل نهائي وحاسم بسبب المضايقات وشدة الميز الذي يتعرضون له من قبل أعضاء من قبيلة أيت مرغاد الذين يتقاسمون معهم نفس المجال[38]. ولا يزال هذا القصر إلى يومنا هذا بؤرة توتر إثني رغم ما يظهره صوريا من مظاهر التعايش بين الاثنيتين بسبب قوة الرواسب الثقافية[39] بالإضافة إلى كون هذا المجال قرويا لم تحدث فيه دينامية هجروية من شأنها محور الحدود وتغيير الطباع.

العوامل الخارجية: بواكر العوامل الخارجية تجلت في دخول الاستعمار الذي مكن المخزن فيما بعد من إحكام سلطته على هذا المجال الذي كان قبل ذلك منطقة تسيّب. يهيمن فيه العُرف على كافة مناحي الحياة. ويعد العنصر الحرطاني أبرز الاثنيات التي استفادت من إحكام المخزن لقبضته على المجال السائب ، فإذا كان وجود - الحراطين - بالواحات يستند على التمييز والمكانة الاجتماعية المنخفضة فإن ذلك بدأ بالتغير مع بروز فئة مثقفة ونخب حزبية بالإضافة إلى هجرة الحراطين إلى الخارج بأعداد كبيرة. لكن رغم سيادة قانون الدولة إلا أن العُرف ظل معششا في الذهنية مقاوما لأي تغيير ، وهذا ما يظهر في تحليل العلاقات التفاعلية بين الاثنيات اليوم ، والتي تفترض مبدئيا أن كل فرد يعرف مكانته مسبقا وبالتالي يعرف ما له وما عليه في علاقته بالآخر.

تأثير الرواسب القديمة على بنية العلاقات الجديدة

ما من شك أن المجال الواحي قد خضع لجملة من التحولات سواء على مستوى بنائه الفيزيقي وعلى مستوى بنيانه الاجتماعي والثقافي كذلك ، بحيث أن الهرمية الاجتماعية بين الاثنيات لم تعد موجودة بالشكل الذي كانت عليه في الماضي ، فقد أخذ أعضاء من الاثنية الدنيا بأسباب الحظوة الاجتماعية خاصة عبر الهجرة نحو أوروبا وكذا التوظيف في المناصب العليا علاوة على ظهور نخب مثقفة اقتحمت مجال الممارسة الحزبية التي مكنتها من المشاركة في تدبير الشؤون العامة بالواحات[40]. كما أن لعامل الجفاف دور كبير في القضاء على ظاهرة الخماسة خصوصا وأن واحة فركلة تنتمي إلى مجال شبه صحراوي قاحل يعيش ندرة الماء ، فكان لتوالي فترات الجفاف أثر بالغ في تفكير عدد من الحراطين في الهجرة. وهو ما مكنهم في النهاية من تحقيق دينامية كبيرة في المجال الواحي عبر ما توفر لعدد منهم من ترقّ اجتماعي.

لكن ، رغم من هذه الدينامية الا ان الرواسب الثقافية تظهر من حين لآخر معبرة عن واقع العلائق الإثنية في الواحات ، إذ يظل الحرطاني هامشيا حتى ولو ترقى اجتماعيا واقتصاديا في منظور الجماعات الإثنية العربية

---

[38] مقابلة جماعية لشيوخ من قصر الخربات من ضمنهم السيد - علي هروان - الذي قاد تمرد الحراطين في أواخر سبعينيات القرن الماضي.

[39] قمنا بتحليل بعض الوثائق العرفية المحلية والتي تبين وجود تمييز عنصري خطير تجاه الحراطين بقصر الخربات ، وكان نص الوثائق يدعوا المالكين إلى منع الحراطين من امتلاك الاراضي وحرمانهم كذلك من ملكية الأبقار.. كل ذلك من أجل أن تظل تبعية الحراطين مستمرة للمالكين.

[40] قمنا بتحليل مونوغرافية عامة حصلنا عليها من جماعة فركلة السفلى الإدارية ، ومن خلال المجالس الانتخابية المتعاقبة على هذه الجماعة اكتشفنا تنامي اعداد المتحزبين من الحراطين ، وأغلبهم اختار حزب الاستقلال . في الوقت الذي عبر فيه حزب الحركة الشعبية عن القبائل الامازيغية التي انخرطت فيه بقوة.

والامازيغية. وهو ما يظهر خصوصا في رفض المصاهرة مع الحراطين ومقاومة أي اندماج معهم، كما ان الرواسب الثقافية تحضر أحيانا على شكل نكات أو منزلقات لغوية عن وعي أو غير وعي في التفاعلات الاجتماعية بين الناس في الواحة معبرة عن رفض الحرطاني واحتقاره.

إن وجود توترات اثنية مخبوءة ومعلنة في آن هو واقع معيش في الواحات الواقعة جنوب شرق البلاد، إذ يصعب القطع مع الممارسات والبنى الفكرية القديمة خصوصا أن المجالات الواحية بالجنوب الشرقي تفتقر إلى تنمية حقيقية قادرة على انتشال المجال من مظاهر التقليد والجمود الثقافي.

ببليوغرافيا

أنتوني جيدنز ، علم الاجتماع ، تر: فايز الصياغ ، عن المنظمة العربية للترجمة ، ط 1 بيروت تشرين الأول (أكتوبر) 2005

إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، ج1 ، دار الرشاد الحديثة ، الطبعة السادسة ، 2000

امحمد مهدان ، الماء والتنظيم الاجتماعي – دراسة سيوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي للسقي بواحة تودغى ، منشورات جامعة ابن زهر أكادير ، 2012.

بيير جورج ، معجم المصطلحات الجغرافية ، تر. حمد الطفيلي ، مر. هيثم اللمع ، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ط 2 ، 2002 ،

جورج سبيلمان ، أيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا ، تر+ تقديم امحمد احدى ، ط 2 ، 2011 ، كلية الآداب ، جامعة ابن زهر ، أكادير

سعيد توفيق ، الخبرة الجمالية ، دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1 ، 1992 ،

شفيق الغبرا ، الإثنية المسيسة: الأدبيات والمفاهيم ، مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الثالث ، خريف 1988

- محمد الجويلي ، سود الواحات دراسة سوسيوأنثروبولوجية في استراتيجية المعنى ، أطروحة دكتوراه ، جامعة تونس ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، شعبة السوسيولوجيا ، السنة الجامعية 2000-2001 .

- محمد عاطف غيث ، قاموس في علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، 2005 ، ص 236- 237

مجموعة مؤلفين ، المجتمع العراقي: حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات ، منشورات معهد الدراسات الاستراتيجية ، بغداد ، مطبعة الفرات للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 2006 ،.

محمد أعفيف ، توات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 70

محمد دحمان ، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب ، مطبعة كوثر ، الرباط ، 2006 ، ص 124- 146.

مقالات علمية:

عبد الصمد الديالمي ، الجدران اللامرئية للعنصرية ضد السود في المغرب ، بتاريخ: 12 فبراير 2018 بموقع :www. Alawan.org

علال الفاسي في كتابه منهج الاستقلالية ، نقلا عن الأستاذ محمد باكيلي ، مقال له بعنوان ؛ الحراطين صفة أم خلق لا يستحق التقدير ، بتاريخ/ 18 أبريل/ 2018 بالموقع الالكتروني www. kiffainfo.net

محمد دحمان ، "التراتب الاجتماعي في المجتمع الصحراوي/ مكانة الرقيق" ، مداخلة بندوة بعنوان "الرق في تاريخ المغرب" نظمها مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني حسن ، تنسيق عبد العزيز عينوز ، عبد العزيز بل الفايدة ، محمد الغرايب ، 2010

Larbi Mezzine, contribution a l'histoire du Tafilalt, publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Rabat, 1987,

ثقافة المرأة العاملة وتضارب أدوارها في المجتمعات العربية دراسة في الواقع

The working women's culture and her conflicting roles in the Arab Society

د.إيمان حرفوش ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة- الجزائر

مقدمة:

مما لا شك فيه أنَّ تأثيرات و انعكاسات التقدم و ثورة المعلومات التي نعيش في ظلها ، و خروج المرأة لمجال العمل طالت مختلف جوانب الحياة الثقافية و السياسية و الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربي ، وشملت مؤسساته البنيوية جميعها.

وعليه تزايدت في الآونة الأخيرة نسبة النساء العاملات تماشياً مع متطلبات العصر الحديث ، حيث إنَّ العمل أصبح من أولويات الأمور التي تفكر بها المرأة بغرض تحقيق كثير من مطالب الحياة المستجدة ، في حين كان عمل المرأة الأوّل هو رعايتها لأولادها وشؤون بيتها ، هذه الوظيفة الفطرية ، و أمَّا عملها خارج البيت فلمْ يكن إلاَّ لضرورة قصوى تلبية لاحتياجات الأسرة المتزايدة أو في ظل غياب المعيل.

أمَّا في ظل العولمة فلمْ يعد العمل مجرد مسألة عول ، بلْ أصبح من أولويات حياة المرأة ، لاسيما بعد التخرج من الجامعة ، و لأنَّ هدف الخروج للعمل والغاية منه تغيرت بتغير الزمن ، فإنَّ النساء العاملات أصبحن لا يستغنين عنه أبداً لأنَّه وسيلة لتحقيق الذات ، وكسب المال ، وتوسيع نطاق العلاقات الاجتماعية.

و مع مرور الوقت أصبحت المرأة تلعب دورا لا يقل أهمية عن الدور الذي يقوم به الرجل في عملية التنمية الشاملة لمختلف النواحي.

فالمرأة تعتبر أهم عنصر تأثيراً قي حياة الأفراد ، فهي تساهم في تشكل أهم وحدة بنيوية أساسية تتمثل في الأسرة التي تنشأ عن طريقها مختلف التجمعات الاجتماعية و تقوم بدعم وبناء المجتمع وتمدّه بأسباب البقاء والنماء ، وبقدر ما تكون سليمة يكون المجتمع قوياً وسليماً.

فالأسرة تعد الخلية الأولى و البيئة الطبيعية التي ينتمي و يعيش فيها الفرد و يمر من خلالها بمراحل عمرية مختلفة تبدأ من مرحلة الطفولة ، ثم مرحلة المراهقة ، ثم سن الرشد ، ثم مرحلة الشيخوخة ، فيكتسب من خلالها الفرد القدرة على تكوين شخصيته بوصفها أول وأصغر منظمة اجتماعية في حياته ، و وسيلة طبيعية لإشباع جميع حاجياته(حسن علي حسن ، 1991).

والملاحظ أنَّ معظم حكومات الدول العربية ليس بوسعها الوفاء بالحاجات الأساسية لمواطنيها ، الأمر الذي يجعل الأسرة مستعدة لتلقي ما يتمخض عن خروج المرأة لمجال العمل و تعدد أدوارها لتقوم بالأدوار التي تلائمها في كافة مجالات الحياة .

1-مشكلة الدراسة:

أصبحت تشكل المرأة طرفاً واضحاً في المجتمع ، لاسيما بعد أن خرجت إلى العمل ، وتضاربت أدوارها داخل الأسرة و خارجها ، حيث أثر التقدم الصناعي وثورة المعلومات والاتصالات التي نعيش في ظلها في تخلي الأسرة عن عديد من وظائفها لصالح مؤسسات وهيئات دولية لا تستطيع الدول العربية مراقبتها أو التحكم بها ،

فسارت وظائف الأسرة الإنسانية على نفس الطريق الذي سار عليه تطور نطاق الأسرة عبر تاريخها الطويل.(أحمد بيري الوحيشي وعبد السلام بشير الدويبي ،2003) من أسرة ممتده تضم ثلاثة أجيال متلاحقه أبناء ، و أباء ، وأجداد تجمعهم روابط اجتماعية قوية إلى أسرة نووية تتكون من أب و أم ، و أولاد فضعفت العلاقات الاجتماعية ، وتقلصت وظائف الأسرة واحدة تلو الأخرى ، و أصبح دور الأسرة في بعض الوظائف يقتصر على التوجيه والإشراف.

ويزداد الأمر سوءاً إذا ما علمنا أنَّ معظم حكومات الدول العربية ليس بوسعها الوفاء بالحاجات الأساسية لمواطنيها ، الأمر الذي يجعل الأسرة مستعدة لتلقي ما يتمخض عن خروج المرأة لمجال العمل وتضارب أدوارها لاسيما في ما يتعلق بأداء وظيفتها، بوصفها أهم عنصر في الأسرة العربية والمجتمع أيضاً ، وهذا ما سوف نتناوله في دراستنا هذه.

2- تساؤلات الدراسة: ولأجل استجلاء ودراسة تضارب أدوار المرأة العاملة في المجتمع العربي وتأثيره على ثقافتها طرحت الدراسة تساؤلين رئيسيين:

1-ما الأفكار والمقترحات التي تساهم في فهم دور المرأة العربية العاملة وفيما تتمثل التغيرات التي حدثت عليها ؟

2- و ما تأثير ذلك على ثقافة المجتمع العربي ؟

3- أهمية الدراسة: وتتجسد أهمية هذه الدراسة بإيجاز فيما يلي:

-تنبع أهمية الدراسة من أهمية ومكانة المرأة و الأسرة في المجتمع ، فلكل فرد أسرة ، و بدونها لا معنى له و لا حياة اجتماعية طبيعية له.

-إثراء الجانب النظري والتحليلي المتعلق بالموضوعات الاجتماعية والذي يعتبر خروج المرأة العربية مجال العمل وتضارب أدوارها من بين أهم القضايا المعاصرة .

-تفسح المجال أمام المخططين ومتخذي القرار لدراسة واقتراح توصيات ونتائج تفيد العاملين ، والمختصين في هذا الحقل ، لمواجهة الجوانب والتأثيرات السلبية الناتجة عن المشكلة موضوع الدراسة.

4- أهداف الدراسة:

-الإسهام المتواضع في بلورة الأفكار والمقترحات التي تساهم في فهم دور المرأة و التغيرات التي حدثت عليها.

-الوقوف على مكامن خطورة تضارب أدوار المرأة العربية العاملة ومدى تأثيرها على المجتمع.

5- مصطلحات الدراسة:

المرأة العاملة : المرأة التي تقوم بالعمل خارج البيت نظير أجر ، ومعظم النساء العاملات في الحضر يدخلن تحت هذا المصطلح ، أما المرأة الريفية التي تشارك زوجها و أسرتها في النشاط الزراعي ، أو الإنتاجي بهدف الحصول على لقمة العيش ؛ فلا تعد امرأة عاملة بهذا المعنى الاصطلاحي حيث إنها لا تتقاضى أجراً.(فؤاد بسيوني متولي ، 1990).

التنشئة الاجتماعية: Socialization و هي عملية تعلم عن طريقها يكتسب الفرد العادات والتقاليد والقيم والاتجاهات السائدة في بيئته التي يعيش فيها ، وتتم من خلال الأساليب التي تراها الأسرة مناسبة لها وتتفق مع الثقافة الفرعية التي تنتمي إليها. (محمد عاطف غيث ، 1995)

الثقافة: يعتبر مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم غموضا مع أنه من أكثرها تداولا بين الأفراد والمؤسسات ذات العلاقة بالثقافة والبرامج الثقافية ، فمفهوم الثقافة ليس أقل غموضا وتشككا وتعدادا في علوم الإنسان منه في التعبير اليومي على حد تعبير E.Morin ادقار مورن.(عزمي طه السيد أحمد ، بدون سنة)

فالثقافة هي مجموعة أنساق رمزية تتصدرها اللغة وقواعد التزاوج والعلاقات الاقتصادية والعلم والدين ، كل هذه تهدف إلى التعبير عن بعض أوجه الحقيقة الطبيعية والاجتماعية وأكثر من ذلك إلى التعبير عن العلاقات التي ترتبط بها كل من هاتين الحقيقتين بالثانية وتلك التي ترتبط بها الأنساق الرمزية ذاتها بعضها ببعض. فالثقافة تشمل كل المعارف والخبرات التي يمكن الفرد أن يحصلها من خلال إطاره الاجتماعي بوسائل التحصيل المختلفة كالتجربة ، التلقين والتعليم أو عن طريق المحاكاة .

الدور: يستخدم مصطلح الدور في العلوم الإنسانية و الاجتماعية بمعان مختلفة ، والدور مفهوم يطلق على الجانب الديناميكي لمركز القائم بالدور ، الذي يشير إلى المكانة ويشير أيضا إلى سلوك الفرد على ضوء توقعاته وتوقعات تتأثر بفهم الفرد و الآخرين للحقوق والواجبات المرتبطة بالمركز الاجتماعي الذي يتميز بمجموعة من الصفات الشخصية و الأنشطة التي تصقل وتهذب نتيجة الممارسة الدائمة و الإطلاع المستمر.(أحمد زكي بدوي ،1978)

فالدور هو مجموعة من الأفعال المكتسبة يؤديها شخص معين بوضع اجتماعي معين و يتحدد هذا الفعل وفقا لتوقعات المجتمع من جهة و دوافع شخصية من جهة ثانية.

المجتمع: عدد من الأفراد المستقرين الذين تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة ترافقها أنظمة تهدف إلى ضبط سلوكهم ويكونون تحت رعاية السلطة.(محمد بن علي الجزولي ،2018)

فالمجتمع يمتلك ثقافة خاصة وهي التي تميز المجتمع عن غيره ،وتعبر عن طريقة حياة أفراد المجتمع ومعتقداتهم و أخلاقهم كما أنها تنتقل من جيل إلى أخر.

دور المرأة العربية في المجتمع:

تعتبر المرأة الخلية الأساسية للأسرة لما لها من أهمية كبرى في حياة الفرد والمجتمع ، فهي البيئة الطبيعية التي ينتمي إليها الفرد ويعيش فيها ، والخلية الأولى في حياة المجتمع ، كما أن هناك نوعاً من التأثير المتبادل بينهما ، فالأسرة لا تستطيع القيام بواجباتها ووظائفها بعيداً عن المجتمع ، فهو الذي يوفر لها الحماية والأمن ، والعديد من المؤسسات الاجتماعية التي أصبحت ضرورية بالنسبة للأسرة في أدائها لوظائفها ، كما أن المجتمع يعتمد استقراره وتماسكه على تماسك واستقرار الأسرة ، وتعتمد هذه الأخيرة على المرأة وبذلك تتّضح لنا أهمية العلاقة التي تربط الأسرة بالبناء الاجتماعي (محمد عاطف غيث ، د.ت.ص) ويمكن إبراز أهمية الأسرة بالنسبة للفرد والمجتمع في النقاط التالية :

-تكمن أهمية الأسرة في أنها الوسط الذي أقره المجتمع لتنظيم العلاقة الزوجية وإشباعها ، وثمرة هذا الإشباع هو إنجاب الأطفال إذ يحافظ المجتمع على وجوده واستمراريته وبقاء الجنس البشري. (غني ناصر القريشي ،2010)

الأسرة هي مهد الطفل ومظلته الاجتماعية التي يشبع من خلالها أهم احتياجاته. (محمد لطفي فرحات وآخرون ، 2010)

-تكمن أهمية الأسرة في أنها تمارس ضبطاً اجتماعيا على أفرادها عن طريق تنشئتهم تنشئة اجتماعية سليمة قائمة على الصفات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، وهذا الأمر له انعكاساته على المجتمع فيما بعد.

-"الأسرة من أهم الجماعات الأولية التي تشكل سلوك ، وانفعالات ، وعلاقات أفرادها حسب طبيعة البناء الأسري ، والعلاقات الزوجية بين الوالدين والأبناء". (عبد الله محمد عبد الرحمن ،2002)

-الأسرة هي الوحدة الاجتماعية التي تنتقل بواسطتها التقاليد الحضارية للمجتمع من جيل إلى جيل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية. (مير لوسي ،1983)

-ونظراً للدور الذي تمارسه الأسرة في الحياة الاجتماعية ، فإن تداعيات هذا الدور سواء كانت إيجابية أم سلبية سوف تؤثر تأثيراً مباشرًا على المجتمع ، "فإذا كانت الأسرة سليمة وقوية وفاعلة ، فإن المجتمع ونظمه سيكونان كذلك ، أما إذا كانت الأسرة ضعيفة ومفككة ، فإن المجتمع ونظمه لابد أن يصابا بالتفكك" .

لاحظنا فيما سبق الدور الحيوي والأساسي للأسرة وقدرتها في التأثير في البناء الاجتماعي من خلال الوظائف التي تنجزها داخل المجتمع ، وهنا يتضح حجم وطبيعة الآثار المترتبة على الخلل الذي يمكن أن يصيب بناء الأسرة ، ووظائفها انطلاقاً من فكرة التكامل بين النظم الاجتماعية.

التغيرات التي طرأت على ثقافة المرأة العربية العاملة:

مع تطور المجتمع وظهور العديد من المؤسسات والنظم الاجتماعية وتناقص وظائف المرأة انقسم علماء الاجتماع إلى فريقين:

فريق يرى أن انتقال بعض وظائف المرأة إلى المؤسسات الاجتماعية ظاهرة "صحية" ، وفريق آخر يرى أن انتقال بعض وظائفها إلى المؤسسات الاجتماعية ظاهرة غير صحية ، "فأوجبرن ogburn" مثلاً يرى أن الأسرة المعاصرة أسرة مفككة تعاني من ارتفاع معدلات الطلاق ، وضعف سيطرة الآباء والأمهات ، والتوجه أكثر نحو الفردانية ، والحرية وضعف الوازع الديني ، والسبب في ذلك كما يرى "أوجبرن" فقدان المرأة لمعظم وظائفها الاجتماعية والتربوية والدينية بعد أن تحولت هذه الوظائف إلى مؤسسات متخصصة. (سناء الخولي ،1993)

وترى"ميد M.mead" "أن التغيرات التي حصلت في الأسرة وفي المجتمع الصناعي أَدّت إلى ضعف علاقات القرابة بين الأسرة ، وأقاربها وأسلافها ، وضعف العلاقات الداخلية كعلاقة الزوج بزوجته ، أو بينهما وبين الأبناء ، أو بين الأبناء أنفسهم ، لذا فالأسرة أصبحت قليلة الأهمية لأعضائها وللمجتمع" . (غني ناصر القريشي ،1998)

ويرى "بارسونز T. Parsons" وهو من أنصار الفريق الأول ، أن التغيرات التي طرأت على وظائف المرأة تعبر عن حالة صحية ، و لا تؤدي إلى التفكك والانهيار ، بل إنها تعد عوامل نجاح للأسرة تجعلها تتفوق في أداء وظائفها الحيوية ، بعد أن تحررت من الأعمال الكثيرة التي كانت تقوم بها في الماضي ، وأصبحت تمارس وظائف محددة ، ومتخصصة من دون أن تتخلى عن وظائفها الأخرى كلياً ، وهذا ما يزيد قدرتها على الأداء بطريقة أكثر فاعلية ، ومن ثم تصبح في وضع يؤهلها للقيام بتلبية الحاجات العاطفية والشخصية لكل من الأطفال والبالغين ، ومن هنا فإن الأسرة لم تفقد أهميتها ، والمجتمع أصبح يعتمد عليها أكثر في أداء وظائف مختلفة.

وبغض النظر عن آراء العلماء المؤيدة أو المعارضة لانتقال بعض وظائف المرأة إلى المؤسسات الأخرى ، فإن العلماء والمتخصصين اعتادوا تقسيم وظائف المرأة إلى نوعين أساسيين هما:

وظائف أساسية ، ووظائف ثانوية ، ويرجع سبب التقسيم إلى وجود نوع من الوظائف التي "لا يمكن لأي منظمة اجتماعية أخرى أن تقوم بها بديلاً عن المرأة " (معن خليل العمر وآخرون ،1992)

و هي التي تدعى بالوظائف الأساسية لما تتضمنه من حقوق وواجبات اتجاه أطفالها وزوجها ، والتي تنعكس إيجابياتها على المجتمع فيما بعد ، ومن أهم تلك الوظائف الأساسية ما يلي:

1-الوظيفة البيولوجية : تعتبر وظيفة الإنجاب من أهم وظائف المرأة على الإطلاق ، حيث أنها تمثل الهدفَ الأساسي من تكوين الأسرة ، ومصدراً لإشباع الحاجيات النفسية والاجتماعية للأبوين كالاستقرار ، والطمأنينة ، ومن خلالهما يتحدد دور كلٍ منهما "وتؤدي عملية إنجاب الأطفال إلى الإسهام في التكوين الاجتماعي والعمراني ، والإنساني ، واستمرار بقاء الجنس البشري ، وذلك عن طريق نظام الزواج"(حسن علي حسن ،1991)

2-الوظيفة الجنسية : تعتبر الوظيفة الجنسية من أهم وظائف المرأة القائمة على الزواج باعتباره "اتفاقاً تعاقدياً يقوم على الثبات والاستمرار ، ويؤدي إلى تكوين وتقوية العلاقات الاجتماعية التي تتضمنها الأسرة".

ومن خلاله تحاول كل المجتمعات تقريباً أن تجعل منه الإطار الوحيد لتكوين الأسرة لإشباع الدوافع الغرائزية ، فهي: "مصدر للراحة الجنسية ، وتخفيف الضغوط النفسية عن الزوجين ، كما أنها مصدر لدعم الثقة بالنفس ، والأمان لدى الطرفين". (سلوى عبد الحميد الخطيب ،2002)

3-الوظيفة الاجتماعية : تأتي وظيفة التنشئة الاجتماعية بعد الوظيفة البيولوجية ، وهي من الوظائف المهمة ، فالتنشئة الاجتماعية تعني "مجموع العمليات التي يتم بمقتضاها النمو والتطبيع الاجتماعي للإنسان ، وتحويله من مجرد كائن حي إنساني إلى كائن اجتماعي له صفته العضوية والاجتماعية بكل ما تعنيه من حقوق وواجبات وعلاقات ، ومكانه اجتماعية".(أحمد بيري الوحيشي وعبد السلام الدويبي ،2003)

فالطفل عندما يولد داخل الأسرة وفي بيئته الطبيعية يجد نفسه محاطاً بالمحبة والعطف ، والحنان ومنها تنشأ علاقات اجتماعية بينه وبين والديه ، ومن ثم بينه وبين أخوته والمحيطين به ، وبالتالي يتبين لنا أهمية دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية ، حيث يتعلم الطفل من خلالها النطق ، والمشي ، والخُلق والدين ، وتزوده بآداب السلوك كتقدير الذات ، والتعلق والارتباط ، و"خبرات الثقافة وقواعدها في صورة تؤهله فيما بعد لمزيد من الاكتساب ، وتمكنه من المشاركة التفاعلية مع غيره من أعضاء المجتمع" (محمد عاطف غيث ،1995) ويكتسب من خلال الأسرة صفة العضوية بما تفرضه من حقوق وواجبات.

4-الوظيفة النفسية والتربوية : تعتبر الأسرة المكان الطبيعي لتنمية مشاعر الحب والعطف والحنان والانتماء عن طريق ما توفره من أجواء حميمة بين أعضائها ، وكلما استطاعت المرأة أن تقوم بوظيفتها النفسية والتربوية بالشكل المطلوب انعكس ذلك بالإيجاب على حياة الطفل وعلاقاته بالآخرين ، لأن فشل الأسرة في خلق التفاهم والتعاطف والمحبة وتقديم التوجيه التربوي الهادف يترك بصمات في نفس الطفل حتى بعد اجتيازه مرحلة الطفولة. (عبد السلام الدوبي ، 1992)

فالمرأة هي المؤسسة الأولى التي تحتضن الأبناء، وتنقل لهم ثقافة المجتمع وخبراته وقيمه، وتلقنهم مبادئ التربية الاجتماعية والسلوك وآداب المحافظة على الحقوق والواجبات، وبناء الشخصية، وتوفير الشروط اللازمة لتكوين العادات والمعتقدات التي يفهمون بها غيرهم ويتواصلون عبرها مع باقي أفراد المجتمع. (محمد أحمد عقيله المومني وآخرون ،1997).

تضارب أدوار المرأة العاملة في المجتمع العربي:

اقتصرت أدوار المرأة في المجتمع العربي في الماضي القريب على أدوار معينة مرتبطة بطبيعة المرأة الفسيولوجية كأنثى، مثلها مثل باقي النساء في مختلف بقاع الأرض ، حيث كان الاعتقاد سائدًا أن المرأة خلقت لتكون إما زوجاً ، أو مدبرة لشؤون منزلها فقط ، أما في الوقت الراهن و مع انتشار التعليم ، وظهور التصنيع ودخول المرأة مجال العمل ، تعددت أدوارها وانطلقت من داخل البيت كزوجه، وأم ، و ربّة بيت إلى خارجه لتقوم بالأدوار التي تلاؤمها في كافة مجالات الحياة .

و مع مرور الوقت أصبحت المرأة تلعب دوراً لا يقل أهمية عن الدور الذي يقوم به الرجل في عملية التنمية الشاملة لمختلف النواحي الاجتماعية، و الاقتصادية والسياسية.

وعلى الرغم من هذا التحسن في أدوار المرأة وتحررها من العديد من القيود ، فإنها ظلّت "مثقلة بأدوار متعددة قديمة و حديثة جديدة منها أعمال في البيت ، و أعمال خارج البيت في مؤسسات المجتمع " (أحمد بيري الوحيشي ،1998)، هذا ما أوقعها في حالة التضارب مع أدوارها فهي تريد أن تثبت استقلاليتها، و كيانها، ودورها في بناء المجتمع من جهة ، و أن تكون زوجة وأماً مثالية و مدبرة لشؤون منزلها من جهة أخرى ، بحيث لا تؤثر أدوارها خارج المنزل على أدوارها المرتبطة بالوظائف الأساسية للأسرة لاسيما الوظيفة المرتبطة بتنشئة أطفالها.

و حتى نستطيع أن نكوّن فكرة واضحة عن هذا الموضوع لا بد من التعرف على أدوار المرأة بشكل عام بشيء من التفصيل، ليتضح تضارب الأدوار، وما تعانيه المرأة اليوم.

أدوار المرأة العربية :

إنّ الحديث عن الدور العام للمرأة داخل المنزل الذي يرتبط ارتباطاً و ثيقاً بالوظائف الأسرية يقتضي منا تناول دورها باعتبارها زوجة أولاً وهذا أول و أهم دور تقوم به المرأة منذ بداية دخولها الحياة الزوجية ، تم نتناول دورها باعتبارها أماً ، ثم ربة بيت فهذه الأدوار العظيمة التي تقوم بها المرأة داخل منزلها الأمر الذي يؤدي إلى تماسك الأسرة و المجتمع.

يعتبر دور المرأة باعتبارها زوجة أول محطة اجتماعية في حياتها الأسرية الجديدة والمستقلة بإعتبارها دخلت في إتفاق تعاقدي مع زوجها بشكل يحلله الدين، و يكفله القانون كونه قائماً على المودة والرحمة والسكينة ، حيث تدخل المرأة الحياة الزوجية وفق إرادتها وتتحمل ما يترتب على ذلك من حقوقٍ و واجبات لكلا الطرفين ولأهمية دور المرأة باعتبارها زوجة " أبرز الإسلام دورها شريكاً للرجل في حياته فجعلها موضع احترام الرجل و تكريمه ، وجعل بينهما رباطاً متيناً من المودة والرحمة" (سعيد عاشور، 1994) ، وفي هذا يقول سبحانه تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوْ إِلَيْهاَ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِّقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ)* الروم. أية 21.

فبهذا تشكل أحد أهم دعائم الأسرة الأساسية لما لها من دور كبير في العديد من وظائفها الحيوية ، و التي تتجلى بشكل واضح في تنظيم العلاقة الزوجية مع زوجها ولعلّه الدور الأبرز في تلك المرحلة المهمة بعد الزواج " فالحياة الزوجية تقوم على الاحترام المتبادل و التوفيق في تأدية الأدوار الزوجية من ناحية الإشباعات الجنسية ، والعاطفية وعلاقات الصداقة والديمقراطية ، والمشاركة في السلطة و تقسيم العمل" (خليل خيري الجميلي ، 1992)

و إنّ دور المرأة لا يقتصر على مجرد العناية بزوجها و تلبية علاقاته العاطفية فقط ، بل كانت في بعض الأحيان " تساعد زوجها في أداء العمل المهني الذي كان يزاوله داخل البيت كعمل الغزل و الحياكة و الصباغة و النجارة والحدادة " (إحسان محمد الحسن ، 2005)، وكانت مجمل الأعمال التي تقوم بها الزوجة اتجاه زوجها من منطلق أن دورها هو مكمل لدور زوجها حتى تسير عجلة الحياة الزوجية إلى الأمام .

وأما دور المرأة أمّاً فهو ثاني أهم وأسمى دور تقوم به بعد الإنجاب ، إنّه ثمرة أهم وظيفة تؤديها الأسرة ، و هي الوظيفة البيولوجية باعتبارها عملية إرادية يمارسها الزوجان وفق اختيارهما ، لذلك " تفرض النظم الاجتماعية على كلا الزوجين أمر العناية بتربية أولادهما ، والعناية بكل شؤونهم ما وسعهم ذلك حتى تكتمل مقومات حياتهم و شخصيتهم ، و يستطيعوا الاعتماد على أنفسهم في تحصيل الأرزاق. (مصطفى الخشاب ،1981) ، و لأهمية دور المرأة أماً فقد كرمها الله سبحانه و تعالى أعظم تكريم ، و منحها أسمى منزلة ، وجعل منزلة الوالدين تالية لعبادته ، حيث قال الله عز وجل (وَقضَى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدوا أَلاّ إِيَّاهُ وَ بِالوالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحدهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُما أفٍ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيْماً) الآية 23 الإسراء .

كما أوصى بمزيد من العناية والرعاية لهما حيث قال تعالى(وَوَصّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُهُ وَهْناً عَلىَ وهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْن ِأَن اشْكُر لِي وَلِوالِدَيْك إِليَ المَصِيْرُ) أية 14 لقمان .

و من خلال الآية يتبين مدى التفضيل الذي خصّ به الله سبحانه و تعالى الأمّ فحرص على أن يذكّر الإنسان بالعناء والألم الذي تحملته أمه في حمله ووضعه فصاله.

من خلال ما سبقَ يتضح أن دور المرأة لا يقتصر على مرحلة ما بعد الولادة ، بل يبدأ وتتضح ملامحه فعلياً مند بداية الأشهر الأولى للحمل ، و شعور الأم بأن طفلها يتحرك داخل أحشائها ، لذلك تجدها قد وضعت نفسها وفق برنامج صحي معين حفاظاً على جنينها و على حالتها الصحية ، أما في مرحلة ما بعد الولادة فإننا نجد أن الأم هي المسؤولة الأولى عن تربية طفلها و خصوصاً في سنوات عمره الأولى بإعتبار أن الأسرة التي تمثلها الأم مع زوجها أول هيئة اجتماعية في حياة الطفل ، و هي المسؤولة عن بناء شخصيته وعقليته حتى يبلغ سن الرشد(سعيد حسني العزة ، 2000).

ومن منطلق أن دور الأم يقتضي التزامها بمجموعة من الواجبات لذلك تحدث الكثيرون عن " التأثيرات المبكرة للأم على نمو شخصية الطفل ، و أكدوا على حيوية دور الأم في عملية تنشئته الاجتماعية في مراحله العمرية المختلفة إلى أن يبلغ سن الرشد و يتزوج و تتحول مسؤوليات العناية به من أمه إلى زوجته"(كرستين نصار ، 1993).

أما أهم الأدوار الأخرى التي تؤديها المرأة داخل المنزل فهو دورها باعتبارها ربّة بيت ، ويقصد بربّة البيت هي " المرأة المتزوجة التي تقوم بالعمل المنزلي و ليس لها وظيفة أخرى تتقاضى عنها أجراً" (محمد إسماعيل احمد السيد ،1975)، هذا التعريف ينطبق على المرأة قديماً أكثر منه حديثاً ، حينها كانت المرأة محرومة من التعليم ، والخروج لميدان العمل بحيث كان شغلها الشاغل هو الاهتمام بأسرتها فقط ، أما في الوقت الحاضر فمن الممكن أن نطلق مصطلح (ربة البيت) على المرأة المتزوجة التي تعمل بالعمل المنزلي ، وتنشغل بتربية أبنائها و تلبية احتياجات زوجها ، إلى جانب دورها في أي وظيفة ، أو مجال تتقاضى عنه أجراً أو بدونه ، بعد أن أصبح للمرأة دور فعال في تنمية المجتمع ، و تساوت مكانتها مع مكانة الرجل سواء كان ذلك في مستوى تعليمها ، أم دخولها مجال العمل ، أم مشاركتها في أي دور ترغب فيه في مجالات الحياة كافة.

و يعد دور ربة البيت من أهم و أصعب الأدوار التي تقوم بها المرأة في الوقت الحاضر ، خاصةً إذا كان لها دور أو عدة أدوار خارجاً ، حيث إن مسؤولياتها وواجباتها داخل المنزل تتمثل في قيامها بمختلف الأدوار التي تخص زوجها وأطفالها ، وشؤون منزلها مجتمعةً ومن الممكن أن يتبين هذا من خلال عدد ساعات العمل التي تقضيها ربة البيت داخل بيتها و التي تتراوح ما بين (12- 14 ساعة) يومياً ، هذا في المناطق الحضرية ، فما بالك عنها في المناطق الريفية ، لذلك تجد كل فرد داخل أسرتها يقدرها فوق قدرها و يتأثر بتصرفها وحالتها الصحية و المعنوية (الوحيشي أحمد بيرى ، 1998).

خروج المرأة للعمل خارج المنزل:

تزايدت في الآونة الأخيرة نسبة النساء العاملات تماشياً مع متطلبات العصر الحديث ، حيث إنَّ العمل أصبح من أوليات الأمور التي تفكر بها المرأة بغرض تحقيق كثير من مطالب الحياة المستجدة ، في حين أنَّ هذا الأمر لمْ يكنْ منتشراً من قبل بصورة كبيرة ، إذ كان عمل المرأة الأوّل هو رعايتها لأولادها وشؤون بيتها ، هذه الوظيفة الفطرية ، وأمَّا عملها خارج البيت فلمْ يكن إلاَّ لضرورة قصوى تلبية لاحتياجات الأسرة المتزايدة أو في ظل غياب المعيل. أمَّا في ظل العولمة فلمْ يعد العمل مجرد مسألة عول ؛ بلْ أصبح من أولويات حياة المرأة ، لاسيما بعد التخرج من الجامعة ، ولأنَّ هدف الخروج للعمل والغاية منه تغيرت بتغير الزمن ، فإنَّ النساء العاملات أصبحن لا يستغنين عنه أبداً ، لأنَّه وسيلة لتحقيق الذات ، وكسب المال ،وتوسيع نطاق العلاقات الاجتماعية ، هذه الأخيرة التي قد تؤثر في بعض الأحيان على علاقة المرأة مع زوجها.

إنَّ مكمن الخطورة في عمل المرأة خارج المنزل في ظل العولمة يتأتى من الأفكار التي دعت وتدعو إليها الحركة النسوية الجديدة منذ بداية القرن العشرين والتي تعددت محاورها من مطالبة بمساواة المرأة مع الرجل في الأجر إلى مطالب المساواة التامة مع الرجل في كل شيء ، والذي يترتب عليه إلغاء دور الوالدين القيادي والتوجيهي في تنشئة الأطفال ، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية الدعوة الصريحة والواضحة إلى ضرورة تبادل الأدوار داخل الأسرة بين المرأة والرجل في الوظيفة والدور الذي وضع لهما شرعاً ، والدعوة إلى إعادة تقسيم العمل بينهما بناء على مفهوم النوع الاجتماعي Gender الذي يشير إلى الأدوار والوظائف الاجتماعية التي لا علاقة لها بالنوع البيولوجي ، وهذا هو الذي يجب عدم التمييز بين الرجال والنساء فيه فهم متحدّون تماماً ، فبإمكان الرجل يقوم بأدوار المرأة الاجتماعية جميعها والمرأة تقوم بأدوار الرجل الاجتماعية جميعها دون استثناء.

إنَّ الجندر عبارة تنصرف إلى غير الذكر والأنثى بوصفهما جنسين فقط ، ونحن لا نعرف و لا نقر في ديننا وثقافتنا إلاَّ بهما ، وبدونهما تقوى النزعة الأنانية لدى الفرد ، ويتعمق مفهوم الحرية الشخصية في العلاقة الاجتماعية ، وتمرد الإنسان على النظم والأحكام الشرعية التي تنظم علاقة الرجل بالمرأة وتضبطها ، ومن ثم انتشار الإباحية ، والتحلل الخلقي ، وخدش الكرامة ، والفطرة الإنسانية . (وليد الرشودي ، 2008)

تأثير ذلك على المجتمع العربي:

إن عملية التنشئة الاجتماعية تعتمد في المقام الأول على دور الأم المرتبط بطفلها داخل الأسرة باعتبارها تحتل مكانة خاصة في حياته منذ بداية ارتباطه بها ، و تكوينه جنيناً في رحمها ، ومصدر غذائه الأساسي و تطور نموه قبل أن يولد ، وبذلك تكون والدته أول وسيط بينه و بين العالم الخارجي لتهيئهُ و تلقنهُ دروسَ الحياة ، و تكون مركزه الأساسي لإشباع حاجاته الجسمية ، والعضوية ، والبيولوجية ، والنفسية .

لذلك يرى العديد من الباحثين أن تعلق الطفل بأمه من أهم مظاهر التنشئة الاجتماعية التي تتأثر بعاملين هامين هما:

-شدة التفاعل بين الطفل و أمه : الذي يتجسد من خلاله التفاعل الصوتي الذي يكون أساساً لاكتساب الطفل مختلف المهارات وفي مقدمتها النطق ، وتعلم اللغة ، ثم التفاعل البصري الذي يزداد من خلاله شدة التفاعل بين الطفل و أمه بعد أن يسمع صوتها ويرى ابتسامتها لذلك يأتي التفاعل البصري في المرتبة الثانية من حيث الأهمية.

-سرعة استجابة الأم لمطالب الطفل : تتضح في صور عدة كسرعة استجابتها لطفلها حين يبكي مثلاً أثناء قيامها بواجباتها المنزلية ؛ فتترك ما تقوم به جانباً و تأتي بسرعة و بلهفة لتقوم بإرضاعه ومداعبته ليتفاعل ويستجيب لأمه .

وبهذا فإن دور الأم في التنشئة الاجتماعية دور لا يستهان به ، لأنها هي التي تغذيه ، وتنظفه ، و تمنحه و تمنعه ، و تصادقه و تخاصمه ، و تجادله وتستمع إليه ، و تحكي له و تعلمه و توجهه و تأخذ بيده ، و تسهر بجانبه في المرض و الشدة ، فهي الدنيا و نعيمها بالنسبة إليه (عصام نور ، 2006).

وهذا الدور أكثر ما ينطبق في الأسرة التقليديّة (الممتدة) حيث تحدد أدوار المرأة ضمن محيط أسرتها ، وتكون قريبة دائماً من أطفالها ، فالمرأة في ظل هذه الأسرة لم تحصل على المكانة التي تتيح لها العمل خارج المنزل ، فأدوارها محدودة على الرغم من أن عمليات التنشئة الاجتماعية في ظل الأسرة التقليدية متكاملة بين جميع أعضاء الأسرة ، و لكنها تمثل الدور الأوسع و الأشمل.

وبعد التحولات العديدة التي مر بها المجتمع تحولت الأسرة من أسرة تقليدية إلى أسرة نووية صغيرة تتميز بالاتي (محمد مصطفى أحمد ،1995):

-بأنها تتشابه في كل مكان تقريباً.

-يسودها الجو الديمقراطي و المساواة في المكانة بين الزوجين.

-تقوم الأسرة النووية بتنظيم حياتها بصورة اختيارية وفق رغبات الزوجين.

-عدم تدخل الأقارب في عملية التنشئة الاجتماعية التي يتولاها الزوجان.

بحيث لم تبقَ وظيفة التنشئة الاجتماعية مختصة بالأسرة فقط ، و إنما أصبحت عملية مشتركه مع العديد من الهيئات و المؤسسات الاجتماعية ، و أصبحت أدوار المرأة موزعة بين أعمالها المنزلية ، و أعمالها خارج المنزل و تعرض دورها في عملية التنشئة الاجتماعية إلى العديد من المشكلات ، حيث تضطر إلى الابتعاد عن الأطفال لفترات قد تطول ، وقد تقصر حسب طبيعة عملها خارج المنزل، إضافة إلى ضعف المؤسسات المساهمة في عملية التنشئة الاجتماعية إذا ما قورن ذلك بدور الأسرة .

إن تعدد أدوار المرأة في ظل الأسرة النواة أدى إلى تضارب ممارسة أدوارها في المجتمع، وهذا التضارب انتهى بها إلى التقصير في أداء بعض أدوارها الاجتماعية ، لاسيما دورها في تنشئة الأبناء على أثر اشتغالها بالوظيفة أو العمل خارج المنزل لساعات طويلة أثناء النهار، وإنجازها لأدوارها التقليدية.

فإذا أخذنا ظاهرة التنشئة الاجتماعية ، فإننا سنرى أنّ ابتعاد الأم عن أبنائها أدى إلى تركهم مع أهلها أو مع أهل زوجها ، أو مع الجيران ، أو مع الخادمة ، وقد يؤدي هذا إلى الانحرافات والمشكلات السلوكية مع توفّر العناية بهم عن طريق غير الأم و هذا الأمر متوقع لمثل هؤلاء الأبناء (عبد العزيز السيد،2001) ، و في هذا المقام أكدت العديد من الدراسات على هذه الحقيقة وبذات الصدد دعا عدد من العلماء الأم التي لديها أعمال أو أدوار خارج المنزل إلى أن تترك عملها وتتفرغ لرعاية طفلها في سنواته الأولى، والثانية واضعين مجموعة من الحلول ومن هؤلاء العلماء أجاتا بولي (Agatha Bowley) التي أشارت إلى أن تفرغ الأم لإرضاع طفلها و العناية به شخصياً من الأمور الجوهرية التي تلعب دوراً هاماً في صحة الطفل النفسية وشعوره بالود والمودة الناتج عن الاهتمام به ، وترى أن ترك الطفل فترة محدودة كل يوم و في وقت منتظم و طويل مع الجيران تارةً و مع الأقارب تارةً أخرى ، أو في بعض المراكز المتخصصة لرعاية الأطفال تارة ثالثة لا يضمن تلقي الطفل العناية الكافية و المشبعة لجميع رغباته الجسمية والعاطفية التي كان من الممكن أن يتلقاها فيما لو تفرغت له والدته ، وقد عززت "أجاتا بولي" كلامها من واقع خبرتها الشخصية في مجال عملها حيث لاحظت أن الأطفال ذوي المشاكل النفسية هم الذين عانوا من الحرمان في طفولتهم المبكرة . (محمد عامر الطنوبي، 2001)

كذلك يمكن الإشارة إلى الدراسة التي قامت بها "بتينة قنديل"على عدد من التلاميذ و التلميذات من أبناء المشتغلات، وغير المشتغلات ووفق مجموعة من المتغيرات ، فوجدت أن مستوى التوافق المتمثل في التكيف الشخصي و الاجتماعي و العام يقل لدى أبناء المشتغلات اللاتي يتغيبن عن بيوتهنّ مدة تزيد عن ثماني ساعات يومياً عن المستوى الأكثر توافقاً و تكيفاً من أبناء غير المشتغلات أو أبناء المشتغلات ممن تغيب عنهم أمهاتهم خمس ساعات في اليوم (محمد كامل الفقي،1985) ، فحاجة الطفل لا تقتصر على مجرد إشباع الحاجات الفزيولوجية أو العضوية فقط ، بل يتعدى ذلك إلى إشباع الحاجة التي يستمد منها ذاته وشخصيته و حاجته إلى الحب و الحنان ، و الأمن و الطمأنينة ، فالطفل بحاجة إلى الرعاية الدافئة .

و هناك مَنْ يعتقد أن لأدوار المرأة خارج المنزل تأثيراً إيجابياً و ليس سلبياً على الطفل و طريقة تربيته ، فعودة الأم من خارج المنزل بعد ساعات طويلة بعيدة عن طفلها ، يجعلها تقبل عليه بشوق ولهفة فتعوضه عن الوقت الذي قضته خارجاً بحنانها و قوة تأثيرها و تمنحه الفرصة للتعبير عن نفسه بحرية و استقلالية ، كما

أنها تعكس إحساسها بذاتها ونضجها وخبرتها العلمية باتصالها بالعالم الخارجي على طفلها(محمد عبد الرحمن عدس ،1997).

خاتمة:

تعتبر إشكالية تضارب أدوار المرأة العربية العاملة من الإشكاليات المعقدة و المركبة خصوصا في المجتمعات العربية ، ومن القضايا المعاصرة في ضوء المتغيرات الحالية و ما أفرزه العصر الجديد إذ يصعب الحديث عن تضارب أدور المرأة العاملة العربية وعليه نستطيع القول بأن ما يسمى بالوظائف التقليدية للمرأة التي لازالت تمارسها لم يعد بهذا المعنى الشمولي و إنما أصبح جزء لا يتجزأ من طبيعة اجتماعية ، فالدور الفاعل الذي أصبح يلعبه الأهل كدور والدة الزوج (الحماة) ، أو دور والدة المرأة العاملة في الاهتمام والعناية بتنشئة الأبناء أثناء فترة غياب الأم العاملة عن المنزل ، و ترك أبنائها لديهم.

و الملاحظ أن في الوقت الحالي أصبحنا نحتاج إلى امرأة مثقفة ، مستوعبة ، قادرة على مسايرة التطورات في المجتمع ، كما يجب فيه الحفاظ على المقومات الأساسية لعملية التنشئة الاجتماعية من حيث الرعاية ، والمتابعة والتربية ، وبهذا فتضارب أدوار المرأة العاملة في مجالات الحياة المختلفة بالإضافة إلى أدوارها التقليدية ، جعلها تعيش في حالة صراع مع أدوارها محاولةً التوفيق بين كلا الدورين ، فهي تريد أن تكون أماً وزوجه مثالية ، وتريد أن تكون ذات مكانه مرموقة اجتماعياً ، و تعليمياً في المجتمع ، ما نتج عنه تأثر كلا الجانبين في وظائف أحدهما سواء كان ذلك في وظيفتها في عملها داخل المجتمع ، أم في وظائفها الأسرية باعتبارها أحد أهم الدعائم الأساسية في الأسرة ، لذا يجب بذل قصارى الجهد للحيلولة دون تمييعها ، و إنه ينبغي في المقابل أن تنفتح أمام العلوم وتُساير متطلباتها و أن تأخذ بأسباب الفكر الحديث وتتماشى معه ، و هذا لن يكون على الوجه المطلوب ما لم يتم تخطي ضيق الأفق و إرادة تقييد الأذهان وتكبيل العقول التي مازالت سائدة عند بعض الأشخاص.

وفي الختام يمكن القول إن ضرورة النهوض و تكثيف الجهود ذات العلاقة بوضع المرأة في المجتمع ، و العمل على إبراز أدوارها بالشكل الذي يتناسب مع طموحاتها باعتبارها تمثل نصف المجتمع ، و مربية للأجيال .

قائمة المراجع:

-أحمد السيد محمد إسماعيل ،(1975). مشكلات الطفل السلوكية وأساليب معاملة الوالدين ، دار الفكر الجامعي ،الإسكندرية ، ص 30.

-أحمد محمد مصطفى ، (1995) .الخدمة الاجتماعية في مجال السكان و الأسرة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ص ص 222-223.

-إحسان محمد الحسن ، (2005) .علم الاجتماع الاقتصادي. دار وائل للنشر ،عمان ،ص116.

-بدوي أحمد زكي ،(1978). معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. مكتبة لبنان ، بيروت ، ص 395.

-بيري الوحيشي أحمد ،(1998). الأسرة والزواج. منشورات الجامعة المفتوحة ، طرابلس ،ص 158.

-بيري الوحيشي أحمد و الدويبي عبد السلام بشير ،(2002). مدخل علم الاجتماع ، مطابع الثورة الشعبية ، بنغازي ص88.

-الجزولي محمد بن علي ، (2018-3-5) . اصلاح المجتمع ، انظر رابط الموقع: www.alquatan.org

-الجميلي خيري خليل ،(1992). الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة و الطفولة ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ص14.

-حسن علي حسن ،(1991). المجتمع الريفي والحضري. المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ص 233.

-حسن علي حسن ،(1991). المجتمع الريفي والحضري: دراسة مقارنة مبسطة ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ص234.
-الخشاب مصطفى ،(1981). دراسات في علم الاجتماع العائلي ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، ص127.
-الخطيب سلوى عبد الحميد ، (2002). نظرة في علم الاجتماع المعاصر ، مطبعة النيل القاهرة ، ص386.
-الخولي سناء ،(1993). التغير الاجتماعي والتحديث ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ص ص211-212.
-الدويبي عبد السلام ،(1992). حقوق الطفل ورعايته ، دار الجماهيرية للنشر ، مصراته ، ص58.
-ربيع مبارك ، (1984).عواطف الطفل ، المطبعة العربية ، ، ص ص 34-35.
-الرشودي وليد ،(2008-12-18). التماسك الأسري في ظل العولمة ، انظر رابط :
www.almoslim.net/node/103686
- السيد عبد العزيز ، (2001).علم النفس الاجتماعي ، دار القاهرة للكتاب ، القاهرة ، ص ص 68 -69.
-الطنوبي محمد عامر ،(2001). المرأة الريفية العربية ، مطبعة الإشاع الفنية ، الإسكندرية ، ص127.
-عاشور سعيد ،(1994). المرأة و المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية ، دار المعارف للطباعة و النشر ، سوسة ، ص22.
-عبد الله محمد عبد الرحمن ، (2002).علم الاجتماع: النشأة و التطور ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ص265.
-عدس محمد عبد الرحمن ،(1997).الأطفال في طفولتهم ، دار الفكر للطباعة والنشر ، عمان ، ص277.
-العزة سعيد حسني ،(2000). الإرشاد الأسري: نظرياته وأساليبه العلاجية ، مكتب دار الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، ص 32.
-عزمي طه السيد أحمد ،(بد س).الثقافة والثقافة الإسلامية: رؤية جديدة وعلم جديد ، منشورات أمانة عمان ،عمان ،ص 40.
-عمر معن خليل وآخرون ،(1992) ، المدخل إلى علم الاجتماع ، دار الشروق ، عمان ، ص 219.
-عقيله المومني محمد أحمد وآخرون ، (1997).السكان و التربية و التنمية في الوطن العربي ، عمان ، ص ص 103-104.
-الغزالي حماد فلاح ،(1984). جمال الدين عبد الحميد أحمد ، علم الاجتماع ، طابعة ماتيو كرومو ، مدريد ، ص 68.
-غيث محمد عاطف ،(د.ت) المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي ، الإسكندرية ، ص 147.
-غيث محمد عاطف ، (1995).علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ص 232.
-فرحات محمد لطفي وآخرون ،(2010). التربية الجماهيرية ، مركز المناهج التعليمية للطباعة ، طرابلس ، ص 95.
-الفقي محمد كامل ،(1985). لا تظلموا المرأة ، دار التضامن للطباعة الناشر ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ص162.
-القريشي غني ناصر ،(1998). التنظيم الاجتماعي وتنمية الأسرة: رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة بغداد ، كلية الآداب ،ص 59.
-القريشي غني ناصر ،(2005). مقدمة في الضبط الاجتماعي ، مكتبة طرابلس العلمية العالمية ، طرابلس ، ص ص 95-96.
-القريشي غني ناصر ، (2010). الضبط الاجتماعي ، دار الصفا للنشر ، عمان ، ص 123.
-لوسي مير ،(1983) مقدمة في الانثربولوجيا الاجتماعية ترجمة شاكر مصطفى سليم ،دار الحرية ، بغداد ،ص 99.
-متولي بسيوني فؤاد ،(1990).التربية و مشكلات الأمومة و الطفولة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ص11.
-نصار كرستين ،(1993). موقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل ، د.ط ، لبنان ، ص130.
-نور عصام ، (2006). دور المرأة في تنمية المجتمع ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ص41.

أخلاقيات الطبيب من خلال توجيهات الدين الإسلامي

The ethics of the doctor through the directives of the Islamic religion

د.قاسمي بختاوي
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف – الجزائر

مقدمة:

لقد كان للمسلمين منذ القدم وعبر العصور المختلفة إسهام في الحضارة الإنسانية بمختلف مجالاتها ، حيث تألق الكثير من أبناء هذه الأمة في شتى العلوم ومنها العلوم الطبية التي كان لهم فيها باع كبير وإبداع متميز أبهر نظراءهم في العالم. ولم يكن تفوقهم في الطب قائما على مهارتهم وذكائهم فحسب ، بل كان يعتمد أساسا على فهم الطبيب المسلم الواضح لدوره المستمد من تعاليم الدين الإسلامي. فأخلاقيات الطب وآدابه تعد شرطا أساسيا في تكوين الطبيب ، لهذا أكدت عليها القوانين القديمة والدساتير الحديثة على الرغم مما يعتريها من نقص ، وتبقى الآداب الإسلامية نموذجا فريدا ضروريا في كل المهن خاصة الطب ، لما لهذه الآداب من انعكاسات إيجابية على أداء الأطباء وراحة المرضى.

إن توجيهات الدين الإسلامي الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لكفيلة بأن ترشد الطبيب وتحدد سلوكه سواء في حياته الخاصة أو أثناء ممارسة مهمته الإنسانية النبيلة ؛ إذ لا يؤتمن الطبيب الذي يفتقر إلى القيم الأخلاقية ولو كان يمتلك أعلى الشهادات العلمية. يقول الشاعر حافظ إبراهيم:

لا تحسبنَّ العلمَ ينفعُ وحده *** ما لم يتوَّج ربُّه بخلاقِ
والعلمُ إن لم تكتنفهُ شمائلٌ *** تُعليهِ كان مطيةَ الإخفاقِ
كم عالمٍ مدَّ العلومَ حبائلاً *** لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ
وفقيهِ قومٍ ظل يرصدُ فقهُ *** لمكيدةٍ أو مُستحِلِّ طلاقِ
وطبيبِ قومٍ قد أحلَّ لطبهِ *** ما لا تحلُّ شريعةُ الخاقِ
وأديبِ قومٍ تستحقُّ يمينهُ *** قطعَ الأناملِ أو لظى الإحراقِ.

1 –تعريف الطب: وردت تعاريف كثيرة للطب ، وإن كانت تختلف في ألفاظها ، فإنها تتفق في المعنى العام ، ومن هذه التعاريف انتقيت ما يلي:

- الطب هو فن العلاج ، وهو العلم الذي يجمع خبرات الإنسانية في الاهتمام بالإنسان ، وما يعتريه من اعتلال وأمراض وإصابات تنال من بدنه أو نفسيته أو المحيط الذي يعيش فيه ، ويحاول ايجاد العلاج بشقيه الدوائي والجراحي وإجرائه على المريض. كما يتناول الطب الظروف التي تشجع على حدوث الأمراض وطرق تفاديها والوقاية منها ، ومن جوانب هذا العلم الاهتمام بالظروف والأوضاع الصحية ، ومحاولة التحسين منها. (ويكيبيديا – الموسوعة الحرة ، 2019/05/15)

- الطب هو علم يَعتمد على مُمارسة العلاج لتشخيص الأمراض ، والوقاية من الإصابة بها من خلال استِخدامِ وسائل وتقنيات علاجيّة مثل الأدوية ، والعمليات الجراحيّة.(موضوع كوم ، 2019/05/15)

- الطب هو العلم الذي يُساهم في المحافظة على الصحة عن طَريق الاستعانة بالدواء والمواد العلاجية التي تُستخدم في مُعالجة الأمراض. (موضوع كوم ، 2019/05/15)

2 - الطب عند العرب قبل الإسلام:

الطب قديم قدم الإنسان ، حيث ارتبط بوجود الألم الذي اضطر هذا المخلوق إلى البحث عن إزالته بالمعالجة والتطبيب. وقد كانت بداية هذه الصنعة بإلهام من الله ، إذ اهتدى الإنسان إلى طرق للعلاج تتفق ومستواه العقلي وتتماشى وتطوره الحضاري ، وهو ما عرف بالطب البدائي الذي عبر عنه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: "للبادية من أهل العمران طبا يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، ويتداولونه متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج". (عبد الرحمن بن خلدون ، 477).

كان التطبيب عند العرب قبل مجيء الإسلام يقوم على الكي بالنار ، واستئصال الأطراف الفاسدة ، والتداوي بشرب العسل ومنقوع بعض الأعشاب النباتية ، واللجوء إلى التمائم والتعاويذ على يد الكهان والعرافين. أما في الجانب الوقائي فقد اعتمدوا على نظام الحمية وإسداء النصائح الناتجة عن الخبرة ، كقولهم: "المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء" و "القديد مهلك لآكله". (راغب السرجاني ، 26).وباستثناء استخدام بعض الأدوية والأشربة الطبيعية ، وإجراء بعض العمليات الجراحية البسيطة كالحجامة والبتر والفصد ، لم تكن لديهم سوى معرفة قليلة بالطب التجريبي والعقاقير ؛ إذ كانوا يعتمدون بشكل كبير على ذاكرة الحكماء ، مما يوحي بأن المعرفة الطبية كانت تنتقل من جيل إلى آخر شفويا بالممارسة والتعليم. (علي بن عبد الله الدفاع ، 60).

يبدو من خلال ما سبق أن الطب في العصر الجاهلي لم يكن يرقى إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان ، حيث كان اللجوء أكثر إلى العلاج بالسحر والطلاسم والشعوذة واستعمال التمائم والتعاويذ ، بل حتى المسكرات أحيانا التي تضر أكثر مما تنفع. كما كان يتم استئصال الأطراف الفاسدة في غياب معرفة طبية تحول دون ذلك.

3–من توجيهات القرآن الكريم للطبيب:

يعتبر الإنسان الكائن الأرقى في هذا الوجود ؛ إذ يظهر ذلك بمجرد النظر في المزايا ، ومظاهر التكريم التي خصه الله تعالى بها دون سائر المخلوقات ، وما ذاك إلا لتهيئته لأداء المهمة العظيمة ، وحمل الأمانة الثقيلة التي تخلت عنها الجبال.لقد سلط القرآن الكريم الضوء على العديد من مظاهر التكريم التي كرم الله تعالى بها بني آدم ، ومن هذه المظاهر منحه حقوقا كثيرة على رأسها حقه في الحياة ، ودعوته إلى التمسك بالأخلاق الرفيعة ، التي تنهض به ، وبالمجتمعات الإنسانية. من هذين المظهرين تتجلى العلاقة بين الطبيب والمريض ؛ إذ يعتبر الأول مسئولا عن حياة الثاني. فما هي التوجيهات والإرشادات التي أسداها القرآن الكريم للطبيب حتى يؤدي مهمته النبيلة على أحسن وجه ؟

جاءت في سورة لقمان آيات بينات لا غنى للطبيب في أن يسترشد بها في خصائصه الشخصية ، حيث يقول تعالى: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ.وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ.وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ". (لقمان ، 13-14-15-16-17-18-19).

تشير هذه الآيات المباركات إلى أنه يجب على الطبيب كغيره من المسلمين أن يؤمن بالله تعالى ، ويلتزم بما أنزل من الهدي والتعاليم الإسلامية ، خاصة وأنه يتعامل مع أكرم مخلوق وهو في حالة ضعف. كما ينبغي أن يتحلى بالتواضع والرحمة والصبر وشدة التحمل والاستقامة ، واستشعار مراقبة الخالق له في السر والعلن. وبهذه الخصال الحميدة يستوفي الطبيب أهم المتطلبات المهنية.

إن إتقان العمل يتطلب معرفة ودراية بكل ما يتعلق بالمهنة الممارسة ، خاصة إذا تعلق الأمر بمهنة خطيرة كالطب ، حيث أن أبسط خطأ يودي بحياة بشرية بريئة. لهذا حث القرآن الكريم على طلب العلم والاجتهاد فيه ، وبين فضل العالم حيث قال تعالى: "وَقُل رَّبِ زِدْنِي عِلْمًا" (طه ، 114). وقال أيضا: "قُل هَل يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُون وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (الزمر ، 9). وقال في موضع آخر: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّه مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" (فاطر ، 28).

الحياة حق من الحقوق الأساسية للإنسان ، يهبها المولى عز وجل ، ولا يحق لأحد أن يسلبها سواه. فلا يحق للطبيب إنهاء حياة بشرية تحت رعايته حتى وإن تعلق الأمر بجنين في بطن أمه ، ما لم يشكل خطرا عليها. ولا يجوز للطبيب الانصياع لرغبة المريض أو عائلته إذا كانت مخالفة لشرع الله. يقول المولى عز وجل في هذا الشأن: "مَن قَتَل نَفْسًا بِغَيْر نَفْسٍ أَو فَسَادٍ فِي الأَرْض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" (المائدة ، 32).ومن واجبات الطبيب أيضا عدم إفشاء أسرار المريض تطبيقا للقسم الذي أداه ، وامتثالا لأمره تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِم رَاعُون" (المعارج ، 32).

قد يضطر الطبيب لفحص مرضاه من الجنس الآخر ، وفي ذلك امتحان لقيمه الأخلاقية ، فينصح أن يتم ذلك بحضور شخص ثالث خشية أن يقع في المحظور لأن النفس أمارة بالسوء. قال تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" (النساء ، 28). ومن باب الحيطة ، أرشده القرآن الكريم كغيره من المؤمنين إلى غض بصره أثناء القيام بعمله ، حيث قال في محكم تنزيله: "قُل لِّلْمُؤْمِنِين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِير بِمَا يَصْنَعُونَ" (النور ، 30).

إنه لمن الخطأ الاعتقاد أن المريض يحتاج إلى الأدوية المادية فقط ، بل إن حاجته للرعاية النفسية تكون أحيانا أشد. لهذا حث القرآن الكريم على حسن معاملة المريض من طرف الجميع خاصة الطبيب المعالج. فللكلمة الطيبة وقعها وتأثيرها ، الأمر الذي يتطلب حسن اختيار الألفاظ والكلمات ذات المفعول الإيجابي عند سماعها ، وفي ذلك توجيه قرآني للناس جميعا بمن فيهم الطبيب نظرا للأهمية القصوى لوظيفته ؛ إذ يقول العليم الخبير: "أَلَم تَر كَيْفَ ضَرَبَ اللَّه مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِت وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ.تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلّ حِين بِإِذْن رَبّهَا وَيَضْرِب اللَّهُ الْأَمْثَال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ"(إبراهيم ، 24 – 25). وقال أيضا: "وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّب مِن الْقَوْل وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ" (الحج ، 24).

كانت هذه بعض الآيات القرآنية التي تتضمن توجيهات وإرشادات لعامة الناس بمن فيهم الطبيب، حيث سينعكس العمل بها على المجتمع عامة، والمريض خاصة كونه إنسان في حالة ضعف، وبحاجة لمن يساعده ويخفف عنه الألم ويعيد له الأمل.

4–أخلاق الطبيب في ظل السنة النبوية الشريفة:

لم تغفل السنة النبوية الشريفة عن التنويه بأهمية الأخلاق في حياة الإنسان، ولا أدل على ذلك من تكليف الرسول صلى الله عليه وسلم بتربية المجتمع على الأخلاق الفاضلة. قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق" (أحمد، 8753 –البيهقي، 19143). فحري بالفرد الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله، وفيما يلي جملة من أخلاق الطبيب المسلم المستقاة من السنة النبوية الشريفة:

- **الصدق:** تقوم العلاقة بين الطبيب والمريض على أساس ثقةالثاني في الأول. وبناء على ذلك يتوجه المريض إليه، وتزيد هذه العلاقة متانة بصدق الطبيب معه وإلا حدث العكس. ومن تجليات صدق الطبيب، احترام مواعيده مع مرضاه، ووصف الأدوية الأكثر نفعا التي يطيق المريض اقتناءها، وأن لا يكون همه الربح المادي فقط ولو على حساب صحة وقدرات المريض.عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عَلَيْكُم بِالصِّدْقِ، فَإِنّ الصِّدْق يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِر يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ..." (البخاري، 6094).

- **الصبر:**يخالط الطبيب مرضاه وهم في كثير من الأحيان في حالة غضب وسخط أو إحباط نفسي، مما يوجب عليه بذل جهد كبير للتخفيف من وطأة أسقامهم. وقد يكون هو أيضا يعيش ضغطا في عمله، فيحتاج عندئذ قدرا هائلا من الصبر. فقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر في عديد المناسبات. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ" (مسلم، 1752). فهذا الحديث النبوي يبين مقام الصبر وأهميته، فهل يستطيع الطبيب مزاولة مهامه إذا كان يفتقد لهذا الخلق العظيم؟ إنه مطالب بالصبر والاحتساب لينال الرفعة وجزيل الثواب. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِن الَّذِي يُخَالِط النَّاسَ وَيَصْبِرُعَلَى أَذَاهُمْ، خَيْر مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاس وَلا يَصْبِر عَلَى أَذَاهُم".(الترمذي، 2507- ابن ماجة، 4032).

- **حفظ السر:** تعد أسرار المرضى أمانة مستودعة عند الطبيب. فهذا الأخير كثيرا ما يضطر للاطلاع على عورات الناس وخصوصياتهم عند فحصه لهم؛ الأمر الذي يوجب عليه حفظ أسرارهم وعدم إفشائها. عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة" (البخاري، 2442- مسلم، 2580).

- **الرفق بالمريض:** الرفق حق المريض الذي أوهنه سقمه وأرهقه ألمه، وكم يعظم أجر طبيب ترفق بالمريض عند فحصه، وحرص على الأخذ بأسباب شفائه. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعْطِي على الرِّفق ما لا يُعطي عَلى العُنفِ، وَما لا يُعْطِي عَلى مَا سِوَاهُ".وعنها أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"إِنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ في شيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ" (مسلم، 4704).

- **الإنصات إلى المريض:**إن من مظاهر احترام المريض التأني عند سؤاله وحسن الاستماع إليه والتبسم في وجهه واختيار أنسب الألفاظ لمخاطبته، باعتبار ذلك وسيلة للتخفيف عليه من جهة، ويساعد الطبيب للوصول إلى التشخيص الصحيح ووصف العلاج المناسب من جهة ثانية.عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ" (الترمذي، 1875). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"الكَلِمةُ الطيبةُ صدقةٌ" (البخاري، 2707- مسلم، 1009).وإذا كانت العجلة عند غير الطبيب ممقوتة لمخالفتها لآداب السنة، فماذا لو تسرع الطبيب ولم يعط المريض الوقت اللازم لشرح حالته؟ ألا يكون احتمال الخطأ كبيرا؟ لا مناص إذن من هديه صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "التَّأَنِّي من الله والعجلة من الشَّيطان"(البيهقي، 20767).

- **نصح وإرشاد المريض:**إن الاستماع للمريض أثناء فحصه، ووصف الدواء بعد تشخيص الداء غير كاف؛ إذ على الطبيب أن لا يبخل على مريضه ببعض التوجيهات المفيدة لحالته، كأن ينبهه إلى أي أمر يضره مثل تحذيره من تناول بعض الأغذية العسيرة الهضم وبعض العادات السيئة، أو يحثه على ما يعود بالنفع على صحته كممارسة الرياضة وتناول الخضر والفواكه الطازجة. فالسنة النبوية تشير إلى وجوب النصيحة وتبين أهميتها. عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الدين النصيحة"، قلنا: لمن يارسول الله؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم" (البخاري، 57).

- **العدل وعدم المحاباة:** يتعامل الطبيب مع جميع الناس باختلاف مشاربهم. فمنهم الصديق والقريب، والغني والفقير، والذكر والأنثى، وصاحب السلطة والجاه، فيصعب عليه العدل في التعامل مع هؤلاء. في هذا الموقف عليه استحضار رقابة المولى عز وجل، وتذكر ثواب المقسطين. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَ الْمُقْسِطِين عِنْد اللَّه عَلَى مَنَابِر مِن نُورٍ" (مسلم، 1827-النسائي، 5394).

- **مراعاة الضوابط الشرعية عند التعامل مع الجنس الآخر:**حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من خلوة الرجل بالمرأة من غير محارمه، لما في ذلك من مفسدة، لأن الإنسان خلق ضعيفا، وقد يقع في المحظور نتيجة وسوسة الشيطان. وقد تدعو الضرورة الطبيب للكشف عن مريض من غير جنسه، الأمر الذي يوجب عليه أن يسترشد بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يخلُوَنَ رَجُلٌ بِامْرَأَة إِلَّاوَمَعَهَا ذُو مَحْرَم. " (البخاري، 3006- مسلم، 1341).كما نجد الطبيب مطالبا بغض البصر ولا ينظر إلا إلى ما تدعو الحاجة إلى النظر إليه، وهذا عملا بهدي الحبيب صلى الله عليه وسلم للعامة التي لا يستثنى منها الطبيب، حيث قال: "إياكم والجلوس في الطرقاتِ"، فقالوا: مالنا بدٌ، إنما هي مجالسُنا نتحدث فيها. قال: "فإذا أبيتم إلا المجالسَ، فأعطوا الطريقَ حقَّها". قالوا: وماحق الطريقِ؟ قال: "غضُّ البصرِ"، وكفُ الأذى، وردُ السلامِ، وأمر بالمعروفِ، ونهي عن المنكرِ" (البخاري، 2465)

5–إرشادات بعض الأطباء المسلمين لتلامذتهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ : مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" (أبو داود، 2498). يبين هذا الحديث الشريف أصنافا من الأعمال الصالحة التي تفيد الفرد في حياته ويستمر ثوابها بعد مماته، ومنها العلم النافع.

وفيما يلي نماذج من الأطباء المسلمين الذين آثروا أن يضعوا تجاربهم في متناول طلبتهم ليستنيروا بها عند مزاولتهم لمهنة الطب.

- أبو بكر الرازي (250هـ – 864م / 313هـ – 925م):

أبو بكر الرازي هو أحد الأعلام المصلحين المسلمين الذين ساهموا في نشر الخير ودعم الحضارة الإنسانية. ولد بالري بالعراق في منتصف القرن الثالث الهجري، في بيئة من العلم والأدب، فنهل منها وارتوى من تراث القدامى. عرف ببره بالفقراء والمرضى، وحسن عنايته بطلبة العلم. عاش زاهدا في دنياه على الرغم من وجوده في بلاط الأمراء. اهتم بالفلسفة ثم بالطب الذي برع فيه تحصيلا وتجريبا وتأليفا، وركز على الجانب الأخلاقي فيه. لقب بأب الطب العربي وجالينوس العرب. (أبو بكر الرازي، 4).

من مآثر الرازي رسالة مخطوطة توضح معالم الفلسفة الأخلاقية الطبية لديه، وهي بمثابة دستور أخلاقي في طريقة التعامل بين الطبيب والمريض. كانت رسالته هذه موجهة إلى أبي بكر بن قارب الرازي، وهو أحد تلامذته، حين دعاه أحد أمراء خراسان ليكون طبيبه الخاص.(أبو بكر الرازي، 9).

بعد أن هنأ الرازي تلميذه بتعيينه طبيبا خاصا لهذا الأمير، أهدى له مجموعة من التوجيهات مستوحاة من هدي الإسلام، وفيما يلي أبرزها:

- الاشتغال بصنعة الطب وحفظ الخاصة والعامة، لأن من أصعب الأشياء للطبيب خدمة الأمراء ومعالجة المترفين والنساء.
- صيانة النفس بعدم الاشتغال باللهو والطرب، والمواظبة على تصفح الكتب، حتى لا تتعسر عليه الإجابة عن أي سؤال مفاجئ.
- ارشاده إلى كيفية التعامل مع أنواع العلل التي صنفها إلى ثلاثة أصناف: علل واجبة البرء، وعلل جائزة البرء، وعلل مستحيلة البرء.
- الرفق بالناس وحفظ غيبهم وكتمان أسرارهم، حيث حثه على حفظ طرفه إن هو عالج من نساء الأمير وجواريه وغلمانه، وأن لا يجاوز موضع العلة عند الفحص.
- تطييب قلب المريض بأطيب الكلام.
- النهي عن المنكر وعدم التكبر على الناس حتى وإن اختصه ملك أو أمير.
- وجوب معالجة الفقراء كعلاجه للأغنياء.
- الاحتراز من العجب إن هو عالج مريضا وشفي، بل عليه التوكل على الله تعالى وتوقع البرء منه.
- مراقبة تطور الحالة الصحية للمريض يوميا بجس نبضه.
- عدم الإكثار من الكلام إلا إذا سئل.
- نهي المريض عن الطعام الذي يضرهمبينا علة ذلك، وتحديد مقادير الدواء الواجب استخدامها، مع ملازمته بعد تناوله الدواء.
- نهي الطبيب عن السكر، فقد تطلب خدماته في أي وقت.
- النهي عن التجربة في المريض ولو كان مسنا.
- تواضع الطبيب بحسن اللفظ وجيد الكلام ولينه، وترك الفظاظة والغلظة على الناس.

وختم الرازي نصائحه لتلميذه بهذه الفقرة: "واعلم أنك إذا تملكت هذه الخصال ولازمتها في سائر الأحوال، كنت حريا بأن يخصك الملوك والسوقة، ويقبل عليك الخاصة والعامة. ولا تخلو في خلال ذلك من ثواب وذخر، وجزيل مثوبة وحسن ذكر". (أبو بكر الرازي، 17 – 94).

- أبو القاسم الزهراوي(325 – 404هـ/936 – 1013م):

هو أبو القاسم خلف بن عباس الأنصاري القرطبي، ويكنى بأبي القاسم الزهراوي، وذلك نسبة إلى مدينة الزهراء (السيد عبد العزيز سالم، 233)، التي تقع في الشمال الغربي من مدينة قرطبة (ياقوت الحموي، 161). كان والداه من الأنصار الذين انضموا للجيوش العربية الفاتحة لبلاد الأندلس، ثم استوطنوا مدينة الزهراء، التي ولد فيها الزهراوي عند إتمام بنائها سنة 325هـ/936م. وبعد فترة انتقلوا إلى قرطبة، أين نشأ ودرس الطب على أفاضل علمائها (نهاد عباس زينل، 222).

يعد أحد كبار الأطباء المسلمين، وأشهر جراحي القرون الوسطى، حيث قضى معظم حياته طبيبا في بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر

نشأ الزهراوي في بيئة ازدهار علمي وحضاري، ميزها كثرة العلماء والمفكرين وطلبة العلم، وانتشار المكتبات، وارتقاء الفنون وتقدم العلوم عند العرب والمسلمين.

اطلع على المخطوطات القديمة، ودرس علوم القرآن وكتب الفكر والتاريخ والأدب والفقه، وكان أكثر اهتماما بالمصنفات والنظريات الخاصة بالطب والجراحة.

تلقى الزهراوي دراسة الطب على يد علماء الأندلس، حيث كان يمعن النظر في الطرق والوسائل المستخدمة في علاج المرضى، فاهتم بالنظر والمتابعة الجادة والعمل المهني، فتكونت شخصيته العلمية، ورسخت قناعته في هذا المضمار فبرع فيه. التحق بعد ذلك بمستشفى قرطبة الذي أنشأه الخليفة عبد الرحمن الناصر، فأصبح طبيباً ممتازاً وجراحا بارعاً، ولقب بأبي الجراحة، حيث ذاعت شهرته من بلاد الأندلس حتى وصلت إلى بلاد المشرق (علي عبد الفتاح، 604).

أسدى الزهراوي في مقالته الثلاثين من كتابه "التصريف لمن عجزعن التأليف"، والموسومة بـ "الطب لعمل الجراحين"، توجيهات وإرشادات كثيرة للأطباء الجراحين، حيث أشار في المقدمة إلى أهمية كتابه، الذي اشتمل على كم هائل من تجاربه و خبراته الميدانية لمدة طويلة. كما أشار فيه إلى قلة الجراحين المهرة، مرجعا ذلك إلى أن التكوين في هذا الميدان يستغرق وقتا طويلا، ويتطلب التمكن في علم التشريح الذي وضعه جالينوس. وحذر بعد ذلك من أخطاء الجراحين التي تودي بحياة مرضاهم. وعلى غيرعادته في مقالاته الأخرى من كتاب التصريف التي كان يشير فيها إلى أبرز المؤلفات اليونانية والعربية التي اعتمد عليها، لم يفعل ذلك في مقالته الثلاثين، كونها كانت حوصلة لخبراته وتجاربه الخاصة (علي حسين الشطشاط، 179). وفيما يلي مقتطفات من مقدمة الزهراوي: "لما أكملت لكم يا بني هذا الكتاب الذي هو جزء العلم في الطب بكماله، وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه، فرأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة، التي هي جزء العمل باليد، لأن العمل باليد محسنه في بلدنا وفي زماننا معدوم البتة، حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره، وإنما بقي منه رسوم يسيرة من كتب الأوائل، قد صحفته الأيدي، وواقعه الخطأ والتشويش، حتى استغلقت معانيه، وبعدت فائدته، فرأيت أن أحييه، وأؤلف فيه هذه المقالة، على طريق الشرح والبيان والاختصار، وأن آتي

بصور حدايد الكي ، وسائر آلات العمل باليد ، إذ هو من زيادة البيان ، ومن وكيد ما يحتاج إليه. والسبب الذي لا يوجد صانعا محسنا بيده في زماننا هذا ، لأن صناعة الطب طويلة ، وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذي وضعه جالينوس ، حتى يقف على منافع الأعضاء ، وهيئاتها ومزاجاتها واتصالها وانفصالها ، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات ، وعددها ومخارجها ، والعروق النوابض والسواكن ، ومعرفة مخارجها. ولذلك قال أبقراط:"إن الأطباء بالاسم كثير ، وبالفعل قليل ، لاسيما في صناعة اليد".

وقد ذكرنا نحن من ذلك طرفا في مدخل هذا الكتاب ، لأنه من لم يكن عالما بما ذكرنا من التشريح ، لم يخل أن يقع في خطأ يقتل الناس به ، كما قد شاهدت كثيرا ممن تصور في هذا العلم وادعاه بغير علم ولا دربة

ولهذا يابني ، ينبغي لكم أن تعلموا ، أن العمل باليد ينقسم قسمين ؛ عمل تصحبه السلامة ، وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات. وقد نبهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب على العمل الذي فيه الغرر والخوف ، فينبغي لكم أن تحذروه وترفضوه ، لئلا يجد الجهال السبيل إلى القول والطعن. فخذوا لأنفسكم بالحزم والحياطة ، ولمرضاكم بالرفق والتثبت ، واستعملوا الطريق الأفضل المؤدي إلى السلامة والعاقبة المحمودة ، وتنكبوا للأمراض الخطرة العسرة البرء ، ونزهوا أنفسكم عما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم ، فهو أبقى لجاهكم ، وأرفع في الدنيا والآخرة لأقداركم. فقد قال جالينوس في بعض وصاياه :"لا تداووا مرض سوء فتسموا أطباء سوء" (أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، 40).

خاتمة:

بعد محاولتي هذه لدراسة الجانب الأخلاقي عند الطبيب من منظور إسلامي ، توصلت إلى جملة من الاستنتاجات وهي كالآتي:

- إن تعاليم الدين الإسلامي سواء الواردة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة لكفيلة بإرشاد الطبيب لأن يكون ناجحا في عمله ، محبوبا من طرف الجميع خاصة المريض الذي لا يحتاج أدوية وعقاقير فحسب ، بل هو بحاجة بالخصوص إلى حسن معاملة يطغى عليها الرفق واللين والاحترام والتقدير.

- إن الطبيب المسلم المتمسك بدينه قولا وعملا، يتميز عن غيره من الأطباء بسمات شرف بها في الدنيا والآخرة ، لارتوائه من المعين الصافي من كتاب الله وسنة رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والتي رسمت للبشرية منهجاً متكاملاً للحياة الطيبة.

- إن البعد الإنساني العميق الذي زرعه الإسلام في الأطباء المسلمين عبر أطوار الحضارة الإسلامية ، جعلهم يتعاملون مع المريض على أنه إنسان في أزمة ويحتاج إلى مساعدة طبية في المقام الأول ، ثم مساعدة نفسية واجتماعية واقتصادية.

- إن من المظاهر الراقية للأطباء المسلمين ، تقديم الخدمة للمرضى دون تمييز عرقي أو ديني أو طبقي أو اقتصادي.

- لم يكتف التشريع الإسلامي برفع بعض التكليفات عن المرضى والتخفيف عليهم في بعض العبادات والفرائض ، وإنما حث على ضرورة وقوف الجميع إلى جانبهم خاصة الطبيب الذي لا تقتصر مهمته على العلاج المادي فقط ، بل يجب عليه الرفع من معنويات المريض بإعطائه الأمل في الحياة ، وتبشيره بالجنة إذا صبر.

- لم يبخل الأطباء المسلمون بتوجيهاتهم على من اختاروا هذه الصنعة ، فزودوهم بحصيلة خبراتهم وتجاربهم الميدانية ، مبرزين أهمية الجانب الأخلاقي الذي حث عليه الإسلام.

الإحالات:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط3 ، 1426ه /2005م.
1 – البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) ، صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، دمشق ، 2002.
2– البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى) ، السنن الكبرى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003.
3 – الترمذي (أبو عيسى) ، سنن الترمذي (الجامع الكبير) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1996.
4– الحموي ياقوت ، معجمالبلدان ، ج3 ، دارصادر ، بيروت ، 1977.
5– ابن حنبل (أحمد) ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 2009.
6 - ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن) ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق أحمد جاد ، مراجعة عبد الباري محمد الطاهر ، دار الغد الجديد ، القاهرة ، ط1 ، 2007.
7– أبو داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني) ، سنن أبي داود ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية للطباعة والنشر ، بيروت ، 2009.
8– الدفاع على بن عبد الله ، رواد علم الطب فى الحضارة العربية الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1998.
9– الرازي (أبو بكر محمد بن زكريا) ، أخلاق الطبيب ، تقديم وتحقيق عبد اللطيف محمد العبد ، ط1 ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، 1977.
10 - الزهراوى (أبو القاسم خلف بن عباس) ، كتاب الزهراوى فى الطب لعمل الجراحين – المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف (العمل باليد) ، تحقيق ودراسة محمد ياسر زكور ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2006.
11– سالم السيد عبد العزيز ، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس – دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي ، ج1 ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1997.
12– السرجانى راغب ، قصة العلوم الطبية فى الحضارة الإسلامية ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ، ط1 ، 2009.
13 – الشطشاط على حسين ، تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن 3-7ه /9-13م) ، ج1 ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ط1 ، 1999.
14 – عبد الفتاح علي ، أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين ، ج1 ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط1 ، 2010.
15– ابن ماجة (ابن عبد الله محمد بن يزيد القزويني) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، دمشق ، 2009.
16–مسلم (أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري) ، صحيح مسلم ، وزارة الشؤون الدينية والدعوة والإرشاد ، السعودية ، 2000.
17–موضوع كوم ، 2019/05/15.
18– النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي) ، سنن النسائي الكبرى ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 2001.
19 – نهاد عباس زينل ، الإنجازات العلمية للأطباء فى الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوربا – القرون الوسطى 92 – 897ه /711 – 1492م ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2013.
20–ويكيبيديا – الموسوعة الحرة ، 2019/05/15.

التقنيات الحديثة ودورها في العملية التعليمية

د.طارق بولخصايم
جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل- الجزائر

مدخل

في أوائل الثمانينات ظهرت في الساحة التعليمية التربوية مسميات تكنولوجيا التربية تقنيات التعليم، تقنيات التربية تكنولوجيا التعليم، تكنولوجيا التربية،... وجميعها ترجمة لمصطلح educational technology، ثم ظهرت مطبوعات عديدة، تحمل المسميات نفسها في أغلفتها الخارجية، ولكنها في الداخل كانت تتحدث وبتفصيل عن الوسائل التعليمية، ولعل ذلك كان بسبب دخول كثير من غير المتخصصين في مجال تكنولوجيا التعليم، إلى ذلك المجال لما تعكسه حداثة الاسم الجديدة، وفي ا وائل هذا القرن خرج منشور من المركز العربي لتكنولوجيا التعليم، بالكويت ليحسم الأمر ويحدد الاسم الصحيح لأقسام التقنيات والوسائل بالكليات والجامعات العربية إلى تكنولوجيا التعليم والوسائل التعليمية[1].تقول الدكتورة(كاي مانوارنج) وهي متخصصة في هذا المجال: إن إطلاق مصطلح technologie على هذا الأسلوب، أمر غير موفق فكلمة تكنولوجيا، توحي للسامع بالآلات والكهرباء والأجهزة في عملية التعليم والتعلم فالسينما والتلفاز وأجهزة الفيدي والعرض والشرائح وغيرها... يعتقد الكثيرون خطا بأنها التكنولوجيا المقصودة في عملية التعليم والتعلم[2] كما أن تقنيات الإعلام والاتصال، لم تستطع أن تلج الا وساط التعليمية التربوية، إلا بصورة بطيئة وجزئية، وذلك من خلال إذاعة التلفزيون، التي احتاجت بدورها إلى برامج تعليمية تربوية، خاصة المتعلقة بتعليم اللغات ا وبرامج ذات بعد تثقيفي عام، من خلال أشرطة وأفلام وثائقية، وبعدها استخدمت معدات ومنتجات مثل هذه الوسائل المسموعة، والمرئية والإذاعة المدرسية، ونظام الإرسال التلفزيوني ذي الدوائر المغلقة والتعليم عن بعد، والتعليم المفتوح لحل بعض مشكلات ازدحام قاعات الدراسة، وتفعيل أداء المعلمين ومخابر تعليم اللغات[3]، كل ذلك في سبيل تطوير العملية التعليمية، التي لم يعد خافيا على أحد ما تشكله التقنيات الحديثة اليوم، من أهمية في إنجاحها، من خلال الآثار الايجابية، التي سجلتها المؤسسات التعليمية التربوية، على كل الأصعدة والمستويات.

من هنا تأتي هذه المداخلة محاولة لمناقشة اللبس، وتحديد المصطلحات بشكل أدق، وكذا إبراز ما أصبح يفرضه التقدم التكنولوجي الكبير، الذي يعرفه العالم اليوم من أسس جديدة للعملية التعليمية التربوية، والذي يشير إلى استخدام التقنيات والتطبيقات التكنولوجية، والإفادة منها في إدارة وتنظيم العملية التعليمية، وتنفيذها في المؤسسات التعليمية، فماذا نعني بتقنيات التعليم وتكنولوجيا التعليم وما هي العلاقة التي بينهما؟. وما أهميتها ودورها في العملية التعليمية؟.

---

[1] عبد الرحمن كدوك، التكنولوجيا و الوسائل التعليمية في عملية التعليم و التعلم، مجلة دراسات تربوية، جامعة إفريقيا العالمية، ص 05

[2] cay Mainwaring what is educational technology,dundee college of education ,1974,p4

[3] فضيل دليو، التكنولوجيا الجديدة للإعلام و الاتصال الاستعمالات الآفاق، دار الثقافة، الأردن، عمان 2010ص125

مفهوم تقنيات التعليم: في البداية يمكن تحديدها بأنها فكرة ، أو برنامج أو منتج يأتي في صورة نظام [4] ، فتقنيات التعليم من هذا المنطلق يقصد بها التفاعل المنظم بين كل من العنصر البشري المشارك في العملية التعليمية ، والمعدات والأجهزة والمواد التعليمية ، بهدف تحقيق أهداف تعليمية محددة أو حل لمشكلات التعليم [5] ، أو حلول إبداعية ومبتكرة لمشكلات التعليم ، توسيعا لفرصه ، وتخفيضا لكلفته ، ورفعا لكفاءته ، وزيادة فاعليته بصورة تتناسب مع طبيعة العصر ، وقد تكون تلك الحلول مادية أو فكرية أو تصميمية أنتجت لتناسب طبيعة التعلم أي تصميم وإنتاج ثم استخدام كل جديد في مجال تكنولوجيا التعليم بغرض تحقيق أقصى فعالية في مواقف التعليم والتعلم وحل مشكلات الاختصاص التعليمية [6] ، وهي كذلك كل ما هو جديد وحديث في مجال توظيف التكنولوجيا في العملية التعليمية ، من أجهزة وآلات حديثة وأساليب تدريسية بهدف زيادة قدرة المعلم والمتعلم على التعامل مع العملية التعليمية[7] ، ويرى بعض الدارسين أن التقنيات التربوية الحديثة عبارة عن فكرة أو عملية تطبيق شيء جديد من وجهة نظر المتبنى له كبدائل جديدة تمثل حلولا مبتكرة لمشكلات النظام القائم ، مما يؤدي إلى تغيير محمود في النظام كله ، ا وبعض مكوناته بحيث يصبح أكثر كفاءة وفعالية في تحسين النظام ، وتحقيق أهدافه ، وتلبية احتياجات المجتمع [8] ، وبذلك يفهم أن تقنيات التعليم الحديثة مفهوم يشير إلى منظومة متكاملة تشمل كل ما ه وجديد من أجهزة وبرمجيات بيئات وأساليب عمل ، لرفع مستوى العملية التعليمية ، وزيادة فعاليتها وكفاءتها على أسس علمية ولمواكبة التغيرات العصرية المستمرة[9].

وتقنيات التعليم كما وردت في مركز التقنيات التربوية 2002 عملية منهجية منظمة في تصميم عملية التعليم والتعلم وتنفيذها وتقويمها في ضوء أهداف محددة تقوم أساسا على نتاج البحوث في مجالات المعرفة المختلفة وتستخدم جميع الموارد البشرية وغير البشرية المتاحة للوصول إلى تعلم أكثر فعالية وكفاية [10] . ويتفق تعريف هينش Heinishمع التعريفات السابقة فيرى بأنها عملية معقدة متكاملة تشمل الأفراد وأساليب العمل

---

[4] على عبد المنعم ، المستحدثات التكنولوجية في *مجال التعليم* ، بحث مقدم إلى ورشة العمل ، الكويت ، 2000 ، ص 49

[5] صبري ماهر اسماعيل ، الموسوعة العربية لمصطلحات التربية و تكنولوجيا التعليم ، الرياض ، مكتبة الرشد ، 2002 ، ص 260

[6] القاضى زياد وآخرون مقدمة إلى الانترنت ، دار الصفاء ، الأردن ، ط2000 ،1 ،ص 451

[7] ممدوح محمد عبد المجيد ، مدى وعى معلمى العلوم بمستحدثات تكنولوجيا التعليم واتجاهاتهم نحو استخدامها.الجمعية المصرية للتربية العلمية :*المؤتمر العلمي الرابع (التربية العلمية للجميع -*(القرية الرياضية بالإسماعيلية ، من 31 يوليو- 13 أغسطس) المجلد الأول ، 2000ص309

[8] خميس, محمد عطية (تطور تكنولوجيا التعليم). دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع .القاهرة/مصر .2003 ص 246

[9] محمد جابر خلف الله واقع المستحدثات التكنولوجية بالمعاهد الأزهرية والحاجة لإقتنائها فى ضوء المتغيرات العصرية ، *مجلة كلية التربية جامعة الأزهر* ، عدد يناير ، (2008). ص 03 و حسن عبد الله النجار برنامج مقترح لتدريب أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأقصى على مستحدثات تكنولوجيا التعليم فى ضوء احتياجاتهم التدريبية ، *مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)*المجلد السابع عشر ، العدد الأول ،(2009). ص709-751 ،

[10] مركز التقنيات التربوية ، دليل التقنيات التربوية ، الرياض ، الادارة العامة لتقنيات التعليم ، 2002 ص 14 نقلا عن *إيمان على قادى* واقع استخدام *الوسائل التعليمية* والتقنيات *الحديثة*. في تدريس اللغة. الإنجليزية في المرحلة المتوسطة ، ماجستير ، جامعة ام القرى ، 1428 ، ص 37

والأفكار والأدوات والتنظيمات المناسبة التي نستخدمها لتحليل المشكلات التعليمية التي تواجهنا وتطبيق الحلول لها ثم تقييم وإدارة هذه الحلول في المواقف التي يكون فيها التعليم هادفا ويمكن التحكم فيه [11] ويعتبر الباحثان عبد الله عطار وإحسان كنسارة تقنيات التعليم بأنها تطبيقات العلم لحل المشاكل التعليمية أي معالجة النظريات والحقائق العلمية بطريقة منظمة وشاملة يتم فيها الاستفادة من الأجهزة والمواد والبرامج كالحاسوب والتلفاز التعليمي والبرامج التشغيلية [12].

فالتقنية التعليمية إذن هي مادة أو وسيلة أو جهاز يمكن للمعلم استخدامه في انجاز عملية التعليم والتعلم سواء أكان كتابا مطبوعا أم فيلما مصورا أم حتى سبورة الطباشير وبعبارة أخرى هي أي مواد أو أدوات أو أجهزة يتم توظيفها جزئيا أو كليا لإحداث عملية التعلم عند الطلاب[13] ، وبتعبير آخر هي كل ما يساعد على انتقال المعرفة ، والمعلومات والمهارات المختلفة ، من شخص إلى آخر في مجال التربية والتعليم ، والتدريب من المعلم أو المدرب إلى الطلاب أو المتدربين ، لترفع القدرة على اكتساب المهارات وذلك بمخاطبة أكبر عدد من الحواس ،[14]وفي المقابل كلما كان هناك ضعف في استخدام التقنيات التعليمية لأسباب مختلفة ، كجهل المعلمين بها ، وبكيفية استعمالها كانت العملية التعليمية بلا فاعلية ، مما ينعكس سلبا على نتائج وتحصيل المتعلمين.

مفهوم تكنولوجيا التعليم: المتفق عليه أن التكنولوجيا قديمة قدم المخترعات البشرية نفسها ، حيث كانت تعتبر وسيلة من الوسائل التي اكتشفها الإنسان عند تطويعه البدائي للطبيعة ، وبعدها أصبحت أداة يستعملها لخدمته ومساعدته لقضاء حاجياته المتنامية ، ثم تطور استعمالها وعم إلى درجة أصبحت مهمة جدا في حياته العامة والخاصة ، مما جعل بعض المفكرين يعتقدون بأنها المسئولة عن معظم التغيرات التي تحدث داخل المجتمع المعاصر.

وأما تعريفات التكنولوجيا ، فقد عرف تعريفات عديدة ، فمنظمة اليونسك وتعرفها بأنها تطبيق المعارف لصنع وإنتاج أشياء هادفة أوومفيدة ، وهي تعبر عن قدرتنا لاستخدام مواردنا لفائدة البشرية ، وهي بذلك تتوخى إيجاد طرق جديدة وأفضل لحل القضايا وتامين حاجاتنا ورفاهيتنا [15] ا وأنها تمثل الجانب التطبيقي للمعرفة العلمية النظرية [16] ، وهي كذلك دراسة لكيفية وضع المعرفة العلمية في الاستخدام العلمي لتوفير ما هوضروري لمعيشة الإنسان ورفاهيته[17] ، وتعرف أيضا بأنها العلم الذي يهتم بتحسين الأداء والممارسة والصياغة ، أثناء التطبيق العلمي ، [18] إي العلم الذي يعني بعملية التطبيق المنهجي النظامي للبحوث والنظريات ، وتوظيف

---

[11] *Heinich, Molenda, Russell & Smaldino Instructional audiovisual Technology and Media for Learning , Macmillan Publishing Company, 1993,p14*

[12] *عبدالله* عطار ، إحسان كنسارة : *وسائل* الاتصال التعليمية ، كلية المعلمين ، جامعة أم القرى ، ط 4 ، *2002* ، ص*79*

[13] عبد الله عمر الفرا ، المدخل إلى تكنولوجيا التعليم ، مكتبة دار الثقافة للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، *1999* ، ص*81*

[14] الشرهان جمال عبد العزيز : الوسائل التعليمية ومستجدات تكنولوجيا التعليم ، مطابع الحميضى ، الرياض ، *2000*م ، ص*65*

[15] مكتب *اليونسكو* الاقليمي للتربية في الدول العربية ،*1988 التجديدات* في التربية العلمية و التكنولوجية. المملكة الأردنية الهاشمية ، م2

[16] مهران عادل ، التربية التكنولوجية ، في التعليم الأساسي ، مؤتمر 1992 ، مصر ، مج 2 ، ص 22

[17] الكلوب بشير عبد الرحيم : التكنولوجيا في عملية التعليم و التعلم ، دار الشروق الاردن ، 1993 ،ص 31

[18] الفرجاني عبد السلام ، التكنولوجيا و تطور التعليم ، دار غريب ، القاهرة ، 2002 ،ص 12

عناصر بشرية في مجال معين، لمعالجة مشكلاته، وتصميم الحلول العلمية المناسبة لها، وتطويره ا واستخدامها، وإدارته ا وتقويمها لتحقيق أهداف محددة[19]، وهوما نجده في تعريف galbarith الذي يرى أن التكنولوجيا هي التطبيق النظامي للمعرفة العلمية من أجل أغراض علمية [20].

وعلى العموم فان المتتبع لمفهوم مصطلح التكنولوجيا لدى الدارسين يمكنه أن يخلص إلى أنها المعرفة العلمية المنظمة التي سخرها الإنسان لخدمته وتطويع الطبيعة باكتشاف مصادر الحياة حفاظا على استمراره ووجوده، وبالتالي هي تتجاوز المبتكرات والوسائل المادية كجهاز الكمبيوتر مثلا، إلى المعرفة المتطورة بشكل عام لتصبح مختلف المبتكرات وسائل لا أهدافا في حد ذاتها خاصة إذا ارتبط الأمر بالمجال التعليمي التربوي[21]، لذلك يمكن القـول قبل كل شيء بأنها جهد إنسـاني وطريقة للتفكير في استخدام المعـلومات والمهارات والخبرات والعناصر البشرية وغير البشرية المتاحة في مجال معين وتطبيقها في اكتشاف وسائل تكنولوجية لحل مشكلات الإنسان وإشباع حاجاته وزيادة قدرتاه [22]

ويعتبر مفهوم تكنولوجيا التعليم من المفاهيم التي ناقشها الكثير من الباحثين والمفكرين، واختلفوا في نظرتهم بسبب اختلاف تخصصهم وتطور خصائص التكنولوجيا نفسها ولفظة التكنولوجيا technology في الأصل كلمة يونانية techne تعني حرفة أو مهارة، وكلمة logy تعني علما أو فنا أو دراسة، وبذلك تعني كلمة تكنولوجيا علم المهارات، ولقد ارتبط مفهوم التكنولوجيا على مدى قرن ونصف بعالم الصناعة قبل دخول عالم التربية والتعليم، وقد عربت بمصطلح تقنيات [23]. وورد في بعض المصادر أن ا ول ظهور لمصطلح تكنولوجيا technologyكان في ألمانيا عام 1770، وليس لها مقابل أصيل في اللغة العربية بل عربت بنسخ لفظها حرفيا تكنولوجيا[24]technologie .

إن المقصود بتكنولوجيا التعليم technologie de l'éducation عملية منهجية منظمة، لتحسين التعليم الإنساني، تقوم على إدارة تفاعل بشري مع نصادر التعلم المتنوعة من المواد التعليمية والأجهزة والآلات التعليمية، وذلك لحل مشكلات تعليمية، وتحقيق أهداف محددة [25] وهذا التعريف يتفق أيضا مع الكثير من التعريفات التي تركز علىنها طريقة منهجية لتصميم عملية التعليم والتعلم وتنفيذها وتقويمها لتحقيق أهداف تعليمية [26] باعتماد جميع الوسائل أو الوسائط التي يستعان بها في العملية التربوية، سواء أكانت هذه الوسائل أو الوسائط بسيطة أم معقدة، يدوية أم آلية، فردية أم جماعية مما يعني أن تكنولوجيا التعليم تشمل

---

[19] محمد عطية خميس : *.منتوجات تكنولوجيا* التعليم' دار الكلمة للنشر والتوزيع, 2003، ص 02

[20] *الفتلاوي*، سهيله، *السابق*، ص176

[21] نور الدين زمام صباح سليماني تطور مفهوم التكنولوجيا و استخداماته في العملية التعليمية، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ع 11 2013 ص 166

[22] نور الدين زمام صباح سليماني تطور مفهوم التكنولوجيا و استخداماته في العملية التعليمية، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ع 11 2013 ص 165

[23] *الفتلاوي*، سهيله، *الجودة في* التعليم دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن ،2008، ص176

[24] فضيل دليو، التكنولوجيا الجديدة للإعلام و الاتصال الاستعمالات الآفاق، دار الثقافة، الأردن، عمان 2010ص125

[25] يسن عبد الرحمن قنديل، الوسائل التعليمية و تكنولوجيا التعليم، الرياض، دار النشر الدولي، 1999 ،ص 99

[26] احمد سالم، تكنولوجيا التعليم و التعلم الالكتروني، الرياض، دار النشر الدولي، الرياض، 2004، ص 233

مجموعة متنوعة ومتباينة من الآلات والأجهزة والمعدات والمستلزمات ابتداء من السبورة التقليدية وانتهاء بالتقانات التربوية الحديثة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن لكل وسيلة من هذه الوسائل خصائصها وميزاتها وحدودها فكل تقنية من هذه التقنيات تتوقف فاعليتها وأثرها التعليمي على خصائصها وميزاتها والأغراض التي تستخدم لأجلها وكذا الاوضاع والظروف المحيطة باستخدامها وتشغيلها وتوظيفها في الموقف التعليمي [27] والحقيقة أن هذه التقنيات الفنية العلمية والعملية التي يعتمد عليها المدرس تعني أكثر من استخدام الآلات والأدوات والأهم هو الأخذ بالأسلوب المنهجي أو أسلوب النظام الذي يكمن خلف عمل هذه الآلات واستخدامه لتحقيق أهداف محددة بكفاءة عالية، إذن فتقنيات التعليم تقدم خدمة جليلة للمدرس من جهة، وأيضا تساعد المتعلم على أن يتعلم وأن تشد انتباهه للدرس والمدرس، ويمكن تحديد ووظائفها فيما يلي :[28]

-تخطيط العملية التعليمية وما يتعلق بها من أنظمة ووسائل تعليمية وطرق التدريس، والأهداف التي يراد تحقيقها في ضوء الإمكانيات البشرية والمادية اللازمة لذلك.

-إعداد الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة لإدارة وتنفيذ هذه النظم وإمدادها بمصادر المعرفة.

-معرفة مدى تحقيق هذه النظم للأهداف المسطرة، والعمل على تحسينها.

ومصطلح تكنولوجيا التعليم مصطلح تم الوصول إليه عن طريق جمعية الاتصالات والتكنولوجيا التربوية الأمريكية، وهو يعرف بأنه "منحى نظامي لتصميم وتنفيذ وتقويم العملية التعليمية التعلمية ككل تبعا لأهداف محددة نابعة من نتائج البحوث في مجال التعليم والاتصال البشري مستخدمة مصادر بشرية وغير بشرية للوصول إلى تعليم فعال".[29]

كما عرّفتها رابطة الاتصالات والتكنولوجيا التربوية الأمريكية بما يلي: تكنولوجيا التعليم كلمة مركبة تشمل عدة عناصر هي:(الإنسان، والآلات، والتجهيزات المختلفة، والأفكار، والآراء، وأساليب العمل، وطرق الإدارة لتحليل المشاكل، وابتكار، [وتنفيذ] الحلول لتلك المشاكل، التي تدخل في جميع شؤون التعليم الإنساني[30].

فمصطلح تكنولوجيا التعليم إذا يشمل جميع المكونات المادية والبشرية، ويتطرق إلى الأساس النظري والمعرفي للتكنولوجيا، بالإضافة إلى المنهجية الواضحة والمنظمة في توظيف مكوناتها المادية البشرية والمعرفية وربطها في النهاية بتحقيق أهداف وغايات للإنسان بما فيها حل المشكلات التي تواجهه.

من خلال التعريفات السابقة يبد ولنا أن هناك تعريفات قد حاولت تحديد مفهوم التكنولوجيا بالأدوات والمكنونات المادية التي أفرزتها التكنولوجيا وطرائق استخدامها والتعامل معها، دون النظر إلى الجانب النظري المعرفي لهذه التكنولوجيات، وهناك تعريفات قد ركزت على أن التكنولوجيا ما هي إلا تطبيق للمعرفة

---

[27] مجدي عزيز إبراهيم، المنهج التربوي و تحديات العصر، عالم الكتب للنشر و التوزيع القاهرة 2006، ص 124

[28] نور الدين زمام صباح سليماني تطور مفهوم التكنولوجيا و استخداماته في العملية التعليمية، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ع 11 2013 ص 166

[29] الحيلة محمد : تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية التعلمية، دارا المسيرة عمان، الأردن، 2007، ص 24

[30] خالد, نزيه (الجودة في الإدارة التربوية والمدرسية والإشراف التربوي)- دار أسامة- المشرق العربي- عمان/الأردن- ط1 -2005- الفصل الرابع (طرق قياس إنتاجية وفعالية مراكز الوسائط التعليمية) – ص (79-78)

النظرية وتعريفات أخرى أكدت على أنها عبارة عن علم أو أداة للتعرف إلى كيفية التعامل مع منتجات التكنولوجيا ومكوناتها المادية والعلمية.

تقنيات التعليم أم تكنولوجيا التعليم؟.

لقد اتسع اللبس عندما ترجم مصطلح instructional technology إلى تقنيات التعليم ، أو تعريبه ونفسه إلى تكنولوجيا التعليم ، فنتج عن ذلك الاعتبارات التالية [131]:

الأول: استخدمت بعض الأدبيات كلمة تكنولوجيا التعليم كتعريب للكلمة الانجليزية

الثاني: استخدمت بعض الأدبيات الترجمة العربية لمصطلح instructional technology لتقنيات التعليم

الثالث :جمعت بعض الأدبيات بين استخدام التعريبين كمترادفين(تكنولوجيا التعليم) و(تقنيات التعليم) وقد ظهر هذا في المؤسسات التربوية في الوطن العربي ، فمنها ما تبني الأول ومنها ما تبنى الثاني. والحق أن استخدام مصطلح تقنيات التعليم كترجمة لمصطلح instructional technology ليست ترجمة دقيقة ، لان التقنيات لا ترادف التكنولوجيا ، فالا ولى تشير إلى أساليب التطبيق ، في حين تشير الأخرى إلى الاستفادة من نظريات ونتائج البحوث في مجالات العلوم المختلفة ، من اجل أغراض عملية لخدمة البشرية.

ومما سبق يمكن القول ، إن مصطلح تقنيات التعليم ، يمكن أن يعد بديلا ا ومرادفا لمصطلح الوسائل التعليمية ، لأنها ترتبط بالجانب المادي لمجال تكنولوجيا التعليم ، ولذلك تم به الأخذ مؤخرا على ذلك النحو ، وكذلك للتقليل من استخدامه كمرادف لمصطلح تكنولوجيا التعليم.

الوسائل التعليمية: تعرف الوسائل التعليمية بأنها مواد يستخدمها المعلم داخل حجرة الدرس لتيسر له نقل الخبرات التعليمية ولتساعده على توصيل مادته التعليمية الى المتعلم بسهولة ووضوح[32] وبصورة جيدة ، قد تكون نموذجا صورة رسومات أجهزة الخ. ومما يجب توفره فيها: [33]

-أن تكون ذات علاقة بموضوع التعلم

-أن تتوافر طرق عرضها في حجرة الدراسة

-أن تتناسب عرضها مع مستوى نم والمتعلم

-أن تكون اقتصادية في التكلفة والعرض

-أن تكون في متنا ول المعلم والمتعلم بحيث يسهل الرجوع اليها وقت الحاجة

وإذا ما تناولنا تاريخ استعمال وسائل تكنولوجيا التعليم ، فه وطويل ، تصل جذوره لعصور الإنسان الأولى ، فالمنقوشات ، والمنحوتات ، والرسوم والصور ، التي حفرها الإنسان البدائي ، وأهل الحضارات القديمة ، السومرية ، والآشورية ، والبابلية ، والفينيقية ، والفرعونية ، والصينية ، والهندية ، واليونانية ، على واجهات المعابد والصخور ، هي في الواقع وسائل تعليميّة ، غنية ومعبّرة ، قامت بتسجيل تاريخ تلك الأمم وحفظه ،

[31] عبد الرحمن كدوك : التكنولوجيا و الوسائل التعليمية في عملية التعليم و التعلم ، مجلة دراسات تربوية ، ، ص 5-6

[32] صبري ماهر اسماعيل : الموسوعة العربية لمصطلحات التربية و تكنولوجيا التعليم ، الرياض ، مكتبة الرشد ، 2002 ، ص 593

[33] نور الدين زمام ، صباح سليماني : تطور مفهوم التكنولوجيا و استخدماته في العملية التعليمية ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، ع 11 2013 ص 164

وبتعليم أفرادها أساليب التعبير، والتعامل، وفنون الحرب والمهن. وقد بدأت الدعوة لاستخدام الوسائل التعليمية في التربية بشكل واضح في عصر النهضة الاوروبي

وعلى الرّغم من قدم الدعوة لاستعمال الوسائل، وتوظيفها في التعليم، إلا أنّها لم تدخل عالم التربية بصفتها التقنية الحديثة، واستخدامها المنظّم المقصود، إلا في النصف الأول من القرن الحالي. حيث بدأ عدد محدود من المدارس الأمريكية، باستخدام بعض أنواع الوسائل التعليميّة، السمعيّة والبصريّة، كالصور، والشرائح، والأفلام، أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أصبحت الوسائل تمثّل جزءاً أساسياً من برامج عديد من المؤسسات التربوية المختلفة ومناهجها.[34]

وهناك تسميات متنوعة لوسائل، [وتكنولوجيا] التعليم: منها الوسائل السمعية – البصرية(audio-visualmedia)، والمعينات التربوية(educational-aids)، ووسائل الإيضاح، وتكنولوجيا التعليم، أو التدريس(instruction-technology) الوسائل الاختيارية(الإغنائية) والأساسية-الوسائل المعيارية ا والوسيطة(criterion media).[35]

يتّضح هنا بأن وسائل [وتكنولوجيا] التعليم(Educational media and technologies)هي: مواد وأدوات، توظّف جزئياً، أو كليا، في التربية المدرسية، لإحداث عملية التعلّم، فالمدرسة والمعلم، والكلمة الملفوظة، والكتاب، والصورة، والشريحة، والفيلم، والحاسوب، والخبير وغيرها، تعدّ وسائل وتكنولوجيا تعليميّة مهمة، لتوجيه التربية الرسميّة للتلاميذ وإنتاجها.

فتكنولوجيا التعليم هي طريقة فكرية عملية، لها قاعدة متكاملة من العناصر الفاعلة، والوسائل التعليمية جزء من التقنيات التعليمية، أو تكنولوجيا التعليم إذ يقول التربويون:(أعطِ المتعلّم شيئاً يفعله أفضل من أن تعطيه شيئاً يتعلّمه). إنها نقلة مبتكرة تضفي على العملية التعليميّة أنماطاً جديدة من الحركة والتفاعل، وأصبح للوسائل التقنيّة التعليميّة دورمهم في عملية التعليم، والتعلّم، يشمل: [36].

-الإدراك الحسي لتوضيح المعلومات الموجودة والجديدة.

-تجسيد عملية الفهم.

-قدرة المتعلّم على التفكير السريع.

-سهولة تعلّم المهارات المقصودة(بتركيز الانتباه أو بتقليد النماذج).

-العمل على تكوين قيم ايجابية(كالتعاون)، واتجاهات سليمة(كالصدق).

-العمل على إثارة اهتمام المتعلمين، وتحريك نشاطهم الذاتي.

-مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، بتنويع وسائط التعليم من قبل المعلم.

فعلى الرغم من أن الوسائل التعليمية هي الوسائط المادية المناسبة لنقل المفاهيم، واستيعاب مفردات المنهج الدراسي للتعلّم، وذلك بنقل الحقائق والمهارات عبر الحواس، بوصفها مثيرات تعليميّة، لكنها في

---

[34] مَيْسَاءُ أَحْمَدْ أبوشَنَبْ تكنولوجيا تعلّم اللغة العربية في الحلقة الأولى من التعليم الأساس ماجستير بالأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك 2007، ص 45

[35] حمدان, محمد زياد (وسائل وتكنولوجيا التعليم مبادؤها وتطبيقاتها في التعليم والتدريس)- سلسلة التربية الحديثة(2) دار التربية الحديثة- عمان /الأردن1406هـ-1986م/ - القسم الأول- (قضايا وخطة إجرائية عامة لوسائل وتكنولوجيا التعليم) ص 19-20.

[36] الدبسي، رضوان (تحديث طرائق تعليم اللغة العربية-تكنولوجيا التربية وأنشطته) دمشق2003 ،مجمع اللغة العربية، ص 3-33.

النهاية لا تقتصر على المواد التعليميّة، والأدوات، والأجهزة، وقنوات الاتصال، التي تنتقل بها المعارف والعلوم، من المرسل(المعلم) إلى المستقبل(المتعلم) حسب، بل أصبحت تشمل أيضاً التخطيط، والتطبيق، والتقويم المستمر للمواقف التعليمية التربوية، حتى تتمكن هذه المواقف من تحقيق أهدافها المقرّرة، آخذة باهتمامها جميع العناصر الداخلة. والعمليات التي تحدث من أجل المخرجات المحدّدة مستخدماً(الرجع) لتحديد مجالات الضعف، التي تحدث سواء في المدخلات أم في العمليات.[37]

دور الوسائل والتقنيات التعليمية في الاتصال التربوي: الاتصال التربوي تفاعل لفظي أو غير لفظي بين مرسل ومستقبل حول رسالة ذات مضمون تربوي، بهدف نقل خبرات أو تحقيق أهداف تربوية محددة. والاتصال كسلوك موجّه، هو بذاته نظام، يتكوّن من سلسلة من العوامل والعمليات، التي ترتبط معاً بعلاقات بنائيّة، ووظيفية عمليّة، مؤدّية في النهاية ،لتحقيق غرض إنساني، أو تربوي مقصود[38]. ويمكنننا أن نلخص دور الوسائل التعليمية في الاتصال التربوي بالنقاط التالية :[39]

-إكساب التلاميذ الخبرات التربوية.

2- معالجة اللفظية في العملية التعليمية.

3- تؤكد على المشاركة الايجابية والانتباه واثارة اهتمام المتعلمين

4- تشجع النشاط الذاتي للمتعلم والتعليم المستمر

5- تسمح بترسيخ ما يتعلمه المستقبل وتقلل من النسيان

6- تقلل من أعباء المعلم كمرسل في موقف الاتصال

7- زيادة جودة استخدام الأدوات والوسائل الأخرى

ويجدر التنويه إلى أن وسائل الاتصال السائدة في التعلّم والتدريس هي:[40] المناهج المطبوعة عادة، والخبراء المحلّيون، والمواقع البيئية المحلية، والتطبيقات، والدروس العمليّة، والعينات، والنماذج، والرسوم، والصور، والخرائط، والسبورات، والصحف، والمجلات، والمواد، والآلات السمعية ،والأفلام الثابتة والمتحركة، والشفافيات، والشرائح، والفيديو، والتلفزيون، والحاسوب، والآلات الحاسبة عموماً، فضلاً عن الطرق اللفظية التدريسية المتنوعة.

إذاً فإن مجمل وسائل الاتصال هذه هي أنواع لوسائل وتكنولوجيا التعليم، التي لها الدور الكبير في الاتصال التربوي الإنساني للتلاميذ، أو في تنفيذ تربيتهم المدرسيّة.

---

[37] مَيْسَاءُ أَحْمَدْ أبوشَنَبْ، تكنولوجيا تعلّم اللغة العربية، نفسه، ص 46-47

[38] أسامة محمد سيد و عباس حلمي الجمل، الاتصال التربوي رؤية معاصرة- دار العلم والإيمان –دمشق الطبعة: 2014 ص 25-26

[39] الحيلة محمد : التكنولوجية التعليمية و المعلوماتية، دارا لكتاب الجامعي، العين، 2001، ص 27

[40] مَيْسَاءُ أَحْمَدْ أبوشَنَبْ تكنولوجيا تعلّم اللغة العربية في الحلقة الأولى من التعليم الأساس ماجستير بالأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك 2007، ص 48

دور الوسائل والتقنيات التعليمية في إدراك التلاميذ وتعلّمهم: الإدراك الإنساني هو عملية باطنية نفسية، تحصل في عقل الفرد محدثة ما يسمى بالتعلّم. ويتم هذا من خلال عمليات متصلة هي:(الانتباه attention- الإدراك الحسي(الملاحظة الحسية) perception - الإدراك الباطني processing perception).

والتعلّم الذي يحدث لدى التلميذ بسهولة وبدرجة عالية، كلما استخدم في تحصيله وسائل تعليميّة تجد بقدر الإمكان الحياة الواقعية وخبراتها.[41]

دور الوسائل والتقنيات التعليمية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية:

إن وسائل وتكنولوجيا التعليم يمكنها تحقيق الأهداف الآتية، في التربية المدرسية :[42].

المساعدة على تعزيز الإدراك الحسي.

المساعدة على زيادة الفهم أو الإدراك.

المساعدة على رفع قدرة التلميذ، في تحويل معرفته من شكل إلى آخر، حسب الحاجة أو الموقف التعليمي.

المساعدة على التذكّر أو الاستعادة.

تجهيز التلميذ بتغذية راجعة ينتج عنها في الغالب زيادة في التعلّم كما ونوعاً.

وأضاف بعض الكتاب إلى الأهداف السابقة:

المساعدة على تنظيم المادة التعليمية، وتقديمها للتلميذ، بأسلوب مشوّق مفيد، ما يؤدي إلى سهولة تعلّمها.

تنمية الرغبة والاهتمام لتعلّم المادة الدراسية، والإقبال عليها.

تنمية الميول الايجابية لدى التلميذ، من خلال الخبراء، والزيارات، والرحلات، والأفلام، والتسجيلات السمعية، والتلفاز.

زيادة الطلاقة اللفظية وقوتها بالسماع المستمر إلى الأفلام والتسجيلات السمعية، وما تستلزمه من قراءات إضافية.

-تنمية القدرات الفكرية، أو الإجرائية الخلاقة لدى التلميذ[43]

إذن، بعد هذا الشرح يمكن أن نستكمل الجهد بتعريفنا التكنولوجيا كونها: العلم الذي يعنى بتحسين الأداء، والممارسة، والصياغة في أثناء التطبيق العملي(عبد العليم الفرجاني). ويقول غالبرت: " إنها التطبيق النظامي للمعرفة العلمية، أو أية معرفة أخرى لأجل تحقيق مهام عملية ".

فلابد من إعداد الإنسان المتعلّم، القادر على إجراء الممارسات الواعية، لمختلف نشاطات الحياة، التي تؤثّر، وتؤدي إلى تغيّر، وتطوير الحياة إلى الأفضل، بل لابد من الاهتمام بتكنولوجيا التربية، وتكنولوجيا التعليم، لأنهما أسلوب العمل الحديث.

فتكنولوجيا التعليم تشمل كل ما في التعليم من تطوّر المناهج إلى أساليب التعليم، ووضع جدا ول الفصول، باستخدام الحاسب الآلي(هوكريج). وعرّف روبرت جانيه تكنولوجيا التعليم بأنها:(تطوير مجموعة من الأساليب المنظّمة المصحوبة بمعارف علمية، لتصميم وتقويم وإدارة المدرسة بوصفها نظاماً تعليمياً).[44]

---

[41] مَيْسَاءُ أَحْمَدُ أبوشَنَبْ مرجع سابق، ص 49

[42] مَيْسَاءُ أَحْمَدُ أبوشَنَبْ نفسه، ص 49

[43] Kinder,J.audio visual material&techniques New york:American Book co.1959p.p-17.

وبعد دراسة الآراء والمفاهيم المتعددة للتكنولوجيا ، وتكنولوجيا التعلّم ، والوسائل التعليميّة التعلّميّة) نستخلص المؤشرات الآتية:[45]

أن تكنولوجيا التعلّم معنيّة بتحسين ، وتطوير عملية التعلّم ، والتعليم ، من خلال: رفع مستوى المنهاج ، تحسين ظروف المعلم ، تحسين الطرق والأساليب ، وزيادة قدرات المعلم ، والمتعلّم على التفاعل مع العملية التعليميّة.

أن الوسائل التعليميّة التعلّميّة ممارسات فكرية وعملية ، تهدف إلى تحسين عملية التدريس ، ورفع مستوى أداء المعلم ، وتوفير الجهد والوقت على المتعلّم ، وزيادة قدراته على الإدراك والفهم.

وتجمع الآراء على أن تكنولوجيا التربية والتعليم هي(طريقة في التفكير).

من هنا نرى أهمية تكنولوجيا المعلومات ، في أنها تسهم في تقديم التنوع داخل إطار الوحدة ، وتفريد التعلّم داخل جماعة واحدة ، وسوف تتيح على سبيل المثال ، أجهزة الحاسوب لدى التلاميذ ، فرصة إدخال تعديلات على المادة التعليمية ، بحيث تتيح للطلاب إتباع مسارات متباينة نوعاً ما ، والتعلّم على وفق معدلات أدائهم الخاصة ، وسيكون بإمكان كل تلميذ أن يحصل على تعليم مفصّل ، على وفق مقاييسه وطبيعة قدراته ، كما سيصبح بإمكان المعلمين ، والفنيين ، في مجال معيّن من مجالات العمل ، متابعة المستجدات في التقنيات في مجالات عملهم من وقت لآخر ، بل إن التدفّق المتزايد للمعلومات ، سوف يحفّز قدرات الاختبار ، والانتقاء لدى المتعلمين ، وسيصبح التعلّم بالتدريج ذاتياً ، وسوف توفّر أجهزة الحاسوب ، وشبكة الأنترنيت أفضل ما كتبه التربويون ، والمنهجيون ، وعلماء النفس ، وسيكون بإمكان المعلمين الاعتماد على هذه المادة ، كما ستتوافر الفرص أمام الطلاب لاستكشاف المواد التعليمية الجديدة ، على نح وتفاعلي وفي الوقت المناسب ، وستساعد على توفير الفرص التعليمية للأفراد ، الذين لم تتوافر لهم الفرصة للالتحاق بالمدارس. وأصبح من المؤكد أن أجهزة تكنولوجيا المعلومات ستساعد المعلمين في تقويم ، ومتابعة ، وتوجيه طلابهم. ولا ريب أن تكنولوجيا المعلومات ستساهم في تسهيل عملية تصميم المناهج التعليمية ، وتجريبها ، وقياس درجة كفاءتها ، وتطويرها ، وستساعد المعلمين على اكتشاف ألوان متنوعة لأساليب التدريس ، وستساعد التلاميذ على الحصول على المواد التعليمية المناسبة ، لقدراتهم ومواهبهم المتنوعة والمختلفة.[46]

دور المعلم: يعتقد بعض الباحثين أن استخدام تكنولوجيا التعليم ، وخاصة المستحدثات التكنولوجية يلغي دور المعلّم ، حيث يمكن للمتعلّم تلقي دروسه مباشرة ، من دون الحاجة إليه. بينما في ضوء تكنولوجيا التعليم ، يتغيّر دور المعلم من الملقّن إلى: مدير ، أو موجه ، ومرشد للتعليم ، من خلال تخطيطه للموقف التعليمي ، في إطار أسلوب النظم ، واختيار مصادر التعلّم ، التي تتناسب مع الأهداف التي خطّط لها ، وتسجيل ملاحظاته ، عن مدى تقدّم المتعلم ، ومن ثمّ توجيهه.

---

[44] ينظر :روبرت. جانييه ، أصول تكنولوجيا التعليم ، السعودية: جامعة الملك سعود ،ط1، 2000م ص ص 427 - 434، جزء 1. بتصرّف

[45] الكلوب, بشيرعبدالرحيم (التكنولوجيا في عملية التعلم والتعليم) /دار الشروق للنشر والتوزيع /عمان- الأردن 1993__ الباب الثاني (تكنولوجيا التعليم)- ص (38-3).

[46] مدكور ، علي أحمد (مناهج التربية وخيارات المستقبل)- الفصل الثامن — ص 345-348

وهو مطوّر وقائد للموقف التعليمي ، ويتأتّى ذلك عن طريق تمكّنه من بعض مهارات تشغيل الأجهزة ، ومصادر التعلّم ، والمواد التعليمية ، والبرامج ، وكيفية إنتاجها ، والقدرة على تقويمها ، وقيادته للمناقشات الصفيّة.

ويجب أن يكون لدى المعلّم اتجاه فكري ناضج ، للقدرة على التحليل العقلي ، وتنمية الفكر التساؤلي ، والتجدّد الفكري. ويعد ذلك من أبرز السمات للنم والمهني لكل العاملين في ميدان التعلّم. فالمعلّم هو منقذ البشرية من ظلمات الجهل ، عابراً بهم إلى ميادين العلم والمعرفة. أما إعداده فيتضمن تمسّكه بمبادئ المهنة ، ودستور أخلاقياتها ، بانتمائه إلى رابطة المهنة ، مطبقاً مبادئها. [47]

وظائف الوسائل والتقنيات التعليمية :[48]

-تعزيز الخبرات الإنسانية ، وتقديم معارف هادفة ذات معنى ، وإعداد المتعلمين لمواجهة التغيرات التكنولوجية السريعة ، من دون الشعور بالاغتراب تجاهها.

-التحوّل من التدريس بوساطة المعلّم ، إلى التعلّم بوساطة المتعلّم ، ومن الثبات إلى ديناميكية البناء في البرامج التعليمية.

-التوسّع في تقديم الخدمات التعليمية المتمثلة ، في جعل التعليم عملية مستمرة ، من خلال توفير فرص التعلّم غير النظامي ، لتحقيق مبدأ المرونة ، عن طريق التوسّع في تعليم الكبار ، والتعامل مع أطفال ما قبل المدرسة.

-جعل التعليم أكثر خصوصية وإنتاجاً ، عن طريق تكافؤ الفرص التعليمية ، والربط بين التدريب والتعليم وسوق العمل.

-تحسين نوعية التعليم ، من خلال زيادة مجال الخبرات التي يمر بها المتعلم ، ومواجهة النقص في كم وكيف المعلمين ، وتشجيع النشاط الذاتي ، والتعلّم الذاتي ، والتحوّل من التعليم إلى التعلّم المتمركز حول المعلم ، إلى التمركز حول المتعلم ، والتحوّل من السلوك الاستجابي إلى السلوك الإيجابي ، والاستقلالية في التعليم.

-زيادة الكفاءة العملية التعليمية ، عن طريق تعدّد أوعية المعرفة ، وتحقيق الأهداف التعليميّة ، بمختلف مستوياتها ، ومقابلة الفروق الفردية بين المتعلمين ، والتأكيد على التعلّم وبقاء أثره.

-التحوّل من التعليم محدود الأمد إلى التعلم مدى الحياة ، ومن التعلّم بثقافة التسلّط في العرض ، والتذكر ، والاسترجاع ، إلى ثقافة المشاركة والابتكار.

-مقابلة ازدياد الحاجة إلى الاعتبارات الجيدة التي يقيم بها المتعلم ، من خلال التحوّل من القفز إلى النواتج التعليمية ، إلى معالجة العمليات ، والتحوّل من ثقافة الحد الأدنى ، إلى ثقافة الإتقان ، والتمكّن ، والجودة ، وزيادة ثقة المتعلّم ، في أدائه بشكل جيد.

-تنمية البحث العلمي من خلال زيادة مجالات البحث والدراسة ، وتوفير طرائق البحث ، لتيسير الحصول على المعلومات ، وتنمية مهارات التفكير العليا.[49]

---

[47] أحمد, عبد الباقي محمد (المعلم والوسائل التعليمية) الاسكندرية ،مصر ،2005م ، ص 15-17 .

[48] مَيْسَاءُ أَحْمَدُ أبوشَنَبْ نفسه ، ص 49

[49] أمين, زينب محمد (إشكاليات حول تكنولوجيا التعليم)- المنيا/مصر- الفصل الرابع – ص (93-92-90).

وقد تطوّرت تكنولوجيا التعليم عن بعد، ومستويات أخرى من التكنولوجيا، خلال العقد الماضي، بشكل سريع. وحدث تغيّر هائل في عرض المعلومات من حيث ترميزها، ونقلها، وبشكل عام من حيث اتصالات المعلومات، وأصبح الدور الرئيس لمعلمي نظام التعليم عن بعد، يتطلب استخدام تكنولوجيا المعدات، والأجهزة، بفاعلية، عند تقديم التعليم.

وهناك على الأقل خمس تقنيات لنظام التعليم عن بعد، يمكن للمعلّم أن يستخدمها هي:[50]

المواد المطبوعة من مثل:(البرامج التعليمية، ودليل الدروس، والمقررات الدراسية).

التكنولوجيا المعتمدة على الصوت(تكنولوجيا السمعيات) من مثل:(الأشرطة، والبث الإذاعي، والهواتف).

الرسوم الألكترونية من مثل:(اللوحة الألكترونية، الفاكس).

تكنولوجيا الفيديو:(التلفزيون التربوي، التلفزيون العادي، الفيدي والمتفاعل، أشرطة الفيديو، أقراص الفيديو).

الحاسوب وشبكاته من مثل:(الحاسوب التعليمي، مناقشات البريد الألكتروني، شبكة الأنترنيت، مناقشات الفيدي والرقمي).

ويرى برا ون وهينشيد(Brown/، B-Henscheid، 1997 j): أن دور المعلم الذي يستخدم التكنولوجيا في التعليم عن بعد، سواء كان ذلك في التعليم التقليدي، أم في التعليم عن بعد، يتلخص في المهام الآتية:

دور الشارح باستخدام الوسائل التقنية(Presentational user of technology).

دور المشجّع على التفاعل في العملية التعليمية التعلميّة(Interactive user of technology).

دور المشجّع على توليد المعرفة والإبداع(generative user of technology).

تشجيع دافعية الطلاب.

تطوير التعليم الذاتي.

استخدام تقنية الحاسوب ودورها في العملية التعليمية: لابد في البداية أن نؤكد مرة أخرى انه من الخطأ ربط مصطلح التكنولوجيا باستعمال الحاسوب / الكمبيوتر والأجهزة الحديثة كما يضن الناس عموما فهذه نظرة محدودة وقاصرة، فالحاسوب ما ه وإلا نتيجة من نتائج التكنولوجيا: بينما التكنولوجيا تمتد لتعني طريقة التفكير وحل المشكلات، فهي أسلوب تفكير كما اشرنا وطريقة يسلكها الفرد للوصول إلى نتائج مرضية أي إنها وسيلة وليست نتيجة، وفي السنوات الأخيرة بدا استخدام الحاسوب في العملية التعليمية التعلمية في العديد من الدول خاصة المتقدمة منها، والحاسوب ليس مجرد وسيلة تعليمية بل ه وأيضا مجموعة وسائل في وسيلة واحدة لكونه يقوم بوظائف جديدة وعديدة قد نعجز عن تأديتها وتحقيقها بأسلوب غيره فه ويوفر بيئة تعليمية تفاعلية ذات اتجاهين كما يعتبر الكمبيوتر مدخلا ا ومنهجا في مجال تعليم وتعلم مختلف

[50] مَيْسَاءُ أَحْمَدُ أبوشَنَبْ : مرجع سابق، ص 54

الموضوعات الدراسية ، ومع تطور أجهزة الكمبيوتر ونظريات التعلم والتعليم تطور هذا المدخل وأصبح ظاهرة لها مدلولها ومبرراتها وأثارها في عمليتي التعلم والتعليم [51].

إن استخدام الكمبيوتر في العملية التعليمية التعلمية يعتبر من أحدث المجالات التي أدمج فيها هذا الجهاز المعروف ، فالمعلمون يقومون دائما بالبحث عن وسائل تساعدهم على أداء وظيفتهم التعليمية من اجل الوصول إلى تعليم أفضل ، فتارة يستخدم المعلم الصورة الملونة وتارة الأشكال المجسمة إلى جانب استخدام السبورة والكتب وبعض المعدات والأجهزة البسيطة ، وفي هذا العصر ظهرت بعض الأجهزة الحديثة مثل أجهزة التسجيل والميكروسكوب والتلسكوب وأجهزة الإسقاط الخلفية والأفلام التعليمية وأجهزة العرض السينمائي وأجهزة التلفزيون التعليمي وغيرها ، ورغم تعدد هذه الوسائل وتنوعها فان كل وسيلة تخدم هدفا محددا ، وقد تكون هذه الوسائل معقدة في تركيبها واستخدامها في بعض الأحيان ، كما أنها مرتفعة التكاليف مما أدى إلى إحجام الكثير من المدارس عن شرائها واستخدامها [52]

يمكن توظيف الحاسوب لخدمة أغراض التعليم والتعلّم في مجالات كثيرة منها:[53]

التعلّم الفردي: حيث يتولى الحاسوب كامل عملية التعليم والتدريب والتقويم.

الحاسوب كوسيلة تعليمية: وفيها يستخدم كوسيلة تعليمية مساعدة للمعلّم.

الحاسوب بوصفه مصدراً للمعلومات: حيث تكون المعلومات مخزنة في جهاز الحاسوب يستعان بها عند الحاجة.

فلاشك أن ايجابيات استخدامه كثيرة من: تفريد التعليم ، ومراعاة الفروق الفردية بين الطلبة ، والمشاركة الايجابية النشطة ، وتحسين نوعية التعليم ، وتزويد المتعلّم بتغذية راجعة فورية ، والمساعدة على تقويم استجابات الطلبة ، وعدم إشعار الطالب بالحرج بسبب إجابته الخاطئة ، وإمكانية ربطه بأنواع من الوسائط المتعددة ، وإمكانية تقديم خدمات تعليمية لعدة مناطق نائية ، وإمكانية استخدامه في تقديم أشكال مختلفة من الخبرات التعليمية من مثل:(التعليم التكاملي والعلاجي وإثراء التعليم) وإمكانية توصيله بشاشة جهاز تلفاز كبيرة أو CD ، يسمح للمدرس باستخدام جهاز واحد في الصف ، لمتابعة إلقاء الدرس أو للتوضيح.

ويكون دور المعلم في توظيفه في التعليم مهماً للغاية ، كونه أحد أركان العمليّة التعليميّة ، وه ومفتاح المعرفة ، والعلوم بالنسبة للطالب ، وفي التعليم باستخدام الحاسوب تزداد أهميته ويتعاظم دوره ، فالحاسوب يحتاج إلى معلّم ماهر ، متقن أساليب واستراتيجيات التعليم باستخدام الحاسوب ، متمكّن من مادته العلمية ، راغب في التزوّد بكل حديث في مجال تخصصه ، ومؤمن برسالته أولاً ، ثم بأهمية التعليم المستمر.[54]

---

[51] نور الدين زمام صباح سليماني : تطور مفهوم التكنولوجيا و استخدماته في العملية التعليمية ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ع 11 2013 ص 168

[52] منظمة الأمم المتحدة للتربية و الثقافة ، التقرير العالمي لليونسكو : من مجتمع المعلومات الى مجتمعات المعرفة ، باريس ، 2005 ، ص 88-87

[53] *عبد الله سالم المناعي : التعليم بمساعدة الحاسوب* وبرمجياته التعليمية ، حوليات كلية التربية ، جامعة قطر ، ع 13 ، ص ص433-434

[54] معمر ، مجدي (استخدام الحاسوب في التعليم) - سلسلة الحاسوب في التعليم (1) - مصر/القاهرة - 2005/ ص (14-9).

لقد أدى استعمال الوسائط التكنولوجية عامة في التربية والتعليم إلى ظهور مصطلحات جديدة مثل التعليم الافتراضي والتعليم الالكتروني ويشير هذا المصطلح الأخير إلى مجال واسع لاستعمال هذه التكنولوجيا الجديدة من العمل على الحاسوب في قاعات التعليم ، إلى التواصل عن بعد مع برنامج دراسي كامل ، ويتميز عن التعليم التقليدي بمرونة في إدارة التعلم واستقلال ذاتي في اكتساب المعارف ، ويعد الانترنت الوسيط المفضل لهذا التعلم الذاتي غير الرسمي ، حيث يسرت ظهور جامعات وثانويات افتراضية ، لكنها تكاد تقتصر على الدول الغنية لأنها تحتاج إلى حواسيب قوية وتوصيلات عالية التدفق وتأطير فني وعلمي متخصص للتعامل ، مع تحميل المواد الدراسية ومستلزماتها التربوية ، وه والأمر الذي عادة ما يفوق طاقة الكثير من دول الجنوب[55].

لذلك كان لابد من التدريب على استخدام الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات. لأن الحاسوب مثال التكنولوجيا المتطوّرة في خدمة المتعلّم ، والمعلّم ، وأغراض التدريب ، والإدارة المدرسية ، ومطوّري المناهج ، وواضعي السياسات التربوية. وه وما نجده في دول الغرب المتقدم ، الذي أعطى الأهمية والاهتمام الأكبر للتعليم من ا ول مرحلة إلى أعلى مستوى.

خاتمة: وفي ختام هذه المداخلة نستنتج أن تقنيات أو تكنولوجيا التعليم هي عملية مركبة تشمل الأفراد والأساليب والأفكار والأدوات والقواعد التي تتبع في تحليل المشكلات ، واستنباط حلولها المناسبة وتنفيذها ، وتقويمها ، وإدارتها في المواقف التي يكون فيها التعليم هادفا وموجها فيمكن التحكم فيه. وهي عملية الإفادة من المعرفة العلمية وطرائق البحث العلمي بعلاقاته المتشابكة بغرض بناء سلوك معيّن في المتعلّم مستعينة في ذلك بالإنسان والآلة. وتركّز تكنولوجيا التعليم على تحسين وتطوير عملية التعليم والتعلم التي يتلقاها هذا الإنسان في المؤسسات التعليمية المختلفة. وعلى هذا الأساس تكون تكنولوجيا التعليم في أوسع معانيها تخطيطًا ، وإعداداً ، وتطويرًا ، وتنفيذًا ، وتقويمًا كامًلا للعملية التعليمية ، وبوسائل تقنية متنوعة تعمل جميعها في انسجام مع العناصر البشرية لتحقيق الغاية من التعليم والارتقاء به ليكون تفاعلا متبادلا بين كل من(التكنولوجيا والبيئة – التكنولوجيا والمعلم –التكنولوجيا والمتعلم). ولمّا كان دور المعلّم في التعليم التقليدي ه وتقديم الحقائق والمعلومات للمتعلّم ، فإنّه يتحوّل في ضوء تكنولوجيا التعليم إلى تعليمه كيف يتعلم ، وهذا يتطلب حسن احتواء المتعلم كي يقوم بمسؤولية تعلمه على أساس من الدافعية الذاتية ، ومساعدته على أن يكون باحثًا نشطًا عن المعلومات لا متلقياً لها ، كما يقوم المعلم بتصميم أنشطة تعليمية ، وتوفير الوسائل والتقنيات اللازمة لها. وليست تكنولوجيا التعليم هي الأساليب الحديثة للعملية التربوية ، أو استخدام الآلات والأجهزة التعليمية فقط ، وإنّما هي طريقة تفكير ومهارات تدريس. ولا تعني وسائل تكنولوجيا التعليم فقط الحواسيب ووسائل الإعلام ، وإنما تعني أيضًا السبورة والطباشير ولوحات العرض ومعامل اللغات. ولكن مع ذلك لا تزال العملية التعليمية تفتقر إلى حلّ بعض مشاكلها ؛ وذلك لأنّ الواقع شيء آخر ، يحتاج إلى المزيد من الجهد والعمل ، للرقي بها ، خاصة في دول العالم الثالث.

[55] مجدي عزيز إبراهيم ، المنهج التربوي و تحديات العصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، 2006 ، ص 124

قائمة المراجع:

ابراهيم عبد الوكيل الفار— (2000م) ، يناقش تربويات الحاسوب ، فلسفة البواعث ودواعي التطبيق ،دار الكتاب الجامعي.
أحمد سالم(2004م) ، تكنولوجيا التعليم والتعلم الالكتروني ، الرياض ، دار النشر الدولي ، الرياض
أحمد ، عبد الباقى محمد(2005م) ، المعلم والوسائل التعليمية ، الإسكندرية ،مصر
أسامة محمد سيد وعباس حلمي الجمل(2014م) ،الاتصال التربوي رؤية معاصرة ، دار العلم والإيمان ، دمشق.
أمين ، زينب محمد(2001 م) ، إشكاليات حول تكنولوجيا التعليم ، دار الهدى ، المنيا ،مصر.
إيمان على قادى(1428ه) ، واقع استخدام الموسائل المتعليمية والمتقنيات المحديثة. في تدريس الملغة. الإنجليزية في المرحلة المتوسطة ، ماجستير ، جامعة أم القرى.
حسن عبد الله النجار(2009م) ، برنامج مقترح لتدريب أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأقصى على مستحدثات تكنولوجيا التعليم في ضوء احتياجاتهم التدريبية ، مجلة الجامعة الإسلامية(سلسلة الدراسات الإنسانية (المجلد السابع عشر ، العدد الا ول.
حمدان ، محمد زياد(1986م) ، وسائل وتكنولوجيا التعليم مبادؤها وتطبيقاتها في التعليم والتدريس ، سلسلة التربية الحديثة ، دار التربية الحديثة(قضايا وخطة إجرائية عامة لوسائل وتكنولوجيا التعليم) ، عمان ، الأردن.
الحيلة محمد(2001م) التكنولوجية التعليمية والمعلوماتية ، دارا لكتاب الجامعي ، العين.
الحيلة محمد(2007م) تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية التعلمية ، دارا المسيرة عمان ، الأردن
خالد ، نزيه(2005 م)(الجودة في الإدارة التربوية والمدرسية والإشراف التربوي)- دار أسامة- المشرق العربي- عمان/الأردن- ط1 -
خميس ، محمد عطية(2003م)(تطور تكنولوجيا التعليم) -دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع -القاهرة/مصر.
الدبسى ، رضوان(2003م) ،تحديث طرائق تعليم اللغة العربية- تكنولوجيا التربية وأنشطته ، مجمع اللغة العربية دمشق.
روبرت. جانبيه(2000م) ، أصول تكنولوجيا التعليم ، السعودية: جامعة الملك سعود ،ط1 ، جزء 1.
الشرهان جمال عبد العزيز(2000م) ، الوسائل التعليمية ومستجدات تكنولوجيا التعليم ، مطابع الحميضي ، الرياض.
صبري ماهر اسماعيل(2002م) ، الموسوعة العربية لمصطلحات التربية وتكنولوجيا التعليم ، الرياض ، مكتبة الرشد.
عبد الرحمن كدوك(2011م) ، التكنولوجيا والوسائل التعليمية في عملية التعليم والتعلم ، مجلة دراسات تربوية ، كلية التربية ، جامعة إفريقيا العالمية ، ع1
عبد الله سالم المناعي(1995م) ، التعليم بمساعدة الحاسوب وبرمجياته التعليمية ، حوليات كلية التربية ، جامعة قطر ، ع 13
عبد الله عمر ،(1999م) ، الفرا المدخل إلى تكنولوجيا التعليم ، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ،
عبدالله عطار(2002م) ، إحسان كنسارة: وسائل الاتصال التعليمية ، كلية المعلمين ، جامعة ام القرى ، ط4 ،
على عبد المنعم(2000م) ، المستحدثات التكنولوجية فى *مجال التعليم* ، بحث مقدم إلى ورشة العمل ، الكويت
الفتلاوي ، سهيله(2008م) ، الجودة في التعليم ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن
الفرجاني عبد السلام ،(2002م) ، التكنولوجيا وتطور التعليم ، دار غريب ، القاهرة
فضيل دليو ،(2010م) التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال الاستعمالات الآفاق ، دار الثقافة ، الأردن ، عمان
القاضي زياد وآخرون(2000م) مقدمة إلى الانترنت ، دار الصفاء ، الأردن ، ط1
الكلوب ، بشيرعبدالرحيم(1993م) ،التكنولوجيا في عملية التعلم والتعليم ،دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن
مجدي عزيز إبراهيم(2006م) ، المنهج التربوي وتحديات العصر ، عالم الكتب للنشر والتوزيع القاهرة
محمد جابر خلف الله(2008م)، واقع المستحدثات التكنولوجية بالمعاهد الأزهرية والحاجة لإقتنائها فى ضوء المتغيرات العصرية ، مجلة كلية التربية جامعة الأزهر ، عدد يناير
محمد عطية خميس(2003م) ، منتوجات تكنولوجيا التعليم ' دار الكلمة للنشر والتوزيع
مدكور ، علي أحمد(1905م) ، نظريات المناهج التربوية ، دار الفكر العربي
مركز التقنيات التربوية(2002) ، دليل التقنيات التربوية ، الرياض ، الادارة العامة لتقنيات التعليم
معمر ، مجدى(2005م) ، استخدام الحاسوب فى التعليم ، سلسلة الحاسوب فى التعليم ، مصر ، القاهرة
مكتب اليونسك والإقليمي للتربية في الدول العربية1988م ، التجديدات في التربية العلمية والتكنولوجية. المملكة الأردنية الهاشمية ، م2

ممدوح محمد عبد المجيد(2000م)، مدى وعى معلمى العلوم بمستحدثات تكنولوجيا التعليم واتجاهاتهم نح واستخدامها.الجمعية المصرية للتربية العلمية :المؤتمر العلمي الرابع(التربية العلمية للجميع -)القرية الرياضية بالإسماعيلية ، من 31 يوليو- 13 أغسطس) المجلد الا ول ،
منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة(2005م)، التقرير العالمي لليونسك و: من مجتمع المعلومات إلى مجتمعات المعرفة ، باريس
مهران عادل ، (1992م)التربية التكنولوجية ، في التعليم الأساسي ، مؤتمر مصر ، مج2
مَيْسَاءُ أَحْمَدْ أبوشَنَبْ(2007م)، تكنولوجيا تعلّم اللغة العربية في الحلقة الا ولى من التعليم الأساس ، ماجستير بالأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك
نور الدين زمام ، صباح سليماني(2013م)، تطور مفهوم التكنولوجيا واستخدماته في العملية التعليمية ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، ع 11
يسن عبد الرحمن قنديل(1999م)، الوسائل التعليمية وتكنولوجيا التعليم ، الرياض ، دار النشر الدولي.
Cay Mainwaring what is educational technology، dundee college of education ، 1974، p4
Heinich، Molenda، Russell & Smaldino Instructional audiovisual Technology and Media for Learning ، Macmillan Publishing Company، 1993، p14
Kinder، J.audio visual material&techniques New york:American Book co.1959p.p-17

مقومات نجاح القطاع السياحي في ماليزيا وإمكانية الإفادة منها في تنمية السياحة في العراق – دراسة تاريخية اقتصادية مقارنة

ا.م.د. ماهر جبار محمد علي الخليلي
كلية الامام الكاظم – بغداد– العراق
Dr. Maher Jabber Mohammed Ali Al Khaleeli
Imam Al - Kadhim College - Baghdad - Iraq

مقدمة

السياحة بديل النفط أو نهر الذهب ، هو قطاع واحد ولكنه على استعداد ان يشغل كل القطاعات الأخرى ويتربع على عرشها ، ولكن لمن يحسن توظيفه واستخدامه بطريقة مهنية وحرفية بعيدة عن التعقيد والتفكير السطحي.

يتطلب قطاع السياحة بدايةً رؤية سياسية واعية وواضحة ومستوعبة لحجم وقدرات وإمكانيات البلد السياحية ، ويحتاج أيضا إلى تحسينات في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، لأنه قطاع حيوي وفعال ومنتج ويستطيع توفير ملايين فرص العمل مع تحقيق تنمية كبيرة في المجالات الأخرى الصناعات الزراعية والحرف اليدوية والفنون والتجارة وغيرها.

ومن خلال نظرة عامة على وضع السياحة العالمية بشكل عام يمكننا ان نفهم حجم اهمية هذا القطاع للاقتصاد الوطني ، فقد ارتفع عدد السياح الدوليين في جميع أنحاء العالم من 880مليون سائح عام 2009 إلى 1133 مليون سائح عام 2014 ، أي بمتوسط معدل نمو سنوي قدره 5,2% ، وفي الحقبة نفسها ارتفعت إيرادات السياحة الدولية من 852 مليار دولار إلى 1245 مليار دولار ، أي بمتوسط معدل نمو سنوي قدره 7,9% [1].

وفي هذا الصدد شهد القطاع السياحي في ماليزيا تطورا كبيرا خلال العقود الثلاثة الماضية ، وأصبحت بفضله من اكثر البلدان جذبا للسواح من جميع انحاء العالم.

ومن اجل اكتشاف مقومات نجاح القطاع السياحي في ماليزيا لابد من بحث معمق في الإجراءات التحديثية التي تمت بداية قبل ان يصل هذا القطاع إلى ما وصل إليه ، ومن خلال هذه الدراسة تتم المقارنة مع واقع القطاع السياحي في العراق ومقوماته وإمكانية الإفادة من تجربة ماليزيا في هذا المجال.

سيكون البحث بثلاث محاور الأول يختص بالقطاع السياحي في ماليزيا وواقعه وامكانياته وكيفية تطويره ، فيما سيختص الثاني بالقطاع السياحي العراقي الحالي وواقعه وظروفه ، أما الثالث سيكون مقارنة تحليلية بين القطاعين وإمكانية الإفادة من مقومات نجاح قطاع السياحة في ماليزيا.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية البحث من أهمية القطاع السياحي وقدرته على المساهمة في زيادة مصادر الدخل القومي ، فضلا عن خلق فرص عمل واسعة وكبيرة ومساهمته في القضاء على البطالة.

اهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى وضع خارطة طريق لتحسين اوضاع القطاع السياحي في العراق بالاستناد إلى تجربة ماليزيا في النهوض بهذا القطاع الحيوي ونجاحها في جعله رافدا مهما من روافد الناتج القومي ومن خلال مقومات السياحة في العراق والعوائق أمام الاستثمار السياحي.

---

[1] السياحة الدولية في دول منظمة التعاون الاسلامي:الافاق والتحديات ، تقرير سياحي معد من منظمة التعاون الاسلامي ، مركز الابحاث الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الاسلامية ، 2015(سيسريك_ مركز انقرة)2015 ،ص4.

مشكلة الدراسة: تتعلق مشكلة الدراسة باستثمار القطاع السياحي بالشكل الافضل ، اذ تواجه السياحة في العراق عوائق عديدة وكبيرة وتتلخص مشكلة البحث بالتساؤلات الآتية وهي:

1- ما هي مقومات السياحة في العراق ؟

2- ما هي معوقات تطور القطاع السياحي في العراق ؟

3- ما الذي ممكن الإفادة من تجربة النهضة السياحية الماليزية خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

4- ما هي خارطة الطريق التي يجب السير فيها من اجل تنشيط السياحة في العراق.

القطاع السياحي في ماليزيا تاريخ وادارة :

تتولى هيئتان حكوميتان مسؤولية ادارة القطاع السياحي في ماليزيا ، الأول ى هي وزارة الثقافة والفنون والسياحة (Ministry of Tourism - Ministry of Culture, Arts and TourismMOCAT)[2] وهي المسئولة عن ادارة التخطيط الاستراتيجي لهذا القطاع وتتبعها مهام رقابية ومتابعة التعليمات الحكومية ، اما الهيئة الثانية هو مجلس ترويج السياحة الماليزي (MTPB) Malaysia Tourism Promotion Board) أو هيئة السياحة الماليزية)[3] الذي يتمثل دوره الرئيسي في تسويق وتعزيز الجوانب السياحية واقتراحات أو خلق فرص الاستثمار[4].

كما أن هناك بعض الوكالات الاتحادية المهمة التي تشارك أيضا وتساند عملية التنمية السياحية وتسهم بشكل فاعل ومتناسق ومتكامل في تطوير القطاع وزيادة الزخم عليه مثل:

وزارة الزراعة المؤسسة الحكومية والتي تدعم ما يسمى (السياحة الزراعية).

إدارة الغابات وهي أيضا هيئة حكومية وتساند ما تسمى (السياحة البيئية).

إدارة مصايد الأسماك وهي أيضا مؤسسة حكومية وتساند ما يسمى (السياحة الساحلية).

إدارة الحياة البرية والمتنزهات الوطنية وهي أيضا مؤسسة حكومية.

إدارة المتاحف والآثار (السياحة التراثية/الثقافية)[5].

كان الاقتصاد المحلي الماليزي في الستينيات ، وحتى سبعينيات القرن العشرين ، يعتمد بشكل أساس على السلع الأولية ، أهمها المنتجات النفطية والمطاط والقصدير وزيت النخيل ، في حين أن قطاع السياحة كان ضعيفا ولا يحظى بالاهتمام اللازم.

استلم التون عبد الرزاق حسين[6] رئاسة الوزراء عام 1970 وبدأ بسلسلة من الإجراءات المهمة في المجالين السياسي والاقتصادي ، وفي مقدمتها تأسيس وحدة التخطيط الاقتصادي (Economic Planning Unit)

---

[2] للمزيد ينظر : الموقع الالكتروني الرسمي : http://www.motac.gov.my/en/

[3] للمزيد ينظر : الموقع الالكتروني الرسمي : https://www.tourism.gov.my/

[4] AissaMosbah, Mohamed SalehAbd Al Khuja, A Review of Tourism Development in Malaysia, European Journal of Business and Management, Vol.6, No.5, 2014,p.2. www.iiste.org.

[5] Ibid, p2.

[6] التون عبد الرزاق حسين (1922-1976) : رئيس وزراء ماليزيا (1970-1976) يلقب بمهندس التنمية الريفية ، و(ابو التنمية)، أصبح مدير مجلس العمليات الوطنية الذي أنشئ بعد احداث 13مايس1969م ، له دور فعال في إعادة تأسيس العلاقات الدبلوماسية مع اندونيسيا عام1966 ، أسهم في تشكيل رابطة دول جنوب شرق آسيا (الآسيان) في عام 1967م ، توفي في 16 كانون الثاني 1976م. للمزيد ينظر :

Gin,OoiKeat, Historical Dictionary of Malaysia-Historical Dictionaries of Asia, Oceania, and the Middle East, No.71, The Scarecrow Press, Inc, United States of America, 2009, p.3.

(EPU) وجعلها تابعة لمكتبه ، وأصبحت بمثابة الوكالة المركزية للحكومة في التخطيط المتطور ،لأنها توفر احتياجات الاقتصاد الوطني من العمالة والموظفين والاختصاصات المهمة الأخرى ومن خلال هذه الوحدة تم وضع السياسة الاقتصادية الجديدة للحكومة (NEP)[7] والتي كانت طفرة نوعية بالاقتصاد الماليزي[8].

ساهمت سياسة الـ (NEP) في تحسين الأوضاع الاقتصادية في ماليزيا بشكلها العام ،وقدمت مساعدات على نطاق واسع للكثير من الماليزيين ، من خلال برنامج مكثف لمشاريع التنمية الريفية يقودها عدد من الهيئات التي ترعاها الحكومة[9].

في عام 1972 انشات مؤسسة تنمية السياحة في ماليزيا (Tourism Development Corporation of Malaysia (TDC)) لتكون بمثابة سلطة التطوير ، وبداية كان الاداء متواضعا ، كون ماليزيا كانت مجهولة سياحية بشكل كبير وكان الامر يحتاج إلى استراتيجية واضحة لتطوير هذا القطاع ولأساليب الترويج والتسويق[10].

رغبت الحكومة الماليزية في تنمية المناطق السياحية ، من اجل جعل السياحة مصدر جديد للنمو الاقتصادي ، وكان من الاهمية بمكان التفكير بهذا الاتجاه وأنتكون هناك برامج تطويرية لأحياء صناعة السياحة والترويج لها في السوق الدولية ، وكان هذا تحد حقيقي لماليزيا ، بسبب المنافسة الكبيرة من تايلاند وسنغافورة ، حيث تشتهر تايلاند بمعابدها ومزاراتها وشواطئها ، في حين أن سنغافورة هي جنة التسوق العالمي ، وبالتالي ، من الأهمية بمكان أن تقوم ماليزيا بتسويق منتجاتها السياحية والترويج لها حتى تكمل منتجات هذين البلدين المتجاورين[11].

في الثمانينيات دخلت السياسة الوطنية للسياحة (NTP) في عام 1981م مع وصول رئيس الوزراء الدكتور مهاتير محمد(1981-2003)[12] إلى السلطة ، حيث ركز منذ البداية على ضرورة تنويع مصادر الدخل القومي للبلاد وامن بشكل كبير بالقطاع السياحي ليكون رافدا مهما وقويا لواردات البلاد.

بدأت ماليزيا خطواتها الأول ى في مجال التنمية السياحية من خطوات رصينة وراسخة اذ تمت الدعوة إلى اجتماع لمنظمة السياحة والسفر التابعة لمنظمة آسيان وذلك في تشرين الأول 1981م ليكون ذلك بداية

---

[7] السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP1971-1990): وهي الخطط العشرينية التي وضعها رئيس الوزراء التون عبد الرزاق حسين عام 1971 بعد الاحداث الدامية في13 ايار1969 ، وتمحورت بشان الوحدة الوطنية بين سكان ماليزيا من الاصول الصينية والهندية مع الجنس الاصلي الملايو ، وركزت على موضوع القضاء على الفقر وإعادة هيكلة المجتمع من أجل فصل العرق عن النشاط الاقتصادي وقد حققت بعض من اهدافها في نهايتها. للمزيد ينظر :

R. S. Milne Reviewed, Malaysia-Beyond The New Economic Policy, Asian Survey, Vol.26, No.12, University of California Press,1986.

[8] Official Year Book, Malaysia 1972, p.50.

[9] Colin Mac Andrews, The Politics of Planning: Malaysia And The New Third Malaysia Plan 1976-1980,University of California, Asian Survey, Vol.17, No.3, (Mar,1977), p.293.

[10] AissaMosbah, Op,.Cit, p.3.

[11] Noorizan Mohamed, Conservation in Malaysia: Landscape, Tourism And Culture, Thesis submitted for the degree of Doctor of Philosophy, Institute of Advanced Architectural Studies University of York, 1995, p.146.

[12] مهاتير محمدTun Dr. Mahathir bin Mohamad (1925-): رابع رئيس وزراء لماليزيا (1981-2003) : تحولت ماليزيا بفضله الى دولة في مصاف الدول الكبرى في اسيا والعالم ، يعد بطل الملايو الاقتصادي ، طبيب جراح ثم صار سياسيا عام 1964 ، تم طرده من حزب (UMNO) عام 1970 ، بعد انتقاداته اللاذعة للحكومة ، ونشر كتابه الشهير (معضلة الملايو 1970) ، اعاده رئيس الوزراء التون عبد الرزاق بن حسين كوزير للتعليم ثم الصناعة في حكومته (1970-1976) ،ثم اصبح نائبا لرئيس الوزراء الثالث التون حسين اون (1976-1981) ، ثم أصبح رئيس حزب(UMNO) ورئيس الوزراء عام 1981-2003م ، ثم عاد الى رئاسة الوزراء عام 2018 ولازال. للمزيد ينظر:

Gin,OoiKeat, Op.,Cit, p.177.

لعمل اقليمي جماعي موحد يأخذ بنظر الحسبان مصلحة جميع الدول المتجاورة ، وقد اشار رئيس الوزراء الماليزي في الاجتماع إلى اهمية التعاون والتنسيق بين دول الاسيان من اجل التنمية الاقتصادية السريعة في مجال السياحة ، لخلق سوقا رائجة في المنطقة كونها غنية بالمعالم السياحية[13].

تم إيلاء اهتمام إضافي لقطاع السياحة خلال خطة ماليزيا الرابعة (1985-1981) والخامسة (1990-1986) مع المزيد من المخصصات العامة للبنية التحتية وتطوير المنتجات والتسويق والأنشطة الترويجية ، حيث بلغت المصروفات 125,5 مليون رينجت ماليزي بموجب الخطة الرابعة و132,1 مليون رينجيت ماليزي بموجب الخطة الخامسة ، وقد تميزت نهاية فترة الخطة الخامسة بشعار مهم ورؤية مستقبلية حمل عنوان " Visit Malaysia Year 1990" والتي حققت شهرة عالمية وجذبت 7,4 مليون سائح وإيرادات بلغت 4,5 مليار رينجت ماليزي[14].

تتوافق صناعة السياحة مع خطة التنمية الوطنية التي تتعلق باستراتيجيات السياسة الاقتصادية الجديدة ، وكان الهدف الرئيسي في الترويج للسياحة هو تقليل العجز في ميزان مدفوعات النقد الأجنبي ، وكذلك تشجيع التنويع الاقتصادي ، وكنتيجة لهذا الجهد ومع زيادة عدد السياح الدوليين الوافدين في منتصف الثمانينيات ، صنفت السياحة في المرتبة السادسة كأكبر مصدر للعملات الأجنبية في البلاد في عام 1988م[15].

في عقد الثمانينات كان أداء القطاع السياحي يتطور بشكل ملحوظ ، لاسيما بين عامي 1985 و1990م ، حيث كانت هناك زيادة سنوية قدرها 19% من إجمالي عدد السياح الوافدين ، بينما ارتفعت الزيادة في إيرادات السفر بنسبة 38%[16].

بموجب قانون تشجيع الاستثمار الذي شرعته الحكومة الماليزية عام1986وفرت للمستثمرين الأجانب فرص استثمارية واسعة ،حيث أدخلت العديد من البنود القانونية التي تسهل عمل المستثمرين ، ومن ابرزها اعطائه حق الريادة ويسجل في صنف المؤسسين لمدة 5 سنوات ، أو يعطى خيار بدل ضريبة استثمار يصل إلى 100% من النفقات الرأسمالية لاسيما لمشاريع الإقامة مثلا لفنادق والموتيلات والشاليهات وبيوت الشباب ، وكذلك مشاريع مراكز الترفيه ، والمراكز الثقافية والحرف اليدوية[17].

اما بالنسبة للشركات التي تم منحها بالفعل وضع الريادة ، سيتم منح بدل بناء صناعي بنسبة 10% (مبدئيًا) و2%سنويًا ، بالإضافة إلى ذلك ،تم منح إعفاءات من ضريبة الدخل لمنظمي الرحلات السياحية القادرين على جلب ما لا يقل عن 500 سائح داخلي في السنة ، من خلال جولات جماعية ، فضلا عن الحوافز الأخرى التي قدمتها الحكومة لتشجيع تطوير الصناعات ذات الصلة بالسياحة مثل ضريبة الخدمة ورسوم الترفيه التي تم تخفيضها من10% إلى 5% على الفنادق والمطاعم والمشاريع ذات الصلة بالقطاع السياحي[18].

---

[13] ماهر جبار الخليلي ، مهاتير محمد ودوره في تحديث ماليزيا 1969-1991م ، اطروحة دكتوراه منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد قسم التاريخ ، بغداد 2014 ، ص181.

[14] Aissa Mosbah, Op.,Cit, p.2.

[15] Noorizan Mohamed, Op.,Cit, p.146.

[16] Ipid, p.147.

[17] Noorizan Mohamed, Op.,Cit, p.148.

[18] Ibid, p.152.

كان الاستثمار متعدد الجنسيات في ماليزيا موجود وفي تطور مستمر ، ومع بداية عقد الثمانينيات من القرن العشرين تغيرت بوصلة الاستثمار نحو دول اخرى في مقدمتها اليابان والتي كانت المصدر الرئيسي للاستثمار تليها المملكة المتحدة والولايات المتحدة ثم اصبح التوجه فيما بعد نحو مصادر الاستثمار الإقليمية[19].

ومن اجل النجاح في رسم استراتيجية التنمية السياحية طلبت الحكومة الماليزية من الوكالة اليابانية للتعاون الدولي (JICA)[20]، المسؤولة عن برامج التعاون التقني لحكومة اليابان ، إجراء دراسة شاملة ووضع خطة وطنية لتطوير السياحة في ماليزيا ، وكانت هذه القناعة الحكومية من ضرورة الاستعانة بمستشار اجنبي نظرا لمحلية ومحدودية الخطط والبرامج السابقة للترويج للسياحة الماليزية ورغبت الحكومة إلى توسيع وتدويل هذه الاستراتيجية[21].

واستنادًا إلى الطابع المحلي والموقع المميز للدولة وإمكانية استغلال الموارد المتاحة ، تم تقسيم ماليزيا بأكملها إلى ستة مناطق سياحية رئيسية (الشكل رقم (1)) تكون كل منطقة مسؤولة عن الترويج وبيع المنتجات السياحية الخاصة بها ، وتم ذلك بالطبع من خلال التعاون بين مختلف الوكالات العامة والخاصة على المستوى الاتحادي ، منها المنظمة العامة الرئيسية المسؤولة عن الترويج السياحي الدولي وهي مجلس ترويج السياحة الماليزي (MTPB)، التابع لوزارة الثقافة والفنون والسياحة(MOCAT)، وبالتنسيق مع وحدة التخطيط الاقتصادي للدولة (SEPU) المسؤولة أيضا عن تشغيل القطاع الخاص ، فضلا عن تنسيق عالي مع شركة الخطوط الجوية الماليزية (MAS) هي شركة نقل وطنية بهدف توسيع دائرة تنفيذ الأنشطة الترويجية والتسويقية[22].

وعلى هذا الأساس تم تقسيم ماليزيا في تلك الحقبة إلى ستة مناطق سياحية كبرى وعلى شطري الدولة الغربي والشرقي ، حيث تمثل ذلك بالمناطق الاتية:

الأول : الغرب (West P) ويشمل مناطق بيراك وبيرليس وكيداه وبينانج.

الثاني: الشرق (East p) الشرق ويشمل كيلانتانوباهانجوتيرنغانو.

الثالث: المركز (Central P) ويشمل العاصمة كوالالمبور وسيلانغور وملقا.

الرابع: الجنوب (South P) ويشمل جوهوروايندو.

الخامس: ساراواك (Sarawak) ويشمل المركز أو الوسط والجنوب.

السادس: صباح (Sabah) وتشمل المركز ولابوان ومناطق اخرى.

الشكل رقم (1) [23]

توزيع المناطق الستة في ماليزيا

---

[19] Dwyer, Larry and Forsyth, Peter, Foreign Tourism Investment - Motivation and Impact, Annals of Tourism Research, Volume 21, No.3,1994, pp. 512-537.

[20] الوكالة اليابانية للتعاون الدولي (JICA): هي منظمة حكومية مستقلة تقوم بتنسيق المساعدة الرسمية للتطوير(ODA) لحكومة اليابان ، وتختص بمساعدة النمو الاقتصادي والاجتماعي في الدول النامية ، وتعزيز التعاون الدولي ، تأسست المنظمة الحالية في1 تشرين الاول 2003 كمنظمة حكومية مستقلة بينما كانت قبل ذلك تابعة لوزارة الخارجية اليابانية ، لديها شبكة تتكون من 97 مكتبًا في الخارج ، ومشاريع في أكثر من 150 دولة حول العالم بميزانية سنوية تصل إلى 1 ترليون ين ياباني: للمزيد ينظر : الموقع الالكتروني الرسمي للمنظمة: https://www.jica.go.jp/english/

[21] Dwyer, Larry and Forsyth, Peter, Op.,Cit, p.149.

[22] Government of Malaysia Malaysia - The Study on a Comprehensive National Tourism Development. Japan International Cooperation Agency, 1989, p.

[23] خارطة من اعداد الباحث لتوضيح توزيع المناطق السياحية الستة على خارطة ماليزيا المأخوذة من الانترنيت.

ومن خلال هذه الإجراءات يمكن ملاحظة الجدول رقم (1) لمعرفة حجم التطور الذي حدث خلال السنوات اللاحقة لهذه الحزمة من الإجراءات القانونية والتشجيعية والتي انعكست بشكل واضح على الاقتصاد الوطني والناتج القومي.

جدول يبين التأثير الإيجابي للأحداث الترويجية للسياحة في ماليزيا[24]

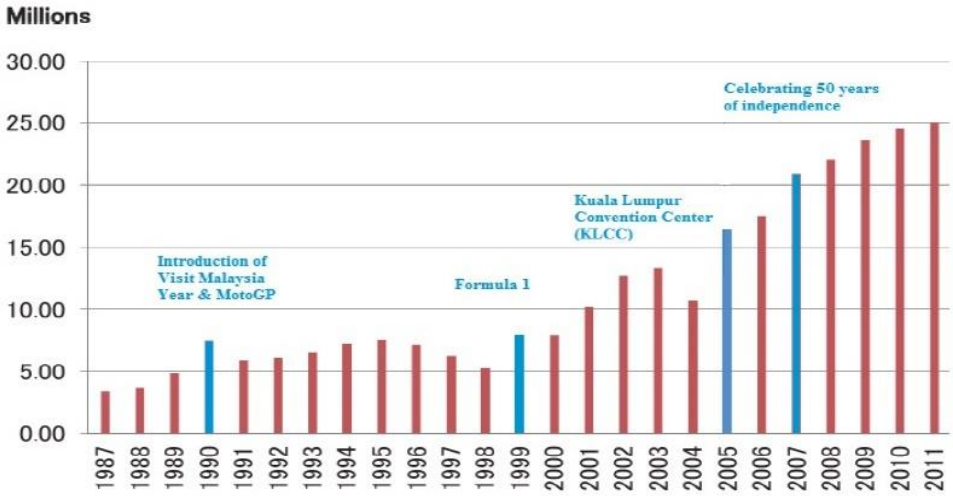

وفي قراءة متأنية لهذا الجدول المهم والذي يوضح بشكل كبير حجم التطور في صناعة السياحة في ماليزيا بفضل الإجراءات والسياسات التأسيسية الصحيحة منذ عام 1987 والذي كان فيه عدد السائحين لا يتجاوز الاربعة ملايين سائح ، ارتفع في عام 1990 إلى حوالي ثمانية مليون سائح ، بمعنى الضعف خلال ثلاث سنوات ، وقد استمر بهذا المعدل إلى عام 1997 الذي شهد أزمة مالية كبيرة لكل مناطق جنوب شرق اسيا وتأثرت ماليزيا بها بشكل كبير وعاد إلى حافة الخمسة ملايين سائح.

[24] Aissa Mosbah, Op,.Cit, p.7.

في عام 2001 شهد القطاع نموا كبيرا وطفرة نوعية إلى حافة الـ 10 ملايين سائح وان دل ذلك على شيء فإنما يدل على نجاح السياسة الادارية والترويجية لهذا القطاع وفي تلك المرحلة ، ليس هذا فحسب وانما كان هناك طفرة اخرى خلال السنوات (2001-2007) فقد تضاعف الرقم إلى 20 مليون سائح لتصبح ماليزيا من اهم الدول السياحية في العالم قبل ان تصل إلى الذروة في عام 2011 بوصول الرقم إلى 25 مليون سائح لتكون ثاني دولة سياحية في العالم.

بعد هذا الاستعراض للنشاط الكبير خلال ثلاثة عقود والنتائج المتميزة لإدارة القطاع السياحي لابد من معرفة الهيكلية الادارية لهذا القطاع من خلال الشكل رقم (2) وكيفية تدرج الهرمية من الاعلى إلى الادنى ، حيث يلاحظ ان ادارة هذا القطاع تبدا من خلال السلطة الاعلى وهو وزير الثقافة والسياحة ولا يوجد اي تقاطع مع سلطاته من اي جهة اخرى ، ثم يأتي الادنى وهي السكرتارية العامة لإدارة صناعة السياحة والتي ترتبط بها خمسة جهات مهمة في الدولة وهي (المكتبة الوطنية والارشيف الوطني والمتحف الوطني والمعرض الفني الوطني واخيرا مجلس ترويج السياحة الماليزي (Malaysia Tourism Promotion Board (MTPB)) المسؤول الأول عن الأنشطة التسويقية وهو اللاعب الرئيسي في الترويج للبلد كوجهة مفضلة على نطاق دولي ويقوم بأدوار كبيرة وواسعة ويرتبط بعدة مؤسسات وجهات منها في القطاع الخاص.

الشكل يبين صناعة السياحة في ماليزيا[25]

الهيكلية الإدارية لصناعة السياحة في ماليزيا

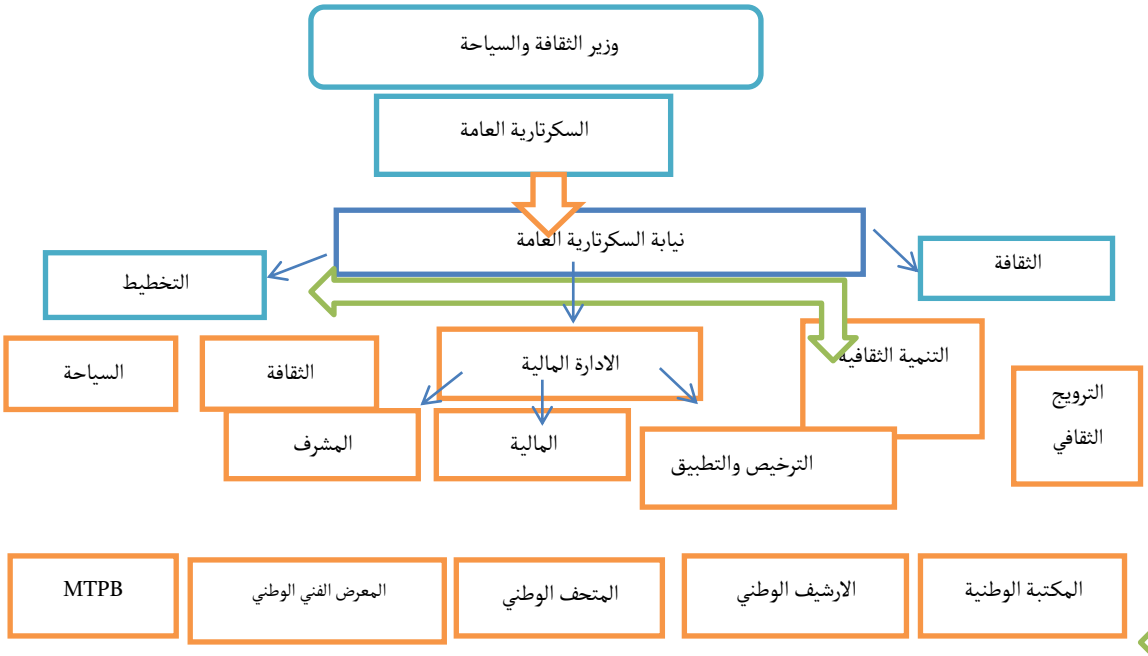

[25] من اعداد الباحث وفق معطيات المصدر : Noorizan Mohamed, Op.,Cit, p.155.

امام ايتع لقب نائب السكرتير العام نجد ان هناك ثلاث مؤسسات حكومية مهمة جدا ترتبط به ومنها يتم تنظيم
العمل بشكل تدرجي وهي ثلاث (الادارة المالية / الثقافة / التخطيط) حيث ترتبط بالإدارة المالية ثلاث مؤسسات (المشرف العام /الحسابات المالية/ الترخيص والتطبيق) وهي المسؤولة عن ترخيص الشركات السياحية والمهنية التابعة للقطاع بوجود مشرف عام ونظام الحسابات المالية، في حين ترتبط بالثقافة مؤسسة الترويج الثقافي ومؤسسة التنمية الثقافية، واخيرا التخطيط الذي يكون مسؤولا عن التخطيط للمؤسسة الثقافية والمؤسسات السياحية وهذا التنظيم نجده متدرج ومنحدر بشكل هرمي وعدم وجود تعارض أو تناقض أو تصارع بين الصلاحيات لكل جهة من الجهات.

وبذلك نصل إلى نهاية ما يتعلق بماليزيا من اجراءات وسياسات اسهمت بشكل كبير في نهضة سياحية كبيرة انعكست بمجملها على الاقتصاد الماليزي، وفي المبحث الثاني سوف نخوض في نشأة وإمكانيات وقدرات ومقومات القطاع السياحي في العراق لنصل في النهاية إلى دراسة مقارنة واقعية ووضع خطة مستقبلية للنهوض بالقطاع السياحي العراقي.

القطاع السياحي العراقي الواقع والطموح

السياحة قطاع هام جدا يمكن أن يؤد دورا هاما في التنمية الاجتماعية والاقتصادية إذا ما خطط له وأدير بشكل صحيح، والتخطيط للتنمية السياحية ضرورة وطنية عليا لأنها تسهم بشكل فاعل في زيادة الدخل القومي، ويمكنها توفير الالاف من فرص العمل وتشغيل الأيدي العاملة فضلا عن مساهمتها في ادخال العملة الصعبة إلى البلاد.

وفي حقيقة الامر ان العراق بلد محظوظ جدا بما يمتلك من امكانيات، اذ انعم عليه الباري عز وجل بنعم كثيرة وعديدة، تسابقت الايدي في اهدارها منذ عقود، حيث تتمنى البلدان نوع واحد من هذه الانواع لتنعم باقتصاد متنامي مريح ومستقر، فالقطاع السياحي بهذه الانواع ممكن جدا ان يكون بديلا للنفط ويغرق العراق بموارد كبيرة ومتنوعة لو احسن استغلاله بطريقة ادارية وفنية جيدة ولكن للأسف الاقتصاد يعتمد على تصدير النفط فقط.

وفي هذا الاطار لابد من الدخول من الباب الافضل لتحسين اوضاع السياحة وهو موضوع التنمية المستدامة والتي تعرف بانها " تلبي احتياجات السياح والمناطق المضيفة بحماية وتعزيز الفرص المتاحة للمستقبل، وتتوخى إدارة جميعا لموارد التي تمكن الوفاء بالاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية والجمالية مع الحفاظ على السلامة الثقافية، والعمليات الإيكولوجية الأساس ية ،والتنوع البيولوجي ونظم دعم الحياة"، وفي تعريف اخر" التنمية السياحية المستدامة والمتوازنة بأنها :" تنمية يبدأ تنفيذها بعد دراسة علمية كاملة ومخططة داخل إطار التخطيط المتكامل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية داخل الدولة ككل أو داخل أي إقليم من الدولة تتجمع فيه مقومات التنمية السياحية من عناصر جذب طبيعية وحضارية أو أيهما" وفي كلا التعريفين فإنها عملية تتطلب التخطيط المدروس والتنفيذ الجيد والمتابعة المستمرة [26].

على اية حال فان تشغيل القطاع السياحي في العراق يحتاج إلى مقومات ويحمل العراق إرثاً سياحياً عميقاً يعود إلى الألف السابع ق. م، حيث توافد الحضارات المختلفة للسومريين والاكديين والبابليين والآشوريين وغيرهم، وبالتالي لابد من التعرف على الواقع ميدانيا وتحديد المقومات النهوض بهذا القطاع المهم.

[26] هديل موفق محمود، السياحة واستثمار دور المراقد المقدسة فى تحقيق تنمية عمرانية مستدامة (مدينة سامراء حالة دراسية)، الجامعة التكنلوجية - قسم الهندسة المعمارية .

هناك عدة تعريفات لمصطلح السائح والذي تطور عبر الزمن ولكن التعريف الاهم هو تعريف الامم المتحدة في مؤتمر روما عام 1963عرفت السائح ((بانه الشخص الذي يسافر إلى بلد اخر غير البلد التي بها موطنه ويقيم به لمدة تزيد عن اربع وعشرين ساعة من دون ان تطول اقامته إلى الحد الذي يعد فيه البلد الاجنبي موطنا له))[27].

أولا/ ادارة السياحة في العراق:

تعرض القطاع السياحي العراقي للكثير من الازمات لأسباب كثيرة ولكن قبل الدخول في واقع هذا القطاع ومعوقاته لابد من معرفة نوعية ادارة هذا القطاع قديما وحديثا.

شهدت ادارة السياحة تغييرات مهمة ، في المدة من 1940 وحتى 1956 كان القطاع السياحي تحت إشراف لجنة المصايف العراقية ، ثم أنشئت مصلحة المصايف والسياحة خلال السبعينيات ، بينما في نهاية الثمانينيات تم إنشاء كل من: المؤسسة العامة للسياحة ، والمديرية العامة للسياحة ، وفي عام 1996 تم استحداث الهيئة العامة للسياحة التي ألحقت بعد خمسة أعوام تالية بوزارة الثقافة العراقية ، وقد كللت هذه الجهود مؤخراً ، باستحداث أول وزارة للسياحة والآثار في تأريخ العراق في العشرين من تشرين الأول عام2012 ، وفق الثوابت التي أقرها الدستور العراقي وعلى رأسها اعتماد السوق الحر في إدارة وتوجيه الاقتصاد عموماً[28].

تشكل السياحة مصدرا مهما وأساس يا من موارد البلدان ، لا سيما الدول التي تمتلك عناصر ومقومات نجاح سواء كانت الطبيعية منها أو البشرية ، والعراق يمتلك مقومات نجاح كثيرة ولكنها غير مستثمرة بشكل جيد ، طبعا لوجود الكثير من المعوقات التي حالت دون النهوض بهذا القطاع المهم في تنمية البلاد.

جدول رقم (3) يتضمن تقسيم المناطق العراقية حسب التضاريس وبالنسب المئوية من مساحة العراق الكلية ، ومن ذلك يمكن تحديد العديد من المصايف والمناطق السياحية الرائعة والجميلة والتي يبحث عنها السائح عادة حيث وجود الشلالات والعيون الطبيعية :

جدول يبين المناطق الطبيعية في العراق [29]

نوع المنطقة	المساحة كم2	النسبة%
الجبلية	92000	20,99
المتموجة	42500	9,69
الصحراوية	167000	38,09
البحيرات والاهوار	123000	30,22
منطقة الحياد	3522	0,80
المياه الاقليمية	924	0,21
المجموع	436446	%100

[27] مؤتمر الأمم المتحدة الدولي للسفر والسياحة المنعقد في روما عام 1963 ، حيث تم تعريف مصطلحات (زائر)، (سائح) ، (رحلة) وبعد ذلك تم فحص التعاريف من فريق خبراء الأمم المتحدة الدولي لإحصاءات السفر عام 1967 والتي أقرتها اللجنة الإحصائية بالأمم المتحدة عام 1968.
Recommendations on Tourism Statistics, United Nations, Department for Economic and Social Information and Policy Analysis, Statistical Division and World Tourism Organization, Statistical Papers Series M No. 83, United Nations, New York, 1994, p.3.

[28] محسن حسن ، السياحة الدينية في العراق : الواقع والمأمول – دراسة وصفية ، مركز البيان للدراسات والتخطيط ، بغداد ، 2018م ، ص8.

[29] هيئة السياحة والاثار ، دائرة التقييس ، احصاء 2007.

نلاحظ ان النسبة الاكبر من مساحة العراق هي النسبة الصحراوية بحدود 40% ، ثم البحيرات والاهوار بنسبة 31% ، ثم تأتي المنطقة الجبلية بـ21% والرابعة هي المنطقة المتموجة بحدود10% ، وهذا يعني ان نسبة المناطق الصالحة للسياحة تتشكل من الجبلية والمتموجة والبحيرات والاهوار بنسبة60% من مساحة العراق الكلية ، وهي نسبة كبيرة جدا وغير مستثمرة.

شهدت حقبة السبعينيات والثمانينيات نمو قطاع السياحة في عدة محافظات منها بغداد والبصرة وكربلاء والنجف فضلا عن السياحة الترفيهية في مناطق شمال العراق ، وتم تشجيع القطاع الخاص للاستثمار فيها ، وبناء القرى السياحية في الحبانية وسد الموصل والثرثار وغيرها فضلا عن مجال الايواء الفندقي حيث قدمت عروض ميسرة تصل قيمتها إلى 70 % من قيمة المنشاة ، مما زاد عدد الفنادق لتصل إلى 1500 فندق عام 1980 الا ان عدد هذه الفنادق انخفض إلى 850 فندق عام 2001 واستمر هذا التدهور بعد عام 2003 حيث تعرضت العديد من المنشآت السياحية إلى التدمير والسلب والاستغلال من قبل القوات الاجنبية[30].

كما ان المناخ احد المقومات الأساس ية في تطور السياحة ، وتبرز أهميته كونه يحدد إمكانية الإفادة من المصادر السياحية سواء كانت طبيعية أم من صنع الإنسان ، والمناخ في العراق متنوع حسب المناطق ، ففي المنطقة الشمالية تكثر الجبال والتي شكلت حسب الجدول السابق 21% من مساحة العراق وفي المرتبة الثالثة ، وهي تفيد في السياحة الصيفية من مناظر طبيعية وتدفق الشلالات ، والمنتشرة بشكل كبير على محافظات اربيل ودهوك والسليمانية[31] ، كما انها تفيد في السياحة الشتوية من خلال مناظر تساقط الثلج أو فعاليات التزحلق على الجليد وهي غير موجودة اصلا في العراق ولكن ممكن جدا ان تستحدث ويوفر لها الاجواء المناسبة ، وهذه الامكانيات لها أهميتها الكبرى في صناعة السياحة الحقيقية والمنتجة ، حيث إن التطوير يرتكز على المواقع والامكانيات المتوفرة الطبيعية والبشرية[32]

جدول يبين مؤشرات قطاع السياحة في العراق للسنوات 2000 - 2015[33]

السنة	الفنادق ومجمعات الايواء السياحي	عدد المشتغلين	اعداد السياح الاجانب	مجموع الايرادات مليون دولار
2000	836	8435	78	13,62539
2001	860	14008	127	43,32763
2002	942	7378	176	73,49157
2003	894	5335	1395	41,44559
2004	838	5659	381	32,10943

[30] سحر كريم كاطع ، المنظور الاستراتيجي لقطاع السياحة في العراق ، جامعة القادسية ، كلية الادارة والاقتصاد ، قسم الاقتصاد ، 2014 ، ص14.

[31] إن وجود الشلالات والمساقط المائية في اية منطقة تعد ذات قيمة سياحية عالية ،وتظهر في المنطقة الجبلية شلالات عديدة اهمها شلال كلي علي بك على نهر راوندوز احد روافد نهر الزاب الكبير ، وشلال بيخال على نهر روباري كوجك احد روافد الزاب الكبير ايضا شلالات انشكي في مصيف سرسنك وشلالات منطقة الموصل على نهر الخوصر وغيرها كثير. ينظر بشكل واسع : آزاد محمد أمين ، المقومات الجغرافية لنشوء وتطور السياحة في المنطقة الجبلية من العراق ، مجلة كلية التربية ، عدد 2 ، مديرية دار الكتب ، جامعة البصرة ، البصرة ، 1979 .

[32] عادل سعيد الراوي ، إمكانات العراق السياحية في المادة الخام الطبيعية (المناخ) ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، العدد26 ،مطبعة العاني ، بغداد ، 1991 ، ص215 0

[33] كريم سالم حسين وقاسم جبار خلف ، تنمية القطاع السياحي في العراق المقومات .. التحديات .. المتطلبات ، جامعة القادسية ، كلية الادارة والاقتصاد ، مجلة القادسية للعلوم الادارية والاقتصادية ، المجلد 18 ،العدد1 لسنة 2016 ، ص155.

2005	715	4789	102	209,2975
2006	505	3349	517	203,2243
2007	492	4574	915	605,8112
2009	662	6065	864	1533,739
2010	751	6071	1262	1859,807
2011	929	7109	1510	1707,661
2012	1084	7491	1510	1821,383
2013	1267	8830	1111	224,1784
2015	1296	8182	892	351,4735
معدل النمو المركب	2,98			24,33

يوضح الجدول عدد الفنادق ومجمعات الايواء السياحي قد ازداد من 836فندق عام 2000 إلى 1296 فندق عام 2015 بنسبة زيادة اقل من 3% وهو مؤشر على عدم نمو القطاع بشكل جيد وعدم وجود استراتيجية لتطوير القطاع.

وفي الجانب الاخر من المؤشرات هو عدد المشتغلين الذين قل عددهم ولم يرتفع من 8435عامل عام 2000 إلى 8182 عامل عام 2015 بما يؤكد عدم استيعاب قطاع السياحة للبطالة المتوسعة في العراق بشكل كبير، اما مؤشر عدد السياح الاجانب فهو المؤشر الاسوأ في هذا الجدول لأنه يشير إلى شبه انعدام العملة الاجنبية الداخلة للبلد من خلال ارقام السياح الاجانب الذي يشير عام 2015 إلى 892 سائح فقط.

ثانيا / واقع السياحة ومقوماتها: يمكن تصنيف انواع السياحة في العراق حسب النوع:

السياحة التاريخية والتراثية.

السياحة الدينية.

السياحة الترفيهية.

السياحة البيئية.

السياحة التعليمية.

وفي هذا التصنيف نجد ان العراق يمتلك ثروة سياحية هائلة غير مستثمرة، وبما ان السياحة تمثل قطاع اقتصادي كبير ورافد من روافد الناتج الوطني، لذا فهي تسهم مساهمة فعالة في تنمية الحركة العمرانية واستثمار الموارد الاقتصادية المتاحة والمتوفرة ولكن بشرط استثمارها بشكل جيد ومخطط له ومدروس، وفيما يلي استعراض للإمكانيات السياحية في العراق:

البيئة الجغرافية الطبيعية وتشمل (موقع العراق الجغرافي، المناخ، التضاريس"الجبال، التلال، السهول، الهضاب، الوديان"، النبات الطبيعي، الانهار، المسطحات المائية" البحيرات، السدود، الاهوار، الواحات" تعدد انواع الطيور[34]، المحميات الطبيعية، الغابات، الحيوانات البرية، المناظر الطبيعية، النخيل) وغيرها[35].

[34] مايكل جينتجز، **طيور الخليج العربي**، تر: فكري بكر، سلسلة المعارف الانسانية، ج6، ندوة الثقافة والعلوم – دبي، 1993م.

[35] حمادي عباس حمادي وحيدر عبود كزار، **استراتيجية التنمية السياحية في العراق**، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، كلية الآداب / جامعة القادسية، المجلد الحادي عشر، العدد3، 2008م، ص255.

المقومات البشرية فتشمل (خبرات تراكمية ، كوادر المتاحف العراقية ،اساتذة وطلاب اقسام التاريخ الاثار ، الهيئة العامة للأثار والتراث ، المثقفين والادباء ومحبي وعاشقي الحضارة العراقية ، الشركات السياحية ، التجار والاقتصاديين الداعمين) وغيرهم كثير.

المراقد والمزارات الدينية يمتلك العراق اوسع قاعدة للمراقد الدينية في العالم ولأغلب الاديان وليس للإسلام وحده مثل "**اليهودية،النصرانية أو المسيحية**[36] **،الايزيدية، الصابئة**" وغيرها ،وتشمل الأضرحة ومراقد الأول ياء والصالحين وهم كثر في الدين الاسلامي لقربه تاريخيا من التاريخ المعاصر ، فضلا عن الأديرة والكنائس والصوامع والمعابد[37]. ويمتاز هذا النمط باستمراريته وعدم تأثره بالعوارض المناخية أو مستوى المعيشة على نحو كبير ،الا ان كثافة الطلب تتركز في المناسبات الدينية المهمة ،أي التفاوت في حجم الطلب مع حقيقة استمراريته طوال العام ، وشموله لشرائح المجتمع كافة[38].

وقد ارتبطت المدن العراقية بتأريخ الأنبياء والرسل ، بل كانت تمثل العواصم الدينية لكثير من الحضارات ، مثل مدينة أور القديمة جنوب العراق المشهورة بولادة نبي الله إبراهيم عليه السلام بحدود1700ق.م ، واشتهرت بمعابد الآلهة في الأساطير السومرية القديمة التي كانت تعرف بـ(الزقورة) كما ويستحوذ العراق على النسبة الأكبر من المزارات الدينية المقدسة للمسلمين ، وهي وحدها تشكّل مايقارب90% من قواعد مزارات الأنبياء والأول ياء في العالم العربي[39] ،والمعروف في العراق ان السياحة الدينية لاقت تقدماً ملحوظاً وتوسعاً في مجالاتها خلال العقد الماضي ، فهي تعد متنفس للعائلة العراقية في الداخل ، ومحط انظار الوافدين من الخارج ولكن للآسف لم تدخل في تعزيز موازنة الدولة ، اذ يمتلك العراق مكانة كبيرة وسمعة جيدة على المستوى المراقد والمقامات والعتبات المقدسة.

ان كثرة الاماكن السياحة الدينية بحاجة إلى جهود اضافية وارتقاء عالي المستوى من خلال مايجلبه هذا القطاع من السياح الأجانب ومايمكن ان ينفقوه خلال سياحتهم وتبضعهم للسلع وأجور الفنادق والنقل والمطاعم والأرباح الكبيرة المتحققة من هذا المجال[40].

المواقع الاثرية: والتي تغطي مساحة واسعة من العراق ، وهي أطلال الحضارات السابقة التي تم العثور عليها عن طريق التنقيبات والحفريات الحديثة منذ قرنين من الزمن ، وتعد الآثار مخزونا حضاريا للعراق لحضارات امتدت في عمق التاريخ لسبعة الاف سنة واكثر ، وأيضا تعد محط اهتمام عالمي لما تمتلكه من اجوبة علمية لكثير من الاسئلة المبهمة تاريخيا وتمثل أيضا سلسلة تاريخية متصلة لتطور المعرفة الإنسانية ، والكثير من علماء العالم والمثقفين والادباء والشعراء لاسيما علماء الاثار والتاريخ متعطشين لزيارة العراق والاطلاع عن كثب على مكنوناته العظيمة ، حيث يزخر العراق بكم هائل من هذه الآثار وقد ورث تراثا حضارياً كبيراً يعود إلى مختلف العصور التاريخية ، وقد بلغ عدد المواقع الأثرية في العراق أكثر من 12 ألف موقع ، تضم آثارا

---

[36] يوجد بالعراق عدد كبير من الكنائس ، وقد تم احصاء ما يزيد على 150 كنيسة في اثنتي عشرة محافظة فقط من إجمالي 18 محافظة عراقية ، منها 75 كنيسة في بغداد ، و 30 في نينوى ، و 16 في البصرة ، و 13 في دهوك ، ولا شك أنه توجد كنائس أخرى في عموم المحافظات العراقية. للمزيد ينظر: محسن حسن ، المصدر السابق ، ص9.

[37] مهند جميل كاظم العامري ، **أساليب مقترحة لتفعيل دور الحكومة في تنشيط حركة الاستثمار السياحي في العراق** ، رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية ، كلية الإدارة والاقتصاد ، 2014م .

[38] حمادي عباس حمادي ، المصدر السابق ، ص262.

[39] محسن حسن ، السياحة الدينية في العراق ، المصدر السابق ، صص 6-8.

[40] صابرين علي ، **السياحة الدينية.. ثروة مبددة!** تحقيق صحفي ، تاريخ النشر: الاثنين 11/ 7/2011م ، الموقع الالكتروني http://almadasupplements.com/news.php?action=view&id=2571#sthash.ZxXONZyo.dpbs

تعودإلى حقب زمنية مختلفة ،هذه المواقع لاتجد الحماية الكافية حيث لايتوفر لهذه المواقع سوى 4000 حارس غير مدربين وغير مجهزين بالقدر الكافي لإتمام عملية الحراسة على الوجه الأكمل ، الأمر الذي جعل العديد من هذه الأماكن عرضة للسرقة حتى يومنا هذا[41].

كما تضم الآثار العربية الإسلامية في عدة مدن تاريخية مثل مدن الحضر والكوفة وكربلاء وبغداد وسامراء وبلد والانبار وغيرها ، وتضم أيضا جوامع ومساجد مثل جامع الخلفاء وخان مرجان والمرادية وعادلة خاتون ومسجد الكوفة والسهلة وجامع براثا ، فضلا المدارس المهمة مثل المدرسة المستنصرية والقصر العباسي ومدرسة خان مرجان ودار الحكمة في بغداد وغيرها كثير مالا يعد ولا يحصى.

التراث الشعبي والصناعات اليدوية ، والفن المعماري: اذ تعد الحرف اليدوية والتراثية من اهم الصناعات المهمة في القطاع السياحي لأي بلد ، لأنه قطاع كبير يوفر العديد من فرص العمل ولشريحة كبيرة من المجتمع ذوي الدخول المتوسطة والواطئة ، وهذه الصناعات عبارة عن نقل التراث والحضارة والفولكلور على اشكال فنية جاذبة لأعداد واسعة من السياح لاقتناء منتجات الحرف اليدوية وغيرها من الصناعات الشعبية ذات القيمة الفنية والتراثية[42].

ولعل العراق يمتلك ارث متنوع من الصناعات الشعبية ومنها (الفخار ، المنسوجات اليدوية ، منتجات النخيل(السعف والجذع والالياف والعثوك)، صناعة الخصاف، القصب، صياغة الذهب، صناعة الصفر(النحاس)، الكتابة على الجلود وعلى الاخشاب وعلى الزجاج والنحت والحفر والنقش والزخرفة) وغيرها كثير.

اضافة إلى ذلك توجد الكثير من المناطق الجبلية والبحيرات وسواحل الانهار وبعض المناطق الاثرية والواحات في المناطق الصحراوية ، والتي يمكن اطلاق مشاريع اصلاحية كبيرة لأحياء الزراعة والصناعة والسياحة فيها.

ثالثا / مشاكل القطاع السياحي في العراق:

تعاني السياحة في العراق من الكثير من المشاكل والمعوقات والتي ممكن جدا تجاوزها بقليل من الاهتمام للارتقاء بها إلى المستوى المطلوب ، ولعل ذلك يعود إلى أسباب عدة منها:

الفلسفة السياسية للأحزاب الحاكمة: بعد عام 2003 نشأت أوضاعاً سياسية وأمنية استثنائية تسببت في الاضرار بواقع السياحة سواء على مستوى الاثار والتراث أو على مستوى المجمعات السياحية التي كانت قائمة أو على مستوى السيطرة على القرار السياسي والامني للدولة ، والسياحة تحتاج إلى اجواء استقرار سياسي ووضع امني جيد ،فكلما تحقق الاستقرار السياسي زاد عدد السواح والعكس صحيح.

عدم توفر البنى التحتية: للأسف البنى التحتية غير متوفرة وتراجع كبير بمستوى الخدمات على مستوى الطاقة الكهربائية والمياه الصالحة للشرب وتصريف المياه الثقيلة ، وتدهور اوضاع الطرق وغيرها.

قدم وسائل النقل: طرق النقل البري (السيارة والقطار) متخلفة جدا وبعيدة عن واقع السياحة فضلا عن عدم وجود طرق نهرية جيدة في دجلة والفرات ، اما النقل الجوي فالمطارات الموجودة تحتاج إلى الكثير من العمل من اجل تحسين خدماتها وتوسيع قاعدة استيعابها لأعداد كبيرة من السواح.

---

[41] الموقع الالكتروني :
https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/82e78253-ea99-4fd6-a6f5-f0d29e112654

[42] رؤوف محمد علي الانصاري ، **السياحة في العراق دورها في التنمية والاعمار** ، اتحاد الناشرين العراقيين ، بغداد ،2013.

عدم توفر التقنية الحديثة: تحتاج السياحة إلى الكثير من وسائل الراحة والخدمة عالية المستوى بطرق تقنية وتكنلوجية حديثة وفي مقدمتها الانترنيت والخدمات المصرفية والخدمات الفندقية المتقدمة ووسائل اتصال حديثة.

عدم توفر الدليل السياحي والتسويق: تواضع خطط الترويج والتسويق السياحي وقصور الاعتمادات الحكومية المخصصة للتسويق والبحوث والإحصاءات.

6) الاهمال الواضح للمناطق الاثرية وتحول معظمها إلى قواعد وثكنات عسكرية، ولحق بها الدمار بشكل كبير ،وهناك تقصير في اعمال الصيانة والترميم واعادة البناء.

7) ضعف القوانين والتشريعات: التشريعات التي تحافظ على التراث والاثار ضعيفة وغير كافية، وعدم وجود عقوبات رادعة للمتلاعبين والمستغلين لهذا الملف المهم، اذ ان القوانين الموجودة غير كافية لخلق اجواء سياحية امنة ومتطورة ونحتاج في الواقع إلى ثورة تشريعية من اجل الغاء وتعديل وتشريع القوانين من اجل ملائمتها للواقع الجديد للعراق.

8) غياب القطاع الخاص: القطاع الخاص مهم جدا في حركة التنمية للعراق ولابد من اشراكه في الاستثمارات المحلية والدولية وفي كافة مجالات الاستثمار السياحي تتبعها عمليات ترويج وجذب الفرص الاستثمارية السياحية ذات الجدوى الاقتصادية وتسويقها لغرض تشجيع المستثمرين من الإفراد والشركات والمؤسسات للإقبال عليها وتنفيذها.

9) ضعف قاعدة البيانات والمعلومات والمعرفة وصعوبة الحصول عليها.

10) عدم وجود استراتيجية طويلة الامد للنهوض بالقطاع السياحي وقلة الاستثمارات الموجه اليه والتوجه نحو استثمارات فردية تعتمد على العلاقات الشخصية وضيقة الافق ومحدودة التداول والانفتاح لا تتوافق ابدا مع متطلبات الاستثمار الكبير والمتطور للشركات السياحية العالمية وجذب اموالا بالعملة الصعبة إلى داخل البلد[43].

11) الظروف الامنية وعدم الاستقرار السياسي وايقاف الدعم الخاص بالاستثمار السياحي
وفق قانون رقم 353 لسنة 1980 ادى إلى تراجع الاستثمار السياحي في البلد.

12) هجرة الخبرات والمتخصصين من الكوادر السياحية المهنية والحرفية وتعرض المتاحف والمواقع التراثية إلى تدمير ونهب منذ عام 2003م، فضلا عن ضعف الحماية للمواقع الاثارية.

13) الافتقار إلى مؤسسات التعليم السياحي ومراكز التدريب التابعة للقطاع الخاص والتي تجعله مسؤولا عن توفير كوادر متخصصة مؤهلة تتناسب مع المتطلبات الحقيقية لسوق العمل السياحي في العراق[44].

بعد هذا الاستعراض الشامل والواسع لكل معوقات تنمية القطاع السياحي في العراق من الضرورة بمكان ان تسعى الدولة وبهمه عالية لتطوير النشاطات الاقتصادية وهي الصناعة والزراعة والسياحة والخدمات، وقد لاحظنا من خلال الاطلاع على الموازنة ونمو القطاعات خلال الفترة من (2003 وحتى 2014) بأن القطاعين الصناعي والزراعي ساهمت في الموازنة العامة بـ(4%) وهذه النسبة متدنية جداً قياساً بقراءات النمو الاقتصادي مما شكل بطالة كبيرة وزيادة نسبة الفقر حيث وصلت إلى (35%) وهي نسبة خطيرة.

جدول الفنادق والنزلاء في المحافظات ونسبتهم بين العام والخاص [45]

---

[43] نسرين قاسم غالي ، دور القطاع الخاص في دعم التنمية السياحية في العراق, رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية, كلية الادارة والاقتصاد, 2013م ، ص140.

[44] مجيد العزاوي , السياحة تحتاج الى ثورة وبداية جديدة في العراق ، للمزيد ينظر : الموقع الالكتروني :

	المحافظة	الفنادق والمجمعات السياحية	النسبة المئوية	القطاع	
				عام	خاص
	كركوك	33	% 2	0	33
	بغداد	364	%22,5	0	364
	بابل	8	%0,5	0	8
	كربلاء	758	%46,8	0	758
	واسط	12	%0,7	0	12
	صلاح الدين	1	%0,1	0	1
	النجف	358	%22,1	0	358
	القادسية	6	%0,4	0	6
	المثنى	7	%0,4	0	7
	ذي قار	11	%0,7	0	11
	ميسان	9	%0,6	0	9
	البصرة	51	%3,2	0	46
	المجموع	1618	%100	0	1602

وعند قراءة الجدول قراءة متأنية نستنتج بان من مجموع 12 محافظة عراقية هناك ثلاث محافظات فيها نسبة جيدة من الفنادق ومجمعات الايواء السياحي ،تتصدرها كربلاء ثم بغداد والنجف ، وهذا مؤشر سلبي جدا تجاه محافظات مهمة للجوانب السياحية مثل البصرة وكركوك وذي قار وبابل ، والمؤشر الاخر هو عدم مشاركة القطاع العام في انشاء فنادق ومجمعات سياحية لتكون واردا للدولة ، وانما سمحت للقطاع الخاص ان يستثمر بعض المناطق السياحية وبطريقة بدائية وليست احترافية ليكون القطاع السياحي غائبا عن الناتج القومي في النهاية ليكون بنسبة متدنية جدا بلغت 0.00002% في عام 2000 ، وارتفعت إلى 1,09% عام 2017 ، مما يشكل مؤشرا مهما على ضرورة زيادة الزخم باتجاه دعم القطاع العام في الاستثمارات السياحية واهمية ذلك بالنسبة لدعم ورفد الناتج القومي ، كما لابد من التأكيد على فتح الاستثمارات السياحية للقطاع الخاص بطريقة مهنية واحترافية تجعل الدولة تستفيد من كل تلك الانشطة سواء بالتسهيلات أو بالكمارك أو بالرسوم والضرائب.

جدول نسبة الايرادات القطاع السياحي من الناتج القومي (مليون دينار عراقي)[46]

السنة	العوائد السياحية مليون دينار	الدخل القومي مليون دينار	النسبة
1990	53.9	47388.1	%0.11
1995	5.5	5807374.9	%0.00001
2000	0.7	46634634.8	%0.00002
2017 [47]	2492066.7	225722375.5	%1.09

[45] وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء ، تقرير مسح الفنادق ومجمعات الايواء السياحي لعام 2017 ، ص6.

[46] البنك المركزي العراقي ، المديرية العامة للإحصاء والأبحاث ، قسم إحصاءات ؛ التقديرات الأولية السنوية للناتج المحلي الإجمالي والدخل القومي لسنة 2017 ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء ، مديرية الحسابات القومية ، كانون الاول ، 2018 ، ص9.

[47] لم يكن القطاع السياحي موجودا بشكل منفصل في تقرير وزارة التخطيط وانما كان تحت بند (الفنادق والمطاعم) وهذا خلل اخر يؤشر على عدم ادراج القطاع السياحي كقطاع حيوي مهم في تعظيم موارد الدولة .

يبين الجدول بان عوائد القطاع السياحي متدنية جدا منذ عام 1990 ، ولكن يؤشر عام 2017 ارتفاع ملحوظ في العوائد ولكن مساهمتها في الدخل القومي يبقى متدنيا جدا إلى مستوى 1,09% وهي نسبة منخفضة جدا.
بعد هذا الاستعراض لواقع السياحة في العراق ومشاكلها ننتقل إلى المبحث الاخير والذي سيكون خارطة طريق مقترحة من الباحث مستندة إلى تجربة النهضة السياحية الماليزية وإمكانية الاستفادة منها.

مقارنة تحليلية للقطاعين العراقي والماليزي

بعد الاستعراض الواسع للقطاعين الماليزي والعراقي ، نبدأ بتحليل التجربة الماليزية من خلال تتبع مراحل الإجراءات النهضوية منذ بدايتها ، سواء بالتشريعات والقوانين أو بالقرارات التنفيذية وإمكانية الإفادة منها في رسم خارطة الطريق للنهوض بالقطاع السياحي العراقي.

خطوات النجاح في ماليزيا

وعلى هذا الأساس يكون التصنيف من خلال التدرج التاريخي:

اولا / هيكلة الادارة وتوزيع الادوار:

في الثمانينيات من القرن العشرين تولت هيئتان حكوميتان مسؤولية ادارة القطاع السياحي في ماليزيا ، الأول ى هي وزارةالثقافة والفنون والسياحة (MOCAT) وهي المسؤولة عن ادارة التخطيط الاستراتيجي لهذا القطاع والهيئة الثانية هو مجلس ترويج السياحة الماليزي (MTPB) الذي يتمثل دوره الرئيسي في تسويق وتعزيز السياحة وخلق فرص الاستثمار.

بمعنى في حالة المقارنة مع الحالة العراقية ان تكون البداية من خلال اعادة النظر في الهيكلية الادارية لإدارة القطاع السياحي العراقي من راس الهرم ، وتوحيد الجهات المتعددة والمؤثرة والمسؤولة عن طرف من اطرف القطاع السياحي في سلطة قرار موحدة ومتدرجة دون تداخل للصلاحيات والمهام ، مع تعريف واضح لكل الجهات ومستوى المسؤولية الملقاة على عاتقها وحدود صلاحياتها والمهام المكلفة بها مع رقابة ومتابعة صارمة وحازمة.

ثانيا / الاستعانة بالخبرة الاجنبية :

طلبت الحكومة الماليزية من الوكالة اليابانية للتعاون الدولي (JICA)، المسؤولة عن برامج التعاون التقني لحكومة اليابان ، إجراء دراسة شاملة ووضع خطة وطنية لتطوير السياحة في ماليزيا ، وكانت القناعة الحكومية من ضرورة الاستعانة بمستشار اجنبي نظرا لمحلية ومحدودية الخطط والبرامج السابقة للترويج للسياحة ورغبت الحكومة إلى توسيع وتدويل هذه الاستراتيجية.

وفي الاطار نفسه دعت الحكومة الماليزية إلى اجتماع لمنظمة السياحة والسفر التابعة لمنظمة آسيان وذلك عام 1981م ليكون ذلك بداية لعمل اقليمي جماعي موحد يأخذ بنظر الحسبان مصلحة جميع الدول المتجاورة.
بمعنى ان هناك تبادل منفعة وتكامل اقليمي اقتصادي وامن جماعي ، وهذه الاهداف طرحت بشكل واضح وصريح مع كل الدول الاقليمية المجاورة لماليزيا وثبتت على انها اولويات مهمة للبدء بنهضة اقتصادية مشتركة وفعلا هذا ما ساعد ماليزيا في وضع لبنات الاستقرار في البلد من خلال التعاون الاقليمي.

وفي هذا الاطار لابد من التذكير بأهمية سياسة النظر إلى الشرق[48] ، التي اتبعها الدكتور مهاتير محمد في بداية الثمانينيات والتي تتلخص في الاعتماد اكثر على دول الشرق دون الدول الغربية لاسيما اليابان وكوريا ، ولذلك

[48] سياسة النظر الى الشرق(LOOK EAST POLICY) : قدمها عام 1982 الدكتور مهاتير محمد ، ودعت إلى التوجه نحو شرق آسيا واليابان خاصة وكوريا الجنوبية وتايوان - باعتبارها نماذج ناجحة اقتصاديا . للمزيد ينظر:
Gin,OoiKeat, Op,.Cit. p.175.

كان التعاون مع الوكالة اليابانية (JICA) تنفيذا لتلك السياسة التي اخذت مداها في الثمانينيات وحققت نجاحات مهمة على اكثر من قطاع اقتصادي في ماليزيا منها الصناعي والزراعي والتجاري وبمستويات عالية.

ثالثا / اعداد الخطط واطلاق حملات الترويج الكبيرة:

الخطة الماليزية الرابعة (1981-1985) والخطة الخامسة (1986-1991) كانت بمثابة نقلة نوعية من خلال زيادة المخصصات العامة للبنية التحتية وتطوير المنتجات والتسويق والأنشطة الترويجية، ثم اطلق شعار مهم جدا برؤية مستقبلية حمل عنوان "Visit Malaysia Year 1990" والتي حققت شهرة عالمية وجذبت 7,4 مليون سائح.

وبالتالي فان وضع العراق يساعد جدا على اطلاق حملات ترويج كبيرة، بتوزيع الأدوار بين القطاع العام والخاص فضلا عن امكانية الاختلاط بين القطاعين في بعض المفاصل وفقا لخطط مدروسة ومعدة على المستوى المتوسط والبعيد.

رابعا / تشريع القوانين وتشجيع الاستثمار المتمكن:

تم تشريع قانون تشجيع الاستثمار عام 1986 وفرت فيه الحكومة الماليزية للأجانب فرص استثمارية واسعة، حيث أدخلت العديد من البنود القانونية التي تسهل عمل المستثمرين.

وهنا تكمن البداية الحقيقية لمشروع التطوير اذ ان التشريع أساس الاصلاح والقوانين الجيدة والقابلة للتطبيق على ارض الواقع لاسيما قوانين جذب الاستثمار وما يتبعها من تسهيلات وتحفيز تسهم بشكل كبير في تسريع عملية تطوير القطاع مع اختصار للجهد والزمن والتكاليف.

خامسا / تحديد موقع الدولة وتقسيمها إلى مناطق سياحية حسب الاهمية:

من خلال خطط واستراتيجية واضحة تم تحديد موقع رسمي للدولة على الخارطة العالمية ثم بدأت الحكومة الماليزية بتقسيم الدولة إلى ستة مناطق سياحية، تكون كل منطقة مسؤولة عن الترويج وبيع المنتجات السياحية الخاصة بها، وتم ذلك بالطبع من خلال التعاون بين مختلف الوكالات العامة والخاصة على المستوى الاتحادي، منها مجلس ترويج السياحة الماليزي (MTPB)، وبالتنسيق مع وحدة التخطيط الاقتصادي للدولة (SEPU) فضلا عن تنسيق عالي المستوى مع شركة الخطوط الجوية الماليزية (MAS) وهي شركة نقل وطنية.

وبالاستناد إلى هذه الخطوات الستة حقق القطاع السياحي الماليزي طفرة نوعية وتعظيم موارد في مدة قصيرة بعمر الزمن قياسا بتجارب اخرى، وعليه عندما يقرر العراق تنشيط قطاع السياحة عليه ان يسير في خطة مدروسة ومحددة ويرسم خارطة طريق واضحة ومقسمة على مراحل زمنية محددة مع تمويل وتخصيصات واضحة وفقا لدراسات جدوى عالية المستوى.

الخطوات المقترحة للنهوض بالقطاع السياحي العراقي :

وهنا نرسم خارطة الطريق مقترحة حسب مفهومنا ودراستنا لتجربة النهضة الماليزية:

اولا / هيكلة الادارة وتوزيع الادوار.

ثانيا / اعداد الخطط واطلاق حملات الترويج الكبيرة.

ثالثا / الاستعانة بالخبرة الاجنبية.

رابعا / تشريع القوانين وتشجيع الاستثمار المتمكن.

خامسا / تحديد موقع الدولة وتقسيمه إلى مناطق سياحية حسب الاهمية.

وهذه الخارطة ستكون مفتاحا للعمل الحقيقي وسنوضح اليات العمل.

اولا / هيكلة الادارة وتوزيع الادوار

رسم الهيكلية الادارية لإدارة السياحة في العراق تبدأ:

أنشاء المجلس الاعلى لتطوير السياحة في العراق ويكون مرتبط بوزير الثقافة ، تكون مهمته الأساس ية التخطيط والاعداد لتطوير السياحة ، تكون مدة المجلس خمس سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة ، ويتكون المجلس من عدد من الاعضاء ، ومنهم خبراء محليين ودوليين بشؤون السياحة يتم تعيينهم من مجلس الوزراء بأغلبية الثلثين على ان لا يقلون عن ثلاثة ولا يزيدون عن سبعة ، مع مندوب من ديوان الوقف الشيعي وديوان الوقف السني وديوان الوقف المسيحي والاقليات الأخرى ،ثم مندوب من وزارة المالية ومندوب من وزارة الخارجية ومندوب من وزارة الداخلية ومندوب من جهاز المخابرات العراقي يضاف لهم السيد وزير الثقافة رئيسا للمجلس.

تكون وزارة الثقافة مقسمة إلى ثلاث هيئات رئيسة مصنفة حسب الاختصاص (الاثار والتراث/السياحة/الثقافة) الأول ى هي (الهيئة العامة للأثار والتراث) والثانية هي (الهيئة العامة للسياحة) والثالثة هي (الهيئة العامة للثقافة).

ترتبط بالهيئة الأول ى (الهيئة العامة للأثار والتراث) ثلاث ادارات رئيسة هي (المكتبة الوطنية) و(الارشيف الوطني) و(ادارة المتاحف) بمعنى فصل دار الكتب والوثائق إلى دائرتين مكتبة وارشيف ، تسمى (ادارة الارشيف الوطني) يتضمن اعمال الحفاظ على الارشيف والذاكرة العراقية بشكل دوري ويومي من خلال جمع الوثائق والمستندات الرسمية المهمة محليا وخارجيا بطريقة مهنية ومحترفة ، بما فيها وثائق السفارات العراقية والايفادات الخارجية وتصريحات المسؤولين وكل صغيرة وكبيرة تخص واقع هذا البلد ،واستحداث دائرة (ادارة المتاحف) تتضمن خطة وطنية شاملة لأنشاء متحف لكل محافظة عراقية ، اما المكتبة الوطنية فهي تمارس دورها في حفظ الكتب والرسائل والاطاريح والمنشورات لكل دور النشر والجامعات العراقية والمؤسسات الثقافية والاتحادات والنقابات وغيرها .

ترتبط بالهيئة الثانية (الهيئة العامة للسياحة) مديريتان الأول ى تسمى (التخطيط والتنمية السياحية) تكون مسؤولة عن دائرتين أيضا الأول ى (الاجازات السياحية) للقطاع الخاص والمستثمرين تسمى (الاجازات السياحية) والثانية تكون مسؤولة عن ادارة المرافق السياحية التابعة للقطاع العام تسمى (ادارة المرافق السياحية).

اما المديرية الثانية تسمى (مؤسسة الترويج الثقافي للسياحة) تكون مسؤولة عن دائرتين أيضا الأول ى (الاعلام) وتختص بكل انواع الاعلام المرئي والمسموع والمقروء من اجل الترويج للسياحة في العراق والثانية (التسويق) تكونمسؤولة عن تسويق العراق سياحيا لكل العالم.

ترتبط بالهيئة الثالثة كل دوائر الثقافة السابقة وهي (دائرة الشؤون الموسيقية/ دائرة السينما والمسرح / دائرة الفنون التشكيلية /دار الازياء العراقية) مع دمج دائرتي الشؤون الثقافية مع دائرة العلاقات الثقافية العامة وضم اليها جميع البيوت الثقافية المنتشرة في البلد لتكون دائرة واحدة تحت عنوان (دائرة البيوت الثقافية).

وفيما يلي هيكلية مقترحة من الباحث

الهيكلية الإدارية لقطاع السياحة في العراق

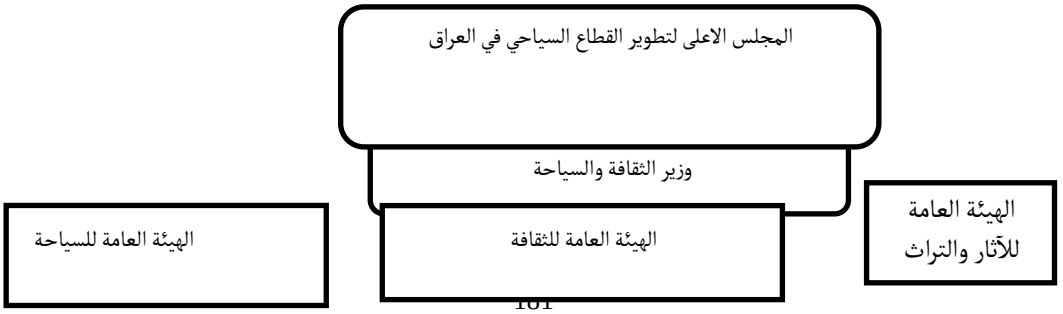

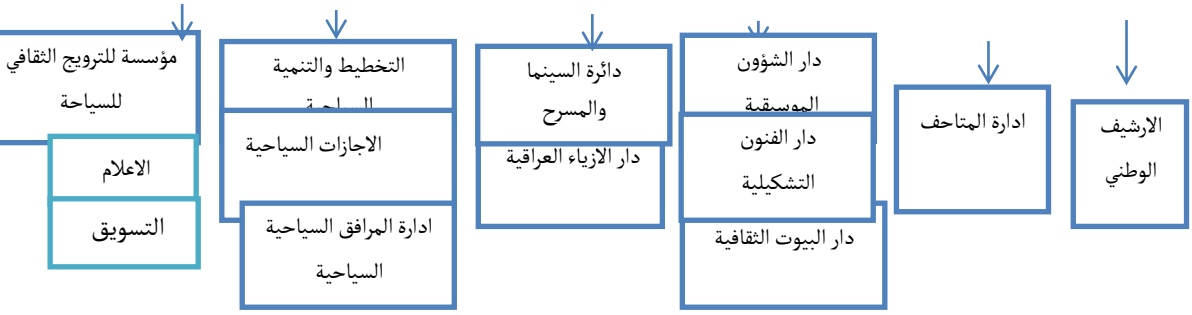

ثانيا / اعداد الخطط واطلاق حملات الترويج الكبيرة : عندما يتم التخطيط للتنمية السياحية لابد من الاخذ بنظر الاعتبار مجموعة من العوامل المهمة والضرورية ومنها:

ان تكون هناك قاعدة بيانات واضحة وشاملة لكل العراق يستند عليها في وضع الخطة تتضمن معلومات كافية ومستوفية عن الانشطة السياحية والتراثية والاثرية والبيئية والترفيهية والتعليمية والجغرافية وغيرها وبدون اي استثناءات دينية أو قومية أو عرقية أو شخصية.

من الضرورة بمكان ان يكون اعداد الخطة السياحية جزء من استراتيجية الدولة في تشغيل القطاع السياحي وان لا تكون منفردة عن الاستراتيجية الوطنية الشاملة ، بمعنى تقتنع الدولة وقادتها بان تكون السياحة رافدا مهما من روافد الناتج الوطني الاجمالي للبلد.

من الضرورة بمكان ان يتم توزيع الادوار بين القطاعين العام والخاص في عملية التنمية بشكل عام والسياحة بشكل خاص ، ويعطى كل قطاع مسؤولية مباشرة ومحددة خلال خطط خمسية وعشرينية ، تراجع سنويا بإحصاءات واضحة لتحديد نسبة النمو ومعالجة الخلل ان وجد والسير بشكل موزون وواضح من خلال متابعة وتدقيق ورقابة مستمرة.

وضع خطط ترويجية تتضمن حملات اعلامية واسعة ودعائية لتسويق السياحة والتعريف بالحضارات العراقية الموغلة في التاريخ.

تطوير الادارة السياحية وتطوير الموارد البشرية العاملة في النشاط السياحي ، بما في ذلك عاملين الخدمة من خلال الاعتماد على كليات السياحة والاثار في البلاد وهناك شريحة واسعة من الخريجين من هذه الكليات ممكن جدا الإفادة من دراستهم ، ومن الضرورة بمكان ان يتم انشاء واقامة معاهد ومراكز تأهيل وتدريب متخصصة بالسياحة والاثار والفندقة وفق خصوصيات كل منطقة سياحية أو اقليم وان يشرف عليها كوادر ذات خبرات عالية ومتمكنة.

ان نجاح الخطط بشكل عام والسياحية بشكل خاص يعتمد على الارادة السياسية اولا ، ولغاية هذه اللحظة ، فان رؤية الدولة نحو تعظيم موارد الدولة والانتقال إلى تشغيل القطاعات الأخرى مع قطاع النفط غير متوفرة ،وجميع الخطط السابقة في التنمية الشاملة كانت فاقدة للاعتبارات اعلاه ولذلك نحتاج بداية إلى قناعة راسخة وخطوات ثابتة.

ثالثا / الاستعانة بالخبرة الاجنبية:

ليس انتقاصا من الخبرة والكفاءة العراقية ولا هي مسالة سياسية للخوض في موضوع السيادة والوطنية لتخوين كل من يدعو إلى التعاون مع مراكز بحوث ووكالات وجامعات اجنبية ، فان التنسيق والتعاون مع الخبرات الدولية هدفه الأساس اختصار الوقت والجهد والمال ، فالاستعانة بالخبرة الاجنبية ضرورة ملحة في

هذه المرحلة الحساسة ، لان خطوات التأسيس تحتاج إلى نضج وخبرة وإمكانيات عالية لا تتوفر في مؤسساتنا نتيجة القطيعة الكبيرة في التسعينيات والفوضى العارمة بعد عام 2003 ، وعلى هذا الأساس فان العراق يحتاج إلى امرين:

عقد مؤتمر اقليمي كبير مع جميع الدول المجاورة وذات التأثير في الواقع العراقي من اجل رسم خارطة طريق للتعاون والتنسيق في مجال احياء القطاع السياحي بين هذه الدول وبطريقة الامن المشترك والفائدة المشتركة والمتساوية وليس لحساب طرف على الاخر.

الاتفاق مع شركة أو وكالة اجنبية كبيرة ذات خبرة دولية واسعة للأشراف على اعداد الخطط السياحية بعد دراسة وضع العراق ميدانيا ، وتفعيل الجانب الرقمي والتقني.

وممكن جدا ان تكون اليابان وجهة جيدة للتعاون والاستعانة بخبرتها ، ليس تقليدا للتجربة الماليزية عندما استعانت بالوكالةاليابانيةللتعاونالدولي (JICA)، وانما لان اليابان تمثل دولة صديقة وشرقية وذات خبرة واسعة في عدة مجالات ، ومنها ادارة المشاريع واعداد الخطط الاستراتيجية ، فضلا عن تعاونها بالنسبة إلى موضوع القروض والمنح والمشاريع التعاونية والخدمية الكثيرة التي تم انجازها في العراق ، ومن الممكن تكليفها ابتداءا بإجراء دراسة شاملة للبلاد وفي ظرف زمني محدد ، واعداد خطة وطنية شاملة لتطوير السياحة في العراق.

رابعا / تشريع القوانين وتشجيع الاستثمار المتمكن:

عندما يتم الحديث عن التغيير والاصلاح لابد من ذكر التشريعات النافذة ،ومدى ملائمتها لخطط التنمية الحديثة ، وعلى هذا الأساس لابد من الولوج إلى القوانين النافذة وإمكانية تنفيذها على ارض الواقع.

في مجال السياحة صدر قرار مجلس قيادة الثورة المرقم (353) لسنة 1980م وهو قرار مهم في وقتها ولكنه غير نافذ في الوقت الحاضر ومضمون القرار يتعلق " بتسهيلات مميزة لإقامة مشاريع ومرافق سياحية تستهدف المستثمرين في المشاريع والمرافق السياحية واصحابها ومستأجريها ومتعهديها من عراقيين ومواطنين عرب ، منها الحصول على التسهيلات المصرفية المختلفة ، والحصول على قرض من المصرف العقاري بنسبة لا تزيد على (65%) من الكلفة الكلية للمشروع ، أو المرفق السياحي ، وبفائدة مقدارها (1% ،5) في منطقة الحكم الذاتي ، اما مقدار القرض في المناطق الأخرى مالا يزيد على (50%) من الكلفة الكلية للمشروع ، أو المرفق السياحي وبفائدة مقدارها(1% ،5)"[(49)].

لقد استفاد من هذا القرار العديد من المستثمرين المحليين والاجانب وفعلا نشأت مدن سياحية مثل الحبانية والثرثار وغيرها وتم انشاء فنادق كبيرة اسهمت في رقي البلد في مرحلة معينة.

ثم صدر قرارمجلسقيادةالثورة المنحل المرقم(299) لسنة1990 والمتضمن "تشكيل هيئة تسمى (هيئة السياحة ترتبط بمجلس الوزراء) وتتكون من رئيس الهيئة ويكون موظف بدرجة خاصة يختاره مجلس الوزراء ، مع عدد من الاعضاء من ذوي الخبرة والاختصاص في الشؤون السياحية والاقتصادية والمالية والقانونية لايقل عددهم عن اربعة ولايزيد على ثمانية يختارهم مجلس الوزراء أيضا " ، وتتولى الهيئة المهام الملقاة على عاتقها ومنها " اجراء البحوث والدراسات والتخطيط لتوجيه وتطوير النشاط السياحي في القطر ، والاستعانة بالإمكانات والخبرات المتاحة في مجال السياحة في الاقطار العربية والاجنبية لرفع مستوى الخدمات السياحية في القطر" ، ولكن الامر المثير للانتباه والمزعج لكل المختصين بالسياحة هو عدم اعطاء السلطة

[(49)] الوقائع العراقية ، العدد 2765 ، بتاريخ 24-03-1980 ، الجزء الاول ، ص509.

الكاملة من خلال الفقرة ثالثا من القرار والتي نصت على "تنفذ الهيئة مهامها بالتنسيق مع الوزارات والجهات ذات العلاقة مااقتضى الامر ذلك"، بمعنى ان هناك جهات اخرى لها قوة السلطة في الشأن السياحي وهذا ما عرقل عملية التنمية السياحية فيما بعد[50].

ثم صدر قانون هيئة السياحة رقم (14) لسنة 1996 تضمن تأسيس هيئة خاصة بالسياحة تتولى ادارة وتوجيه ومراقبة الشؤون السياحية في العراق تسمى (هيئةالسياحة) تعمل على أساس الربح والخسارة وترتبط بمجلس الوزراء وتكون الجهة القطاعية المسؤولة عن القطاع السياحي في العراق، وتسعى الهيئة إلى تحقيق الاهداف المرسومة لها بموجب القانون ومنها "ادارة المرافق السياحية العائدة لها بصورة مباشرة أو التعاقد مع الغير على ادارتها بموافقة مجلس الوزراء، وتوجيه النشاط السياحي في العراق وتشجيعه وترويجه وتطويره بما يحقق وظيفة اقتصادية وثقافية وتربوية واعلامية، ورفع مستوى المرافق والخدمات السياحية بمايكفل تقديم افضل الخدمات والتسهيلات الممكنة لتحقيق الاغراض السياحية كافة"[51].

بعدها جاء قانون الهيئة العامة للآثار والتراث رقم (45) لسنة 2000 وهو القانون الذي لا زالت مواده نافذة، والمعني أساس ا بموضوع التراث والاثار، اذ تضمن القانون تأسيس هيئة تسمى (الهيئة العامة للآثار والتراث) ترتبط بوزارة الثقافة والإعلام المنحلة حاليا، وتكون اهداف ومسؤوليات الهيئة تتعلق (بالكشف عن آثار الحضارات القديمة التي قامت في العراق وتسجيلها وحمايتها والحفاظ عليها وصيانتها، كما تضمن القانون إبراز القيمة الثقافية والعلمية للآثار والتراث ونشر الحقائق والمعلومات عنها، وعرض الآثار وتعريف المواطنين وإطلاع العالم، بمختلف الوسائل على مقومات الحضارات القديمة والحضارة العربية التي نشأت في العراق)، كما تضمن لأول مرة نصا بالسعي الحثيث لإعادة الآثار العراقية المسروقة[52].

ولكن للآسف هذا النص مفتوح وعام وغير عميق في صياغته ولايعطي قوة للمسؤول في الاثار من اجل اخذ دوره الحقيقي في الحفاظ على هذا التراث الكبير، ولايرتقي إلى حجم الحضارات العراقية الواسعة والعميقة في القدم، ولذلك نجد ان جهات اخرى لديها سلطة اقوى من سلطة هيئة الاثار استولت على مواقع اثرية بحجج مختلفة وادت إلى ضياع الكثير منها.

ثم جاء قانون رقم (13) لسنة 2012 لأنشاء وزارة السياحة والآثار لأول مرة مجتمعة تهدف إلى " إدارة وتوجيه ومراقبة وتطوير النشاط السياحي والآثاري في العراق بما يحقق وظيفته الثقافية والحضارية والتربوية والإعلامية والاقتصادية، وتحقيق التكامل الفاعل بين قطاعي السياحة والآثار، والاهتمام بالآثار والتراث والمحافظة عليهما بوصفهما من الثروات الوطنية النفيسة والتمكين من الكشف عنهما والتعريف بهما باعتبارهما امتداداً لحضارة العراق الإنسانية، والاهتمام بالسياحة والنهوض بواقعها وتطوير مناطق الجذب السياحي والمناطق الأثرية والمراكز الدينية باعتبارها رافدا مهما من روافد الاقتصاد الوطني، وتعزيز دور القطاع الخاص وتشجيع الاستثمارات الوطنية والأجنبية فيها، بالتنسيق مع الأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم"، وتضمن القانون أيضا الوسائل التي من خلالها يتم تحقيق تلك الاهداف ومنها " إدارة المرافق السياحية المملوكة للوزارة بمايكفل تحقيق الأهداف السياحية وتطوير تلك المرافق، وتعيين المواقع الأثرية

---

[50] الوقائع العراقية ، العدد 3319، بتاريخ 06-08-1990، الجزء الاول ، ص371: ثم صدر تعديل حيث حلت عبارة (مجلس الوزراء) محل عبارة (ديوان الرئاسة) الموجود في النص القديم في المادة (4) بموجب المادة (2) من قرار تشكيل هيئة تسمى (هيئة السياحة) ترتبط بمجلس الوزراء، ورقم التعديل (129) والصادر في1991/05/08 ، كما ان هذا القرار تم الغاءه بموجب قانون هيئة السياحة رقم 14 لسنة 1996.

[51] قانون هيئة السياحة رقم (14) لسنة 1996 ، جريدة الوقائع العراقية ، العدد 3635، بتاريخ 16-09-1996، ص234.

[52] قانون الاثار والتراث رقم (55) لسنة 2002 ، جريدة الوقائع العراقية ، العدد 3957، بتاريخ 18-11-2002، ج2 ،ص566.

وصيانتها وحمايتها والتنقيب فيها وإقامة المتاحف العصرية للتعريف بالموروث الحضاري والتاريخي للعراق"[53].

وفي هذا القانون الكثير من الايجابيات منها انه دمج بين مسؤوليات السياحة والاثار لأول مرة ووضح مهامهما ووزع الصلاحيات كما جعل سلطتهما بيد واحدة من اجل فك الاشتباك ، لأنه واضح جدا التناقض بين عمل السياحة من خلال الانفتاح واستقبال اعداد وافواج سياحية كبيرة وعمل الاثار من خلال الحفظ والتاني واعمال التنقيب والتحصين والتحسين والتطوير ، فضلا عن بعض النصوص الجديدة التي تدعو إلى استعادة الاثار المسروقة وحماية الاثار الموجودة وتدريب الكوادر والموظفين.

ولكن في الوقت نفسه اهمل القانون الجامعات والكليات العلمية المتخصصة في السياحة والاثار ومخرجاتهم من الطلبة والذين يمثلون العمود الأساس للوزارة.

والامر الاخر الذي يؤخذ ويؤشر على هذا القانون انه بقي حبرا على ورق ولم ينفذ على ارض الواقع الا ما ندر فهناك عدة جهات لها سلطة وقوة مسك الارض فرضت وجودها على المواقع الاثارية والسياحية ولم ينفذ القانون.

خامسا / تحديد موقع الدولة وتقسيمها إلى مناطق سياحية حسب الاهمية:

من اجل يكون العمل منتجا ومثمرا لابد من التوجه نحو التقنيات الحديثة ومنها الربط الالكتروني وتفعيل جميع البرامج الحديثة على جميع المستويات ومنها تحديد موقع الدولة تقنيا والكترونيا ثم تقسيم العراق إلى عدة مناطق سياحية حسب امتيازات كل منطقة وبدء عمليات الترويج والتسويق الحديثة ، وهذا يتطلب جهد استثنائي الكتروني من مختصين ومحترفين على مستوى شركات عملاقة واشخاص ذوي خبرة وكفاءة عالية.

ولكن قبل ذلك لابد من احصائيات مهمة للمدن العراقية اولا عدد نفوس كل محافظة وماهي مميزات السياحية المتوفرة فيها ومدى الجدوى الاقتصادية المتوقعة من تفعيل النشاط السياحي فيها وما تحتاجه من امكانيات لتطوير امكانياتها الذاتية لتصل إلى مستوى متقدم في مجال الاستثمار السياحي.

المصادر:

اولا : التقارير والوثائق

البنك المركزي العراقي, المديرية العامة للإحصاء والأبحاث ، قسم إحصاءات ؛ التقديرات الأول ية السنوية للناتج المحلي الإجمالي والدخل القومي لسنة 2017.

السياحة الدولية في دول منظمة التعاون الاسلامي : الافاق والتحديات ، تقرير سياحي معد من منظمة التعاون الاسلامي ، مركز الابحاث الاحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الاسلامية ، 2015 (سيسريك_مركزانقرة) 2015.

هيئة السياحة والاثار ، دائرة التقييس ، احصاء 2007.

وزارة التخطيط ،الجهاز المركزي للإحصاء ،مديرية الحسابات القومية ، كانون الأول ،2018 .

وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للإحصاء ، تقرير مسح الفنادق ومجمعات الايواء السياحي لعام 2017

,Official Year Book, Malaysia 1972

ثانيا : الرسائل والاطاريح

سحر كريم كاطع ،المنظور الاستراتيجي لقطاع السياحة في العراق ،جامعة القادسية ،كلية الادارة والاقتصاد ، قسم الاقتصاد ، 2014.

ماهر جبار الخليلي ،مهاتير محمد ودوره في تحديث ماليزيا 1969-1991م ، اطروحة دكتوراه منشورة ،كلية الآداب ، جامعة بغداد قسم التاريخ ،بغداد 2014.

[53] جريدة الوقائع العراقية ، العدد (4232) ، بتاريخ 12 آذار 2012.

مهند جميل كاظم العامري ، أساليب مقترحة لتفعيل دور الحكومة في تنشيط حركة الاستثمار السياحي في العراق ،رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية ، كلية الإدارة والاقتصاد ، 2014م .
نسرين قاسم غالي ،دور القطاع الخاص في دعم التنمية السياحية في العراق, رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية, كلية الادارة والاقتصاد, 2013م .
ثالثا : الكتب العربية والمترجمة
2)مايكل جينتجز ، طيور الخليج العربي ، تر: فكري بكر ، سلسلة المعارف الانسانية ، ج6 ، ندوة الثقافة والعلوم – دبي ، 1993م
. 3)محسن حسن ، السياحة الدينية في العراق : الواقع والمأمول – دراسة وصفية ، مركز البيان للدراسات والتخطيط ، بغداد ، 2018م.
4)هديل موفق محمود ، السياحة واستثمار دور المراقد المقدسة في تحقيق تنمية عمرانية مستدامة (مدينة سامراء حالة دراسية) ، الجامعة التكنلوجية – قسم الهندسة المعمارية .
رابعا : الكتب الاجنبية
AissaMosbah, Mohamed SalehAbd Al Khuja, A Review of Tourism Development in Malaysia, European Journal of Business and Manageement, Vol.6, No.5, 2014.
Colin Mac Andrews, The Politics of Planning: Malaysia And The New Third Malaysia Plan 1976-1980,University of California, Asian Survey, Vol.17, No.3, (Mar,1977).
Dwyer, Larry and Forsyth, Peter, Foreign Tourism Investment - Motivation and Impact, Annals of Tourism Research, Volume 21, No.3,1994.
Gin,OoiKeat, Historical Dictionary of Malaysia-Historical Dictionaries of Asia, Oceania, and the Middle East, No.71, The Scarecrow Press, Inc , United States of America, 2009.
Government of Malaysia Malaysia - The Study on a Comprehensive National Tourism Development. Japan International Cooperation Agency, 1989,
Noorizan Mohamed, Conservation in Malaysia: Landscape, Tourism And Culture, Thesis submitted for the degree of Doctor of Philosophy, Institute of Advanced Architectural Studies University of York, 1995.
R. S. Milne Reviewed, Malaysia-Beyond The New Economic Policy, Asian Survey, Vol.26, No.12, University of California Press,1986.
Recommendations on Tourism Statistics, United Nations, Department for Economic and Social Information and Policy Analysis, Statistical Division and World Tourism Organization, Statistical Papers Series M No. 83, United Nations, New York, 1994.
خامسا : المجلات والجرائد
آزاد محمد أمين ، المقومات الجغرافية لنشوء وتطور السياحة في المنطقة الجبلية من العراق ، مجلة كلية التربية ، عدد 2 ، مديرية دار الكتب ، جامعة البصرة ، البصرة ، 1979 .
جريدة الوقائع العراقية ، العدد (4232) ،بتاريخ 12 آذار 2012.
حمادي عباس حمادي وحيدر عبود كزار ، استراتيجية التنمية السياحية في العراق ،مجلة القادسية للعلوم الإنسانية ،كلية الآداب / جامعة القادسية ،المجلد الحادي عشر ،العدد3، 2008م .
عادل سعيد الراوي ، إمكانات العراق السياحية في المادة الخام الطبيعية (المناخ)، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ،العدد26 ،مطبعة العاني ، بغداد ، 1991 .
قانون الاثار والتراث رقم(55) لسنة 2002 ،جريدة الوقائع العراقية ، العدد3957 ، بتاريخ 18-11-2002 ، ج2.
قانون هيئة السياحة رقم (14) لسنة 1996 ، جريدة الوقائع العراقية ، العدد 3635 ، بتاريخ 16-09-1996.
كريم سالم حسين وقاسم جبار خلف ، تنمية القطاع السياحي في العراق المقومات .. التحديات .. المتطلبات ، جامعة القادسية ، كلية الادارة والاقتصاد ، مجلة القادسية للعلوم الادارية والاقتصادية ،المجلد 18 ،العدد1 لسنة 2016.
الوقائع العراقية ،العدد 2765 ، بتاريخ 24-03-1980 ، الجزء الأول .
الوقائع العراقية ،العدد 3319 ، بتاريخ 06-08-1990 ، الجزء الأول .
سادسا : المواقع الالكترونية

رؤوف محمد علي الانصاري ، السياحة في العراق دورها في التنمية والاعمار ، اتحاد الناشرين العراقيين ، بغداد ،2013.
صابرين علي ، السياحة الدينية.. ثروة مبددة! تحقيق صحفي ، تاريخ النشر: الاثنين 11/ 7/2011م ، الموقع الالكتروني : http://almadasupplements.com/news.php?action=view&id=2571#sthash.ZxXONZyo.dpbs
مجيد العزاوي , السياحة تحتاج إلى ثورة وبداية جديدة في العراق ،للمزيد ينظر : الموقع الالكتروني : https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/82e78253-ea99-4fd6-a6f5-f0d29e112654
الموقع الالكتروني الرسمي : http://www.motac.gov.my/en/
الموقع الالكتروني الرسمي : https://www.tourism.gov.my/
الموقع الالكتروني الرسمي للمنظمة: https://www.jica.go.jp/english/

حوض كيكات (حوض أم الربيع، المغرب) والإمتطاحات السيلية: التتبع، القياس، الإستخلاص والتحليل

Watershed of Oued Kaykat (Oum Er-Rbia Basin, Morocco) and torrential floods :followed, gauges, extraction and analysis

لحلو نادية ، الغاشي محمد ، الخالقي يحيى

مختبر دينامية المشاهد المخاطر والتراث ، جامعة السلطان مولاي سليمان ،كلية الاداب والعلوم الإنسانية ، بني ملال-المغرب

تقديم:

الإمتطاحات السيلية هي إمتطاحات سريعة، تميز المجاري المائية الموسمية و المؤقتة. من خلال البيبليوغرافيا يمكن القول أن الإمتطاحات السيلية، ترتبط إما بالتساقطات المطرية أو الصبيب على كافة المستويات (السنوية، الشهرية، اليومية واللحظية)، أو بمدة الجريان من خلال علاقة الترابط بين التساقطات المطرية والصبيب، أو كما يسميها الهيدرولوجيون، الإستجابة الهيدرولوجية للحوض. كما يمكن تحديدها بفترات التردد ومدة التركز.

تتعدد التعاريف الهيدرولوجية والإحصائية للإمتطاحات السيلية، ف (Gourley.2011)، يعرف الإمتطاح السيلي بكونه " صبيب سريع يتميز بقيم قصوى خلال فترة وفرة الموارد المائية بمنطقة جافة عادة، أو الزيادة السريعة في مستوى الماء عندما تتجاوز الصبيب العادي في مجرى معين ..." بينما يقترح Gaume وآخرون (2009) تعريفا كميا للإمتطاحات السيلية تشمل الأحواض النهرية، التي تقل مساحتها عن 500 كلم2 ، والتي تخضع لنظام تساقط يستغرق أقل من 24 ساعة، مع تراكم يزيد عن 100 ملم، لمدة بضع ساعات. ويعرف باحثون هيدرولوجيون آخرون من بينهم (Marchi.2011)، الإمتطاح السيلي بأنه حدث هيدرولوجي يؤثر على الأحواض النهرية التي تقل مساحتها عن 1000 كلم2 خلال مدة زمنية تقل عن 24 ساعة.

يمكن الإستخلاص إذن أن الإمتطاحات السيلية هي إرتفاع منسوب المياه داخل مجرى مائي موسمي أو مؤقت، خلال وقت قصير جدا، وتحدث غالبا نتيجة تساقطات مطرية قوية ومركزة في الزمان والمكان. لهذا تعتبر دراسة الإمتطاحات، من أهم الدراسات الهيدرولوجية، لأنها تتناول بالدراسة والتحليل إحدى أهم السلوكات الهيدرولوجية التي تحدث قبل الفيضانات. (لحلو نادية وآخرون. 2014).

مجال الدراسة:

يعتبر " واد كيكات " رافدا موسميا لواد أم الربيع. يمتد على مساحة 303 كلم^2 ،وهو من الأحواض غير المهيئة، المعروفة في نفس الوقت بنشاط وتردد ظاهرة الإمتطاحات السيلية. التي تزايدت بشكل كبير في السنوات الأخيرة، نتيجة لحدة التغايرية المناخية وتأثير التغيرات المناخية الراهنة. يمتد الحوض على وحدتين طبوغرافيتين، تمثلان جزءا من هضبة الفوسفاط وسهل تادلة. تحوم إرتفاعاته بين 955 م بعالية الحوض و 504 م بسافلة الحوض

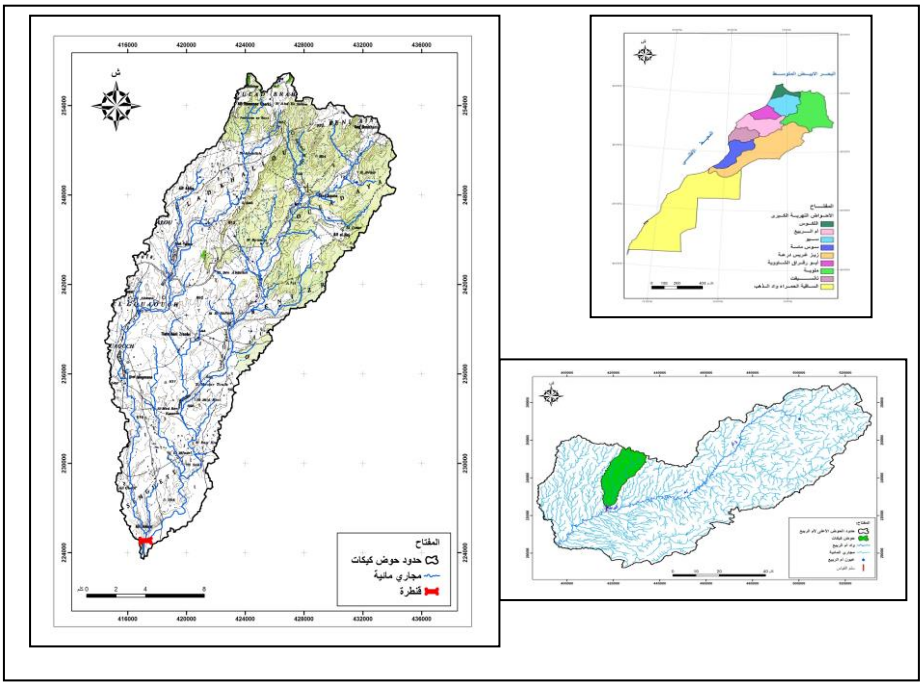

يتميز حوض واد كيكات، بسيادة صخور كربوناتية في الجزء الهضبي والتوضعات البيليوروباعية في الجزء السهلي، إلا أن تصريف المياه وبالرغم من هذه السيادة الكربوناتية يبقى تصريفا سطحيا، إرتباطا بغياب الغطاء النباتي وتركز التساقطات المطرية.

بالنسبة للمناخ العام للمنطقة، فتطبعه خاصية القارية، التي تتجلى في وجود شتاء بارد ورطب، يتراوح معدل تساقطاتها المطرية بين 400 و 700 ملم حسب المناطق، مقابل صيف حار وجاف تتخلله في غالب الأحيان العواصف الرعدية. (El Ghachi.M et al)

2.منهجية إنتاج المعطيات: يعتبر حوض واد كيكات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من الأحواض غير المهيئة، التي لا تتوفر على أي محطة هيدرومترية لتسجيل علو الماء وقياس الصبيب. كما أنه من الأحواض التي تعرف تردد كبير لظاهرة الإمتطاحات السيلية. ونظرا لغياب المعطيات الهيدرومترية، يصبح تتبع ودراسة هذه الظاهرة ضروريا، الأمر الذي يتطلب إنتاج معطيات الصبيب، بالإعتماد على العمل الميداني والتقني، تم العمل الإحصائي وفق المراحل التالية:

إختيار موقع تثبيت سلم القياس

تثبيت سلم القياس.

تتبع مستويات علو الماء من 2016 إلى 2018.

القيام بمجموعة من القياسات.

إعتماد معطيات علو الماء ونتائج القياس لإعداد منحنى المعايرة.

إستخراج الصبيب إنطلاقا من منحنى المعايرة.

تحديد وإستخلاص الإمتطاحات السيلية.

1.2 إختيار موقع تثبيت سلم القياس: يعتبر الكثير من الهيدرولوجيين ، أنه من المهم جدا إنشاء محطة قياس بسافلة الاحوض النهرية ، وبالضبط عند المصب ، وذلك بهدف تحديد طبيعة الجريان والتصريف. وبالنسبة للمعايير المعتمدة في إختيار الموقع المناسب لتثبيت سلم القياس بالروافد المدروسة ، فقد إعتمدنا نوعين من المعايير ، أحدهما يتعلق بإمكانية الوصول والمراقبة ، بالإضافة إلى وجود مراقب بالقرب من عين المكان ، وما إلى ذلك ، ومعايير اخرى متعلقة بالخصائص الطبيعية للموقع. لهذا فقد تم إختيار القناطر كمكان مناسب لتثبيت سلم القياس:

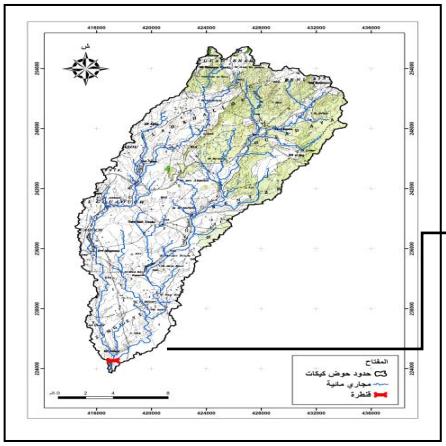

الصورة رقم ( ): قنطرة واد كيكات

2-2- تثبيت سلم القياس: تعتبر مرحلة تثبيت سلم القياس ، واحدة من أهم الخطوات في هذا العمل المنهجي. لأنها تشكل عنصرا أساسيا لقراءة وتسجيل مستوى علو الماء ، عبارة عن عارضة متدرجة ، وحدتها ب cm ، تتكون غالبا من (الحديد ، الخشب ، أو الصباغة على الإسمنت ،...) ، توضع بشكل عمودي أو مائل ، شريطة السماح بالقراءة المباشرة والواضحة لمستوى علو الماء ، بالمكان المختار للتثبيت. وإذا كان السلم مائلا ، يتم تصحيح التدرج وفقا لزاوية الميل مع الإتجاه العمودي. كما يجب أن يراعى في التثبيت ، وضع صفر سلم القياس تحت أدنى درجة ممكنة من الصبيب الإعتيادي بالمقطع المختار للتتبع ، وذلك لتفادي القيم السلبية. (Lallemeni.C, 201)

تتم قراءة وتتبع مستويات الماء في الحالات المطيرة مرتين على الأقل في اليوم ، بينما يتم قراءة مستويات علو الماء في حالة الإمتطاحات أكثر من مرة ، وبشكل متقارب ومتوالي ، الأمر الذي يسمح بتوفير معطيات مستمرة ومسترسلة عن المجرى المدروس. (Lahlou.N et al 2019)

لوحة صور رقم (4-1): عملية تثبيت سلم القياس بواد كيكات سنة 2015

هذا الإطار تم القيام بمراقبة يومية لعلو مستويات الماء ، خلال الفترات المطيرة ، وأيضا خلال فترة العواصف الرعدية ، مع تسجيل قيم علو الماء طيلة المدة الزمنية المدروسة (2016-2018).

لوحة صور رقم (5-8): نموذج علو مستويات المياه المسجلة "بواد كيكات" (2016-2018)

السرعة من ضفة إلى أخرى ، وعموديا من السطح نحو العمق. وبالنسبة لواد خنيس وبشكل متوازي مع مراقبة وتتبع علو الماء ، تم القيام بعدة خرجات ميدانية للقياس ، لمعرفة حجم المياه التي تمر بالمقطع خلال وقت معين ، وقد تم الإعتماد في ذلك على طريقة " نقطة بنقطة ".

لوحة صور رقم (9-10): نموذج لعملية قياس الصبيب بواد كيكات (2016-2018)

النتائج والتحليل: تشكل النتائج التي تم الحصول عليها ، منهجا عاما لإنتاج المعطيات الهيدرومترية ، والتي تتمحور في ثلاث نقط أساسية ، على النحو التالي:

- تتبع مستويات علو الماء وقياس الصبيب.
- إنشاء منحنى المعايرة وتحويل قيم علو الماء إلى صبيب.

- تحديد وإستخلاص فترات الإمتطاحات السيلية.

1.تتبع وتسجيل علو الماء وقياس الصبيب بحوض "واد كيكات" (2016-2018): لقد دامت المراقبة والتتبع المستمر لعلو مستويات الماء لمدة ثلاث سنوات من 2016 إلى 2018 ، تم خلالها القيام بقراءة بصرية لسلم القياس المتدرج ، تم مراقبة وتتبع مستويات علو الماء بالمجرى المائي مرتين في اليوم في المتوسط. ويمثل الجدول رقم (1) نموذج لهذه المعطيات بحوض واد كيكات:

التاريخ	التوقيت	إرتفاع مستوى الماء ب (cm/m)	التاريخ	التوقيت	إرتفاع مستوى الماء ب (cm/m)	التاريخ	التوقيت	إرتفاع مستوى الماء ب (cm/m)
28/02/2016	17:51	0,46	28/11/2016	10:39	0,22	30/04/2017	10:30	0,07
22/03/2016	13:30	0,56	06/12/2016	09:30	0,45	20/08/2017	18:45	0,58
23/03/2016	17:30	1,10	16/12/2016	17:30	1,60	30/11/2017	19:30	1,30
24/03/2016	11:40	0,10	17/12/2016	13:45	0,08	11/12/2017	17:00	1,20
04/05/2016	18:30	1,10	19/01/2017	10:20	0,13	06/01/2018	10:30	0,20
05/05/2016	10:00	0,20	20/01/2017	11:30	0,16	07/01/2018	12:37	0,60
13/08/2016	16:30	0,26	23/01/2017	18:30	0,90	30/01/2018	10:34	0,61
07/09/2016	18:20	1,10	12/02/2017	18:10	0,07	31/01/2018	11:23	0,12
08/09/2016	09:30	0,10	19/02/2017	16:25	0,32	01/02/2018	14:30	0,29
13/10/2016	17:45	0,90	20/02/2017	09:30	0,07	02/02/2018	11:21	0,50
07/11/2016	22:30	1,70	23/02/2017	12:23	0,20	03/02/2018	12:24	0,18
22/11/2016	19:30	1,10	24/02/2017	16:10	1,48	04/02/2018	10:11	0,92
23/11/2016	17:22	0,17	25/02/2017	10:30	0,18	05/02/2018	16:30	0,83
26/11/2016	13:47	1,15	24/04/2017	16:10	2,00	06/02/2018	10:40	0,14
27/11/2016	22:10	1,50	29/04/2017	20:48	1,20	26/02/2018	17:35	0,24

الجدول رقم (1): نموذج مستويات علو الماء بواد كيكات من 28\02\2016 إلى 26\02\2018

أظهرت النتائج المحصل عليها ، تباينا كبيرا لمستويات علو الماء ، خلال الفترات المطيرة ، الأمر الذي إنعكس لمحالة على تغايرية الصبيب. ولذاك تم القيام بمجموعة من الخرجات لقياس الصبيب ، خلال فترات مختلفة من السنة ،بالإعتماد على الطريقة التي سبقت الإشارة إليها وهي " نقطة بنقطة ". والجدول رقم (2) يلخص مجموع هذه النتائج:

التاريخ	(S/m3)Q	(s/L) Q
04/03/2018	1,08	1080
25/04/2018	0,27	270
18/05/2018	1,17	1170
19/05/2018	4,2	4200
26/06/2018	88,16	88160

الجدول رقم (2): نتائج خرجات قياس الصبيب بحوض واد كيكات سنة 2018

يتضح من خلال هذه النتائج تغايرية كبيرة في قيم الصبيب ، إرتباطا بتغير مستويات علو الماء ، ويعزى هذا التغير بشكل رئيسي إلى تغايرية كمية التساقطات المطرية المركزة في الزمان والمكان ، التي يشهدها الحوض.

2- إنشاء منحنى المعايرة وتحويل قيم علو الماء إلى صبيب بحوض" واد خنيس " :

2-1- إنشاء منحنى المعايرة " لواد كيكات ": منحنى المعايرة ، هو منحنى يمثل العلاقة التجريبية بين مستويات علو الماء والصبيب ، لمجرى مائي معين أو قناة ، ينشأ من قياسات السرعة ، من خلال المقطع المرجعي الذي تم إختياره للدراسة . (El Ghachi.M et al 2018).

وقد تمت عملية تتبع ومراقبة مستويات علو الماء ، وقياس الصبيب كما سبقت الإشارة ، خلال الفترة الممتدة من 2016 إلى 2018. حيث تم إنشاء منحنى الإتجاه (Courbe de tendance) إنطلاقا من النتائج المحصل عليها ، وذلك بهدف الحصول على معادلة الإرتباط بين علو الماء والصبيب ، تم بعد ذلك إنشاء منحنى المعايرة.

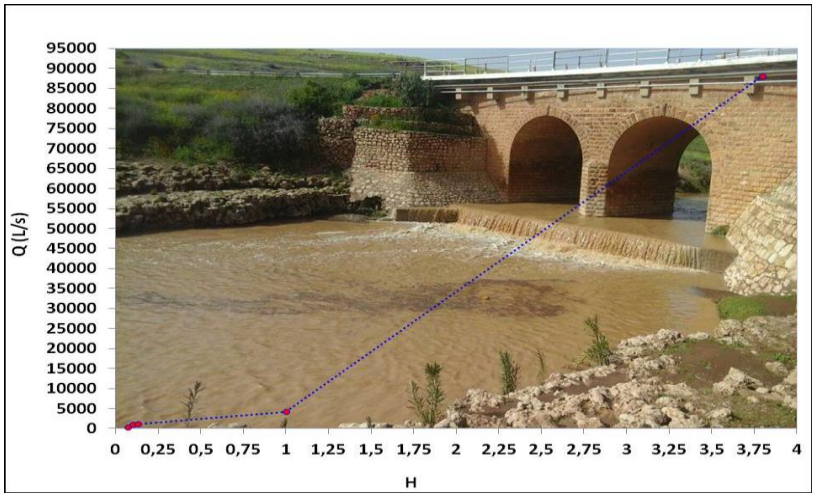

المبيان رقم (1): منحنى المعايرة لحوض " واد كيكات " (2016-2018)

يلخص المبيان رقم (1)، مجموع نتائج مستويات علو الماء ، المسجلة بحوض واد كيكات ، خلال الفترة (2016-2018)، من جهة والصبيب الذي تم قياسه لنفس الإرتفاعات من جهة ثانية. يمثل تحليل توزيع النقط بمنحنى المعايرة ، علاقة تجانس كبيرة بين قيم الصبيب (Q) والإرتفاعات (h)، ويظهر ذلك من خلال معامل التحديد $R^2 = 0,87$.

2-2- تحويل قيم علو الماء إلى صبيب بواد كيكات (2016-2018): بعد إنشاء منحنى المعايرة ، تأتي مرحلة أخرى تتمثل في تحويل قيم علو الماء إلى صبيب ، وتشكل هذه العملية الجزء الاخير من عملية القياس الهيدرولوجي :

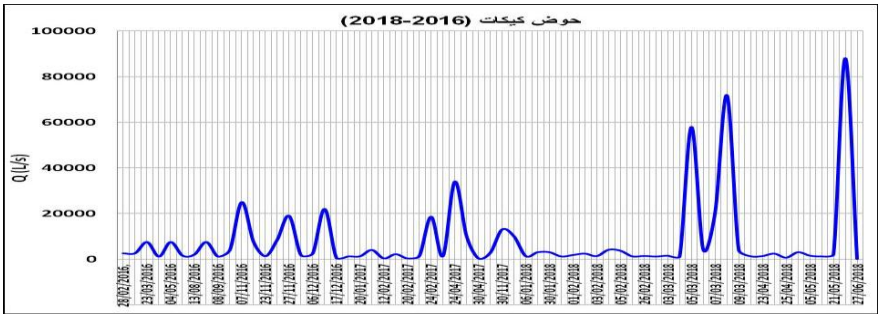

المبيان رقم (2): توزيع الصبيب اليومي لحوض واد كيكات (2016-2018)

تبرز النتائج المحصل عليها تباين وإختلاف كبير في توزيع الصبيب اليومي ، وذلك من شهر لأخر ومن سنة لأخرى. وقد بلغت أعلى قيم الصبيب اليومي L/s 88160 بشهر يونيو 2018 ، أما أدنى قيم الصبيب اليومي المسجلة طيلة الثلاث سنوات المدروسة ، فتحددت في L/s 270 بشهر فبراير سنة 2017 ، أي بفارق 87890 L/s مقارنة مع أعلى قيم الصبيب اليومي المسجلة خلال الثلاث سنوات المدروسة ، مما يدل وبوضوح على وجود إختلاف وفرق كبير في توزيع الصبيب ، بين أيام وأشهر السنة ، وأيضا من سنة لأخرى.

2-3- تحديد وإستخلاص الإمتطاحات السيلية بحوض " واد كيكات ": بعد إنشاء منحنى المعايرة وإستخلاص الصبيب اليومي ، تم العمل على تحديد وإستخلاص الإمتطاحات السيلية ، بالإعتماد على صبيب الذروة اليومي. والجدول رقم (3) يلخص مجموع النتائج المحصل عليها :

السنوات	المدة الزمنية	صبيب الذروة	السنوات	المدة الزمنية	صبيب الذروة	السنوات	المدة الزمنية	صبيب الذروة
2016	28/02/2016	2500	2017	19/01/2017 20/01/2017	1230	2017	11/12/2017	10000
2016	22/03/2016 24/03/2016	7500	2017	23/01/2017	4000	2018	06/01/2018 07/01/2018	3000
2016	13/08/2016	2000	2017	12/02/2017	270	2018	30/01/2018 06/02/2018	4090
2016	07/09/2016 08/09/2016	7500	2017	19/02/2017 20/02/2017	2150	2018	26/02/2018 27/02/2018	1370
2016	13/10/2016	4000	2017	23/02/2017 25/02/2017	18600	2018	03/03/2018 10/03/2018	71900
2016	07/11/2016	25000	2017	24/04/2017	34000	2018	23/04/2018 25/04/2018	2400
2016	22/11/2016 28/11/2016	19000	2017	29/04/2017 30/04/2017	10000	2018	04/05/2018 05/05/2018	3000
2016	06/12/2016	2450	2017	20/08/2017	2700	2018	19/05/2018 21/05/2018	2000
2016	16/12/2016 17/12/2016	22000	2017	30/11/2017	13000	2018	26/06/2018	88160

الجدول رقم (3): فترات الإمتطاحات السيلية بحوض " واد كيكات " (2016-2018)

تحددت مجموع الإمتطاحات السيلية المسجلة بحوض "واد كيكات " ، خلال المدة الزمنية المدروسة (2016-2018) في 28 إمتطاح سيلي ، سجلت 10 إمتطاحات سنة 2016 و نفس الشيئ سنة 2017 ، بينما سجلت 8 إمتطاحات من أصل 28 إمتطاح سنة 2018.

المبيان رقم ( ): نموذج لأهم الإمتطاحات السيلية المسجلة بحوض "واد كيكات" (2016-2018)

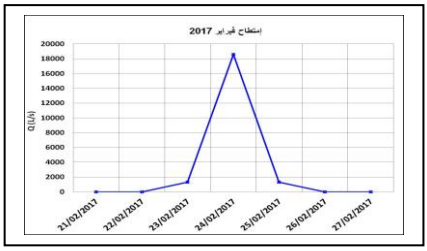

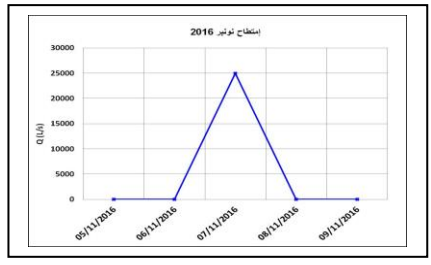

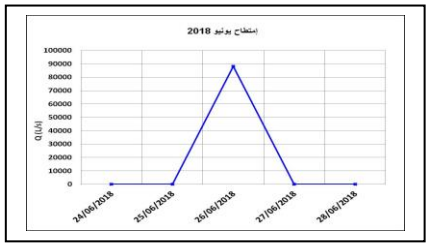

خاتمة:

يصعب التبؤ بالإمتطاحات السيلية بحوض" واد كيكات "، لأنها تنشأ في الغالب نتيجة تساقطات مطرية قوية ومركزة في الزمان والمكان، تتميز بفجائيتها وقصر مدتها، كما أن لها إنعكاسات وخيمة على المستوى الإقتصادي والإجتماعي، وأيضا على المجرى المائي، سواء من خلال نشاط الدينامية النهرية أو من خلال الحمولات الرسوبية والعوائق الهيدرولوجية، التي تعرقل السلوك الهيدرولوجي للمجرى. كما أن هذه الإمتطاحات السيلية، يمكن ان تحدث في أي وقت من السنة وبخصائص هيدرولوجية مختلفة، وبالتالي فدراسة هذا النوع من الإمتطاحات يعطينا الفرصة لفهم تكوينها وتحديد أليات إشتغالها وتأثيرها على المجال والمجتمع.

المراجع :

- الغاشي محمد، الخالقي يحي، لحلو نادية (2014): الإمتطاحات بالأحواض الجبلية المغربية، المقاربة المنهجية : التطبيق والنتائج حالة حوض أسيف غزاف بالأطلس الكبير الأوسط (جهة تادلة أزيلال، المغرب)، مجلة جيومغرب ،العدد 10 ،الصفحات 15-30.

- لحلو نادية، الغاشي محمد، الخالقي يحيى (2018): الإمتطاحات المرجعية بحوض درنة (أم الربيع- المغرب): التحديد والإستخلاص والتصنيف. المجلة الدولية للبيئة وتغير المناخ العالمي، العدد 7. 6743-132310: ISSN ، عدد الصفحات 13.

Gaume, E. (2002) : " Eléments d'analyse sur les crues éclairs .«Thèse de doctorat, Université du Québec, Institut National de la Recherche Scientifique. 359 pages.

-Lahlou.N, El Ghachi.M, El Khalki.Y, (2018): Quelques aspects de la propagation des crues de références dans le bassin de Derna : Cas de la crue d'hiver de 1987(Bassin d'Oum Er-Rabia, Maroc).Journal International Science et Techniques de l'Eau et de l'Environnement, ISSN : 1737-6688, N°1, pp 217-222.

- Lallemeni.C (2018) : Hydrométrie, mesure les débits d'une rivière, pour quoi et comment?. ISSN 2555-0950, pp 1-28

-Lorraine. D (1996) : étude hydrologique des crues du bassin français de la Moselle sur la période 1970-1991- AREA et CEGUM, 35p.

جدل التخييلي والمرجعي في رواية ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية لواسيني الأعرج

The controversy of the imaginary and referancial in the novel of Isis Kubia Nights three hundred nights in the hell of the 0sforeyat written by Ouassini El Aradj

د. نجاة بوقزولة ، جامعة امحمد بوقرة –بومرداس –الجزائر

الرّواية الجديدة تقوم على طمس الشّخصية لتصنع عالما قاسيا
..عالما يكتفي الإنسان بالنّظر إليه
...والأشياء فيه ليست ملكا لأحد بل هي ملك للأشياء "بنغو

مقدمة:

النصّ موضوع بحثنا"ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية " ينتمي إلى الرّواية السّير غيرية حيث اتّخذ واسيني الأعرج من سيرة الكاتبة الفلسطينية مي زيادة ؛ المادة الحكائية التي بنى عليها سرده ، والجدير بالذّكر أن الروائي لم يلتزم حرفيا بالسيرة الذاتية للكاتبة الفلسطينية ولم يول عناية كبيرة بها ، بقدر ماسعى إلى إبراز آرائه ومواقفه من العالم والأشياء من خلال الشخصية البطلة ، فانتقد الحداثة العربية المعطوبة في الجيل الذي تنتمي إليه الكاتبة ، كما سعى لإبراز موقفه من الحداثة ومن العالم الشرقي ، متّخذا من صوت الشخصية البطلة قناعا لإبراز آرائه الحداثية.

ومن هنا تعترض البحث العديد من الإشكالات تنشأ من كون كتابة السيرة تختلف عن الكتابه الروائية التي منبعها التخييل وإطارها الإبداع ، فإذا كان الرّوائي يمتلك حق مخالفة صلابة الواقع وإحالته ليصبح واقعا آخر موازيا في روايته ، فهل للشخصية المكتوبة الحق في عدم تزييف تاريخها وسيرتها ؟.خاصة إذا لم تكن شخصية عادية كالكاتبة الفلسطينية مي زيادة وهي رمز من رموز الثقافة العربية في تاريخنا الحديث ؟.سنحاول الوقوف على مختلف الالتباسات التي أحدثها الرّوائي بوقوفه في المنزلة بين المنزلتين من السيرة الغيرية والرّواية..

1-من السّيرة إلى الرّواية :

لقد سعت الرّواية الجديدة لاستعادة بعض عناصر السيرة وهو ما أثار إشكالات عديدة مرتبطة بطبيعة كلّ جنس وخصوصية كلّ من الكتابتين ، فإذا كانت السّيرة " تقدّم للقارئ أحداثا ووقائع حقيقية بصدق ألزمها به ما أطلق عليه فيليب لوجون ميثاق السيرة الذاتية "كأنّه ميثاق شرف أبرمته (أنا)، الكاتب المعلن مع قارئ مجهول ، لكنّه مفترض " ، (إلياس فركوح 2016م)، فإنّ الرّواية "عمل خيالي يتكوّن من حكاية تكتب نثرا تصوّر الحياة في حركيّتها تكون رؤية الكاتب فيها شاملة بهدف إبراز موضوعها عبر امتداد زمني معيّن ورؤية الكاتب بطبيعتها قفزة خارج المفاهيم القائمة ، هي إذن تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النّظر إليها "(محمّد بنيس ، 2001م ، ص 47)، فالرّواية هي حكاية نثرية خيالية بالدّرجة الأولى إذ"تتأسّس كخطاب سردي دي خصائص تخييلية "(حسين).

خمري ،2001م ، ص 87)، أمّا السّيرة الذّاتية كما عرّفها فيليب لوجون هي "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته (فيليب لوجون ، 1994م ص22)، من هنا يتبيّن اختلاف طبيعة الكتابة في السيرة عنها في الرّواية ففحين تقوم السّيرة أساسا على حقائق ووقائع حدثت بالفعل ، تنهض الرّواية على الخيال ومفارقة الواقع ، إنّه السّمة البارزة فيها حيث لا يسأل الرّوائي عن صدق الحقيقة بقدر ما يسأل عن صدق الفنّ. فكيف لكتابتين مختلفتين في طبيعتهما تجتمعان ضمن نصّ واحد ؟.

خاصّة إذا علمنا أنّ الرّوائيين لم يقتصروا على سرد حيواتهم ضمن الكتابة السّردية بل تجاوزوا ذلك إلى السيرة الغيرية التي "هي البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذّ والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلّفه في جيله "(عبد العزيز شرف ، ص 3)، وإذا كان من شروط كتابة السيرة الغيرية أن يلتزم الكاتب الحياد فيما يكتب والتّركيز على حياة هذه الشّخصية التي لابدّ أن تكون ذات أهمّية في المجتمع الذي تنتمي إليه ، لتأثيرها فيه ولما قدّمته من إنجازات. فهل التزم الرّوائي شرط الحياد؟ وهل عليه ذلك ؟.

و إذا ماسلّمنا أنّ الرّواية والسّيرة قد امتزجتا ضمن بوتقة النصّ الرّوائي ، فهل يعني هذا أنّ الرّوائي تجاوز السّيرة واعتمد وحسب على الخيال واستحضر الأسماء ثمّ عزلها عن تاريخها الشّخصي ؟.أم حافظ على مرجعيتها الواقعية بلغة شعرية دون إحداث تغيير و إضافات؟. وهل يمكن أن تحلّ الرّواية محلّ السّيرة في معرفة تفاصيل حياة الشّخصية المكتوبة ؟.

يرى بعض النّقاد أنّ الرّواية والسّيرة الغيرية قد أنتجتا نوع سردي وسيط هي الرّواية السّير غيرية وهي "عمل سردي روائي في مدوّنته الرّوائية يرتكز على سيرة غيرية ينتخبها الرّوائي لحيويتها وثرائها ، يعيد صياغتها روائيا باعتماد شبه كلّي على الواقعة السيرية في مرجعيتها الواقعية ، ويوضع كلمة رواية على غلاف الكتاب ، فإنّ الرّوائي يدخل عمله في ميدان سردي ، لا روائي ولا سيري صرف ؛ هو الرّواية السّيرية "(محمّد صابر عبيد ، ص 212)، .إذا نتج نوع جديدمن امتزاج الرّواية بالسيرة ، لاهو" حقيقي كما ينبغي أن تكون الحقيقة في السيرة ، ولا هو خيالي صرف كما ينبغي أن تكون الوقائع في الرّواية "(عبد الله شطّاح 2012م ص 13)،

إذا لقد عدل بعض النّقاد عن الإجابة عن تلك الأسئلة الإشكالية المتعلّقة بطبيعة كلّ من الكتابة السيرية والكتابة الرّوائية وامتزاجهما ، للبحث في مسمّى النّوع المهجّن منهما ، ربّما لصعوبة الجمع بين الالتزام بالواقع والحياد من جهة كضرورة من ضرورات جنس السيرة ، وإقحام عنصر الخيال من جهة ثانية كضرورة من ضرورات الكتابة الرّوائية ، أو أنّ الاتّكاء على السّيرة ضمن الكتابة الرّوائية أصبح واقعا فرض نفسه على السّاحة الأدبية والفنّية على الرّغم من ضبابية الخصائص التي تميّزه ، وهو ما حدا بالبعض إلى إيجاد مصطلح ثالث هو الرواية السّير غيرية ، ومن ثمّ فإنّ الرّواية السّير غيرية يتجاذبها هاجسان هاجس الميثاق المرجعي الواقعي وهاجس الميثاق الرّوائي التّخييلي ؛لذلك لزم تحديد عناصر وخصائص تجمع بين الجنسين وتوفّق بين طبيعة الكتابتين فلا هي سيرة صرفة ولاهي رواية متخيّلة صرفة بل هي رواية من حيث الجنس الأدبي وسيرة غيرية من حيث الصّيغة ولكنّها "تحيل على عالم متخيّل حتّى وإن استثمرت بعض جوانب حياة الشّخصية التي كتب عنها "(صالح معيض الغامدي ، ص 148)، نصل إذا إلى نتيجة أكيدة أنّ الرّواية السّير غيرية لايمكن أن

تحلّ محلّ السّيرة الذّاتية للشّخصية المكتوبة، ذلك أنّ الرّواية وإن رجعت في بعض تفاصيلها إلى حياة الشّخصية التي كتبت عنها إلّا أنّ عنصر الخيال قد مازج بنيتها ممّا جعلها تنتمي إلى عالم الرّواية وبالتّحديد رواية سير غيرية. ذلك أنّ الرّوائي لا يعيد لنا الأحداث والشّخصيات والوقائع كما هي في كتب السّيرة بحرفيتها أو كما حدثت حقّا بل يمرّرها عبر موشور الذّات فتنطبع برؤيته وتصبح جزءا من رؤيته هو لا انعكاسا لرؤية شخصياته، ولعلّ هذا ما قصدته مارغريت دوراس حين قالت :"لا نكتب شيئا خارج الذّات ".(توماس كليرك 2005: ص10)، .وينتهي إلياس فركوح إلى نتيجة حتمية في معرض تمييزه بين التّدوين والتّسجيل بوصفهما عمليتي نقل، وبين الكتابة الأدبية الفنّية بوصفها آلية تحويل وإعادة إنتاج حين يقرّر أن :"لا شيء يخصّ الخارج نكتبه في الرّواية يكون منفلتا من ذواتنا الجوّانية، فذواتنا عند الكتابة هي المرجعية والمصدر."(إلياس فركوح :2016م)،

وهذا الأمر تجسّد في رواية ليالي إيزيس كوبيا لواسيني الأعرج من حيث حافظ الرّوائي على بعض لقطات السّيرة الذّاتية للكاتبة الفلسطينية مي زيادة ؛كقصّة الحجر عليها وإدخالها العصفورية من قبل أهلها عدا عن حديثه عن علاقاتها بكتاب عصرها صالونها الأدبي وتعليمها وبعض عناوين كتبها و رسائلها، فقد استعاد بعض تفاصيل سيرتها من كتاباتها ومن الكتب التي أرّخت لحياتها وخاصّة محنتها، فقد أعلن في مطلع الرّواية أنّه امتلك وثيقة "الكتاب الصّغير لأمين الرّيحاني" قصّتي مع مي " وهو الكتاب الذي خصّصه أمين الرّيحاني ليحكي عذابات مي في العصفورية وقصّة الحجر عليها وكيف تنكّر لها أصدقاؤها و سعيه لإخراجها والوقوف إلى جانبها، وقد استعاد واسيني تلك الأحداث أشار بإيجاز للكتاب قائلا ":أهمّ وثيقة صغيرة في تنقّلاتنا الصّعبة الكتاب الصّغير :قصّتي مع مي، الذي خلّفه وراءه صديقها أمين الرّيحاني، لكنّه خصّصه لمحنتها أكثر ممّا خصّصه لنفسه "(واسيني الأعرج :2017، ص 9)، لكنّ قارئ الرّواية يكتشف أنّ الرّوائي لم يلتزم بحرفية تلك السّيرة كما هي في كتاباتها وكما أرّخ لها الرّيحاني، بل مارس عملية التّخييل في استعادة تفاصيل الحجر عليها وتقنّع بقناعها وهو يبثّ رؤاه الحداثية اتّجاه الدّين و العادات والتّقاليد الشّرقية وعلاقة المرأة بالرّجل والفصل في سبب عدم زواجها وعلاقتها بالمثقّفين من عصرها....وغيرها، لكن السّؤال الذي يواجهنا هل يحقّ للرّوائي أن يخرق كلّ ميثاق مرجعي، ويحطّم كلّ الطّابوهات في روايته حتّى ولو كانت الشّخصية المكتوبة رمزا من رموز الثّقافة الشّرقية العربية؟.وإلى أيّ مدى استطاع الرّوائي أن ينصف مي خاصّة وهو الذي أعلن في مقدّمة روايته قائلا :ولاهدف لنا من وراء ذلك سوى إنصافها بعد أكثر من قرن من مجيئها إلى هذه الدّنيا التي لم تنصفها "(واسيني الأعرج 2017م ص 12)،

وكأنّه أراد أن يحقّق لها رغبتها التي أفضت بها في رسالة لها إلى يعقوب صرّوف في فبراير 1919م أعادها واسيني حاذفا بعضا من أجزائها تقول :أتمنّى أن يأتي بعدي من ينصفني "(واسيني الأ عرج 2017م ص 5)، وقد وردت الرسالة في سيرتها التي جمعها غازي جاء فيها :"أتمنّى أن يأتي بعد موتي من ينصفني ويستخرج من كتاباتي المتواضعة مافيها من روح الإخلاص والصّدق والحميّة والتحمّس لكلّ شيء حسن وصالح وجميل لأنّه كذلك لا عن رغبة في الانتفاع به "(غازي محمّد خالد ؛2010م، ص 5).

2-في الميثاق المرجعي : الميثاق المرجعي هو التّطابق الموجود بين ما جاء في متن الرّواية وبين ما هو مثبت في كتب السّيرة، وقد ارتبط الميثاق المرجعي بالسيرة الذّاتية، وقد عرّفه جابر عصفور بقوله :"الميثاق

المرجعي إنّما هو التّشابه مع الحقيقي ، والاقتراب منه إلى درجة تدني بالأطراف إلى حالة من الاتّحاد فهذا النّوع من الميثاق يحدّد ضمنا أو صراحة "(جابر عصفور ، 1999م ص 219)، ينهض الميثاق المرجعي أساسا على إشارات خارجية ، ليعطي بذلك مصداقية للرّواية السّير غيرية ، وقد اعتمد واسيني في روايته ليالي إيزيس كوبيا على إشارات من سيرة الكاتبة الفلسطينية مي زيادة ، وقد استعاد واسيني تلك الأحداث من سيرتها مشيرا بإيجاز في مقدّمة روايته إلى هذا الأمر قائلا ":أهمّ وثيقة صغيرة في تنقّلاتنا الصّعبة الكتاب الصّغير :قصّتي مع مي ، الذي خلّفه وراءه صديقها أمين الرّيحاني ، لكنّه خصّصه لمحنتها أكثر ممّا خصّصه لنفسه "(واسيني الأعرج :2017 ، ص 9)، كما أنّه أقرّ كما أسلفنا أنّ الهدف من كتابة روايته هوإنصاف مي زيادة من الظّلم الذي لحقها في أواخر حياتها. حتّى ولو سطّر الرّوائي على غلاف الكتاب "رواية "ليحدّد لنا جنس الكتابة التي بين أيدينا لكنّه في الوقت ذاته حاول أن يوهم القارئ بصدق الرّواية من خلال استعادة بعض تفاصيل حياة الكاتبة الفلسطينية وخاصّة الجزء الأخير منها أين تمّ الحجر عليها وقد حاول الرّوائي أن يعطي روايته مصداقية من خلال إشارات عدّة تقاطعت فيها الرّواية بالسّيرة والمتخيّل بالواقعي بدءا بصورة مي على الغلاف وهي ذات الصّورة التي نشرت على غلاف معظم الكتب التي عرضت لسيرتها الشخصية أو أرّخت لكتاباتها ككتاب البيطار وخالد غازي.

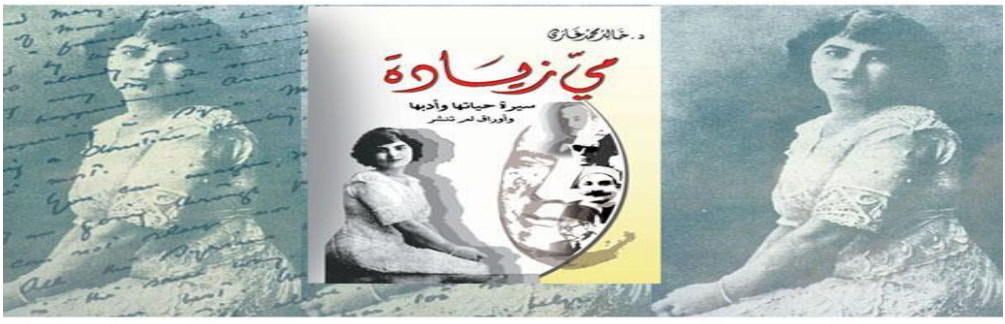

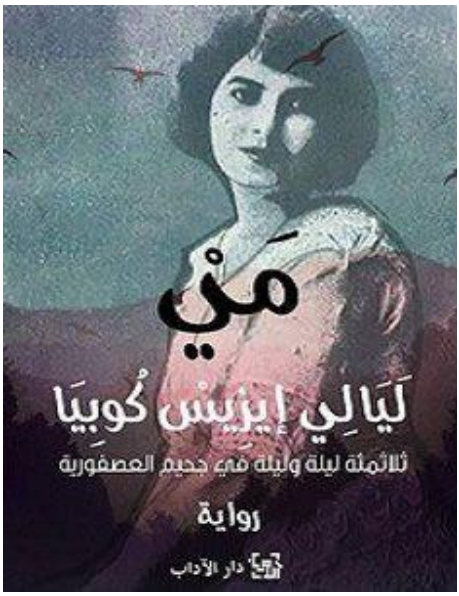

لتؤكّد لنا الرّواية واقعية الشّخصية المروية ، كما تتطابق الرّواية مع الواقع والسّيرة من خلال ما يلخّصه العنوان من حقائق المعاناة ومأساة الكاتبة أثناء تواجدها في العصفورية " ليالي إيزيس كوبيا ألف ليلة وليلة في العصفورية "فالعنوان كما هو معروف في الدّراسات النّقدية لديه أهمّية كبيرة فبالنّسبة للرّوائي "يمثّل اختيار عنوان الرّواية جزءا مهمّا من أجزاء العملية الإبداعية ، إذ هو يلقي ضوءا على محتوى الرّواية "(لودج ديفيد ،2002م ، ص218)، والعنوان هو الملفوظ الذي تنجدل تحته أو منه باقي الدّلالات ، وهو في الرّواية التي نحن بصدد قراءتها ينزع نحو الواقع ويشي بمرجعية سيرية للعمل الرّوائي ؛ فالاسم يحيل مباشرة على اسم الشّهرة للكاتبة الفلسطينية مي زيادة والمكان الذي يعيّنه العنوان هو العصفورية أين قضت مي زيادة أقسى أيّام محنتها وهي تعاني الحجر والظّلم من أهلها ،والعصفورية هي مصحّ عقلي شهير يقع في قلب مدينة بيروت ، وهو أوّل مصحّ للأمراض العقلية في لبنان ، شيّده أفراد من الإرساليات الأمريكية في نهاية عام 1890 ،وكان في مطلع القرن الماضي أكبر مستشفى للأمراض العقلية في الشّرق الأوسط في عام 1972م توقّف استعمال المصحّ ولكن ظلّت كلمة العصفورية عالقة بأذهان اللّبنانيين. وهذه الإحالة المرجعية على الأحداث والأمكنة في الرّواية هي مايؤشّر على محاولة الرّوائي إقناع القارئ بصدق الأحداث المروية والتّأكيد على أنّ الكاتب قد قام باجتزاء جزء من السيرة الذاتية للكاتبة مي زيادة تعزّزه عدّة أمور داخل المتن الرّوائي فإلى جانب بعض اللّقطات التّاريخية والجغرافية فيما يتعلّق بالمكان أو الزّمن العارض كذكر بعض التّواريخ وتحديدها في المتن الرّوائي هناك بعض التّفاصيل التي شكّلت تماسّا بين الرّواية والسّيرة بدءا بالاسم يقول واسيني على لسان مي : استعرت من ماري البداية والنّهاية مي. مي تصغير ماري عند الإنجليز. إيزيس كوبيا يكاد يكون التّرجمة الحرفية لماري زيادة. إيزيس أخت الإله وعروسه. ماري أم الإبن وعروس البحر. كوبيا اللّاتينية مرادفة لزيادة ، أي الشّيء الفائض. "(واسيني الأعرج 2017م ص 138)، ولعلّ تقنية الحكي بواسطة ضمير المتكلّم البارزة في المقطع والمهيمنة على كامل الرّواية هي ماتوهم القارئ بصدق الحكاية وبمرجعيتها ، وتوهم القارئ أيضا أنّ أحداث

الرّواية أحداث واقعية ، وكلّ ما جاء فيها هو سيرة الكاتبة كما حدثت فعلا في الواقع ذلك أنّ ضمير المتكلّم "يجعل المتلقّي يلتصق بالعمل الرّوائي ، ويتعلّق به أكثر متوهّما أنّ المؤّلف فعلا هو إحدى الشّخصيات التي تنهض عليها الرّواية ، إنّ السّرد بهذا الضّمير يلغي دور المؤلّف بالقياس إلى المتلقّي الذي لا يحسّ بوجوده ، بينما المتلقّي لا يحمل الإحساس نفسه حين كان السّرد بضمير الغائب"(عبد المالك مرتاض :1998م ص 159)، إنّ التّقنية التي استخدمها واسيني المتعلّقة باستخدام ضمير المتكلّم هي ما أسهم في إيهام القارئ بالتطابق بين الرّواية وسيرة الكاتبة 'حيث لم يظهر صوته إلّا لماحا حين بدأ أحداث الرّواية بالبحث المضني عن المخطوطة التي تخيّل أنّ مي زيادة كانت قد كتبتها أثناء تواجدها في العصفورية ، ويروي واسيني أنّ أجيالا كثيرة قد ركضت وراء هذه المخطوطة لأكثر من سبعين سنه ولكن دون جدوى ، ليعثر عليها في مصر لدى امرأة عجوز ولملم أجزاءها مع أوراق كان قد حصل عليها الرّاوي من مقرّبين بعد رحلة مضنية رافقته فيها الشّخصية الثّانية روز خليل وهي باحثة لبنانية كندية ، تحمل المخطوطة عنوان ليالي العصفورية و عبارة :أخيرا دوّنتك يا وجعي وهمّ قلبي المحفورة على ظهر المخطوطة لتفتتح الرّواية بعدها على لسان مي زيادة تحكي محنتها بدءا باستدراجها من مصر إلى لبنان من قبل ابن عمّها ، ثمّ اقتيادها بعنف إلى المصحّ العقلي فيما كانت تقاوم عبثا في محاولة يائسة منها لإقناع الجميع بأنّها بكامل قواها العقلية وأنّها وقعت ضحيّة مؤامة من أجل الاستيلاء على ميراثها (واسيني الأعرج ؛2017)، وعلى الرّغم من أنّ جزء كبير من هذه الرّواية هو ضرب من التخييل إلّا أنّ واسيني وظّف داخل المتن الرّوائي إشارات من السّيرة الذّاتية لمي زيادة فبعد حديثه عن وجودها في العصفورية وهو ما حدث في الواقع ومثبت في كتب السّيرة ، تحدّث عن نشأتها ومولدها وأبويها وأخيها المتوفّي وجنسيتها وديانتي أبويها المختلفتين وعن تعليمها في مدرسة الرّاهبات بعينطورة وانتقالها مع والديها إلى مصر ومزاولتها مهنة الصّحافة وهذه الأمور كلّها تتقاطع مع ما هو مثبت في سيرتها كما عرض لإنتاجها الأدبي كذكره بعض العناوين التي نشرتها يقول على لسان شخصيته البطلة مي:أنا كاتبة وكلّ شجني يمرّ عبر لغتي لا أريد الشّيء الكثير من ساعة ما أصبحت نزيلة هذا المكان وأنا أرجوهم أن يأتوني بكرسي وطاولة ، كتبت بالفرنسية ديواني أزاهير حلم وكتبت بالإنجليزية the chadow on the rockالظلّ على صخرة(واسيني الأعرج 2017م ص 76).

كما أشار واسيني في مواطن عديدة من الرّواية إلى المنتدى الأدبي الذي كانت مي زيادة تنظّمه في بيتها بمصر للأهمّية التي كان يشغلها الصّالون في حياتها وحياة من عاصرها من الأدباء وفي الثّقافة المصرية آنذاك ، مستعيدا ما ردّدته كتب السّيرة يقول خليل بيطار مثلا :ظلّت مي تدير جلسات المنتدى خمسة وعشرين عاما متواصلة. .وكان روّاد المنتدى يستعجلون قدوم يوم الثّلاثاء يسعدون برؤية مي ويسمعوا عباراتها العذبة أو يستمعوا إلى مقطوعات تعزفها في خاتمة كلّ جلسة. .."(خليل البيطار ، 2012م ص48)، يقول واسيني على لسانها واصفا قرار مي غلق الصّالون :بعد وفاة أمّي. بعد ربع قرن من العمل المواظب ، كلّ يوم ثلاثاء ، أغلقته. ..."(واسيني الأعرج ، 2017م ، ص 73).

كما نقل في روايته المرافعة- ضدّ من حجروا عليها - كما هي ، وأشار في هامش الصّفحة 152 من الرّواية أنّ المرافعة نشرت في جريدة بيروت في 12 شباط 1938م. ونص المرافعة كما هو :ماحدث لمي ، هو أكبر جريمة

ضدّ المرأة وضد العقل، كيف لا تهتمّون بهذه النّابغة اللّبنانية؟.كيف تسجن مي بين جدران مستشفى المجانين، ولا يثور الرّأي العام اللّبناني ويظلّ هذا الخبر سرّا مكتوما. لقد كان حديثها لي حلوا لا إبهام فيه ولا تعقيد. لقد وجدت فيها مي الكاتبة، الشّاعرة التي عرفناها في الماضي، فكيف دبّرت هذه المؤامرة الدّنيئة؟.على النّابغات؟.أنقذوا مي، وابذلوا جهدكم، حرام أن تعامل الأنوثة التّامّة والنّبوغ والعبقرية هذه المعاملة التي عوملت بها مي؟..(واسيني الأعرج 2017م ص 153/152)، وعلى الرّغم من توظيف الرّوائي لبعض اللّقطات من سيرة الكاتبة مي زيادة تبقى الرّواية تنزع إلى الخيال وتفارق الواقع مفارقة جليّة، ذلك أنّ توظيف السّيرة لتكون رواية هو أمر مستحيل، فالسّيرة لايمكن أن تكون رواية والرّواية لا يمكن أن تكون سيرة، فقد حافظ واسيني على الخطوط العامّة لسيرة الكاتبة لكنّه أحدث تغييرات جذرية في تفاصيل الأحداث المحيطة بهذه الحياة التي عاشتها، فخالف بذلك سيرتها مخالفة بلغت حدّ التناقض. وهذا ما سنحاول أن نقف عنده في مبحثنا التّالي لا لنحكم على صدق العمل أو زيفه بقدر ما نحاول الوقوف على الالتباسات التي أحدثها الرّوائي وهو يقف في المنزلة بين المنزلتين ؛الرّواية والسّيرة الغيرية، للنّظر فيما إذا كانت الشّخصية المكتوبة هي من نسج خيال الكاتب ولا علاقة لها بواقع الكاتبة الفلسطينية أم أنّ الرّوائي أعاد àكتابة تاريخها وسيرتها بطريقة ما.

3الميثاق الرّوائي والجانب التّخييلي في الرّواية :إنّ الميثاق الرّوائي هو أحد أنواع الميثاق الذي تحدّث عنه النّقاد وخاصّة فيليب لوجون، وهو ميثاق يرتكز بالأساس على نفي التّطابق بين الشّخصية المروية والشّخصية الواقعية وسناده"الإقرار بالطّابع التّخييلي للنصّ كأن يذكر في عنوان فردي أنّ الكتابة رواية "(فيليب لوجون،، 1994م، ص 39)، "لم يذكر الرّوائي في الغلاف عنوانا فرديا لكنّه ذيّل كتابه بنصّ أعلن فيه عن الجنس الذي تنتمي إليه كتابته قائلا :"أوّل رواية عربية تستدعي إبداعيا حياة الكاتبة الكبيرة مي زيادة. (واسيني الأعرج :2017م الغلاف الخارجي للرواية)، يقرّ الرّوائي في نصّه أنّ طبيعة هذه الكتابة رواية ثمّ يشدّد على الجانب التّخييلي فيها بذكره لفظة "إبداعيا" التي تحدّد بوضوح سيرورة الفعل الإبداعي وهيمنته على النصّ، وبالرّجوع إلى الرّواية يتجلّى بوضوح هيمنة ضمير المتكلّم، وذلك من أجل أن يستبطن في ذات مي الدّاخلية، فالأنا الحاضرة في رواية ليالي إيزيس كوبيا هي الأنا التي تكشف لنا عن الأبعاد النّفسية والوجدانية لمي زيادة وتحكي لنا عذاباتها أثناء تواجدها بالمستشفى كقولها :"كنت أصرخ كالمجنونة وأتحمّل عنفهم في إطعامي، أعيش مع أشباحي التي لا رحمة لديها، أقوم في منتصف اللّيل وأنا أتحسّس عنقي من شدّة الاختناق. حربي كبيرة في كلّ ليلة. أصرخ حتّى وأنا نائمة حتّى أقوم مذعورة. كنت منهمكة وضعيفة، ومقاومتي انهارت كلّيا، لم أكن أنا، كنت شيئا آخر إلّا أنا. ."(واسيني الأعرج، 2017م، ص 54)، فالرّوائي صوّر لنا جانبا من حياة الكاتبة الفلسطينية لم تصوّره هي فيما كتبته من مقالات وكتب، وحتّى من جمع سيرتها لم يعرض لهذه التّفاصيل الدّقيقة من وصف لمعاناتها. ولقد جاءت معظم تفاصيل الرّواية بضمير المتكلّم حتّى يزداد المتلقّي تشبّثا بالنصّ متوهّما واقعيته وأنّ مي زيادة هي التي تحكي تفاصيل تلك المأساة ممّا يزيد من تشوّق القارئ وتأثّره وانتباهه، وحين يتمكّن هذا الوهم منه ويستبدّ به يبدأ واسيني في سرد تفاصيل وآراء أخرى هي في الحقيقة لا تعكس إلّا آراء ووجهات نظر الرّوائي، فقد خاض الكثير من القضايا والمواضيع ولكن جعلها على لسان مي زيادة كانتقاده لعادات الشّرق ورفضه لها، والمؤسّسة الدّينية، والمؤسّسات الاجتماعية.

في الحقيقة لم تقدر الكاتبة في حياتها -برغم دعواتها إلى تحرير المرأة -أن تنسلخ من شرقيتها وعادات الشّرق المحبّة له ،يظهر ذلك في مواطن عديدة من كتاباتها ومواقفها من بينها تلك الرّسالة التي أرسلتها إلى جبران خليل جبران ولا يحتاج النصّ -الذي سنورده لاحقا- إلى كبير عناء حتّى يكتشف القارئ أنّ الحرّية التي تنادي بها مي زيادة هي حرّية في إطار العادات والتّقاليد الشّرقية كحرية اختيار الزّوج و التّعليم وحرّيتها في العمل ، لا الحرّية في جانبها السّلبي الذي يقود إلى الفوضى التي يخرج فيها الإنسان عن الدّين والعادات والتّقاليد ورفض كل ما يراه قيدا ، وهذا الأمر يعبّر وحسب عن رؤية واسيني ؛ وهي رؤية تتكرّر في مقاطع كثيرة. لكن يقع واسيني في تناقض صارخ حين يقارن بين حداثة جبران خليل جبران وحداثة مي ، فهو يهدف من خلال المقطع إلى تأكيد حداثة جبران وتنوّره وتخلّف مي الشّخصية الحقيقية. لكنّ المقطع يساعدنا على التّأكيد أنّ مي تقبل بعادات وتقاليد الشّرق يقول مستعيدا رسالة لمي أرسلتها لجبران بعدما قرأت الأجنحة المتكسّرة :"أشاركك في المبدأ الأساسي القائل بحرّية المرأة كالرّجل ، يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرّية بانتخاب زوجها من بين الشبّان ، تابعة بذلك ميولها و إلهاماتها الشّخصية ، لا مكيّفة حياتها في القالب الذي اختاره لي الجيران والمعارف حتّى إذا ما انتخبت شريكا لها تقيّدت بواجبات تلك الشّراكة تقيّدا تامّا ، أنت تسمّي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال ، وأنا أقول إنّها سلاسل ثقيلة نعم ولكن حبكتها الطّبيعة التي جعلت المرأة ما هي ، فإن توصّل الفكر كسر قيود الاصطلاحات والتّقاليد فلن يتوصّل إلى كسر قيود الطّبيعة "(واسيني الأعرج ، 2017 ، ص 92)، تتحدّى مي جبران في رسالتها وتبدي رفضها للحرّية المطلقة ، تلك الحرّية التي انبثقت من قناعات جبران بعدما اطّلع على الحداثة الغربية لكنّ واسيني يستدرك كلّ قراءة قد ترمي روايته بالتّفكّك والتناقض ويجعل مي تتبرّأ من رسالتها في مقاطع أخرى متخيّلة ، معترفة ل جبران خليل جبران بالتنوّر والتّقدّم بل بلغ الأمر حدّ التّأليه في أسلوب يتماهى وأسلوب الحداثيين ، يقول على لسانها :"كم كنت بعيدة عنه في تلك الرّسالة الأولى المرتعشة والمتيقّنة من خرافاتها التي أبطلت الحياة مفعولها. كان جبران إلها ضبابيا. إله من غيم ومطر وعواطف ، لم يكن عاديا ، وكنت عشبة خضراء في مهبّ الدّين واليقين "(واسيني الأعرج 2017م ص 93)، ثمّ يذهب واسيني أبعد من ذلك حين يسوق مقطعا على لسان ميّ فيها من معاني التّشكيك والثّورة على المقدّس تأكيدا لفكرة الحداثيين القائلة بأنّ الله تخلّى عن البشر تقول :تسرق غفوتي بشكل فجائي ، أدرك بسرعة أنّي في العصفورية حقيقة وليس مجرّد كابوس عابر ، وأنّهم قادوني إلى هذا المكان لتعذيبي وقتلي بشكل يومي على مرأى من النّاس والله ؟.وتتواطأ معهم ، كيف للربّ أن يتواطأ مع القتلة يحترق الجواب في خوف حتّى من نفسي ؟."(واسيني الأعرج :2017م ، ص85)، ويقول في موضع آخر عنوان الفصل الأوّل "مريمتك أنا يا الله فلماذا تخلّيت عنّي ؟."ثمّ يكرّر العبارة ذاتها في مقدّمة الفصل ويقول أيضا على لسانها بلهجة لبنانية "وين نحنا وين الربّ ؟منسيون في هذا الظّلام الفادح"(واسيني 2017ص 37)، وهنا يتدخّل الرّوائي بالهدم وإعادة البناء معرضا عن الميثاق المرجعي لسيرة الكاتبة متخيّلا رغبتها في الخروج عن تعاليم الدّين ورغبتها في الثّورة والخروج عليه وهو مايتنافى تماما والميثاق المرجعي لسيرة الكاتبة فقد كتبت في مقالة لها نقلتها كتب السيرة وكتبها تقول :لقد داع القرآن بسرعة لم يظفر بها كتاب قبله ولا بعده ، ولم يقتصر انتشاره على الشّعوب التي نزل بينها وتوافقت مع تعاليمه ومدركاته وطبيعتها ، بل خضعت له بعدئذ أمم لها من حضارتها السّحيقة ماقد يعدّ كافيا لتفلت من سطوته ورفض الإذعان لأحكامه. .ولقد أوجد القرآن

دينا عربيا ودولة عربية. ..إنّ التمدّن العربي كان تمدّنا إسلاميا صرفا ، والقرآن مصدر جميع العلوم التي عنى بها المسلمون في أوجّ حضارتهم "(غازي محمد خالد ، 2010م ص 56)، فهمت إذا مي بأنّ الدّين الإسلامي ليس دينا توحيديا وحسب "بل إنّه القاع الحضاري للأمّة العربية والعالم الإسلامي ، إنّه يشكّل نظرية اجتماعية والتطوّر الاجتماعي والرّخاء الجماهيري أكثر ممّا هو مجرّد دين "(وجيه فانوس وآخرون ، 2007م ص6)، وهي ليست مسلمة بل هي مسيحية نشأت في أحضان الكنيسة ومع ذلك رأت بفطرتها حقيقة الدّين.

لا تكاد تخلو صفحات الرّواية من الإدانة الصّارخة للدّين وللتّربية الدّينية التّي أوصلتها إلى حالة اليأس والحزن :لقد قتلني أهلي ، ومحوا جسدي بتربية دينية هم من اختاروها لي. ..طفولتي المعاندة سرقتها منّي مدارس الرّاهبات التي صلبت جسدي حتّى حوّلته إلى حجر أصمّ ، يابس بلا تربة ولا رمل ولا ماء. "(واسيني الأعرج 2017م ص 36 كما أنّ واسيني جعل من الدّين مقابلا للحياة والحرّية ينظر (واسيني الأعرج:2017م ص 88)، وهذا المقطع يتعارض تماما أيضا مع آراء مي الحقيقية في الواقع وفيما خلّفته من كتب ، ففي خطبة ألقتها في النّادي الشّرقي في القاهرة ، ليلة الثّالث والعشرين من أبريل 1914م والتي كان موضوعها المرأة والتمدّن قالت فيها :"أوّل من سوّى بينها وبين الرّجل إذا جعل لهما خطّة واحدة تفضي إلى ثواب واحد وإلّا فللضالين عقاب واحد ، على أنّ النّصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت ومابرحت طائفة من اللّاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام ، ثمّ جاء نبي الإسلام ، فرفع شأنها أيّ رفعة في بلاد العرب إذ حرّم وأد الفتيات ، وسوّاها بالرّجل في جميع الحقوق والواجبات. .."خالد محمد غازي 2010م ص 67 /68)، إنّ هذه النّظرة للدّين فيها الكثير من التّقدير والاحترام والإجلال فقد استلهمت مفهومها للمساواة من الأديان و أقرّت بعدل الإسلام ومساواته بين الجنسين وهي نظرة نابعة من تأمّلها العميق للدّين وتربيتها الدّينية التي أكسبتها الاعتدال والانفتاح ، لا الرّفض والاتّهام والتّشكيك كما جاء ذلك في الرّواية ، وممّا يزيد من قناعة القارئ باختلاف الشّخصيتين بل تعارضهما حدّ التناقض ؛ شخصية مي المتخيّلة في الرّواية وشخصية مي في الواقع ، تعرّض الكاتب لعلاقاتها العاطفية وهو يقدّم أسباب عدم زواجها فقد برّر ذلك بتلك الصّفة التي وصف بها شخصيته المتخيّلة صفة الشّذوذ حين يحكي قصّة على لسان مي عن بداية الانحراف في شخصيتها نشأت منذ تلك العلاقة غير السويّة التي نشأت بين الرّاهبة" ماما هلينا" ومي في عينطورة مدرسة الرّاهبات ينظر في ذلك (واسيني الأعرج 2017م ، ص103، 102، 101، 100)، ، ثمّ يكرّر الرّوائي هذه الرّغبة غير السويّة من شخصية مي في صفحات كثيرة من الرّواية والتي كانت سببا في عزوفها عن الزّواج حسب الرّواية ثم يحكي قصّتها في العصفورية مع ممرّضتها"بلوهارت ونظرتها غير السويّة لها)، منذ الصّفحة (82 وما بعدها من الرّواية)، — ليلصق بها تهمة الانحراف وهو الذي أراد أن ينصفها -وهو ما أوقعه في تناقض صارخ حيث أنّ الرّوائي كان متدبدبا بين الالتزام الحرفي بتاريخ الشّخصية واسترجاع بعض لقطات حياتها من حبّها وتعلّقها بجبران خليل جبران وبين ماتوفّره الممارسة الإبداعية من حرّية في تقليب التّجربة الشّخصية لمي زيادة حين أعطى تفسيرات متخيّلة لعزوفها عن الارتباط فكيف به يقرّ في صفحات من الرّواية بطبيعتها الإنسانية السّوية طبيعة الأنثى المنجذبة للرّجل —كما هو في الميثاق المرجعي — ثمّ يعطيها صورة تخرجها من فطرتها إلى امرأة مريضة مشوّهة نفسيا ومردّ ذلك حسبه هو تربيتها الدّينية التي فرضت عليها قصرا. يحاول واسيني أن يجانب ذلك التّناقض فيما تخيّله وماهو واقع فيجعل من حب مي لجبران حبّ أخوي يقول :" لقد مات والدي.لحقه جبران حبيبي

وأخي الذي يعرف جراحاتي. .لم أكن من حديقة نسائه لأنّي لا أملك قلبا سهلا وجسدا طيّعا."(واسيني الأعرج 2017م ص 71)، غير أنّ الرّوائي حين تطول به مقامات الحكي ينسى ماكان قد أثبته في مقطع سابق من الحب الأخوي لجبران وكذا علاقاتها المنحرفة ليسلّط الضّوء على حقائق أثبتتها كتب السّيرة وهي الحب الذي كان بين مي زيادة وخليل جبران ، وهوحب بين رجل وامرأة تقول مي وهي تخاطب جبران مبدية غيرتها عليه: حلمي الأكبر كان أن أصبح كلّ شيء لرجل واحد ،. كان كلّ شيء فيك محتلّا من نساء أخريات. عندما صمّمت أن أركض نحوك فقط لأضمّك وأرى الشّهوة في عينيك ، تسرّبت من كفّي ومن بين أصابعي. .."(واسيني الأعرج ، 2017 ، ص 91)، إنّ هذا النصّ يجعل المتلقّي في مأزق عن تصوّر شخصية مي ، هل هي امرأة سويّة أحبّت جبران وحال دون زواجهما البعد ثم الموت المبكّر لجبران كما يؤكّده المقطع ، أم هي امرأة منحرفة عزفت عن الزّواج لميولاتها غير السويّة ؟.

ولو عدنا إلى السّيرة الذّاتية لمي زيادة فإنّ رسائلها لجبران تعكس حبّها وأنّها امرأة سويّة تقول معترفة له بذلك في رسالة كتبتها عام 1924:" ولكنّي أعرف أنّك محبوبي ، وأنّي أخاف الحبّ إنّي أنتظر من الحبّ كثيرا وأخاف أن لايأتيني بكلّ ما أنتظر كيف أجسر على الافضاء إليك بهذا ؟.؟وكيف أفرّط فيه ؟.؟لا أدري.الحمد لله أنّي أكتبه على الورق ولا أتلفّظ به لأنّي لو كنت الآن وكنت حاضرا لهربت أنا خجلا بعد هذا الكلام ، ولاختفينا زمنا طويلا "(عبد اللّطيف الأرناؤوط ، 2012م ، ص 54)، يعلّق صاحب الكتاب على الرّسالة قائلا :"وهكذا تعود مي إلى روحها الشّرقية المحافظة التي رسّخت في ضميرها إرثا من عصور سحيقة ،فالفتاة الشّرقية لاتبادر إلى إعلان حبّها ، ولا تبوح به ، ولوكانت كاتبة ، ولو قتلها ذلك الحبّ "(عبد اللّطيف الأرناؤوط ،2012م ، ص54)، هكذا أراد واسيني أن يفسّر عدم ارتباط مي زيادة وعدم زواجها بتفسيراته الحداثية منتقدا النّشأة الدّينية التي ترعرعت في كنفها ، نافيا عنها ماعرف في سيرتها عن حبّها لجبران خليل جبران ورغبتها في الارتباط به لولا البعد الذي حال بينهما ، أمّا ذلك الحبّ فقد وجد له واسيني تفسيرا آخر هو حبّ مي لفعل الكتابة ذاته وما علاقتها بجبران أو العقّاد ؛هو رغبتها في التّواصل مع ما تهواه من فعل للقراءة وممارسة للكتابة ولايخرج ذلك من دائرة الإبداع. يقول على لسانها وهي تخاطب جبران :أتّجه نحوك بحثا ليس عنك فقط ، لكن عمّا تخفيه في الأعماق لي. هل بقي شيء لي بعد كلّ تلك النّسوة ؟.ليس المهمّ أن تحبّني ، الأهمّ أن تكتب لي "(واسيني الأعرج ، 2017 ، ص 91)، ويقول أيضا :لم يكن جبران حبيبي الذي أسرتني كتاباته ، كان أماني وحائطي اللّغوي "(واسيني الأعرج ، 2017م ، ص90)،

لقد وقع واسيني في الإشكالية التي كنّا قد طرحناها سابقا ، هل يستطيع الرّوائي أن يستجيب لشروط الكتابة الرّوائية من تخييل وانزياح عن الواقع وهو يكتب شخصية مي زيادة ، دون أن يحدث عند القارئ إرباكا وإحساسا بالتّناقض خاصّة أثناء استعادته لبعض تفاصيل حياتها كما هي في السيرة والتّاريخ ؟ فمي زيّادة قد اشتهرت بعلاقاتها مع المثقّفين من عصرها حتّى بدا وأنّها تحبّ أن تحاط بالرّجال وقد اعترف واسيني بذلك في ثنايا الرّواية أيضا ؛ يقول :"قالت لي روز وهي تضحك كأنّها تفضي بسرّ في قلبها :ههه هي تشبهك جدّا ، هي تشتهي أن تكون محوطة بالرّجال وأنت بالنّساء ، بعض الفنّانين والكتّاب هكذا ، لايطيقون العيش خارج هذا النّظام "(واسيني الأعرج :2017م ص 24)، . هذه المقاطع تتعارض مع ما وصفها به في مواطن أخرى من الرّواية بأنّها منحرفة ، كما يتفنّن واسيني في وصفه في أحد المقاطع –على لسان مي –بألفاظ ماجنة يصعب

استعادتها في هذا المقام (ينظر في هذا المقام أيضا مقطع ورد في الصّفحة 75 من الرّواية)، ، الذي ورد فيه مقطع يبرز مدى ابتذال اللّغة التي تحدّثت بها مي إلى الممرّضة ممّا يؤكّد انحراف الشخصيته المتخيّلة بعكس الصّورة المثالية التي عرفت عن مي زيادة ؛الشّخصية الواقعية التي عرّفتنا بها كتب السّيرة على أنّها كانت مثالية في تعاملها، وراقية في تصرّفاتها وتعاملها، وشاعرة في أقوالها وكتاباتها، يركّز واسيني على هذه الصّورة لشخصية مي المتخيّلة لمنحها الحرّية اللّامشروطة التي وصلت إليها الحداثة الغربية والفكر الغربي ،الذي نجم عنه أزمة أخلاقية أدّت إلى تفكّه وأزماته وهو من جهة أخرى قد يكون من خلال هذه المشاهد التي صوّرها يرمي إلى تعرية المؤسّسة الدّينيّة المسيحيّة التي بدل التّربية والتّعليم والأمن الذي من المفترض توفيرهم ؛ماهي في نظر واسيني إلّا كبت للرّغبات التي تنطلق بطريقة غير طبيعية حين تجد الفرصة، وتولّد عقدا في علاقاتهم غير السّويّة، ينتقد واسيني إذا من خلال عرضه لبعض الجوانب الشّخصية في حياة مي المؤسّسة الدّينية المسيحية التي في ظاهرها التّربية والالتزام لكنّها في الحقيقة تقييد للحرّيّات، حتّى أنّها قد تنتج وحوشا بشرية، يقول واسيني على لسان مي زيادة :"لم تكن مدرسة الرّاهبات العزريات مخيفة فقط ولكن متحكّمة في مصائر الأطفال الآتين إلى الدّنيا بفرح، فيغلق عليهم في علّية أهل النّاصرة عادة يسجنون أبناءهم في الدّين وهم لايدرون أنّهم يقتلون جزءا من حرّيتهم وعفويتهم، وحتّى إنسانيتهم، قبل أن يكبروا تكون كلّ خيطان التي ربوها فيهم قد التقت وتشابكت وانغلقت ويموت اللّبلاب الذي يتسلّق وينتشر عليها بحرّية ويخفّ نهائيا، ثمّ يصبح خيوطا وأحبالا خانقة "(واسيني الأعرج :2017، ص8)، ينتمي واسيني حسب طروحاته هذه إلى الفكر الذي يضع المصالح الفردية مركز اهتمامه باسم الحرّية، وهو فكر يرفض حق المجتمع في ضبط ميول الأفراد وأهدافهم و مراقبتها بما في ذلك الدّين والأسرة، وهو "ماغيّب الوجه الإيجابي للحرّيّة أي الحرّية من أجل الفعل ومقاومة الأخطاء لحساب الوجه السّلبي للحرّيّة أي حرّية عدم الفعل"(فؤاد مرعي 2007م ص18)،

نعم لقد وفّق الكاتب في إبراز صورة لمي يتعاطف معها الكثيرون حين حكى محنتها في العصفورية وكيف تمّ اقتيادها وحجزها عنوة، كاد بذلك أن ينصفها من ظلم وقع عليها –وهو الهدف من كتابة الرّواية كما خبّرنا عنه في مقدّمتها -لولا مطبّات التناقض والتّشويه لعلاقاتها الشّخصية حين أعطاها صورة امرأة منحرفة، غطّت تلك الصّور البشعة على تلك اللّغة الشّعرية التي أعاد بها حكاية محنتها (اتّهامها بالجنون والحجر عليها من قبل أهلها.)، إنّ شّخصية مي زيادة -وعلى حدّ تعبير نتالي سارون: قد فقدت شيئًا فشيئًا كلّ شيء ،فماذا بقي لها من إبداع ومن متعة وجمال ؟(بلحيا طاهر :2017م، ص 101)،

لقد خرق واسيني ميثاق السيرة خرقا ولّد تناقضا داخل المتن الرّوائي، وهو ما أوقع أفق انتظار القارئ في مأزق بفعل التّكوين الفصامي للنصّ، فقد عجز الرّوائي أن يوجد التناسب بين ماهو مستعاد من سيرة الكاتبة وبين ماهو متخيّل داخل المتن الرّوائي، "وتزداد هوّة المأزق غورا إذا أخذنا في الحسبان استحالة التوصّل إلى مايقرب من حدس الحقيقة، أو استشعارها، في ممارسة يتقاسمها تكوينان لا يلتقيان :التّخييل والمرجع الواقعي "(عبد الله شطّاح، 2012م، ص 25)، والحال هكذا لماذا لا يكون للكاتب عقدا وميثاقا آخر لابدّ أن يبرمه الرّوائي مع السّيرة بحيث يستجيب لدواع الفنّ الرّوائي من تخييل، ضمن دائرة ماهو متاح وما يحقّق التّناسب والتّوافق مع طبيعة الشّخصية التي يكتبها وبعض اللّقطات المستعادة من تاريخها الشّخصي ؟

وإلى جانب ما ذكرناه من تناقض على مستوى تفاصيل الحياة العاطفية لمي فكذلك الأمر فيما يخص الحياة العلمية والدّينية ، ففي حين نراه يلقي باللّوم على المؤسّسة الدّينية الممثّلة بمدرسة الراهبات فيما أصابها من عذابات وأحزان ، يقرّ بأنّ التحاقها بهذه المدرسة عامل أسهم في نبوغها وإبداعها وتعلّمها اللّغة الفرنسية ، "قد تمّ في المدرسة الدّينية وهو الأمر الذي أشاد به واسيني وكأنّها سمة حداثية كان يشيد بها ، وهو ما ولّد أيضا إرباكا لدى القارئ ، هل "مي" الشّخصية المتخيّلة ممتنّة لمدرسة الرّاهبات ، أم هي ساخطة على والديها لأنّهما ألحقاها بها يقول واسيني على لسان مي في موضع من الرّواية :"لمّا كنت تلميذة في مدرسة الرّاهبات بعينطورة ، كنّا نكلّف بإلقاء خطب تساعدنا المعلّمات على إنشائها ، كان هذا يدفعني إلى التّأليف ، والمشاركة والمغامرة في إلقاء الخطب التي تميّزت فيها بالفرنسية وبعدها بالعربية يوم ظفرت بالجائزة الأولى في الإنشاء لم أقطع صلتي بالفرنسية ، فقد كانت وسيلتي للتّخفّي والفرح وقول مالا يقال. .كانت سرّي اللّغوي الكبير الذي تتخفّى فيه كلّ آلامي "(واسيني الأعرج :2017م ص90)، ونلفيه في موضع آخر يصرّح على لسانها منتقدا المؤسّسة الدّينية "لقد قتلني أهلي ، ومحوا جسدي بتربية دينية هم من اختاروها لي لحمايتي من زمن خطير كان يرتسم في أفق داكن ، طفولتي سرقتها منّي مدارس الرّاهبات التي صلبت جسدي حتّى حوّلته إلى حجر أصمّ يابس بلا تربة. على الرّغم من الغوايات والطّراوات التي كانت تحيط بجسد كنت أكتشفه على مرايا الحمام مرتسما كالغيمة الشّهيّة التي لا أملك القدرة على وضع حدود لها "(واسيني الأعرج 2017 ،)، ص 36)، . كما أنّ واسيني الأعرج حين يعرض لقضيّة الدّين يواصل تقنّعه بقناع مي زيادة ويمارس عملية الهدم وإعادة الإنتاج بحيث يبثّ رؤاه على لسانها تقول مي زيادة في الرّواية :..تلك أنا المرهقة من تبعات الرّب وحسابه الشّنيع الذي أخافوني به منذ اللّحظة الأولى ، مع أنّي لم أفعل ما يغضب الربّ أبدا ، دين أمّي كان جافّا ودين أبي لم يكن أقلّ ، في كليهما لم أجد ماركضت وراءه طوال حياتي الحرّية ، ربّما تتشابه الأديان كلّها في هذا "(واسيني الأعرج :2017م ص 87)، تتقنّع الذّات الكاتبة إذا بشخصية مي لتبثّ رؤيتها الخاصّة اتّجاه الدّين وهي رؤية حداثية تقطع الصّلة بالدّين وترى فيه قمّة الانغلاق وفرضا للقيود ، لكنّنا لو عدنا إلى الميثاق المرجعي (سيرة مي زيادة)، سنقرأ احتراما وإكبارا للدّين ومعرفة عميقة بفضله في تحرّر الإنسان من الجهل تقول مي زيادة في خطبة ألقتها بمناسبة تكريم الأستاذين محمّد الخضري ومحمّد المهدي في آخر يناير 1918م مشيدة بالإسلام والمسيحية ".إذا ذكر الإنجيل انحنت الرّؤوس إجلالا وتجمهرت النّفوس حبّا حول السيّد المسيح –أستاذ الرّحمة والغفران –وكفى التلفّظ باسم القرآن كي تهتزّ القلوب طربا على وقف الآيات والأسجاع مرتّلة مع السّور اسم النّبي العربي "(خالد محمّد غازي 2010م ، ص 68)، .

لكنّ واسيني قد أبحر بعيدا عن السّيرة الذّاتية للكاتبة ومواقفها وما عرف عنها ، وأحدث تغييرات ربّما فرضها "تداخل أساليب السّرد ، ونظام الأزمنة والضّمائر والأسماء والرّؤى والمنظورات ، فاستعادة تاريخ حياة ، تخضع في الغالب الأعمّ لشروط زمن الاستعادة ووعي المستعيد ووجهة نظره ومستلزمات التّعبير عن ذلك ، أكثر ممّا يخضع لشروط المسار التّاريخي الحقيقي لتلك الحياة "(عبد الله إبراهيم :2003 ص 4)، .لقد سعى واسيني أن يمرّر كلّ أفكاره وآرائه الحداثية على لسان شخصيته المتخيّلة "مي"

كتب على غلاف الخارجي للرّواية :أوّل رواية عربية تستدعي إبداعيا حياة الكاتبة الكبيرة مي زيادة ، في لحظة مأساتها ، في مستشفى الأمراض النّفسية والعقلية.لكن ليالي إيزيس كوبيا تذهب إلى أبعد من هذا كلّه ، تحليلها

الفنّي لمشكلات العصر الخطيرة، من بداية القرن الماضي إلى اليوم كوضعية المرأة في المجتمعات الشّرقية التي تعيد إنتاج أفكار القرون الوسطى، مشكلة الذّكورة التي لم تعد مقتصرة على أفراد بعد أن تحوّلت إلى نمط من التّفكير، معضلات الحداثة في مجتمع ما بين الحربين، التي ظلّت خطابا فوقيا نخبويا، ولم تتحوّل إلى فاعلية اجتماعية وحياتية، فقد أحبّ جيل مي الحداثة، لكنّه رفض دفع ثمنها الباهض "(واسيني الأعرج 2017)، .يفصح واسيني إذا عن الهدف من وراء كتابة روايته ينتقد فيها تلك الحداثة العربية بين الحربين العالميتين، ويعيد رواية تلك الأحداث من منظوره الحداثي المخالف لرؤية العديد من الكتّاب المعاصرين لمي زيادة -الذين كانوا يحسبون على الحداثة ودعاة التّجديد -مبديا تبرّمه من مواقفهم وحداثتهم يقول:"..ماقرأته من تصريحات العقّاد، طه حسين، سلامة موسى وغيرهم جرح قلبي وقسمه نصفين، وجعلني أفكّر في مامضى، وأتساءل أيّة حداثة وأيّ مثقّف ملتزم عندما ترى صديقك الذي يشترك معك في هموم الدّنيا ينساك بل يوغل فيه سكّينة صدئة؟.أفهم جيّدا اليوم لماذا حداثتنا معطوبة، حداثة الخطاب والمناسبة "(واسيني الأعرج 2017، ص 198)، .وضعت الرّواية بالأساس للمقارنة بين الحداثة العربية التي استلهمت الحداثة الغربية كما هي عند الغرب ؛ ممثّلة في جبران خليل جبران لأنّه مهاجر في أمريكا وأجمعت الدّراسات الحداثية أنّه أب الحداثة العربية وبين دعاة التّجديد والحداثة الذين تشبّثوا بالهوّية العربية والتّراث كما العقّاد وسلامة موسى وحتّى مي زيادة ذاتها، منتصرا في ذلك لجبران ولو على حساب مي الذي حاول أن ينصفها من تهمة الجنون لكنّه غلى مستوى الإبداع والكتابة أنزلها إلى دركات التّقليد والتّخلّف مقارنة بجبران خليل جبران.

إذا قرأ واسيني المجتمع الشّرقي بمعيار حداثي غربي وهو يحكي محنة مي زيادة وتفاصيل من حياتها تقنّع بقناعها وانتقد عادات الشّرق وتقاليده وعقائده وطريقة تفكيره ومثقّفيه وكلّ مؤسّساته بدءا بمؤسّسة الزّواج التي رأى فيها قيدا تحدّ من حرّية المرء ولا فائدة ترجى من ورائها ؛يقول على لسان مي ":لقد بذلت جهدا كبيرا لكنّ الرّجل الشّرقي لا يتغيّر بسهولة، يحتاج إلى زمن آخر. .لدرجة تفكّر فيه المرأة على شو الزّواج ؟(واسيني الأعرج 2017 ص 73)، ترى مي ومن ورائها نظرة واسيني الأعرج أن الزّواج قيد اجتماعي لا فائدة ترجى منه وهي ذات النّظرة الحداثية الغربية التي ترفض أن تقيّد حرّية الأفراد تحت أيّ مؤسّسة وترى في الزّواج الذي هو حقيقة تنظيم لعلاقات النّاس ورابط مقدّس يجمع بين الزّوجين بما يضمن تطوّر وبقاء النّوع البشري، في إطار حضاري منظّم للعلاقات الإنسانية التي تعكس الودّ والرّحمة ؛ ترى فيه هدرا للجهد والوقت ولا شيء يغري فيه لكنّ لو عدنا لسيرة مي زيادة فإنّنا نقرأ ما يناقض تماما ما جاء في الرّواية كالرسالة التي بعثت بها لجبران خليل جبران ردّا على مقاله والتي ترى فيها أنّ الزواج ليس قيدا بل هو تنظيم للعلاقات الإنسانية بشرط أن يتاح للمرأة اختيار الزّوج وهذا الطّرح لايتناقض البتّة مع القيم التي توارثها المسلمون في الشّرق.

كما ورد في الرّواية أيضا على لسان مي نقدا للمجتمع الشّرقي وكتاب الشّرق الذين عاصروا الكاتبة حيث صوّرها الكاتب ناقمة على المجتمع وعلى تخلّفه وهي نظرة الرّوائي لا البطلة يقول على لسانها :"منذ البداية أدركت أنّ صراعي سيكون كبيرا مع رجال شاخوا قبل أن يكتبوا ولدوا مخرّبي الأدمغة في غمار حداثة أكبر منهم لأنّهم رفضوا كسر كلّ معوّقاتهم الدّاخلية، كلّهم بلا استثناء صنّاع الحداثة، كلّما تعلّق الأمر بامرأة مزّقت الشّرنقة مقابل ثمن غال دفعته من أعصابها وراحتها، أخرجوا سكاكينهم. أزمة الحداثة العربية امرأة. هزيمة الخروج من التخلّف، امرأة أيضا، حتّى أسمائي المستعارة لم تنفعني للّتخفّي منهم. كانت رغبتي لا تحدّ في نقد المجتمع

الشّرقي الذي يرى في الغربي كلّ شيء "(واسيني الأعرج 2017م ص 138)، انتقدت مي "الشّخصية المتخيّلة "المجتمع الشّرقي وحداثته المعطوبة وهي آراء لا تتقاطع مع ما تناقلته كتب السيرة عن الشّخصية التّاريخية مي زيادة التي أحبّت الشّرق وشرقيتها فالشّرق وطنها الكبير وأحواله الضّعيفة وفقره وتفكّكه يؤلمها لكنّها مشدودة إليه بوثاق قويّ يدفعها إلى إصلاح أحواله وإنهاضه وتحريره من ظلم الدّول القويّة تقول مي في مقالة لها بعنوان ماهي الوطنيّة :"أيّها الشّرق –ياشرقي الكبير الرّهيب الرّؤوف –إنّك لتتجمّع تحت ناظري كلوحة مصوّرة فأرى منك الفقر والجهل والاضطراب والاحترام والانفعال ليس فيك من فيض من الثّروة ومعجزات الحضارة ورغم ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرّية أيّ قوّة هذه تشدّ وثاقي إليك؟."(خليل البيطار، 2012م، ص 25)، "فقد كانت مي شخصية شرقية أصيلة، فرغم اطّلاعها على الأفكار الغربية المتطرّف منها والمعتدل ورغم أنّ مكتبتها لا تخلو من كتاب جديد في مذهب جديد أو رأي مبتكر، لكنّها لم تتأثّر بأيّ رأي هدّام أو يخالف شخصيتها الشّرقية التي ظلّت متمسّكة بها، ولم تكتف بالقراءة كوسيلة من وسائل المعرفة، بل سافرت إلى أوروبا أكثر من مرّة وشاهدت عواصمها، فحافظت على عادات الشّرق الموروثة ودافعت عن الشّخصية الشّرقية فما عرفت عنها إطلاقا أنّها احتقرت عادة أو تقليدا شرقيا حسنا ومن مظاهر تمسّكها بشرقيتها أنّها أتقنت أكثر من لغة أوروبية كتابة وقراءة، ورغم ذلك لم تتكلّم غير العربية "(خالد محمد غازي :2010م ص 31")، هي شهادة إذا جامع سيرتها الكاتب خالد غازي وهي شهادة تشكّلت لديه بعد عديد القراءات لكتاباتها وتفحّصه لسيرتها وما لاحظه من دقائق وتفاصيل تقنع المتتبع لها بأصالة مي الشّرقية ووفائها لشرقيتها. وهذا ما يفضي بنا إلى نتيجة حتمية بأنّ شخصية مي في الرّواية لا تكاد تلتقي إلّا لمحا مع شخصية مي التّاريخية فكرا و رأيا ومذهبا وإن تقاطعت معها على مستوى الاسم وبعض الأحداث كقضية الحجر عليها في مستشفى الأمراض العقلية وعلاقة الكاتبة بمثقفين من عصرها فهو خيار الكاتب الذي" تجاوز الدّاخل ليحيل على الخارج كآلية دفاعية تثبت وجودية النصّ "فقد ربط نصّه ببنيات خارج نصّية متكئا في ذلك على بعض مقاطع من السيرة الذّاتية للكاتبة الفلسطينية ليكسبه صفة الواقعية ولكن تبقى الرّواية من نسج خيال الكاتب وليست استعادة حرفية لسيرة الكاتبة مي زيادة وما هذه الاختلافات بين ماجاء في الرّواية وماهو مثبت في كتب السيرة -والتي بلغت حدّ التّناقض في كثير من الأحيان - إلّا دليل قاطع على أنّ الرّواية لا تعكس حياة الكاتبة بقدر ما هي نصّ ارتكن في بعض تمفصلاته على لقطات من سيرة الكاتبة لكنّها لا تعكس البتّة حياتها التي عاشتها فمي زيادة الشّخصية البطلة لا تساوي مي زيادة الشّخصية المتخيّلة وبالتّالي فجلّ التّفاصيل التي وردت فيها لايمكن إلّا أن تعبّر عن شخصية متخيّلة ولا تتقاطع مع الشّخصية الواقعية إلّا في بعض الأمور التي أسلفنا الإشارة إليها. لينتصر الخيالي على المرجعي في الكتابة الرّوائية.

قائمة المصادر والمراجع :

إلياس فركوح 2016/07/01م:السّيرة الذّاتية والرّواية، مجلّة الجديد، الموقع https://aljadeedmagazine.com
جابر عصفور 1999م زمن الرّواية، دار دمشق، سوريا ط1.
خالد محمد غازي ؛2010م : مي زيادة سيرتها وأدبها و أوراق لم تنشر ،وكالة الصّحافة العربية، الجيزة مصر دط.
خليل البيطار 2012مي زيادة ياسمينة النّهضة والحرّيّة 1886-1941 ،وزارة الثّقافة الهيئة السّورية للكتاب منشورات الطّفل، دط.
حسين خمري 2001م:فضاء المتخيّل، منشورات وزراة الثّقافة الجمهورية العربية السّورية، دمشق دط
توماس كليرك 2005م:الكتابات الذاتية، المفهوم والتاريخ الوظائف والأشكال تر ،محمود عبد الغني، دار أزمنة الأردن
صالح معيض الغامدي 2013م:كتابة الذّات، دراسات في السيرة الذّاتية، المركز الثّقافي العربي الدّار البيضاء، ط1.

طاهر بلحيا 2017م :الرّواية العربية الجديدة من الميثولوجيا إلى مابعد الحداثة ، جذور السّرد العربي ، ابن النّديم للنّشر والتّوزيع ط1.
عبد العزيز شرف 1992م:أدب السّيرة الذّاتية ، الشّركة المصرية العالمية ، للنّشر لونجمان د ط.
عبد اللّطيف الأرناؤوط 2012م:تأمّلات في رسائل الأدباء ، منشورات الهيئة السّورية للكتاب ،وزارة الثّقافة ، دمشق دط.
عبد الله إبراهيم : 2003م السّيرة الرّوائية إشكالية النّوع والتّهجين السّردي ، مجلّة علامات ، الدّار البيضاء المغرب ، ج1 ،عدد 19.
-فؤاد المرعي 2017/11/17م:إعادة إنتاج صورة الغرب في عيني المستعمرين ، ضمن كتاب جماعي :النّقد الثّقافي ودراسات مابعد الكولونيالية ، وقائع المؤتمر الثالث للبحث العلمي في الأردن الجمعية الأردنية للبحث العلمي
-فيليب لوجون 1994م:السيرة الذاتية والميثاق والتّاريخ الأدبي ، تر وتقديم عمر حلي بيروت ، ط1 ،
-لودج ديفيد :الفنّ الرّوائي ، تر:ماهر البطّوش ، القاهرة ، المجلس الأعلى للترجمة ، 2002م.
محمّد بنّيس2003م :الشّعر العربي بنياته وإبدالاتها ، الشّعر المعاصر ، دار توبيقال للنّشر ،الدّار البيضاء ، المغرب ، ط1.
-محمّد صابر عبيد ، 2008م:السّيرة الذّاتية الشّعرية ، قراءة في تجربة السّيرة لشعراء الحداثة ، عالم الكتب الحديثة ،اربد ، الأردن ط1.
-واسيني الأعرج 2017م:ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية ، رواية ، موفم للنّشر ، الجزائر.
-وجيه فانوس 2007/11/17م:النّقد الثّقافي ودراسات مرحلة مابعد الكولونيالية :واقع الدّراسات العربية الثّقافية ، ضمن كتاب جماعي النّقد الثّقافي ودراسات مابعد الكولونيالية ، وقائع المؤتمر الثّالث للبحث العلمي في الأردن ، الجمعية الأردنية للبحث العلمي.

واقع التمويل الإسلامي بالجزائر

The title of the article :The reality of Islamic finance in Algeria

د. حميدي فاطيمة
كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم الجزائر

مقدمة

تعد الجزائر من الدول العربية التي نالت استقلالها في القرن الماضي واختارت نظاما اقتصاديا متشبع بأفكار المذهب الاقتصادي الجماعي أي نظام الاشتراكية لمدة ثلاثين سنة امتدت من سنة 1962 إلى 1989 ،ثم غيرته إلى نظام اقتصادي رأسمالي قائم على الفكر الفلسفي الفردي والذي مازال سائدا إلى يومنا هذا ، اذ اصبح الاقتصاد الوطني يطبق مبادئ اقتصاد السوق وهذا ما يتضح جليا في دساتير الدولة الجزائرية (دستور 1989 و2016).

غير أن الأزمة العالمية التي مست كل دول العالم تأثرت بها الجزائر(الهامبوجعدار ،البنوك لاسلامية كبديل عن بنوك تقليدية في ظل انعكاسات الأزمة المالية العالمية ، ص. 92)، أيضا وهذا ما جعل الحكومة تبحث عن حلول بديلة منذ ثلاث سنوات ماضية على مثال غالبية الدول والتي اعتمدت على الاقتصاد الإسلامي التي بواسطته استطاعت أن تحل مشاكلها المالية وفق مبادئ الشريعة الإسلامية (سعد بن حمد اللحياني ، مبادئ الاقتصاد الإسلامي ، ص. 9). هذه القواعد التي تساعد الدول العربية أكثر من الدول الغربية التي أصبحت اليوم تزاحمها في هذا الاختيار الاقتصادي والمالي الإسلامي. أن اللجوء اليوم إلى تطبيق معالم الاقتصاد الإسلامي بالجزائر مسعى يتلاءم مع الإصلاحات التي شنتها الوزارة الأولى على النظام المالي منذ بداية الألفية واستجابة لمطالب أفراد المجتمع كمنفذ بالنسبة اليهم لاستخدام صيغ التمويل الإسلامي بدلا من تلك المستعملة في التمويل التقليدي التي اثقلت كاهلهم.

تحتاج إذن الدولة الجزائرية لتطبيق أسس الاقتصاد الإسلامي انشاء بنوك إسلامية جزائرية أو منح البنوك العمومية الترخيص على ممارسة مختلف صيغ التمويل الإسلامي. بالإضافة إلى منح فرص أكبر للبنوك إسلامية عربية وأجنبية بفتح فروع لها.

على هذا الأساس يتطلب الحديث عن واقع التمويل الإسلامي بالجزائر ، بيأن مفهوم التمويل الإسلامي وتحديد المبادئ الأساسية التي يقوم عليها. ثم التطرق إلى البنوك الجزائرية والأجنبية التي تأخذ بنظام التمويل الإسلامي وأخيرا توضيح صيغ التمويل الإسلامي المعمول بها في بلادنا.

الفصل الأول : مفهوم التمويل الإسلامي وتحديد المبادئ الأساسية التي يقوم عليها

لا يمكن تحديد واقع التمويل الإسلامي بالجزائر بدون الحديث عن مفهوم التمويل الإسلامي ثم بيأن مبادئه الأساسية.

أولا :مفهوم التمويل الإسلامي

يعتبر الإسلام من الأديأن السماوية التي شرعها الله لعباده في الأرض(عبد الفتاح صلاح ، مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي)، اذ يقوم على تنظيم العلاقات بين العبد وربه من خلال العبادات ، والعلاقات بين العباد فيما بينهم من خلال المعاملات لذلك وجدت الشريعة الإسلامية لحث المجتمع البشري على العمل من اجل اعمار الأرض . ويعتبر التمويل مصدر لتوفير المال ووسيلة لتنفيذ المشاريع للأفراد ضمن نظام مالي عادل يضمن توفير فرص العمل للجميع حسب قدراته واستغلال المدخرات وحماية المصلحة العامة المتفقة مع مبادئ الدين الإسلامي. على هذا الأساس يقتضي تحديد مفهوم التمويل الإسلامي بالتدقيق في مصطلحات المال والتمويل ثم إسلامي .

المقصود بمصطلح المال: يقصد بالمال لغة ما يملكه الفرد أو الجماعة من متاع ، بينما اصطلاحا ما يقع عليه الملك ويستفيد به المالك عن غيره (نزيه حماد ، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء ، ص.308).

المقصود بمصطلح التمويل:يقصد بالتمويل لغة امده بالمال وموله تمويلا أي زوده بالمال ، بينما اصطلاحا كلفة ومصدر الأموال والأمور وكيفية استعمالها وطريقة انفاقها وتسيير هذا الإنفاق وفق الشريعة الإسلامية (احمد الشرباصي المعجم الاقتصادي الإسلامي ، ص.482).

المقصود ب مصطلح إسلامي: تعد كلمة إسلامي مشتقة من مصطلح الإسلام والذي يعني لغةً الاستسلام الانقياد وتسليم الأمور ، ويعني أيضاً أن ينقاد الإنسأن للطرف الأقوى والأكثر عظمةً وقدرةً وحكمةً وأن يطيعه ويذعن له ، أمّا اصطلاحاً فيعني الإسلام المصطلح الإسلامي الدالّ على الدين السماوي الذي نزل على النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ونزل لكلّ الناس والأقوام والحضارات فلا يستثني أحداً ، وقد جاء في القرأن الكريم "أن الدين عند الله الإسلام" (منذر قحف ، مفهوم التمويل في الاقتصاد الإسلامي ، ص. 12)، بمعنى أنه لا يُقبَلُ من أحدٍ جاء بعد الإسلام ديناً غيره ، والإسلام شرعاً معناه أن يؤدي الإنسأن العبادات التي أمره الله بها وأن يتّصف بالأخلاق الحميدة والمعاملة الطيبة مع الناس(محمد محمود مكاوي ، أسس التمويل المصرفي الإسلامي بين المخاطرة وأساليب السيطرة ، ص.20).

غير أن الفقه عرف التمويل الإسلامي على انه تقديم ثروة عينية أو نقدية بقصد الربح من مالكها إلى شخص يديرها لقاء عائد مباح شرعا (خاطر سعدية ،التمويل الإسلامي ومدى فعاليته في معالجة الازمة المالية العالمية 2008ن ص.52)، كما يعكس قيام شخص ما بتقديم شيء ذي قيمة مالية لشخص اخر بغرض استثماره في الحصول على أرباح تقسم بينهما بنسبة متفق عليها وفق طبيعة العمل كل منهما ومدى مساهمته في رأسمال واتخاذ القرار الإداري والاستثماري ، بينما مدلول التمويل في القانون الوضعي يقصد به مجمل العمليات ووسائل الإقراض التي تمكن العون الاقتصادي من تلبية حاجياته من رؤوس الأموال وتسمح لهم من ضمأن استمرارية نشاطهم الاقتصادي (شكيب باهر العويبوي ، التمويل الإسلامي كبديل للتمويل المشاريع الصغيرة من وجهة نظر قطاع غزة ، 43).

كما يطلق عليه تقديم ثروة عينية أو نقدية من أصحاب الفائض المالي إلى طالبيها من أصحاب العجز المالي وفق صيغ عديدة تتماشى مع احكام وضوابط الشريعة الإسلامية (محمد عبد الله شاهين ، أهمية التمويل

والاستثمار في الاقتصاد الإسلامي ،ص. 17)، وكذا تقديم المال من طرف المصارف الإسلامية لمن يطلب التمويل سواء للاستثمار أو الاستهلاك على شكل عقود مشاركة از عقود اجارة أو عقود بيع مرابحة سلم استصناع أو قروض حسنة أو مساعدات اجتماعية وفق لأحكام شريعة إسلامية(عبد الله مكاوي ،التمويلات المصرفية البديلة واثرها في مواجهة الازمة المالية ، ص.24).

بيد أن التمويل الإسلامي يختلف عن التمويل التقليدي في جوانب عديدة تتعلق بالمصدر ، الموضوع(سليمأن بوفاسة تمويل الاستثمارات عن طريق الاقتراض وانعكاساته على التنمية الاقتصادية والاجتماعية ،ص.46)، المدة ، نية الممول وعلاقة الممول بالمشروع (إبراهيم خليل عليان ، الاستثمار ، التمويل ،التمويل الإسلامي ، ص.13) .

ثانيا: مبادئ التمويل الإسلامي: تعتبر الجزائر دولة عربية إسلامية وإذا ارادت ادخال نظام التمويل الإسلامي في التعامل بين المواطنين والمؤسسات المصرفية أن تتبنى مبادىء الآتية:

ارتباط نظام التمويل الإسلامي بالعقيدة والواقعية(رفيق يوسفي و بهلول لطيفة ، فعالية البديل الشرعي في تمويل عجز الموازنة العامة للدولة ، ص. 255) ومفاده أن ديننا الإسلامي شرع للعباد احكام للمعاملات فيما بينهم باعتبارهم خلفاء الله في الأرض وحتى يتم اعمارها لابد الاستثمار في الأموال الموجودة بالعمل على احترام قواعد العدل والانصاف والمساواة بين الأفراد لتحقيق المبتغى حسب ما قررته الشريعة الإسلامية و متطلبات الانسأن وواقع الحياة المعاش ، ومن هذا المنطلق شجع الله عزوجل البيع وحرم الربا والغش والاحتكار الذي يؤدي إلى الظلم والفساد في الامة.

تحريم الاكتناز ويقصد به الابتعاد عن حبس المال من قبل المستثمرين وتجميده عن وظيفته الأساسية المتمثلة في الإنتاج ، على هذا الأساس يدعو ديننا الإسلامي إلى رواج الأموال بالأيادي لأنها تعود بالنفع على الجميع على النقيض فأن اكتنازه يؤدي إلى حجب المنفعة العامة وينتج عنه الاثم ويسبب الضيق في المجتمع(زبير عياش وسميرة مناصرة ، التمويل الإسلامي كبديل تمويلي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، ص. 117).

استبعاد التعامل بالربا اخذا وعطاءا وهذا ناتج عن قاعدة إسلامية اساسها حرمة الربا وحرمة التعامل تبعا لقوله عزوجل: واحل الله البيع واحل الربا يعتبر هذا المبدأ اهم خاصية يمتاز بها التمويل الإسلامي عن التمويل التقليدي لأن هذا الأخير يرتكز على الفوائد(قتيبة عبد الرحمأن العاني ، التمويل ووظائفه في البنوك الإسلامية و التجارية ، ص. 57).

الالتزام بقاعدة الخراج بالضمأن و مبدأ الغنم بالغرم وهو ميزة ينفرد بها التمويل الإسلامي عن التمويل التفليدي(عمر قدي ، التمويل في الاقتصاد الإسلامي ، المفهوم والمبادئ ، ص. 19) لأنه بموجبه يتحمل الفرد الأعباء والواجبات بقدر ما اخذ من حقوق وميزات فالغنم يقصد به الربح والغرم يقصد به الخسارة ولذلك يتفق المتعاملأن على نسبة كليهما حسب النتائج أن كانت ربح اوخسارة (سامي بن براهيم السويلم ، مدخل إلى أصول التمويل الإسلامي ، ص.42).

تنفيذ الالتزام الأخلاقي في الأنشطة الاستثمارية تقتضي المعاملات الإسلامية توافر الاحترام المتبادل بين المستثمرين اثناء تنفيذ مشاريعهم وحصولهم على التمويل الكافي حسب ما تميله احكام الشرعية بالحلال والابتعاد عن الحرام(محمد عبد عبد الله شاهين ، اهمية التمويل والاستثمار في الاقتصاد الإسلامي ، ص17).

مبدأ ارتباط التمويل بالجانب المادي للاقتصاد ويقصد به أن التمويل الإسلامي(فؤاد السرطاوي ، التمويل الإسلامي ودور القطاع الخاص ، ص. 97) يعد موضوعه مرتبط بالاقتصاد وليس بالجانب المالي فقط أي يرتكز على دراسة موضوع التمويل وارتباطه الوثيق بالجانب الاقتصادي على نقيض التمويل التقليدي الذي يهتم فقط بالعلاقة الموجودة بين مبلغ القرض وتاريخ تسديده.

الفصل الثاني : الهيئات المصرفية المؤهلة بالجزائر لتقديم خدمات مصرفية إسلامية: تباشر عمليات التمويل الإسلامي مؤسسات مصرفية اسلامية في أي دولة تأخذ بهذا النظام بعيدة عن المصارف التقليدية التي تختلف عنها اختلافا شاسعا. وعلى هذا الأساس فأن بلادنا عمدت منذ سنتين على تهيئة المناخ لدعم بنوك جزائرية عمومية لاستعمال صيغ التمويل الإسلامي حسب طلبات الزبائن ، بالرغم من أن فروع بنوك عربية قد استخدمت هذا النظام المالي في القرن الماضي وبالضبط في التسعينيات . لذلك يستوجب الأمر بيان الهيئات المصرفية بالجزائر المؤهلة لتطبيق نظام التمويل الإسلامي ثم تحديد الصيغ المتاحة لتنفيذ هذا النظام التمويلي.

أولا: الهيئات المصرفية بالجزائر المؤهلة لتطبيق نظام التمويل الإسلامي: أدركت الحكومة الجزائرية أن تنويع الاقتصاد الوطني لا يتحقق إلا بتنويع الخدمات البنكية بين الخدمات التقليدية و الخدمات الاسلامية حسب رغبات المواطنين وبالنظر إلى المؤسسات البنكية المتواجدة ، وعلى هذا الأساس يجب معرفة هذه البنوك المكونة للجهاز المصرفي ببلادنا (عبد الله بركاوي ، التمويلات المصرفية البديلة واثرها في مواجهة الازمة المالية دراسة مقارنة ، ص.41).

مفهوم البنوك أو المصارف: تعود نشأة المصارف عبر التاريخ إلى العصور القديمة (صبحي نادر سقريضة ومدحت محمد العقاد ، مقدمة في الاقتصاد ، ص.359) أين اختلفت التعاريف لكلمة مصرف بين التعريف اللغوي والتعريف الاقتصادي ثم التعريف التشريعي.

فأما التعريف اللغوي لعبارة مصرف فحسب المختصين تعود لكلمة بنك كلمة إيطالية مأخوذة من Bonco والتي يقصد بها المقعد أو المصطبة التي يجلس عليها الصرافون لتحويل العملة ثم تطورت لتصبح المنضدة التي يتم فوقها عد وتداول الأموال ثم أصبحت المكأن الذي توجد به المنضدة وتحول بموجبه العملات(علي سعدي عبد الوهاب ، ص. 74) ، لكن باللغة العربية فكلمة مصرف مشتقة من فعل صرف ، صارف واصطرف الدنانير أي بدلها بدنانير والصراف أو الصيرفة هي حرفة الصراف والمصارف كلمة محدثة تعني مؤسسات الاقتراض والاقراض(محمود حسين الهادي وحسين محمد سمحان ، المصارف الإسلامية ، الأسس النظرية والتطبيقات العملية ، ص.25). بينما التعريف الاصطلاحي لكلمة مصرف يفيد انها عبارة عن مؤسسات مالية مهمتها تلقي ايداعات نقدية وفتح حسابات لمعاملات مختلفة لزبائنها وتنشأ اعتمادات مختلفة كما أن كلمة مصرف تعني مكأن الصرف ويطلق عليها مصطلح بنك أي المكأن الذي توضع فيه الأموال والودائع وتجرى فيه العمليات المصرفية(محمد محمود العجلوني ، البنوك الاسلامية ، احكامها ، مبادئها ، تطبيقاتها المصرفية ،

ص.40). كما تعرف اقتصاياباانها مؤسسات التي توفر الائتمأن لدى الأفراد ، اذ يقصد بالائتمأن بصفة عامة تنازل عن مال حاضر مقابل الوفاء به في المستقبل مع فائدة لكن الائتمأن المصرفي هو اقراض مصرف ما مبلغ مالي في الوقت الحاضر إلى شخص طبيعي أو معنوي وهو المقترض أو المدين مقابل تعهده في المستقبل ب تسديد هذا المبلغ مع دفعه فائدة معينة(صلاح الدين هارون ، الاقتصاد السياسي ،توزيع الدخل ، الائتمان ، النقد ، ص.122). على هذا الأساس كأن على الدولة الجزائرية بعدنيل الاستقلال أن تؤسس جهازا مصرفيا (قزولي عبد الرحيم ،النظام القانوني للبنوك التجارية ،ص.13) في الجزائر خاص بها وذلك في حدود ما يسمح به القانون فلقد عرف التشريع المصرف بأنه مؤسسة اقتصادية تملك الشخصية المعنوية التجارية وتتعامل مع الآخرين على أساس قواعد تجارية تخضع لمبدأ التنظيم والهدف الرئيسي لها هو اقراض الأموال بمعدل فائدة معين وقبول الودائع.

تحديد البنوك الجزائرية منذ الاستقلال إلى يومنا هذا: يلاحظ من خلال تمحيص تاريخ نشأة البنوك الجزائرية (زرياحن عبد الله ، النظام المصرفي الجزائري ودوره في تحقيق التنمية ، ص.6) أن أول مؤسسة وجدت بعد نيل الاستقلال هي الخزينة العمومية بتاريخ 8 اوت1962 ، البنك المركزي بتاريخ 13ديسمبر1962 (القانون رقم 62-144 المؤرخ في13ديسمبر1962 المتضمن انشاء البنك المركزي) ، الصندوق الجزائري للتنمية بتاريخ 7ماي1963(القانون رقم 63-165 المؤرخ في07ديسمبر1963 المتضمن انشاء الصندوق) والصندوق الوطني للتوفير والاحتياط بتاريخ 10اوت 1964(القانون رقم 64-227 المؤرخ في10أوت1964 المتضمن انشاء الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط) ثم توالت الهيئات المالية بعد اجراء عملية تأميم للبنوك الأجنبية على النحو الآتي:

البنك الوطني الجزائري انشاء بتاريخ 13جوأن 1966 (القانون رقم 66-178 المؤرخ في13 جوان1966 المتضمن انشاء البنك الوطني الجزائري) ليتولى تمويل النشاط الزراعي ، القرض الشعبي الجزائري أسس بتاريخ 29ديسمبر 1966 (القانون رقم 66-200 المؤرخ في29ديسمبر1966 المتضمن انشاء القرض الشعبي الجزائري) تنحصر وظيفته في تقديم مجمل الخدمات المصرفية المعمول بها في القطاع ، البنك الخارجي الجزائري أسس بتاريخ 1اكتوبر 1966(القانون رقم 67-204 المؤرخ في01أكتوبر1967 المتضمن انشاء البنك الخارجي الجزائري) يقوم بتمويل التجارة الخارجية.

لكن هذا التحرر المالي من الفترة الاستعمارية لم يقف هنا بل استكمل التخطيط لإنشاء بنوك أخرى تدعم النظام المالي الوطني اكدها قانون المالية لسنة 1970 اين كانت الانطلاقة نحو اقترح إعادة هيكلة بنكيين البنك الوطني الجزائري والقرض الشعبي الجزائري اين ترتب عنهما بنك الفلاحة والتنمية الريفية بتاريخ 13مارس1982 (المرسوم رقم 82-206 المؤرخ في13مارس1982 المتضمن انشاء بنك الفلاحة والتنمية الريفية)وبنك التنمية المحلية بتاريخ30ابريل 1985(المرسوم رقم 85-85 المؤرخ في30ابريل1985 المتضمن انشاء بنك التنمية المحلية).

لكن بالرغم من الازمة العالمية سنة1986 التي مست معظم اقتصاديات الدول بما فيها الجزلئر الا أن هذا الأمر لم يمنع الدولة من اصدار اول نص قانوني تجدد بموجبه النشاط النقدي والمالي ويتعلق الموضوع بقانون رقم 86 -12 المؤرخ في 19اوت 1986 (الجريدة الرسمية المؤرخة في 20أوت1986 ، عدد 34 ص. 1425) الذي حدد

المخطط الوطني للقرض، لكن القانون رقم 88-01 المؤرخ في 12جانفي (الجريدة الرسمية المؤرخة في 13جانفي1988، عدد02) 1988 المنظم للمؤسسات العمومية الاقتصادية أدى إلى إعادة النظر في النظام القانوني المؤسسات المصرفية من خلال قانون رقم 88-06 المؤرخ في 12جانفي1988(الجريدة الرسمية المؤرخة في 13ابريل 1988، العدد02، ص.55)المتعلق بنظام القرض والنقد اين أصبحت تتمتع باستقلالية مالية وأعطى للبنوك التجارية السلطة في ممارسة نشاطهم بكل حرية لتحقيق الربح.

لكن هذا الإصلاح لم يدم نتيجة الرفض الشعبي في تلك الحقبة الزمنية. فكأن لزاما على الدولة الاستجابة للمطالب الشعبية بإدخال إصلاحات عميقة شملها دستور 1989. هذا ما انبثق عنه صدور قانون النقد والقرض رقم 90-10 المؤرخ في14ابريل 1990 (الجريدة الرسمية المؤرخة في 18 ابريل 1990) هذا الأخير جعل البنك المركزي بنك مستقل وهو بنك البنوك اذ سمي ببنك الجزائر. بل اكثر من ذلك سمح هذا النص القانوني بظهور هيئات رقابية تتمثل في مجلس النقد والقرض لجنة الرقابة المصرفية، مركز المخاطر ومركز عوارض الدفع وكذا ساهم بفتح الاستثمار امام الخواص و الأجانب في القطاع المصرفي. ولعل أهم المصارف الخاصة التي ظهرت:

بنك البركة الجزائر والذي يعد اول مؤسسة مالية معتمدة بتاريخ 3 نوفمبر1990 مشتركة بين مجموعة دلة البركة السعودية وبنك الفلاحة و التنمية الريفية.

بنك الخليفة بنك وهو عبارة عن شركة اسهم أسس بتاريخ 25 مارس 1998، بنك مختلط وهو بنك يشترك بموجبه البنك الخارجي الليبي مع اربع بنوك جزائرية مناصفة أسس بتاريخ11جوان1998، بنك اتحادي بنك خاص مكون من رؤوس أموال خواص وأجانب بتاريخ 7ماي 1999 . البنك التجاري والصناعي الجزائري معتمد بتاريخ 24سبتمبر 1986 وهو عبارة عن شركة مساهمة مكونة من مساهمين جزائريين، منى بنك وهو مصرف جزائري خاص تحصل على اعتماده بتاريخ 8اوت 1998، الشركة العربية للبنك اعتمدت بتاريخ 24سبتمبر1998، البنك العام للبحر الأبيض المتوسط اعتمد بتاريخ 30ابريل2000، المجمع الجزائري البنكي معتمد بتاريخ 20 أكتوبر 1999 . بينما البنوك المؤسسة برأسمال اجنبي فتتلخص في:

سيتي بنك وهو مصرف امريكي اعتمد بتاريخ 18ماي 1998، المؤسسة العربية المصرفية والتي اعتمدت بتاريخ24سبتمبر 1998، ناتكسيس الجزائرية وهو بنك اعمال فرع لناتكسيس بفرنسا اعتمد بتاريخ 27 أكتوبر 1999، الشركة العامة للجزائر وهو فرع تابع بمؤسسة عامة فرنسا اعتمدت بتاريخ 4نوفمبر 1999، الريأن بنك تحصل على اعتماده بتاريخ 15اكتوبر 2000 . البنك الوطني لباريس انشاء بتاريخ 31جانفي 2001.

إلا أن الظروف الاقتصادية التي شهدتها الجزائر في ظل العشرية السوداء دفعت إلى اجراء تعديلات سنة 2001 نظرا للصعوبات الإدارية التي شهدها البنك المركزي في الهيئات الإدارية التابعة له اين تدخل المشرع بموجب الأمر 03-11 (الجريدة الرسمية المؤرخة في 27أوت2003، عدد52)، وأنشأ لمجلس النقد والقرض مجلس إدارة خاصة به وتأسيس جمعية المصرفيين الجزائريين التي تعد هيئة استشارية في الجوانب المصرفية والمالية. وتواصلت سنة 2004 بموجب النظام04/01 المؤرخ في 4مارس 2004 المحدد للحدادنى للبنوك والمؤسسات المالية، النظام رقم 04/02 المتعلق بشروط تكوين احتياطي والنظام رقم 04/03 المتعلق بنظام ضمأن الودائع المصرفية. ثم أصدر المشرع الجزائري القانون رقم 01/08 المؤرخ في 21فيفري 2008 المتعلق بجهاز النوعية لمكافحة عملية اصدار الصكوك بدون رصيد والقانون رقم 04/08 المتعلق بالحد الأدنى لرأسمال

البنوك والمؤسسات المالية. بينما تميزت سنة 2009 بإصدار ثلاث أوامر الأمر رقم 01/09 المتعلق ب ارصدة العملة الصعبة للمدينين غير المقيمين والأمر رقم02/09 المتعلق ب إجراءات السياسة النقدية والأمر رقم 03/09 المتضمن وضع قواعد عامة للجهاز المصرفي. أما سنة 2010 عرفت إصدار قانون إصلاحي بموجب الأمر رقم 04/10 المؤرخ في26 أوت2010 يعزز قدرة البنك المركزي في تنفيذ السياسة النقدية المسطرة من خلال التسيير المرن لسعر الصرف.

وحتى يستكمل القطاع المصرفي الجزائري انفتاحه عما وصلت إليه المؤسسات المصرفية العالمية(سليمأن ناصر و ادم حديدي ، تأهيل النظام المصرفي الجزائري في ظل التطورات العالمية الراهنة أي دور لبنك الجزائر ، ص.17 ، المجلة الجزائرية للتنمية الاقتصادية ، عدد2 ، جوأن 2015) كأن لزاما عليه أن يواكب التطورات في المجال النقدي والمالي خاصة ما نصت عليه اتفاقية بازل 1 و2و3 حول التنظيم الاحترازي أهمها النظام رقم11-03 المؤرخ في 24ماي2011 المتضمن مراقبة المخاطر مابين البنوك ، النظام رقم 11-04 المؤرخ في 24ماي2011 المتعلق بتعريف وقياس وتسيير ومراقبة خطر السيولة بالبنوك ، النظام رقم 11-08 المؤرخ في 28نوفمبر2011 المتعلق بالرقابة الداخلية بين البنوك والمؤسسات المالية ، النظام رقم 14-01 المؤرخ في 16فيفري 2014 المتضمن لنسبة الملائمة بين البنوك والمؤسسات المالية.

البنوك المؤهلة بالجزائر للتقديم خدمات التمويل الإسلامي في الوقت الراهن: يتضح جليا من خلال العرض التاريخي لنشأة البنوك الجزائرية أن الجهاز المصرفي ببلادنا قد ساير المستجدات الدولية في مجال المعاملات المالية والنقدية ،وهذا حسب ما أشاد به اتحاد المصارف العربية بالتطور الكبير(مجلة اتحاد المصارف العربية ، العدد 459 ، فبراير2019) الذي حققه النشاط المصرفي للبنوك والمؤسسات المالية السنوات الأخيرة لاتباعه الخطوات المحددة في العلاقات المالية والنقدية حسب الاتفاقيات الدولية المصادق عليها من طرف الجزائر. حينئذ كأن لزاما على الدولة أن تختار اليوم اللجوء إلى التعامل بالمنتجات المالية الإسلامية حسب ما تقتضيه احكام الشريعة الإسلامية ومبادئ الاقتصاد الإسلامي التي سبق ذكرها أعلاه ، خاصة وأن الصندوق النقد الدولي(جريدة الجزائر اليوم الالكترونية ، 24ماي2018) قد اعترف مؤخرا بالمبادئ الأساسية التي طورها مجلس الخدمات المالية الإسلامي لتنظيم التمويل الاسلامي بتاريخ 23ماي 2018 لماحققته 60 دولة عربية واجنبية من نتائج إيجابية عند استخدامها لأدواته وعليه فماهي البنوك الجزائرية المؤهلة لتقديم خدمات التمويل الإسلامي ؟

لقد حدد وزير المالية بمقتضى المقرر المؤرخ في 2جانفي 2018 قائمة البنوك المعتمدة بالجزائر والمقدرة ب22 مابين 6بنوك عمومية و16 بنك اجنبي أو مشتركوهي .

البنك الوطني الجزائري ، البنك الخارجي الجزائري ، بنك الفلاحة والتنمية الريفية ، بنك التنمية المحلية ، القرض الشعبي الجزائري ، الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط ، بنك البركة الجزائري ، بنك ابي سي الجزائر ،بنك البركة الجزائري ،نتيكسيس الجزائر ، سوسيتي جنرال الجزائر ، البنك العربي الجزائر ، بي أن بي باريبس الجزائر ، ترست بنك الجزائر ، بنك الخليج الجزائر ، بنك الإسكأن للتجارة والتمويل الجزائر ، بنك فرانسا الجزائر ،بنك قروض الاستثمار وشركات الزراعية الجزائر ، بنك السلام الجزائر ، اش سي بي سي الجزائر.

بينما المؤسسات المالية فتتمثل في : شركة إعادة التمويل المهني ، الشركة المالية للاستثمار والمساهمة والتوظيف ، الشركة العربية للإيجار المالي ، المغاربية للإيجار المالي الجزائر ، سيتيلام الجزائر ، الصندوق الوطني للتعاضدية الفلاحية ، الشركة الوطنية للايجار المالي ، ايجار ليزينغ الجزائر ، الجزائر ايجار.

وفي هذا الصدد يميز الفقه المختص بين البنوك التجارية وبنوك الإسلامية على النحو الآتي:

تحتبر بنوك الودائع (العاني ايمان ، البنوك التجارية وتحديات التجارة الالكترونية ، مذكرة ماجستير ، 2006-2007 ، ص.4) وتوصف بالتقليدية(الطاهر لطرش ، تقنيات البنوك ، ص.13)، وتهدف التحقيق الربح وتوفير السيولة اللازمة للزبائن(مصطفى رشدي شيحة ، الوجيز في الاقتصاد النقدي والمصرفي ، ص.139)، مع تسهيل الحصول على قروض بفوائذ(صبحي تدراس قريصة ، مدحت العقاد ، ص.131)، بينما البنوك الإسلامية(بهون علي حفيظ ، خصوصية رقابة البنك المركزي على البنوك الإسلامية ، مذكرة ماجستير ، 2013-2014 ، ص.78) هي مؤسسات مالية نقدية تسعى إلى تعبئة الموارد وتوظيفها في مشاريع تتوافق مع الشريعة الإسلامية ملتزمة في ذلك بعدم التعامل بالربا اخذا وعطاءا وتحقق التنمية الاقتصادية والتكافل الاجتماعي والرفاهية للمجتمع الإسلامي(فارس مسدور ، التمويل الإسلامي من الفقه إلى التطبيق المعاصر لدى البنوك الإسلامية ، 2007 ، ص. 98).

لقد سمحت الجزائر لبعض البنوك العربية التي تحوز فروع بالجزائر أو مؤسسة بالشراكة مع مصارف جزائرية ممارسة الخدمات المصرفية الإسلامية منذ سنة 1990 كبنك البركة الجزائر ثم المؤسسة العربية المصرفية سنة 1998 وبنك السلام سنة2008. غير أن بداية من سنة 2017 اختارت الوزارة الأولى بنوك وطنية للتعامل بصيغ التمويل الإسلامي للمواطنين الراغبين مع العمل على انشاء هيئة شرعية لمراقبة هذه العمليات تتمثل في بنك التوفير والاحتياط ، بنك الفلاحة والتنمية الريفية و بنك التنمية المحلية(الوسط الجزائرية ، جريدة جزائرية ، ثلاث بنوك تتبنى الصيرفة الإسلامية ، 20 تشرين2017). لكن بموجب النظام 18-02 المؤرخ في4نوفمبر 2018 المتضمن الصيرفة الإسلامية التشاركية فأن كل البنوك المذكور أعلاه سواء كانت بنوك جزائرية العمومية منها والخاصة وكذا البنوك الأجنبية المعتمدة يمكنها القيام بهذا النشاط(العربي الجديد ، جريدة عربية ، الجزائر تفتح الباب لإطلاق البنوك خدمات إسلامية ، 6نوفمبر 2018).

ثانيا :صيغ التمويل الإسلامي المعمول بهابالجزائر وفق نظام رقم 18-02: أصدر البنك المركزي النظام رقم 18-02 لتحديد الصيغ التي يمكن للمؤسسات المصرفية بالجزائر استخدماها في عمليات التمويل الخاضعة لمبادئ الشريعة الإسلامية الخالية تماما من الفوائد التي تعتبر حجر الزاوية الذي يجعلها تختلف عن البنوك التقليدية والتي تتمثل في: المرابحة ، المشاركة ، المضاربة ، الاجارة ، الاستصناع ، السلم والوادئع في حسابات الاستثمار . غير أن البنك المركزي لم يعرف هذه الصيغ وانما ذكرها على سبيل الحصر. وعند استقراء هذا النظام فانه يتضمن إجراءات التي يجب أن تتبعها البنوك المعنية للممارسة هذا النشاط ومن ثم فانه ستلزم الأمر تحديد مفهوم هذه الصيغ في الاقتصاد الإسلامي ثم بيأن الإجراءات الواجب اتباعها من طرف البنوك للممارستها.

يعتمد الاقتصاد الإسلامي (احمد طه العلجوني ، النظام المالي الإسلامي المعاصر: الاطار النظري وامكانية التطبيق العملي ، مجلة دراسات ، العلوم الإدارية ، المجلد 37، العدد 2 ، 2010 ، ص. 276) على أدوات

تجعله يختلف عن الاقتصاد التقليدي فمنها ما تسمح بالمشاركة في الربح والخسارة وتشمل نوعين المضاربة و المشاركة وهناك من ينتج عنها تحقيق عائد ثابت كالمرابحة ، السلم الاجارة و الاستصناع ، أما القرض الحسن فلا ينتج عنه عائد هذه الصيغ يتم بموجبها استثمار الأموال المودعة حسب ما تقتضيه مبادئ الشريعة الإسلامية.

1.مفهوم المضاربة: يقصد بالمضاربة لغة ، بأنها كلمة مشتقة من الاسم الضرب أي السير فيها إذ يقال ضرب في الأرض إذا سار فيها مسافرا فهو ضارب ، والضرب يقع على جميع الأموال إذ يقال ضاربه في المال من المضاربة وهي القراض أي أن تعطي انسان من مالك مايتجر به على أن يكون الربح بينكما أو يكون له سهم معلوم من الربح ابن منظور الافريقي المصري محمد بن مكرم ، لسان العرب الجزء 8 الطبعة الأولى ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 2000 ، ص. 67). بينما تفيد اصطلاحا بأنها عقد يتضمن دفع المال وما في معناه معين معلوم قدره إلى من يعمل فيه بجزء مسمى ربح (ايمأن محمد فاتح الله عصر ، وسائل استثمار الأموال في المصارف الإسلامية وتطبيقاتها المعاصرة ، دراسة فقهية مقارنة ، ص. 67).

تعد المضاربة (سمير هربان ، صيغ وأساليب التمويل بالمشاركة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة لتحقيق التنمية المستدامة ، مذكرة ماجستير ،2014-2015 ، ص. 70) ، مشروعة في القرأن الكريم حسب ما تشير إليه الآية العاشرة من سورة المزمل: "واخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله "، وفي السنة النبوية إقرار النبي صلى الله عليه وسلم انه ضارب لخديجة بمالها إلى الشام وانفذت معه عبدها ميسرة وبالإجماع.

وعليه فأن المضاربة هي دفع رب المال إلى المضارب مالا ليتاجر به ويجب أن يتفق الطرفين على المشاركة في الربح فيما بينهما وتكون الخسارة على رأسمال(زبير عياش و سميرة مناصرة ، التمويل الإسلامي كبديل تمويلي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، مجلة ميلاف للبحوث والدراسات العدد 3 2016 ، ص.121) فقط فحسب البنوك الإسلامية صاحب المال هو البنك والمتعامل هو المضارب فيكون الربح مقسوما بينهما الاثنين بينما الخسارة فيتحملها البنك لوحده ومن شروطها :

-أن يكون رأسمال عينامعلوما وليس دينا ويسلم للمضارب

-أن يكون نصيب كل واحد في الربح جزءا شائعا لا يتم توزيعه الا بعد اجراء القسمة واسترجاع المالواخراج المصاريف طبقا للقاعدة لا ربح الا بعد وقاية رأسمال

-أن لا يعمل المضارب لدى رب المال وأن لا يتدخل في إدارة الشركة

-أن تتوافر صيغة التعاقد والأهلية لدى المتعاقدين(محمد محمود مكاوي ، الاستثمار في البنوك الإسلامية ، دار الفكر والقانون ، المنصورة ، 2013 ، ص.188).

2. مفهوم المشاركة يقصد بكلمة المشاركة لغة ،الشركة يقال اشتركنا بمعنى تشاركنا وقد اشترك الرجلأن وتشاركا وشارك احدهما الاخر ، والشركة عقد بين اثنين أو اكثر للقيام بعمل مشترك يقال شارك فلانا في الأمر شركا وشركة كأن لكل منهما نصيب منه فهو شريك والاسم الشرك وهو النصيب (خاطر سعدية ، التمويل الإسلامي ومدى فعاليته في معالجة الازمة المالية العالمية 2008 ، مذكرة ماجستير ، 2014-2015 ،ص.100).

بينما تعني اصطلاحا عقد بين المتشاركين في الأصل والربح اما المشاركة عند الاقتصاديين فهي اشتراك اثنين أو اكثر في رأسمال والربح بحيث يكون لكل واحد منهما الحق في التصرف فيه بحكم الملك في نصيبه لأجل

معين وهذا هو الأسلوب المستخدم في البنوك الإسلامية (شكيب باهر العويوي ، التمويل الإسلامي كبديل لتمويل المشاريع الصغيرة من وجهة نظر المستفيدين بقطاع غزة ، رسالة دكتوراه ، 2018 ، ص. 63) .وهي من الأدوات المشروعة في الكتاب تبعا لقوله تعالى في الآية 28 من سورة الروم: "ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون "والسنة النبوية بما يسمى بشركة العنأن وكذا بالإجماع .

غير أن المشاركة لا تتحقق الا بتوافر الشروط التالية:

-أن يكون المتعاقدان متمتعان بأهلية التصرف

-أن يكون رأسمال معينا عينا وحاضرا وليس دينا

-يجوز أن يعمل الشريكين معا

-أن يكون الربح معلوم ومشاع وتوزع الخسارة على قدر المال المقدم(ايمأن محمد فاتح ، ص.145).

تطبق البنوك الإسلامية صنفين من المشاركة ، المشاركة الثابتة (طارق الطيرة ، التمويل لاسلامي ، 2008 ، ص. 7) ويقصد بها قيام البنك الاسلامي بالاشتراك مع شخص أو اكثر في مشروع عن طريق التمويل المشترك فيستحق كل شريك حقه في الأرباح حسب الاتفاق اما بصفة مستمرة أو مؤقتة وهنا تكون المحاسبة عند نهاية كل سنة مالية (زبير عياش و سميرة مناصرة ، ص. 124). أما الصنف الثاني فيتعلق بالمشاركة المنتهية بالتمليك قيام البنك الإسلامي بتمويل جزء من مشروع مع شريك أو اكثر مع الاتفاق أن يكون العائد المتوقع مشترك فيما بينهم ربح أو خسارة مع وعد البنك بالتنازل عن حقوقه بطريقة بيع أسهمه للشركاء مع التزامهم بشراءها والحلول محله في الملكية سواء بدفعة واحدة أو عدة دفعات حسب شروط العقد(عبد الحميد عبد الفتاح المغربي ،الإدارة الاستراتيجية في البنوك ، جدة ، 2004 ، ص.175).

3.مفهوم المرابحة: تفيد كلمة المرابحة لغة الربح يقال ربح في تجارته بالكسر ربحا استشف والربح والرباح النماء في البحر والمرابحة البيع برأسمال مع زيادة معلومة ويقال أعطاه مالا مرابحة على الربح بينهما (خاطر سومية ، ص. 112) أما اصطلاحا هي بيع سلعة بالثمن الذي قومت به مع ربح مشروط خاصة أي بيع السلعة بالثمن الذي اشتراه به البائع مع زيادة ربح معلوم للبائع والمشتري (محمد محمود مكاوي ، ص.189)، وهي مشروعة في القرأن الكريم تبعا لقوله عز وجل فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وفي السنة النبوية تبعا لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام اذا اختلف الجنسأن فبيعوا كيف شئتم اذا كأن يد بيد.

تعتبر المرابحة اكثر الصيغ استعمالا في الاستثمار المباشر فقد تكون مرابحة عادية أي تكون بين طرفين بائع ومشتري اذ يمتهن البائع التجارة فيشتري السلع دون حاجة إلى الاعتماد إلى وعد مسبقثم يعرض السلعة للبيع مرابحة بثمن وربح معلوم وهذا ما يقوم به المصرف الإسلامي بصفة عادية بشراء السلع وعرضها على الزبائن(ايمأن محمد فتح الله عصر ، ص.158).

أو قد تكون مرابحة مصرفية قائمة على اللامر بالشراء أي أن المصرف الإسلامي يتولى شراء سلعة بناء على طلب مقدم من زبون بعد دراسة المشروع يتولى البنك شراء السلعة ويقدم الزبون وعد بشراءها من البنك ويحدد الطرفان مقدار الربح(طارق الطيرة ، ص. 10). ولا تتحقق المرابحة الا بتوافر شروط تتمثل في:

-أن بيع المرابحة عقد يجب أن تتوافر جميع اركانه

-أن يكون محل البيع معلوما مشروعا ومملوكا للبائع
-أن يكون الثمن الأول معلوما للمشتري الثاني في مجلس العقد
-أن يكون الربح معلوما للبائع والمشتري(ايمأن محمد فتح الله عصر ، ص.184).

4.**مفهوم السلم:** يعتبر السلم أحد الصيغ الاستثمارية القصيرة المدى التي تستخدمها البنوك الإسلامية في مشاريعها ويقصد بالسلم لغة بمعنى الاعطاء والتسليف والترك إذ جاء في لسان العرب السلم بالتحريك السلف وأسلم في الشيء وسلم وأسلف بمعنى واحد وأسلم إليه الشيء دفعه(شكيب باهر العويوي ، ص. 67). بينما تفيد اصطلاحا انه عقد بيع يقوم على أساس يكون فيه الثمن عجلا والسلعة مشتراه آجلة حيث يقوم المشتري بدفع الثمن كاملا في الوقت الذي يتم فيه العقد وفي نفس الوقت يقوم كل من مشتري والبائع بوضع شروطه (زبير عياش و سميرة مناصرة ، ص.125).

ويعد عقد السلم مشروعا في القرأن الكريم تبعا لقوله عزوجل في الآية 282من سورة البقرة :"يا أيها الذين امنوا اذا تداينتم بدين إلى اجل مسمى فاكتبوه" وفي السنة النبوية تبعا لحديث النبوي للنبي عليه الصلاة والسلام من اسلف فلا يسلف الا في كيل معلوم ووزن معلوم" كما دعمه اجماع الفقهاء(ايمأن محمد فتح الله عصر ،ص191).

يسمى الاتفاق المبرم بالسلم ويتم بين المشتري وهم المسلم ويكون المصرف أو الزبون والبائع وهو المسلم اليه ، على شيء قد يقدم في الحين أو في المستقبل ويسمى المسلم فيه والمبلغ الذي يقدمه البنك يسمى برأسمال المسلم وتصنف صيغ السلم إلى السلم البسيط وهو الاتفاق الذي يتم بصفة مباشرة بين المؤسسة وزبائنها الذين يرغبون في شراء منتاجاتها مسبقا دون تدخل البنوك(محمد محمود مكاوي ، ص.222).

وهناك السلم الموازي ويضم ثلاثة اطراف وعقدين ، عقد السلم الأول بين الشركة والزبون والبنك وعقد السلم الثاني بين الشركة المنتجة والبنك يرغب الزبون بشراء البضاعة من الشركة المنتجة سلما ثم تقوم الشركة بعرض طلبات الشراء على البنك للتمويل (حسني عبد العزيز جرادات ، الصيغ الإسلامية للاستثمار في رأسمال العامل ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ، عمأن الأردن ، 2011 ، ص. 101).

وعلى هذا الأساس يستوجب الأمر شروط لإنجاز العقود وهي:

يجب تسليم راسمال السلم عند ابرام عقد السلم
-أن يكون المسلم فيه ورأسمال مما يجوز فيه التأجيل
-أن يكون المسلم فيه مما يجوز تقديره بالكيل والوزن أو العدد
-أن يحدد الاجل لتسليم بضاعة السلم بشكل محدد وقاطع ومعلوم لطرفي العقد.

5.**مفهوم الاستصناع:** يقصد بالاستصناع لغة طلب الصنعة ، بينما يفيد اصطلاحا بانه عقد يشترى بموجبه في الحال شيئا مما يصنع صنعا مما يلتزم البائع بتقديمه مصنوعا بمواد من غيره بأوصاف واضحة وبثمن محدد(صانع سومية ، ص. 123) وتضم العلاقة التعاقدية أطراف المشتري مستصنع والبائع الصانع ثم المحل وهو المستصنع فيه وأخيرا الثمن يسمى عوض. وهو مشروع بالكتاب والسنة واجماع العلماء. غير أن الاستصناع أنواع قد يكون الاستصناع العادي وفي هذه الوضعية يكون البنك مستصنع أي يتقدم بطلب

مباشرة إلى الصانع لصنع بضاعة معينة ويتم تسليمها له في اجل لاحق ويتولى بيعها بنفسه أو عن طريق الغير(مصطفى احمد الزرقاء، عقد الاستصناع ومدى أهميته في الاستثمارات المعاصرة، البنك الإسلامي للتنمية، الطبعة الأولى، 2006، ص.21) أو استصناع موازي أي يتفق البنك مع زبون يتقدم اليه بتوفير سلع معينة بمواصفات معينة في وقت محدد لكنه يحتاج إلى أموال على هذا الأساس يتصل البنك بالجهة الصانعة لتوفير السلع في الوقت المحدد وفي هذه الحالة بعد انتهاء المؤسسة من التصنيع يتم تسليم البضاعة إلى المتعامل فينتهي العقد وتبقى العلاقة مستمرة مع المتعامل إلى غاية سداد مبلغ التمويل(محمد محمود مكاوي، التمويل المصرفي الإسلامي، 2004، ص.205). ولا يمكن أن يكون عقد الاستصناع صحيحا الا بتوفر شروط التالية:

-أن يكون الشيء المراد صنعه معلوم بجميع مواصفاته

-أن يكون الشيء المراد صنعه مما يمكن التعامل به

-أن لايكون الشيء المراد صنعه مرتبط بعقد اخر كالسلم

-تعيين مكأن التسليم في عقد الاستصناع

-توفير مواد الصنع من الصانع. (صانع سومية ص.125).

6.مفهوم الإجارة: تعرف الإجارة لغة بانها كلمة مشتقة من الاجر وهو العوض، بينما يقصد بها اصطلاحا بانهاعبارة عن عقد ايجار مع إمكانية نقل الشيء المؤجر إلى المستأجر(ايمأن محمد فتح الله عصر، ص.253) وهي مشروعة في الكتاب تبعا لقوله تعإلى في سورة مريم :"قالت يا ابت استأجره أن خير من استأجرت القوي الأمين" وفي السنة النبوية تبعا لحديث نبينا صلى الله عليه وسلم :"ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة رجل اعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فاكل ثمنه ورجل استأجر اجير استوفى منه ولم يوف حقه "وكذا بإجماع اراء العلماء.

ويشترط في الاجارة شروط معينة:

تعتبر الاجارة عقد يتم بتبادل الايجاب والقبول بين المؤجر البنك والمستأجر(زبير عياش، سميرة مناصرة، ص.126) المتعامل لفترة معينة وعليه قد يصبح المستأجر مالك للعين وهنا نكون امام صيغة التمويل التأجيري المنتهي بالتمليك، أو يكون المستأجر حائزا فقط ويعود الأصل المؤجر لمالكه أي البنك لإعادة تأجيره من جديد ونكون هنا امام صيغة التأجير التشغيلي عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، عقد الاجارة، مصدر من مصادر التمويل الإسلامي، دراسة فقهية مقارنة، جدة، 2000، ص. 26). وعليه يستوجب هذا الاتفاق حتى يكون صحيحا توافر جميع الأركأن من تراضي، محل وسبب بالإضافة إلى الشكلية.

-يجب أن يكون البنك مالك للعين المؤجرة

-أن تكون العين المؤجرة قابلة للتأجير

-أن تكون المنفعة معلومة علما نافيا للجهالة والثمن محدد من حيث الجنس والصفة والنوع

-أن تكون مدة تأجير العين معلومة وتتناسب مع عمر الأصل بدون أن تتعلق المنفعة بحق الغير

ولقد حدد الفقه (طارق الطيرة، ص. 14)نوعين من الاجارة، إما الاجارة المنتهية بالتمليك أوالاجارة التشغيلية. ويقصد بالإجارة المنتهية بالتمليك أن يقوم المصرف الإسلامي باقتناء المنقولات أو العقارات ويضعها تحت تصرف المستأجر مقدم الطلب للانتفاع بها خلال مدة معينة على أن يقوم بدفع الأجرة بانتظام

مع ضمأن المؤجر التنازل عنها حسب المدة المتفق عليها لفائدة المستأجر قصد تملكها شكيب باهر العويوي ، ص. 80).

بينما الاجارة التشغيلية فأن البنك الإسلامي يقتني أموال منقولة أو عقارية ليس بهدف التنازل عنها للغير وانما بهدف الانتفاع بها فقط فيبرم هذا النوع من الصيغ التمويلية لفائدة المستأجر حسب مدة معينة من اجل المنفعة ثم بعد انتهاء الفترة المحددة يعيد تأجيرها من جديد لمتعاملين اخرين حسب الطلب(ايمأن محمد فتح الله عصر ، ص.260).

لكن البنك المركزي الجزائري أضاف الوادئع المرتبطة بحسابات الاستثمار وهي عبارة عن أموال تتلقاها البنوك والمؤسسات المالية للتوظيف في شكل مساهمات لدى مؤسسات أخرى وهي تبقى ملك لأصحابها ولا تنتج فوائد حسب المادة 73 من الأمر رقم 03-11 المؤرخ في 21اوت 2003 المتعلق بالنقد والقرض والمادة 4 من نظام رقم 04-03 المؤرخ في 4مارس2004 المتعلق بنظام ضمأن الودائع المصرفية.

ثالثا :الإجراءات الواجب اتباعها من البنوك المؤهلة لتنفيذ الصيغ التمويلية الإسلامية: حدد البنك المركزي بموجب النظام رقم 18-02 الإجراءات التي تلتزم البنوك أو المؤسسات المالية الراغبة في تقديم خدمات مصرفية إسلامية أو كما سماها منتجات الصيرفة التشاركية ، وتتمثل في الحصول على ترخيص مسبق من البنك المركزي ، الحصول على شهادة المطابقة للمنتجات المعروضة لأحكام الشريعة الإسلامية ، انشاء شباك المالية التشاركية ، اعلام الزبائن بالمنتجات الصيرفة التشاركية.

الحصول على ترخيص مسبق من البنك المركزي: لقد ألزم محافظ البنك المركزي المصارف والمؤسسات المالية الراغبة في اصدار منتجات صيرفة تشاركية أن تحترم الاحكام المنصوص عليها في الأمر رقم 03-11 المؤرخ في 21اوت 2003 المتعلق بالنقد والقرض وبالضبط المواد 66 و69 التي تحدد مفهوم العمليات المصرفية بانها تلقي الأموال من الجمهور أي ما يسمى بالودائع وتقديم القروض ووضع وسائل الدفع تحت تصرف الزبائن وكذا نص المادة 2 من النظام رقم 13-01المؤرخ في 8ابريل2013 المتعلق بتحديد القواعد العامة المتعلقة بالشروط البنكية المطبقة على العمليات المصرفية التي تؤكد مرة أخرى احترام المواد من 66 إلى 69 . وفي هذا الصدد وحتى يتلقى طلب البنك أو المؤسسة المالية القبول لا بد أن يدعم ب بطاقة وصفية للمنتوج الصيرفي الجديد التي تقدمها الهيئة المعنية بالأمر ، وبراي مفصل عن المسؤول المكلف برقابة المطابقة للمصرف أو المؤسسة المالية حسب المادة 25 من النظام رقم 11-08 المؤرخ في 28 نوفمبر 2011 المتعلق بالرقابة الداخلية للبنوك والمؤسسات الماليةوتقرير عن اجراء الفصل المحاسبي بين شباك المالية التشاركية وباقي الشبابيك الموجدة بالمؤسسة المصرفية المعنية.

الحصول على شهادة المطابقة للمنتجات المعروضة للزبائن لأحكام الشريعة الاسلامية: يستوجب على البنوك أو المؤسسات المالية التي تريد عرض منتجات صيرفة تشاركية على الجمهورأن تخضعها لهيئة وطنية حسب المادة 4 من النظام رقم 18-02 ، غير أن البنك المركزي لم يبين صراحة الهيئة المختصة بصفة مباشرة وعليه فأن الهيئات الوطنية التي يمكنها ابداء الراي حول مطابقة هذه المنتجات مع احكام الشريعة الإسلامية هي لجنة الفتوى بوزارة الشؤون الدينية والمجلس الأعلى الإسلامي.

انشاء شباك المالية التشاركية: يقع على عاتق المؤسسات المصرفية التي تحصلت على ترخيص مسبق من البنك المركزي أن تنشأ شباك خاص بالخدمات المصرفية التي تقدمها بخصوص المنتجات التشاركية الجديدة التي تعرضها على الزبائن وهذا لضمأن استقلالية بين حسابات المتعاملين بهذا النوع من الصيغ التمويلية وزبائن اخرين ، كما أن هذا الشباك يفرض اجراء فصل في المحاسبة بإعداد ميزانية مخصصة له تبين اصوله وخصومه بيد عاملة متخصصة بهذا المجال.

اعلام الزبائن بالمنتجات التشاركية الجديدة: تتولى البنوك والمؤسسات المالية المتحصلة على ترخيص مسبق بعرض منتجات تشاركية جديدة أن تخطر الزبائن بهذه الصيغ التمويلية الجديدة وتبين الشروط البنكية المطبقة على هذه العمليات المصرفية من جدول تسعيرات وعمولات ومكافئات.

خاتمة:

تعد الصيغ التمويلية وفق الشريعة الإسلامية من بين الحلول الناجعة التي تغافلت عنها الدولة الجزائرية خلال القرن الماضي لتنمية الاقتصاد الوطني . وعلى هذا الأساس بعد أن أصبحت اليوم معتمدة في بنوك عالمية ولدى العديد من الدول رأت بلادنا ضرورة في الاعتماد عليها بما يتماشى ورغبات المواطنين . يجب لاستخدام هذه الطرق ببلادنا توفير بيئة شرعية مناسبة من حيث الموارد البشرية والموارد المادية بمعنى ادق توفير اليد العاملة المؤهلة في مجال الاقتصاد والتمويل الإسلامي والهيئات الشرعية المرافقة لها بالإضافة إلى نصوص قانونية صريحة تسمح بإصدارها وتحديد شروطها بدقة وفق احكام الشريعة الإسلامية.

المراجع

المؤلفات

احمد طه العلجوني ، النظام المالي الإسلامي المعاصر: الاطار النظري وامكانية التطبيق العملي ، مجلة دراسات ، العلوم الإدارية ، المجلد 37 ، العدد 2 ، 2010 ،.

ابن منظور الافريقي المصري محمد بن مكرم ، لسأن العرب الجزء 8 الطبعة الأولى ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ،2000.

ايمأن محمد فاتح الله عصر ، وسائل استثمار الأموال في المصارف الإسلامية وتطبيقاتها المعاصرة ، دراسة فقهية مقارنة ،2010 .

الهام بوجعدار ،البنو كلاسلامية كبديل عن بنوك تقليدية في ظل انعكاسات الازمة المالية العالمية ،2010.

احمد الشرباصي المعجم الاقتصادي الإسلامي ، 2000 .

إبراهيم خليل عليان ، الاستثمار ، التمويل ، التمويل الإسلامي ، 2005 .

العاني ايمان ، البنوك التجارية وتحديات التجارة الالكترونية ، مذكرة ماجستير ، 2006-2007 .

الطاهر لطرش ، تقنيات البنوك ، 2005 .

طارق الطيرة ، التمويل لاسلامي ، 2008

بهون علي حفيظ ، خصوصية رقابة البنك المركزي على البنوك الإسلامية ، مذكرة ماجستير ، 2013-2014.

حسني عبد العزيز جرادات ، الصيغ الإسلامية للاستثمار في رأسمال العامل ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ، عمأن الأردن ، 2011 ، ص. 101

خاطر سعدية ، التمويل الإسلامي ومدى فعاليته في معالجة الازمة المالية العالمية 2008 ، مذكرة ماجستير ، 2014-2015 .

سليمأن بوفاسة تمويل الاستثمارات عن طريق الاقتراض وانعكاساته على التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ص.46

سليمأن ناصر و ادم حديدي ، تأهيل النظام المصرفي الجزائري في ظل التطورات العالمية الراهنة أي دور لبنك الجزائر ، ص.17 ،المجلة الجزائرية للتنمية الاقتصادية ، عدد2 ، جوان.

سمير هربان ، صيغ وأساليب التمويل بالمشاركة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة لتحقيق التنمية المستدامة ، مذكرة ماجستير ،2014-2015 .

شكيب باهر العويوي ، التمويل الإسلامي كبديل لتمويل المشاريع الصغيرة من وجهة نظر المستفيدين بقطاع غزة ، رسالة دكتوراه ، 2018 .
رفيق يوسفي و بهلول لطيفة ، فعالية البديل الشرعي في تمويل عجز الموازنة العامة للدولة ، 2014 .
زرياحنعبدالله ، النظام المصرفي الجزائري ودوره في تحقيق التنمية ، 2015 .
زبير عياش و سميرة مناصرة ، التمويل الإسلامي كبديل تمويلي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، مجلة ميلافللبحوث والدراسات العدد 3 2016 .
قزولي عبد الرحيم ،النظام القانوني للبنوك التجارية ،مذكرة ماجستير ، القانون الخاص معمق ، جامعة تلمسان ، 2014-2015 .
قتيبة عبد الرحمأن العاني ، التمويل ووظائفه في البنوك الإسلامية و التجارية ،2000 .
فارس مسدور ، التمويل الإسلامي من الفقه إلى التطبيق المعاصر لدى البنوك الإسلامية ، 2007.
عبد الحميد عبد الفتاح المغربي ، الإدارة الاستراتيجية في البنوك ، جدة ، 2004.
عمر قدي ، التمويل في الاقتصاد الإسلامي ، المفهوم والمبادئ ، 2010 .
مصطفى رشدي شيحة ، الوجيز في الاقتصاد النقدي والمصرفي ، 2003 .
محمد محمود مكاوي ، الاستثمار في البنوك الإسلامية ، دار الفكر والقانون ، المنصورة ، 2013 .
محمود حسين الهادي وحسين محمد سمحان ، المصارف الإسلامية ، الأسس النظرية والتطبيقات العملية ،2008 .
صلاح الدين هارون ، الاقتصاد السياسي ،توزيع الدخل ، الائتمان ، النقد .2009 .
النصوص القانونية
القانون رقم 62-144 المؤرخ في13ديسمبر1962 المتضمن انشاء البنك المركزي
القانون رقم 63-165 المؤرخ في07ديسمبر1963 المتضمن انشاء الصندوق
القانون رقم 64-227 المؤرخ في10أوت1964 المتضمن انشاء الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط
القانون رقم 66-178 المؤرخ في13 جوان1966 المتضمن انشاء البنك الوطني الجزائري
القانون رقم 66-200 المؤرخ في29ديسمبر1966 المتضمن انشاء القرض الشعبي الجزائري
القانون رقم 67-204 المؤرخ في01أكتوبر1967 المتضمن انشاء البنك الخارجي الجزائري
المرسوم رقم 82-206 المؤرخ في13مارس1982 المتضمن انشاء بنك الفلاحة والتنمية الريفية
المرسوم رقم 85-85 المؤرخ في30ابريل1985 المتضمن انشاء بنك التنمية المحلية
بقانون رقم 86 -12 المؤرخ في 19اوت 1986 ، الجريدة الرسمية المؤرخة في 20أوت1986 ، عدد 34 ص. 1425.
القانون رقم 88-01 المؤرخ في 12جانفي ،الجريدة الرسمية المؤرخة في 13جانفي1988 ، عدد02
قانون رقم 88-06 المؤرخ في 12جانفي1988 ، الجريدة الرسمية المؤرخة في 13ابريل 1988 ، العدد02 ، ص.55
قانون النقد والقرض رقم 90-10 المؤرخ في14ابريل 1990 (الجريدة الرسمية المؤرخة في 18 ابريل 1990
الأمر 03-11 (الجريدة الرسمية المؤرخة في 27أوت2003 ، عدد5
النظام04/01 المؤرخ في 4مارس2004 المحدد للحد ادنى للبنوك والمؤسسات المالية
لنظام رقم 04/02 المتعلق بشروط تكوين احتياطي والنظام رقم 04/03 المتعلق بنظام ضمأن الودائع المصرفية
القانون رقم 01/08 المؤرخ في 21 فيفري 2008 المتعلق بجهاز النوعية لمكافحة عملية اصدار الصكوك بدون رصيد
والقانون رقم 04/08 المتعلق بالحد الأدنى لرأسمال البنوك والمؤسسات المالية. بينما تميزت سنة 2009
النظام رقم11-03 المؤرخ في 24ماي2011 المتضمن مراقبة المخاطر مابينالبنوك .
النظام رقم 11-04 المؤرخ في 24ماي2011 المتعلق بتعريف وقياس وتسيير ومراقبة خطر السيولة بالبنوك ،
النظام رقم 11-08 المؤرخ في 28نوفمبر2011 المتعلق بالرقابة الداخلية بين البنوك والمؤسسات المالية .
النظام رقم 14-01 المؤرخ في 16فيفري 2014 المتضمن لنسبة الملائمة بين البنوك والمؤسسات المالية
نظام رقم 04-03 المؤرخ في 4مارس2004 المتعلق بنظام ضمأن الودائع المصرفية
النظام رقم 13-01المؤرخ في 8ابريل2013 المتعلق بتحديد القواعد العامة المتعلقة بالشروط البنكية المطبقة على العمليات المصرفية
النظام رقم 11-08 المؤرخ في 28 نوفمبر 2011 المتعلق بالرقابة الداخلية للبنوك والمؤسسات المالية

النظام 18-02 المؤرخ في 4 نوفمبر 2018 المتضمن قواعد ممارسة الصيرفة الإسلامية التشاركية من قبل المصارف و المؤسسات المالية
المجلات والجرائد
مجلة اتحاد المصارف العربية ،العدد 459،فبراير2019
العربي الجديد ، جريدة عربية ، الجزائر تفتح الباب لإطلاق البنوك خدمات إسلامية ، 6نوفمبر 2018
الوسط الجزائرية ، جريدة جزائرية ، ثلاث بنوك تتبنى الصيرفة الإسلامية ، 20 تشرين2017
جريدة الجزائر اليوم الالكترونية ، 24ماي2018

اللغة العربية في الجزائر بين أسئلة الهوية ورهانات الانفتاح

أ.د خليفة قرطي ، كلية الآداب واللغات ، جامعة البليدة2 - الجزائر

الواقع اللغوي في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي :

كان تسود الجزائر ،غداة الاحتلال الفرنسي لها العام 1830 ، لغتان اثنتان هما اللغة العربية بلهجاتها المختلفة ،وكانت هي اللغة الطاغية التي يتكلمها معظم الجزائريين واللغة الأمازيغية أو البربرية بلهجاتها المختلفة أيضا من أمازيغة القبائل الكبرى والقبائل الصغرى إلى الشاوية و المزابية والترقية ، وكانت العربيةهي اللغة الجامعة التي يتواصل بها كل الجزائريين عربا و أمازيغ ،في الوقت الذي لم تتمكن اللغة التركية من أن تجد لها موطئ قدم في الثقافة المحلية والأوساط الشعبية على الرغم من بقاء الأتراك أكثر من ثلاثة قرون بالجزائر.

كانت العربية هي لغة التعليم في الجزائر ، ولم يكن التعليم آنذاك يتجاوز البرامج الدينية التقليدية ، حيث كانت تنتشر في كل بقاع الجزائر المدارس القرآنية والتي كانت الواحدة منها تعرف في اللغة المحلية العاصمية تحديدا بـ "المسيد " ، وهو تعريب للفظة الاسبانية masjid أو المسجد ،وكانت الغالبية العظمى من سكان الجزائر متعلمة بفضل هذه المدارس ما جعل نسبة الأمية قليلة جداوهو ما جاء في شهادة الجنرال الفرنسي فاليري العام 1834 "إن كل العرب الجزائريين تقريبا يعرفون القراءة والكتابة " (أبو القاسم سعد الله 1998) . وكانت هذه المدارس منتشرة في كل المدن والقرى ، في المناطق ذات الحضور العربي والأمازيغي على حد سواء ، بل إن بعض المدارس التي أنشئت في المناطق البربرية كانت أكثر شهرة من كثير غيرها مما أنشئ في المناطق ذات الأغلبية العربية. كما وجد الكثير من المدارس الخاصة بمختلف العلوم غير الدينية.

ويعترف الكثير من التقارير الفرنسية التي كتبها المعمرون الأوائل وقادة الجيوش بهذه الوقائع " ولقد أحصيت هذه المدارس سنة 1830 أكثر من ألفي مدرسة ما بين ابتدائية وثانوية وعالية منها ثمانون بالعاصمة "(عبد الرحمن الجيلالي 2007)، و لعبت هذه المؤسسات التعليمية الدينية دورا كبيرا في تجنيد السكان لمقاومة الجيوش الغازية و لا أدل على ذلك من المقاومة التي انطلقت من الغرب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري الذي كان من أسرة متشبعة بالثقافة الدينية ، " فهو ابن الشريف محي الدين ، شيخ الطريقة القادرية ،شريف هاشمي ،حج بيت الله الحرام سنة1827 وصحبه ابنه عبد القادر الذي أعجب بما حققه محمد علي بمصر وبايع رؤساء القبائل عبد القادر تحت شجرة الدردارة ..في 1832/11/27م"(عثمان سعدي 2011).

كما كانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة المستخدمة في القضاء الذي كان كذلك قضاء دينيا تقليديا يستمد تشريعاته من النصوص الدينية والأعراف وفقا لما ظل متوارثا منذ قرون من الزمن ، وظل القضاء يتمتع باستقلالية تامة عن الإدارات المتعاقبة التي حكمت الجزائر إبان الفترة التركية ، مع وجود بعض أشكال التنظيم المحلية بالنظر إلى الطابع القبلي الذي كان يميز المجتمع وتعدد الأعراف التي كانت تحكم مختلف الجهات ، ففضلا عن المحاكم الشرعية التي كانت منتشرة في معظم المدن ، كانت الساكنة في منطقتي القبائل

وبني ميزاب البربريتين تلجأ إلى ما يعرف بـ "تاجمعات " باللغة الأمازيغية والتي تعني الجماعة ، إذ كان مجلس متكون من أعيان البلدة هو الذي يتولى القضاء بين الناس فس غياب لإدارة أو المحاكم الرسمية ، ولا تزال هذه التقاليد سارية إلى اليوم في كثير من المناطق ذات الغالبية الأمازيغية.

وعلى الرغم من قلتها وصعوبة الاحتفاظ بها مكتوبة أو شفوية ، فإن الآثار الثقافية المختلفة كانت باللغة العربية أيضا ، فقد عرفت الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي حركة ثقافية عزاها التدوين ثم ما فرض على البلد من عزلة عن سائر الأقطار العربية الأمر الذي طمس الكثير من الآثار الثقافية والفنية ولم تصل إلى الأجيال اللاحقة ، وكان الشعر المجال المثالي الذي يبرز تلك الحركية الثقافية والفكرية والأدبية التي عرفتها الجزائر آنذاك " و إذا كان القرن التاسع عشر على امتداده الطويل لم يعرف إلا شاعرا فحلا واحدا في الجزائر هو الأمير عبد القادر ، فإن مطالع القرن العشرين بدأت تشي بوجود مجموعة من الشعراء.."(عبد المالك مرتاض 2007).

وفضلا عن الشعر الفصيح انتشر في الأوساط الشعبية ما يعرف بالشعر الشعبي ، وهو تلك القصائد التي ألفها شعراء كبار باللهجات المحلية العربية من أمثال مصطفى بن براهيم والشيخ السماتي ومحمد بن قيطون ، وكلهم يعدون من فطاحلة الشعر الشعبي الجزائري. وفي الكتابة النثرية يمكن الحديث عن الكاتب والمؤرخ حمدان خوجة صاحب كتاب " المرآة " الذي يعد من المراجع العربية الجزائرية الأولى التي أرخت لتاريخ الاستعمار الفرنسي الجزائري من وجهة نظر جزائرية." كما أسهم علماء الجزائر في هذه الحركة الثقافية " فألفوا الكتب في الفروع الفقهية...ووضعوا المتون والشروح على ذلك ، وفيهم من وضع تفسير القرآن ، وفيهم من ملأ الدواوين شعرا ، وفيهم من اختصر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني كما فعل أحمد بن علي بن سحنون صاحب كتاب " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني "(عبد الرحمن الجيلالي 2007).

أما اللغة الأمازيغية فقد اقتصر حضورها في المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة وما قبلها على الاستعمال الشفوي ، إذ لم يستطع الناطقون بها نقلها إلى مستوى التدوين بالنظر إلى عاملين:

1 – غياب أبجدية واضحة وموحدة يمكن اعتمادها في الكتابة.

2- هيمنة اللغة العربية حتى في الأوساط الأمازيغية وعلاقة هذه اللغة بالجانب الديني الذي كان القاسم المشترك الذي يوحد بين العرب والبربر.

ومع ذلك فقد عاش أفراد المجتمع الجزائري بمختلف مكوناته اللغوية والدينية في كنف الاحترام المتبادل وساد التعايش لقرون طويلة ، حتى مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود الذين كانوا جزء من المجتمع يمارسون شعائرهم الدينية وتقاليدهم بحرية تامة ، ولم يكن ثمة أي عامل كان بإمكانه أن يثير التنافر بين هذه المكونات ، ومن ثم فإن مسألة الصراع اللغوي بين العرب و البربر لم تكن مطروحة أصلا ، خاصة وأنه حدث انصهار بين العرقين عبر المصاهرة الممتدة على مدى ثلاثة عشر قرنا ، وقد برز من البربر علماء اتخذوا اللغة العربية وسيلتهم الوحيدة للبحث والتأليف ، حتى لم يعد بالإمكان التمييز بين من هو بربري أمازيغي ومن هو عربي.

ومن أعلام الأمازيغ المشهورين الذين خلدت أسماؤهم في تاريخ الأدب الشعبي الجزائري الشاعر سي محند أومحند صاحب الروائع الشعرية العظيمة التي تتغنى بأصالة سكان المنطقة وتضحياتهم في الذود عن حماهم من جحافل الغزاة التي تعاقبت عليهم عبر قرون من التاريخ ، حيث قاوموا الرومان والوندال والبيزنطيين ،

وحتى العرب الأوائل الذين قدموا من المشرق في ما يعرف بالفتوحات الإسلامية أوائل القرن الهجري الأول. فضلا عن أدباء آخرين وعلماء في الفقه واللغة والدين وجدوا في العربية وسيلة تعبيرهم الوحيدة لأنها كانت لغة التعليم والتعلم إلى ذلك الوقت.

الاستعمار الفرنسي في الجزائر و بداية الهيمنة الثقافية: كان الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830-1962) ذا طابع استيطاني يهدف إلى احتلال الأرض والبقاء فيها عبر القضاء على أصحابها الأصليين وإحلال الأوربيين محلهم ، وهو ما تكرس منذ السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي ، حيث تم الاستيلاء على الأراضي الزراعية والخيرات والأوقاف الدينية ومنحها للأوربيين الذين وفدوا مع الحملات العسكرية المتعاقبة على الجزائر و " اتخذت فرنسا أساليب لا أخلاقية وغريبة لإدارة الجزائر واستغلال ثرواتها وبخاصة الزراعية منها ...واستمرت سياسة سرقة الأرض حتى في عهد الإمبراطورية الثانية...فقد خرجت السلطات برأي مفاده أن القبائل لا تزرع كل الأراضي التي تزعم أنها تملكها ،وليس لها عقود ملكية ، ولهذا فقد تم الاستيلاء على هذه الأراضي بزعم أنها غير مستغلة "(عثمان سعدي 2011).

غير أن الأخطر في سياسة الاستعمار الفرنسي كان استهداف الجانب الثقافي للجزائريين من خلال محاربة المقومات الثقافية ومنها اللغة العربية ، حيث عمدت السلطات الاستعمارية إلى جملة من الإجراءات كانت الغاية منها استبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية التي كانت تتكلمها أقلية من الكولون الفرنسيين الوافدين ، إذ " طالبت عدة تقارير فرنسية ، كتقرير بيدو سنة 1847 ، وتقرير بارو سنة 1849 ،وتقرير سنة 1851 الذي طالب بضرورة الشروع في تكوين جيل جديد من الجزائريين في مدارس فرنسية ، لم يحضر الغزو والمقاومة ، وإنما نشأ في عهد الاحتلال وفتح عينية على الجزائر الفرنسية"(عثمان سعدي 2011).

ويبدو أن توجه السياسة الاستعمارية إلى تعليم أبناء الجزائريين في المدارس الفرنسية كانت الغاية منه سلخهم عن لغتهم الأصلية وثقافتهم العربية الإسلامية ، والشروع في عملية فرنسة شاملة لا تستثني الإنسان أيضا بعدما شملت كثيرا من مجالات الحياة الأخرى ، إذ بدأ الاستعمار " يفتح أبواب مدارسه في وجه أبناء الجزائر ، لكن التعليم كان فرنسيا بحتا...أما اللغة العربية فكانت في المدارس الثانوية لغة اختيارية كأنها لغة أجنبية في بلادها"(محمد الطمار 2006).

وكانت تلك البداية الفعلية لظهور طلائع الجزائريين ذوي التوجهات الفرنكفونية الذين يناصرون اللغة والثقافة الفرنسية ويعتزون بالانتماء إليها بوصفها هويتها الجديدة ، ليظهروا لاحقا في صورة كتاب صحف وأدباء وسياسيين ورجال إدارة و قادة عسكريين. وكان اعتماد الاستعمار الفرنسي على هذه الفئة كبيرا إلى درجة أن المنتمين إليها حظيوا بمكانة خاصة لدى السلطات الاستعمارية ، وكانوا أداتها في التعامل مع بقية السكان الذين لم يشاؤوا الانخراط في هذا التوجه وظلوا محتفظين بهويتهم الثقافية الأصلية.

وفضلا عن التعليم انتهجت السلطات الاستعمارية سياسة فرنسة الإدارة والحالة المدنية ، إذ أعيد تسمية العائلات الجزائرية و إطلاق ألقاب جديدة عليها لم تكن معروفة من قبل ، ألقاب بعضها معيب ومشين من قبيل بومعزة ، بوبقرة ، بوبغلة ، الأعور ، الأعوج ، قتال ، فلاق وغيرها ، وكانت الغاية من ذلك العمل على طمس الجذور والروابط العائلية بين الجزائريين والتفريق بين أفراد العائلات الكبرى ذوات الأعداد الهائلة التي تشكل قبيلة أو عشيرة. وهكذا أمكن التفريق بين الأخوين في عائلة واحدة بمنح كل منهما لقبا خاصا به يحمله

أبناؤه من بعده ،والنتيجة هي وجود أجيال من الأحفاد من لقبين مختلفين لا يؤمن الواحد منهم بالقرابة بينه وبين الآخر ، ابن عمه ، وكان لهذه الاستراتيجية غاية أخرى هي تفتيت الملكيات و وضع العراقيل الإدارية للمطالبة بالمواريث.

وتفيد الأبحاث المعمقة والمستندة إلى وثائق رسمية حكومية فرنسية صادرة في القرن التاسع عشر أن السلطات الاستعمارية الفرنسية عملت على " إنشاء مؤسسة الحالة المدنية المنبثقة عن القانون المدني الفرنسي ابتداء من سنة 1858 لتتضح معالمها بصفة رسمية ومقننة سنة 1882 بفرض قانون إقامة الأحوال النسبية الذي ألزم سكان التل الجزائري بحمل ألقاب عائلية " (يسمينة زمولي 2005). وهو ما يعني حمل الجزائريين على التخلي عن نظام الاسم الثلاثي لتحديد هوية الشخص الذي كان سائدا قبل هذا التاريخ ،كما هو سائد في بعض البلاد العربية إلى اليوم. وتحقق بذلك للإدارة الفرنسية إحداث شرخ في الأنساب وطمس جذور الهوية النسبية بالقدر نفسه الذي طمست به معالم أخرى من الهوية الثقافية واللغوية.

وكانت الصحافة أداة أخرى استخدمها الاستعمار الفرنسي لإحداث المزيد من الهزات والخلخلة في البنية الاجتماعية والثقافية للجزائريين ،كان ذلك بتنويع أساليب المخاطبة عبر اللعب على الوتر الديني والجهوي ومحاولة ترسيخ خطاب تمييزي بين ما هو محلي بأبعاده الثلاثة: العربي و الإسلامي و الأمازيغي زما هو فرنسي غربي أرويي ، أو بمحاولة إحداث الشرخ بين ما هو عربي وما هو أمازيغي من لغة وتاريخ وعادات وفلكلور.

وكانت الصحافة في العهد الاستعماري قسمين: "صحافة أنشأها الاستعمار بلغته لتكريس وجوده الاستعماري ...وصحف أصدرها الاستعمار الفرنسي باللغة العربية أو صفحات باللغة العربية أو الدارجة أقحمها في صحف فرنسية ...لأغراض سياسية أو دينية أو تجارية " (عبد العالي رزاقي – المجلس الأعلى للغة العربية 2010). وفضلا عن الكتاب ذوي الأصول الفرنسية أو الأوربية ، فتحت هذه الصحف صفحاتها لأقلام جزائريين ممن تكونوا في مدارسها وتشبعوا بثقافتها ، أما مساحات اللغة العربية التي كانت تخصصها في صحفها الفرنسية فكانت تستغل لاستمالة أولئك الجزائريين الذين لم يقتنعوا بالطروحات الاستعمارية والتأثير في الرأي العام العربي الذي لم يتح له دخول المدارس الفرنسية برغبته أو بفعل سياسة الإقصاء ،ذلك لأنه لم يكن بوسع كل طبقات المجتمع الجزائري أن ترسل أبناءها للتعلم في المدارس الفرنسية.

وفي خضم هذا المناخ الثقافي الطارئ على المجتمع الجزائري والذي تأسس على خلفية استيطانية حلولية ، نشأت حركة أدبية في الفترة الكلونيالية أعلامها من أولئك الكتاب الفرنسيين وغير الفرنسيين الذين وفدوا إلى الجزائر من أرويا في ثوب المعمرين أو أصحاب الأرض الجدد ، وحملوا معهم قيمهم الاجتماعية وإرثهم الثقافي والتاريخي والحضاري فظهر جيل من الأدباء الكلونياليين الذين استلهموا مادتهم الإبداعية من البيئة الجزائرية بشكل عكس الافتتان بسحر طبيعة الجنوب وعادات أهله تارة وبشكل من يذم مجتمعا و أمة بكاملها منتقصا من قيمها وتاريخها وثقافتها. وقد أفرزت هذه الحقبة كتابا عالميين عاشوا في الجزائر وكتبوا باللغة الفرنسية من أمثال ألبير كامو وفرديناند ديشان ، ولويز لوكوك ، ووروبير روندو ، وجون فورساديت ، ولوسيان فافر وغيرهم.

وبالموازاة ظهرت نخبة من الكتاب ذوي الأصول الجزائرية الذين اختاروا الفرنسية لغة للكتابة ، وهم من خريجي المدارس الفرنسية من أمثال محمد بن أحمد بن شريف وطاوس عمروش وعبد القادر حاج حمو وشكري خوجة ثم كاتب ياسين ومولود فرعون ومولود معمري ومحمد ديب وغيرهم. وقد حاول بعض هؤلاء

أن يعكسوا في كتاباتهم واقع الإنسان الجزائري في ظل الهيمنة الاستعمارية وما كان يعانيه هناك في القرى و الأرياف من فقر وجوع وعري واضطهاد ،وهو ما فعله على وجه التحديد الكاتب مولود فرعون في رواياته المختلفة سيما الدروب الوعرة وابن الفقير والأرض والدم.

و بالمقابل فإن الصحافة والأدب باللغة العربية إلى مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية لم يكونا على نفس الدرجة من القوة والحضور بالنظر إلى القيود المفروضة على النشر باللغة العربية والدفع بمثقفي هذه اللغة إلى الصمت أو الهجرة إلى بلاد المشرق العربي ، كما شددت السلطات الاستعمارية المراقبة على الصحف والكتب العربية الوافدة من البلدان العربية الأخرى ، ولم تكن تلك المواد تدخل الجزائر إلا مهربة في مناسبات معينة يمكن الإفلات فيها من قبضة المراقبة.

النخبة العربية في الجزائر والمقاومة الثقافية

عرفت كل المقاومات المسلحة التي خاضها الجزائريون ضد الاحتلال الفرنسي منذ سنة الاحتلال (1830) أفقا مسدودا مع مطلع القرن العشرين وانتهت إما بالقضاء على زعمائها أو نفيهم إلى خارج الجزائر ، مع نهاية الحرب العالمية الثانية باشرت النخبة العربية في الجزائر شكلين من المقاومة هما المقاومة السياسية بظهور زعماء سياسيين ناضلوا من أجل الحقوق المشروعة للجزائريين من أمثال الأمير خالد الجزائري و مصالي الحاج ، والمقاومة الثقافية التي أخذت مظاهر شتى أثمر بعضها تكوين جيل جديد يبقي على صلته بأصوله التاريخية والثقافية واللغوية. ويمكن أن نحصر هذه المظاهر في الجمعيات الدينية ومدارس التعليم والصحف والأدب.

لقد أدركت النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة عربية أهمية التوجه نحو إنشاء الجمعيات والنوادي الثقافية والاجتماعية بغية استقطاب ما أمكن من الشباب الجزائري وتكوينه لإعداده إعدادا علميا وثقافيا ، وكان من أشهر هذه الجمعيات التي سمحت السلطات الاستعمارية بتأسيسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ظهرت العام 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس ومساعديه الشيخين البشير الابراهيمي والطيبي العقبي ، و " يعترف المؤرخون الفرنسيون بفضل جمعية العلماء ، إذ كتب جوزيف ديبارميه Joseph Deparmy سنة 1932 "" إن أهداف جمعية العلماء فهم لغة القرآن ، والرجوع إلى الثقافة الإسلامية السالفة ، وجعل المغرب العربي قلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب "(عثمان سعدي 2011).

وإذا كانت التسمية تحيل على البعد الديني لهذه الجمعية فإن نشاطها كان يتجاوز هذا الإطار ليشمل العمل الخيري والتكافل الاجتماعي وحتى النشاط الرياضي الذي كانت الجمعية توليه أهمية قصوى لا تقل عن الأهمية التي كانت توليها إلى التعليم والتثقيف ، وتمكنت في ظرف وجيز من إنشاء فروع لها في معظم مناطق الجزائر وفتحت نوادي ثقافية أشهرها نادي الترقي بالجزائر العاصمة الذي كان ملتقى المناضلين السياسيين والمثقفين الجزائريين بغض النظر عن لغة ثقافتهم.

كانت الوظيفة الأساسية لهذه الجمعية ، هي الدفاع عن عناصر هوية المجتمع الجزائري ومواجهة سياسات الفرنسة التي كانت السلطات الاستعمارية قد شرعت فيها منذ احتلالها الجزائر ، واستخدمت في سبيل تحقيق ذلك وسائل مختلفة كان أبرزها التوعية المباشرة في المساجد وإنشاء " المدارس الحرة بمجهوداتها الضئيلة "(محمد الطمار 2006) ، وإنشاء الصحف ذات اللسان العربي.

اتخذ رئيس هذه الجمعية الإمام عبد الحميد بن باديس من الجامع الأخضر بقسنطيقة منطلقا لحملته التوعوية ، وذلك بإلقاء دروس على الناس تتضمن دعوة إلى التسلح بالعلم وما يتصل بشؤون الحياة ، فضلا عن القضايا الأخرى التي لها صلة بالدين. أما المدارس الحرة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فانتشرت في كثير من المدن الكبرى والصغرى ، وفي مختلف جهات البلاد ،بل أنها تمكنت من إنشاء أكثر من مدرسة واحدة في المدينة الواحدة ، كما هو الشأن في مدينة تلمسان بالغرب الجزائري ،إذ لم تكتف بإنشاء دار الحديث ،وهي أول مدرسة حرة أنشأتها الجمعية بهذه المدينة ، و إنما فتحت مدارس أخرى في كل من الرمشي وأولاد ميمون وندرومة والحناية (جمال الدين دحماني —مقال—ب ت).وهي مدن صغيرة تابعة للولاية.

واستقطبت هذه المدارس التي كانت تنفق عليها الجمعية من تبرعات المواطنين ، الآلاف من الجزائريين الذين تخرجوا منها و أصبحوا ، فيما بعد نواة تأسيس المدرسة الجزائرية العربية بعد الاستقلال. ولم يقتصر التعليم في هذه المدارس على الفتيان فقط بل كان للفتيات حظهن من التعليم ،والهدف من ذلك كان واضحا وهو إعداد المرأة الجزائرية لتقوم بدورها في الأسرة والمجتمع ، وكانت العربية هي لغة التدريس في مدارس الجمعية ، وشمل الأمر مختلف المواد اللغوية والأدبية والعلمية.

وقد أدرك الاتجاه الوطني في الجزائر ، بقطبيه: الإسلامي وغير الإسلامي أهمية الإعلام في كسب معركة الوعي والتصدي للهيمنة الثقافية الاستعمارية ، ومن أجل ذلك أنشئت كثير من الصحف الناطقة باللسان العربي ابتداء من العقد الثاني من القرن العشرين ، وكان ذلك في خضم النهضة السياسية والثقافية والاجتماعية التي عرفتها النخبة الجزائرية بعد أن آلت المقاومة المسلحة التي شهدتها بعض المناطق إلى الإخفاق.ويمكن التمييز هنا بين تيارين اثنين أفرزهما المسار التحرري الجزائري وهما التيار الوطني بزعامة مصالي الحاج والذي تجسدت نضالاته السياسية والثقافية من خلال جزب نجم شمال إفريقيا (1926) وحزب الشعب الجزائري (1937).

وبالإضافة إلى بعض الصحف الجزائرية التي كانت تصدر باللغة الفرنسية ، فإن التيار العروبي قاوم لإصدار صحف باللغة العربية على الرغم من إجراءات المنع والمضايقات التي كانت تلقاها على أيدي السلطات الاستعمارية ، وكان معظم هذه الصحف يصدر عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن أشهرها صحيفتا "الشهاب " و "البصائر" التي كانت لسان حال الجمعية ، ولم تخرج خطاباتها ومضامينها عن الأطر الإصلاحية والتربوية و الثقافية ، مع قليل من الإشارات السياسية. وبالإضافة إلى ذلك ، كان لها دور بارز في المحافظة على اللغة العربية ،حيث كانت النخبة المعربة تتخذ منها منابر لطرح الأفكار ، ووجد بعض المبدعين باللغة العربية من شعراء وكتاب غايتهم ، إذ كان لها الفضل في بروز العديد من الأسماء الشعرية والقصصية و الأقلام الثقافية والفكرية (محمد الأمين العامودي ، رضا حوحو ، البشير الابراهيمي ، أحمد توفيق المدني ، مبارك المنيلي ، العربي التبسي ، محمد العيد آل خليفة ، مفدي زكريا وغيرهم).

وتعزز موقع اللغة العربية في الجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية ببروز جيل أخر من الأدباء منذ الخمسينيات ،كان معظمهم مقيما بتونس ، أو يتردد عليها باستمرار ، وفي هذه الفترة ، التي شهدت اندلاع الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر 1954 ، ظهر الرعيل الأول من كتاب الرواية العربية في الجزائر الذي سيكون له فضل السبق والتأسيس في مرحلة الاستقلال ،و أعني تحديدا الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة.

غير أن هيمنة اللغة الفرنسية على المجتمع والثقافة والحياة اليومية في الجزائر لم يمكن هذه الأقلام التي اختارت الكتابة باللغة العربية من تكون لها مكانتها لدى القراء والمتلقين الجزائريين ، وتم ،بالمقابل تشجيع كتاب جزائريين آخرين اختاروا الفرنسية لغة للكتابة ، إذ وجدوا السبيل ممهدا أمامهم من حيث الطباعة والتوزيع والنقد والقراءة ، ومن أولئك كاتب ياسين ومولود معمري ومولود فرعون .صحيح أم كتبات هؤلاء كانت تتناول واقع المجتمع الجزائري والبيئة الجزائرية وهموم الإنسان الجزائري غير أن اللسان الذي كتبت به كان يتناقض تماما مع النية السوسيو ثقافية لهذا المجتمع ، ومن ثم وجد هؤلاء أنفسهم يخاطبون القارئ الفرنسي غير المهتم أصلا بقضايا الإنسان الجزائري والقلة القليلة من النخبة الجزائرية التي كانت تتقن الفرنسية.

وفي خضم ثورة التحرير الجزائرية ، كان لزاما إيجاد إعلام آخر يمكنه إيصال رسالة الثوار إلى الشعب ، فكان ميلاد الإذاعة الجزائرية الناطقة بالعربية التي عرفت " بإذاعة صوت الجزائر" التي تأسست سنة 1956 والتي كانت تعرف بالإذاعة السرية الجزائرية.وكان لها دور فاعل في المقاومة وتوعية الشعب و إعلامه بأحداث الثورة الجزائرية.

الصراع اللغوي ما بعد الاستقلال

لم تتمكن الجزائر من تحقيق استقلالها الكامل بعد جلاء المعمرين الفرنسيين عنها بعد الخامس من يوليو 1962 ،فقد استمرت مظاهر الاستعمار الفرنسي في مجالات مختلفة ، خاصة في القطاعات الحيوية التي لها علاقة مباشرة بالحياة اليومية للمواطن الجزائري ، "حيث أضحت الفرنسية أداة لسيطرة النخبة المتقنة لها وعنصرا طبقيا ذا قيمة اقتصادية تتولى الأعمال المهمة " (عابد محمد بوهادي 2014). ولعل أبرز ما يمكن الإشارة إليه هنا هو الجهاز الإداري الذي استمر على النحو الذي كان موجودا طوال الفترة الاستعمارية ،ولا تزال الجزائر إلى اليوم تسير بالنمط الإداري الموروث من الحقبة الكولونيالية ، ويتجلى ذلك في المظاهر التالية:

-الاستمرار على نفس النهج الفرنسي في الحالة المدنية ، حيث ظلت الوثائق تصدر باللغة الفرنسية في كل القطاعات حتى سبعينيات القرن الماضي ، وهو الأمر نفسه في الوثائق التي تصدرها الجهات القضائية ، وغيرها.

-الاستمرار على نفس النهج في قطاع التعليم بمراحله المختلفة ، فباستثناء التعليم الابتدائي الذي شرع في تعريبه تعريبا جزئيا ، فإن التعليم الجامعي ظل يعتمد اللغة الفرنسية لغة تدريس حتى يومنا هذا ، خاصة في العلوم الدقيقة.

-لم يتخلص قطاع الثقافة والإبداع من هيمنة اللغة الفرنسية ، على الرغم من محاولات التعريب التي طالت بعض أفرعه ، إلا أنها لم تمتد إلى فروع حيوية كالسينما مثلا.

وأمام هذه الوضعية ، وضمن التوجهات الوطنية في مرحلة ما بعد الاستقلال التي كانت تستهدف التخلص من الإرث الاستعماري واستكمال الاستقلال الوطني في بعده اللغوي و الثقافي ، انتهجت السلطات السياسية مباشرة بعد الاستقلال سياسة التعريب التي شرع في تطبيقها والتي بدأت تؤتي ثمارها شيئا فشيئا.وقد شملت هذه السياسة قطاعي الإعلام والتعليم في المراحل الأولى ثم تبعتهما قطاعات أخرى.

غير أن التوجه نحو التعريب قوبل بردود فعل رافضة من قبل الأوساط المؤيدة لاستمرار اللغة الفرنسية ، حيث " ظهر صراع حاد في الندوة الوطنية للتعريب سنة 1975 ، حيث صرح فيها الرئيس بومدين وقتها

بوجوب ربط التعريب بالتصنيع و أن اللغة العربية لا بد أن تصبح في المستقبل لغة الحديد والصلب والبيتروكيمياء"(عابد محمد بوهادي 2014).

اعتبرت السلطة السياسية الجديدة أن البدء بتعريب المدرسة أولوية قبل القطاعات الأخرى ،ومن أجل ذلك تم انتهاج سياسة استقدام المدرسين المتعاونين من مختلف البلاد العربية ، خاصة من مصر وسوريا والعراق وفلسطين ، وفضلا عن تدريس هؤلاء المتعاونين اللغة العربية والمساهمة في إعداد البرامج التربوية في مختلف المراحل ، تم الاعتماد عليهم في تعريب بعض المواد العلمية كالرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية.

وقد نجحت هذه السياسة في رسم معالم توجه جديد في مسار التعليم بالجزائر في مرحلة ما بعد الاستقلال أريد له أن يكون بديلا عن التعليم باللغة الفرنسية الذي ظل قائما حتى عقد السبعينيات من القرن الماضي ، حيث كان ثمة مساران لتعليم المواد العلمية في المراحل المتوسطة والثانوية: مسار عربي ومسار فرنسي ،سارا جنبا إلى جنب إلى أن تم الاستغناء عن المسار الفرنسي في الثمانينيات وعمم التعليم باللغة العربية لتبقى الفرنسية لغة أجنبية تدرس كسائر اللغات الأجنبية الأخرى ومنها اللغة الانجليزية ، وهو مسار استمر على امتداد العقد الموالي والعقد الأول من هذا القرن قبل أن يتم التراجع عنه نسيبيا بالعودة ، و إن في صورة محتشمة ، إلى فرض اللغة الفرنسية في تعليم المواد العلمية.

وكان من ثمرة التوجه إلى تعريب التعليم في إطار ما يعرف بالمدرسة الأساسية ، تخرج عشرات الآلاف من الإطارات الجزائرية في مختلف التخصصات والتي تحتل حاليا مناصبها في أجهزة الدولة المختلفة. غير أن البعض يشكو من تواضع مستوى هذه الإطارات وافتقارها للكفاءة العلمية اللازمة ، ويصدر ذلك من خصوم المدرسة الأساسية المعربة كليا الذين يعزون الأمر إلى قصور في لغة التدريس وافتقار المدرسين الأكفاء المكونين تكوينا علميا.

والواقع أن أصحاب هذه الادعاءات ليسوا بعيدين عن الدوائر المعادية لسياسة التعريب في الجزائر ، وهم من غلاة التوجه الفرانكفوني أو الحركة البربرية الصاعدة التي بدأت تشن حملات ضد التوجهات العربية في الجزائر في مختلف المجالات وتدعو إلى الاعتراف بما يسمى الهوية الأمازيغية والثقافة البربرية ،ومعظم المنتسبين إلى هذه الحركات يتلقون الدعم الخارجي لا سيما من فرنسا.

وبالمقابل فإن التيار المؤيد لمسار التعريب بدأ يتقوى مستفيدا من عدة عوامل موضوعية أبرزها:

-تنامي عدد الجزائريين المتعلمين باللغة العربية وانحسار عدد المتكلمين بالفرنسية مع مرور الوقت إما بفعل (انقراضهم) التدريجي أو بتراجع مستوى تأثيرهم.

-ظهور منابر موازية باللغة العربية كوسائل الإعلام ،خاصة الصحف والمجلات ،والتي أسهمت في تكريس العربية لغة لشريحة واسعة من الجزائريين.

-تعريب بعض القطاعات الأخرى كقطاع العدالة وما يلحق به ،وقطاع الإدارة ،بما فيه وثائق الحالة المدنية ،باستثناء بعض الدوائر التي لا تزال مفرنسة إلى يومنا هذا.

-توطد العلاقة بين الجزائر وبعض الدول العربية لاسيما مصر وسوريا والعراق في مختلف المجالات وتحديدا التعليمية والثقافية.

ولقد امتد تعريب التعليم ليشمل بعض التخصصات الجامعية مع نهاية سبعينيات القرن الماضي ، كالعلوم الإنسانية والاجتماعية على الرغم من حالة الضعف التي تشوب مستوى التكوين باللغة العربية التي تعزى بعض أسبابها إلى " الازدواجية والثنائية اللغوية اللتين تنخران مسار هذه اللغة وتجعلانها على حافة التهميش والركود " (صالح بلعيد 2013) ،حيث لم يعد اليوم حضور للفرنسية لغة تدريس في هذه الحقول المعرفية ، مع تعريب كامل للوثائق الإدارية الصادرة عن المؤسسات الجامعية.غير أن التخصصات العلمية لا تزال تعتمد الفرنسية لغة التعليم الوحيدة وترفض السير على نهج تخصصات العلوم الإنسانية ، إذ لا يزال الطب والصيدلة والبيطرة والكيمياء والطيران والميكانيكا والإعلام الآلي وغيرها تدرس باللغة الفرنسية ، ولم تبد السلطات المتعاقبة منذ الاستقلال إرادة في تعريب هذه العلوم .

ويطرح الأمر ههنا من زاويتين على الأقل :

-انعدام المكونين من أساتذة ومؤطرين الذين بإمكانهم تدريس هذه العلوم باللغة العربية.

-إشكالات تعريب المصطلح العلمي وغياب المتخصصين مزدوجي اللغة القادرين على تعريب المواد العلمية.

والواقع أن ثمة انفصاما واضحا في تدريس هذه العلوم ، إذ يتلقى الطالب المنتسب إليها معرفه في المراحل السابقة (الإعدادية والثانوية) باللغة العربية ثم يجد نفسه فجأة مجبرا على تعلمها باللغة الفرنسية من غير أن يتمتع بالمستوى اللغوي الذي يمكنه من استيعاب ما يدرس ، ومن أجل ذلك يقضي وقتا لا بأس به في تقوية معارفة باللغة الفرنسية.

كما أن ثمة هوة كبيرة في لغة مخاطبة المجتمع ، حيث لا يحسن من يتخرجون من الجامعات في هذه التخصصات من مخاطبة فئات المجتمع المختلفة التي تجهل غالبيتها الساحقة هذه اللغة ونم ثم ليست قادرة على استيعاب المصطلحات العلمية ،وفي الوقت نفسه يعجز الطبيب أو الصيدلي أو المهندس إيصال المعلومة الدقيقة إلى الأشخاص الذين يتحدث إليهم والذين ينتمون إلى الفئات العامة من الشعب التي لا تحسن اللغة الفرنسية استماعا أو قراءة أو كتابة.

وثمة محاولات تعريب أخرى قامت بها السلطات السياسية في قطاع الإعلام ، إذ وفي وقت مبكر تم إنشاء صحيفة ناطقة باللغة العربية ، هي صحيفة الشعب الصادرة في شهر ديسمبر من العام 1962 ، والتي كانت ولا نزال لسان حال السلطة الحاكمة. ولقد جاء إنشاء هذه الصحيفة في مسعى لمخاطبة الرأي العام الوطني باللغة العربية ، بعدما ظلت الفرنسية لغة الصحافة لأزيد من قرن وثلاثين عاما. وفضلا عن البعد السياسي في إنشاء هذه الجريدة لم يخف البعد القومي ،إذ جاءت في سياق انفتاح الجزائر على العالم العربي في ستينيات القرن الماضي ، في ظل التقارب الواضح بين سلطات مرحلة ما بعد الاستقلال وبعض الأنظمة العربية المعروفة آنذاك بتوجهاتها القومية ، كالحركة القومية في مصر بزعامة جمال عبد الناصر ، والحركة القومية في كل من سوريا والعراق بزعامة حزب البعث الاشتراكي.

واتبعت صحيفة " الشعب " بصحيفتي " الجمهورية " بغرب البلاد و " النصر " بشرقها في إطار ما كان يعرف باللامركزية والتوازن الجهوي الذي طال الإعلام كما أريد له أن يطال مجالات أخرى كالإدارة والتسيير والاقتصاد والصناعة. ولم تخرج هذه الصحب في خطها الافتتاحي عن توجهات السياسة العامة للدولة. ثم كانت بداية الانفجار الإعلامي ، لكن ضمن الإطار الرسمي دائما ، في ثمانينيات القرن الماضي بظهور صحف

حكومية أخرى باللغتين العربية والفرنسية نذكر منها صحف " المساء"، " أضواء"، " المنتخب " باللغة العربية ، وصحيفة Horizons (آفاق) باللغة الفرنسية.

لكن الطفرة الحقيقة في المجال الإعلامي كانت في مطلع تسعينيات القرن الماضي، حيث حدث انفتاح إعلامي واسع صاحب الانفتاح السياسي الذي تجسد بالسماح بإنشاء الأحزاب السياسية المعارضة لحزب السلطة " جبهة التحرير الوطني" والتي فاق عددها 60 حزبا. وقد ظهر منذ هذه الفترة نوعان من الصحف انضافا إلى صحف السلطة التي كانت تصدر إلى ذلك الوقت وهما: الصحافة الحزبية ، والصحافة المستقلة.

لقد سمح للأحزاب بإنشاء صحفها الخاصة التي تعبر أن أفكارها و طروحاتها السياسية ، وكانت من أبرز الصحف الحزبية التي أنشئت العام 1990 صحيفة " المنقذ " لسان حال الجبهة الإسلامية للإنقاذ بزعامة عباسي مدني ، وصحيفة النبأ ،لسان حال حركة مجتمع السلم بزعامة محفوظ نحناح ، وصحيفة البديل ،لسان حال حركة البديل بزعامة الرئيس الراحل أحمد بن بلة. وصحف أخرى أنشأتها أحزاب يسارية وفرانكفونية ،غير أن معظم هذه الصحف قد اختفى تحت طائلة الحظر أو الإخفاق في الاستمرار لأسباب سياسية أو مالية.

ولم يثبت على الساحة الإعلامية إلا بعض العناوين المنتمية إلى ما يعرف بالصحافة المستقلة أو الصحافة الحرة أو الصحافة الخاصة ،وهي في الواقع تمثل تيارات فكرية وسياسية ، وإن لم تعلن انتماءها الحزبي بشكل صريح ، ومن ذلك مثلا صحيفتا Le soir d'Algérie وLiberté ذات التوجه البربري الفرانكفوني ، وصحيفة Elwatan ذات التوجه اللبيرالي الفرانكفوني ، وصحيفة " الخبر " ذات التوجه اليساري المنفتح على التيارين البربري والفرانكفوني ، أو هي الصوت العربي لهذين التيارين. وفي المقابل ظهرت صحف ذات توجه عروبي قومي كصحيفة الشروق الأسبوعية ثم اليومية ، وصحيفة الجزائر اليوم ، وصحيفة اليوم ، والأحداث وغيرها.

غير أن اللافت هو ارتفاع نسبة المقروئية عند الصحف الصادرة باللغة العربية ، حيث وصل معدل سحب جريدة واحدة مثل " الخبر " إلى نصف مليون نسخة يوميا ، والعدد نفسه وصلت إليه صحيفة الشروق ن مقابل نصف ذلك العدد بالنسبة إلى الصحف الصادرة بالفرنسية مجتمعة ، وهو ما يؤكد التوجه العام للمجتمع الجزائري نحو اللغة العربية ، الأمر الذي شجع هذه الصحف على توسيع الاستثمار بإنشاء عناوين جديدة أو تفريع العنوان الرئيس إلى عناوين متخصصة ، إذ ظهر الخبر الرياضي ، والخبر الثقافي وغيرهما. ولا نبرح هذا المجال دون الإشارة إلى الانتشار الواسع الذي حققته صحيفة " الهداف " الناطقة بالعربية والمتخصصة في الشؤون الرياضية لاسيما كرة القدم ،إذ تعد من العناوين الأكثر مقروئية لدى الشباب ن على غرار " الخبر " و" الشروق "

وفي العشرية الأخيرة سمح بإنشاء قنوات فضائية خاصة ، إلى جانب قناة التلفزيون الرسمي بنسخها الخمس ،فكان أن قامت بعض الشركات التي تملك صحفا بفتح قنوات فضائية ، ومن ذلك قنوات " الشروق " المتنوعة ،و "البلاد " و " الفجر "و" الحياة "و" الخبر "و" الهداف "، التي هي في الأصل صحف ورقية فتحت لها أذرعا مرئية في شكل قنوات فضائية تبث من خرج الوطن ، فضلا عن قنوات أخرى لم تكن مرتبطة بمؤسسات إعلامية سابقة كقنوات " الجزائري " و " الباهية " وبور تي في " و " سميرة تي في " وغيرها.

والملاحظ أنها قنوات تبث باللغة العربية ما يعني نسبة مشاهدة عالية لجمهور يتلقى خطابا إعلاميا باللغة التي يفهمها ، وهو ما أدى إلى تراجع استخدام الفرنسية في قطاع الإعلام المرئي وانصراف الجمهور الجزائري عن متابعة القنوات الفرنسية أو العربية الشرق أوسطية التي كانت بديله الوحيد قبل هذه الطفرة الإعلامية .

ويؤكد هذا المسار التطوري لأهم قطاعين في الجزائر لهما تأثير مباشر على الوعي والهوية ، وهما قطاع التعليم وقطاع الإعلام ، ذلك الشرخ الكبير بين أنصار العربية و أنصار الفرنسية. وهو شرخ تجاوز الطابع التنافسي ليتحول إلى عداوة تاريخية مزمنة ، وهو في الواقع يعكس سيكولوجيا ثنائية المستعمَر و المستعمر ، حيث لا يزال معظم الجزائريين ينظرون إلى اللغة الفرنسية على أنها لغة الآخر المستعمر ، وفي الذهن تعلق صورة 132 سنة من الاحتلال والقهر والاستغلال والقتل والتشريد ومحاولات سلخ الجزائريين عن هويتهم وجذورهم ، إذ ينظر إلى دعاة الفرنسية والمتمسكين بها حتى بعد أزيد من نصف قرن سنة من الاستقلال ، على أنهم امتداد للاستعمار الفرنسي وحماة لمصالحه الثقافية والاقتصادية ، في الوقت الذي يزعم هؤلاء أن الفرنسية في الجزائر هي " غنيمة حرب ".

وفضلا عن الفروع العلمية في الجامعة الجزائرية وشريحة قليلة مؤثرة من قطاع الإعلام ، فإن التشبث باللغة الفرنسية ومحاربة سياسة التعريب المنتهجة منذ سنوات بشكل من الأشكال ، لكن بطريقة غير منهجية ، ثمة حصن آخر للفرنسية بالجزائر وهو القطاع الاقتصادي بما يشمل من تعاملات بنكية وتسيير مؤسسات اقتصادية ، حيث لا تزال اللغة الفرنسية هي لغة التعامل الوحيدة في هذا المجال ، على الرغم من بعض محاولات الانفتاح على لغات أجنبية أخرى كاللغة الإنجليزية مثلا ، غير أن التعامل باللغة الفرنسية يظل هو الطابع المهيمن على لغة الاقتصاد في الجزائر.

ولعل السبب في ذلك هو الربط القوي للاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي منذ السنوات الأولى من الاستقلال ، وكون فرنسا هي المتعامل الاقتصادي والتجاري الأقوى مع الجزائر بفضل عامل اللغة التي يتقنها بعض الجزائريين ، حيث لا يجدون صعوبة في التعامل مع الدوائر الفرنسية ، ويتعلق الأمر بفئة من المتعاملين الذين تلقوا تعليمهم باللغة الفرنسية في الجامعات الجزائرية التي تستخدم اللغة الفرنسية في تدريس المواد ذات الصلة بالاقتصاد والمالية ، وتداول إطارات مسنة ذات تكوين فرنسي على المؤسسات البنكية والاقتصادية(محافظو البنوك ، مديرو الشركات ..).

ويتخرج من الجامعة الجزائرية آلاف الطلاب المكونين باللغة الانجليزية والذين لا يجدون أماكن لهم في سوق العمل خارج قطاع التعليم ، كما أنه يثبت من يوم إلى لآخر أن اللغة الانجليزية هي لغة الاقتصاد والمال والتعامل العالمية ، ومن الغريب أن السلطات الجزائرية لم تهتد إلى الاستفادة من طرفي هذه المعادلة ما يؤدي في النهاية إلى الانفتاح على الاقتصاد العالمي خارج هيمنة الاقتصاد الفرنسي ، وذلك بالاستفادة من الأعداد الهائلة التي تتخرج من الجامعة المتخصصة في اللغة الانجليزية ، والتي تعد ثروة حقيقة إذا أحسنت المؤسسات الاقتصادية استيعابها والاستفادة من قدراتها.

وطالما ارتبط واقع اللغة العربية في الجزائر بالعامل الديني ،وبما أن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة تقريبا لمعظم الشعب الجزائري ، إذ يعتنق الإسلام ما نسبته 99 % من الجزائريين ويمارسون شعائرهم باللغة العربية ، وهو ما يطمئن أصحاب التوجه الإسلامي في الجزائر إلى أن العربية ستظل لغة معظم الشعب

الجزائري و إلى أنه لا يمكن أن تنافسها أية لغة أخرى أجنبية أو محلية ، بما في ذلك اللغة الأمازيغية ذاتها التي يعتقد دعاتها أنها اللغة الأصلية لسكان الجزائر الأصليين من البربر.

ويبدو أن تثبيت اللغة العربية كلغة للخطاب الديني والممارسات العقائدية الإسلامية قد بدأ يتعزز مع ظهور ما يعرف بالظاهرة الإسلامية في الجزائر التي قويت بعد أحداث 5 أكتوبر 1988 والتي أعقبها انفتاح سياسي سمح لكل الأفكار والتيارات بالتعبير عن ذاتها من خلال العمل السياسي أو الجمعوي أو الثقافي .وعلى الرغم من أن اللغة العربية ليست من الأهداف الرئيسية لكل التنظيمات السياسية ذات الطروحات الإسلاموية إلا أنها تعتبرها تحصيلا حاصلا ومنطقيا ،ذلك أن ترويجها لمشروع الدولة الإسلامية يعني في الجوهر الترويج للغة العربية التي لا ينفك عنها الإسلام .

وخلافا لبعض الأصوات القومية ذات التوجه العروبي ، التي كانت تدافع عن التعريب واللغة العربية في الجزائر في وجه هيمنة اللغة الفرنسية حتى أنشأت لها بعض الجمعيات (جمعية الدفاع عن اللغة العربية التي يرأسها عثمان سعدي) ، فإن التيار الإسلامي لم يصل إلى ذلك الحد من المنافحة على اللغة العربية ،إذ كانت أولويته أسلمة المجتمع وليس تعريبه ، ومن أجل ذلك لم يكن يعارض استخدام اللغة الفرنسية أو الأمازيغية في بعض الخطابات والمحافل الجماهيرية أو الإعلامية ،بل إن كثيرا من المنتسبين إليه كانوا من ذوي أصول بربرية يتقنون اللغة العربية إلى جانب اللغة الفرنسية .

وأمام وضعية كهذه نجد المشهد في الجزائر يحفل برباعية يطبع العلاقة بين أضلاعها الأربعة التنافر الذي يصل حد العداء أحيانا والتآلف الذي يصل حد التحالف أحيانا أخرى ، فأما هذه الأضلاع الأربعة فيمكن أن تمثلها الاتجاهات الأربعة: الإسلامي ، العروبي ، الفرانكفوني ، البربري. وعليه يمكن أن تكشف علاقتا التنافر والتآلف على مجموعة من الثنائيات المتضادة نمثلها كالآتي :

-عروبي ضد فرانكفوني ،بربري.

-إسلامي ضد عروبي (بعثي يساري).

-فرانكفوني + بربري ضد إسلامي وعروبي.

وقد تصاعدت حمى المد البربري المتحالف ضمنيا مع التيار الفرانكفوني ، ضد التيارين العروبي والإسلامي بعد ما يعرف بالربيع الأمازيغي العام 1980 ، الذي شهد أحداث عنف ومطالبات بالاعتراف باللغة الأمازيغية لغة رسمية في الجزائر كانت الجامعات وكثير من مناطق الجزائر مسرحا لها. وقد أسست هذه الأحداث لحركة سياسية لاحقا تجلت في تأسيس بعض الأحزاب السياسية في مرحلة الانفتاح الديمقراطي تقوم على أساس جهوي يتمثل في المطالبة بما تسميه حقوق منطقة القبائل السياسية والثقافية ،وكان حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية برئاسة السعيد سعدي ، رأس الحربة في هذا المشروع ، وهو الحزب الذي يتهمه خصومه بالتطرف العرقي ومعاداة كل ما هو عربي إسلامي. وكان من بين وجوهه السياسية البارزة السيدة خليدة تومي وعمارة بن يونس اللذين تقلدا مناصب وزارية في الحكومات المتعاقبة.

ولم تتوقف المسألة الأمازيغية عند هذا الحد ،بل تجاوزت ذلك إلى ظهور حركة مطالب انفصالية في العقدين الأخيرين بدعم رسمي من الحكومة الفرنسية ، حيث تشكل حركة (الماك) أو حركة تقرير المصير لمنطقة

القبائل التي يتزعمها فرحات مهني واجهة المشروع الانفصالي الذي يجد من يؤيده ويدعمه ماليا و إعلاميا في بعض الدوائر الفرنسية. وقد كانت بدايات هذه الحركة منذ العام 2013 ومن بين المبادىء التي يدعو إليها

-الاستقلال الترابي لمنطقة القبائل حيث الغالبية البربرية.

-التركيز على الهوية البربرية ومعاداة الهويات الأخرى العربية الإسلامية ، من دون الإشارة إلى الهوية الفرنسية التي ينادي بها البعض صراحة

-اعتماد اللائكية في الحياة العامة ما يعني عدم الاعتراف بمبدأ " الإسلام دين الدولة ".

ولقد اتخذت السلطات الجزائرية بعض الخطوات الرامية إلى الحد من ارتفاع وتيرة المطالبة بالاعتراف بالهوية الأمازيغية وذلك منذ تسعينيات القرن الماضي ، عندما قررت إدراج اللغة الأمازيغية في البرامج التعليمية ، لكنها غير ملزمة في كثير من المناطق التي تقطنها غالبية من الناطقين بالعربية ، كما فتحت بعض الجامعات فروعا تدرس الثقافة الأمازيغية ، غير أن ثمار هذا التوجه لم تقطف بعد بالنظر إلى كثير من المعضلات والعوامل الموضوعية التي تحول دون الوصول بالمشروع إلى الغاية التي يرجوها أصحابه وهي تعميم الأمازيغية في كل المؤسسات والدوائر الحكومية.

ولمرافقة هذا المسعى قامت الدولة أيضا بإنشاء ما يعرف بالمحافظة السامية للغة الأمازيغية التي أوكلت لها مهام ترقية اللغة الأمازيغية والعمل على نشرها وتحسين شروط تدريسها من خلال إعداد البرامج والإطارات المؤهلة ، غير أن الخلفية السياسية التي تقف وراء إنشاء هذه المحافظة لا يبدو أنها تسهم في الدفع بها نحو توجهات علمية محضة. وبالمقابل تحرص الدوائر الفرنسية على تقديم الدعم الكافي لما يعرف بالأكاديمية البربرية بباريس التي أنشئت في وقت مبكر من الاستقلال ، أي العام 1966 والتي من بين أهدافها الكبرى الاعتراف بالهوية الأمازيغية في مواجهة الهوية العربية الإسلامية.

كما فتحت السلطات المجال الإعلامي لظهور بعض الصحف والقنوات الإعلامية ذات التوجه البربري ، بل إنها أنشأت قناة حكومية فضائية ناطقة باللغة الأمازيغية ،تبث كل برامجها بهذه اللغة و لا تخلو برامج القنوات الحكومية الأخرى من نشرات أخبار مرة واحدة يوميا على الأقل باللغة الأمازيغية ، وذلك في توجه واضح لافتكاك ورقة الضغط السياسي من أيدي بعض دعاة الانفصال على أساس عرقي أو ثقافي.

غير أن مثل هذه الحركات الانفصالية أو الثقافية لم تتمكن بعد من تحقيق الإنجاز الذي يطمح إليه داعموها ، وذلك لعدة أسباب أهمها:

-اقتصاد هذه الدعوات على أقلية من المثقفين البربر.

-الحساسية المفرطة من معظم الجزائريين ، حتى من كثير من البربر أنفسهم ، تجاه ما يرد من فرنسا.

-التمكين للغة العربية في الجزائر في قطاعي التعليم والإعلام.

-عدم تمكن دعاة الهوية الأمازيغية من الاستقلال عن النموذج الفرنسي استمرارهم في توجيه خطاباتهم التي يدافعون فيها عن البربرية باللغة الفرنسية ، واعتماد الحروف اللاتينية في كتابة اللغة البربرية بدل حروف التفينيغ المعروفة من قبل والمنتشرة بين أوساط أمازيغية أخرى في الجنوب الجزائري ،خاصة عند مجتمع الطوارق.

-عدم التوافق بين مختلف الجماعات البربرية ، وهي كثيرة (بربر الأوراس وما جاورها المعروفون بالشاوية ، بربر بني ميزاب ، بربر الجنوب أو الطوارق ، بربر المناطق الأخرى ذات الغالبية العربية).

خلاصة : المستقبل اللغوي في الجزائر

إن الواقع اللغوي في الجزائر يفرز ثلاثة استقطابات كبرى هي الفرانكفوني والبربري والعربي ، يتحدد مصير كل منها في ضوء مجالين رئيسيين هما الاستعمال اليومي التداولي والاستعمال الرسمي في مجالات الإدارة والتعليم والإعلام ، واستنادا إلى قوة الاستعمال في أحد هذين المجالين تتحدد قوة كل استقطاب ، ومن ثم يمكن تحديد درجة تأثيره على الراهن اللغوي أو المستقبل.

وبالعودة إلى تقييم واقع كل استقطاب على حده ، والنظر في مدى التأثير الذي يمكن أن يمارسه في هذين المجالين ، يمكن الإدلاء بالملاحظات التالية:

- عرف الاستقطاب الفرانكفوني في الجزائر قوته في العقدين الأولين من الاستقلال ، حيث كانت الفرنسية لغة التعليم في كل المراحل ولغة الإعلام ولغة الثقافة والإبداع في مختلف فنونه ، ولغة التواصل اليومي لدى فئات واسعة من المجتمع الجزائري ، غير أنه ومنذ ثمانينيات القرن الماضي ، شهدت الفرنسية بداية تراجع واضح في مراحل التعليم الثلاث (الابتدائي ، والإعدادي والثانوي) فاسحة المجال للغة العربية ، كما أن عدد مستخدمي اللغة الفرنسية في الإدارة والإعلام بدأ يتراجع ،فعلى سبيل المثال فإن صحيفة واحدة كالخبر مثلا الصادرة باللغة العربية كانت تسحب من النسخ ما يفوق عدد ثلاث أو أربع صحف ناطقة بالفرنسية خلال الطفرة الإعلامية التي شهدتها الجزائر في التسعينيات.

ويعود تراجع اللغة الفرنسية في هذه المجالات إلى تراجع مستخدميها في ظل صعود جيل من الشباب تخرج من المدرسة الجزائرية الجديدة التي اتجهت نحو تبني العربية لغة للتعليم في صورة ما عرف بالمدرسة الأساسية ، كما أن الجيل الذي ورث اللغة الفرنسية لغة تخاطب واستخدام تداولي أو لغة تعاملات رسمية بدأت أعداده تتضاءل بفعل عامل الزمن والتقدم في السن وحتمية الموت ، ليخلفه جيل لا يتمتع بالحماسة نفسها تجاه اللغة الفرنسية.

ولم تفلح دعاوى " الفرنسية غنيمة حرب" في استمرار التمكين لهذه اللغة ،حيث نشأت أجيال جديدة لا علاقة لها بالظاهرة الاستعمارية ، بل تطور وعيها إلى حد اعتبار الفرنسية في الجزائر مظهرا من مظاهر الاستعمار التي يجب التخلص منها ، وقد شجع على هذه الرؤية ، انفتاح الجزائريين على سائر اللغات الأجنبية ومنها الانجليزية ، حيث يعد المكونون في هذه اللغة بمئات الآلاف ، وكثير منهم يفضل استعمالها في المجالات التي تتطلب الاستعانة بلغة أجنبية.

ويأتي قرار وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الأخير استعمال الانجليزية في تدريس المواد العلمية التي لا تزال تدرس بالفرنسية ليندرج في سياق التحول الجذري البنيوي في الواقع اللغوي بالجزائر ، ذلك أن إنهاء التعامل بالفرنسية في الجامعات الجزائرية سيعني إنهاءها في المجتمع ، واستبدال الاستقطاب الفرانكفوني باستقطاب انجلوساكسوني ولكن بتوجه براغماتي ، إذ الغاية المرجوة من هذا التحول ، وإن كانت منطلقاتها سياسية ، إنما هي الانفتاح على لغة العلم والتكنلوجيا والتواصل بين شعوب العالم ، وهذا ما عجزت الفرنسية

عن تحقيقه في الجزائر طيلة نحو قرنين من الوجود، إذ ظل معظم الجزائريين ينظرون إليها على أنها لغة المستعمر الذي لا يبتغي سوى فرضها على حساب اللغات المحلية للإبقاء على الهيمنة في بعدها الثقافي.

-ينظر إلى المسألة البربرية أو الأمازيغية في الجزائر على أنها مسألة ثقافية تتصل بأحد مكونات الهوية الوطنية، والتي تم ترسيمها في النصوص التشريعية مؤخرا، أما واقع الممارسة فيفضي إلى أن اللغة الأمازيغية لم تتجاوز إلى اليوم حدود الشفوي، إذ لا تزال لغة استخدام يومي بين الناس في مناطق محددة من الجزائر ولم تكتسب قط ذلك الطابع الوطني أو العام، إذ ينحصر استخدامها في منطقة القبائل الكبرى والقبائل الصغرى ومنطقة بني ميزاب وبعض مناطق الأوراس، ومناطق من أقصى الجنوب، على اختلاف في تسميتها ما بين قبائلية وميزابية وشاوية وترقية.

بدأ الاستقطاب الأمازيغي يتنامى مع ثمانينيات القرن الماضي و أخذ يتجاوز الإطار الثقافي إلى الاستعمال السياسي للمسألة وصل إلى حد ظهور نزعات انفصالية على أساس لغوي عرقي، لكن تأثير هذه اللغة في المجالات العامة محدود جدا، بل لا يكاد يذكر في كثير من الأحيان، حيث تحول محدودية انتشارها وعدم التوافق على الحروف التي تكتب بها، ووجود غالبية من الجزائريين رافضة لها، دون أن يكون لها حضور مؤثر تداوليا ورسميا ،فهي لا تزال أبعد عن منافسة اللغة العربية أو اللغة الفرنسية.

لكن التوظيف السياسي للغة الأمازيغية لا يخفى، خاصة في الفترة الأخيرة التي شهدت تحولات في مسار الوعي الجزائري، وعلى الرغم من استحالة منافستها للغة الأغلبية في الجزائر، وهي اللغة العربية، غير أن توظيفها السياسي يظل قائما، خاصة من قبل القوى ذات المصالح الثقافية والسياسية والاقتصادية في الجزائر.

-إن التطور الذي عرفه استخدام العربية في الجزائر خلال الخمسين سنة الأخيرة مقابل تراجع واضح في هيمنة الفرنسي، يؤكد حتمية توجه الجزائريين نحو تكريس لغة الأغلبية في مجالات الاستخدام اليومي والرسمي والعلمي ،ذلك أن ما لا يقل عن 80% من الجزائريين يستخدمون العربية اليوم .ومن أمثلة هذا الاستخدام الواسع التي وقفنا عليها يمكن أن نذكر بعض الحالات:

-معظم الجزائريين يحررون طلبات العمل والشكاوى الموجهة إلى المسئولين باللغة العربية.

-يعتمد معظم الجزائريين العربية لغة في تحرير الصكوك البريدية والبنكية يوميا، مع وجود حالات قليلة باللغة الفرنسية بينما لا حالة واحدة بالأمازيغية لأنها ليست لغة مكتوبة بعد.

-يعتمد الجزائريون العربية لغة في وسائل التواصل الاجتماعي ،فهي إن لم تكن العربية الفصحى فإنها في غالب الأحيان العربية الدارجة.

-وهناك ظاهرة خاصة نشأت مع انتشار وسائل الاتصال المعاصرة لا سيما الهواتف الذكية ،وهي تبادل الرسائل النصية أو المحادثات عبر فايسبوك وتويتر وغيرها من الوسائط بحروف لاتينية ولكن بمعان عربية، حيث يعمد الجزائريون إلى هذه الطريقة إذ تعذر تزويد أجهزة التواصل بنظام اللغة العربية.

-يستخدم الجزائريون العربية في اللافتات التي ترفع في المظاهرات والوقفات الاحتجاجية أمام المؤسسات والإدارات وكذا لافتات المحلات التجارية ولغة الإشهار سواء في اللافتات الاشهارية أو عبر الوسائط المرئية.

وبالنظر إلى واقع كل توجه لغوي في الجزائر على مستوى الاستخدام اليومي والرسمي يمكن الحديث عن صعود لافت للغة العربية مقابل تراجع واضح للغة الفرنسية التي بدأت تفقد موقعها كلغة التأثير الأولى في

الوعي الجزائري ، بينما لا تزال الأمازيغية رهينة التوظيف السياسي الذي يراد له أن يكون عامل كبح لمسار تطور اللغة العربية وهيمنتها ، ومن ثم تحويل الصراع اللغوي في الجزائر من صراع العربية ضد الفرنسية إلى صراع الأمازيغية ضد العربية ، وهو الأمر الذي قد تنجر عنه أخطار جمة في حالة تكريسه وتعميمه.

قائمة المراجع :

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي .ط1 دار الغرب الإسلامي .الجزائر 1998
صالح بلعيد: ضعف اللغة العربية في الجامعات الجزائرية. دار هومة للنشر-الجزائر 2013.
عبد محمد بوهادي: تحديات اللغة العربية في المجتمع الجزائري .دار اليازوردي –الجزائر -2014
عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام .دار الأمة – الجزائر -2007.
عبد العالي رزاقي ، المجلس الأعلى للغة العربية : اللغة العربية في الصحافة المكتوبة .دار الخلدونية – الجزائر -2010.
عبد المالك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين .دار هومة للنشر والتتوزيع – الجزائر -2007
عثمان سعدي: الجزائر في التاريخ .ط1.دار الأمة – الجزائر – 2011
محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري. ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر -2006.
يسمينة زمولي: مجلة لسانيات .الجزائر – عدد 29-30 – ديسمبر 2005

قلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين دراسة عيادية لـ 120 حالة

Clinical study of 120 cases Death anxiety of adult with eye cancer

د. فاطمة الزهراء مشتاوي ، جامعة الجزائر 2 " أبو القاسم سعد الله "- الجزائر

مقدمة:

السرطان داء ارتبط اسمه مع اسم الموت حتى صار يساويه الفزع وكل من يسمع عليه يشعر بالقلق والخوف فالإحصائيات العالمية تكشف لنا سنويا عن العدد الكبير المصابين بمرض السرطان.

فالسرطان كلمة ذات صدى مرعب لدى عامة الناس بحيث أنها أصبحت تشكل هاجسا ارتبط بالعصر الذي نعيشه فكلمة السرطان تعني تلك الكلمة المرعبة التي تشير إلى الخطورة التي تعني الموت.

يعاني الفرد الراشد العديد من الهواجس ومنها هاجس الموت هذا الشعور حاول الإنسان الهروب منه وعدم التفكير فيه لما له من مشاعر مكرهة تشعر الفرد بالضعف وقلت حيلته وقدرته في التغلب عليه.

"قلق الموت الذي شغل حيزا كبيرا من التفكير لدى الفلاسفة والمفكرين والمختصين في الميدان فيعد الموت أعظم غموض وأكبر سر يواجه الإنسان".

يرى "مسكويه" (Miskwih) بأن الخوف من الموت لا نجده إلا عند من يرى الموت حقيقة أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم، وأن العالم سيبقى موجودا وليس بموجود فيه كما يضنه من يجهل بقاء النفس وكيفية الميعاد، أو لأنه يظن أن الموت ألم عظيم غير ألم الأمراض التي ربما تقدمه، أدت إليه وكانت سبب حلوله أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت أو لأنه متحيز لا يدري أي شيء يقدم بعد الموت (طارق محمد عبد الوهاب، وآخر، 2000، ص 80).

ومن الإمراض السيكوسوماتية المعاصرة مرض السرطان الذي يعتبر مرض القرن حيث يصيب هذا المرض أي جزء من أجزاء الجسم ويحدث به انتفاخا وتورما وتبدأ الخلايا بالتكاثر بشكل غير طبيعي والذي من يزيد خوف الناس أن كلمة سرطان كلمة مرعبة تشير إلى داء خطير فشل الأطباء حتى الآن في معرفة أسبابه وتفسيره.

1- مشكلة الدراسة وأهميتها:

العالم الآن يقع في دوامة من الأمراض المستعصية والتي أصبحت شائعة في عصرنا وتتفاوت من بلد لآخر في درجة انتشارها وأسبابها ونسيتها ونظرا للتطور الذي مس جميع النواحي وظهور التصنيع وزيادة التحضر مع الأغذية المتنوعة والمصبرة وترافقها العادات الغذائية السيئة مما أدى إلى وجود المشاكل الصحية الصعبة منها تفشي الأمراض والاضطرابات النفسية والجسدية الجديدة والخطيرة وهي أمراض العصر كارتفاع الضغط الدموي وأمراض القلب والقصور الكلوي والداء السكري والسيدا والسرطان الذي يصيب أحد الأعضاء كالثدي أو الرحم والبروستات وغيرها...

الإنسان وحدة متكاملة ومتفاعلة بين الحالة النفسية والجسدية فإن تدهور الحالة الصحية والعضوية ستؤثر حتما على الحالة النفسية لدى الفرد الراشد وخاصة إذا تعلق الأمر بالإصابة الخطيرة التي تصيب إحدى الأعضاء الهامة من الجسم كالعين وإصابتها بالورم الخبيث والمتمثل في السرطان الذي يصيب العين.

يواجه الإنسان معاناة جسدية تؤثر على نفسيته مما قد يؤدي إلى قلق الموت ، هذا الإحساس الذي يجعل الفرد يعيش في دوامة القلق والخوف المستمر ويعتبر قلق الموت من أكبر الهواجس التي تواجه الانسان "فيرى نفسه تضم مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال المستمر على تأمل أو توقع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت" (أحمد محمد عبد الخالق ، 1987 ، ص 39).

العين التي تعتبر المحور الجيد ومصدر الرؤية للفرد الراشد وتمثل نظارة الجسم وحيويته وعند إصابة العين بالورم الخبيث أو سرطان العين تزيد من المشكلات النفسية وتأثر على شخصية الفرد لأن من الممكن الورم الذي يصيب العين قد يمس حاسة البصر ويستطيع أن يكبر ويصعب علاجه بمعنى اذا طال الفرد به الحال قد يفقد حاسة البصر ويؤدي به إلى الموت وعندما يكون السرطان في بدايته يمكن استئصال العين وتعويضها بعين زجاجية.

السؤال المطروح:

هل يعاني الفرد الراشد المصاب بسرطان العين من قلق الموت ؟

ما مدى تأثير إصابة العين بالسرطان على نفسية الفرد الراشد ؟

2- فرضيات الدراسة:

الفرضية الأساسية: يعاني الفرد الراشد المصاب بسرطان العين من قلق الموت.

الفرضيات الجزئية:

-يعاني المصاب بسرطان العين من المشاكل النفسية.

-يعاني المصاب بسرطان العين من عدم الثقة بالنفس.

-يعاني المصاب بسرطان العين من الخوف من المستقبل.

3- أهمية الدراسة:

-التعرف على الناحية النفسية للراشد الذي يعاني من سرطان العين.

-إلقاء الضوء على المشكلات النفسية من انخفاض تقدير الذات وحالات القلق وإظهار المعاناة النفسية.

4- أهداف الدراسة:

-تكمن أهداف الدراسة لكونها تندرج ضمن اهتمامات الباحثين في المجال النفسي العيادي والطبي لتقديم برامج وخطط علاجية من شأنها مساعدة المصاب بسرطان العين على التكيف.

-لفت الانتباه لأهمية المرافقة النفسية العيادية الجيدة.

-معرفة أثر قلق الموت لدى الفرد الذي يعاني من الورم الخبيث سرطان العين.

-معرفة مستوى قلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين والتغيرات التي تطرأ على حياته الذاتية والأسرية.

5- تحديد المفاهيم الأساسية ومصطلحات الدراسة:

يعريف "هولتر" (Holter): هو استجابة انفعالية تتضمن مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال المتعمد على تأمل توقع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت ، ويعرفه **"تمبلر" (Templer):** هو خبرة

انفعالية غير سارة تدور حول الموت والموضوعات المتصلة به ، وقد تؤدي هذه الخبرة إلى التعجيل بموت الفرد نفسه. (بشير معمرية ، 2007 ، ص 212).

5-1- النظريات المفسرة لقلق الموت:

النظرية السلوكية: يعتبر السلوكيون القلق بمثابة خوف من ألم أو عقاب يحتمل أن يحدث لكنه غير مؤكد الحدوث ، وهو انفعال مكتسب مركب من الخوف والألم وتوقع الشرد ، يختلف عن الخوف ويثيره موقف خطر مباشر ملائم أمام الفرد ، والقلق يرتفع مع الأزمات فهو يبقي أكثر من الخوف العادي ، وقد يرتبط بالموت إذا زاد عن حدة ، ولا ينطلق في سلوك مناسب يسمح للفرد باستعادة توازنه إذن ، فهو يبقى خوف محبوس لا يجد له مصرفا عندما الفرد الراشد يشعر بانفعال قلق الموت أو الخوف فإن التأثيرات الانفعالية تصاحبها التغيرات الجسمية قد تكون بالغة الخطورة إذا تكرر الانفعال وأصبحت الحالة الانفعالية مزمنة ، فقد اتضح أن القلق المزمن كقلق الموت المتواصل قد يؤدي إلى ظهور تغيرات حركية ظاهرة تصعد الانفعال(راجح أحمد عزت ، 1994 ، ص 15- 26).

النظرية المعرفية: يعتبر قلق الموت سلوك انفعالي ناتج عن الأفكار التي يكونها الفرد حول نفسه ، بما في ذلك ما قد يصيبه كم أمراض ، وهذه الأفكار التي تخرج عن حدوث المنطق يكون بموجبها خطأ نسبي وحتى يتم التخلص كم الاضطرابات المعرفية يجب القيام بتغيير بنيوي للفكرة من خلال تزويد الفرد المصاب بالاضطراب المتمثل في قلق الموت بمفاهيم معرفية جديدة(فونتان Fanraine ، 1984 ، ص108).

النظرية المعرفية السلوكية: أمثال " أليس Ellis" يعتبر الاضطراب السيكولوجي الانفعالي للفرد الراشد كالاكتئاب والقلق ذات صلة وثيقة بالأفكار الغير عقلانية حيث يرى أن السلوك والاعتقادات التي يكونها الفرد أو الانسان من واقع الحياة التي يتعرض لها ، فيكتسب أفكار لا منطقية استنادا لتعلم خاطئ وغير منطقي فيسرد طريقته في التفكير ويتسبب في اضطرابات سلوكية قد تظهر بأشكال مختلفة كالانفعالات بما في ذلك انفعال قلق الموت(سبيلجر Spellger ، 1983 ، ص 14).

6- علاج قلق الموت: يعتبر قلق الموت أحد أنواع القلق ، ويصلح لعلاجه ما يستخدم في علاج القلق ، والعلاج السلوكي هو أكثر طرق علاج القلق بمختلف أنواعد حيث أنه يحقق أعلى نسبة شفاء.

وقد أجريت دراسة حديثة يدرسون التمريض بهدف التعرف على نتائج العلاج السلوكي في تقليل الحسسية والتدريب على الاسترخاء ، مقابل عدم التدخل بأي طريقة في علاج قلق الموت المرتفع ، قد ظهرت فعالية تقليل الحساسية والاسترخاء المتدرج لدى المجموعة التي استخدمته مقارنة مع المجموعة التي لم تتلق أي علاج(أحمد محمد عبد الخالق ، 1987 ، ص 228).

الاسترخاء: وهو حالة هدوء تنشأ في الفرد عقب إزالة التوتر بعد تجربة انفعالية شديدة أي جهد جسدي شاق ، فقد يكون الاسترخاء غير إرادي عند الذهاب للنوم أو يكون إرادي عندما يتخذ المرء وضعا مريحا ويتصور حالات باعثة على الهدوء أو يرخي العضلات المشاركة في أنواع مختلفة من النشاط(حسين فايدن ، 2001 ، ص57).

العلاج المبني على قوة الإيمان الروحي: من بين المراكز التي تهتم بالعلاج الروحي مركز الحسين للسرطان بالمملكة العربية السعودية وهذا بوجود مستشارين بالديانة الإسلامية وغيرها من الطقوس الدينية ، وهذا

لتوجيه الإرشاد الروحي لمرضى السرطان وعائلاتهم بمساعدة عائلات المرضى على التعامل مع مشاعر الأسى والحزن والشعور بالذنب. وكذلك الثقة والإيمان القوي بالله والرضا بقضائه تعالى وهي من السمات المميزة.
تشجيع التفكير الإيجابي وإحياء الأمل والتأكيد على أهمية الصبر في التعامل مع المرض والاعتراف بالشفاء الروحي دون إهمال الرعاية الطبية.
ومن الممارسين في علم النفس العيادي بالجزائر (د. مشتاوي ، 2015) في مستشفى مصطفى باشا و(الأخصائية زكراوي ، 2019) بالمستشفى سطيف ، من خلال مشتركتها بالملتقى بالعاصمة الجزائرية كان الاهتمام منصب حول أهمية بناء البرامج العلاجية المبنية على قوة الإيمان الروحي.
7- مفهوم مرحلة الرشد: تعتبر مرحلة الرشد المرحلة التي يكتمل فيها النضج ونمو الشخصية بكل تغيراتها لكنها لا تتصف بالتطور الدائم كذلك يحدث في مرحلة الطفولة والمراهقة ، حيث أن كل مرحلة لا تخلو من الأزمات التي يتجاوزها الراشد بفضل خبراته العاطفية والاجتماعية حيث أن مرحلة الرشد تساعده على تجاوز بعض الصعوبات التي قد يواجهها في سن الشيخوخة.
خصائص مرحلة الرشد: تلخص "هيرلوك" الخصائص العامة لطور أوساط العمر مرحلة الرشد في النقاط التالية:
- إن مرحلة أوساط العمر هي الفترة التي يتخلى فيها الفرد عن الخصائص الجسمية والسلوكية للراشد ، ويبدأ الدخول في عهد جديد تنشأ فيه خصائص جسمية وسلوكية جديدة ، ومع هذه التغيرات يبدأ الراشد في تعلم أنماط سلوكية جديدة.
-طور وسط العمر يتطلب إعادة التكيف للتغيرات الجسمية والأدوار المتغيرة ، ولو أن التكيف لبعض الأدوار الجديدة يكون شاقا ومن ذلك التكيف الاقتراب من التقاعد ووفاء رفيق الحياة في بعض الأحيان ، وخلو البيت من الأبناء ... إلخ.
- طور وسط العمر هو وقت الإنجاز ، ففيه يصل المرء إلى قمة الأداء ويجني ثمار سنوات الأعداد الطويل والعمل الشاق في المراحل والأطوار السابقة ، وفيه يكون المرء قد حصل قدرا كافيا من الخبرة والعلاقات الإنسانية مما يهيئ له قدرة على الحكم الصحيح ، أو التقسيم الجيد للعلاقات الاجتماعية(مريم سليم ، 2003 ، ص 324)
- تعتبر مرحلة وسط العمر مرحلة ذروة إنتاج الفرد والوصول إلى إتمام النضج ومرحلة الاستقرار والاستقلالية ومرحلة الزواج والإنجاب.
-تعتبر مرحلة وسط العمر مرحلة اتخاذ القرار وتحديد فلسفة الحياة. (كمال الدسوقي ، ص320).
- التخفيف من الأعمال التي تدعو إلى شدة التنافس.
-شعور الفرد بأنه قد حقق الأهداف التي رسمها في بدأ حياته ، أو عزوفه عنها لاستحالة تحقيقها فيما بقي له من العمر.
-شعور الفرد بزيادة حريته نتيجة لتخففه من كثير من أعباء الحياة.
-يجد الفرد في هذه المرحلة من حياته الفرص المتعددة للتعبير عن ذاته(السيد عبد الرحمان ، 2001 ، ص112).

مطالب مرحلة الرشد: تعتبر مرحلة الرشد حاسمة في حياة الفرد ومتعددة المطالب ومن أهم هذه المطالب نذكر أهمها:

-تقبل التغيرات الجسمية والتوافق معها.

-توسيع الخبرات العقلية المعرفية.

-اختيار الزوج – الزوجة وتحقيق التوافق ألزواجي.

-تكوين الأسرة وتحقيق التوافق الأسري.

-تربية الأطفال والمراهقين.

8- مفهـوم سـرطان العـين: أورام العين نادرة وتنتج عن تكاثر الخلايا السرطانية في نسيج ، في معظم الحالات هم السرطانات الثانوية التي تنتشر عن طريق ورم خبيث ، حيث هناك نوعان من سرطان العين سرطان الجيد والشبكية ، وتؤثر الشبكية على معظم الأطفال الذين نقل أعمارهم عن خمسة سنوات ، في حين أن سرطان جلد العين هو أكثر انتشار عند البالغين ، حيث أن تأثير الوراثة قد ظهر في بعض المرضي المصابين بهذا السرطان ومنا الأعراض الإكلينيكية نجد:

فقدان تدريجي للبصر.

ألم في العين أو حولها.

انتفاخ العين.

وجود البقع في المجال بصري.

انعكاس أبيض على العين.

ميلان العيون وغالبا ما تلتقي في نقطة واحدة.

الخسارة الكاملة أو الجزئية للبصر.

أما العلاج فيتحدد حسب نوع الورم ، حجمه ومدى انتشاره ، ويمكن أن يشمل العمليات الجراحية ، العلاج بالأشعة ، والعلاج بالتجميد أو التسخين والعلاج بالليزر. (مالكوم شوارتز ، 1988 ، ص160).

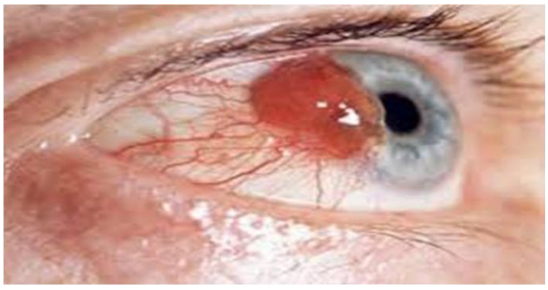

صورة توضح سرطان العين. (www.image/google.com)

الإجراءات المنهجية والأدوات المستخدمة: قمنا بإجراء الدراسة الميدانية التي تهدف إلى معرفة قلق الموت لدى الراشد المصاب بالسرطان العين.

الدراسة الاستطلاعية: تعتبر الدراسة الاستطلاعية من بين الخطوات المهمة التي تسبق الدراسة الأساسية للموضوع وتهدف إلى جمع المعلومات فهي تعتبر أول خطوة يقوم بها الباحث من أجل اختبار صحة الفرضية المطروحة والبحث على حالات الدراسة.

لقد تمت الدراسة الاستطلاعية بقسم طب وجراحة العيون بمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة .

قمنا بالدراسة الاستطلاعية لاكتشاف طبيعة المشاكل النفسية وقلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين.

بدأنا فكرت البحث في الموضوع وبدأت الفكرة تتبلور بهدف بناء إشكالية الدراسة وبعد عدة ملاحظات واستشارات ميدانية بدأنا تقصي بعض الحقائق عن قلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين قمنا بالملاحظة والمقابلة العيادية وتمرير مقياس قلق الموت على عينة صغيرة عددها 25 فرد كذلك تم الاتصال بمن لهم علاقة بالراشد المصاب بسرطان العين والذي يتابع الفحوصات بطب وجراحة العيون وتحاورنا مع المختصين في طب وجراحة العيون والمختصين في الشبه الطبي وعلم النفس

تم اختبار الأدوات الميدانية ودراسة مدى ثباتها وصدقها في قياس مستوى قلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين.

2- المنهج الوصفي التحليلي: الذي يعتمد على تفسير الوضع القائم وتحديد الظروف والعلاقات الموجودة بين المتغيرات كما يتعدى المنهج الوصفي التحليلي مجرد جمع البيانات الوصفية حول الموضوع أو الظاهرة إلى التحليل والربط والتفسير للبيانات وتصنيفها وقياسها واستخلاص النتائج منها (مرسى ، 1986 ، ص 96).

3- تحليل المحتوى: تستند البحوث الوصفية التحليلية إلى عدد من الأسس مثل التجريد والتعميم كما تتخذ أشكال عديدة مثل المسح النظري أو الميداني وتحليل المضمون ودراسة الحالة ومهما اختلفت أشكال المنهج الوصفي التحليلي إلا أنها جميعا تقوم على أساس الوصف المنظم للحقائق والخصائص المتعلقة بالظاهرة أو المشكلة المحددة بشكل عملي ودقيق (العواملة ، 1997 ، ص103).

الوصف الموضوعي يعتبره (لزار Lassar ، 1999 ، ص75): عندما الباحث يعتمد على طريقة تحليل المحتوى لتفسير النتائج بالطريقة الكيفية والكمية على الباحث فهم اللغة التي يتكلم بها المفحوص وأفكاره كذلك يجب أن يتجنب تدخل الذاتية حتى يتمكن من الكشف على الحقائق بالطريقة الموضوعية.

4- التقنيات الإحصائية المطبقة: إن تطبيق التقنيات الاحصائية على أي بحث يتماشى وطبيعة الدراسة والموضوع ونظرا لطبيعة هذه الدراسة التي قمنا بها والتي تم من خلالها استخدام مجموعة من الأدوات والتقنيات العيادية كالملاحظة والمقابلة النصف موجهة والقيام بتمرير اختبار ومقياس قلق الموت.

استعملنا في تحليل نتائج الدراسة النسب المئوية كأداة إحصائية بحيث قمنا بجمع التكرارات الخاصة ببنود كل محور واستخرجت النسب المئوية للمقابلة لتلك البنود والتي تتمثل كالآتي:

أسلوب المعالجة الإحصائية كانت بعد جمع التكرارات للتقنيات المستعملة في الدراسة (الملاحظة والمقابلة العيادية مع مقياس قلق الموت). تم الاعتماد في تحليل البيانات الكمية على النسب المئوية وذلك بضرب الاستجابات المتحصل عليها في مئة وقسمتها على عدد مجتمع وعينة الدراسة.

5- مجتمع وعينة الدراسة أجرية الدراسة على 120 فرد ينتمي لمرحلة الرشد والذي يعاني من الورم الخبيث الذي يصيب حاسة البصر أي السرطان الذي يصيب العين تم اختبارهم كعينة وتتراوح أعمارهم ما بين 35 و45 سنة.

6- حدود الدراسة:

المجال المكاني: أجريت هذه الدراسة بقسم طب وجراحة العيون بمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة

المجال الزمني: أجريت الدراسة خلال 2018 و2019 من شهر سبتمبر 2018 إلى غاية ماي 2019

7- التقنيات المستعملة:

الملاحظة العيادية: هي وسيلة يستخدمها الباحث والأخصائي في علم النفس العيادي بحيث الباحث المختص الإكلينيكي يجعل من ملاحظته أساس لمعرفة وفهم دقيق لظاهرة معينة (ذوقان عبيدات 2002، ص79) كما هي أداة هامة يعتمد عليها الباحث والمختص النفسي في متابعة السلوك من خلال مواقف الفرد في ظروف وأزمة مختلفة.

الملاحظة العيادية هي إستراتيجية مهمة وتعد من المهارات الأساسية في الحوار والحديث والتفاعل ومهارة الاستماع والإصغاء وتفهم لوجهة نظر الآخر من خلال الإيماءات والمشاعر الخاصة بالاضطرابات الناتج من الورم الخبيث والمتمثل بسرطان العين.

السلوك والمشاعر النفسية (الفرح، الحزن، القلق، الاكتئاب، البكاء، الصمت الطويل) الاتصال اللفظي والغير لفظي (الثرثرة، كلام سطحي، التهرب من الأسئلة) (الاتصال بارد، حار، منعدم، صعب، سهل) السلوك الحركي (الاستقرار أو عدم الاستقرار الحركي) السلوم المنفرد (خجل انطواء، انبساط، سرعة الانفعال، حماسة)

8- المقابلة العيادية: تقنية من تقنيات جمع المعلومات في العلوم الاجتماعية بشكل عام والبحوث الإكلينيكية وبشكل خاص فهي تساعد الباحث عن الفهم الشامل للمشكلة التي يدرسها كما تتيح الفرصة للفرد المفحوص التعبير الحر على مكنوناته وأراءه وأفكاره واتجاهاته والهدف من استخدام المقابلة هو الملاحظة المنتظمة للحالة مع الحصول على معلومات تخص عدة جوانب والمعلومات التي تخص بالدراية وكل ما يتعلق بالماض والحاضر

وقد ارتأينا في بحثنا هذا استعمال المقابلة العيادية النصف موجهة والتي تعتمد على دراسة حالة.

8-1- تعريف المقابلة العيادية النصف موجهة: هي التي تعتمد على قدرات الاخصائي الذي يقوم بها من خلال خلق جو ملائم من الثقة المتبادلة والمشجعة من اجل التفاعل الإيجابي والمستقل كما تعتمد عن شخصية الأخصائي النفسي وخبرته. (رجاء محمود أبو علام، 2001، ص 427).

المقابلة النصف موجهة هي سلسلة من الأسئلة التي يأمل منها الباحث الحصول على إجابة من المفحوص وهو أسلوب لا يتأخذ شكل تحقيق بل تدخل فيه الموضوعات الضرورية للدراسة خلال محادثة تكفل قدرا كبيرا من حرية التصرف، ويحرص الباحث أن يقترح أي إجابات مباشرة أو غير مباشرة. (ماهر محمود عمر، 1988، ص 132).

ولإجراء هذه المقابلة العيادية في بحثنا قمنا بصياغة مجموعة من الأسئلة ووضعناها في صور دليل المقابلة العيادية والذي يحتوي على محاور تضم مجموعة من الأسئلة لجمع أكبر معلومات حول الفرد الراشد المصاب بسرطان العين عن تاريخ الورم الخبيث الذي أصيب به وحالته النفسية والعلائقية وهذه المحاور هي:

8-2- دليل المقابلة النصف الموجهة:

المحور الأول: البيانات الشخصية ، السن ، الجنس ، المستوى الدراسي ، المهنة ، نوع الاضطراب البصري

المحور الثاني: تأثير اضطراب سرطان العين على الفرد الراشد(كيف كان رد الفعل عند تلقي خبر الإصابة ، كيف كان رد فعل الأسرة ، ما مدى التقبل لهذه الإصابة)

المحور الثالث: (نظرة للذات ونظرة الآخرين والمحيط الأسري والاجتماعي)

المحور الرابع: المعاش النفسي (التعرض لحالات القلق ، الإحساس بالنقص ، المردود المهني والحياة الاجتماعية والاقتصادية)

المحور الخامس: النظرة للمستقبل والآفاق المستقبلية

9- مقياس قلق الموت لدونالد تمبلر: هو عبارة عن اختبار يتضمن قائمة من الأسئلة التي تسمح بجمع بيانات خاصة بقلق الموت ، وضع هذا المقياس من طرف الأمريكي "دونالد تمبلر" ولقد ترجم إلى لغات عديدة منها العربية والاسبانية وحتى اليابانية والهندسية ، استخدم في كثير من البحوث التي أجريت على عينات متفاوتة من الذكور والإناث من ثقافات مختلفة ، وهو مرتبط بعدد كبير من الأعمار من 16 إلى 85 سنة ومتغيرات عديدة كالسن ، الجنس ، ودرجة التدين ، الصحة الجسمانية والعقلانية وأنواع أخرى من السلوكات ، لذا فهو يعد واحد من أكثر المقاييس انتشار في البحوث ، طبقا هذا المقياس لأول مرة سنة 1970.

9-1- الخصائص السيكومترية للمقياس: بدأ تكون الاختبار بوع 40 بندا ، ثم اختيارها على أساس منطقي ، كانت متصلة بجوانب تعكس مدى واسع من الخبرات المتعلقة بقلق الموت وهي عملية الاحتضار الموت بوصفة حقيقية مطلقة والجثث والدفن ثم مر المقياس بمراحل متتابعة حتى وصل إلى 15 بندا وهي صورة نهائية للمقياس ويحتوي المقياس على (9) بنود تصحح بـ "نعم" و (6) تصحح بـ "لا". وقد اتضح بأن وجهة الاستجابة بالموافقة ، وقد أوضحت دراسة "تمييلر" عدم وجود ارتباط جوهري بينهما ، وبين مقياس وجهة الاستجابة المتعلقة بالجانب الاجتماعي.

9-2- ثبات الاختبار: لقد قام احمد عبد الخالق بترجمة مقياس قلق الموت إلى العربية ، وطبقت النسختان (العربية والانجليزية). مع عينة من طلاب مصريين بقسم اللغة الإنجليزية وقد وصل الارتباط بين الصورتين العربية والانجليزية إلى 0.87 بالنسبة للذكور والإناث (ن=43) وهذا حسب ثبات إعادة الاختبار بالصورة العربية. وكان الفاصل الزمني بين الاختبار وإعادته أسبوعا واحدا. في حين وصل الارتباط بين الصورتين إلى 0.70 بالنسبة للذكور (ن=44) و0.73 بالنسبة للإناث (ن=56) وتعد جميع هذه المعاملات مرتفعة.

9-3- صدق الاختبار: لقد قام تميلر بتقدير صدق المقياس مستخدم عدة طرق منها مقارنة درجات مرض في المجال السيكاتري ممن قرروا أن لديهم قلق عاليا من الموت بدرجات عينة ضابط من المرضى النفسيين الذين قرروا أنه لا بوجد لديهم قلق الموت ، وقد استخرجت فوق جوهرية بين درجات الفريق بينما يشير إلى صدق المقياس كذلك الارتباط الجوهري المرتفع بين هذا المقياس ومقياس "بوبار" للخوف من الموت ، وكذلك الارتباط الجوهري السلبي بمقياس قوة "الآناك" من قائمة (مينيسيوتا).

9-4- طريقة تصحيح وتطبيق المقياس: يمكن تطبيق مقياس "تمبلر" فرديا أو جماعيا ، تحتوي كراسة الأسئلة على التعليمة التي توضح الطريقة الإيجابية وتتمثل في:

إذا كانت العبارة صحيحة أو تنطبق عليك ضع دائرة حول (ص).

وإذا كانت العبارة خاطئة أولا تنطبق عليك بشكل كبير ضع دائرة حول (خ).

تسجل إجابات الفحوص على الكراسة ذاتها ، وتتضمن هذه الكراسة: كتابة سن المفحوص ، الجنس ، المستوى الدراسي ، ويطلب من المفحوص قراءة التعليمة لإزالة الغموض أو سوء الفهم ، وعموما لا يقوم الفاحص بتحديد مدة انتهاء الاختبار مع مراعاة ألا تطول مدته بشكل مبالغ.

جدول رقم (01): يوضح نتائج قلق الموت مع الحالة

عبارات الاختبار		
01أخاف كثيرا من فكرة الموت.	ص	خ
02نادرا ما تخطر لي فكرت الموت.	ص	خ
03لا يزعجني الآخرين عندما يتكلمون عن الموت.	ص	خ
04أخاف من احتمال أن تجري لي عملية جراحية.	ص	خ
05لا أخاف إطلاقا من الموت.	ص	خ
06لا أخاف بشكل خاص بالإصابة بأي مرض خطير.	ص	خ
07التفكير في موت لا يزعجني اطلاقا.	ص	خ
08أتضايق كثيرا من سرعة مرور الوقت.	ص	خ
09أخشى أن أموت موتا مؤلما.	ص	خ
10إن موضوع الحياة بعد الموت يثير اضطرابي كثيرا.	ص	خ
11أخشى فعلا أن تصيبني سكة قلبية.	ص	خ
12كثيرا ما أفكركم هي قصيرة الحياة.	ص	خ
13اقشعر عندما اسمع الناس يتكلمون عن حرب عالمية ثانية.	ص	خ
14يرعبني كثيرا جسد الميت.	ص	خ
15أرى أن المستقبل يحمل شيئا يخوفني.	ص	خ

طريقة التنقيط:

نقطة (01) للبنود التي تصحح بـ(ص) وأجاب عليها المفحوص بصحيح.

نقطة (01) للبنود التي تصحح بـ (خ) وأجاب عليها المفحوص بخطأ.

صفر (0) للبنود التي تصحح بـ (ص) وأجاب عليها المفحوص بخطأ.

صفر (0) للبنود التي تصحح بـ (خطأ) وأجاب عليها المفحوص بصحيح.

جدول رقم (02) : يوضح سلم اختبار قلق الموت

البنود التي تصحح بـ(ص)	1	4	8	9	10	11	12	13	14
البنود التي تصحح بـ(خ)	2	3	5	6	7	15			

يفرض هذا المقياس أن درجة (0) تعتبر أدنى الدرجات التي يمكن لأي مفحوص أن يحصل عليها ، أما درجة (15) فهي أعلى درجة يمكن الحصول عليها.

يتم تقدير وجود قلق الموت أو عدمه بأسلوب الدرجة الفاصلة وهي كالتالي:

الدرجة التي تتراوح بين (06 – 06) تشير إلى عدم وجود قلق الموت.

الدرجة التي تتراوح بين (07 – 08) تشير إلى وجود قلق الموت المتوسط.

الدرجة التي تتراوح بين (09 - 15) تشير إلى وجود قلق الموت المرتفع.

الدراسة الأساسية:

- عرض وتحليل نتائج الدراسة:

الدراسة الميدانية حول موضوع قلق الموت لدى الراشد الذي يعاني من سرطان العين أفرزت النتائج التالية:

الملاحظة العيادية:

الجدول رقم (01): الملاحظة العيادية للراشد المصاب بسرطان العين

تحليل كمي للملاحظة العيادية:

الملاحظة	التكرارات	النسبة المئوية %
إيماءات الوجه التي تدل على الحزن	50	%60
الإيماءات التي تدل على حالات القلق	42	%50
ردود أفعال اكتئابية	37	%45
بكاء بصوت منخفض وسيلان الدموع	20	%25
سلوك عدم الاستقرار الحركي	25	%30
حالات الانطواء والهدوء	23	%28
التعبير يغلب عليه السلوك العدواني (الكلام بصوت مرتفع)	20	%25

تحليل كيفي للملاحظة العيادية: الراشد الذي يعاني من سرطان العين لديه سلوك ومشاعر من حالات قلق من جراء الإصابة ومن خلال إيماءات الوجه تظهر عليه حالات الحزن بنسبة 60% ، كذلك تظهر إيماءات تعبر عن ردود أفعال اكتئابية بنسبة 45% وفيما يخص السلوك عدم الاستقرار الحركي كان بنسبة 30% وحالات الإنطواء على الذات والهدوء بنسبة 28% ، في بعض الأحيان هناك بكاء بصوت منخفض بنسبة 25% ، وجدنا سلوكات وألفاظ وحركات يغلب عليها السلوك العدواني بنسبة 25%.

المقابلة العيادية النصف موجهة

الجدول رقم (02): المقابلة العيادية النصف موجهة للراشد المصاب بسرطان العين

ا لتحليل الكمي للمقابلة العيادية

المحاور	التكرارات	النسبة المئوية %
تأثير الإصابة على نفسية الراشد	/	/
الإحساس بالنقص	50	%60
حالات الخوف من الموت	45	%55
تقدير الذات للفرد الراشد		
الإحساس بالفشل	62	%75
الإحساس بعد الرضى	67	%80
عدم الثقة بالنفس	75	%90
المعاش النفسي لدى الراشد المصاب بسرطان العين	/	/
النظرة الإيجابية من طريف المحيط	20	%25
النظرة السلبية من طرف المحيط الأسري	50	%60
مشاكل مهنية	46	%55
مشاكل اجتماعية	50	%60
مشاكل أسرية	71	%85
النظرة المستقبلية للراشد الذي يعاني من سرطان العين	/	/
التفاؤل	17	%20
التشاؤم	71	%85

التحليل الكيفي للمقابلة العيادية: بينما الإحساس السلبي والنظرة التشاؤمية قدر ب 85 من خلال ما يتبين من الجدول الخاص بنتائج المحاور الخاصة بالمقابلة العيادية النصف موجهة الخاصة بالفرد الراشد الذي يعاني من سرطان العين في ما يخص تأثر الاضطراب على نفسيته والإحساس بالنقص قدر بـ 60% وحالات الخوف من الموت بنسبة 55% وفيما يخص المحور الخاص بتقدير الذات فإن الإحساس بالفشل قدر بنسبة 75% وعدم الرضى بـ 80% والنظرة الإيجابية من طرف المحيط الأسري (الزوج الزوجة ، الأهل ، أفراد الأسرة) قدر بـ 25% وفيما يخص النظرة السلبية من طرف المحيط الاجتماعي والأسري كانت بنسبة 60% والمحور الخاص بالمعاش النفسي من مشاكل نفسية قدرة بـ 85%والمشاكل المهنية قدرة ب 55% والمحور الخاص بالنظرة المستقبلية التفاؤلية بنسبة 20% %

مقياس قلق الموت:

تحليل النتائج المتحصل عليها من اختبار مقياس قلق الموت

التحليل الكمي لمقياس قلق الموت

العبارات	العينة	الإجابة الصحيحة	الإجابة الخاطئة	النسبة المئوية
01أخاف كثيرا من فكرة الموت.	110		X	%92
02نادرا ما تخطر لي فكرت الموت.	70	X		%59
03لا يزعجني الآخرين عندما يتكلمون عن الموت.	80		X	%67
04أخاف من احتمال أن تجري لي عملية جراحية.	112	X		%93
05لا أخاف إطلاقا من الموت.	90		X	%75
06لا أخاف بشكل خاص بالإصابة بأي مرض خطير.	75	X		%63
07التفكير في موت لا يزعجني اطلاقا.	100		X	%83
08أتضايق كثيرا من سرعة مرور الوقت.	85	X		%71
09أخشى أن أموت موتا مؤلما.	65	X		%65
10إن موضوع الحياة بعد الموت يثير اضطرابي كثيرا.	58	X		%42
11أخشى فعلا أن تصيبني سكة قلبية.	68	X		%68
12كثيرا ما أفكركم هي قصيرة الحياة.	85	X		%71
13اقشعر عندما اسمع الناس يتكلمون عن حرب عالمية ثانية.	50	X		%42
14يرعبني كثيرا جسد الميت.	60		X	%50
15أرى أن المستقبل يحمل شيئا يخوفني.	112	X		%93

التحليل الكيفي لمقياس قلق الموت: العبارة رقم 01 والخاصة بالخوف من الموت والمقدرة ب 92% والعبارة رقم 05 لا أخاف إطلاقا من الموت والعبارة رقم 07 التفكير في موت لا يزعجني إطلاقا والعبارة رقم 03 لا يزعجني الآخرين عندما يتكلمون عن الموت والعبارة رقم 14 يرعبني كثيرا جسد الميت هنا نلاحظ من الناحية العيادية بأن هناك آلية دفاعية تسمى بالإنكار وهذا الإنكار اللاشعوري للإصابة بالسرطان قد يرجع للخوف من الموت وتجنب الواقع المؤلم فكانت الإجابة خاطئة

مناقشة النتائج: فإن المعالجة الإحصائية والتحليل الكمي والكيفي لنتائج الدراسة الخاصة بالملاحظة والمقابلة العيادية نصف الموجهة وقياس قلق الموت توصلت النتائج من صحة الفرضية التي تقول أن يتوقع وجود قلق الموت لدى الراشد المصاب بسرطان العين بنسبة 93% والفرضية الجزئية التي تقول بأن المصاب بسرطان العين يعاني من مشاكل نفسية والإحساس بعدم الثقة قدر بنسبة 90% والنظرة السلبية للمستقبل بنسبة 85%.

الإصابة بسرطان العين جعل الفرد الراشد يحس بأن منذ إصابته تغيرت حياته وأصبح عاطل عن القيام بالعمل وقلة نشاطاته اليومية أصبح يحس بجرح نفسي بسبب وضعيته الحالية المتأزمة والمتدنية بسبب تدني الجانب الصحي والنفسي بعدما أصبح راشد وناضج وكون أسرة وأنجب أطفال أصبح غير قادر على التغلب على إصابته بسرطان العين.

علامات التشاؤم والإحساس بالنقص أصبحت غالبة على الإحساس الايجابي فيوجد لديه إحساس متمثل في الخوف من المستقبل وظهور العجز للقيام بالواجبات والمسؤولية أمام أفراد أسرته فبدأ يعاني من الإحساس بالنقص والذنب

خاتمة:

من خلال الدراسة التي قمنا بها توصلت النتائج بأن الفرد الراشد الذي يعاني من سرطان العين توجد لديه مشاكل نفسية سيكولوجية وانفعالية حسية قد تأثر بشكل أو بآخر على حالاته النفسية والمحيط الأسري والاجتماعي هذه المشاكل النفسية التي يعاني منها المصاب بسرطان العين قد تأثر على علاقاته الاجتماعية والمهنية ونظرته المستقبلية كذلك وجود حالات القلق والتي عبر عنها بآليات دفاعية نفسية كآلية الانكار للإصابة لتجنب التأثيرات المؤلمة من الناحية النفسية والتقليل من حالات القلق وبعض التخوفات والاستجابات الاكتئابية فالمصاب بسرطان العين يلجأ لهذه الآليات الدفاعية لتجنب التأثيرات المؤلمة.

العناية بالصحة وإعطاء الاعتبار للفرد المصاب بسرطان العين كذلك العناية بالمحيط الأسري والعناية بالعلاقة الموجود بالطبيب المختص في الطب وجراحة العيون قد ترفع من معنويات المصاب باضطرابات بصرية وأهمية العلاج والمتابعة الطبية المبكرة عند ظهور الورم الخبيث والوقاية من الأخطار قد تخفض من المشاكل النفسية والجسمية

التوصيات:

-أهمية المرافقة الفردية والأسرية للمصاب بسرطان العين (الأهل الأولاد الزوجة أو الزوج) خاصة خلال الجلسات الأولى من العلاج الكيميائي

-أهمية التكفل بالإجراءات الاجتماعية للمصاب بسرطان العين

-انشاء البرامج العلاجية النفسية المتكونة من تقنيات علم النفس الإيجابي (كارل روجرس) كالحالات التي تعاني من الأفكار السلبية وتبديلها للايجابية لرفع المعنويات

-رفع المعنويات الروحية من الناحية الدينية جمع مجموعات الأصحاء مع المصابين بالورم الخبيث سرطان العين والتحدث عن الإيمان الروحي بالقضاء والقدر

-القيام بجلسات استرخائية (بنسن ، بترز) اقترح بعض التعليمات التي يجب أن تتبع في عملية الاسترخاء منها أن يجلس الفرد في وضعية جيدة ومريحة ثم يغلق عينيه ويعمل على استرخاء كل عضلات الجسم والتنفس بعمق عن طريق الأنف ويجب الاستمرار على هذه الطريقة لمدة تتراوح بين 10 و 20 دقيقة وان لم يجد في عملية الاسترخاء للمرة الألى الراحة و وإزالة التوتر فعليه بالاستمرار (برجر ، 1994 ، ص11).

قامة المراجع:

أحمد محمد عبد الخالق. (2009)، قلق الموت ، الكويت.

إبراهيم سالم الصيحان. (2010)، الاضطرابات النفسية والعقلية ، مصر.

إبراهيم محمود أبو الهدى. (2011)، دراسة إكلينيكية لقلق المستقبل ودراسة لمعنى الحياة ، مصر.

أحمد عبد الخالق مايسة النيال ، سهير سالم ، حنان سعيد. (2006)، معنى الحياة وحب الحياة لدى مجموعات مختلفة من مريضات السرطان ، الأردن.

جابر عبد الحميد ، علاء الدين الكفافي. (1991)، معجم علم النفس والطب النفسي ، القاهرة ، مصر

حسن عبد الفتاح الفنجري. (2007)، فعالية استخدام بعض الاستراتيجيات علم النفس الإيجابي من التخفيف من قلق المستقبل ، مصر.
خالد محمود. (2006)، علم النفس الإيجابي ، القاهرة ، مصر
السيد أحمد الوكيل. (2010)، فعالية استخدام بعض تقنيات علم النفس الإيجابي في تحسين مستوى التوافق النفسي لدى مرضى السرطان ، مصر
فاطمة الزهراء مشتاوي. (2005 – 2006)، المشاكل النفسية لدى الطفل المصاب باضطرابات بصرية ، رسالة الماجيستير ، جامعة الجزائر.
فاطمة الزهراء مشتاوي. (2015)، دور العلاج الأسري في تخفيف المشاكل النفسية لدى المصابين باضطرابات بصرية ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس العيادي ، جامعة الجزائر 2.
ADNIS J.P .(1989), Tumeurs des paupières, aspects cliniques et thérapeutique, EMC d'ophtalmologie, Tome 4, Paris.
ALEXENDER. (1996), la médecine psychosomatique, Paris.
BOUTONIER J. (1975), l'angoisse, Presse Universitaire de France, Paris.
CHILAND C. (1989), l'entretien clinique, Presses Universitaire de France, Paris.
FAIN M, (1965), Principes de clinique psychosomatique à l'examen de l'investigation d'un cas d'un glaucome.
JEAMMET PH, REYNAUDM, CONSOLI S, (1980) psychologie médical Paris.
Anisimov VN ، Sikora E ، Pawelec G. (2009), "Relationships between cancer and aging: a multilevel approach". Biogerontology.
American Cancer Society, (2007), "Report sees 7.6 million global 2007 cancer deaths"
Jemal A, Murray T, Ward E, Samuels A, Tiwari RC, Ghafoor A, Feuer EJ, Thun MJ. (2005), "Cancer statistics, 2005", CA Cancer J Clin.
Helft PR, Petronio S. (2007), "Communication pitfalls with cancer patients: "hit-and-run" deliveries of bad news"

فعالية برنامج سلوكي معرفي في تحسين مراتب الهوية (انغلاق تشتت) لدى الطالب الجامعي

The Effectiveness of a Cognitive Behavioral Program in Improving Identity Levels (Closure, Dispersion) of a University Student

د. مليكي مروة أ.د رابحي اسماعيل
جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر

إشكالية الدراسة

في ظل عديد المعطيات عن الوجود القيمي و نسق الموروثات ، استحدثت الكثير من التغيرات على مستوى النسق الاجتماعي جعلت الفرد في حالة بحث دائم عن ذاته ، و باعتبار الشعور بالذات و تحقيقها من اهم الحاجات و لأنها المطلب النمائي الأكثر أهمية ، فهي ما يميز خاصة فئة الطلبة في مرحلة التعليم العالي حيث يكون الطالب في المرحلة الانتقالية أي مرحلة الصراع من خلال الالتزام بأحد الخيارات ضمن المجالات السياسية ، الدينية ، الفلسفية مشكلة البعد الإيديولوجي من جهة و ضمن مجالات العلاقات بين الآخر الاستمتاع ، إدراك الدور الجنسي مشكلة البعد الاجتماعي من الهوية من جهة أخرى ، و من خلال التزامه بأحد هاته الأبعاد تقدر هويته ضمن احد مجالاتها و رتبها و نعني بذلك إمكانية نجاحه في تحقيقها من عدمه.

و يعمد الطالب في هاته المرحلة إلى احد الخيارات المتاحة و من خلال الخبرات السابقة و عوامل التنشئة الاجتماعية و ما يقدمه النظام التربوي ، إلى الانتماء إلى احد الالتزامات الأيديولوجية و الاجتماعية ، و تحقيقه لهذا الالتزام يحيله إلى أن يكون قد حدد تعريفا لذاته ، و على العكس من ذلك فقد يتعثر أو ينحاد عن التوجه ليكون بهذا في إشكال اللاتحديد أو الانسحاب عن الهوية أو تأجيلها مما يخلق عديد المشكلات السياسية و العقائدية باعتبار قيم المواطنة و الانتماء الروحي أسمى ما تسعى إليه النظم التربوية ، إضافة إلى المشكلات النفسية ، الاجتماعية ، البيداغوجية و غيرها ، ممن تندرج تحتها الهوية كمطلب أساسي لها.

و تكمن مشكلة الدراسة الحالية في الكشف عن مراتب الهوية و من ثم بناء برنامج تدريبي سلوكي معرفي يعمل على تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى الطالب الجامعي و قد تم اختيار فئة طلبة الجامعة نظرا لما تعانيه من اضطرابات في الهوية و صعوبة تحقيقها و لذلك جاءت الدراسة الحالية لاستقصاء اثر برنامج سلوكي معرفي يستند الى نظرية اريكسون في تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى الطالب الجامعي.

أسئلة الدراسة

-ما هي مراتب الهوية الأيدولوجية لدى الطالب الجامعي ؟

-ما هي مراتب الهوية الاجتماعية لدى الطالب الجامعي ؟

-ما أثر برنامج سلوكي معرفي في تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى المجموعة التجريبية مقارنة بالمجموعة الضابطة ؟

فرضيات الدراسة

-توجد نسبة مرتفعة من مرتبتي الانغلاق و التشتت في الهوية الأيديولوجية.

-توجد نسبة مرتفعة من مرتبتي الانغلاق و التشتت في الهوية الاجتماعية.

-يوجد اثر للبرنامج السلوكي المعرفي في تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لصالح المجموعة التجريبية.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية الدراسة في كونها من الدراسات القليلة في العالم العربي ممن استخدمت البرنامج السلوكي المعرفي في تحسين مراتب الهوية كتدخل علاجي و تجريبي إضافة إلى أنها تعد الأولى من نوعها على حد اطلاع الباحثين ممن استخدمت برنامج لتحسين الهوية ، كما و تعد إحاطة بعديد الجوانب البيداغوجية ، الاجتماعية ، النفسية والسياسية نظرا لكون الهوية متغير عام وشامل لجميع المجالات إضافة إلى الدراسة الحالية ستسمح بالاطلاع على أبعاد متغير الهوية من حيث ارتباطه بعديد المعطيات النفسية ، البيداغوجية ، الاجتماعية و بما أن الطالب يعيش فترة انتقالية نحو تحديد الهوية فقد جاءت الدراسة لغرض تنمية الهوية و هذا و تعد الدراسة اسهاما علميا في بناء البرنامج السلوكي المعرفي.

أهداف الدراسة

-الكشف عن مراتب الهوية الأيديولوجية لدى الطالب الجامعي.

-الكشف عن مراتب الهوية الاجتماعية لدى الطالب الجامعي.

-استقصاء أثر برنامج سلوكي معرفي في تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى الطالب الجامعي.

تحديد مصطلحات الدراسة

برنامج معرفي سلوكي: هو التدخل العلاجي المراد قياس أثره و الذي يجمع بين صياغة الأفكار معرفيا و إعادة تنظيم حديث الذات و العلاج بالتخيل و القدرة على الوعي بالذات و القدرة على التواصل مع الآخرين زيادة القدرة على تأجيل الاندفاع كأساليب معرفية و العلاج بالتعريض كأسلوب سلوكي لتحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت.

مراتب الهوية: بناءا على دليل المقياس الموضوعي للهوية لآدمز و معاونوه ، تتحدد الهوية ضمن مجالين إيديولوجي و اجتماعي من خلال أربع رتب هي الانجاز ، التعليق ، الانغلاق ، التشتت و تحدد بمقدار الدرجة التي يتحصل عليها الفرد بعد إجابته على كل فقرات المقياس.

رتب الهوية الصافية: و تتضمن الأفراد الذين تزيد درجاتهم بمقدار انحراف معياري واحد أو أكثر على واحدة من المراتب الأربعة ، و تكون درجاتهم في الرتب الثلاث الأخرى دون الدرجة الفاصلة و التي نعني بها مجموع المتوسط الحسابي بمقدار انحراف معياري واحد.

رتب الهوية منخفضة التحديد: و هم الأفراد الذين لا يتجاوز درجاتهم انحراف معياري واحد فوق المتوسط في الرتب الأربعة للمقياس.

رتب الهوية الانتقالية: و هم الأفراد الذين تتجاوز درجاتهم في أكثر من مرتبة انحراف معياري واحد فوق المتوسط (لحسن العقون: 2014)

الطالب الجامعي: و هم الطلبة الذين يزاولون دراستهم في السنة الأولى في كلية العلوم الدقيقة.

الجانب التطبيقي

منهج الدراسة: نظرا لطبيعة الدراسة تم الاعتماد على منهج التجريبي وفق تصميم المجموعة الضابطة و التجريبية باختبارين قبلي و بعدي و يعرف بأنه أنه المنهج المستخدم حين نبدأ من وقائع خارجة عن العقل و

سواء كانت خارجة عن النفس أو باطنية فيها لتفسيرها بالتجربة دون اعتماد على مبادئ و قواعد المنطق الصورية وحدها(عمار بوحوش:2014: 60).

عينة الدراسة: تم تطبيق الدراسة على عينة من طلبة كلية العلوم الدقيقة السنة الأولى و قد بلغ العدد الكلي 80 طالبا تم اختيارها بأسلوب العينة العشوائية.

مجالات الدراسة

المجال الزمني: تم اجراء الدراسة خلال السنة الجامعية2018 /2019 في المرحلة الممتدة من 2019/02/01إلى 2019/04/09

المجال المكاني: أجريت الدراسة في جامعة محمد خيضر بسكرة كلية العلوم الدقيقة

المجال البشري: و تمثل في عينة من طلبة السنة الأولى كلية العلوم الدقيقة.

إجراءات اختيار العينة: تم اختيار أفراد العينة المكونة من 80 طالبا عشوائيا و تم توزيع مقياس مراتب الهوية لغرض اختيار الأنسب منها للبرنامج المعد حيث:

تم توزيع المقياس الموضوعي لرتب الهوية على افراد العينة و البالغ عددهم 80 طالبا

تم إلغاء 20 استمارة و ذلك بسبب أن درجاتهم تساوي أو تزيد عن الدرجات الفاصلة في ثلاث أبعاد أو أكثر ، بسبب عدم فهمها لتعليمات المقياس أو عدم أمانتها في الإجابة ، و قد أوصى آدمز بتجاهلهم من العينة

تم اختيار الطلبة الذين تحصلوا على أعلى درجة في مرتبتي الانغلاق و التشتت و البالغ عددهم 40 طالبا

تم استبعاد 10طلبة لعدم رغبتهم في المشاركة.

و بذلك أصبح العدد 30 طالبا وزعوا على مجموعتين تجريبية و ضابطة بالعدل

تم التأكد من تجانس المجموعتين في جميع المتغيرات السن الجنس المستوى التعليمي و المستوى الاجتماعي و الاقتصادي.

أدوات الدراسة: تم الاعتماد على الأدوات التالية :

-مقياس مراتب الهوية لآدمز الصورة ج.

-برنامج معرفي سلوكي من إعداد الباحثتين.

-استمارة تقييم البرنامج إعداد الباحثين.

مقياس مراتب الهوية:تمثل في المقياس الموضوعي لرتب الهوية الإيديولوجية و الاجتماعية لمرحلتي المراهقة و الرشد الصورة النهائية *ج* لبينيون و آدمز 1986 ، إعداد و ترجمة محمد السيد عبد الرحمن 1998

قام آدمز و معاونوه ببناء المقياس الموضوعي لرتب هوية الأنا المعتمد على نموذج مارشيا لهوية الأنا و القائم على نظرية اريكسون للهوية التي تؤكد على أن الوظيفة البنائية للانا السوية هو الشعور بالهوية أو تحقيق هوية الأنا ، و تتوزع العبارات على المحاور التالية:

الجدول -1- يوضح توزيع عبارات المقياس على المحاور:

و يستخدم كمقياس لقياس و تحديد الهوية لأشخاص فرادى تتراوح اعمارهم ما بين 13-30 سنة و يستخدم أيضا لقياس الفروق بين الأفراد ، أو التغيرات داخل الفرد في شكل تطور الهوية.

الرتب	البعد	العبارات
الانجاز	الهوية الايديولوجية	49-42-40-33-20-18-8
	الهوية الاجتماعية	55-51-46-45-35-22-15-13-60
التعليق	الهوية الايديولوجية	57-48-36-34-32-26-12-9
	الهوية الاجتماعية	61-54-47-43-31-14-11-5
الانغلاق	الهوية الايديولوجية	64-58-50-44-41-28-24-17
	الهوية الاجتماعية	63-62-31-38-37-27-21-3
التشتت	الهوية الايديولوجية	56-52-25-16-10-4-2-1
	الهوية الاجتماعية	59-53-30-29-23-19-7-6

الخصائص السيكومترية للمقياس

الثبات: بلغت معاملات الاتساق الداخلي في دراسة لآدمز و معاونيه بمعادلة الف كرونباخ للأبعاد الفرعية لكل من الهوية الايديولوجية و الاجتماعية بين 0.3-0.89 و متوسط قيمة الفا الكلية هو 0.66 و يميل الاتساق الداخلي للأبعاد الأربعة للهوية الايديولوجية لان يكون اكبر عموما من الاتساق الداخلي لأبعاد الهوية الاجتماعية. كما احتسب آدمز و آخرون الثبات بطريقة التطبيق واعادة التطبيق حيث قدرت معاملات الارتباط بين التطبيقين متراوحة بين 0.71-0.93 مع متوسط يعادل 0.76 و هي قيم كلها دالة احصائيا مما يدل على ثبات المقياس.

أما بطريقة التجزئة النصفية فقد بلغت معاملات الارتباط بين نتائج رتب الهوية الكلية و نتائج الأبعاد الفرعية بين 073-0.64 و كلها دالة احصائيا. و توضح هذه النتائج مستوى مرتفع بشكل احصائيا على ثبات المقياس.(محمد عبد الرحمن السيد: 1998: -44-46).

الصدق: باستخدام التحليل العاملي وجدت العديد من الدراسات ان المقياس يتكون من 04 عوامل و هو ما يتناسب مع الجانب النظري بالرغم من التداخل بين بعض البنود لان الهوية تعبر عن حالة نفسية متطورة أو متعثرة.

برنامج العلاج المعرفي السلوكي إعداد الباحثتين: وهو الأداة الرئيسية لهذه الدراسة حيث يهدف إلى تحقيق أهداف الدراسة و يعتمد على فنيات و أساليب بهدف تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى فئة العينة.

أهداف البرنامج:

الأهداف العامة للبرنامج: يهدف البرنامج الحالي إلى تحسين مستوى مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى عينة من طلبة الجامعة مرتفعي الدرجات على مقياس مراتب الهوية من خلال:

-تدريبهم على المراقبة الذاتية للأفكار والتخيلات السلبية ، دحض وتفنيد أنماط التفكير غير الفعال حلال أفكار أخرى أكثر واقعية تعديل صورة الذات أثناء مواقف التفاعل الاجتماعي ، وتخفيض التوقعات السلبية المتعلقة بتقييمات الآخرين.

-تدريبهم على تحمل مسؤولياتهم في العلاج ، ولعب دور أساسي فيه باستخدام الواجبات المنزلية. متابعة احتفاظ أفراد العينة التجريبية بالمكاسب العلاجية خلال فترة مقدرة بشهر كامل.

الأهداف الإجرائية للبرنامج: تتحدد الأهداف الإجرائية للبرنامج العلاجي المعرفي السلوكي بما يمكن قياسه وهي:-تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لدى أفراد العينة.

-زيادة القدرة على الوعي بالذات لدى أفراد العينة.

-زيادة القدرة على التواصل مع الآخرين لدى أفراد العينة.

-تحسين القدرة على تقدير الذات لدى أفراد العينة.

الأسلوب العلاجي المتبع: يعتمد البرنامج الحالي على أسلوب العلاج الجماعي ، والذي تكون له فعالية في العلاج النفسي لمجموعة من الأفراد يتشابهون في مشكلاتهم واضطراباتهم.

-رؤية آخرين يعانون من نفس المشكلة.

-خلق جرأة عامة للتغيير.

-توفير مجموعة من الأشخاص يزودوننا بدليل للقدرة على مواجهة التفكير المشوه.

فوجود أكثر من فرد في الجماعة العلاجية يسهل مشاركة البعض في الأنشطة العلاجية ويبقى بعضهم يمثل الجمهور والذي يمكن أن يمدنا بالتغذية الراجعة الفعالة عن أداء كل عضو ، وهو ما لا يتيحه العلاج الفردي.

الفنيات المستخدمة في برنامج العلاج المعرفي السلوكي:

-التدريب على إعادة صياغة الأفكار معرفيا.

-إعادة تنظيم حديث الذات.

-التخيل العلاجي.

-تخيل المواجهة.

-التخيل العقلاني- الانفعالي.

-التعريض لفنيات المكملة.

-الواجبات المنزلية.

-سجل الأفكار.

-الحوار السقراطي: الاكتشاف الموجه.

مراحل البرنامج العلاجي:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل العلاج المعرفي السلوكي مرحلة تمهيدية وتشمل الجلسة الأولى.

المرحلة الثانية: مرحلة العلاج المعرفي السلوكي ، وتشمل الجلسات من 2إلى12.

المرحلة الثالثة: مرحلة التقييم والمتابعة ، وهي مرحلة تمثل ما بعد الجلسات العلاجية وتقييم حالات المشاركين في البرنامج ، والتغيرات التي حصلوا عليها نتيجة العلاج وتمثلت في الجلسة1.

عدد الجلسات: يستغرق تنفيذ البرنامج العلاجي 6 أسابيع يتم خلالها تنفيذ 12 جلسة علاجية بواقع جلستين أسبوعيا ،وشهرا للمتابعة يتم في نهايته إجراء الجلسة الثالثة عشر للقياس التتبعي.

زمن الجلسات: يقدر زمن كل جلسة علاجية بـ 90دقيقة ، حيث تبدأ كل جلسة بمقدمة تستغرق 15دقيقة تشتمل الترحيب ومراجعة الواجب المنزلي ، ثم يتم تقديم التدخل العلاجي بفنياته في60دقيقة ، وفي نهاية كل جلسة يقدم ملخص ما جاء فيها ، وتحديد الواجب المنزلي 15 دقيقة.

الأساليب المستخدمة في تقييم البرنامج:

1- القياس القبلي: حيث يتم تطبيق مقياس مراتب الهوية قبل بدء البرنامج.

2- .القياس البعدي: يتم بتطبيق مقياس مراتب الهوية بعد تطبيق البرنامج ،وحساب الفرق بين القياسين.

3- .التقويم خلال البرنامج: وذلك من خلال تسجيل الملاحظات عن مشاركة أفراد عطاء مؤشرات التحسن جراء الواجبات المنزلية ، والمجموعة ، وتنفيذهم للتعليمات ، في كل جلسة.

4- تقييم البرنامج بعد الانتهاء من تطبيقه: من خلال تطبيق وتفريغ استمارة التقييم المعدة لذلك.

استمارة تقييم البرنامج: استمارة تم إعدادها من قبل الباحثتين الهدف منها الحصول على تقييم عام لأفراد المجموعة التجريبية للبرنامج الذي خضعوا له ، وهي تتكون من10 بنود تتضمن تقييم إجراءات البرنامج وفنياته ، حيث يجيب عنها أفراد المجموعة وفقا للبدائل التالية أوافق بشدة ،أوافق إلى حد ما ، لا أوافقوتعكس النسب المتحصل عليها تقديرا ذاتيا لمدى الاستفادة من كل إجراء تم الخضوع له أثناء البرنامج العلاجي والاستفادة من البرنامج بشكل عام ، ويستفاد من هذه النتائج في التعرف على تقديرات المشاركين لمحتويات البرنامج ، ومدى الاستفادة منه ، بما لا يترك مجالا للشك في فعالية البرنامج.

الأساليب الإحصائية المستخدمة: لمعالجة البيانات المتحصل عليها بعد تطبيق الدراسة الأساسية اعتمدت الأساليب الإحصائية التالية: المتوسط الحسابي. الانحراف المعياري. اختبار ت" " لدلالة الفروق بين المتوسطات. تحليل التباين المصاحب ولقد تمت المعالجة الإحصائية باستعمال برنامج spss 24

نتائج الدراسة و مناقشتها

1 عرض و مناقشة نتائج الفرضية الأولى و التي نصت على: توجد نسبة مرتفعة من مرتبتي الانغلاق و التشتت في مجال الهوية الأيديولوجية

وتوزعت كما يمثلها الجدول التالي:

جدول: 2 يوضح توزيع العينة على الهوية الصافية الإيديولوجية

الرتب	التكرار	النسبة
انجاز	9	2,22%
تعليق	10	2,47%
انغلاق	50	12,35%
تشتت	36	8,89%
المجموع	105	25,93%

و يتضح من الجدول أعلاه أن نسبة الهوية الصافية في المجال الإيديولوجي بلغت **25,93%**حيث توزعت على الرتب كما يلي: اعلي نسبة لرتبة الانغلاق حيث بلغت **12,35%** ، تليها رتبة التشتت بنسبة ، **8,89%** ثم التعليق بـ **2,47%** و الانجاز **2,22%** كآخر الرتب ، و بذلك يمكن القول أن أفراد العينة يميلون للانغلاق و التشتت في المجال الإيديولوجيو هو دلالة على ضعف النمو الأيديولوجي لدى المراهق ، و عدم تكوين واضح

و صريح للهوية ضمن مجالاتها السياسية ، الدينية و العقائدية ، ولا فلسفة الحياة و التوجه المهني و يشير الانغلاق إلى أن ما يقرره المراهق يعد التزاما ثابتا دون المرور بأزمة فهو يتبنى ما يعتقده الآخرون و غالبا ما يكون الوالدين و ارتفاع نسبته دلالة على أن المراهق ليس على وعي بما يحيط بمجتمعه من سياسة و قيم و عقائد ، و لان طريقة التنشئة في مجتمعنا تعمل على ترسيخ مبدأ الرشد المبكر ، لكن الواقعين بهاته المرتبة يظهرون عدم المقدرة على الاستقلالية و تفضيل الاتكالية في رسم الملمح لمن هم ارشد منهم ، في الوقت الذي يفترض به التفرد في الانتقاء خاصة و انه في مرحلة الانتقال إلى التكوين الاستقلالي ، و هو دلالة على هشاشة و ضعف المراهق و بنيته الهوياتية ، و يشير ارتفاع نسبة مشتتي الهوية إلى و التي تشير إلى الفرد الذي تغيب لديه الأزمة و هذا يعني غياب الاستكشاف و غياب الالتزام نحو أي هدف ، فيتميز بعدم امتلاك أي توجه أو قدرة على اتخاذ قرار مناسب نحو معتقده أو مستقبله المهني أو أسلوبه في الحياة رغم انه في المرحلة النهائية من التعليم الثانوي ، أين كان يجدر به تكوين ملمح حول مستقبله المهني و اسلوبه في الحياة لكن نجده يفشل في تبني أيديولوجية محددة نحو ذاته ، و يتسم المراهق في هاته الرتبة بالهروب و الانطواء أو تبني بعض السلوكيات السلبية.

2 عرض و مناقشة نتائج الفرضية الثانية و التي نصت على: توجد نسبة مرتفعة من مرتبتي الانغلاق و التشتت في مجال الهوية الاجتماعية

و توزعت كما يوضحها الجدول رقم 3 :

توزيع رتب الهوية الصافية الاجتماعية		
الرتب	التكرار	النسبة
انجاز	12	2,96%
تعليق	34	8,40%
انغلاق	42	10,37%
تشتت	40	9,88%
المجموع	128	31,60%

من خلال الجدول يتضح أن بلغت نسبة الهوية الصافية الاجتماعية **31,60%**موزعة على رتبها كما يلي **10,37%** بالنسبة للانغلاق كأعلى نسبة ثم تليه نسبة التشتت بـ **9,88%** ، والتعليق بنسبة**8,40%**و كأخر الرتب الانجاز بنسبة **2,96%** و بهذا يمكن الخلاص إلى أن أفراد العينة يبدون انغلاقا و تشتتا في الهوية الاجتماعية ، في رتبة المنغلقين في الهوية أي في وضع يتبنى كل ما يمليه الآخر و هي نتيجة منطقية بسبب طبيعة التنشئة الاجتماعية للمجتمع الجزائري التي تفرض قيودا على العلاقات و نوعها و لكن على اعتبار المراهق في المرحلة الثانوية فمن الطبيعي أن يكون صداقات و أن يزداد لديه الوعي بالجنس الآخر و هو كمطلب نمائي للمراهقة إضافة إلى الوعي بكيفيات الاستمتاع و الترفيه وهي الفترة التي يتحدد فيها ميله للجنس الآخر و التفكير بالارتباط ، نجد المعطيات الميدانية تعكس ذلك مما يطرح إشكالا حقيقيا لانقياد المراهق في

هاته المرحلة العمرية و عدم قدرته على التفرد بالاستقلالية و الاختيار و قد يرجع إلى الاتكالية التي تتبناها الأسرة الجزائرية للجيل الحديث مقارنة على ما كان ينتشئ عليه المراهق سابقا، و كثرة المظاهر الغربية و تبنيها من قبل المراهق في هاته المرحلة

3 عرض و مناقشة نتائج الفرضية الثالثة و التي نصت على: يوجد اثر للبرنامج السلوكي المعرفي في تحسين مرتبتي الانغلاق و التشتت لصالح المجموعة التجريبية

و للتأكد من صلاحية الفرضية تم احتساب المتوسطات الحسابية و الانحرافات المعيارية لدرجات الهوية لأفراد المجموعتين التجريبية و الضابطة قبل و بعد البرنامج كما يوضحه الجدول رقم 04

التطبيق	مجموعة تجريبية		مجموعة ضابطة	
	متوسط	انحراف	متوسط	انحراف
القبلي	4.50	4.02	4.40	4.01
البعدي	5.00	0.32	4.30	0.34

يتضح من الجدول أعلاه وجود فروق ظاهرية في درجات الهوية بين المجموعتين التجريبية و الضابطة في التطبيقين القبلي و البعدي و لغرض معرفة دلالة الفروق تم احتساب التباين المشترك كما يوضحه الجدول رقم 05

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف	مستوى الدلالة
القبلي	0.214	1	0.214	3.05	0.05
الأثر التجريبي	3.992	1	3.992	90.04	0.05
الخطأ	2.910	38	0.105		

يتضح من خلال الجدول أعلاه وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند 0.05 في درجات مقياس الهوية لصالح المجموعة التجريبية تعزى للبرنامج التجريبي المطبق

و لغرض التعرف على اتجاه الفروق تم استخراج المتوسطات الحسابية المعدلة و الخطأ المعياري و الجدول رقم 06 يوضح ذلك.

المجموعة	المتوسط المعدل	الخطأ المعياري
التجريبية	3.98	0.049
الضابطة	2.90	0.05

و يتضح من خلال الجدول أعلاه وجود فروق في المتوسطات المعدلة بين المجموعتين التجريبية و الضابطة لصالح التجريبية و هو دلالة صريحة لوجود اثر للبرنامج المعد لغرض تحسين مرتبتي التشتت و الانغلاق لدى الطلبة.

4 عرض وتحليل نتائج تقييم أفراد العينة التجريبية للبرنامج: وقصد الحصول على تقارير ذاتية عن مدى استفادة الطلبة أفراد المجموعة التجريبية من البرنامج العلاجي بمحتواه وتطبيقاته، طبقت عليهم استمارة تقييم البرنامج.

الرقم	التقييم% من الدرجة الكلية	درجة الفقرة	لا أوافق	أوافق إلى حد ما	أوافق بشدة	الفقرة
10	0	0	20	%100	تبديل تفكيري السلبي بالتفكير الإيجابي .	1
7	3	0	17	%85	التخلص من الخوف من التقييم السلبي للآخرين .	2
9	1	0	19	%95	تكوين افتراضات إيجابية قبل الدخول في أي موقف اجتماعي .	3
10	0	0	20	%100	التعرف على سلوكيات الأمان والتخلص منها .	4
8	2	0	18	%90	تعديل الصورة المتخيلة عن الذات .	5
9	1	0	19	%95	استخدام حوار ذاتي إيجابي أثناء مواجهة المواقف المرهوبة .	6
7	3	0	17	%85	تخفيض الأعراض الفيزيولوجية	7
8	2	0	18	%90	رفع تقديري لذاتي .	8
7	3	0	17	%85	منع تفحص سيناريو الموقف بعد وقوعه	9
10	0	0	20	%100	مواجهة المواقف الاجتماعية بصورة ملائمة .	10
		15	0	185	%92,50	الدرجة الكلية

نلاحظ من خلال الجدولأن نسب الموافقة على الاستفادة من البرنامج تتراوح بين85%-100% وقد كانت النسبة المتعلقة بالدرجة الكلية لأفراد المجوعة التجريبية مقدرة ب 92,5% مما يدعم ويتوافق مع نتائج الفرضيات التي تؤكد فعالية البرنامج العلاجي المعد في الدراسة الحالية.

تشير النتائج المتواصل إليها إلى أن البرنامج الذي تعرض له الطلبة ذو قدرة على تغيير مدركات الطالب السلبية الذي أضفى إلى تحسين سلوكيات الأمان و رفع التقدير الذاتي إضافة إلى مواجهة المواقف الاجتماعية و تعديل الصورة المتخيلة و المساعدة في اتخاذ القرار و يعزو الباحثين إيجابية البرنامج في تحسين مرتبتي التشتت و الانغلاق إلى الفنيات المستخدمة و استعداد فئة العينة إلى أحداث التغير الشخصي و هذا ما أفضى إلى المساعدة في رفع مستوى مرتبتي الهوية موضوع الدراسة هذا و قد كان لأسلوب التدريب الجماعي اثر على اكتساب القدرة على اتخاذ القرار ، القدرة على التواصل مع الآخر ، الثقة بالنفس.

النتائج العامة للدراسة:

-ارتفاع نسبة منغلقي و مشتتي الهوية الأيديولوجية لدى الطلبة.

-ارتفاع نسبة منغلقي و مشتتي الهوية الاجتماعية لدى الطلبة.

-وجود اثر للبرنامج السلوكي المعرفي في تحسين مستوى الهوية في مرتبتي التشتت و الانغلاق لصالح المجموعة التجريبية.

و في ضوء نتائج الدراسة الحالية يوصي الباحثين بما يلي :

توصيات الدراسة: -إجراء المزيد من الدراسات للكشف عن مدى فاعلية البرنامج الحالي في علاج مختلف المشكلات الانفعالية المشابهة و في مراحل دراسية مختلفة.

-إدراج البرنامج ضمن مخطط علاجي لتعديل سلوكيات الطلبة و مشكلاتهم.

-زيادة الاهتمام و تسليط الضوء على فئة منخفضي الهوية من طلبة الجامعة.

-تطبيق دراسة مقارنة بين الحالية و في مجتمع و بيئة مختلفة للكشف عن فعالية البرنامج.

-إجراء مسح عام لقياس مدى انتشار انخفاض مستوى الهوية بين الطلبة وغيرهم.

-إجراء دراسات عبر حضارية يتم من خلالها المقارنة بين عينات جزائرية وأخرى من خارج الوطن.

-إجراء دراسات يتم من خلالها المقارنة بين أسلوبين أو أكثر من العلاجات.

-إجراء دراسات على عينات أخرى غير الطلاب ، وعينات إكلينيكية.

قائمة المراجع

عمار بوحوش ، 2014 ، مناهج البحث العلمي و طرق إعداد البحوث ، المطبوعات الجامعية.

لحسن العقون ، 2014 ، التثاقف ، الهوية ، و اضطرابات الصحة النفسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة باتنة.

محمد السيد عبد الرحمن ، 1998 ، مقياس موضوعي لرتب الهوية الأيديولوجية و الاجتماعية في مرحلتي المراهقة و الرشد المبكر ، ط1 ، دار قباء للطباعة و النشر ، القاهرة .

ميسون جميل محمود جمال ، 2018 ، اثر برنامج تدريبي يستند إلى نظرية الذكاء الانفعالي في تنمية الكفاءة الذاتية الاكاديمية و الهوية المنجزة لدى الطالبات المراهقات ، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث التربوية و النفسية ، المجلد الثامن ، العدد الثالث و العشرون ، القدس.

القانون الدولي للبيئة –بين القانون الدولي للتنمية وضرورة حماية البيئة

International Law of the Environmental -Between the law of international development and the need to protect the- environmental

أ.:فازية نصاح ، جامعة الجزائر 1 كلية الحقوق بن يوسف بن خدة- الجزائر

مقدمة

يتشكل المجتمع الدولي من دول متطورة صناعيا واقتصاديا ودول أقل نموا وأخرى في طريق النمو ، ورغبة من هيئة الأمم المتحدة لتقليص الفجوة الموجودة خصوصا بين دول الشمال والجنوب ، انتهجت نظام اقتصادي دولي تنموي جديد قائم على التضامن والشراكة الدولية لتفعيل التنمية والقضاء على الفقر ومعالجة التخلف القائم ، لان الحق في التنمية هو حق غير قابل للتصرف ويجد أساسه القانوني في كل من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية ، الاجتماعية والثقافية لعام 1966 وإعلان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي جاء في قرارها رقم 41-128 ، المؤرخ في 04-12-1986 يشتمل هذا الحق على عناصر مختلفة منها السيادة التامة على الثروات الطبيعية.

إن ما حققه الإنسان من التطور العلمي والتكنولوجي لا يمكن إنكاره ، وبفضله توصلت الدول إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والبشرية ، ومع تكريس النظام الاقتصادي الدولي التنموي الذي ساهم بدوره في زيادة من عدد الدول المتطورة عن طريق تجسيد آليات وأساليب تنموية ، منها منح القروض الاستثمارية من طرف المؤسسات المالية الدولية ، منح المساعدات المالية والتقنية للدول النامية.بالإضافة إلى عامل العولمة التي نتج عنها حركة رؤوس الأموال والتدفقات الاستثمارية عبر العالم عن طريق ما يسمى بالشركات العابرة للقوميات التي لعبت دورا أساسيا في نقل التكنولوجيا إلى البلدان الغنية بالموارد الطبيعية ، كما أنه لا يمكن إنكار ما سببه ذلك التطور للبيئة ، فالمؤكد أن التنمية الحقيقية لن تتحقق إلا في ظل البيئة السليمة لان الاستغلال غير العقلاني والجائر للموارد الطبيعية يؤدي إلى استنفاذ لمواردها ، هدم النظم الايكولوجية وتلويث البيئة بفعل الأنشطة الصناعية والزراعية ، وغيرها.

ولما أدركت الدول خطورة ظاهرة التغيرات المناخية التي أصبحت اليوم نشكل تهديد مستمر على الإنسان وحضارته ، فسعت الدول إلى انتهاج أسلوبا جديدا للتنمية ووضع نظام قانوني دولي لحماية البيئة ، وكانت بداية الانطلاق من مؤتمر ستوك هو لم 1972 ، غير أن تلك الجهود اصطدمت بكثير من العراقيل أهمها تمتع الدول بالسيادة على ثرواتها الطبيعية. اختيار لموضوع القانون الدولي للبيئة بين القانون الدولي للتنمية لأهميته من الناحية القانونية لان القانونين يختلفان من حيث الأهداف والآثار المترتبة عنهما ، مما خلق وجود نوع من الصراع بينهما وهذا ما ثبته مؤتمر ستوك هو لم بسبب الاختلاف الذي وقع بين الدول المتطورة والنامية ، مع العلم أن القانون الدولي لا يعرف قاعدة تدرج القوانين ولا تعديل أو الإلغاء للاتفاقيات الدولية.يهدف هذا الموضوع إلى بيان الحدود الفاصلة بين قانوني دوليين للتنمية والبيئة (المبحث الأول) ، ودراسة مسألة مدى تأثير السيادة على الجهود الدولية لحماية البيئية(المبحث الثاني).

يثير هذا الموضوع إشكالية أساسية تتمثل في ما مدى تأثير السيادة الوطنية على المصلحة العامة للمجتمع الدولي ألا وهي حماية البيئة من آثار التغيرات المناخية ؟.

المبحث الأول: الحدود الفاصلة بين القانون الدولي للتنمية والقانون الدولي للبيئة

ظهر القانون الدولي للتنمية بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث بعد استقلال عدد من الشعوب مكنها ذلك أن تصبح أعضاء في المجتمع الدولي ، مما تتعارض التطورات في العلاقات السياسية والاقتصادية مع النظام الاقتصادي الدولي القائم ، وما رافق ذلك من تقدم تكنولوجي في جميع ميادين الأنشطة الصناعية والاقتصادية ، التي عممت أسلوب الاعتماد المتبادل بين الدول ، و أن هذه التطورات ولدت قناعة راسخة على إدراك الأنظمة السياسية في كل الدول ، أنه لم يكن في الإمكان عزل مصالح البلدان المتقدمة بالنموعن مصالح الدول النامية.فالإنماء الدولي يعد مسؤولية مشتركة بين جميع الدول ، كل حسب موقعه ، وفق ما جاء به ميثاق الأمم المتحدة من أهداف ومقاصد.

إن القانون الدولي للتنمية غايته إعادة التوازن إلى العلاقات غير المتكافئة بين الدول ، خصوصا بين دول الجنوب ودول الشمال ، ومن أجل تحقيق تلك الغاية قام على مجموعة من مبادئ قانونية ، حيث كان أو ل مبدأ قام عليه هو "حق الشعوب في تقرير مصيرها" الذي مرا بمرحلتين ، أو لها التقرير السياسي ثم الاقتصادي (أ.د.نوري رشيد نوري(1997)، القانون الدولي للتنمية ، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة النجف الاشرف ’ع(41)، المجلد(2)، ص. 212)، والذي مفاده تمتع الشعوب بالسيادة التامة على ثرواتها الطبيعية والسيادة على الإقليم (المادة 1 فقرة 2 والمادة 55 من ميثاق الأمم المتحدة).

وبصدور القرار رقم 41-128 ، المؤرخ في 04-12-1986 ، عن الجمعية العامة للأمم المتحدة فأصبح موضوع التنمية حق من حقوق الإنسان ، ويشتمل هذا الحق على عناصر مختلفة:"السيادة الدائمة على الموارد الطبيعية وتقرير المصير ، المشاركة الشعبية ، تكافؤ الفرص وتحسين الأو ضاع الملائمة للتمتع بالحقوق المدنية والثقافية ، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، والمسأو اة وعدم التمييز" ، كما يعتبر الحق في التنمية من الحقوق المضمونة في الإعلان العالمي والمواثيق الدولية والإقليمية لحقوق الإنسان (نصاح فازية (2015)، الجهود الدولية والداخلية لحماية البيئة أثناء الاستغلال السلمي للطاقة النووية-الآفاق والتطلعات- مذكرة الماجستير ، قانون العام ، التخصص قانون البيئة والعمران ، جامعةالجزائر1-كلية الحقوق بن يوسف بن خدة ، الجزائر ، ص.32.). .

وأمام آثار التغيرات المناخية التي انعكست سلبا على البيئة الطبيعية ، وعلى الإنسان ووجوده بسبب استعماله التعسفي للحق في التنمية الذي يرجع إلى ما نتج عن التقدم العلمي والتقني ، اكتشاف الطاقات بمختلف أنواعها من الفحم إلى البترول والغاز الطبيعي ، والمواد الكيميائية منها غاز فلوركلور الكربون المدمر الرئيسي لطبقة الأو زون...الخ ، فأصبحت مسألة التنمية موضع جدل وخلاف بين الدول المتطورة صناعيا والدول النامية ، خصوصا ، بعد إعلان نادي روما ، في عام 1972 ، عن تقريره حول حدود التنمية ، المعد من طرف خبراء لدى المعهد التكنولوجي ماساشيزات Massachusetts Institute of Technology ، المتضمن "وقف التنمية" من أجل تفادي كارثة ايكولوجية عالمية قبل حلول أقل من القرن(Rachid

BOUDJEMA(2009),violence du capitalisme –développement durable et responsabilité sociétale des entreprises, éditions ACLCOM ,Algérie, p.28).

وعلى اثر النتيجة التي توصل إليها نادي روما ، فظهر في هذا الشأن اتجاهان متعارضان حول التنمية ، الأول تتزعمه الدول المتطورة وتطالب بوقف التنمية من أجل حماية البيئة ، ونادى الاتجاه الثاني الذي تتزعمه الدول النامية بضرورة الاستمرار في التنمية ، غير أنه تم رفض هذين الاتجاهين (قايدي سامية(2002)، التنمية المستديمة:التوفيق بين التنمية والبيئة ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في القانون ، فرع القانون الدولي لحقوق الإنسان ، جامعة مولود معمري تيزي وزو ، كلية الحقوق ، ص.6). واستمر هذا الخلاف لمدة 20 سنة حتى عام 1992 لما عقد مؤتمر ريوديجانيروبشأن التنمية المستديمة الذي يعتبر بمثابة حل وسط بين الاتجاهين.

وانطلاقا مما سبق ، فان دراسة موضوع هذا المبحث يكون بالإجابة على التساؤل المتمثل في :هل القانون الدولي للتنمية والقانون الدولي للبيئة قانونين متعارضين أم كل واحد يكمل الآخر ؟ ، والإجابة تكون بالبحث عن الخصائص القانونية لكل منهما (المطلب الأول) ، وعلاقة التنمية بالتنمية المستديمة (المطلب الثاني).

المطلب الأول :خصائص قانوني الدوليين للتنمية والبيئة

يعتبر كلا القانونين من مسائل حقوق الإنسان ، وذلك وفقا لقرار رقم 41-128 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1986 ، المتعلق بإعلان عن الحق في التنمية ، كما يجد أساسه القانوني في كل من الإعلان العالمي والمواثيق الدولية والإقليمية لحقوق الإنسان ، أما بالنسبة لحق الإنسان في بيئة نظيفة وصحية ، فأنه يجد أساسه القانوني في مؤتمر ستوك هو لم لعام 1972 حيث ورد في المبدأ الأول منه أن :"للإنسان حقا أساسيا في الحرية وفي ظروف حياة مرضية في بيئة ذات نوعية تسمح بالعيش في كرامة ورفاهية" ، الإعلان الصادر عن اللجنة العالمية للبيئة والتنمية لعام 1987"مستقبلنا المشترك" ، ينص هذا الإعلان على الحقوق الأساسية للإنسان وهي الحق في بيئة ملائمة للصحة والرفاهية.أيضا يتضمن تصريح ريولعام 1992 في المبدأ الأول ، "الجنس البشري له الحق أن يحيا حياة صحية ومنتجة بما ينسجم مع الطبيعة"(نصاح فازية ، الجهود الدولية والداخلية لحماية البيئة أثناء الاستغلال السلمي للطاقة النووية-الآفاق والتطلعات-المرجع السابق ، ص.47). كما أن الحق في التنمية والبيئة لهما نفس الأبعاد ، أو لا كونهما من الحقوق الفردية باعتبار أن مضمونه يحوي تحقيق الاحتياجات للفر د ، تتمثل في الحصول على الموارد الطبيعية الخالية من التلوث ، أيضا يتمتع الفرد بحق في العمل ، الحق في الراحة والعطل وتلقي راتب ، الضمان الاجتماعي الحق في التعليم ، الحرية في المساهمة في التقدم العلمي ، المسأو اة بين الذكور والإناث ، (المواد من 3-15 من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، المؤرخ في 16-12-1966 ، دخل حيز النفاذ ابتداء من 03-01-1976)، أيضا هذه الحقوق تم إقرارها في إطار التنمية المستديمة وذلك بتبني في سنة 2015 ، أجندة 2030 تحت عنوان " تغيير الحياة " ، تتضمن سبعة عشر مبدءا وينقسم كل واحد منها إلى مبادئ أخرى فرعية وكلها مرتبطة يبعضها البعض.

وفي هذا الخصوص ، جاء تصريح لمسئول برنامج الأمم المتحدة للتنمية بأن :"إشكالية القضاء على الفقر وحتى التزام بعدم تهميش أي أحد تعتبران قلب للأجندة 2030 "(أ.نصاح فازية(2018)، آليات مكافحة الهجرة غير الشرعية:القوانين والاتفاقيات الدولية ، وقائع المنتدى الدولي الثاني للعلوم الاجتماعية والإنسانية –الملتقى العلمي الدولي الثاني حول الهجرة في المنطقة العربية بعد 7 سنوات من الربيع العربي –الواقع والتحديات ، مركز إدراك للبحث العلمي بتونس مع جامعة قابس المعهد العالي للغات ، تونس ، ص ص.252-253).

هناك بعد آخر يتمثل في أن الحق في التنمية من الحقوق الجماعية التي يشمل الحصول عليها مجموعات بشرية ، وترتبط هذه الحقوق بشعب محدد من انتماءاته السياسية أو العرقية أو الثقافية ، وتتمثل في مجملها في حق تقرير المصير(أ.بن عودة يوسف (2016)، علاقة التنمية الدولية بحقوق الإنسان ، مجلة جيل حقوق الإنسان ، مركز جيل البحث العلمي ، العدد(10)، لبنان ، ص. 36)، ومفاده وفقا للعهد الدولي لحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، المادة 1 منه فقرة 1-3 التي تنص على أنه :"لجميع الشعوب حق تقرير مصيرها بنفسها وهي بمقتضى هذا الحق حرة في تقرير مركزها السياسي وحرة في السعي لتحقيق نمائها الاقتصادي ، الاجتماعي والثقافي.لجميع الشعوب سعيا وراء أهدافها الخاصة التصرف الحر بثرواتها ومواردها الطبيعية دون إخلال بأية التزامات منبثقة عن مقتضيات التعأو ن الاقتصادي الدولي القائم على مبدأ المنفعة المتبادلة وعن القانون الدولي.ولا يحوز في أية حال حرمان أي شعب من أسباب عيشه الخاصة...".

ويتجلى أيضا الطابع الجماعي للحق في التنمية من خلال تكريس الحق في السلام و هو أن يتمتع الشعوب بحالة من الأمن والاستقرار التي تسمح بمزأو لة مختلف النشاطات بعيدا عن الخوف والخطر (أ.بن عودة يوسف (2016)، علاقة التنمية الدولية بحقوق الإنسان ، المرجع السابق ، ص. 37)، كذلك من خلال تكريس مبدأ المسأو اة في السيادة ، ومفادها أن جميع الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة يملكون نفس القدرات لممارسة حقوقهم وتحمل الالتزامات في النظام الدولي ، بغض النظر عن الاختلافات الموجودة من القدرات ، والتطور ، أيضا القانون الدولي للتنمية يهدف إلى تحقيق المسأو اة مابين الدول جميعا من خلال العمل على إزالة الفوارق الاقتصادية بين الدول المتطورة والنامية عن طريق التضامن الدولي وذلك بمنح المساعدات التي تأخذ أشكالا مختلفة لفائدة الدول النامية ، منها المساعدات المالية ، النقل التكنولوجي ، تقديم الاستشارات ، الإعفاءات الجمركية لدول أكثر الرعاية...الخ ، وأيضا تتحقق إزالة هذه الفوارق عن طريق تعزيز وترقية الشراكة الاقتصادية ووالتبادل التجاري في ما بين الدول النامية طبقا لكل من المادة23من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، المادة 24 من نفس العهد تقرر إلزام الدول المتطورة تفادي إلحاق أي ضرر بمصالح الدول النامية ، والمادة 3 فقرة 2 من الميثاق الأمم المتحدة.

كما أن الحق في البيئة هو حق جماعي ، باعتبار أن البيئة السليمة هي حق لجميع الدول والشعوب والأجيال الحاضرة والمقبلة التي تشكل الإنسانية في مجموعها.ويعتبر الحق في بيئة سليمة حق للدول كون أن البيئة واحدة لا تتجزأ ، فان أي اعتداء على جزء منها تنعكس أثاره الضارة لتتجأو ز مكان وقوع الفعل الضار إلى الدول الأخرى ، وهذا ينشئ حقل للدول في أن تنشد إمكانات تحقيق بيئة سليمة جالية من التلوث وذلك عن طريق التعأو ن فيما بينها ، والتمتع بحق سلامة البيئة يقابله التزام باحترام هذا الحق من قبل جميع دول العالم في إطار التلازم بين الحقوق والواجبات.كذلك تعتبر سلامة البيئة حق للأجيال المقبلة بالإضافة

للأجيال الحاضرة ، مما يستلزم حمايتها من الاستنفاذ والتلوث ، ويرى الفقيه "كونت " أن سلامة البيئة من عناصر التراث المشترك(نصاح فازية ، الجهود الدولية والداخلية لحماية البيئة أثناء الاستغلال السلمي للطاقة النووية-الآفاق والتطلعات-المرجع السابق ، ص.48).

ومع ذلك فان الحق في تحقيق الرفاهية والاحتياجات في إطار التنمية يعتبر حق مطلق باستغلال الثروات الطبيعية ، أما في إطار التنمية المستديمة فهذا الحق وفقا لإعلان كوكويك -Coccoyoc عام 1974 هو أنه:"تنمية تخضع لمنطق احتياجات الشعوب وليس لمنطق الإنتاج وتراعي فيه الأبعاد الايكولوجية والبحث عن الانسجام بين الطبيعة والإنسان" ، وأعيد النص على التنمية الايكولوجية بصورة واسعة في مصطلحات برنامج الأمم المتحدة للبيئة عام 1978 ، حيث اعتبرها:"أسلوب يسمح بالحصول على أحسن فائدة من موارد منطقة معينة بفضل تصورات وتكنولوجية مبتكرة ومستقلة ، وأنه أسلوب يحول الأنظمة الايكولوجية في اتجاه تنمية عقلانية على المستوى المحلي" (قايدي سامية(2002)، التنمية المستديمة:التوفيق بين التنمية والبيئة ، المرجع السابق ، ص.36).

يستنتج أن تحقيق التنمية في إطار التنمية المستديمة هو حق مقيد بتوفير الاحتياجات اللازمة لكل إنسان ، مع التزام الجميع استعمال التقنيات الملائمة للبيئة الذي يجد أساسه القانوني في التوصيات المنبثقة عن المؤتمرات الدولية البيئية من ستوك هو لم إلى ريو+20 ، وفي الاتفاقيات الدولية المبرمة في هذا المجال.

كما أن حماية البيئة في إطار التنمية المستديمة ساهمت في ظ هو ر حق جديد يتمثل في حق الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها الذي يقابله التزام الجيل الحاضر بنقل البيئة نظيفة إليهم مع ترك لهم نصيب من الثروات الطبيعية ، وهذا طبقا لقرار رقم 285 لعام 1989الصادر عن مجلس إدارة برنامج الأمم المتحدة للبيئة ، بشان التنمية المستديمة ، ينص على أن:"التنمية المستديمة هي التنمية التي تلبي احتياجات الأجيال الحاضرة دون الإضرار بقدرة الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها..." (قايدي سامية(2002)، المرجع نفسه ، ص.38)، بالإضافة إلى إعلان ريو1992 المتعلق بحماية التراث المشترك الذي يعتبر ملكية عالمية للإنسانية.

ونظرا لاختلاف حقوق الإنسان البيئية عن تلك المتعلقة بالتنمية ، فبعض المؤلفين أضافوا تقسيم ثالث لحقوق الإنسان المتمثل في الجيل الثالث و هو "حق الإنسان في البيئة" ، مما دفع مختلف الجهات على المستوى الدولي بالمطالبة بإدماج ضمانات حماية البيئة في العهد الثاني الدولي المتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعام 1966 ، أو تحويل الإعلان ريولعام 1992 إلى اتفاقية متعددة الأطراف على منوال تحويل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (نصاح فازية ، الجهود الدولية والداخلية لحماية البيئة أثناء الاستغلال السلمي للطاقة النووية-الآفاق والتطلعات-المرجع السابق ، ص.49).

المطلب الثاني :علاقة التنمية بالتنمية المستدامة

تبلور مفهوم التنمية بالمستديمة ابتداء من مؤتمر ريو1992 إلى اتفاقية باريس لسنة 2015

(الفرع الأول) كما عرف إدماج التدريجي للمقتضات البيئية في المؤسسات المالية الدولية المنشئة في إطار التنمية منها البنك الدولي والمنظمة العالمية للتجارة والجات(الفرع الثاني).

الفرع الأول: من مؤتمر ريو1992 إلى اتفاقية باريس لسنة 2015

ترجع بداية الانطلاق من حماية البيئة إلى مؤتمر ستوك هو لم لعام 1972 الذي لم يهتم بالتنمية المستديمة بمعنى هناك انفصال تام بين حماية البيئة والتنمية الاقتصادية بسبب الخلاف الذي وقع بين الدول المتطورة والدول النامية ، وانتهى المؤتمر في نهاية أعماله إلى وضع مجموعة من المبادئ والإعلان البيئي فقط ، ثم تبلور مفهوم التنمية المستديمة في عام 1992 لما انعقد مؤتمر ريودي جانيرو ، على أن حماية البيئة والتنمية الاجتماعية والاقتصادية هي أمور ضرورية لتحقيق التنمية المستديمة استنادا إلى مبادئ ريو.ولتحقيق هذه التنمية تم اعتماد البرنامج العالمي المعروف باسم جدول أعمال القرن 21 ، وإعلان ريوبشأن البيئة والتنمية (الأمم المتحدة(2002) ، تقرير مؤتمر القمة العالمي للتنمية المستديمة ، جوهنسبرغ جنوب إفريقيا ، 26 أو ت -08سبتمبر 2002 ، نيويورك ، ص.2).

وفي نفس السنة ، أبرمت اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن التغيرات المناخية ، والهدف من إبرامها هو الوصول إلى تثبيت تركيزات غازات الدفيئة في الغلاف الجوي عند مستوى يحول دون تدخل خطير من جانب الإنسان في النظام المناخي (الأمم المتحدة ، اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ لعام 1992).

ثم تم اعتماد بروتوكول كيوتوعام 1997 الذي بمقتضاه تلتزم الدول المتقدمة صناعيا بالخفض التدريجي لانبعاثات غازات الدفيئة للفترة الممتدة من 2008-2012 ، كما دخلت الدول في نفس السنة ، في المفاوضات من أجل تحضير لمشروع اتفاق يلزم الدول المتطورة وحتى الدول النامية عند انقضاء الفترة المحددة في بروتوكول كيوتو-Kyotoعام 1997 ، بخفض انبعاثات غازات الدفيئة ، وبانعقاد المؤتمر كوبنهاغ - Copenhague عام 2009 ، توصلت الدول إلى تحديد هدف تحديد تثبيت درجة الحرارة ب 2 درجة سلسيوس-Celsius حتى سنة 2050 ، لكن دون وضع وسائل لتنفيذه ، مما دفع بالدول الأطراف في بروتوكول كيوتوالى تمديد ما بعد عام 2012 ، وفعلا أثناء انعقاد مؤتمر دوحة عام 2012 تم تحديد التزامات الدول الأطراف في كيوتوللفترة الثانية الممتدة من 2013-2020 واختيار سنة 1990 كمرجع للخفض(أنظر مؤتمر كوبنهاغ 2009 ومؤتمر الدوحة عام 2012).

وأخيرا ، في سنة 2015 ، توصلت الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة ولأو ل مرة إلى تبني الاتفاق بالإجماع حول تحديد درجة الحرارة وتنطبق على جميع الدول المتطورة والنامية بدون استثناء (اتفاقية باريس بشأن التغيرات المناخية ، المؤرخة في 12-12-2015).

وانطلاقا من هذا ، يستنج أن خفض درجات الحرارة يترتب عنه خفض الإنتاج مما يعني وضع حدود للتنمية للمشروعات الاقتصادية التي ينتج عنها الغازات الدفيئة بحيث عندما كانت الدول في إطار التنمية تتمتع بحق مطلق في استغلال الثروات الطبيعية ، وأصبح هذا الحق مقيد بتحقيق المصلحة العامة للجماعة الدولية التي تؤثر إيجابا على التنمية لان لا تنمية بتدهور البيئة.

الفرع الثاني: إدماج المقتضيات البيئية في المؤسسات المالية الدولية

تتمثل المؤسسات المالية الدولية في كل من البنك الدولي (أو لا) والمنظمة العالمية للتجارة والجات (ثانيا) ، كما يعرف أن هذه المؤسسات هدفها الرئيسي والتقليدي هو تحقيق التنمية ، فكيف تم إدماج المقتضيات البيئية فيها ؟.

.

أولا-البنك الدولي: يرجع اهتمام البنك الدولي بالبيئة من خلال إنشاء قسما للبيئة عام 1990، وفي عام 2000، أعد البنك إستراتيجية شاملة للبيئة والتنمية المستدامة، ثم عرضها على قمة جوهنسبرغ للتنمية المستديمة التي عقدت عام 2002، لقد أحرز البنك الدولي تقدما كبيرا خلال عام 1989 من خلال إدخال الاعتبارات البيئية ضمن المسار الرئيسي لسياساته وعملياته، ومن أهدافه الرئيسية في مجال البيئة إعداد تقارير عن قضايا البيئة في كل دولة من الدول المقترضة من البنك، تخصيص جانب من القروض التي يمنحها لرفع الكفاءة مشروعات ومحطات الطاقة لتقليل الانبعاثات الضارة بالبيئة، يضاف إلى ذلك أن البنك يأخذ في اعتباراته موضع تقييم الأثر البيئي للمشروعات المقترح تمويلها كأحد معايير واشتراطات منح القروض للدول الطالبة لها، أيضا تقديم المشورة والمساعدة الفنية والتدريب في هذا المجال(عبيدات ياسين(2012)، تقييم دور مجموعة البنك الدولي في تمويل التنمية المستدامة في البلدان المنخفضة الدخل –دراسة حالة في منطقة افريقيا جنوب الصحراء، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة فرحات عباس سطيف، كلية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير، ص ص.89-90).

ومن أمثلة على علاقات الشراكة مهمة التي ساهم فيها البنك الدولي :

-صندوق البيئة العالمي الذي قدم منحا للبلدان النامية لتمويل مشروعات تفيد البيئة العالمية، تعزيز سبل العيش المستديمة في المجتمعات المحلية.

-المجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية، الشراكة العالمية للمياه، التحالف العالمي للقاحات والتحصين ويسعى البنك العالم إلى حماية الصحة العامة في أنحاء العالم عن طريق نشر استخدام اللقاحات.يضاف إلى ذلك أن للبنك علاقات فنية مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة (عبيدات ياسين، تقييم دور مجموعة البنك الدولي في تمويل التنمية المستدامة في البلدان المنخفضة الدخل –دراسة حالة في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، المرجع نفسه، ص ص.93-94).

ثانيا-المنظمة العالمية للتجارة واتفاقية الجات:

اتفاقية الجات ومنظمة التجارة العالمية هي اتفاقيات عقدت أصلا بهدف تحرير التجارة الدولية من القيود والعوائق التي تعوق انسيابها بحرية وأنها ليست اتفاقية أو منظمة لحماية البيئة من التلوث، غير أنه بعد الإعلان البيئي لعام 1972، أثير جدل هام في مسألة تحرير التجارة الدولية وأثرها على التنمية والبيئة، حيث مر الفكر الاقتصادي بخصوص الجدل المتبادل حول هذه العلاقة بمرحلتين، وهما المرحلة الأولى التي بدأت في أو ائل السبعينات، حيث أثير الاهتمام بواسطة جم هو ر أنصار حرية التجارة بخصوص الأثر المحتمل للتنظيمات البيئية المتشددة على المقدرة التنافسية لمختلف الدول، وتم الاحتجاج بواسطة البعض من أنصار حرية التجارة، بأن المعايير البيئية الصارمة في الدول الصناعية قد تؤدي إلى نقل الصناعات الملوثة للبيئة إلى ما يعرف "بمناطق مأو ى التلوث"، وفي المرحلة الثانية، والتي بدأت منذ أو اخر الثمانينات وازداد أهميتها في الوقت الراهن، فقد تجسدت العلاقات المتبادلة بين التجارة الدولية والبيئة في وجهات نظر أنصار البيئة الذين حذروا من خطورة الاتجاهات المتزايدة نحوتحرير التجارة الدولية، وما يمكن أن تسفر عنه تلك الاتجاهات، من إلحاق ضرر بالبيئة، لذلك فقد دافع هؤلاء بضرورة إدخال بعض الالتزامات البيئية الخاصة على حرية التجارة.

وبالنسبة لموقف الدول النامية من هذان الاتجاهان ، فان مجموعة من الدول تؤيد-بصفة عامة- أنصار حرية التجارة حيث تخشى هذه الدول من استخدام البيئة والمعايير البيئية المتشددة بمثابة ذريعة أخرى من أجل إقامة عوائق في مواجهة صادرات الدول النامية (د.صفوت عبد السلام عوض الله (1999)، تحرير التجارة الدولية وآثارها المحتملة على البيئة والتنمية ، دار (أبوالمجد)، مصر ، ص ص.4-5).

ويرجع بداية تجسيد علاقة التنمية بالتنمية المستدامة من طرف اتفاقية الجات إلى القرار الذي اتخذه مجلس الجات في أكتوبر من عام 1991 ، المتضمن تشكيل مجموعة عمل لبحث موضوع التجارة والبيئة ، بحيث تكون عضويتها مفتوحة لكافة الأطراف المتعاقدة في الجات ، وضع برنامج عمل مجموعة التجارة والبيئة ، مساهمة الجات في أعمال مؤتمر ريودي جانيرومن خلال تقديم الدراسات والتقارير المعدة عن الموضوع وما تضمنه التقرير السنوي للجات لعام 1991 الذي تنأو ل موضوع التجارة والبيئة بشكل تفصيلي ، ومشاركة الأمانة العامة للجات في الأعمال التحضيرية وخلال أعمال مؤتمر قمة البيئة ، وتقديم تقارير إلى مجموعة العمل وإلى الأطراف المتعاقدة بالجات ، وتتضمن عرضا تحليليا للموضوعات ذات الصبغة التجارية والتي تؤثر في التجارة الدولية ولها علاقة بمبادئ الجات في المناقشات التي تدور حول موضوع البيئة (د.صفوت عبد السلام عوض الله (1999)، تحرير التجارة الدولية وآثارها المحتملة على البيئة والتنمية المرجع نفسه ، ص.46).

وبالنسبة للتجارة الدولية في إطار الأهداف الإنمائية للألفية بإشارتها إلى التجارة الدولية بوصفها "غايات" تندرج في إطار الهدف 8 "إقامة شراكة عالمية من أجل التنمية "ويرتكز على جانبين من جوانب السياسات التجارية وهما :الهدف (أ)" إقامة نظام تجاري ومالي يتسم بالانفتاح والتقيد بالقواعد والقابلية للتنبؤ به وعدم التمييز" والهدف (8-ألف)و(ب) تحسين فرص وصول صادرات البلدان أقل نموا إلى الأسواق ، من خلال إتاحة وصولها على أساس الإعفاء من التعريفات الجمركية ومن تحديد الحصص.

ولوحظ أنه على الرغم من أهمية وجود نظام تجاري مفتوح وشفاف وغير تمييزي ، لم يتبين بوضوح من صيغة الهدف 8 من الأهداف الإنمائية للألفية كيف يتفاعل هذا النظام التجاري مع عملية التنمية ، وكيف يفضي إلى تحقيقها. فمن أجل الن هو ض بالتنمية ، لابد من ايلاء الأولوية في النظام التجاري الدولي للقضايا والقطاعات التي تهم البلدان النامية. وهذا ما سعت إليه منظمة التجارة العالمية من خلال إطلاق جولة الدوحة في إطار جدول الإنمائي.وبعدها عقد مؤتمر وزاري لمنظمة التجارة العالمية في بالي بأندونيسيا في 01-12-2013 وينجح هذا المؤتمر في إبرام عدد من الاتفاقات ، بما في ذلك الاتفاق المتعلق بتيسير التجارة عن طريق إزالة الحواجز غير الضرورية وتوحيد المعايير ذات الصلة. و هو يوفر للبلدان النامية أو جه مرونة من حيث التنفيذ التدريجي ، مع مدها بالمساعدة التقنية في المجالات الضرورية لتنفيذ الاتفاق تنفيذا كاملا (الأمانة الأو نكتاد ، مجلس التجارة والتنمية-لجنة التجارة والتنمية(2014)، دور التجارة الدولية في خطة التنمية لما بعد عام2015 ، ص.5).

وفي ما يتعلق بالمساعدات التقنية ، فإنها تخص تلك التي لا تخضع إلى براءات الاختراع ، ومع اتجاه القانون الدولي للبيئة نحوتجسيده عن طريق وضع ضوابط بيئية للمنتجات الزراعية والصناعية ، فان ذلك يشكل عائق

أمام تسويق منتجات دول الجنوب (Arnaud BERGER, Christian de PERTHUIS ,Nicolas PERIN(2015),le développement durable: Repères Pratiques ,NTHAN ,pp.62-63

بالإضافة إلى ذلك ، فان النظام التجاري الدولي أصبح اليوم أكثر تعقيدا وتفتتا مما كان عليه عند انطلاق الأهداف الإنمائية ، لأسباب منها لصعوبة إجراء التفاوض على مستوى متعدد الأطراف ، مما جعل اتفاقات التجارة الحرة المبرمة على المستويات الثنائية الإقليمية والدولية تشكل أدوات رئيسية للسياسة التجارية في جميع البلدان تقريبا سواء أكانت بلدانا متقدمة أم نامية (الأمانة الأو نكتاد ، مجلس التجارة والتنمية-لجنة التجارة والتنمية(2014)، المرجع نفسه ، ص.6).

يستخلص أن التجارة الدولية تربطها بالبيئة علاقة التأثير والتأثر ، بحيث يمكن أن تمارس تأثيرها على البيئة عموما وعلى تغير المناخ بصفة خاصة تأثيرا متعدد الأو جه ، من خلال الآثار الناشئة عن حجم التجارة التي تسفر عن تزايد النشاط الاقتصادي ، الآثار الناشئة عن تكوين التجارة التي تفضي إلى تغييرات في هيكل أو أنماط النشاط الاقتصادي ، أثار دعم التكنولوجيا والتغيرات التكنولوجية ، الآثار المباشرة الناشئة عن انبعاثات غازات الدفيئة الناجمة عن جملة أسباب منها تزايد عمليات النقل البحري والبري والجوي(الأمانة الأو نكتاد ، مجلس التجارة والتنمية-لجنة التجارة والتنمية(2014)، المرجع نفسه ، ص.14)، كما أن البيئة بدورها تمارس تأثير على التجارة الدولية من خلال إدماج المقتضيات البيئية الصارمة في منتجات الزراعية والصناعية عن طريق وضع الضوابط -normes الخاضعة للملكية الفكرية.

المبحث الثاني: مدى تأثير السيادة الوطنية للدول على الجهود الدولية البيئية

تعتبر السيادة من المسائل المتصلة بالقانون الدولي ، ولهذا فان القانون الدولي للبيئة يعتمد دائما على مبدأ السيادة الدولية لتطوير أهدافه الخاصة(Anges MICHELOT (2018),protection internationale du climat et souveraineté étatique,Vertigo-la revue électronique en sciences de l'environnement, p.1)، أهمها المصلحة العامة للجماعة الدولية ، وأمام القانون الدولي حديث النشأة وما يزال في تطور مستمر ، إذ لم يصل بعد إلى توحيد أو وضع إجراءات إدماج الاتفاقيات الدولية عموما ، وخاصة البيئية ، مبدئيا يعتمد على المسؤولية الدولية التي ترتكز على وجود الضرر لتنفيذ الدول لالتزاماتها ، فهذا لا يتماشى مع المسائل البيئية نظرا لطابعها الاستعجالي وغير القابلة للاسترداد الأو ضاع البيئية إلى ما كانت عليه لان الحماية تجد أساسها في القواعد الوقائية ، كما أن القانون الدولي يعتمد على رضا الدول حيث لا يمكن إلزام أية دولة على إبرام اتفاق ما بدون إرادتها المنفردة ، ونعلم أن المجتمع الدولي يتشكل من دولا مختلفة وذلك بوجود دول متطورة ودول نامية تربطها بعضها البعض مصالح متضاربة ، أي كل دولة تراعي مصالحها الخاصة.

وفي هذا الخصوص ، صرح فريق من الخبراء الحكوميين الدوليين بشأن التغيرات المناخية بأنه " كان من الواضح تماما أننا نملك بين أيدين كل الأدوات اللازمة لحل الأزمة المناخية ، والمكون الوحيد الذي نفتقده هو الإرادة السياسية الجماعية". وعن غياب الإرادة الجماعية ، يقول أيضا ميشال سير-Michel Serres" لا يوجد أبدا ولن يكون هناك حلول للمشاكل البيئية ما بين الدول ". ومن هنا يستنتج بأن " السيادة الوطنية مهددة بالعولمة(globalisation)أكثر من العالمية "(Yves Petit(2011), le droit international de

souveraineté nationale, l'environnement à la croisée des chemins : globalisation versus .revue juridique de l'environnement(36),p.3.)

وانطلاقا مما سبق ، فان السيادة التي تعتبر من خصائص أساسية لدولة تشكل عائق أمام تطوير نظام الحماية الدولية للبيئة ، وهذا ما يؤكده فشل مؤتمر ستوكهو لم لعام 1972 في جمع جميع الدول ، إلا بعد مرور عشرون سنة ، أي بعقد مؤتمر ريودي جانيرو لعام 1992 ، مما أثر سلبا على المناخ والبيئة ، وبالتالي على العناصر المكونة للدولة (الإقليم ، الشعب والسلطة السياسية المنظمة ؟ **(المطلب الأول)**.

نتيجة للأضرار العابرة للحدود الدولية الناجمة عن التغيرات المناخية ، كون أن الكرة الأرضية هي وحدة كاملة غير قابلة للتجزئة ، أضف إلى وجود ملكية دولية مشتركة كالبحار ، المحيطات...الخ ، فوجدت الجماعة الدولية نفسها أمام حتمية إيجاد حل عالمي وعلى المستوى الدولي ، أساسه التضامن وبناء الشراكة الدولية ، غير أنها اصطدمت بمسالة قانونية وسياسية ألا وهي السيادة ، غير انه بعد ج هو د طويلة تمكنت المنظمات الدولية الحكومية والدول من وضع قواعد قانونية ومبادئ في تطور مستمر من شأنها الحد من تمتع الدول بالسيادة التامة على الثروات الطبيعية ، بحيث بعدما كان هذا الحق في منظور كل من القانون الدولي والقانون الدولي للتنمية حق مطلق ، فأصبح هذا الحق في ظل القانون الدولي للبيئة حق مقيد **(المطلب الثاني)**.

المطلب الأول:آثار التغيرات المناخية على العناصر المكونة للدولة

حسب المفهوم التقليدي للدولة ، تعرف بأنها جماعة تتشكل من الإقليم ، الشعب ، والسلطة السياسية المنظمة ، أنه يظهر بسهولة تأثير التغيرات المناخية على العناصر المكونة للدولة ، أو لا عنصر الإقليم الذي يمكن أن يتعرض لتلك التغيرات التي قد ينجم عنها لفترة قصيرة أو طويلة تغيير من شأنه أن يلحق أضرارا بالإقليم البحري أو الأرضي(Anges MICHELOT (2018),protection internationale du climat et souveraineté étatique, op.cit , p.3

وحسب العلماء أن هذه التغيرات ترجع إلى ارتفاع درجة الحرارة لسطح الأرض ، للبحر ، ولطبقة تروبوسفير- Troposphère ، معظم العلماء يعتبرون أصل ظاهرة الاحتباس الحراري هي بفعل الأنشطة البشرية المنتجة للغازات الدفيئة التي ساهمت في ارتفاع درجة الحرارة ، وترتب عنه ظ هو ر عدد الأحداث المناخية القاسية ، خاصة الأعاصير ، وهي في تزايد مستمر ، بالإضافة إلى شدتها.

وفي المناطق الساحلية سوف تغمرها المياه— submersion marin ، تعني مثلا في حالة إعصار يمتد البحر ، والرياح يدفع الأمواج إلى داخل الأرض ، إذا كان هذا الانتهاك البحري مؤقتا ، فانه يساهم مع ذلك في تدمير الموانئ وتملح باطن الأرض سوف يقلل من إمكانية شرب المياه التي يمكن استخراجها من المياه الجوفية ، وإضافة ذلك يزيد محلول ملحي من باطن الأرض مما يجعلها غير صالحة للزراعة ، مثل هذه الحوادث تولد اليوم الأضرار التي لوحظت في المناطق الساحلية ، على سبيل المثال في كيري باتي - Kiribati ، بلغ عدد جزرها التي تعرضت للاختفاء 32 جزيرة ، أيضا جزر المالديف- les Iles Maldivesمهددة بالغرق ، لهذا أعلن رئيس الدولة بالفعل عن نيته لإنشاء صندوق موجه لشراء إقليم جديد في حالة إذا ما اختفت جزر المالديف تحت الماء(Michel Allenbach(2013) ,changement climatique et migrations dans le Pacifique insulaire, revue Outre-Terre,v(35-36),pp.2-3,5-6,10et15). ترتب عن هذه الحوادث المناخية النقل

الاضطراري للسكان ، مع العلم أن واحدا من كل خمسة من سكان العالم يعيشون في المناطق الساحلية ، وفقا لنائب المفوض السامي للأمم المتحدة –Craig John Store ، فان أكثر التوقعات تشير إلى أن 250 مليون شخص سيتم تهجيرهم قسرا بحلول عام 2050 ، وهناك توقعات أخرى تشير إلى أن هذا الرقم يصل إلى مليون شخص (Michel) Allenbach(2013),op.cit.,p.11)

وأخيرا ، التعدي على إقليم الدولة ، يترتب عنه فقدانها لقدرة مراقبة المناطق الخاضعة لولايتها القضائية يتجلى في نواحي كثيرة ، منها آثارا لتغيرات المناخية على وجود المادي للإقليم (على سبيل المثال تحت تأثير الاختفاء للإقليم) وجود شعبها له عواقب على قدرة السلطة على إدارة الأنشطة على إقليمها وممارسة حقوقها في الملكية. هذا يؤثر على وظائفها الأساسية مثل ضمان أمن مواطنيها على إقليمها الوطني.ومع ذلك يفرض القانون الدولي شرطا لوجود الفعلي للدولة وبالتالي القدرة على ممارسة بصفة فعلية لسلطاتها. ونفس الشيء بالنسبة لعناصر البيئة الطبيعية سواء الحيوية أو غير الحيوية التي تدخل ضمن سيادة الإقليم للدولة ، وفي حالة تعرضها للاختفاء يترتب عنه فقدان الدولة لسيادتها على تلك العناصر Anges (Michelot(2018),op.cit,pp.3-4).

كذلك بالنسبة لعنصر الشعب الذي يدخل في تشكيلة الدولة ، وبسبب آثار التغيرات المناخية التي قد تلحق بأذى الشعب ، فيجد نفسه مضطرا للبحث عن مكان أكثر أمنا ، وتسمى هذه الظاهرة "باللجوء البيئي" ، على سبيل المثال تهجير شعب دولة كيري باتي-Kiribati لأسباب بيئية. تعتبر هذه الحالة جديدة عن القانون الدولي العام ، وتثير تساؤل ذوطابع قانوني و هو يتعلق بما مدى استمرار ممارسة السلطة القانونية للدولة الأصلية على شعبها في المهجر ، أو ستفقد تلك السلطة وبتالي فقدان سيادتها ؟.

رغم التحديات التي تقف أمام القانون الدولي للبيئة من أجل تطوير نظامه القانوني الذي يهدف إلى تحقيق حماية المصلحة العامة للجماعة الدولية فوق أي اعتبار سياسي أو اقتصادي ، غير أنه بعد ما أدركت الدول والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية بدرجة الخطر الذي أصبح الآن ملموس ومرئي ، إذ قد يهدد كيان الدولة نفسها أو جميع الدول ، تم الوصول إلى وضع منظومة قانونية على المستوى الدولي تخص العناصر الطبيعية التي كانت من قبل تخضع للسيادة الوطنية للدول.

المطلب الثاني:السيادة الوطنية للدول في منظور القانون الدولي للبيئة

تعرف السيادة بأنها تمتع الدولة بالاستقلال وبمقتضاها تسمح لها بالتعبير عن إرادتها وبناء التزاماتها الدولية. إن تمتع الدولة بسيادة يعطي لها الحق في مشاركتها في وضع القواعد القانونية الدولية وهذا ما يعبر أيضا عن سيادتها. حيث أحد مصادر القانون الدولي هو الاتفاق الإرادي (Agnès MICHLOT (2018) protection internationaleلمعبر عنه في الإطار ألاتفاقي

du climat et souveraineté étatique, op.cit , p.4).

ويخضع لمجموعة من مبادئ العامة وللقانون الدولي ، أهمها مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول ، والمسأو اة في السيادة ، مما يسمح للدول ، في إطار العلاقات الدولية ، بأن تتصرف وفقا لمصالحها الاقتصادية والسياسية الداخلية. إن المجتمع الدولي بأسره تواجهه تحديات عالمية أهمها ، مسالة التغيرات المناخية التي احتلت حاليا الصدارة الأولى في العلاقات الدولية نظرا لعدم قدرة الدولة على مستواها الوطني لمجابهة أثار

التغيرات المناخية لأنها من الأضرار العابرة للحدود الإقليمية والوطنية وهي ظاهرة طبيعية لا تعرف الحصانة ، جميع الدول معرضة لآثار التغيرات المناخية.

ترجع بداية الانطلاق لحماية البيئة إلى مؤتمر ستوك هو لم لعام 1972 ، غير أنه بسبب تمسك الدول بسيادتها الداخلية ترتب عن ذلك وقوع الاختلاف بين الدول ، وأيضا رفض بعض الدول المصادقة على بروتوكول كيوتولعام 1997 ، المتعلق بالخفض التدريجي لدرجات الحرارة ، فالسيادة تشكل عائق أمام الحماية البيئية (الفرع الأول).

مع ذلك ، فان المفأو ضات بشأن التغيرات المناخية ، أدت إلى اعتماد اتفاقية باريس لسنة 2015 في إطار هيئة الأمم المتحدة ، التي جسدت مبدأ العالمية ، حيث تطبق على جميع الدول النامية والمتطورة بدون استثناء ، يرجع ذلك إلى ج هو د طويلة بذلت من طرف الدول والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية ، مع استخدام تقنيات قانونية تتمثل في إبرام الاتفاقيات الإطارية في المجال البيئي ، وتكريس مبدأ المسؤولية الجماعية مع وجود التباين من أجل تحقيق المصلحة العامة للجماعة الدولية فوق المصالح الخاصة للدول ، مما يعني اتجاه نحوالتوفيق بين السيادة الوطنية والمصلحة العامة للجماعة الدولية (الفرع الثاني).

الفرع الأول :السيادة كعائق أمام الحماية الدولية من آثار التغيرات المناخية

ابتداء من مؤتمر ستوك هو لم — Stockholm لعام 1972 ، أبدت البلدان النامية عزوفا عن تجاهل الشواغل البيئية للبلدان الصناعية بسبب التكاليف الإضافية الناتجة عن سياستها الإنمائية ، وفي هذا السياق ، لقد أشار مفوض الاتحاد الأو روبي إلى أن الدول النامية الكبرى مثل البرازيل ، الصين "تخشى من أن مفأو ضات حول المناخ ستكون وسيلة للدول الغنية لدعم سيادتهم "، Yves petit(2011),le droit international de l'environnement à la croisée des chemins: globalisation versus souveraineté nationale ,op.cit,p.18.)

كما أن إذا كانت أهمية حماية البيئة من آثار التغيرات المناخية تكمن في وصول الدول إلى وضع الاتفاقيات الدولية ، إلا أن الأهم من ذلك هو تطبيق تلك الاتفاقيات ، ويتبين هذا من عدد الاتفاقيات المبرمة في المجال البيئي ، وفقا لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة -PNUE ، فان عددها وصل إلى 500 اتفاقية متعددة الأطراف ، منها 60../ تم التفأو ض عليها بعد عام 1972 ، مع ذلك من المستحيل قياس نجاح القانون الدولي للبيئة فيما يتعلق بهذا العدد من الاتفاقيات الدولية البيئية ، لأنه لا يمر يوم بدون التنديد المستمر للبيئة ، يرجع ذلك إلى أسباب عديدة منها متصلة بالقانون الدولي للبيئة خاصة لان قواعده مرنة(Yves petit(2011), le droit international de l'environnement à la croisée des chemins globalisation versus souveraineté nationale, op.cit,p.24)، وأسباب أخرى تتلخص في إشكالية إدماج للاتفاقيات الدولية المصادق عليها الذي يخضع للقانون الداخلي للدول ، مما سبب تأخير تنفيذ الاتفاقيات الدولية البيئية على المستوى الوطني.

وجاء تصريح ل C.Lepage بصوت واضح أن "القانون البيئي لا يزال حقا غير فعال إلى حد كبير ، ليس بسبب عدم وجود قواعد ، بل بسبب غياب الإرادة في تطبيقها..."، كما يمكن رؤية مثل هذه الحالة على المستوى الوطني بصورة أكثر شدة على المستوى الدولي. غالبا ما يكون التعأو ن الدولي ضحية القصور للدولة ، كما

يتضح من سلوك الولايات المتحدة الأمريكية والصين خلال الفترة الأولى من تنفيذ بروتوكول كيوتو-Kyoto لعام 1997، الذي يوضح "صعوبات تحقيق المحافظة على الأملاك الدولية"، وذلك برفضهما المصادقة على هذا البروتوكول(.Yves petit(2011),op.cit, pp.24-25)

الفرع الثاني :نحوالتوفيق بين السيادة الوطنية والمصلحة العامة للجماعة الدولية

تظهر اتفاقية باريس لعام 2015 نوع من التطورات في صياغة الخاصة للاتفاقية، في مبادئ العمل، وفي المبادئ العامة، ، فإنها تظهر أيضا الانفتاح على الأطراف الأخرى غير الدولة، تبحث في النهاية عن المف هو م التقليدي للمسأو اة في السيادة والسيادة الاقتصادية، فاتفاقية باريس بشان التغيرات المناخية هي تمثل الاتفاقية بمعنى التقليدي لمصطلح السيادة.لكن هذه الاتفاقية يجب قراءتها على ضوء القرار المؤرخ في 19 -12- 2015، المرفق للاتفاقية يتعلق الأمر بقاعدة خاصة، يظهر شكل آخر لعبارة سيادة الدولة من خلال قدرتها على تطوير الشراكة الدولية، خصوصا، في الإطار متعدد الأطراف.حيث الأستاذ- Jochen Sohnle، أجرى تميز بين مبدأ الشراكة في "الفترة العادية" الذي حسب رأيه يتطابق مع تلك المجسدة في الآليات الدولية الخاصة بحماية المناخ، وفي مبدأ الشراكة في الحالات الاستعجالية Agnes MICHLOT Du climat et souveraineté étatique, op.cit,p.4 (2018),protection international)

كما أن مسألة التراث المشترك ساهمت في وضع القانون الدولي البيئي والتي تعبر عن تضامن مزدوج، ويترجم الهدف المشترك تضامن عبر الوطنية يفوق التضامن بين الأقاليم وكلمة التراث باللغة الانكليزية heritage هي أكثر تعبير وتثير تضامنا عبر الزمن، بين الأجيال الحاضرة والمقبلة، يجب الاعتراف بأن التضامن عبر الوطنية يتعارض مع مبدأ الإقليمية للأنظمة القانونية التي يبدوأنها تستبعد فكرة الإدارة المشتركة للفضاء والموارد التي تنتجها.أيضا التضامن عبر الزمن الذي يجمع بين الأجيال يصطدم بالتطورات عبر الزمن للحضارات(Yves petit(2011), op.cit,p.5).

وتم تأكيد اعتراف بحماية هذا التراث المشترك في كل من ديباجة ريو1992"الأرض، مكان البشرية، تشكل وحدة كاملة متداخلة في أجزائها "، ديباجة اتفاقية التنوع البيولوجي "المحافظة على التنوع البيولوجي هي انشغال مشترك للبشرية جمعاء "، وأيضا في الفقرة 2 من ديباجة الاتفاقية الإطارية بشأن التغيرات المناخية لعام 1992 "التغيرات المناخية، والكون وآثارها الضارة هي مسألة تخص البشر جميعا"، غير انه يرى بعض المؤلفين بخصوص اتفاقية التنوع البيولوجي بان صياغة هذه الاتفاقية باعتبارها "صدى صماء لمنطق التراث المشترك للإنسانية (Yves petit(2011)

Op.cit,p.6)

خاتمة

إن حق الإنسان في بيئة نظيفة ينتمي إلى الجيل الثالث لحقوق ويختلف عن حق الإنسان في التنمية من حيث الأهداف والآثار المترتبة عنهما، مما يقتضي إدماج ضمانات حماية البيئة في العهد الثاني الدولي المتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعام 1966، أو تحويل الإعلان ريولعام 1992 إلى اتفاقية متعددة الأطراف على منوال تحويل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

كما أن وجود آليات دولية مالية من أهدافها الأساسية تحقيق التنمية وأخرى بيئية كبرنامج الأمم المتحدة للبيئة ، يتطلب ذلك إجراء التنسيق بين تلك الآليات خاصة مع تدخل البنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية الجات في المجال البيئي من أجل تفادي ازدواجية الوظائف عن طريق إنشاء لجان عمل مشتركة.

أيضا اتجاه الجهودد الدولية البيئية نحو تجسيدها عن طريق وضع ضوابط للمنتجات الزراعية الصناعية ، فمن شانها أن تشكل عائق أمام تسويق منتجات الدول النامية في الأسواق الدولية وبالتالي من أجل حماية المصلحة العامة للمجتمع الدولي يستلزم إزالة عوائق نقل التكنولوجية نحو البلدان أقل نموا. وإذا كانت الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة وبعد الجهود المبذولة خلال سنوات طويلة من العمل قد حققت نجاحا في المجال البيئي وذلك بابرام اتفاقية باريس لسنة 2015 التي تطبق على جميع الدول أي حتى على الدول النامية وأقل نموا وتكريس مبدأ المسؤولية الجماعية مع التباين وذلك بمنح مساعدات مالية وتقنية لفائدتها ، فهل هذه الآليات كافية من أجل تحقيق غاية حماية البيئة المتمثلة في المصلحة العامة للمجتمع الدولي ؟.

وبالإضافة إلى نجاح المجتمع الدولي في وضع نظام قانوني بيئي ، إلا أن تجسيده على المستوى الداخلي للدول يصطدم بالسيادة الوطنية ، مع أن حماية البيئة انفتحت على الأطراف الأخرى أهمها المجتمع المدني الذي ثبت تاريخيا الدور الذي لعبه في التحسيس البيئي ، غير أن تجسيد المشاركة الشعبية يجد بيئته في الدول المنتهجة للنظام الديمقراطي واحترام مبدأ الفصل بين السلطات أي استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية ، وكيف يتحقق ذلك في الدول النامية ، خصوصا ، كثير من الدول الإفريقية مازالت تطبق النظم العسكرية وتعاني من حالات لا استقرار السياسي مع أنها ارتبطت دوليا بالالتزامات البيئية ؟.

قائمة المراجع:

- صفوت عبد السلام عوض الله (1999)، تحرير التجارة الدولية وآثارها المحتملة على البيئة والتنمية ، دار (أبوالمجد)، مصر.
-ب-المجلات:
- بن عودة يوسف (2016)، علاقة التنمية الدولية بحقوق الإنسان ، مجلة جيل حقوق الإنسان ، مركز جيل البحث العلمي ، العدد(10)، لبنان.
-نوري رشيد نوري(1997)، القانون الدولي للتنمية ، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة النجف الاشرف ، ع(41)، المجلد(2).
-مذكرات الماجستير:
-قايدي سامية(2002)، التنمية المستديمة:التوفيق بين التنمية والبيئة ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في القانون ، فرع القانون الدولي لحقوق الإنسان ، جامعة مولود معمري تيزي وزوكلية الحقوق.
-نصاح فازية (2015)، الجهود الدولية والداخلية لحماية البيئة أثناء الاستغلال السلمي للطاقة النووية –الآفاق والتطلعات- مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، القانون العام ، التخصص قانون البيئة والعمران ، جامعة الجزائر 1 –كلية الحقوق بن يوسف بن خدة.
- عبيدات ياسين(2012)، تقييم دور مجموعة البنك الدولي في تمويل التنمية المستدامة في البلدان المنخفضة الدخل –دراسة حالة في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير ، جامعة فرحات عباس سطيف ، كلية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير
-الملتقيات الدولية :
- أ.نصاح فازية (2018)، آليات مكافحة الهجرة غير الشرعية:القوانين والاتفاقيات الدولية ، وقائع المنتدى الدولي الثاني للعلوم الاجتماعية والإنسانية –الملتقى العلمي الدولي الثاني حول الهجرة في المنطقة العربية بعد 7 سنوات من الربيع العربي –الواقع والتحديات ، مركز إدراك للبحث العلمي بتونس مع جامعة قابس المعهد العالي للغات ، تونس.
-الوثائق الرسمية وغيرها:

- العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، المؤرخ في 16-12-1966 ، دخل حيز النفاذ ابتداء من 03-01-1976.
-الأمم المتحدة (2002)، تقرير مؤتمر القمة العالمي للتنمية المستدامة ، جوهنسبرغ ، جنوب إفريقيا ، 26 أو ت-8 سبتمبر 2002 ، نيويورك.
- الأمم المتحدة ، مجلس التجارة والتنمية-لجنة التجارة والتنمية ، الأمانة الأو نتكاد(2014)، دور التجارة الدولية في خطة التنمية لما بعد عام2015.
- Arnaud BERGER, Christian de PERTHUIS ,Nicolas PERIN(2015),le développement durable: Repères Pratiques ,NTHAN.
-Rachid BOUDJEMA(2009),violence du capitalisme-développement durable et responsabilité sociétale des entreprises, éditions ACLCOM ,Algérie.
Revue :
-Michel Allenbach(2013) ,changement climatique et migrations dans le Pacifique insulaire, revue Outre-Terre,v(35-36). Le texte est disponible sur le site :
https://www.cairn.info/revue Outre -Terre.PDF/
--Anges MICHELOT(2018), protection internationale du climat et souveraineté étatique, la revue électronique en sciences de l'environnement, v(18 n°1). Le texte est disponible sur le site :
https://journals.openedition.org/vertigo.PDF/
--Yves Petit(2011),le droit international de l'environnement à la croisée des chemins :globalisation versus souveraineté nationale, la revue juridique de l'environnement ,v(36),revue(cair.info). Le texte est disponible sur le site :
http://www.cairn.info.PDF/
-documents et autre :
-Nations Unies, convention cadre des Nations Unies sur les changement
climatiques, singée le 09-05-1992,New York. Le texte disponible sur le site :
http://unfccc.int,convfr.pdf/.
-Nations Unies (1998),protocole de Kyoto du 11-12-1997 à la convention- cadre des Nations Unies sur les changements climatiques. Le texte est disponible sur le site :
http://unfccc.int,kpfrench.pdf/.
- Conférence des parties, tenue à Copenhague en 2009. Le texte est disponible sur le site :
http://www.connaissancedesenergie.org/
-Conférence Doha2012. Le texte est disponible sur le site :
-www.agrhme.ne.pdf /
-Convention de paris sur les changements climatiques du 12-12-2015.
https://unfccc.intfrench paris accord de Paris 2015/

أنسنة المركز في فكر مالك بن نبي

Humanization of the center in the mind of Malik bin Nabi

د.عواطف سليماني
كلية الآداب واللغات - جامعة عباس لغرور- خنشلة ، الجزائر

مقدمة :

ليس من السهل جمع شتات فكر مالك بن نبي في محاضرة واحدة أو مجال واحد ، لأن مدار الطرح عنده يتشعب في فلسفة الفكر البشري بشتى تفريعاته ، وإن كان يهفو في نظره إلى بناء معالم الإنسان المسلم ، بحسب عقيدة الرجل ليصور من خلالها صورة قيمية للإنسان المسلم ، ليدخل دائرة الأدب الفلسفي الذي يعني بمصير الإنسان اعتناأ كبيرا ،لأن هذا الأدب كان يستعمل البيان الأسلوبي ، ليوضح من خلاله أفكار فلسفية"إن دراسة ظهرت هذه الأيام في علم الإنسان بقلم مسيو" ريموند شواب " تحت عنوان "النهضة الشرقية تبين كيف وقع أفول للإنسانيات في الغرب بهذا الرجوع إلى العهد الروماني "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص166) فمن الواجب إعادة بناء هذه الأصول الفلسفية الإنسانية؟. والتيار الإنساني العقلاني العربي الإسلامي؟. لم يكن ليشمل الفلاسفة من أمثال ابن سيناء ، والكندي ، والرازي ، بل شملت من المفكرين والمناطقة كالجاحظ ، والجرجاني ، والتوحيدي... التي امتازت بانفتاحها على كل الحضارات ، بعقلنة الظواهر الدينية والنص القرآني ، لغاية أنها تجعل الإنسان هدفها الأول والأخير ، بتنزيل العقل منزلة السلطة المرجعية المعرفية في إدراك العالم ، ثم الاهتمام بالمشاكل الأخلاقية والسياسية ، لتحميها من قيدها الميتافيزيقي حتى تكون مناسبة للإنسان ، مع إذكاء روح الفضول العلمي في البحث ، وظهور قيم جديدة لم تكن معروفة من قبل :كفن العمارة ، الرسم ، الموسيقي ...ثم حجب أو تقنين سلطة الخيال ، التي تؤدي إلى الخروج عن الأنسنة الإسلامية.

- فلسفة الإنسان في الإسلام تقر له وضعا خاصا "...حتى أن الضمير الإسلامي لا يمكنه أن يفصل مفهوم الإنسان عن هذا الأساس الغيبي ، دون أن ينفصل هو الإسلام الذي قرن هذا المفهوم بتكريم الله ، ولقد كرمنا بني آدم سورة الإسراء17 " (مالك بن نبي ، 2016 ، ص170) لهذا ندرك أن فلسفة الإنسان عند مالك بن نبي ، والذي يصرح بأنه لا يعرف كل دلالات اللغة العربية جيدا ، بحكم تكوينه الفرنسي ، لكن روح هذا المفهوم لا ترتبط بحدود اللفظ فيه ، ولا متعلقة بالعقل ،بل هوموجود في كل ضمير فردي ، وهومن أهم الركائز التي تقوم على ها الحضارة التي لا تباع ولا تشتري " ولا يمكن لأحد من باعة المخلفات أن يبيع لنا منها مثقالا واحدا ، ولا يستطيع زائر على بابنا أن يعطينا من حقيبته ذرة واحدة منها..."(مالك بن نبي ، 2016 ، ص134) والأنسنة هي جوهر الحضارة ، هذه الأنسنة التي سعي مالك بن نبي فيها إلى معرفة أسبابها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، التي كما سماها في مؤلفه في مهب المعركة ب" الأفكار الميتة والأفكار القاتلة " هي أنسنة بنيوية تسعي لإثبات ذاتها بذاتها ، دون التعرض إلى أسباب محيطة مؤسسة لها ، وذلك بغاية تهميش النظام المعرفي ، الذي بلور جيل الجاحظ ، وابن سيناء ، والغزالى ...ولبناء أنثروبولوجيا الإنسان عند مالك بن نبي لابد من التحري في مجريات الأفكار الميتة والأفكار القاتلة عنده ، التي يمثلها بحوار بين رجل زيتوني يعكس

التيار الإصلاحي في التربية للنشء ، وبين طالب رحالة أو طالب علم على أكثر تقدير "...فالأمر فيه نظر..لأن الرجل بمقتضي وظيفته يقوم بدور ملقن الصبيان ...فهو يلقنهم أفكاره الخاصة ...ومن بينها كيف يمسكون عقولهم عن التنفس عندما يشعرون بأخطار...هي في الواقع وهمية ، وكل عملية تخنق التنفس العقلي تؤدي إلى تكوين العقل المختنق "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص134).

- العقل يتنفس أفكارا ومبادئ وثقافة ، فإذا ما امتنعت عنه هذه العملية اختنق معه العقل ، واختنقت معه الأفكار لتصبح ميتة ، يفكك مركز السلطة ، سلطة القرار في بناء المجتمع والإنسان الأكمل في عالمنا العربي ، حتى وإن أعدنا بناء ها فهي واهية لا تعيش إلا لحظات ، لأن أفكارا قاتلة أكثر تمركزا تخترق هذه الأفكار الميتة منذ ولادتها ، وإن كانت تحبس أنفاس العقل في دائرة التمركز العربي ، لتحل مكانتها ، وتقوض التمركز في حد ذاته ، وتحيلها من هامش بالقوة إلى هامش طواعية ، أفكار قاتلة فيما يحمله الطالب السائح من ثقافة للشاعر "أحمد شوقي " وهو يعكس ثقافة غربية في أشعاره ، لأن تمركز الفكر العربي يشغله فراغ كبير ، لم ينتبه إليه المفكرون في ملئه وشغله بأنسنة فاعلة تؤسس لمركز عربي ، مستعرب ، هواه غربي ، وعلى ه كيف نؤسس لأنسنة مركزية للفكر العربي ؟. هل بموجبات التمركز المحاكي أم الهامش المقصي ؟. وإن يكن كيف نتحول من تمركز الهامش العربي إلى تهميش المركز الغربي ؟.

- للإجابة عن هذه الإشكالات ولربما غيرها ، وجب على نا إعادة النظر في حدود هذه الأنسنة حسب ما تقدم به المفكر مالك بن نبي ، وهي أربعة مراحل أو محطات: هي أنسنة الفكر ، أنسنة الخطاب ، أنسنة السلطة ، أنسنة المجتمع.

1-أنسنة الفكر : يقصد مالك بن نبي بأنسنة الفكر ، أن لا يكون حقيقة مطلقة ، ولا مرجعية مقدسة ، ينتصر فيها عن كل ردة فعل ، حيث تنبثق منه سلسلة من التغيرات ، من هذه التغيرات ما أطلق على ه مالك بن نبي الديمقراطية في الإسلام ، باعتبار أن لكل مصطلح زمان ومكان خلق فيه ، لكن الجمع بين المصطلحين أمر فيه نظر وبحث ، فالإسلام كلمة من ابتكار القرآن "...أما الديمقراطية ...إنما نعرف بأنه صيغ في اللغة اليونانية قبل عصر" بريكلاس" اذ أن المؤرخ" توسديد " يذكره على لسان هذا القيصر في احدي خطبه الموجهة إلى شعب أثينا ، أي منذ خمسة قرون قبل الميلاد "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص66) لهذا بدا التباعد موجود بين هذين المصطلحين ، أي الديمقراطية والإسلام ، "لأنه لا وجود لديمقراطية في الإسلامّ(مالك بن نبي ، 2016 ، ص66)، بالإضافة إلى أن هذين المصطلحين لهما من العراقة التاريخية ما يجعلهما ذا نسبية في الطرح "أي ارتباطه بالثقافة التي تحرك داخلها الشيء الذي ينزع عنه الصبغة الإطلاقية "(محمد عابد الجابري ، 1996 ، ص26)، كما يكون الالتباس حاصل في دلالة اللفظين ، الذي يحمل كل منهما دلالات متعددة ، مما يستوجب على نا اختيار الدلالة المرجوة في مشروعنا الفكري ، لكن كل لفظ له ثراء دلإلى ينفتح على عدة سياقات فكرية ، ليلبسها مظهر الفكر الكلي ، الذي نجده داخل الثقافة الواحدة فقط ، لا داخل الثقافات المتعددة ، كمثل الديمقراطية والإسلام ، فالديمقراطية دلالتها كاملة عند أهلها ، والإسلام كذلك أبعاده كاملة لدي أهله (العرب)، لكن إزاحة المصطلح من حضارة وفكر إلى حضارة وفكر آخر ، يتطلب إعادة النضر مرة أخري ، لأن الصعوبة في أنسنة الفكر العربي لا تعني تمركزه حول ذاته ومن أجل ذاته ، بل في تمركزه وانفتاحه

على الآخر النسبي لا المطلق ، بإعادة بناء المفهوم (الديمقراطية) دون ربطها بمفهوم آخر (الإسلام)، لتأتي الديمقراطية حسب مالك بن نبي متمثلة في ثلاثة مستويات هي:

- الديمقراطية بوصفها شعورا نحو الأنا ، والديمقراطية بوصفها شعورا نحو الآخرين ، والديمقراطية بوصفها مجموعة الشروط الاجتماعية السياسية الضرورية ، لتكوين وتنمية هذا الشعور في الفرد ، وبهذا تصبح الديمقراطية تكمن في الذات الفردية والضمير الجمعي للأمة ، من عادات وتقاليد ، حتى التي يمكنها من التحقق لتصبح وجها يعكس أنسنة الفكر العربي ،كما يقول على حرب "إنه الخروج المزدوج من فلك العقل الماورائي ،بماهيته الثابتة وحقائقه المطلقة ، وعلى المنطق المتعالي بمفاهيمه المحضة وقوالبه المسبقة ، فالفكرة الحية والخصبة ليست عالما مثاليا يقوم بذاته المجردة ، أومفهوما محضا يسبق كل ممارسة... وإنما هي واقعة تختزن إمكاناتها ،أي طاقة خلاقة تحتاج إلى الصرف والتحويل ، بحيث أن من يطلقها أو يتداولها يتغير بها ويغير سواه ، ويسهم في إغنائها وتطورها ، أوتغييرها "(مالك بن نبي ، ، 2016 ،ص68)، لأن أنسنة الفكر عند مالك بن نبي تعني خلاصة ثقافة معينة ، على عكس ما كانت تتصوره الفلسفة الرومانسية في عهد "جان جاك روسو" ، أوكما يعبر عنها محمد أركون "...بل أقصد (أي العقل)، القوة المتطورة والمتغيرة بتغير البيئات الثقافية ، والأيديولوجية ، القوة الخاضعة للتاريخية "(على حرب ، 2000 ، ص185).

-إن الشعور الديمقراطي هو تقدير لقيمة الإنسان ، عبر سلسلة من الزمن والحضارة الطويلين ، التي انعكست في الفكر البشري ، هذا هو الخط الذي يحاول مالك بن نبي أن يسلكه في دراسة الفكر العربي الإسلامي ، لنجده ينظر إلى الفكر من عدة مستويات ، فهناك المستوى التاريخي لأنسنة الفكر العربي ، ثم عند العرب ، أما عند الغرب فقد أسسته الديمقراطية الفرنسية ، التي بدت تقويما جديدا للإنسان الجديد ، وتتويجا لنجاح الثورة الفرنسية ، لكن رغم هذا التتويج ، فالديمقراطية الغربية لم تتخلص من مبدأ الخلق ،والنشوء في مجال الروح والعقل ، من هنا وجب تفكيك العقل في التاريخ.

والكشف على آلياته خارج غطاء الثابت والمطلق ، بل النسبي " نسأل العقل عن أصوله ، فإننا نقحمه في التاريخ ونعامله على أنه ظاهرة بشرية ، من ثم أنه نسبي خاضع لشروط تاريخية معينة متقلب بتقلب الشروط "(محمد أ ركون ، 1979 ، ص43) ،كما ينظر للفكر الإسلامي ، أو القرآن الكريم على أنه مطابق للتاريخ ، ففي الحضارتين الإسلامية والمسيحية في مراحل نشأتهما لا تختلف عن بعضهما ، والفكر فيهما كان ذا طابع ديني التي طبعت الإنسان بطابعها ، ووجهته نحو الأفكار الحية لا الميتة "فالحضارة لا تنبعث — كما هو ملحوظ ألا بالعقيدة الدينية "(جان بيار فرنان ، 1986 ، ص167) وما صناعة الإنسان ألا صورة عاكسة للوحي ، الذي تجلي بغار حراء أو بالواد المقدس ، ضمن لحظة الوحي ، وثبات القبائل العربية على مسرح التاريخ ، وبقيت لقرون طويلة تحمل للعالم حضارة جديدة ، تقوده نحو التمدن والرقي ، لأن الوحي الإلهي أو القرآن يقدم كل شيء عن الإنسان والتاريخ بالمعني النهائي والكلي ، وكل ما يكتشفه الفكر الإنساني في اليوم ، لن يكون صائبا إلا إذا كان موافقا للوحي "...إنه مما لا شك فيه أن الحضارة الإسلامية قد خرجت من عمق النفوس كقوة دافعة ، إلى سطح الأرض تنتشر أفقيا من شاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين..."(مالك بن نبي ، 2017 ، ص56) ،لأن العقل البشري لا يستطيع أن يفكر في التاريخ خارج النص الإلهي ، لنجد النص بهذا المعني مجرد اجتهاد لغوي

بشري وليس نصا إلهيا ، ووفق هذا المنظور يقصي الإنسان من إنتاج المعرفة في سياق التاريخ ، بسبب عدم خضوعه للإرادة الإلهية المجسدة في النص القرآني .

- من هنا تتواصل حلقة ربط الفكر العربي الإسلامي التراثي ، بما هوفكر إسلامي حداثي ، بإمكانية تحديد ضوابطه وحدود اشتغاله فيما سماه مالك بن نبي "بإمكانية تطبيق المبدأ القرآني " بمزج الإنسان ، والتراب ، والوقت ، الدين الذي يغير النفس بمنحها شعورا متواصلا بالعناصر السابقة ، هذه العناصر التي تشكل الحضارة الخالدة في جوهر الدين ، وليست خاصية عابرة في التاريخ ، وما على العلماء المسلمين إلا العودة إلى إصلاح في ظل الحضارة الإسلامية بتشكيل مجموعة نصية ، من القرآن والحديث ، بتصور العلاقات اللسانية ، والابستيمولوجية بين

المقدسين ، بالإضافة إلى ما تقدم به علم الأصول الذي يماثل علم المنهج ، هذه الركائز التي تقدم جوهر الفكر الإسلامي وخاصية الأنسنة فيه ، عن التاريخ وضرورة تقنينه في مقابل الوحي.

2-أنسنة الخطاب : يتعامل مالك بن نبي مع الخطاب القرآني ، وهو خطاب الحضارة الإسلامية ، بإعادة النظر فيه ،

وكشف آلياته السياقية ، من خلال البحث في البنية اللسانية ، وحتى الخارج لسانية ، ولتحقيق ذلك لابد من خطوات عمل يبدأها أولا من علاقة الكاتب بالمتلقي أو القارئ ، هذا الأخير الوحيد الذي يمكنه أن يقدر قيمة الخطاب "...لأنه هو العامل المحمول الذي يحول الفكرة فيصيرها واقعا محسوسا في سلوكه ، أو شيئا ملموسا في محيطه "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص143) لكن في عالمنا الإسلامي القارئ غالبا ما يكون قارئ المجتمع لا قارئ النخبة ، لأن النخبة لا تكتب إلا لذاتها وأهدافها ، على عكس ما هو على ه القارئ الغربي الذي يقرأ للنخبة ، حتى تقوم كتاباته بما يتفق ومصالح المجتمع ، ويبقي القارئ العربي يمارس قراءته بعقله وقلبه ، وهذا ما يستلهمه مذهب حوار الديانات في مقاربة النصوص المقدسة ، وما نجده متمثلا فيما أسماه مالك بن نبي" العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس " ممثلا بذلك لقصة سيدنا يوسف على ه السلام في الكتابين ، ليبين مالك بن نبي كيف خلع الطابع المقدس والمفارقة ، ثم التجرد والتعالي عن الكثير من المفاهيم ، والمعاني الواردة بين نص قصة سيدنا يوسف في الكتب المقدسة ، التي تكون في بعض نواحيها عبارة عن ممارسات بشرية إنسانية محايثة (عدا القرآن) ،وهنا يمر مالك بن نبي بين مستويات من الخطاب :خطاب مطلق ، خطاب نسبي ، خطاب شفوي ، خطاب مكتوب.

- أما خاصية الخطاب المطلق فيتميز بها القرآن الكريم عن باقي الكتب السماوية الأخرى ، الذي تنعم في مناخ روحاني نستشعره في كل مشاهد قصة يوسف "...فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن ...وفي السجن يتحدى يوسف بلغة روحية محلقة..."(مالك بن نبي ، 2016 ،ص244) لأن كلام الوحي لا يعني إلا بلغة خاصة ، وخاصة الوحي العربي جاء بمقتضي لسان العرب ، أي بحسب ترتيب وجوه الكلام ، وبحسب طريقتهم في إنتاج المعني واستعمال الدلالة ، أي بحسب قوانين الخطاب ، فهو خطاب عربي "...فضلا عن حيثياته ، أو بالأحرى إحداثياته ، أي أسباب نزوله ليحيل دوما إلى أحداث وممارسات تقع في الهنا والآن ، وإلى ذوات مشدودة إلى الزمان والمكان ، ومن إناسية الوحي وزمنيته ..."(على حرب ، 1995 ، ص77)

- يسعي ابن نبي إلى فهم الوحي على أنه قدسي دنيوي، يجمع مابين القداسة الإلهية وبيان البشر، لذلك تأتي دراسة الوحي دراسة علمية خارج نصية، مؤطرة من طرف الإنسان والإله معا، ليشكل تمركز للرواية الإسلامية، التي تمثل تمركز الشخصية المحورية في قصة سيدنا يوسف، وهو شخصية مقيدة بالأنسنة المؤمنة .

- أما خاصية النسبية : فهي تشكل مدي صدق سير أحداث وتفاصيل سورة يوسف بالقرآن الكريم، والتوراة والإنجيل، فالقصة فيه تتحدث عن السجان بوصفه نبيا يؤدي رسالة، أما " الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية بالوثنية بالطبع - بأوصاف عبرانية فالسجان يتحدث بوصفه موحدا..."(مالك بن نبي، 2016 ،ص244) ومرد ذلك أنها كتبت من طرف نساخين غرضهم ذكر النوائب التي أصابت بني إسرائيل ،ل إظهارهم بالشعب المظلوم المضطهد وهي بعد زمن النبي يوسف"...علم اللاهوت الذي انتشر في أحضان الطوائف الثلاث المفسرة لكلام الله ،قد اسقط شحنات التقديس العالية جدا على الكتاب المادي المحسوس، أي المتداول بين البشر، وبالتالي فإن التقديس انتقل من أم الكتاب إلى الكتاب ذاته، عن طريق الإسقاط وبواسطة العمل التأويلي للثيولوجيين..."(محمد أركون، 1992، ص21) .

- يقدم مالك بن نبي بين هذه المقارنة لقصة سيدنا يوسف بين الكتب السماوية بغاية اكتشاف البنية اللسانية لها والسياق الاجتماعي، والسياسي، والثقافي لهذه الكتب ضمن شعوبها، بإعادة قراءتها، وبالانتقال من النص المتعالي المقدس إلى المجال البشري، والخطاب الموازي له من نص شارح ومفسر، لنجد هذه الكتب المفسرة كتبا تاريخية تعضد كتاب الوحي، لتشكل تمركز في الذات البشرية، تشده بتواز إلى فهم الخطاب فيمل هو مطلق ونسبي.

- خاصية الشفوية : في القرآن تمثلت في لغة الوحي المنزلة على الرسول (ص)، وهي لغة مسموعة عن طريق جبريل ملك الوحي، وقد أتت مناسبة للعقل العربي، الذي فطر على المشافهة والرواية في نقل الأشعار والأخبار من عصر الجاهلية "...والوثائق المخطوطة عن هذا العصر نادرة، فإن ثروته الفكرية وأدبه الشعبي لم يحفظا إلا بطريق الرواية المشافهة، ذلك الطريق الذي أوصل جوهر التراث إلى عصور الأدب والعلوم الإسلامية..."(مالك بن نبي، 2016، ص247) والقرآن يبقى خطابا شفويا ألقاه الرسول (ص) على صحابته والمسلمين، ثم جمع بعد وفاته"...فهو منطوقات شفهية سمعت وحفظت عن ظهر قلب، من قبل الحواريين، الذين مارسوا دورهم في ما بعد كشهود ناقلين لما سمعوه ورأوه، وفي

كل الأحوال أيا تكن المكانة اللاهوتية للتلفظ الأول بالرسالة، فإنه قد حصل مرور من الحالة الشفهية إلى حالة النص المكتوب ،كما وحصل تثبيت بواسطة الكتابة للرسالة التي تم جمعها ضمن ظروف تاريخية ينبغي أن تتعرض للنقد التاريخي "(19) لهذا يشير مالك بن نبي إلى أن مقاربة قصة النبي يوسف بين الديانات كانت لها ممارسات ثقافية، انطلقت نحو الجسد الاجتماعي فمارست طقوسها نحوه، كما أن سوسيولوجيا التلقي لدي القارئ لها دور في تحديد مفهوم ودلالات هذه القصة"لقد قام الآباء اليسوعيون بأبحاث مهمة جدا في هذا الموضوع..."(محمد أركون، 1992، ص77) كما ينفي حقيقة تأثر العرب قبل الإسلام بالديانة اليهودية والمسيحية في معتقداتهم، وبالتالي في تقبل الدين الجديد الإسلام، لذلك كانوا على فطرة ليتمكن الإسلام منهم دون عناء.

3- أنسنة السلطة : تلقي الرسول (ص) وحيا ، هذا الوحي الذي يعرفه البعض بالمكاشفة النفسية الشعورية ، والقرآن الكريم أعطي معني كشف الغيب ، عالم مغيب يضم تفاصيل مادية لمشهد روحي خالص ويضم واقعا معينا ، هو التوقف عن الكتابة لإعطاء الرسول (ص) سلطة الإنسان في بث ما أوحي إليه ، من طرف سلطة على ا (الله)، لأن السلطة العلى ا هي انتساب إرادي لشخص الرسول أضفي معني ودلالة ،من خلال ما ورد بالنص القرآني والعمل على نشرها ، ليتحول الرسول(ص) في ذلك الوقت إلى سلطة على ا ، على الصحابة ومن حوله ، ينهلون من علمه ، وتعاليمه وبالتإلى تصبح سلطة الله ، أو سلطة الوحي وقد سوغت سلطة دينية وسياسية للنبي وخلفائه في تسيير شؤون الأمة ،لأن سلطة الرسول من سلطة الله ، وطاعة الله سابقة عن طاعة الرسول "...ويترتب على هذا أن يقين النبي في مصدر المعرفة الموحاة لا يجيء مع الوحي نفسه ، ولا يؤلف جزءا من طبيعته ، بل إنه في صورته الكاملة من عمله الشعوري ، بوصفه رد فعل طبيعيا لهذا الشعور إزاء ظاهرة خارجية..."(مالك بن نبي ، 2016 ، ص248) .

- لذلك يعرف مالك بن نبي سلطة الرسول(ص) في أنسنة الإسلام تكمن في عمله الشعوري ، أورد فعل إزاء الوحي أي سلطته على المسلمين ، سلطة شعورية لوحي منزل لا سلطة عسكرية أو سياسية ، وإن تكن في شكل لاحق تبدو سياسية تسير شؤون المسلمين ، خاصة عندما كانت هذه السلطة السياسية تلقي معارضة من قريش وحلفائها"سيكون شعل النبي الشاغل بالمدينة أن يقر فيها الإسلام ، ويخلصها من خصوماتها الداخلية ، ويصلح ما بين الأوس والخزرج ، لتنظيم دفاع فعال ضد أعداء الدين في الخارج (قريش)...(مالك بن نبي ، 2016 ، ص147)، أو بدعوي الحفاظ على المكتسبات الشخصية لهؤلاء ، لأن الله يمنح السلطة لمن يشاء (الجبرية ،القدرية) وظلم السلطان ، ولا تشتت للأمة وتناحرها (أخف الضررين) لا نجد ثلة هؤلاء العلماء قد كرسوا مبادئ السلطة الظالمة من حيث لا يعلمون بإيهام الناس بوجود سلطة على ا لولاها لانهارت الشعوب.

- هذا ما يقارب مفهوم الديمقراطية الحديثة ، وقد فصلت في هذا القول سابقا ، لكن بعد وفاة الرسول (ص) عمت الفوضى فيمن يسوس المسلمين ويحكمهم ، فطغت النفعية على الجماعة ، وحفظ علماء الدين من التدخل في شؤون السياسة ، بدعوي فصل السلطات ، أو بدعوي هاجس الخوف من السلطة السياسية ، لتفقد هذه أنسنتها المؤمنة ،وتتحول إلى أنسنة ملحدة في أغلب الأحيان ، لأنها قرصنة السلطة بطريق غير شرعية وأفرغتها من محتواها الإلهي الشرعي ، لتصبح اليوم السلطة دون شرعية ، ومصدر مشروعيتها زمني حيني ظرفي لا غيبي إلهي.

4-أنسنة المجتمع : مفهوم الأنسنة يضفي ظلالا على كل ما ينتجه الإنسان بيده وعقله ، في إطار جمعي هو المجتمع الذي نشأ فيه ، لهذا يلتقي هذا المفهوم والاجتماع في كونهما رؤيتان تعكسان صورة الإنسان أمام العالم ، وترفض نفي كل تصور مثإلى نمطي لصورة الإنسان ، ولمفهوم الأنسنة الغير قابلة للتحقق ، هذه الأنسنة تكرس عودة الإنسان لمجتمعه ، لأنه الفاعل الصانع والمغير لهذا المجتمع حتى أصبحت صفة المجتمعية دلالة له ، وشرطا من شروط بناء هذا الإنسان ، لأن طابع المجتمعية في نهاية المطاف هو نتاج ممارسة أنسنة ، وهذا ما شغل فكر مالك بن نبي في إعادة بناء المجتمع العربي الذي لو يكن بالأساس مجتمع ، بل مجرد أفراد وذلك بإعادة قراءة وتأويل ما تقدم به من دروس ومحاضرات حول أنسنة المجتمع"...لم ندقق في مصطلحات الاجتماع ، ففهمنا أن المجتمع إنما هو عبارة عن عدد من الأفراد ، يعيشون كما يشاءون مهما كانت الصلات

بينهم ، ليس هذا هو المجتمع ، هذا يمكن أن نسميه بقايا مجتمعات أو بداية مجتمعات قبل أن تقوم بوظيفتها التاريخية...يقوم بوظيفته نحو الفرد وتحقيق راحة الفرد ...فهو ليس عددا من الأفراد ، وإنما هو شيء خاص هو بنيان وليس تكديسا من الأفراد ، بنيان فيه أشياء مقدسة متفق على ها فقبل أن تتجمع الأفراد تكون هناك فكرة عامة هي التي تؤلف بين أفراد المجتمع "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص135) .

- المجتمعية خاصية متعلقة بالإنسان ، وهذا ما اكتشفته الممارسة التوسعية لعالم الاجتماع النفسي ، بصفته عاملا شاملا داخل العلوم الإنسانية ، فالمجتمعية عند مالك بن نبي تنص على : إن التكديس ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمعات تتكدس في مرحلة ما ، مرحلة انحطاطها ، لأن تكديسها غير فاعل ايجابي ، لأنها في هذه المرحلة لا تفكر ولا تنظم أعمالها وفق قوانين ، مما يستوجب على نا التفكير في المجتمع تفكيرا بناءا ، وليس تفكير تكديس ، هذا التفكير الذي يعدد الأسباب ولا يصل إلى النتائج والحلول ، ومن تلك الحلول التي قد يصل إليها بالفطرة ، تأسيس الإنسان الجميل حسب منظور علماء النفس الاجتماعي كمثل ما قدمه الغزالي عن الجمال ، ومدي تأثيره عن الروح الاجتماعية ،لتصبح فلسفة الجمال هي المنوال الذي تنتج على نمطه الأعمال "ولعل من الواضح لكل إنسان أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال ، ولو أنه كان موجودا في ثقافتنا ، إذن لسخرناه لحل مشكلات جزئية ، تكون في مجموعها من حياة الإنسان "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص82) لتصبح فلسفة الجمال والمجتمع دافع لأنسنته ورقيه ، لأنه بشكل أو بآخر يؤثر على الذائقة المجتمعية بتهذيبها وإضفاء الروح الإنسانية فيه ، فيصبح الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بالذوق الجمالي.

- وبالتإلى فإن أنسنة المجتمع عند مالك بن نبي تقوم على رفض النظرة النمطية للمجتمع ، أي رفض إعطاء معني سابق للمجتمع ، لأن الإنسان هو الذي يضفي المعني على المجتمع ، كما أنها تقوم أي الأنسنة على تعديل المجتمع في جانبيه المادي والمعنوي ، لأنها لا تهتم بالوقائع المادية فقط ، بل تحاول استخراج من هذا الطابع المادي طابع ذوقي روحي ، هو المفقود أصلا في هذه المحاورة بأن تعيد إحياء قيم الخير والحق والجمال من الحلم إلى الواقع.

- إن جدلية الإسلام والمجتمع عند مالك بن نبي ،أي تأثير الدين في المجتمع يبني على مستوي المتعإلى الروحاني إلى مستوي الإسلام الثقافي ، المتوارث جيلا عن جيل ، هي الإسلام الثقافي الذي تطبق آلياته ومنهجياته في العلوم الحديثة ، لتصبح أنسنة المجتمع تمثل بعدا فلسفيا في مشروع الأنسنة لدي مالك بن نبي ، لأن المجتمع إنما هونتاج فعالية إنسانية.

- إن قراءة النص المقدس والنص الشارح المفسر عند مالك بن نبي ، يتطلب شروطا منهجية ، بإعادة بناء المنظومة المعرفية العربية اليوم عما كانت على ه بالأمس ، فإذا فرغنا إلى معرفة حداثية للنص أمكن لنا ذلك من مقاربة هذا النص بالمناهج الغربية المعاصرة في النقد عموما " وهكذا نطبق التحليل النفسي الألسني ، والتحليل السيميائي الدلالي ، والتحليل التاريخي ،والتحليل الاجتماعي ، أو السوسيولوجي ، والتحليل الأنثروبولوجي ، والتحليل ألنفسي وعلى هذا النحو نحرر ، أو لنفسح المجال لولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية ، ولكن من دون أن نعزلها أبدا عن الظواهر الأخرى المشكلة للواقع الاجتماعي — التاريخي الكلي "(محمد أركون ، 2001 ، ص70) لكن هل قراءة النصوص الديني دلالتها نهائية أم غير نهائية ؟. هذا ما حاول مالك بن نبي أن يقدمه في أطروحته حول فلسفة الحضارة والإنسان ،بأن يقر مبدأ تفسير النص المقدس

تفسيرا كاملا غير منقوص بحسب النصوص المساعدة له ، من السنة النبوية والمصادر المرافقة لها ، كما يمكن تطبيق مبادئ علم التأويل بحسب كل زمان ومكان ، وفي شتي السياقات الفكرية للإنسان ، باعتبار الدين الإسلامي دين العالمية "ذلك فيما يبدو لنا هو الطابع العام للقرآن ،باعتباره مجموعا صادرا عن إرادة وتفكير وتنسيق ، بل عن علم يبدو إنه ثمرة إعداد سابق "(مالك بن نبي 2016 ، ص262) لذلك تبني مالك بن نبي مهمة الحفر الجيوتاريخي في تحقيق مبادئ النص المقدس ، هذه المبادئ التي مكنته من اختراق الفكر الإسلامي ، خاصة عندما أكد أن الفكر الإسلامي عرف تجارب صوفية تاريخية في العالم من طرف أناس بسطاء ، لأن الطبقة المسلمة المثقفة عاجزة عن الإتيان بمثل ذلك ، باستثناء محمد إقبال ، وهذا العجز هو ما أعطي الفرصة للخطاب الإستشراقي بتقديم الصورة التي يراها مناسبة للتحلي بالتصوف ، كمثل ما تقدم به الكاتب الأنجليزي " ألدوس هكسلي" في كتابه عن الفلسفة الخالدة بوصفه دراسة علمية ، لكن هذه الدراسة للأسف لم تتمكن من إحياء التراث الروحي العالمي في زمننا الحالي ، لأنها لم تقم بتبليغ القيم الإسلامية إلى لغات الثقافة العصرية في العالم ، هذا التقصي الدقيق فيما ذهب إليه مالك بن نبي جعله يؤسس إلى إستراتيجية منهجية في الدراسات الإسلامية اليوم ، هي دراسات التأويل المفارق بتعدد دلالات النص ، والتي بالطبع تعددية متناهية الدلالة ، تحكمها قوانين التأويل ومعاييره ، سواء كانت معايير لسانية أو سياقية ، أوثقافية .

- كما يؤكد مالك بن نبي على أن من بين خصائص الأنسنة ، التي تدخل في اطار الفكر والسلطة والمجتمع ، خاصية التعدد المذهبي والثقافي واللغوي ، وهي خاصية جبل الإنسان على ها ، لكن نجد ما يهدد الأنسنة في الثقافة العربية ، فكرة التضامن بين الدولة كمفهوم سياسي ، أو سلطة والدين ، حتى تصبح وجهين لعملة واحدة ، فتضيع بينهما فكرة الخصوصية والتميز في الفكر الإنساني ولإبداء الرأي ، لتغيب ثقافة الرأي وحرية التعبير داخل المجتمع ، فالتضامن الأيديولوجي بين الدين والدولة يقمع روح الإنسانية ، ويجعلها تتراجع وتموت ، لتسيطر ذهنية التحريم والتقديس ، وتغيب روح النقد والانفتاح والاختلاف ،"فهناك مؤرخون يرون أن نهضة أوروبا في القرن السادس عشر ، تعد تركيبا حققه الزمن ، والأحداث على الحدود بين الثقافة الإسلامية والعالم ألمسيحي والحروب الصليبية على أية حال قد انفجرت على الحدود ، ولا ريب إنها نوع من التركيب ، الذي اتخذ وضعا معكوسا ، فالثقافات دار أمانها في مواطن حضارتها "(مالك بن نبي ، 2016 ، 98- 99) الأمر الذي جعل مالك بن نبي يتوقف مليا عند لحظة تراجع نزعة الأنسنة العربية في العصور الأولى ، ثم تحول إلى محاولة معالجة هذه الأنسنة الحية ، من خلال الحرب التحريرية الجزائرية ، فالاستعمار الفرنسي الذي فتك بشمال إفريقيا ، وبإنسانها وأرضها ، وقفت في وجهه إيديولوجيا الكفاح ،كرد فعل طبيعي على الهيمنة الكولونيالية ، وهي نزعة تعلى من شأن النزعة الانسانية المنفتحة على الثقافات الأخرى "...إن ما يقرب من عشرين ألف شجرة قطعت...إن الحالة التي تواجهها مصلحة التراب بوسائل ، ربما ليست كافية بالنسبة إلى اتساع الرتق...على أن مبدأ المسلم هوالمسئول عن الخلل الذي حدذ في توازن العناصر الفعالة ، شجر ، نبات ، تراب ، وقد نعلم الأعمال الاضطهادية التي تعرض لها الشعب الجزائري ، بسبب هذا المبدأ عند ما يطبق في صورة قانون المسؤولية الجماعية "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص99 - 100).

- لعل هذا القبول الفعلى لأيديولوجيا الكفاح ، هي التي جعلت مالك بن نبي في رحلته العلمية الفلسفية ينقم على بلده لا كرها ، ولكن حسرة وألما ، لأنه يقف على تاريخ الثورة القائم على التحول من التاريخ المؤسس على

علاقات الهيمنة ، إلى التاريخ المؤسس على علاقات تضمن المصالح المتبادلة ، وهي لغة الاقتصاد ، حيث يقول في أحد أسفاره وقد تعرض للتفتيش من طرف السلطات الفرنسية ، بعد أن أخفي أوراقه البحثية عن عيون المستعمر في 22 سبتمبر 1939 "عند ما بدأت الأرض الجزائرية تغيب في الأفق ، وجدت نفسي أقول وأنا متكئ على حافة الباخرة ، يل أرضا عقوقا...تطعمين الأجنبي وتتركين أبنائك للجوع ، إنني لن أعود إليك إن لم تصبح حرة "(مالك بن نبي ، 2016 ، ص 427 - 428)، لأن الفضاء المغاربى ككل كانت تهيمن على ه جدلية القوى المركزية ، مقابل القوى الهامشية ، وقد حافظ المغرب العربي رغم بعض الخصوصيات التي تتعلق بكل بلد فيه ، على مفهوم الدين واللغة والعروبة ، كما أكدت فكرة التعايش الثقافي للإنسان المغاربى مابين الأمازيغى والعربي ، الذي قد تجمعه أفكار ومصالح مشتركة ، كفكرة العداء للاستعمار ، ثم المصلحة الاقتصادية ، وهذه الفكرة التي جسدها مالك بن نبي في حديثه عن تعايش المجتمع الأفرو آسيوى في مؤتمر ، أو محور طنجا جاكرتا ، التي بقدر ما كانت دافعة لإثبات أنسنة الآفرو آسيوى لوقت ما أصبحت كذلك في تطوره ، بعد نهاية الاستعمار ، هي عائق نفسي اجتماعي ثقافي تركز في العقل الآفرو آسيوى ، ليتحول إلى تهذيبها ، وتحفزيها بالاتجاه نحو فلسفة الأخلاق المعنية بالجمال ، فكل جميل نجد له صدي وتفاعل ، ومن ذلك الأنسنة الجميلة ، التي تعكس بايجابية حركة تطور الشعوب ، وهذا ما يتطلب من الشعوب النامية اليوم ، اذ لا بد لها من فتح المجال والاعتراف بالتعددية العرقية والثقافية واللغوية ، لأن هذا الاعتراف هو تكريس للأنسنة ، التي تقوم على الفكر التساؤلي النقدي.

خلاصة:

كل علوم الإنسان والمجتمع من سلطة مؤسسة ، وخطاب موجه ، وفكر منظم ، لابد أن تقرأ في سياق الدين الإسلامي والتراث العربي ، في ضوء ما قدمته تجاربنا الميدانية ، التي كانت قاصرة في معظم حالاتها ، وكذا وفق منظور استشرافي غرضه ممارسة الفعل المعرفي المسئول ، الذي يهدف إلى تغليب البحث المفتوح عن المعني من خلال نقل إشكالات العلوم إلى المجال الإسلامي ،حيث تتحقق مبادئ الأنسنة .

- أنسنة الفكر تكمن في إمكانية تطبيق المبدأ القرآني ، بالتعالى عن التاريخ وضرورة ضبطه مقابل الوحي ليصبح ثقافة محايثة للزمان والمكان بحسي تطور ه وتغيره.

- أنسنة الخطاب يتجلى مبدأ الأنسنة في حد ذاته ، في المقاربة بين الخطاب القرآني كبنية لسانية وخارج لسانية ، في إطار علاقة الكاتب بالمتلقي ليجمع بين حدي النسبية في مصدر المعلومة والشفوية في الرجوع إلى الآليات المساعدة لتفسير الخطاب الديني .

- أنسنة السلطة تكمن في اعطاء سلطة القرار مفهوما شعوريا روحيا في تسيير شؤون الإنسان وفق سلطة الوحي العليا ، وهي سلطة اتصال لا انفصال بموجب النص المقدس ، لتقرب مفهوم الديمقراطية وأنسنة الإنسان العربي.

- أنسنة المجتمع بإعادة بنائه بناءا روحيا وليس ماديا ، لأن المجتمع لم يعد يعني كل تجمع لمجموعة من الأفراد ، بل المجتمع هو تجمع لقيم روحية وثقافية ، هذا ما جعل الدول العربية لا تشكل مجتمعا عربيا ، لأن ثوابتها مشتتة لم تجتمع لتحقق أنسنة فعلية.

قائمة المصادر والمراجع:

. القرآن من التفسير الموروثي الى تحليل الخطاب الدينى .بيروت : دار الطليعة.)2001(- أركون ، محمد
. الفكر العربي نقد واجتهاد . بيروت : مركز الانماء العربي – المركز الثقافي العربي .)1992(- أركون ، محمد
. الإسلام لأوروبا الغرب رهانات المعني وإرادات الهيمنة . بيروت : دار الساقي .)2001(- أركون ، محمد
دار الفكر المعاصر . شروط النهضة. لبنان :) أ 1995(- بن نبي ، مالك
. مشكلة الثقافة . لبنان : دار الفكر المعاصر.)ب 2016 (- بن نبي ، مالك
، مذكرات شاهد قرن . لبنان : دار الفكر المعاصر .) ج2016 (بن نبي ، مالك -
الظاهرة القرآنية . لبنان : دار الفكر المعاصر .) د2016 (بن نبي ، مالك -
. في مهب المعركة . لبنان : دار الفكر المعاصر .) هـ2016 (بن نبي ، مالك –
. تأملات. لبنان : دار الفكر المعاصر .) و2016 (- بن نبي ، . تكوين العقل العربي .بيروت : مركز دراسات الوحدة العربي . (1996) الجابري ، محمد عابد –
. أزمنة الحداثة الفائقة . بيروت – الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي . (1996) – حرب ، على
. نقد الحقيقة . بيروت – الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي . 199) 5(- حرب ، على
المقالات :
، . العقل بين الامس واليوم . بيروت : مجلة الوحدة.(1986) بيار ، فرنان جان –
. نحوتقييم واستلهام جديدين للفكر الاسلامى . بيروت : مجلة الفكر العربي المعاصر.) 1979(- أركون ، محمد

حماية الحياة الرقمية الخاصة للأفراد في ظل تنامي الجريمة الالكترونية

in light of the growth of cybercrime Protect the private digital life of individuals

د. بختة لعطب ، المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي ، تيسمسيلت- الجزائر
أحمد لعروسي ، المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي ، تيسمسيلت- الجزائر

مقدمة:

شكلت ثورة التكنولوجيا الرقمية نقلة نوعية لحياة الأفراد من خلال تسهيل أعمالهم واتصالاتهم عن طريق الاستفادة بما أنتجته من تطورات تقنية مست الجوانب المتعددة لهم سواء على مستوى حياتهم الخاصة أو العامة في المجتمع.غير أن الاستعمال السيئ لهذا التطور خلق شكلا أخر من أشكال الاعتداء على الحقوق الشخصية للأفراد ، فلم تسلم الحسابات الالكترونية ولا حتى الرسائل والمكالمات التي تتم عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي من الخروق والتجسس وتهديد وابتزاز أصحابها إما من أشخاص عاديين أو شبكات قرصنة منظمة.لذا تدخلت الدول عن طريق تشريعاتها الوطنية للحد من هذه الظاهرة المسماة بالجريمة الالكترونية وحماية خصوصية حياة الأشخاص في العالم الافتراضي ، ومن جهة أخرى كثفت الدول جهودها لأجر التعاون فيما بينها لصون وحماية حقوق الإنسان في ظل هذا التطور.

وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة عن إشكالية: **مفهو م الجريمة الالكترونية وعلاقتها بحق الفرد في خصوصية حياته الشخصية ؟ وفي ما تتمثل الحماية القانونية لهذه الخصوصية في المجال الرقمي ؟**

وذلك من خلال المحورين التاليين:

1/المحور الأول: مفهوم الجريمة الإلكترونية وحق الفرد في خصوصية حياته الشخصية في البيئة الرقمية.

2/ المحور الثاني: حماية الحق في الخصوصية في البيئة الرقمية.

المحور الأول: مفهوم الجريمة الالكترونية وحق الفرد في الخصوصية في البيئة الرقمية

أولا. مفهوم الجريمة الالكترونية:

اختلفت وتعددت مفاهيم الجريمة الالكترونية ، وذلك بحسب الزأو ية التي ينظر إليها أصحاب الاختصاص ، فهناك تعريفات تقنية ، وتعريفات قانونية. كما تتعدد التسميات التي تطلق على هذه الجريمة فتسمى إما جرائم الحاسوب ، أو جرائم الانترنت ، أو جرائم التقنية العالية...الخ.

فالجريمة الالكترونية أو جريمة المعلوماتية هي شكل من أشكال الجرائم التي ترتكب على شبكات الإعلام ، خصوصا على شبكة الانترنت(فريجة حسين ، 2011 ، ص02) كما تعرف على أنها فعل ضار يستخدم فاعله الذي يفترض أن لديه معرفة بتقنيات الحاسوب ، نظاما حاسوبيا أو شبكة حاسوبية للوصول إلى البيانات والبرامج بغية نسخها أو تغييرها أو حذفها أو تزويرها أو تخريبها أو جعلها غير صالحة أو حيازتها ، أو توزيعها بصورة غير مشروعة(أحمد بن خليفة ، 2017 ، ص155).

وتعرف أيضا على أنها الجريمة التي تتم باستخدام جهاز الكومبيوتر من خلال الاتصال بالانترنت ويكون الهدف منها اختراق الشبكات وتخريبها والتحريف والتزوير والسرقة والاختلاس والقرصنة وسرقة حقوق الملكية الفكرية. (أمير الفونس عربان، 2010، ص03). أو هي أيضا الجريمة الناجمة عن إدخال البيانات المزورة في الأنظمة والإساءة في استخدام المخرجات، إضافة إلى أفعال أخرى تعد جرائم أكثر تعقيدا من الناحية التقنية كتعديل الكومبيوتر.

من جانب أخر عرفها أحمد صياني على أنها الأفعال غير المشروعة التي تؤثر في الأجهزة والمعلومات الموجودة، ويعرفها آخرون على أنها جريمة ذات طابع مادي، والتي تتمثل في كل سلوك غير قانوني من خلال استخدام الأجهزة الالكترونية، ينتج منه حصول المجرم على فوائد مادية أو معنوية مع تحصيل الضحية خسارة مقابلة، وغالبا ما يكون الهدف من هذه الجرائم القرصنة من أجل سرقة أو إتلاف المعلومات الموجودة في الأجهزة، ومن ثم ابتزاز الأشخاص باستخدام تلك المعلومات.

كما تعرف على أنها الجرائم التي ترتكب ضد أفراد أو مجموعات مع وجود دافع إجرامي لإلحاق الضرر عمدا بسمعة الضحية، أو التسبب بالأذى الجسدي أو النفسي للضحية بشكل مباشر أو غير مباشر، باستخدام شبكات الاتصال الحديثة مثل الانترنت، والهو اتف الذكية. وتشمل الجرائم الالكترونية أي فعل إجرامي يتم من خلال الحواسب أو الشبكات كعمليات الاختراق أو التخريب أو القرصنة.

المشرع الجزائري بدوره عرف هذه الجريمة والتي سماها بالجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال .في المادة 02 من القانون رقم04/09 المؤرخ في 2009/08/05 على أنها جرائم المساس بأنظمة المعالجة الآلية للمعطيات الآلية المحددة في قانون العقوبات، أو أي جريمة أخرى ترتكب أو يسهل ارتكابها عن طريق منظومة معلوماتية أو نظام للاتصالات الالكترونية.

بناءا على هذه التعريفات يمكن استخلاص جملة الخصائص والعناصر التي تميز هذا النوع من الجرائم. والمتمثلة في:

من حيث الأشخاص: يتعلق الأمر هنا بمرتكبي الجرائم الالكترونية وكذا الضحايا المستهدفين منها، فبخصوص مرتكبي هذه الجرائم فغالبا ما يتمتعون بالوضع الاجتماعي المتميز والوضع المادي الجيد، ويكون الهدف من وراء سلوكهم هذا هو الرغبة هو قهر النظام والانقلاب عليه عكس المجرم العادي الذي يكون هدفه في الجرائم التقليدية هو تحقيق الربح المادي. ضف إلى ذلك أن مرتكبي الجريمة الالكترونية يتمتعون بالذكاء ومن ذو المهارات في مجال التقنية وبدراية بالأسلوب المستخدم في مجال أنظمة الحاسب الآلي وكل ما يتعلق به من عمليات وبرامج.

أما بالنسبة للضحايا، ففي غالب الأحيان يمتنعون عن التبليغ عن ما تعرضوا إليه من سلوكيات غير مشروعة ضمن نطاق الشبكات أو المواقع الالكترونية، ومرد ذلك إما عدم اكتشاف الجريمة الواقعة ضدهم أو اكتشافها بعد فترة من الزمن ومحوا لأدلة، أو عدم التبليغ نظرا لحساسية المعلومات المخترقة(معلومات أمنية، مصرفية، عسكرية، ...)، أو لصعوبة اكتشاف مصدر التهديد.

من حيث الموضوع:

01- الجريمة الالكترونية تقع في مجال المعلوماتية ومعالجة المعلومات والبيانات.

02- هذه الجرائم تستهدف تخريب أو قرصنة أو اختلاس أو سرقة المعلومات سواء بالنسبة للمعلومات الخاصة للمؤسسات أو للأشخاص العاديين.

03- قد تقع الجرائم الالكترونية على الأموال كما قد تقع على الأشخاص ، فبالنسبة للأموال وبعد الإقبال الكبير على التجارة والمعاملات الالكترونية ، وما تمخض عنها من وسائل تقنية جديدة كبطاقات الدفع والوفاء مثلا ، أصبحت هذه الأخيرة عرضة للعديد من الجرائم بذكر على سبيل المثال: التحويل الالكتروني غير المشروع ، غسيل الأموال عبر الانترنت ، سرقة وقرصنة الأرقام السرية لبطاقات الدفع ، ن قرصنة الحسابات البنكية والمصرفية ، ....الخ.

أما بالنسبة للجرائم الالكترونية التي يكون محلها الأشخاص فقد تكون في شكل تهديد أو مضايقة بغرض فضح أمورهم الشخصية ، جرائم السب والشتم والقذف ، جرائم انتحال الشخصية ، الجرائم الإباحية ، ....الخ.

04- تستهدف الجرائم الالكترونية كذلك أمن واستقرار الدول من خلال تكوين وتمويل الجماعات الإرهابية ، جريمة التجسس الالكتروني ، جرائم التأثير على فئات المجتمع وتهديد الهوية الوطنية .....الخ.

من حيث التنفيذ والآثار: الجريمة الالكترونية تمتاز بالمرونة والسرعة في التنفيذ ذلك أنها تعتمد على الشبكات الالكترونية والانترنت ، فلا تحتاج لارتكابها سوى كبسات على الزر ، ولا تحتاج إلى الوقت الكبير لتنفيذها فغالبا ما ترتكب في ثوان قليلة.

ضف إلى ذلك أن الجريمة الالكترونية جريمة ذات أبعاد دولية وعابرة للأوطان والقارات ، فلم يعد العالم كما السابق خصوصا بعد عصر العولمة والانفتاح الذي طال كل تركيبته الدولية. كل ذلك سهل ارتكاب هذه الجرائم الحديثة وساهم في انتشارها الكبير.

أما من حيث الآثار ، فإن هذه الجرائم لا تترك أي أثر بعد ارتكابها ، مع سرعة محو الدليل لاستعمال البرامج المخصصة لذلك ، الأمر الذي يصعب من كشف الجريمة ومن إثباتها. ولأنها ذات طبيعة متشعبة وأهدافها متعددة ولا يمكن حصر مجالها ولا موضوعاتها فإن أثارها وانعكاساتها على المجتمع وعلى الأفراد والأموال المستهدفين تكون سلبية ومن الصعب تلافيها ومحاربتها إلا بإتباع سياسية ناجعة من قبل الدولة من خلال وضع استراتيجيات مراقبة وحماية للعالم الرقمي الذي تضمنه من خلا القوانين والتشريعات.

ومن بين أهم المواضيع المستهدفة من هذه الجرائم الالكترونية نجد الحق في حماية الحياة الرقمية الخاصة للأشخاص. فما المقصود بهذا الحق ؟

ثانيا: مفهوم حق الفرد في حماية حياته الخاصة في البيئة الرقمية: بداية نعرف ما المقصود بالحياة الخاصة للأفراد كحق من حقوق الإنسان المعترف بها للأفراد في الدساتير والقوانين الداخلية والدولية ، ومن ثم نتطرق إلى مفهو م خصوصية هذه الحياة ضمن البيئة الرقمية ومجالاتها.

تعددت التعريفات بشأن المقصود من الحياة الخاصة أو الحق في الخصوصية ، فعرفها معهد القانون الأمريكي عن طريق ضمان عدم المساس بها بالقول أنها: كل شخص ينتهك بصورة خاصة وجدية وبدون وجه حق ، حق شخص أخر في ألا تصل أموره إلى الغير ، وألا تكون صورته عرضة لأنظار الجمهو ر ، يعتبر مسئولا أمام المعتدي(برنارد سوارتز ، 1980 ، ص359).

أما الفقيه الفرنسي نيرسون فقال: أن الحق في الخصوصية عبارة عن التحفظ الذي يمكن للشخص من عدم تعريض شخصيته للجمهو ر بدون موافقته ، وبهذه الكيفية يستطيع المرء أن يتمتع بالسلم وأن يترك وشأنه ، أي يستطيع أن يعتزل الناس مقلدا المسيح ويخلوا بنفسه(عيسى العاقب ، 2014 ، ص59).

فحين يعرفها الدكتور رمسيس بهنام بأنها: قيادة الإنسان لذاته في الكون المحيط به ، ويعني كذلك قيادة الإنسان لجسمه في الكون المادي المحيط بجسمه ، وقيادة نفسه حيث يتمثل في استخدامه الحواس الخمسة ، سواء تمثلت في التنقل من مكان إلى مكان آخر ، أو تمثلت في اللجوء إلى السكون والنوم(رمسيس بهنام ، 1987 ، ص01). أما الدكتور نعيم عطية فقال أنها حق الشخص في عدم ملاحقة الآخرين له في حياته الخاصة ، وإن جاز تعريف الحرية بأنها حق الفرد في أن يترك وشأنه فإن حق الفرد في أن ينسحب انسحابا اختياريا ومؤقتا بجسمه وفكره من الحياة الاجتماعية هو حقه في الحياة الخاصة ، فمن حق كل فرد أن يمارس الشؤون الخاصة بمنأى عن تدخل الآخرين ، ومن ثم كان هذا الحق هو حرية المواطن في حياته الخاصة.

غير أن الفرد انتقل بحياته الخاصة من العالم التقليدي إلى العالم الافتراضي أو الرقمي وتغيرت مفاهيم الخصوصية بأن ظهر مفهو م الخصوصية في البيئة الرقمية. فما المقصود بذلك ؟

01-تعريف الحق في الخصوصية الرقمية: اقترن هذا المفهو م بالمعلوماتية ومختلف استخداماتها ، وكان الأمريكيانآلانواستن وميلر في عام 1967 قد تناول هذا الموضوع في دراسة نشرت تحت عنوان: الخصوصية والحرية ، والاعتداء على الخصوصية(بولين أنطونيوس أيوب ، 2009 ، ص08) فعرف آلان بأن الحق في الخصوصية هو حق الفرد في تحديد متى وكيف وإلى أي مدى تصل المعلومات عنه للآخرين(توبي مندل ، 2013)أما ميلر فعرفها بأنه: قدرة الأفراد على التحكم بدورة المعلومات المتعلقة بهم.

على صعيد آخر فقد تم تناول موضوع الخصوصية في المجال الرقمي في مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان المنعقد بطهران عام 1968ن أين تم تناول مخاطر التكنولوجيا على الحق في الخصوصية ، أو الحق في البيانات الشخصية ، ثم تلاه إصدار العديد من القرارات في هذا الشأن.

والملاحظ بشأن هذا الحق انه ليس إلا مجرد امتداد للمفهوم التقليدي للحق في الحياة الخاصة فقط مع اختلاف بسيط يتمثل في البيئة التي تمارس فيه وأسلوب انتهاكه والاعتداء عليه.

02-مجالات الحياة الخاصة في البيئة الرقمية: تتمثل في :

البيانات الشخصية: وهي الوعاء التي يتم تخزين فيه المعلومات ، سواء تمثل في نصوص أو جداول أو رسوما بيانية أو رموزا أو أية إشارة ذات دلالة لدى معالج البيانات. ويعرف المشرع الجزائري البيانات الرقمية من الناحية القانونية على أنها: البيانات/ المعطيات المعلوماتية هي أي عملية عرض للوقائع أو المعلومات أو المفاهيم في شكل جاهز للمعالجة داخل المنظومة المعلوماتية ، بما في ذلك البرامج المناسبة التي من شأنها جعل منظومة معلوماتية تؤدي وظيفتها(**القانون رقم 04/09**) فحين لم يورد تعريفا للبيانات الشخصية ، التي تناولتها اللجنة الوطنية للمعلوماتية والحريات: كل معلومة تتعلق بشخص طبيعي معروف الهوية أو ممكن التعرف علي هو يته بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالرجوع إلى الرقم تعريفي أو إلى واحد أو مجموعة من العناصر التي تخصه.... كما تعرفها الاتفاقية رقم 108 بأنها: كل معلومة تتعلق بهو ية الفرد ، أو بفرد محدد(**المادة 02من الاتفاقية 1981**).

وتنقسم البيانات الشخصية إلى بيانات محددة للهو ية والمتمثل في كلمات المرور مثلا المستعملة للولوج إلى الحسابات الرقمية الخاصة أو إلى قاعدة البيانات أو البريد الالكتروني أو الحاسوب أو البصمات الخاصة التقنية كبصمة الأصبع أو الصورة أو العين ...الخ. وإلى بيانات خاصة بالأفراد والتي تشمل بدورها كل البيانات المتعلقة بالأصل العرقي أو الرأي السياسي أو الانتماء أو المعتقدات والأديان، وتلك المتعلقة بالصحة والتعليم والسوابق العدلية.....وهي مخزنة لدى المؤسسات العامة والخاصة.

الأنظمة المعلوماتية: ويقصد بها مجموعة الأجزاء المترابطة فيما بينها لأداء مهمة يمكن مشاهدتها على الواجهة أو في البيئة الخارجية. أما من الناحية القانونية، فقد عرفتها المادة01 من اتفاقية بودابست حول الجريمة السيبيرانية: النظام المعلوماتي يعني أي جهاز أو مجموعة من الأجهزة المتصلة أو المترابطة بحيث واحد من بينها أو أكثر يقوم بالمعالجة الآلية للبيانات وفقا لبرنامج.

وعرفها المشرع الوطني بأنها أي نظام منفصل أو مجموعة من الأنظمة المتصلة ببعضها البعض أو المرتبطة، يقوم واحد منها أو أكثر بمعالجة آلية للمعطيات تنفيذا لبرنامج معين(**القانون رقم 15/04**) وتدخل الأنظمة المعلوماتية ضمن نطاق الحق في الخصوصية الرقمية كونها تتولد فيها البيانات والمعلومات الشخصية وتعالج وتخزن ويتم تبادلها. وقد ساهمت هذه الأنظمة في ظهو ر ما يسمى بالحكومة الالكترونية والإدارات الالكترونية التي ساهمت بدورها في تخزين وتجميع العديد من المعلومات الشخصية للأفراد والجماعات ضمن الحواسيب والأنظمة المدمجة والهواتف الذكية والصرافات الآلية ...الخ.

المرسلات والاتصالات الالكترونية: انتشرت وبشكل ملفت للنظر وسائل الاتصال الالكتروني بين الأفراد والمؤسسات والمنظمات لما تنطوي عليه من سهو لة الاستعمال وسرعة الاتصال والرد واختصار للوقت والجهد والتكاليف، ومن بين هذه الوسائل نجد البريد الالكتروني، وسائل التواصل الاجتماعي كالفيس بوك وتويتر وسكايب ...الخ. كل هذه الوسائل والتقنيات إنما تحتوي على مجموعة من البيانات والمعلومات الخاصة والشخصية لأصحابها من عناوين ومعلومات خاصة بالهوية والأرقام والرموز السرية، كما قد تسمح لمستخدميها فرص الاتصال عن الطريق الصوت أو الصورة أو عن طريق الدردشات الخاصة أو عن طريق الكتابة، وأي اعتداء عليها بالتجسس أو التعقب أو الولوج غير القانوني أو النشر أو التهديد يشكل انتهاكا لحق الخصوصية.

ونخلص في الأخير بالقول أن خصوصية الحياة الشخصية في البيئة الرقمية مضمونة للأشخاص ومن ثم كان واجبا على الدول والحكومات تنظيمها وحمايتها في قوانينها المحلية أو ضمن التعاون الدولي لمكافحة الجرائم الالكترونية التي تهدد هذا الحق.

المحور الثاني: حماية الحق في الخصوصية في البيئة الرقمية: كفل الدستور الجزائري لعام1996 المعدل والمتمم حماية الحقوق الأساسية والحريات الفردية مع ضمان الدولة لعدم انتهاك حرمة الإنسان، وقد تم تكريس هذه المبادئ الدستورية في التطبيق بواسطة نصوص تشريعية في قانون العقوبات وقانون الإجراءات الجزائية وفي القوانين الخاصة بالبريد والاتصالات.

أولا: الحماية الجنائية لحق الخصوصية في البيئة الرقمية: يمنع القانون التعاطي مع المعلومات التي قد تؤدي إلى انتهاك السرية والخصوصية، كما يمنع استخدام البيانات الشخصية بطريقة غير شرعية، أو إفشاء

غير المشروع للمعلومات والبيانات الشخصية(دلخار صالح بوتاني ، 2015، ص200). وقد عالج المشرع الجزائري هذه الحماية من خلال المواد394 مكرر إلى 394مكرر7 من قانون 15/04ن منها ما تعلق بسلامة الأنظمة المعلوماتية ، ومنها ما تعلق بإتاحة الأنظمة والبيانات ، ومنها ما تعلق بسرية البيانات الشخصية. ومن بين الأفعال التي تعد جرائم تقنية يعاقب عليها قانون العقوبات ، تجريم الدخول غير المصرح به إلى النظام المعلوماتي حيث يعد ذلك جريمة ماسة بخصوصية الأفراد ، ونصت المادة 394 مكرر على أنه: يعاقب بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنة وبغرامة من50.000دج إلى 100.000دج كل من يدخل أو يبقى عن طريق الغش في كل أو في جزء من منظومة للمعالجة الآلية للمعطيات أو يحاول ذلك.

وفي المادة394 مكرر1 جرم إدخال معطيات إلى النظام المعلوماتي أو إزالتها أو تعديلها: يعاقب بالحبس من ستة أشهر إلى ثلاثة سنوات وبغرامة من 500.000دج إلى2.000.000دج كل من أدخل بطريق الغش معطيات في نظام المعالجة الآلية أو أزال أو عدل بطريق الغش المعطيات التي يتضمنها. ما يفهم من النص أن فعل سواء كان عن طريق الإدخال أو التعديل أو الإزالة يتم بطريقة غير مشروعة في النظام الرقمي يعد جريمة لغض النظر عن نتائج هذه الأفعال وأثارها.

أما المادة394 مكرر2 فعاقب المشرع الجزائري على جريمة حيازة أو إفشاء أو نشر أو استعمال البيانات الشخصية بالحبس من شهرين إلى ثلاثة سنوات وبغرامة مالية من1.000.000دج إلى5.000.000دج كل من يقوم بالعمد أو الغش بأحد هذه الأفعال.

فيما يخص خصوصية وسرية الرسائل فقد نصت المادة303 من قانون العقوبات الجزائري على أنه:كل من يفض أو يتلف رسائل أو مراسلات موجهة إلى الغير ، وذلك بسوء نية وفي غير الحالات المنصوص عليها في المادة137 ، يعاقب بالحبس من شهر إلى سنة وبغرامة من25.000دج إلى 100.000دج أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط. ومن خلال هذا النص يتضح أن المشرع أدرج المراسلات الالكترونية كذلك ضمن مصطلح الرسائل والمراسلات ، وبذلك تستفيد هي الأخرى من ذات الحماية المقررة. كما ننوه أن قانون البريد والمواصلات هو الأخر عرف الاتصالات في مادتة08 بأنها: كل تراسل أو إرسال أو استقبال علامات أو إشارات أو كتابات أو صور أو أصوات أو معلومات مختلفة عن طريق الأسلاك أو البصريات أو اللاسلكي الكهربائي أو أجهزة أخرى كهربائية مغناطيسية(القانون رقم03/2000) ما يفهم أن المراسلات والاتصالات الالكترونية هي الأخرى مشمولة بالحماية المقررة في المادتين137 و303 من قانون العقوبات.

وفي سياق متصل دائما بحماية الخصوصية الرقمية فقد نص القانون رقم23/06 على أفعال تعد من قبيل الجرائم المعاقب عليها(القانون رقم23/06) كتجريم التقاط وتسجيل ونقل البيانات الشخصية فبحسب المادة303مكرر دائما يعد مساسا بالحرية الشخصية كل التقاط أو تسجيل أو نقل للمكالمات أو الأحاديث الخاصة ، أو السرية بغير إذن صاحبها أو بدون رضاه. أو كل التقاط أو تسجيل أو نقل صورة شخص في مكان خاص بغير إذن صاحبها أو رضاه.

المادة 303 مكرر1 استهدفت كذلك تجريم الأفعال الخاصة بالاحتفاظ أو إفشاء أو استخدام البيانات على الوجه المبين سابقا.

إذا فالمشرع الجزائري وتماشيا مع التطورات التقنية التي مست جوانب الأفراد المتعددة ، نظم في نصوصه العديد من الأفعال التي تعد من قبيل الجرائم الماسة بالحق في الحياة الخاصة ضمن البيئة الرقمية. ونص في قانون العقوبات المعدل والمتمم وكل القوانين ذات الصلة على العقوبات المقررة لذلك. فحين تناول قانون الإجراءات الجزائية جملة من الضمانات والإجراءات الواجب إتباعها لحماية هذا الحق.

ثانيا: حماية الحق في الخصوصية الرقمية ضمن نصوص قانون الإجراءات الجزائية

تضمن القانون رقم 04/09 المؤرخ في2009/08/05 المتضمن بالقواعد الخاصة للوقاية من الجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال ومكافحتها جملة من الإجراءات القانونية لحماية الحق في الخصوصية الرقمية ، وأو رد استثناءات بخصوصها. فقد جاء في نص المادة 03 منه على أنه ولمقتضيات النظام العام ، أو لمستلزمات التحريات أو التحقيقات القضائية يمكن للسلطات القضائية وضباط الشرطة القضائية بمراقبة الاتصالات الالكترونية وتفتيش المنظومة المعلوماتية. ونصت المادة 04 منه على أنه: يمكن القيام بعمليات المراقبة المنصوص عليها في المادة 03 أعلاه في الحالات التالية:

للوقاية من الأفعال الموصوفة بالجرائم الإرهابية أو التخريبية أو الجرائم الماسة بأمن الدولة.

في حالة توفر معلومات عن احتمال اعتداء على منظومة معلوماتية على نحو يهدد النظام العام أو الدفاع الوطني أو مؤسسات الدولة أو الاقتصاد الوطني.

لمقتضيات التحريات والتحقيقات القضائية عندما يكون من الصعب الوصول إلى نتيجة تهم الأبحاث الجارية دون اللجوء إلى المراقبة الالكترونية.

ما يفهم من النصوص السابقة أن الحق في الخصوصية الرقمية مكفول للأفراد والأشخاص بموجب القوانين والتشريعات ، غير أن هذا الحق ليس مطلق لأصحابه متى تعلق الأمر بمصالح ومقتضيات الأمن العام ومجريات التحريات القضائية والمتابعة في بعض الجرائم الخطيرة.

وحتى يضمن المشرع الوطني عدم الاعتداء على هذا الحق بحجة توافر حالة من الحالات المنصوص عليها في المادة 04 ، فإنه اشترط:

الحصول على إذن مكتوب من قبل السلطة القضائية المختصة.

في الأفعال الموصوفة بالإرهاب والتخريب أو الجرائم الماسة بأمن الدولة ، يتولى النائب العام لدى مجلس قضاء الجزائر الاختصاص بمنح إذن المراقبة على الرسائل والمكالمات الالكترونية لضباط الشرطة القضائية لمدة 06 أشهر قابلة للتجديد ن وذلك على أساس تقرير يبين الترتيبات التقنية المستعملة والأغراض الموجهة لها.

إمكانية تفتيش المنظومة المعلوماتية أو جزء منها أو منظومة تخزين المعلومات من قبل الجهات القضائية المختصة أو ضباط الشرطة القضائية ، في حالة ما إذا تبين أن هذه المعطيات المبحوث عنها مخزنة في نظام معلوماتي يقع خارج الإقليم الوطني وذلك عن طريق اتفاقية التعاون الدولي المشترك في مجال مكافحة الجريمة الالكترونية أو ذات الصلة بالموضوع.

إلزام مقدمي خدمات الانترنت وتحت طائلة العقوبات المقررة لإفشاء أسرار التحري والتحقيق بكتمان سرية العمليات التي ينجزونها بطلب من المحققين ، وكذا المعلومات المتصلة بها.

تحديد مدة الاحتفاظ بالبيانات المحجوزة بمدة سنة واحدة من تاريخ التسجيل.

خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الدراسة المختصرة لموضوع الجرائم الالكترونية والحق في حماية الحياة الخاصة في البيئة الرقمية بالقول أنه:

التطور التكنولوجي مس بجوانب عديدة للأشخاص وكذا بالحقوق الأساسية المعترف بها لهم في الدساتير والقوانين المختلفة. وأن هذه الحقوق ومن بينها الحق في حرمة الحياة الخاصة في العالم الرقمي لم تسلم من الاعتداء عليها سواء بالولوج إلى البيانات الشخصية للأفراد أو للنظم المعلوماتية أو بالتخريب أو بالتعديل أو بالإفشاء أو بالنشر غير المأذون .....الخ. كل هذه الأفعال سميت بالجرائم الالكترونية الحديثة.

الحياة الخاصة للأفراد في البيئة الرقمية هي امتداد للحياة الخاصة لهم بمفهو مها التقليدي ، مع اختلاف في البيئة التي تمارس فيها وشكل الاعتداءات الواقعة عليها وكذا سبل حمايتها التقنية والتشريعية.

فرضت طبيعة الجرائم المرتكبة ضد الحق في حرمة الحياة الرقمية نوعا خاصا من الحماية ، ما أدى بالمشرع الوطني إلى تعديل قانون العقوبات عام 2006 لأجل مواكبة هذه المستجدات والتطورات وفرض عقوبات مختلفة ومتفأو تة الشدة على المعتدين على هذا الحق تحت أي صورة من صور الاعتداء. وفي خطوة منه للموازنة بين حرمة الحياة الشخصية الرقمية وبعض الجرائم الخطيرة التي قد تمس بأمن وسيادة الدولة عدل المشرع الجزائري قانون الإجراءات الجزائية ، وأقر بإمكانية مراقبة الرسائل ووسائل التواصل الكترونية ولكن بشروط صارمة أكدتها نصوص 04/09 المؤرخ في2009/08/05.

وأمام هذا الانتشار السريع لهذه الجرائم الالكترونية الماسة بحقوق الخصوصية الشخصية نقترح ضرورة العمل على التكامل بين القوانين والتشريعات العقابية وكذا القوانين التقنية والفنية وذلك بالاستفادة من الخبرات في هذا المجال. مع ضرورة تنظيم الجرائم الالكترونية بقانون خاص بها يحدد مفهو مها وأنواعها وأركانها والعقوبات المقررة لها والقضاء المختص في النظر فيها مع فتح المجال أمام أي تطور يحدث في مجال التقنية.

المراجع:

برنارد ، سوارتز.(1980). القانون في أمريكا ، ترجمة المستشار ياقوت العشمأو ي ، دار المعارف: مصر.

بولين ، أنطونيوس ، أيوب.(2009). الحماية القانونية للحياة الشخصية في مجال المعلوماتية ، دراسة مقارنة ، منشورات الحلبي الحقوقية: لبنان.

دلخار ، صالح ، بوتاني.(2015). الحماية الجنائية الموضوعية للمعلوماتية ، دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية: مصر.

- عيسى ، العاقب.(2014). حماية الحياة الخاصة ، رسالة دكتوراه ، قسم الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة سعد دحلب ، البليدة ، الجزائر.

أحمد ، بن خليفة.(جوان2017). الجريمة الالكترونية وآليات التصدي لها ، مجلة الامتياز لبحوث الاقتصاد والإدارة ، المجلد01 ، العدد01.

أمير ، الفونس ، عربان.(2010). الجرائم الالكترونية في البنوك ، وكيفية معالجتها ، ورقة مقدمة للمؤتمر الثاني للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية تحت عنوان: الجرائم المستحدثة ، كيفية إثباتها ومعالجتها ، مصر.

توبي ، مندل.(2013). دراسة استقصائية عالمية حول خصوصية الانترنت وحرية التعبير ، الأمم المتحدة ، منشورات اليونسكو ، فرنسا. دراسة على الموقع:

http://unesdoc.unesco.org/images/0021/002182/218273A.pdf

رمسيس ، بهنام.(1987). نطاق الحق في حرمة الحياة الخاصة: ، بحث مقدم إلى مؤتمر الحق في الحياة الخاصة ، المنعقد في كلية الحقوق ، الإسكندرية ، مصر.

فريجة حسين ، الجرائم الالكترونية والانترنت ، مجلة المعلوماتية ، العدد36 ، أكتوبر 2011 ، الجزائر.
النصوص القانونية:
الاتفاقية حول حماية الأفراد المتعلقة بالمعالجة الآلية للبيانات الشخصية ، المجلس الأو ربي ، ستراسبورغ1981.
القانون رقم2000/03 المؤرخ في 2000/08/05 المتضمن القواعد العامة المتعلقة بالبريد وبالمواصلات السلكية واللاسلكية.
القانون رقم 15/04 المؤرخ في:2004/11/10 المتعلق بالمساس بأنظمة المعالجة الآلية ، الجريدة الرسمية رقم71.
القانون رقم23/06 المؤرخ في:2006/12/20 المعدل والمتمم لقانون العقوبات الجزائري ، الجريدة الرسمية رقم84 لعام 2006.
القانون رقم 04/09 المؤرخ في 2009/08/05 المتضمن القواعد الخاصة للوقاية من الجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال ومكافحتها ، الجريدة الرسمية رقم47.

دور تكنولوجيا المعلومات والاتصال في دعم تنافسية المؤسسات في ظل الاقتصاد الرقمي

The role of information and communication technology in improving the competitiveness of enterprises in digital economy

ط.د بن طيبة فتيحة -د.نسيلي خديجة
المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة –الجزائر

تمهيد:

شهد العالم في الحقبة الأخيرة عدة تطورات وتغيرات نتيجة الثورة المعلوماتية (Information Révolution) التي عرفتها الساحة الدولية في كافة مجالات الحياة حيث أصبحت تكنولوجيا الإعلام والاتصال T.I.C من أكبر المساهمين في تجسيد مفهوم العولمة عن طريق اختزال للعلاقات الدولية في مظاهر رقمية إلكترونية تتخذ من الإنترنت قاعدتها الأساسية وهذه التطورات كانت من إحدى إفرازات الثورة التكنولوجية وتفاعلها مع كافة مجالات ألحياة على غرار التجارة الإلكترونية التي عرفت نموا مطردا على المستوى العالمي والإقليمي باعتبار أن الانترنت تمثل الركيزة الأساسية لنطورها لتصب اليوم تقنية المعلومات والاتصالات T.I.C أهم دعائم تقدم وتطور منظمات الأعمال وتعد طريقة فاعلة لتحسين جودة أدائها ونقلة لوظائفها الإنتاجية والخدمية من الأطر اليدوية النمطية إلى الآفاق التكنولوجية والرقمية المتقدمة عن طريق الاستخدام الأمثل لأحد ث عناصر التكنولوجيا تحقيقا للتميز والارتقاء بكفاءة العمل الأمر الذي يساعد على الاندماج الناجح ضمن الاقتصاد العالمي الجديد وتطويرا لخدماتها وتدعيما لمراكزها التنافسية على المستوى المحلي والدولي حيث أن استخدام المؤسسات الاقتصادية للوسائل الرقمية الحديثة والآمنة يؤدي إلى زيادة المنافسة بوتيرة سريعة ودون عناء.

إشكالية البحث: نصل مما سبق إلى السؤال الذي يكون محتواه كما يلي: **كيف يمكن لتكنولوجيا المعلوم والاتصال أن تساهم في تنافسية المؤسسات في ضل الاقتصاد الرقمي؟ دعم الميزة التنافسية لدى شركات الخدمات؟.**

للإلمام بالإشكالية السابقة سنجيب على التساؤلات التالية:

- ما لمقصود بالتنافسية ؟ وكيف يمكن قياسها ؟
- ما هو مفهوم الاقتصاد الرقمي ؟وما هو أثره ، تحدياته وفرصه على تنافسية المؤسسة ؟
- ما لمقصود بتكنولوجيا المعلومات والاتصال ؟ ، وما هي طرق توظيفها وتأثيرها في المؤسسات الاقتصادية ؟.
- ما هو مفهوم الفجوة التكنولوجية الرقمية وما هو تأثيرها على اقتصاد المؤسسة ؟.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على:

-اثر استخدام التكنولوجيا وطرق توظيفها في المؤسسات الاقتصادية

-الاقتصاد الرقمي تحدياته وفرصه وتأثيره في واقع المؤسسات.

-التعرف على الخدمات والتسهيلات التي تقدمها تكنولوجيا المعلومات والاتصال في ضل الاقتصاد الرقمي لصالح المؤسسات الاقتصادية.

أولا .مفهوم التنافسية وقياسها

تنافسية المؤسسات في ضل الاقتصاد الرقمي تعد أهم سمة من سمات الاقتصاد الجديد وما تسعى إليه المؤسسات اليوم من أجل الاستمرار في سوق ديناميكي سريع التحول هو تكلفة أقل وجودة أعلى وسنتعرض إلى تنافسية المؤسسات والتنافسية العربية خصوصا بشيء من التفصيل

1.مفهوم التنافسية: يعتبر مفهوم التنافسية من المفاهيم التي لايزال يشوبها الكثير من الغموض والإبهام في تحديد معالمها وتعاريفها ، فأصل التنافس ألمنافسة حيث تعرف لغويا على أنها بذل الجهد في سبيل تحقيق التفوق أما اصطلاحا فمصطلح Concurrence مشتق من الاصطلاح اللاتيني Cum-luderوالتي تعني اللعب في الجماعة ، (احمد محمد محرز ،2004 ، ص7.) أما اقتصاديا فيختلف مفهوم التنافسية باختلاف محل الحديث عنها ، إذا ما كان مؤسسة أو قطاعا أو دولة ، فالمؤسسة تسعى من خلال التنافسية إلى كسب حصة في السوق تختلف عن تنافسية القطاع متمثل بمجموعة من المؤسسات العاملة في صناعة معينة ، وهاتان بدورهما تختلفان عن تنافسية الدولة التي تسعى لتحقيق معدل مرتفع ومستدام لدخل الفرد فيها.فالتنافسية على مستوى المؤسسة تعرف على أنها القدرة على تزويد المستهلك بمنتجات أكثر كفاءة وفعالية من المنافسين الآخرين ، (مصطفى احمد الرطبي ، احمد عبد المطلب مفتاح ،2007/8/8 ، ص4) كما تعني المهارة أو التكنولوجيا أو المورد المتميز الذي يتيح للمؤسسة إنتاج قيم ومنافع للمستهلكين تزيد عما يقدمه لهم المنافسون ، ويؤكد تميزها.

أما على مستوى القطاع فتعني التنافسية قدرة المؤسسات الناشطة في نفس الصناعة على تحقيق نجاح مستمر في الأسواق الدولية دون الاعتماد على الدعم والحماية ألحكومية وهذا ما يؤدي إلى تميز تلك الدولة في هذا ألمجال وتقاس تنافسية صناعة معينة من خلال الربحية الكلية للقطاع ، (كمال رزيق ، فارس مسدور ، 2003 ، ص 201) في حين أن التنافسية على مستوى الدولة تعني قدرة البلد على تحقيق معدل مرتفع ومستمر لمستوى دخل أفرادها ، مما يوفر مستوى معيشة أفضل للأفراد ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى الرخاء والازدهار. أو هي القدرة التي يمتلكها الاقتصاد الوطني لكي يطرح منتجاته بمستوى راق يتمكن من خلالها ان ينمو ويرفع مستوى المعيشة للمواطنين كما حظي كذلك مفهوم التنافسية باهتمام المنظمات العالمية ، حيث عرفتها ·الأونكتاد :(UNCTAD) كما يلي:

هي الوضع الذي يمكن للدولة في ظل شروط السوق الحرة العادلة من انتاج السلع والخدمات التي تلائم الأذواق في الأسواق العالمية ، وفي نفس الوقت تحافظ وتزيد الدخول الحقيقية لأفرادها في الأجل الطويل. (علي عبد الله ، 2005 ، ص 230)

معهد التنافسية الدولية: تعني التنافسية قدرة البلد على (مصطفى احمد الرطبي ، عبد المطلب مفتاح احمد ، مرجع سبق ذكره ، ص 04).

-إنتاج سلع وخدمات أكثر كفاءة نسبيا ، ويقصد بالكفاءة تكلفة أقل وجودة عالية وان تكون ملائمة حيث تتحقق التكلفة الأقل في الإنتاج من خلال التحسينات في الإنتاجية والاستعمال الأمثل للموارد بما فيها

التنظيمية والتكنولوجية في حين تتحقق الجودة العالية من خلال استقاء أفضل المعلومات عن السوق والإنتاج أما الملائمة فهي الصلة مع الحاجات العالمية وليس فقط ألمحلية في المكان والزمان ونظم التوريد بالاستفادة من المعلومات الحديثة عن السوق ومرونة كافية في الإنتاج التخزين والإدارة.

-التحول نحو السلع عالية التصنيع والتكنولوجيا ذات القيمة العالمية المضافة في السوقين المحلي والدولي وبالتالي الحصول على عوائد اكبر متمثلة في دخل وطني أعلى للفرد وذونمومطرد.

-استقطاب الاستثمارات الأجنبية المباشرة من خلال خلق بيئة مناسبة لرفع المزايا التنافسية التي تضاف إلى المزايا النسبية.

منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية:OCDE تعرف منظمة التعازن الاقتصادي والتنمية التنافسية وفق مجموعة من المداخل (تقرير التنافسية العربية ، 2003 ، ص 21):

إن التنافسية على مستوى الاقتصاد الوطني تعني الدرجة التي تمكن وقتها وفي ظل شروط سوق حرة وعادلة إنتاج السلع والخدمات التي تواجه أذواق الأسواق الدولية في الوقت الذي تحافظ فيه على وتوسع الدخول الحقيقة للمواطن على المدى الطويل.

- القدرة على إنتاج السلع والخدمات التي تواجه اختبار المزاحمة الخارجية في الوقت الذي تحافظ فيه على ت تقرير التنافسية العربية: عرفها على أنها الأداء النسبي الحالي والكامن للاقتصاديات العربية في القطاعات والأنشطة التي تتعرض للمزاحمة من قبل الاقتصاديات الأجنبية (المعهد العربي للتخطيط ، 2003 ،(7)).

·مجلس التنافسية الصناعية ألأمريكي اعتمد هذا المجلس في تعريفه للتنافسية على أربع مؤشرات: الاستثمار ألإنتاجية التجارة ومستوى ألمعيشة حيث عرفها على أنها قدرة الدولة على إنتاج السلع والخدمات التي تقابل الأذواق العالمية وفي نفس الوقت تحقق مستوى معيشي متزايد على المدى ألطويل أو هي مقدرة البلد على توفير وطرح سلع وخد ما ت تكون مستوفية لشروط الأسواق العالمية وتسمح بتنمية المداخيل العقيقية التي تعتبر الوسيلة الأساسية لتحقيق الرفاهية للسكان والتنافس فقط. (عمر محمد عماني ، 1997 ، ص 204).

2.مؤشر التنافسية العربية

تختلف طرق قياس التنافسية باختلاف مفاهيمها وتعاريفها ، لذلك قام المعهد العربي للتخطيط بابتكار مؤشر مركب حتى يكون أكثر دقة وموضوعية ، حيث يستند المعهد في بناءه للمؤشر إلى تعريف التنافسية الذي تبناه والقاضي بكونها انعكاس الأداء الاقتصادي وفق العوامل الظرفية والمستديمة للنشاطات التي تكون مجالا للمزاحمة مع الدول الأخرى فجملة هذه العوامل هي المحددة لمستويات التنافسية والتي تترجم بالضرورة مستوى الرفاهية والنموالاقتصادي المحقق لدول معينة.

باعتبار هذا المؤشر مؤشرا مر كبا يجدر التطرق إلى ومكوناته حيث يتكون من 60 مؤشرا فرعيا مقسما إلى فرعين (تقرير التنافسية العربية ، 2012 ، ص 13):

- التنافسية الجارية ويقيس تنافسية الدول العربية وفق العوامل الظرفية أو قصيرة الآجل ويشمل 53مؤشرا فرعيا.

-التنافسية الكامنة ويقيس تنافسية الدول العربية وفق العوامل المستديمة والتكنولوجية على وجه الخصوص ويشمل 17مؤشرا فرعيا.

1-2 التنافسية الجارية: هو مؤشر أساسي من مؤشرات التنافسية العربية الكلي والمعتمد من طرف المعهد العربي للتخطيط حيث يقيس تنافسية الدول العربية وفق العوامل الظرفية أو قصيرة الآجل وتتراوح قيمه بعد تنميطها بين والواحد والصفر حيث يعني الواحد اعلي مستوى للتنافسية ، في حين يمثل الصفر أدنى مستوى للتنافسية ، ويشمل هذا المؤشر على 53 مؤشرا فرعيا موزعة على اربع مؤشرات فرعية كبرى ، وهي ((تقرير التنافسية العربية ، 2012 ،(14)).

- الأداء الاقتصادي الكلي ويشمل 09 مؤشرات فرعية ؛
-بيئة الأعمال والجاذبية ويشمل 28 مؤشرا فرعيا
- ديناميكية الأسواق والمنتجات والتخصص ويشمل 08مؤشرات فرعية ؛
-الإنتاجية والتكلفة ويشمل 08مؤشرات فرعية.

بيئة التنافسية الكامنة: (هوشيار معروف ، 2013 ، ص 24)

يقيس هذا المؤشر القدرات عمق الأثر لتنافسية الدول العربية ، خاصة التكنولوجية منها والتي تضمن استدامة هذه التنافسية ومن ثم استدامة النمو وتحقيق أهداف التنمية الاقتصادية ولاجتماعية خاصة اذا ما اقترنت بسياسات موجهة نحو تحقيق هذه الأهداف وتتراوح قيمه بعد تنميطها بنفس طريقة قيم التنافسية الجارية ، وقد تم تحديد ثلاث مؤشرات فرعية كبرى محددة للتنافسية الكامنة تتفرع إلى 17مؤشرا فرعيا والمتمثلة في:

-الطاقة الإبتكارية وتوطين التقانة ويشمل 05مؤشرات فرعية ؛
- رأس المال البشري ويشمل 08مؤشرات فرعية ؛
- نوعية البنى التحتية التكنولوجية ويشمل 04مؤشرات فرعية.

والشكل التالي يوضح هيكلة المؤشر العام للتنافسية العربي

الشكل1: الهيكل العام لمؤشر التنافسية العربية

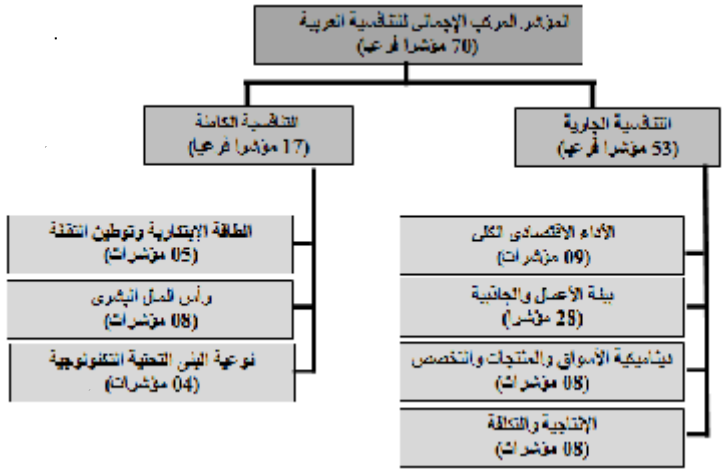

المصدر: **تقرير التنافسية العربية** ، المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، 2012ص.

وبالإشارة إلى التنافسية العربية ومؤشراتها التي تعتمد على جودة الأداء باعتمادها على الاقتصاد الجديد المبني على تكنولوجيا المعلومات والاتصال بدرجة كبيرة أو ما يسمى بالاقتصاد الرقمي حيث نتطرق إلى مفهومه والعناصر والبنى المشكلة له بالإضافة إلى مجالات تطبيقه الميدانية والعلمية.

ثانيا: الاقتصاد الرقمي Economie Digitale

1 - مفهوم الاقتصاد الرقمي

مكّنت الثورة الحاصلة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال من قلب موازين الاقتصاد على الصعيد الكلي كما الجزئي منه سواء تعلق الأمر بالمؤسسات وأنماطها ألإدارية العملية وحتى الإستراتيجية أو الأفراد وسلوكا تهم وتصرفاته من بما نتج عنه صياغة مفهوم مهم جديد للاقتصاد الحديث

الاقتصاد الرقمي 1 -2 تعريف

أطلق على الاقتصاد الحديث عدة تسميات رغم أنّ أصلها واحد، على غرار الاقتصاد الرقميي، الاقتصاد المعرفي والاقتصاد الإلكتروني وغيرها.

في بداية تجدر الإشارة أنّ مفهوم الاقتصاد الرقمي ظهر لأول مرة في الولايات المتحدة ألأمريكية، اعتبارا أن اقتصادها مبني بدرجة كبيرة على توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصال.إلى جانب ما تولده هذه الأخيرة للاقتصاد الأمريكي من قيم مضافة هامة ومضطردة.

يعرف الاقتصاد الرقمي بأنه الاقتصاد القائم على الإنترنت أو اقتصاد الواب web، ويتعامل مع الرقميات أو المعلومات الرقمية، الزبائن الرقميين والشركات الرقمية، التكنولوجية الرقمية والمنتجات الرقمية (نجم عبود نجم، 2004، ص20).

كما ويعرف بأنهالتفاعل والتكامل والتنسيق المستمر بين تكنولوجيا المعلومات والاتصال من جهة، وبين الاقتصاد القومي والقطاعي والدولي من جهة أخرى بما يحقق الشفافية والفورية لجميع ألمؤشرات الاقتصادية المساندة لجميع القرارات الاقتصادية والمالية والتجارية في الدولة خلال فترة ما. (فريد النجار، "الاقتصاد الرقمي"، الطبعة الأولى، الدار الجامعية، مصر، 2007، ص25).

وبالتالي يمكن تعريف الاقتصاد الرقمي بشكل عام بأنهاقتصاد سمته الرئيسية توظيف واستغلال آخر ما توصلت إليه التكنولوجيات الحديثة في مجال المعلومات و الاتصال ضمن إطار عمل شبكي عالمي. شعاره الأساسي الابتكار، الرقمنة التحديث والتجديد والاختراع وفق مبدأ الاستثمار المعرفي الدائم والمستمر. (ط.د. زيان موسنة مسعود + أ.د.راتول محمد ،2018، ص ص 188185)

كل التعاريف السابقة تؤكد على قوة تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصال حيث أنها استطاعت إحداث نقلة نوعية من الاقتصاد الكلاسيكي نحو اقتصاد رقمي.

2- عناصر الاقتصاد الرقمي بطبيعة الحال الاقتصاد الرقمي جاء نتيجة ميلاد قطاع جديد، ألا وهو قطاع المعلومات وأيضا بفضل إعادة هيكلة في العناصر التقليدية للاقتصاد والشكل الموالي يمثل عناصر الاقتصاد الرقمي.

الشكل2عناصر الاقتصاد الرقمي

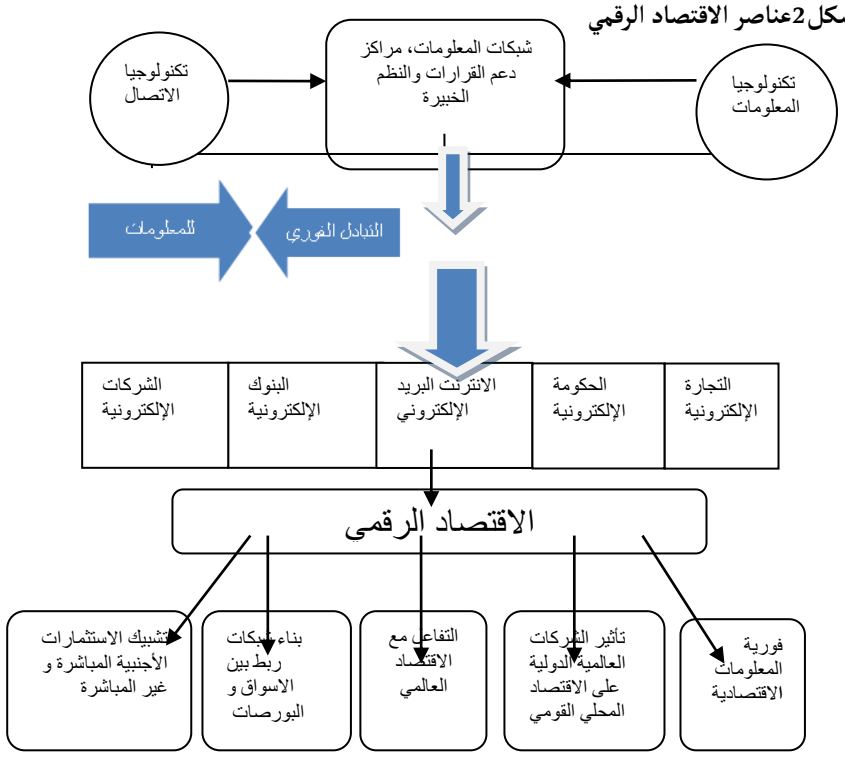

المصدر:فريد نجار ، 2007 ، ص30.

من الشكل اعلاه يتبين أن قاعدة الاقتصاد الرقمي هي تكنولوجيا المعلومات والاتصال.حيث أخذ الاقتصاد الإلكتروني الرقمي مفهومه الحالي حيث استطاع توفير العديد من المزايا على غرار توحيد السوق العالمية وإلغاء القيود الزمنية والجغرافية التي كانت معروفة سابقا سواء بالنسبة لأسواق السلع والخدمات ، الأسواق المالية وكذلك سوق الاستثمار.

3- القوى المشكلة للاقتصاد الرقمي

الاقتصاد الرقمي هو محصلة جهو د أربعة قوى ، تلعب دورا حيويا في تشكيله:

البنى التحتية الداعمة

ظهو ر الانترنت ،

الأنماط الجديدة من الوسطاء ،

تفصيل العروض التسويقية.

الشكل3: القوى المشكلة للعصر الرقمي

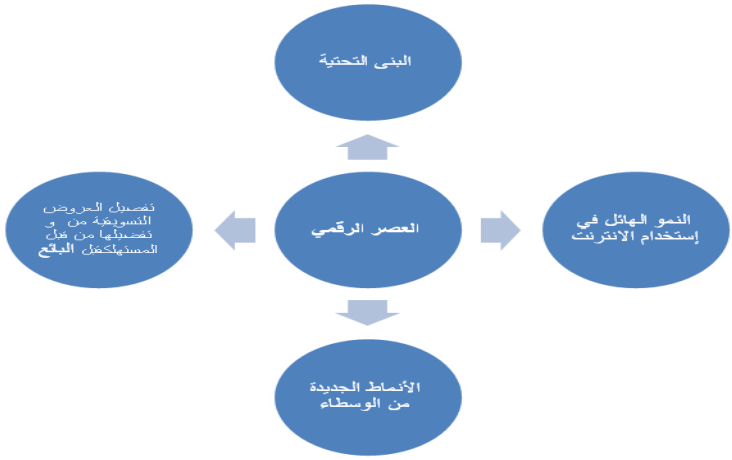

المصدر: (محمد عبد العظيم أبو النجا ،التسويق المتقدم-التسويق العالمي-إدارة العلاقات مع العملاء ، الدار الجامعية للنشر و التوزيع ، الإسكندرية ، مصر ، 2008 ، ص311.)

3-1 البنى التحتية:تتمثل في التقنيات الرقمية وآليات التواصل degitalization and connectivity التي تستخدم في دعم عمليات والأنشطة الأعمال الالكترونية وتبادلات التجارة الإلكترونية ، وتتضمن البنى التحتية:

-شبكات الاتصال الهاتفية السلكية ولا سلكية وخدمات الأقمار الصناعية. (محمد عبد العظيم أبو النجا ،2008 ، ص311)

- البرمجيات software ،

- الأجهزة المعدات المادية hardware بما فيها آليات تخزين المعلومات information Storage التي أصبحت تنطوي على مكونات رقمية تقوم بتشغيل تلك الأنظمة والأجهزة وفقا للتقنية الجديدة ،

- العنصر البشري المؤهل والمدرب والمتخصص.

وبذلك تمكن التقدم التكنولوجي المتنامي والمستمر من إحداث نمو متزايد في أعداد الأجهزة والأنظمة التي تعمل وفقا

لآلية معلومات رقمية ، القابلة للتواصل عن طريق شبكات الاتصال التي مكنت من تنفيذ غالبية الأعمال عبر الشبكات.

3-2 النمو الهائل في استخدام الانترنت: شكل الانترنت أعظم ثورة تكنولوجية على الإطلاق فقد تمكنت من خلق مجال عمل تبادل واتصال افتراضي قادر على تلبية أغراض المؤسسات كما الزبائن على حد سواء مما يتيح لهم استخدام وتقييم المعلومات المنشورة على الانترنت قبل اتخاذ القرار فيها وخاصة الاستثمارية منها.

3-3 الأنماط الجديدة من الوسطاء ترتب عن تطبيق التقنيات التكنولوجية الحديثة ظهور آلاف المؤسسات الافتراضية ، والتي يطلق عليها dot-coms.وقد أدى النجاح الكبير لتلك النوعية من الشركات إلى التأثير بشكل واضح على العديد من الشركات الصناعية التقليدية ، وعلى الموزعين الموجودين في الأسواق الفعلية الأمر الذي أدي إلى الاستغناء عنهم وإستبادالهم بوسطاء جدد في التوزيع على شبكة الانترنت.

تفصيل العروض التسويقية من قبل البائع وتفضيلها من قبل المستهلك.وفقا للاقتصاد الرقمي ، عمدت المؤسسات بناء قراراتها المتعلقة بالأعمال على المعلومات.ذلك بأن المعلومات أصبحت المصدر الرئيسي للحصول على مزايا التمايز بالخصوص مع التطور السريع للانترنت وتقنيات الاتصال أين استطاعت الشركات أن تنمي قدراتها عن طريق تجميع أدق المعلومات عن النواحي الفردية للمستهلكين ، الموردين والموزعين.

ذلك بأن المؤسسات ترتكز بشكل أساسي على تنميط منتجاتها ، وعمليات الأعمال الخاصة بها كمحور لإدارة من خلال توجيه استثماراتها في بناء علامة تحصل من خلالها على مزايا تنميط العروض التسويقية التي تقدمها قصد تحقيق نمو في اقتصاديات الحجم ونموا في الطلب على منتجاتها ولذا اعتمدت على وضع أنظمة توجيه ورقابة تعمل آليا

4- التطبيقات الميدانية للاقتصاد الرقمي بين الفرص والتحديات

من خلال المطلب السابق ، تبين أن استغلال أجهزة وتطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصال سواء في شكل البنى التحتية من تجهيزات وشبكات العمل والتواصل بأنواعها ، سرع في ميلاد أنماط جديدة للأعمال والسلوكيات(Infrastructure) الاقتصادية ، وبذلك فإن الاقتصاد الرقمي عن طريق تكنولوجيا المعلومات والاتصال كان عبارة عن حزمة من الفرص والتحديات. (محمد محمود عامر ،2006 ص6).

4-1التطبيقات العلمية للاقتصاد الرقمي

لقد لاقت منتجات وأفكار تكنولوجيا المعلومات والاتصال ، رواجا واسعا وأرضية خصبة للتطبيق الميداني في كافة مجالات الحياة ، والمجالات الاقتصادية على الوجه الأخص فكان نتاج وثمرة هذا الزرع من خلال بروز:

التجارة الالكتروني:E—Commerce وتعرف بأنها كل معاملة تجارية بين البائع والمشتري ساهمت فيها شبكة الأنترنيت بصفة إجمالية أو جزئية كالتزود بمعلومات تخص خدمة أو سلعة معينة لاقتنائها لاحقا ، ويتم التسديد إلكترونا سواء بصك ورقي عند التسليم أو بطرق أخرى. وبالتالي نقول ان التجارة إلكترونية إذا ما تمت بشكل جزئي أو كلي عبر المسار الإلكتروني المباشر Online

ويمكن التفصيل في هذا الصدد بين عدة أنواع وفق طرفي التبادل لهذه العملية:

- التجارة الإلكترونية بين شركة وشركة B^2 وB^1 : وهي أكثر التجارة الإلكترونية شيوعا ، أين تتعامل المؤسسات مورديها وزبائنها من الشركات عن طريق شبكات الاتصال الإلكترونية سواء في إيداع الطلبيات ، عرض المنتجات والخدمات ، كتالوجات الأسعار وغيرها.

- التجارة الإلكترونية بين الشركات والزبائن B^2 وC^2 هي أن يقوم فرد عاديParticulier باقتناء سلعة أو خدمة من مؤسسة ما إلكترونيا.

-الالتجارة الالكترونية بين الشركات الإدارة والإدارة (حكومية) B2-A2 وهي عبارة عن مجموع الإجراءات التي تقوم بها المؤسسات لتسوية التزاماتها وواجباتها تجاه الإدارة المحلية الجباية مثلا على أن تتم إلكترونيا.

- التجارة الإلكترونية بين الزبائن والإدارةC2-A4 وتغطي جميع التعاملات الإلكترونية بين الأفراد العادين والهادفة لتسوية وضعيتهم تجاه الإدارات الحكومية كتسديد الضرائب مثلا.

التسويق الإلكتروني E-Marketing: هو تطبيق سلسلة واسعة من تكنولوجيا المعلومات والإتصال بهدف إعادة تشكيل

إستراتيجيات التسويق، وتفعيل التخطيط وكذلك ابتكار تبادلات تفي بحاجات الأفراد والمؤسسات المستهلكة.

الاستثمار الإلكترونيE-Investing يشير لاستخدامات تكنولوجيا المعلومات والاتصال بالأخص شبكة الانترنيت (محمد طاهر نصير ، 2004 ، (69))

لتبادل وتبادل المعلومات المالية والاستثمارية بما فيها التعرف على المؤشرات الإقتصادية والعالمية والمحلية التي تسهل وتبسط

إجراءات إبرام وتنفيذ الصفقات الاستثمارية عل المستوى العالمي.

بالإضافة إلى مفاهيم أخرى سادت في إطار تبني فلسفة السوق على غرار الإدارة الإلكترونية الجامعات ، الصحة والمكتبات

الإلكترونية وغيرها.

5- تحديات وفرص الاقتصاد الرقمي:

اعتبارا أن الاقتصاد الرقمي نمط من أنماط التغيير في المفاهيم والهياكل والإجراءات التسييرية التقليدية نحومفاهيم وهياكل

وإجراءات إدارية جديدة فمن المنطقي أنه يجلب في طياته فرصا ومزايا مقابل تحديات يجب أخذها بعين الاعتبار في اطار تبني والاندماج ضمن هذا التغيير.

1- الفرص (محمد يدو"تكنولوجيا المعلومات و الإتصالات و دورها في تحديث الخدمة المصرفية" ، دراسة حالة الجزائر ،مذكرة ماجستير ، جامعة البليدة ،2007 ،ص24.):

زيادات معدلات النمو الاقتصادي في الاستثمارات الرأسمالية والتجارة الالكترونية الداخلية والخارجية عن طريق تأثير الانترنيت ف أساليب أداء المعاملات التجارية وأساليب العمل.

سهو لة الوصول إلى مصادر المعلومات: وبالتالي الاستفادة من المعلومات الدراسات والأبحاث المتاحة عبر الانترنيت حيث يستطيع المستثمرين مثلا الحصول على التقارير السنوية للشركات والتقارير الملحوظة لدى هيئة الأسواق والأوراق المالية بإضافة البيانات الخاصة بكل قطاع من القطاعات وتوقعات الإيرادات وتوصيات الخبراء ، بالإضافة إلى المساعدة الخاصة بإدارة المحفظة الاستشارية عبر الانترنيت.

المنافسة وهيكل السوق: تؤثر تكنولوجيا المعلومات على درجة المنافسة وأساليبها وتحسين المراكز التنافسية ، ويختلف هيكل السوق وفق درجة تطبيق تكنولوجيا المعلومات والاتصال في الاقتصاد الرقمي وذلك على المستويين المحلي والدولي ، ويجب أن تتعامل تكنولوجيا المعلومات والاتصال مع منظومات وقطاعات الاقتصاد المختلفة.

خفض التكاليف من خلال مواقع الانترنيت التي تسهل التعرف على الأسعار والماركات وإجراء المعاملات في أي وقت ،

- إلغاء القيود الزمانية 24/24 سا خلال7/7 أيام في سوق عالمية مفتوحة.

2التحديات: (العياشي زرزار ،2006 ، ص222)

-صعوبة حيازة البنية التحتية الضرورية للاقتصاد الرقمي كعدم توفر أجهزة الكمبيوتر ولواحقها وعدم إنتشار الأنترنت بصورة كبيرة في الدول النامية والأقل نموا وهو ما تشير إليه تقارير الإتحاد الدولي للإتصالات أين تعتلي دولة البحرين المنصة الذهبية ضمن القطر العربي في تقرير2015 ، بمرتبة27 عالميا ، بما يشير إتساع الفجوة في هذا المجال.

- صعوبة تكامل تكامل شبكة الأنترنت مع بعض البرمجيات وقواعد البيانات المتوفرة ،

- ضعف قدرة التحكم في تقنيات الحاسوب والإتصالات ،

- مشاكل الانترنت من قرصنة وتشويش على نشاطات المؤسسة ،

- ضعف الحماية للتعاملات الإلكترونية ،

-الإحساس بعدم الأمان من بعض الأفراد للممارسات الإلكترونية ،

- مشاكل الانقطاع التكنولوجي ،

وبهذا فقد استطاع الاقتصاد الرقمي من تحديث أنماط الأداء الاقتصادي وتحسين المركز التنافسي للمؤسسات. وبما أن الاقتصاد الرقمي أو ما يسمى بالاقتصاد الجديد الذي يعتمد في تطبيقاته العلمية والعملية على تكنولوجيا المعلومات والاتصال فإنه من الضروري الإشارة إلى تكنولوجيا المعلومات ومؤشراتها وتؤثر على تنافسية المؤسسة من خلال سلسلة القيمة

ثالثا. تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتأثيرها على تنافسية المؤسسة

مفهوم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات

من أجل توضيح مفهوم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات سنستعرض عدة تعاريف هي كالتالي:

تكنولوجيا المعلومات والاتصالات هي مجموعة الأجهزة والأدوات التي تقوم بتخزين ومعالجة المعلومات ثم استرجاعها بعدها توزيعها لتصل لأجهزة اتصالات مختلفة في أي مكان في العالم واستقبالها في أي مكان في العالم (بلعلياء خديجة و معموري صورية 2011 ،(07)) وعرفها آخرون على أنها: الجانب التكنولوجي في نظام المعلومات والذي يتضمن الأجهزة وقواعد البيانات والبرمجيات فتكنولوجيا المعلومات والاتصالات هما وجهان لعملة واحدة فمعظم التعاريف تجتمع على أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تقوم على الشبكات وأجهزة ، (وصفي عبد الكريم لكساسبة ،2011 ، ص 33) من التعاريف نستنج أن وجهت نظر لكليهما متشابهة ، ولهذا فهما مكونين لا ينفصلان عن بعضهما البعض وكل العمليات والأنشطة الرقمية التي تقوم بها المؤسسة تكون قائمة أساسا على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

2- مؤشرات التوجه نحو تكنولوجيا المعلومات والاتصالات

إذا أردنا تتبع ومعرفة التوجهات والتحولات التي يشهدها العالم اليوم في مجال المعرفة والتكنولوجيا وجب علينا الاعتماد على مؤشرات مرجعية لذلك ، ومن أهم مؤشرات التوجه نحو استخدامها ما يلي: (أمال حاج

عيسى ، هواري معراج ، 2003 ، ص ص 108-109) الاعتماد على الأيادي العاملة الكفاءة والمتخصصة حيث أصبح الطلب يشهد ارتفاعا على الأيدي العاملة المؤهلة باعتبارها أحد أهم المعايير نحو التوجه لاقتصاد المعلومة والتكنولوجية ؛

- التركيز على إنتاج الخدمات أكثر من السلع فمثلا يمثل الاقتصاد الأمريكي نسبة 70 ٪من قطاع الخدمات تزداد سنويا بنسبة 2 إلى3 %

- زيادة نسبة مستخدمي الحاسوب في عملهم لتصل هذه النسبة إلى 60 %سنة1996 ، أي زيادة استخدام التكنولوجيا والمعلومات كأداة مهمة في العمل ؛

- ظهر قطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصال كقطاع إنتاجي خدمي مهم ، فالإضافة إلى تقسيم النشاط الاقتصادي إلى ثلاثة قطاعات: الزراعة ، الصناعة والخدمات ، أضاف علماء الاقتصاد قطاعا رابعا وهو :قطاع المعلومات ؛

- تزايد دور وأهمية المعرفة والتكنولوجية في فعالية الإنتاج والخدمات.

3-تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصال، على الإستراتيجية التنافسية للمؤسسة

تمكنت تكنولوجيا المعلومات والاتصال من إحداث تحول ملموس من خلال الإستراتيجيات التنافسية المعروفة بالإضافة إلى خلق إستراتيجيات جديدة مرتبطة بعاملي المعلومات والتكنولوجيا بالإضافة إلى التأثير على مفهوم سلسلة القيمة:

3-1 الإستراتيجيات التنافسية في ضل تكنولوجيا المعلومات والاتصال

يمكن تلخيص أثر تكنولوجيا المعلومات والاتصال على الإستراتيجية التنافسية من خلال الجدول التالي:

الإستراتيجية التنافسية	تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصال
التمييز	- توفير المعلومات بالدقة المطلوبة وفي الوقت المناسب لتصميم منتجات متميزة عن تلك التي يقدمها المنافسون ، - امكانية تمييز السلع والخدمات المقدمة بواسطة تصانيفNTI
قيادة التكاليف	- امتلاك المعلومة بشأن تكاليف المنافسين ومراقبتها تمكن من تقليصها. - تقنيات Tic ، تمكن من تقليصكلفة عملية التبادل التجاري.
التركيز	- المعلومات تشخصربحية كل قطاع سوقي وتكشف حاجياته ، - امكانية كشف وتحضير حاجيات أكبر عدد ممكن من المستهلكين
إستراتجية الشراكة في المعلومات	السوق الالكترونية الناتجة من التحالفات الاستراتيجية يخلق التكامل بين عدة قطاعات (مثلا شركات الطيران مع المؤسسات السياحية والفندقية).
إستراتيجية قيادة المعلومات	لجوء المؤسسات إلى تمييز منتجاتها ، بمدى قوة استعمالها لتقارير مختصرة من خصائص ، مزايا وطريقة استعمال المنتجات والخدمات المرافقة.

المصدر:فتيحة كبيري ، فعالية تكنولوجيا المعلومات والاتصال في الرفع من تنافسية المؤسسات ، أطروحة دكتوراه ، تلمسان ، الجزائر ، سنة2018 ، ص111.

3-2 تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصال على سلسلة القيمة:

ان استخدام مفهوم سلسلة القيمة ، يستند أساسا إلى تقييم أنشطة المؤسسة الواجب أداؤها لتنفيذ أعمالها على صنفين رئيسيين:

- نشاطات أولية ،
- نشاطات الداعمة

هذه الأنشطة التي تختلف من مؤسسة إلى أخرى وفق عدة متغيرات

حسب بورتر porterإن سلسلة القيمة نظام مؤلف من ارتباطات متبادلة ، بمعنى وجود علاقة تأثيرية بين مختلف ألأنشطة نتيجة لذلك يرى بأن الحصول على مزة تنافسية لا يتسنى إلا عن طريق تأدية أنشطة القيمة بتكاليف أقل نسبيا مقارنة بالمنافسين أو بقدرة المؤسسة على إعطاء أفضلية إضافية للزبائن.

-من جانب آخر النظرة النظامية للبيئة ككل توحي بوجود تفاعل بين سلسلة القيمة للمؤسسة وكل سلاسل قيم المتعاملين معها من: موردين قنوات التوزيع الزبائن والمستهلكين وهو ما يعرف بالنظم التنظيمية المتداخلة.

مما سبق يتضح أن سلسلة القيمة تمثل أداة لفهم تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصال على تنافسية المؤسسة من خلال:

- كل نشاط يضمن بالضرورة تدفق معلماتي موازي ومرافق للتدفق المادي الذي يسمح له بإنجاز مهمته في العمل ،
- رغم وجود استقلالية ذاتية حسب الأنشطة إلا أنها تتداخل فيما بينها بطريقة تفاعلية للمؤسسة ألخارجي ولعل أبلغ صورة لهذا التداخل والتفاعل هو المعلومات وما تتطلبه من تكنولوجيا ،
- ضمن المحيط بالأخص ما يتعلق منها بسلاسل قيم المتعاملين معها ، تحتاج المؤسسة إلى اعتماد بروتوكولات اتصال التي توفرها تكنولوجيا المعلومات والاتصال سواء للوصول إلى المعلومات ، توفيرها وكذا إيصالها

وعليه يمكن استنتاج أدوار سلسلة القيمة:

- وسيلة فعالة لأتمتة المكاتب ، العمليات والإجراءات ،
- أداة فعالة في تخطيط وتصميم سلسلة القيمة ،
- مادة تنسيق فعالة داخل كل نشاط منفرد ،
- مادة تنسيق وتكامل بين مختلف الأنشطة ضمن سلسلة القيمة ،
- جهاز كشف وتشخيصعلى مستوى كل نقطة من أنشطة القيمة ،
- قاعدة سند ودعم للأنشطة.

4-أثر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على المجالات الاقتصادية

نتج عن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات انعكاسات ايجابية وأخرى سلبية في لمجالات الاقتصادية التالية:

الانعكاسات الايجابية: نذكر هذه الانعكاسات كما يلي: (عبد القادر بابا ، 2007 ، ص(7-6)).

أ- **التحولات في مجال التوظيف وتنظيم العمل**:

نتج عن ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تحولات مهمة في أنماط التوظف وهيكل المهن وأسلوب أداء أسواق العمل وذلك كالتالي:

تغيرات في التركيب المهني ومهارات العمال ، إذ بدأ وجود تقلصلفئات العمالة الماهرة لصالح الفئات الفنية والمهنية الأكثر اتصالا بأساليب تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

تغير نمط العلاقة التعاقدية بين الرئيس والمرؤوس ، مما أثر على أسلوب أداء سوق العمل ، حيث أصبح هناك مزيد من الاعتماد على العمالة التي تعمل في منازلها.كما يتم اللجوء بشكل متزايد للعمالة بعض الوقت وليس كل الوقت.

ب-التحولات في أساليب الإنتاج:

أدت هذه التكنولوجيا إلى تغيرات مهمة في أنماط وأساليب الإنتاج يمكن إيجازها فيما يلي:

-ظهور سلع مستحدثة غير ملموسة ، سواء للاستخدام النهائي أو للاستخدام الوسيط كمستلزمات إنتاج ، التصميمات ، منتجات الوسائط المتعددة وبالتالي لم تعد العمليات الإنتاجية مقتصرة على إنتاج السلع المادية الملموسة.

ظهور مزيد من التوزيع غير المتكافئ لعناصر القوة الاقتصادية. إذ تسيطر الولايات المتحدة وبلدان الاتحاد الأوروبي ، واليابان على الجانب الأعظم من سوق أجهزة الكمبيوتر وأجهزة الاتصالات وبرامج الكمبيوتر.

التحولات في نمط أداء الأسواق وظهور التجارة الالكترونية:

توجد الآن بدايات قوية لما يسمى الأسواق الالكترونية والتجارة الالكترونية عبر شبكة الإنترنيت ، حيث تنامي حجم التجارة الالكترونية بمعدلات كبيرة وسريعة خلال السنوات الأخيرة. مما ساعد على نموالتجارة الالكترونية ذلك الاستغناء التدريجي عن الوسطاء في عمليات التجارة والتوزيع ، ما يخفض في تكلفة شراء السلع والخدمات ، نظرا لأن التعامل سيكون مباشرة بين طرفي العملية: البائع والمشتري دون وسطاء. وتوفير الوقت المكرس لعملية الشراء والتسوق.

ج- التحولات في مجال حركة الأموال:

يساعد فضاء الاتصالات الالكترونية إلى نمو شبكة متنامية لتدوير الأموال خاصة رؤوس الأموال قصيرة الأجل بين كافة أرجاء العالم على مدار الأربع والعشرين ساعة. وتعبر تلك الأموال الحدود الجغرافية للدول عدة مرات في

اليوم الواحد بحرية كاملة دون التدخل من السلطات النقدية والمالية للبلد المعني. حيث لم يعد للمال أية هوية وطنية ، وقد ساعد ذلك التوسع في استخدام ما يسمى النقود الالكترونية .

ويعتبر تطور قطاع الخدمات المالية مرتبطا ارتباطا وثيقا بتطور تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، ويعتبر من أكبر القطاعات إنفاقا على تكنولوجيا المعلومات في العالم المتقدم. وذلك لتخفيض نفقات الخدمات المالية من ناحية ، ولاكتساب درجة أعلى من التنافسية في السوق العالمية من ناحية أخرى. ويرتبط بذلك استخدام تكنولوجيا المعلومات في تطوير أساليب التنظيم والإدارة ، باعتبارها العنصر الحاسم في مجال رفع الكفاءة التنافسية.

2-4 -الانعكاسات السلبية:

إن استخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد ينتج عنها بعض الانعكاسات السلبية والتي تتجلى فيما يلي: (عبد القادر بابا ،2007 ،(8))

تقليص توظيف الأفراد في المؤسسات المستفيدة بشكل واسع من استخدام التكنولوجيا ، مما يؤدي إلى فقدان عدد كبير من مناصب العمل.

الاستخدام السلبي لشبكة الانترنت في نشر الأفكار والدعوات التي تحرض على الكراهية والعنف.

إن السيادة الوطنية أصبحت مهددة حسب ما يرى البعض ، فنظرا لحرية تنقل المعلومات والاتصالات والأموال عبر الحدود الوطنية. كما هو الشأن بالنسبة للخصوصية الثقافية التي باتت مهددة بتفوق اللغة الانجليزية.

تساعد الإنترنت على عملية القرصنة وسرقة المادة التي تتمتع بحقوق النشر والتأليف واستخدام هذه المادة دون الترخيص من أصحابها وهذا ما يسمى بالجرائم المعلوماتية.

5- مظاهر توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصال

ان الثروة الحاصلة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال استطاعت أن تؤثر أكثر من اي ثورة على كافة ال وحتى مجالات تنظيما وتسييرا وحتى اعادة ترتيب البنى فأصبح ضمنها يميز بين طريقتين التقليدية والعصرية كتعبير على ادماج المفاهيم الجديدة TIC ضمنها اهم هذه العناصر.

1-5 التجارة الالكترونية e- commerce بدا هذا المفهوم في الانتشار بداية من 1996 حيث عرفت المنظمة العالمية للتجارة التجارة الالكترونية بأنها مجموعة من عمليات عقد الصفقات وتأسيس الروابط التجارية وتوزيع وتسويق وبيع المنتجات بوسائل الكترونية وهناك انواع للتجارة الالكترونية منها ما يتم بين مؤسسة ومؤسسة (Business TO Business) أو بين مؤسسة ومستهلك (Business TO Customer)ايضا بين مؤسسة وإ دارة حكومية (Business to Administration) وأخيرا بين

ادارة حكومية ومستهلك Costumer to Administration

أ- **ظهو ر الكيانات الافتراضية Virtual organisation**: امن أهم ما أنجبت أم ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال الكيانات الافتراضية من جامعات ، إدارات وحتى المؤسسات. اين نعرف المؤسسة افتراضية التنظيم الذي تتباعد عناصره المكونة وأهداف محددة ويتعاؤ نون ويتكاملون في تحقيقها بطرق تأدية مهامهم إلكترونيا. وبذلك يتطلب إنشاء وتسيير هذا النوع من الأنظمة توفير أنماط خاصة تتوافق مع الطبيعة الافتراضية. حاليا يسود هذا النظام عدة مجالات بالأخصفي الدول التي بلغت درجة من التقدم تكنولوجيا المعلومات والاتصال ، على غرار المدارس وألجامعات والمستشفيات وغيرها التي استطاعت أن تحقق نجاحا في مجال العمل عن بعد.

-التحول الحاصل في وظائف المؤسسة وهياكلها بالإضافة إلى ما سبق استطاعت تكنولوجيا المعلومات والاتصال احداث نقلة نوعية في هياكل ووظائف المؤسسة على غرار اعادة صياغة عناصر المزيج التسويقي وكذا نمط ممارسته وهو ما يعرف ب e-marketing بالإضافة إلى اعادة الهيكلة الحاصلة في تسيير وادارة شؤون الموارد البشرية بداية من التخطيط التوظيف إلى الصيانة والتطوير والتجديد.

-كما وقد حدث تغيير جذري في الهياكل التنظيمية فتغيرت من الشكل الهرمي إلى اشكال أكثر تسطحا افقيا في شكل شبكي. بالرغم من وجود تفاوت في درجة التأثير على المؤسسات طبقا لطبيعة نشاطها وأيضا حجمها وممارسة اعمالها إلا أن الأكيد انها مستها كلها ولعل أكثر القطاعات تأثرا هو قطاع الخدمات كمؤسسات التأمين والمؤسسات البنكية التي تتحول يوما بعد يوم إلى بنوك عن بعدe-banking

رابعا:الفجوة التكنولوجية والرقمية dévide Digital وتأثيرها على تنافسية المؤسسات يشير هذا المصطلح ، على الاختلال الحاصل في مستوى المعرفة و المعلومات بين البشر .بما فيها المهارات و القدرات المادية اللازمة للحصول عليها ، من برامج تدريبية التي تمكّن الفرد من أن يصبح رقميا.

ويدور مفهومها بشكل عام حول الصعوبات المادية ، والتنظيمية (الاجتماعية ، السياسية والقانونية ، التي قد تحول دون الوصول واستخدام المعلومات كمستوى الدخل ، الجنس العرق أو الموطن.إلا انّ الأعم في استخدام هذا المصطلح هو التعبير عن التفاوت في تكنولوجيا المعلومات والاتصال فيما بين الدول المتطورة والنامية ، أو بين المناطق الحضرية والأرياف ، فتعبّر هنا الفجوة الرقمية على التفأو ت بين قدرات الدول في الحصول على المعلومات والمعرفة ، فتقسم بذلك العالم بين من يملكون المعرفة وبين الذين لا يملكونها تقاس الفجوة الرقمية من خلال. (أحمد ضيف ،2012 ،ص64)

-تقاس أسس المعرفة المستندة من تكنولوجيا المعلومات والاتصال ؛

- وضعية البنى التحتية الخاصة بهذا المجال ؛

–مدى توافر المعلومات السريعة والهو اتف النقالة والخدمات الرقمية للمعلومات.

- درجة الارتباط بشبكة المعلومات العالمية.

– القدرة على اطلاق المبادلات التجارية الكترونيا وعبر الهواتف النقالة. - مستوى لحكومات والإدارات مستويات تنفيذ الخدمات البنكية و المالية القدرة على انشاء الشبكات التعليمية ، البحثية ، الصحية والسياحية وغيرها.

بالرغم من الجهود المبذولة بهدف محأو لة تضييق هذه الهوة الرقمية ، إلا أنها في الحقيقة تتزايد في الاتساع ولعل الدليل في ذالك يتضح من خلال:

- نسبة سيطرة الدول المتطورة على مستخدمي الانترنت التي بلغت حوالي النصف من أمريكا الشمالية لوحدها ،

-سيطرة العالم الأنجلو ساكسوني على نسبة كبيرة جدا من الشبكة والتي بلغت مثلا:

* 78 % من المواقع على الشبكة باللغة الانجليزية.

*90 % من المواقع التجارية العالمية على الشبكة باللغة الانجليزية.

* 70% المواقع على الولايات المتحدة الامريكية هي التي وضعتها.

إلى حد هنا ، نلتمس جيدا كيف وشبكات اتصالها أن تعيد تشكيل الترتيبات في مفاهيم التطور والتقدم على الصعيد العالمي.

إن العبرة هنا ليست تشجيع امتلاك المعلومة ، أو حتى تشييد هياكلها.إنما في التفكير بجدية وبعمق كبير في إيجاد نمط موافق في الاستثمار فيها كمورد استراتيجي مستدام.

الاقتراحات والتوصيات

اعتمادا على الدراسات النظرية وبناءا على النتائج المتوصل عليها في هذه الدراسة يمكن تقديم الاقتراحات والتوصيات التالية:

- الاهتمام الجدي بالمعلومات والاتصالات كقطاع فعال قادر على عصرنة وتحديث كل باقي القطاعات ،

- الحرص على توفير وحيازة البنية التحتية الازمة للممارسات الإلكترونية المناسبة للعصر الحديث ،

-التحديث الدائم والمستمر لقطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصال كقطاع ديناميكي ،

-العمل على تعزيز رأس المال البشري كمصدر لتوليد وتثمين معارف والإبداع التقني ،

- محاولة خلق محفزات قادرة على جلب واستقطاب المشاريع الاستثمارية لقطاع تكنولوجيا المعلومات والاتصال والحرص على الاستفادة أكثر ما يمكن من المعارف الخبرات والتقنيات المنقولة ضمن هذه المشاريع عن طريق محاولة التغلغل داخله ،

- حيازة تكنولوجيا المعلومات والاتصال وإتقانها يفتح الأبواب الجدية للمنافسة في ظل رقمنة المؤسسات الاقتصادية ،

- إطلاق العنان للاستثمار في مجال الصناعات المختلفة كإجراء تحفيزي للمنافسة بين المؤسسات ، الهدف منها الارتقاء بالمنتجات والخدمات المقدمة للزبون.

قائمة المصادر

أحمد ضيف ، الشراكة العمومية الخاصة والتنمية الإقتصادية في الجزائر ، ، أطروحة دكتوراه ، تلمسان ، الجزائر ، 2012 ، ص.64

أحمد محمد محرز ، الحق في المنافسة المشروعة في مجالات النشاط الاقتصادي ، دار الكتب القانونية ، مصر ، 2004 ، ص.7

أمال حاج عيسى ، هو اري معراج ، دور تكنولوجيا المعلومات في تحسين قدرات المؤسسة الاقتصادية الجزائرية ، الملتقى الوطني الأو ل حول: المؤسسة الاقتصادية الجزائرية وتحديات المناخ الاقتصادي الجديد ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، 22/23أفريل 2003 ، ص.109-108

بلعلياء خديجة ومعموري صورية ، دور تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في اكتساب مزايا تنافسية في منظمات الأعمال ، مداخلة الملتقى الدولي الخامس حول :رأس المال الفكري في منظمات الأعمال العربية في ظل الاقتصاديات الحديثة ، جامعة حسيبة بن بوعلي ،الشلف ، *13/14ديسمب* .

بلعلياء خديجة ومعموري صورية ، دور تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في اكتساب مزايا تنافسية في منظمات الأعمال ، مداخلة الملتقى الدولي الخامس حول رأس المال الفكري في منظمات الأعمال العربية في ظل الاقتصاديات الحديثة ، جامعة حسيبة بن بوعلي ، الشلف ، .13/14

تقرير التنافسية العربية ، المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، 2003 ، ص.21

تقرير التنافسية العربية ، المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، 2012 ، ص.13

زيان موسنة مسعود ، راتول محمد القاعدة التكنولوجية كآلية لتعزيز التنافسية الكامنة للاقتصاد الجزائري جامعة شلف ، العدد18 ، مجلة شمال افريقيا ، 2018 ، ص185-188

عبد القادر بابا ، تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وأثرها على النشاط الاقتصادي في العالم العربي ، المؤتمر العلمي الدولي الثاني حول:المعرفة في ظل الاقتصاد الرقمي ومساهمتها في تكوين المزايا التنافسية للبلدان العربية ، جامعة حسيبة بن بوعلي ، الشلف ، 4/5ديسمبر.

علي عبد الله ، الأداء المتميز ، ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر الدولي حول الاداء المتميز للمنظمات والحكومات ، .جامعة ورقلة ، 2005 ، ص.230

عمر محمد عماني ، مدى تأثير برنامج الإصلاح على القدرة التنافسية على الاقتصاد ، مجلة البحوث والدراسات العلمية ، القاهرة ، 1997 ، ص.204

العياشي زرزار ، تكنولوجيا المعلومات والإتصالات ودورها في الإقتصاد الرقمي ، مجاة البحوث والدراسات ، في العلوم الإنسانية ، العدد 6 ، جامعة سكيكدة ، 2006 ، ص.222

فريد النجار ، الاقتصاد الرقمي ، الطبعة الأولى ، الدار الجامعية ، مصر ، 2007 ، ص.25

كمال رزيق ، فارس مسدور ، تعزيز القدرة التنافسية للمؤسسة الاقتصادية الجزائرية ، المؤتمر الوطني الأو ل حول المؤسسة الاقتصادية الجزائرية وتحديات المناخ الاقتصادي الجديد ، جامعة ورقلة ، 2003 ، ص.201

محمد عبد العظيم أبوالنجا ، التسويق المتقدم-التسويق العالمي-إدارة العلاقات مع العملاء ، الدار الجامعية للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، مصر ، 2008 ، ص.311
محمد عبد العظيم أبوالنجا ، التسويق المتقدم-التسويق العالمي-إدارة العلاقات مع العملاء ، الدار الجامعية للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، مصر ، 2008 ، ص.311
محمد محمود عامر ، التجارة الإلكترونية الطبعة الأولى مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2006 ، ص.6
محمد يدوتكنولوجيا المعلومات والإتصالات ودورها في تحديث الخدمة المصرفية ، دراسة حالة الجزائر ، مذكرة ماجستير ، جامعة البليدة ، 2007 ، ص.24.
مصطفى احمد الرطبي ، احمد عبد المطلب مفتاح ، أثر الانضمام لمنظمة التجارة العالمية على القدرة التنافسية للاقتصاد الليبي ، ورقة بحثية مقدمة لمؤتمر رفع القدرة التنافسية للمنتجات المحلية ، اللجنة الشعبية العامة للاقتصاد والتجارة والاستثمار ، طرابلس ، 8/8/2007.
مصطفى احمد الرطبي ، احمد عبد المطلب مفتاح ، أثر الانضمام لمنظمة التجارة العالمية على القدرة التنافسية للاقتصاد الليبي ، ورقة بحثية مقدمة لمؤتمر رفع القدرة التنافسية للمنتجات المحلية ، اللجنة الشعبية العامة للاقتصاد والتجارة والاستثمار ، طرابلس ، 8/8/2007 ، ص.4
مصطفى احمد الرطبي ، عبد المطلب مفتاح احمد ، مرجع سبق ذكره ، ص.04
المعهد العربي للتخطيط 2003) . . ((7)
نجم عبود نجم ، الإدارة الإلكترونية الإستراتيجية والوظائف والمشكلات ، دار المريخ ، السعودية ، سنة 2004 ، ص.20
هو شيار معروف ، تحليل الاقتصاد التكنولوجي ، دار جرير للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2013 ، ص.24
وصفي عبد الكريم لكساسبة ، تحسين فاعلية الأداء المؤسسي من خلال تكنولوجيا المعلومات ، ط 1 ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، 2011 ، ص.33

الحدث الديستوبي في الرواية العربية
The dystopian event in the Arabic novel

د. نجدي عبد الستار محمد نجدي، جامعة عين شمس

1 - **انسحاب اليوتوبيا إلى الديستوبيا:**اكتسب مفهوم اليوتوبيا دلالته من كلمة يوطوبيا أو الطوبي ، ويرجع معناها على الأرجح إلى الفردوس (توماس مور ، 198 ، ص12) ، إلا أن حلم الفلاسفة والأدباء أن يعيشوها في الدنيا جعلهم يحلمون بمجتمع نظيف في مشاعره ، راقٍ في أفكاره ، هذا المكان لا يوجد من الأساس ويجب أن يمتلئ بما نحب ، هذا الامتلاء يصنف على أنه وظيفة ، "هذه الوظيفة تتحقق على أكمل وجه عبر فكرة اللامكان. إذ ربما كانت قدرتنا على تصور مكان فارغ تستطيع من خلاله التطلع إلى أنفسنا واحدة من البنيات الأساسية القابلة للتطبيق على أدوارنا الاجتماعية.(بول ريكور ، 2002 ، ص64)"

هذه النظرة المتفائلة لليوتوبيا لم تدم بل انسحبت من عقول الحالمين بسبب ظروف يمر بها العالم من انكسارات ، تراجعت فيه الحريات ، وتغيرت فيه المفاهيم وانهارت منظومة الأخلاق في زحام بكل شيء حتى في المشاعر السلبية التي تتوالد مع المدن المنهارة ، ما أحدث تغيرًا أيديولوجيًّا كبيرًا في الأفكار على مستوى الدول بعد أن تحولت الكثير من الدول المستعمرة إلى مستقلة ومعايشة الواقع وتوقع المستقبل. وانسحاب اليوتوبيا لم تكن وليدة العصر الحديث وحده بل ممتدة من العصر الإغريقي فكان أولُ مناهض لليوتوبيا ، المؤلِّفُ المسرحيُّ الكوميدي الإغريقي أرسطوفانيس (٤٤٨—٣٨٠ قبل الميلاد)، من خلال مسرحياته ، فكانت أهم واحدة (برلمان النساء) (لايمان تاور سارجنت ، 2016 ، ص18)

فاليوتوبيا تنشأ خارج المكان والزمان أيضًا ، فهي بكل بساطة يمكن أن تكون (اللامكان واللازمان) وهي بصفة عامة تجدها في كل " تقليد ثقافي " (لايمان تاور سارجنت ، 2016 ، ص70) فإنها "شجعت الناس على بذل جهود جبارة لتحقيق تحسن حقيقي لكن النفس البشرية تدفع البعض إلى الاستغلال للوصول إلى سلطة أو مكانة اجتماعية أو حصول على مال ، ما يدفعها إلى التحول والتغير إلى الديستوبيا (انظر لايمان تاور سارجنت ، 2016 ، ص70) ؛ لهذا أدرك منظرو وكتاب اليوتوبيا خطورتها فقدموها حينا بشكل غامض وأقل تحديدًا وعلى رأسهم (ألبير كامو) الذي عبر عنها باليوتوبيا النسبية ، في الاتجاه نفسه أطلق جون رولز أحد كبار الفلاسفة الليبرالية (اليوتوبيا الواقعية). (لايمان تاور سارجنت ، 2016 ،ص70)

ارتبط وجود اليوتوبيا دوما بحاجة الإنسان وبوجود دور الدين ، وهو ما يجعل وضعها في إطار بسيط أمرًا عسيرًا" (انظر بول ريكور ، 2002 ، ص64). ومن هذا المنطلق "يؤيد (نورثروب فراي) الادعاء السائد الذي يعتبر اليوتوبيا مجرد كائن للتأمل الفلسفي أو التخمين الخيالي. (Marwa Essam ، 2015 ، p.32) في الاتجاه نفسه قال (راسل جاكوبي): "لقد تلاشت روح اليوتوبية بمعناها المتمثل في أن المستقبل يمكن أن يتجاوز الحاضر ، وهذه العبارة الأخيرة تغامر بأن تكون موضوعًا لسوء الفهم المباشر ، حيث إن كلمة يوتوبيا اليوم أصبحت تعني ضمن ما تعني عدم الاتصال ، وأصبح ينظر إلى الشخص الذي يؤمن باليوتوبيات على نطاق واسع ، إما على أنه شخص معتل العقل أو منفصل عن الواقع" (راسل جاكوبي ، 1987 ، 259 ، ص9) و"بأن اليوتوبيا قفزة نحو الخارج فهي محاولة لإيجاد الوطن البديل وتجسيدها في اللامكان."(انظر بول ريكور ،2002 ،ص65)

إلا أن هناك اتجاهًا آخر بأن اليوتوبيا مجرد تخيل مؤلم ، وأيد هذا الاتجاه بعض المفكرين ، حيث صورها بعضهم على أنها جحيم ومنهم إيمانويل فالرشتاينإذن الذي طرح سؤالاً استنكاريًّا بقوله:(هذه هي اليوتوبيا!! أليس كذلك ؟ حسنًا. أستمحيك عذرا ؛ اعتقدت أنها الجحيم ، ومشى على دربه لكن أقل حدة من الرأي السابق

ماكس بيريوم الذي رأى أن فدائًا من مدينة واقعية أعظم من إمارة في الخيال (انظر لايمان تاور سارجنت ، 2016 ، ص9).

بعد عدة سنوات "استخدم أستاذ كبير في جامعة هارفارد هو (هـ. ستيوارت هيوز) مصطلح "نهاية الأيديولوجية السياسية" عبَّر فيه عن اختلاف مزاج المثقف الغربي والذي أيقن أن الرأسمالية هي الأفضل مما أصابه بالصدمة ليتأكد معها ميلاد نهاية الأيديولوجية السياسية والتي تنسحب بدورها على اليوتوبيا (راسل جاكوبي ، 269 سنة2001 ، ص9 ، ص15.). فالواقع بالفعل أكد هذه النظرية التي تعني الانتهاء وتنسحب بدورها على اليوتوبيا." (فرانسيس فوكوياما ، 1993ص 68)

هذه النظرة وجهت لها سهام النقد ، بأن محاولة التأكيد على أن فكرة اليوتوبيا عمل خيالي غير واقعي لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع ، إنما هو نتاج الأغراض الخاصة ممن لهم مصلحة في واقعهم المعاش ، وهذا الأمر ينعكس بدوره على السياسة ، وكأن فكرة عدم منطقية اليوتوبيا هي فكرة سياسية بحتة ؛ لأنها تعارض نظم حكمهم ، ويؤكد ذلك (بول ريكور) حين يؤكد أن اليوتوبيا ليست ما لا يمكن تحقيقه كما يدعي الساسة ، لكنها فكرة ما يمكن تحقيقه (انظر بول ريكور ، 2002 ، ص256) هذا الرأي سبقه إليه (مانهايم وايرنست بلوخ) الذي أكد على فكرة تحقق اليوتوبيا مؤكدا أنهم سيظلون دائمي البحث عنها لبلوغ حالة خالية من التوتر ، محذرًا من نبذها (انظر بول ريكور ، 2002 ، ص369.) مما يدفع إلى ديستوبيا.

فالديستوبيا كمصطلح مع حداثته ـباعتباره منحى صار يلازم الأجناس الأدبيةـ كان موجودًا في العلوم الأخرى ، فقد ذكره (جون ستيوارت ميل) في خطاب برلماني عام ١٨٦٨ إلا أنه تبلور باعتباره مفهومًا متعارفًا عليه في منتصف القرن العشرين ، وذهبت الدكتورة (نعيمة علي) بأن هذا المصطلح قديم ، ولم يكن الأدب وحده هو الذي أوجد هذا المفهوم ، وإنما عند العودة إلى المصادر الفلسفية تبين لها تردد أصداء مفهوم الديستوبيا في فلسفة فريدريك نيتشه العدمية أو النهليستية كما يطلق عليها والتي وجدت امتدادًا لها في القرن العشرين في أيديولوجيات الفيلسوف الأمريكي ريتشارد روتي بل وأيضًا في مفهوم الواقع الشبيه لدى الفيلسوف الفرنسي جون بودريار. (انظر ، نعيمة علي عبدالجواد ، ج٥١ ، سنة ٢٠٠٩ ، ص١١١) ، والفيلسوف شخص يبدع داخل نظام المفاهيم ، وقادر في الوقت نفسه على إبداع مفاهيم جديدة وهي محاولة دومًا للتأثير في الحياة (انظر دي لوز نقلا عن عبدالعزيز العيادي ، ميشيل فوكو المعرفة والسلطة ، ،1994 ، ص17) لكن الرواية هي التي تحول المفاهيم المستقاة إلى أعمال أدبية تترجمها وبها تلامس الواقع.

1-1 مفهوم الديستوبيا: للمفاهيم سطوتها على عقل وقلب من يحاول الولوج لها خاصة إذا كانت مستحدثة ولم تجد أرضها الخصبة بعد ، فهي تحاول أن تسجل حضورها وتاريخها من خلال تراكمات متعددة وتقاطعات مع مفاهيم أخرى ورؤية ربما تكون على صواب أو خطأ ، وهي تعرف تداخلًا يصل حد الاشتباك ، بل وغموضًا أيضًا ؛ لذلك لست متيقنًا بشكل جازم بأن المفهوم الذي حاولت أن أوجده للديستوبيا هو أصدق المعاني وأشملها. فمجالات الاحتمالات وفيرة مع مفهوم جديد مازال يبحث عن أرض له ، هذا البحث يحتاج إلى استكشافات مختلفة تجعلني دومًا غير متيقن إلا أن فتح الباب ومحاولة الوصول إلى المعرفة يحتاج منا إلى استرجاع قراءات متعددة لكنها تعد من ناحية جزءًا ثقافيًا مشتركًا في المخزون المعرفي لدى كل من الكاتب والقارئ مما يمهد لعبور فكرة الكاتب إلى وعى القارئ بنعومة ويسر عبر هذه الجسور الفكرية التي أمدها ليسير معه القارئ ويصل من خلالها إلى رؤية المبدع والتي بدورها تنعكس على الناقد الذي يحاول جاهدًا تأسيس مفهوم جديد لرؤية إبداعية.

هذه الرؤية قد تنفتح على عوالم مختلفة تقرب الأدب من العلوم الإنسانية بل والقانونية فالأدب ابن الحياة ينمو من أحداثها ويتسمى بما يثيره من قضايا منتبهين إلى عدم الاستخفاف برأي الآخر الذي ربما يكون أكثر قدرة

على الولوج لهذا المفهوم وعدم الركون على رأينا لاستحداث هذا المفهوم ، وهذا ما يؤكد أن القدرة على استحداث مفهوم تواجد عمليًّا في روايات عربية وغربية لهو أمر ممكن وليس صعبًا على الإطلاق.

وإذا كانت الديستوبيا تسمى بالمدينة الفاسدة أو الكابوسية ، فهي أدب المدينة الفاسدة ، فيها مجتمع خيالي فاسد أو مخيف أو غير مرغوب فيه بطريقة ما ؛ لهذا ، فإن الديستوبيا التي اشتقت على نحو من الدمج البارع للغة اليونانية (dys-) "سيء" أو "غير طبيعي" إلى (- topos) يعطي معنى "dystopia" ، أي "مكان شرير" ، (Marwa Essam :Post-Independence 2015, p38) ومعنى الديستوبيا باللغة اليونانية المكان الخبيث. إلا أن هناك اختلافًا ، فإذا كانت الديستوبيا تعني المكان الكابوسي أو الخبيث فإن اليوتوبيا تعني اللامكان وهنا يتضح الفارق رغم أن كليهما يرتكزان على المستقبل إلا أن الديستوبيا ترتكز على شيء آخر ألا وهو المكان.

ومع محاولة البحث عن تعريف للديستوبيا وتحديد مفهوم لها تبين لي أنها يمكن أن تكون الديستوبيا صورًا من المستقبل تُشير بخوفٍ إلى الشكل الذي من المفترض أن يكونه العالم. وتعد الديستوبيا " إنذارات على فترات متقطعة" أو " السخرية" ، وتوضح سلوكيات حالية تؤدى إلى نهاية مرعبة. وطبقاً لـ (إيدث كلاوس)، فإن" قصص المدينة الفاسدة (الديستوبيا) تتبع اتجاه عدمي تجاه الحاضر والمستقبل ليتخلى عن مفهوم الخيال الاجتماعي المفيد "(Marwa Essam, 2015 , p.39) . وكما يعتقد (جارى سول مورسون) فإنها "محاولة للهروب من التاريخ ، بينما تُوصف الديستوبيا بأنها محاولة الهروب من التاريخ إلى عالم الصراعات وعدم اليقين والاحتمالات"(Marwa Essam, 2015 , p.39).

وقد تعني الديستوبيا مجتمعًا يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته ، يتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضًا. أو ما أخذته من تسمية جديدة وهي الاحتراز السياسي ، ويُطلق عليه هذا الاسم نظرًا لكونهِ يُحاول دائمًا اكتشاف ومناقشة قضايا ومشاكل المجتمع المعاصر ٰ وذهب (قاموس ميريام ويبستر) بأنه عالم أو مجتمع خيالي يكون الناس فيه بائسين ومهمشين. وبمعنى آخر هو المعنى المناهض لليوتوبيا. وأيضًا هو حالة أو مجتمع تخيلي به الكثير من المعاناة والظلم ، وتلك الحالة تتسم بالشمولية وتوصف بما بعد الكارثة. لم يختلف (قاموس أكسفورد) عن غيره حين قام بتعريفها بوجه آخر بأنها مجتمع يكون فيه الناس غير سعداء ولا يعملون معا ، ومن ناحية أخرى تعد اليوتوبيا هي العالم المثالي المضاد للديستوبيا (www.literarydevices.net).

والديستوبيا من وجهة نظري هي: فكرة روائية منطلقة دائمًا من الواقع المخيّب لأصحابه ، مستشرفة المستقبل الذي يبدو مروعًا ، في مكان يتصف بالضعة والخبث ، تحمل صورة أكثر قتامة من ظواهر قائمة بالفعل ، أشخاصها يصارعون للهروب من واقع يحاصرهم ويخنقهم ، ويفشلون في الأغلب الأعم في الهرب من النهاية المأسوية المقدرة لهم ، فهي من الأساس محاولة لطرح تصور لأصحاب القرار للعمل على التحرك من أجل حل تلك المشكلات ، التي يمكن أن تلتهم كل ما حولها إذا تركت ، فهو أدب يحمل صورة تشاؤمية دفاعية مما يشكل خطرًا على الفرد خاصة ، والمجتمعات الإنسانية عامة ، إلا أن استجلاء الديستوبيا لا يعني دومًا مكانًا تنشر فيه الصراعات بشكلها الدموي ، فيكفي جدًّا أن يكون الصراع بين الإنسان في نفسه إذا فقد الحرية والاختيار ، لهذا فإن الديستوبيا كثيرًا ما تتلخص في الصراع القاتل بين الإنسان والآخر وبين الإنسان ونفسه إذا ما مورست عليه أنواع الديكتاتورية بأنواعها.

2.1 أنواع الديستوبيا: إن مسألة تحديد النوع الروائي يبدو غاية قي الأهمية ، ليس فقط ذو قيمة تأملية ، ويلخص ذلك روجي كايلوا الأمر بقوله: ليس للرواية قواعد ، فكل شيء مسموح به فيها ، وليس هناك أي فن بويطيقي يذكرها أو يسن لها قوانينها إنها تنمو كعشب متوحش في أرض بوار (نقلاً عن حسن بحراوي ، سنة 1990 ص12) " ؛ لذلك فإن مسألة الأنواع الأدبية أمر ليس ذا أهمية كبرى للنصوص المتجذرة في أعماق العمل الأدبي ، لكنها ذات دلالة وجدوى في كل درب جديد منها ، فالرواية الديستوبية لها حضور قوي في تغيير مسار

الحياة ، بل وتعبيد الطريق أحيانًا للسير عليه من خلالها (نجدي عبدالستار ، 2018 ، ص 45) ، هذا الإحساس بالنوع الروائي في مجمله ينسحب بدوره على الديستوبيا الروائية.

بيد أن اتساع هذا النوع والنجاح الشعبي الذي حققه لم يجعله يتقدم خطوة حاسمة باتجاه إقامة قانونه الخاص الذي يميزه عن بقية الأنواع (نجدي عبدالستار ، 2018 ، ص45).

أدرج بعض من النقاد الديستوبيا كنوع أدبي جديد في موضوعه تحت أسماء رواد أسسوا له وجعلوه محط أنظار القارئ الساعي بدوره عن الجدة في الطرح التي تمس الواقع حتى ولو كانت مستقبلية ، وتحارب من أجله وتعمل على التحذير المباشر والضمني من أجل محاولة أخذ الحيطة والحذر من المستقبل المروع ، وهذه الصورة المستقبلية التحذيرية قد نراها في كل الأديان المنبهة من قادم سيء تظهر فيه الفتن وتنحسر الأخلاق ويشقى المتمسك بالدين في ظل الفتن التي تحيق به من كل ناحية ، هذه الأنواع الديستوبية ترتكز على أربع رؤى أساسية للجحيم على الأرض أو الديستوبيا في القرن العشرين وهي:(Four Kinds of Dystopia ,3 January, 2017)

أ- **الديستوبيا الأورولية،** نسبة لجورج أوريل مؤسس العالم الروائي الديستوبي في روايته (1984).

ب- الدستوبيا الهكسيلية: نسبة إلى ألدوس هوكسلى مؤلف رواية عالم جديد شجاع.

ج- **الديستوبيا الكافكايسكية:** نسبة (Kafkaesque) كافكا الكاتب السويدي.

د- الديستوبيا الفيليدكانية: نسبة إلى (Philip . K. Dick) فيليب. ك. ديك مؤلف رواية هل تحلم الروبوتات بخرفان آلية ؟)

هذه الأنواع السابقة استمدت نفسها من خصائص الديستوبيا في الروايات المعروضة وتنوعت مسمياتها بتنوع الفكرة ، فإن الأنواع التي استندت عليها في الديستوبيا أيضًا مستمدة من الأسباب التي أدت لوجود الديستوبيا في حياتنا أي استمدت نفسها من الواقع وانسحبت على المستقبل:

أ- **ديستوبيا الهوية:** ويندرج منها: الانتماء للوطن واختلاف اللغة بين أبناء المجتمع الواحد إن وجد ، وصراع الطائفية الدينية ودورها في خلق مجتمع ديستوبي والتاريخ وما يحمله من صراع يخلق مستقبلا ديستوبيًا في المجتمع الواحد.

ب- **ديستوبيا الحقوق:** ويندرج منها: ديستوبيا الحريات ، انتهاك الحريات في المجتمع الديستوبي وتأثيرها على الحدث. وديستوبيا العدالة الاجتماعية وكيف أنها تصنع الطبقية بين أبناء المجتمع الواحد فتقسمه لطبقتين ليس بينهما عالم مشترك في أي شيء.

ج- **ديستوبيا الحضور الإنساني**: وفيه العلاقة الطاردة بين الرجل والمرأة وكيفية نظر كل منهما للآخر في المجتمع الديستوبي ، وهذه الأنواع سيأتي الحديث عنها بالتفصيل من خلال الحدث الديستوبي للروايات المختارة والتي تحذر من هذه الأنواع.

1-3 مفهوم الحدث: كل نص أدبي يشمل فضاءً فنيًا ، والفضاء الفني هو مجموع العناصر المكونة للنص ، وكذا مجموع العلاقات التي تبنيها هذه العناصر فيما بينها. وهذا المفهوم يرتبط بمفهوم المبنى. وعلى هذا ، فإن المبنى باعتباره عملية تنظيم وتأليف لسلسلة من العناصر داخل عالم مغلق (عالم يملك تنظيمًا وبنية وغاية) لا يمكن أن يتأسس كذلك إلا في حدود ارتباطه بالحدث (انظر سعيد بنكراد ، 2018)، فالحدث يمثل عنصرًا رئيسًا للحكاية المعبرة عن الوقائع المتصلة ، والراسمة الوحدة ؛ لتدل على الفكرة المتلاحقة ، من خلال بداية ووسط ونهاية. فالوقائع نظام اتسق من الأحداث ، أو تلك التي تنتقل من الحظ الحسن إلى الحظ السيء أو العكس كما جاء في مصطلح (أرسطو)، هذان الحدثان يكونان معًا حدثًا أكبر(انظر ، جبراند برنس ، 2003ص19) وإذا كان الحدث من وجهة النظر السابقة عبارة عن فعل داخل مبنى الحكاية معبر عن الحظ

بنوعيه فمن وجهة نظر (لوتمان) يعتبر "هو الوحدة الصغرى التي لا يمكن فصلها عن المبنى." (لوتمان نقلا عن سعيد بنكراد)؛ ليعتبره سلوكًا للشخصية، وباعتبارها فعلاً يمارس داخل النص السردي الذي سيتم إدماجه لاحقًا داخل نص الثقافة.

فنص الثقافة في نظر (لوتمان) هو الذي يجعل من " هذا الذي وقع" حدثًا أو لا يمكن اعتباره كذلك، أي لا يشكل أي تأثير على الكون الإنساني من خلال امتداداته المتعددة. ولعل هذا ما دفع (لوتمان) إلى وضع السؤال التالي: "ماذا يمثل الحدث، باعتباره وحدة، داخل سيرورة تكون المبنى؟" هذه الأسئلة التي طرحها (لوتمان) جعلته يرى الحدث داخل النص هو تنقل الشخصية عبر الحقل الدلالي، أي الفعل الذي تقوم به الشخصية، ولم يختلف هذا النهج عما ذهب إليه (بارت) الذي وضح في تعريفه للمصطلح الذي عبر عنه بأن " الحدث مجموعة من الوظائف أو العوامل، ليصل إلى أن الحدث هو الفعل (لوتمان نقلا عن سعيد بنكراد ،2019). وينتهي (لوتمان) بتعريف الحدث بقوله "إن الحدث هو دائمًا خرق لمحظور ما. إنه واقعة حدثت ولم يكن من الضروري أن تحدث. فبالنسبة لشخص يتأمل مقولات القانون الجنائي، فإن الفعل الإجرامي سيشكل حدثًا، وسيكون اجتياز الطريق بشكل فوضوي حدثًا في نظر قانون السير." (لوتمان، نقلا عن سعيد بنكراد ،2019)" والحدث في الرواية لعبة قوى متواجهة أو متحالفة تنطوي على أجزاء تشكل بدورها حالات محالفة أو مواجهة بين الشخصيات (جبراند برنس، 2003، ص19)، وما كتبه (إتيان سوريو) عن الحدث المسرحي ينطبق جيدًا على الحدث الروائي، فهو: "صورة بنيوية يرسمها نظام القوى في وقت من الأوقات، وتجسدها، أو تتلقاها، أو تحركها الشخصيات الرئيسة "(لطيف زيتون ،2002، ص74.)

وذهب بعض النقاد إلى أن كل حدث إنساني بما في ذلك الأدبي يدخل في عدد من البنيات الدالة الشاملة، حيث يسمح توضيحها بمعرفة الطبيعة والدلالة الموضوعية، ولا يعتبر " الحدث وحدة سردية بسيطة بل تصويرًا خطابيًا (سعيد علوش، 1985، ص64).. "فالحدث الروائي، هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الحكاية من خلال تنامي الأفعال من بداية السرد حتى نهايته، أو بمعنى آخر نبضها الحي الذي من غيره تكن حالة سكون وجمود مما يجعلها لا وجود لها.

والحدث تختلف أهميته على حسب وضعه داخل الحكاية وخاصة في الرواية الجديدة التي لا تعتمد على شكل واحد، فالكتاب بصفة عامة قد يتلمسونه من خيالهم المبني على واقع معيش أو من الواقع المعيش ذاته دون تدخل للخيال، إلا أنه في بعض الأحيان قد يحتاج إلى مزجهما معًا لتكون رواية خيالية ممسوسة بالواقع المحيط، وهذا ما يجعله عرضة للزيادة أو النقصان ويعرضه حينًا للإضافة أو الحذف. وفي كل الحالات، فإن ذلك لا يكون ضررًا لحكاية ما دامت تسير عبر منطق سردي، إلا أن تطور السرد واختلاف منظوره عما كان راسخًا في نظريات السرد القديمة، التي تراه في تنامي الحدث - من خلال ما تقوم به الشخصيات - حتى يصل إلى الذروة (العقدة) ثم (الحل)، فقد توارى ذلك المنظور قليلاً؛ ليصبح السرد متوالية من الأحداث، كما صرح بذلك (والاس مارتن)، يرجع ذلك التواري للمنظور القديم للسرد إلى التركيز المتزايد على وجهة النظر.

لهذا فإن الذين تبنوا وجهة النظر كوسيلة أكثر أهمية في عرض الحدث الروائي أو التقنية الأساسية في العمل الروائي رأوا أن مفهوم العقدة نفسه مرتبط بالحكايات التقليدية، وجعله عنصرًا أساسيًا ووسيلة فنية مبتذلة في الحكايات الرائجة بين عامة الناس، تلك التي لا تمس الواقع في شيء وكثيرًا ما تجنبها روائيو العصر الحديث عادة. (انظر والاس مارتن، 1998، ص 23). " لتصبح وجهة النظر هي الأهم فهي تقع بترتيب وتسرد بترتيب آخر" (جيرار جينت، 1997، ص27)؛ لهذا يمكن أن نطلق عليها الرواية الجديدة وفقًا لرؤية نقدية تتوخى إظهار اختلافها ومغايرتها الكلية للرواية التقليدية. والتعبير عن وجهة النظر قد يكون ثنائيًا كما ذهبت أنجيل سمعان بل ثلاثيًا؛ لأنه يحمل داخله ثلاثة أبعاد وهي وجهة النظر، وفلسفة الرواية، أو موقفه الاجتماعي أو السياسي أو غير ذلك من نواحي الحياة الإنسانية، وقد تعني في أبسط صورها في مجال النقد الروائي " العلاقة

بين المؤلف والراوي وموضوع الرواية... إلا أن اتجاه وجهة النظر لم يلق القبول عند كل النقاد بل ذهب فيليب ستيفيك بأنه: ربما كان تعبير وجهة النظر تعبيرا غير موفق ؛ إذ يمكن أن يشير - بنفس الدرجة - إلى الاتجاه العقلي (السياسي أو الديني أو الاجتماعي لعمل ما ، أو إلى موقف المؤلف الوجداني الذي يتضح من النغمة المتبناة نحو الموضوع الذي يعالجه (كأن تكون نغمة ساخرة أو سوداوية مثلاً) أو إلى الزاوية التي يروي منها العمل القصصي" (نقلا عن انجيل سمعان ، 1982 ، ص١٠٣).

مادامت الرواية الجديدة تعترف بالذات ، إلى جانب الموضوع ، فإن ذلك يعد مرادفًا للحديث عن الاختيار. بمعنى آخر أن يكون الكاتب عاش تلك التجربة من خلال الحياة حتى تتحول لوجهة نظر ، هذه الرؤية أصبحت ترتكز على حاضر أسسه الماضي ويؤكده المستقبل بكل صوره والتي يولد معها الحدث ، وهذا تمامًا ما عناه (هنري جيمس) بقوله: "تظل الرواية انطباعًا مباشرًا عن الحياة" (- نقلاً عن حنا مينا مجلة الرياض ، 2019). وهذا الانطباع لا يتوقف عن النظرة للحاضر فقط ، لكنه يستشرف المستقبل من خلال رؤية الكاتب التي يعبر فيها صراحة عن حدوثه في زمن المستقبل ويكون أحداثه التي تترابط مع بعضها وهذا ما ترتبط به رواية اليوتوبيا أو الرواية الديستوبية.

من هذه الزاوية المعبرة عن الحدث في الرواية الجديدة -خاصة التي اختارت نوعًا جديدًا- هذا المسمى الدال على التطور ، مقدمة مبنى حكائيًّا مبنيًّا على العناصر ، وإن اختلف الشكل ، أو اختلف النوع ، وأقصد هنا نوع الرواية والتي بدأت في الانتشار وهي الرواية الديستوبية العربية التي تأخرت قليلاً لظروف تعود إلى طبيعة الشعوب العربية بصفة عامة ، والأديب هو جزء من هذا الهيكل الاجتماعي يتأثر به ، لكن بعد أن أزاح البعض الستار وبدأت الرواية الديستوبية في الظهور فاتحة نافذة جديدة للأدباء أن يروا نوعًا آخر يرسم حالتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وينذر بقادم مأسوي ربما يكون أكثر مأساة من الواقع المعيش على مستوى الأفراد والمجتمعات.

2- الجانب التطبيقي للحدث الديستوبي: يظل المجتمع الإنساني محط أنظار المبدعين متحدثين عن ماضيه ومصورين حاضره ومنشغلين تمامًا بمستقبله وهذا المجتمع يتآلف ويختلف كالذرات تمامًا ، وهذا التشابه يجعل منها مجتمعات لزجة ، وأخرى متفلتة كالزئبق ، وبعضها يشع الضوء وبعضها مظلم فالماسات لا تضيء ببريقها ؛ لأن الذرات تجعلها تومض ، بل بسبب الكيفية التي تكون الذرات معًا نمطًا معينًا في كثير من الأحوال.(انظر مقدمة دكتور حامد عمار ، مارك بوكانان ، 2010 ، ص12).

هذا الأمر هو الذي دفع العلماء على مختلف تخصصاتهم في البحث عن أسباب هذا المزيج من التآلف أو الاختلاف ، لم يكن الأدباء بعيدًا عن هذا بل كانوا سباقين في هذا المضمار محاولين استكشاف ما حولهم منتبهين للقادم الذي يطل برأسه نتيجة واقع مؤسف ما دفعهم دومًا لطرح السؤال نفسه الذي يردده علماء النفس "كيف يفكر الآدميون عندما يجدون أنفسهم في مواقف معقدة أو يصعب التعرف عليها؟ وفي إجابتين يشير إلى (أننا كآدميين متوسطي القدرة على المنطق الاستنباطي) ولكننا في الوقت ذاته (فائقون في إدراك الأنماط أو مقارنتها بسوابقها أو مجاراتها.. إننا فائقون في هذا السلوك بشأن المشكلات المعقدة إذا: نفتش عن الأنماط) كما نفتش عن الناس." (انظر مقدمة دكتور حامد عمار ، مارك بوكانان ، 2010 ، ص14).

لهذا فإن الحدث في الروايات المختارة إنما جاء بناء على تقسيم قمت به من أجل سبر أغوار الديستوبيا ومعرفة أنواعها وأسباب وجودها ومظاهرها من خلال الأعمال المطروحة لبيان دور الأدب عامة والرواية خاصة في بيان ما يعتري المجتمع وتصديه لهذه الظاهرة التي ساهم في إيجادها عوامل عديدة منها اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية ، ودينية ، هذه العوامل خلقت هوة سحيقة صنعت عواصف أطاحت بالماضي وصنعت واقعًا مريرًا من خلال الأعمال إلا أن هذه الأعمال التي كتبت في زمن غير الزمن المعاش من الروائي.

1-2 ديستوبيا الهُوِيَّة: لكل إنسان في هذا الوجود هوية ينتمي لها ويسعى للحفاظ عليها فالهُوِيَّة: " إحساس الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكيَّاته وأفكاره في مختلف المواقف"(قاموس المعاني المصطلحات العربية ، 2019) وإذا كانت الهُوِيَّة الوطنية هي انتماء للأرض وفق أقدم التعريفات التاريخية فإنها تمثله في صورته القيمية والأخلاقية التي بدورها تنعكس على الأفعال ما يعني الاستقرار والدفاع عنه والعمل على ازدهاره والمحافظة على نظمه وقوانينه.

إذا كانت إشكالية الهوية يمثل هذه الأهمية على مستوى الشعوب والأمم ، فإن الأمر ذاته ينطبق على الأفراد. فالإنسان يقضي حياته باحثًا عن هويته.. فتحقيق الهوية رسالة ، وهي مشروع الوجود الإنساني برمته ، وإذا كانت الهوية تمثل قضية مهمة في كل مراحل نمو الإنسان ، فإن أهميتها تزداد بدرجة كبيرة في مرحلة الشباب كمرحلة حرجة يمثل فيها تحقيق الهوية تحديًا ومطلبًا أساسيًّا للنمو ، على اعتبار أن كل مرحلة من المراحل تتضمن مهام ومطالب رئيسة للنمو يؤدي النجاح في إجادتها إلى مزيد من النضوج الاجتماعي والنفسي (انظر هاني الجزار ، سنة 2010 ، ص ،23 ،24) ،. وتحقق الهُوِيَّة ليس مجرد هاجس لكنه رغبة عارمة بالنسبة للإنسان أن يُعترفَ به كائنًا بشريًا له قدره وكرامته ولهذا ذهب هيجل بأن ذلك قد أحدث معركة مصيرية في فجر التاريخ من أجل تحديد المنزلة. (انظر هاني الجزار ، 2010 ، ص25 ،26 ،)، ولم يكن (هيجل) هو وحده من اتخذ هذا المنحى (الاتجاه) بل الكثير من الفلاسفة وعلماء النفس ذهبوا إلى ما ذهب إليه هيجل مع اختلاف المسمى.

هذا الجانب من الشخصية هو المصدر الأساسي الذي يدفع الإنسان إلى تأكيد نفسه في مواجهة الآخرين وعند (فروم) أيضا تأتي الحاجة إلى الهُوِيَّة على قائمة حاجات الوجود الإنساني.(انظر هاني الجزار ، 2010 ، ص26) ؛ فالهُوِيَّة من الحاجات النفسية التي لا يستطيع الاستغناء عنها ؛ فهي تشعره باستقلاليّته. وتعد الهُوِيَّة بمكوناتها من المُؤثرات في سمات الشَّخصيَّة ؛ "فهي تعريف لصاحبها فكرًا وثقافة وأسلوبَ حياة ، فإذا كانت الهُوِيَّة واضحة مُستقرة ، اكتسبت الثَّبات والرسوخ ، وإذا كانت مُضطربة ومُتناقضة ، جعلته يُعاني انحلالاً وتميُّعًا في عقيدته وأخلاقه وسُلُوكه ؛ فالهُوِيَّة هي التي تحفظ سياج الشَّخصية ، وبدونها يتحوَّل الإنسان إلى كائن تافهٍ تابعٍ مُقلّد" (موقع موضوع ، الهوية الوطنية ، 2019)، مبتعد عن الرواسخ التي تشده وتربطه بما حوله.

لهذا إن اختل أية من الأخلاق أو القيم أصبح الإنسان خارج الأطر ما يعني وجود أزمة ، تلك التي سميت بأزمة الهُوِيَّة وذهب قاموس المعاني في تعريفها بأنها ": الاضطراب الذي يصيب الفرد فيما يختصّ بأدواره في الحياة ، ويصيبه الشكّ في قدرته أو رغبته في الحياة طبقًا لتوقّعات الآخرين عنه ، كما يصبح غير متيقن من مستقبل شخصيته إذا لم يتيسّر له تحقيق ما يتوقَّعه الآخرون منه فيصبح في أزمة."(قاموس المعاني المصطلحات العربية ، مادة هوى)، إن محاولة فصل الناس في هذا العالم وفقًا لنظام فصل انفرادي وشامل من خلال الحضارة أو الدين يؤدي إلى مقاربة « انعزالية » للهوية الإنسانية (انظر التمهيد ، أمارتيا صن ، ٢٠٠٨ ، ص8)، وهذا الأمر الانعزالي قد يدفع إلى فقد الإنسان هويته المتمثلة في حقوقه بداية من الدين حتى أصغر وحدة من حقوقه ، ولأن إغفال حقيقة التعددية في أي شيء والحاجة إلى التفكير والاختيار يجعل العالم من حولنا ضبابيًّا وغامضًا ؛ ليدفع العالم في اتجاه المنظور المرعب الذي صوره ماثيو أرنولد في « شاطئ دوفر (*)

وها نحن هنا وظلام مدلهم ينبسط حولنا

وقد ساقتنا إنذارات مشوشة بالصراع والفرار

إلى حيث جيوش جاهلة تتصارع في ظلام الليل(أحمد خالد توفيق ، سنة 2008 ، ص11)

هذا المنظور يدفعنا إلى وجود أزمة فإذا ما زادت تحولت لغول يلتهم كل شيء وهو ما أطلقتُ عليها ديستوبيا الهُوِيَّة. فهي تلك المرتكزة على واقع ينذر بانفصال الذات (الشخص) عن اعترافه بنفسه تلك التي يسعى لها دومًا ، وعن الأرض المعاش عليها بسبب ظلم واقع عليه لا يتغير وعنف غير مبرر يزداد يوما بعد يوم يفقده

حقوقه السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية مجتمعة أو منفصلة بمرور الوقت؛ مما يسبب الإحساس بالاغتراب والانسحاب والعزلة. وهذه الحقوق المهدرة تدفع لأمرين؛ أولهما يتحول الإنسان فيه لعدو نفسه فيسعى إلى تدمير ذاته، أو الانسحاب من الحياة كلية (الانتحار)، أو يتحول عدوًا للآخر؛ فيصبح المكان بمن فيه -بالنسبة له- عدوًا يسعى لإلحاق الضرر به أو تدميره كلية غير مكترث بسلطة أو أعراف.

وديستوبيا الهوية يندرج منها أنواع مختلفة تدفع الإنسان إلى أزمة تجعله منفصلاً عن المكان وعن كل شيء ومن أهم تلك الأزمات هي أزمة الانتماء لوطن، إن أهم العوامل المساعدة على تنامي هذا الشعور هو التأثر بالآخر الذي يراه أفضل وأكثر حظا ويرجع ذلك إلى عدم التمسك بالتربية والدين وتداخل الثقافات وانحسار الأخلاق وانتشار الجريمة وانسحاب السلطة من واجباتها كل ذلك يدفع إلى عدم الانتماء للوطن. هذا الأمر ظهر واضحًا من خلال الأعمال الديستوبيا المختارة كنموذج، ففي رواية (يوتوبيا) كنموذج أول ويعتبر مؤسسًا للإنذار عن واقع اجتماعي تسبب فيه الاقتصاد بوجود طبقتين متناقضتين يسيران على خطين متوازيين لا يلتقيان في أية نقطة اتصال حديث عن مجتمع عنصري لم يكن تميزه بالشكل كما حدث في أمريكا أو المجتمعات صاحبة الأقليات، لكنه نتيجة فساد سياسي واقتصادي دفع لوجود هذه الفجوة السحيقة، هذه العنصرية نشأت من عاملين مهمين أسس لهما الكاتب من خلال روايته التي جاءت أحداثها في المستقبل - وهي رواية ديستوبية من الدرجة الأولى.

في هذا العمل قدم الكاتب نماذج لانسلاخ الشخصيات من المجتمع وعدم الانتماء له فأصبحوا لا يراعون قيمه أو عاداته أو تقاليده أو معتقداته الدينية وأصبحوا يتقبلون عدوه وكأنه واحد منهم وتقطعت صلاتهم فغابت النخوة وأصبحت الماديات فقط هي الحل، هذا المجتمع الذي انقسم إلى طبقتين، طبقة ترفل في الملذات والخيرات، في المقابل هناك (الغير) الذين يعيشون بلا هوية وليس لهم أي سبب منطقي يدفعهم للوجود حين يلتقط الصورة من خلال تصوير وضعهم المأسوي الذي لا يدع إلا لشيء واحد ألا وهو التلاشي من هذا الوجود المجحف في كل شيء ولم يتركهم إلا فرائس سهلة فها هو " رجل مجرد من السلاح وسط رمال الصحراء أنهكه الركض، رجل أنهكه الجوع، رجل أنهكه القنوط"(أحمد خالد توفيق، 2008، ص12) هذا التصوير البارع الذي أسقطه على الأغيار والذي قصده الكاتب عن عمد، فهناك فارق كبير بين الآخر والغير، فالآخر يمكن التآلف معه، أما الغير فهو مرفوض وملفوظ ولا يمكن تقبله وتحمل عنصرية وتمييز في آن واحد ما تجعله يرى مقاومته وتشبثه بالحياة حمقًا كبيرًا، فيذكره صارخًا،" لا تقاوم يا أحمق!. ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العيش مع الأغيار؟ ما الذي لم تحققه لو ظللت حيا؟"(أحمد خالد توفيق، 2008، ص12)

لوحة متكاملة للديستوبيا منذ انتوى التعبير عن المشهد مهتمًا بتفكيك أجزائه حين جاء التداعي فريسة، هذا التداعي جعله يرسم المدينة التي جمعت كل الموبقات في آن واحد فهي المعادلة الصعبة بحيث يحاول الكاتب أن يخبرنا أن المدينة القائمة على سلب الآخرين، تتمثل في الاعتداء على الشرف، والاستقواء على الضعفاء، والاعتداء على الأرواح وممارسة الرذيلة يقول: "عاشرت كل فتاة راقت لي، وجربت كل أنواع الفلوجستين" (أحمد خالد توفيق، 2008، ص16)، هذه الرفاهية والانحلال أشعرت السارد بالملل؛ لذلك يوضح الراوي موضحًا حالة الملل التي أصابته مفسرًا ما سبق قائلا:" ربما كنت ملولاً هذا ليس ذنبي كذلك" (أحمد خالد توفيق،2008، ص11)

هذا الملل يقود لأعمال بذئية تتحول إلى ممارسة أي شيء وبدوره يتحول لأمر عدواني " وماذا بوسعك أن تفعل في جنة صناعية؟ تنام. تتعاطى مخدرات.. تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيًا ساديًا) "(أحمد خالد توفيق، 2008، ص11) هذا الملل وهذه الرتابة تدفع إلى أعمال تبتعد تمامًا عن أي منطق وتبرر بعد ذلك ما يقومون به من أعمال فيقول:" ولأسباب كهذه يعبثون في المقابر

ليلاً. أكمل تحدث عن النكروفيليا أو مضاجعة الموتى .. لكن الأمر لم يبد لي مغريًا وأعتقد أنك توافقني."(أحمد خالد توفيق ، 2008 ، ص25)، في المقابل عبر جابر عن مدينته الديستوبية المعبرة عن التعاسة بكل معنى للكلمة من خلال تنامي الحدث دون الوقوف على عقدة محددة فالنص مجموعة من تنامي العقد يحمل في داخله وجهة نظر ، تلك القابلة للمناقشة من خلال الأنساق التي أسستها ، وكما وضحت أن الفكرة المطروحة فكرة تحذيرية من قادم ربما يكون أشد سوءًا مما هو متوقع.

2/2 ديستوبيا الهوية الدينية: منذ البداية يطلق العمل صرخة محذرة من الصراع الديني المذهبي لعل القائمين على مقدرات الأمور أن ينتبهوا من قادم مظلم بل أكثر مما نتخيل ، هذه الصرخة وضحت منذ الاستهلال الذي أخبرنا فيه بأن السدود المقامة بين مذهبين في وطنه سدود واهية وقابلة للانهيار فأي وقت فقال: " ما بال سدودك اليوم واهية تقرضها الفئران ، تكشف عن قوم يقتاتون على كل شيء فيك ، حتى إذا فرغوا منك صار واحدهم يقتات على الآخر.. حالك اليوم يشبه ما قالته لي أمي حصة صغيرًا: يخرج من بطنك دود يأكلك. هي قيامتك اليوم أزف أوانها وها أنا اليوم أكتبك خوفًا منك عليك"(سعود السنعوسي ،2015 ص2) ثم يصدرها باستهلال آخر يكشف أن القادم أسوأ ، فيحذر على لسان التاريخ بقوله: " أنا التاريخ كله ، وأحذركم من الآن ؛ الفئران آتية ، احموا الناس من الطاعون"(سعود السنعوسي ،2015 ، ص7)

تدور أحداث الرواية على صراع بين مذهبين دينيين ، بين السنة والشيعة ، مخبرة أن التاريخ شاهد على ذلك وأن جذور الفتنة تضرب بقوة في تلك الأرض وتتمدد وخاصة منذ الثورة الإيرانية من ناحية وميل الشيعة لها والحرب التي قامت بين العراق وإيران من جهة أخرى ظاهرة ميول كل طائفة نحو الفئة التي تحمل مذهبها ، ووضح من الفصول الأولى ما آلت إليه الكويت وكيف تحولت المدن إلى مدن أشباح نتيجة الوقوع في الصدام المذهبي بعد أن: " مضت سنوات طويلة ياسُرة ، صرت مدينة أشباح ، مطعم ماكدونالدز المهجور يشبه شقيقه في الروضة ، زجاج نوافذه المهشم ، من يميني إلى الأمام" (سعود السنعوسي ،2015 ، ص23) لم تكن هذه النتيجة سوى أن هناك عوامل تاريخية على أسس مذهبية ساعدت على ذلك.

فالهوية الشيعية اصطبغت بطابع الضحية بسبب قتل سيدنا الحسين - حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم في القرن السابع — ومن قبله سيدنا علي على يد ابن ملجم ، وبسبب تهميشها -كما تدعي- من قبل الأغلبية السنية ، ما جعلهم ينظرون لأنفسهم على أنهم شعب علي المختار للدفاع الذي ولد ليناضل ويناضل ثم يعاني (انظر ، برنابي روجروسون ، 2010 ، ص17) ، ويركز الشيعة على معنى الخسارة العاجلة التي "أضلت المسلمين يوم وفاة النبي ، فهم يسوقون الأدلة على أن عليًّا وحده هو الذي كان مؤهلاً لحمل القيم الروحية التي تعزز تمامًا اتجاه الإسلام المستقبلي" (انظر ، برنابي روجروسون ، 2010 ، ص37) هذه الخسارة ازدادت فداحتها بعد مقتل الحسين.

رصدت الرواية هذا القلق من مستقبل يكون مروعًا ومخيفًا يصعب علاجه في المستقبل ؛ فحرصت على بيان الجذور التاريخية التي أرثت هذا الخلاف فيأتي على لسان الأم محذرة صغيرها بعدم الحديث في موضوع السنة أو الشيعة ، ثم تعبر عن سبب ذلك قائلة بعد أن وضح لها زوجها أنه سؤال بريء من جاهل (صغير):" جهال. الكويت كانت.. ما عات.. قبل وبعد. منذ الثورة الإيرانية. ثم الحرب العراقية."(سعود السنعوسي ، 2015 ، ص39) حذر المؤلف الضمني من أن الصراع سيولد دمارًا ، فيقول في مواضع مختلفة على لسان الصغار الذين سيمثلون الشخصيات المنسحبة من هذا الصراع بعد ذلك:" أمام محل النظاراتي حسن همس لي فهد (ليش النظاراتي حسن؟ ليش موا لنظاراتي عمر؟) إيغال عمي صالح في كرهه لجاره صور لفهد أنه بالضرورة يجب أن يكره ما يحبه جاره.. حين سألت فهدا ما الضير أن يكون اسمه حسن؟ أجاب بأنه اسم لا ينتمي إلى طائفتنا! (سعود السنعوسي ،2015 ، ص 125) " في موضع آخر يرسم" صراعًا بين الصغار طائفي على لسان الصغار فيقول " صادق ليس بصادق. استطرد دونما اكتراث. مثل الخميني!" (سعود السنعوسي ، 2015 ، ص127)

المؤلف الضمني حين رصد حالة الديستوبيا الدينية في بلده درج لتأصيله تاريخيًّا بين الطائفتين ، هذا الصراع الذي لا حدود له ولا نهاية حتى ضاعت معالم الوطن واختف شوارعه ، هكذا كانت النهاية التي آل لها الصراع بموت أعز أصحابه ذلك الذي شاركه حلم محاولة صد هذا الطوفان ورأب الصدع الذي شرخ جدار الوحدة في وطنهم الذي تحول إلى مدينة أشباح. عبرت الرواية عن الديستوبيا الدينية وأثرها المدمر في المجتمع من خلال التحذير من المستقبل بعد أن عبرت عن ذلك في أكثر لحظات الرواية ألما عن انتشار الجثث في كل مكان حتى أصبح:" نعيب تباعة الجيف مهيبا مثل صافرات إنذار بعيدة" (سعود السنعوسي ، 2015 ، ص325)

3/2 ديستوبيا الحقوق: إن من أهم الظواهر التي تعبر عن وجود الديستوبيا في مجتمع ما هي ظاهرة ضياع الحقوق ؛ لذلك عكفت الرواية الديستوبية على إظهار ذلك من خلال توضيح أثر انتهاكها وسلبها على العموم أو على الأغلب ، والحق في اللغة يعني الأمر الثابت والواجب استحقاقه وتعني العدل (معجم المعاني ، قاموس ومعجم المعاني متعدد اللغات والمجالات 2019) وهي تعبير صريح على ما يجب الحصول عليه قانونًا دون هبة أو عطاء من أحد ، ولأهمية الحق فقد تناولته العديد من المدارس والمذاهب على اختلاف مشاربها وتطلعاتها ؛ لذلك فإن الحقّ اصطلاحًا هو ما يحصل عليه الإنسان من حقوق يُقررها القانون لشخص من الأشخاص ، هذا الحق يكوم ماديًا أو معنويًا على حد سواء ، وتظهر من خلال هذا التعريف العلاقة بين الحقّ والقانون ، فلا يوجد حق إلاّ وكان القانون مسانِدًا ومشاركًا له.

فد ديستوبيا الحقوق كما توصل لها الباحث: هي سلب الإنسان حقوقه المشروعة التي كفلها القانون له والشرائع على حد سواء ، ومعاملته على أنه أقل من البشر قيمة فلا يستحق الاحترام أو الكرامة ما يدفعه إلى فقد الأمل ، ويتملك اليأس والإحباط ذاته ، وتمارس عليه الجرائم بأشكالها المختلفة من تعذيب واغتصاب وتجويع واسترقاق ؛ ما يدفعها إلى الانسحاب والانعزال أو التأقلم في عالم مخيب ؛ فيتحول لشخص يمارس وجوده كحيوان مفترس في حياة تخلو من أية مقومات للحياة.

قدمت الأعمال المتناولة ديستوبيا الحقوق متمثلة في سلب الحقوق ، ففي يوتوبيا سلبت الحقوق بكل أنواعها بل وانتهكت انتهاكًا واضحًا ، فالأغيار ليس لهم أية حقوق ولا يوجد من الأساس قانون بل سلبت منهم حقوقهم واحدة تلو الأخرى فيقول على لسان جابر وهو يصف سلبها منهم:" يشبه الأمر مراقبتك لغروب الشمس لا تعرف أبدًا متى انتهى النهار وبدأ الليل ... لا يمكنك أن تمسك لحظة بعينيها.. ليس بوسعك أن تقول: هنا كان النهار وهنا جاء الليل."(أحمد خالد توفيق ، 2008 ، ص63) يظهر ذلك في موضع آخر أنهم تعاملوا معهم على أنهم مدمنون ويجب سلبها ببطء حتى يتعودوا وتتحول لواقع دون أية مقاومة منهم ،:" فقط أذكر أن الأمور كانت تسوء بلا انقطاع وفي كل مرة كان الفارق بين الوضع أمس واليوم طفيفًا لذا يغمض المرء عينيه كل ليلة وهو يغمغم: أهي عيشة. مازالت الحياة ممكنة.. مازال بوسعك أن تجد الطعام والمأوى وبعض العلاج.. إذن فليكن غد. ثم تصحو ذات يوم لتدرك أن الحياة مستحيلة وأنك عاجز عن الظفر بقوت غد أو مأواه.. متى حدث هذا؟ تسأل نفسك فلا تظفر بإجابة.(أحمد خالد توفيق ،2008 ، ص63) ؛ لذلك توقف الجميع عن العمل فلم يعد هناك مال ولم يعد هناك طعام حتى أصبحوا يأكلون الكلاب ويتقاتلون من أجلها: "لم نكن لنحتمل هذا أيضًا. المعدة خاوية والجائع مجنون. بعد كل هذا الجهد يضيع منا الكلب الذي ظللنا ننصب له الكمائن ثلاثة أيام؟ هنا فقد عبدالظاهر أعصابه وصرخ بصوت ارتجت له ممرات المترو. سترون يأولاد. هذا الكلب لنا ، وسنموت على جثته وعلى الفور وثبنا جميعا لنلتحم بهؤلاء الأوغاد" (أحمد خالد توفيق ، 2008 ، ص74)"

في عمل بسمة عبد العزيز (الطابور) عبرت العمل عن العالم الثالث المقموع تحت وطأة الحكم الشمولي الذي يسيطر على كل شيء فلم يعد للإنسان أية حقوق في هذا الزمن فقد أدرج (كرستوفر كلافام) العوامل التالية

التي يعتقد بأنها الأسباب الحقيقية وراء هلاك الحقوق وهى الهشاشة السياسية والزعامة الأبوية المستحدثة والدساتير المفصلة والفساد الحكومي وقادة التوريث. وهى جميعها تعريفات تصف الجانب المظلم لفترات طويلة من حياتنا قد يكون عمل الطابور هائمًا في التاريخ فهو يضرب في الماضي بجذوره و يعانق المستقبل بفروعه فتراه عملاً مستقبليًّا يرسم القادم الموجع الذي تسلب فيه كل الحقوق وتغيب فيه الديمقراطية وتسرق منه الحقوق ، على ضوء ذلك" اختفى الحاكم القديم من المشهد ، وراحت البوابة تنظم الكثير من الأمور ، وتضع القيود والضوابط اللازمة لتسيير المصالح والأشغال ، ثم صدر منشور رسمي أوضح اختصاصات البوابة وصلاحياتها التي اشتملت على كل ما يمكن للمرء أن يفكر فيه" (بسمة عبدالعزيز ، ص41) ، في هذا النوع من الديستوبيا مارست السلطة أمرين يمثلان سطوتها وجبروتها ونزع الحقوق من المواطنين بأشكال مختلفة تمثل انتهاكًا صارخًا للحريات وهي:

أولا: انتهاك الحريات وظهر ذلك جليًّا في رواية (الطابور) عندما سخرت الدولة الشركات العامة والخاصة لخدمة مصالحها بعيدًا عن مصلحة الشعب تمامًا ، فمن ناحية تطالب الشركات بتقديم مصالح لها محملة إياها أعباء لا قبل لها مما يدفعها إلى خسائر فادحة يكون أثرها هو تسريح الناس من العمل ونشر البطالة والفقر ولا تملك هذه الشركات حق الاعتراض.

ثانيا: التجسس على المواطنين سواء بأفراد مندسين بينهم أو عن طريق تسخير شركات المحمول بالتجسس على المكالمات وتزويد السلطات بها وهو ما يعد اعتداء على الحقوق كلية ويدفع إلى حالة من الشك والخوف والقلق ووضح ذلك حين أخبر الصحفي إيهاب إيناس بنص المكالمة بعد أن وجدها في أوراق أم مبروك فيقول:" طلب منها أن تسمح له بعشر دقائق فقط للاستفسار عن أمر مهم ، بعيدًا عن قلب الطابور. ابتعدا قليلاً عن الحصيرة وإن ظلت عيناها على المكان خوفًا من أن يستولي عليه أحد المتطفلين. أخرج إيهاب الورقة ، ورجاها الهدوء ، ثم سألها أن تقرأ ما فيها ، تناولت الورقة في فضول ، كان الحوار طويلاً ، لكنها أطبقت فمها بعد أن طالعت الجملتين الأوليين ، وبدت على وشك البكاء: " أنا آسفه جدا ، آسفه والله ، ما قصدتش حاجة ، دول كلمتين غصب عني ، قاطعها قائلاً إنه لا معنى للأسف ، فهو نفسه مثلها تمامًا ، عثر على تسجيل لإحدى مكالماته التليفونية في ورقة أخرى"(بسمة عبدالعزيز ،2013 ص93)

ثالثًا: الهيمنة: وعلى وجه التحديد ، كيف تتحول فضاءات السياسة والإعلام والثقافة والتربية إلى أدوات تساعد على الهيمنة على عقول وأفكار المحكومين؟ هذا الأمر لن يتأتى إلا استخدام خطاب معين لترسيخ هذه الهيمنة ، أو مقاومتها ، هذه الأدوات المساهمة في إنتاج خطاب سياسي وإعلامي وثقافي وتربوي.. إلخ خال منه. هذا الأمر ظهر في هيمنة السلطات على الإعلام الذي أصبح أداة طيعة في أياديهم ينشر أكاذيبهم وتبادلهم الحب في الحكام فيقول الراوي على لسان جابر تلك الشخصية المعبرة عن مجتمع الأغيار في يوتوبيا:" هذه هي الصحافة الوحيدة الرائجة اليوم.. خليط عجيب مريض من الجنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة. غلاف الجريدة لا يخلو من عبارات (كشف المستور) وفي الغرف المغلقة والجن والاغتصاب مع تلميح عام يوحي بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون" (أحمد خالد توفيق ، 2008 ، ص126) لم يكتف جابر بهذا الكلام بل أردف قائلا بعد أن فتح جريدة أخرى:" المقال عبارة عن رسائل حب موجهة للحكام. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفًا مشويًا ينز من الدهن ؛ لهذا يكتبون كلامًا لا يعني أي طرف سوى الحكام"(أحمد خالد توفيق ، 2008 ، ص126)

لم تكن عطارد بعيدة عن إظهار هذه الهيمنة فقد ذكرت في معرض الحديث عن الاحتلال وكيف تحولت إلى أداة لنشر أخبار المحتل دون ذكر كلمة المحتل ولو مرة واحدة فهي تخبر أنه:" في التاسعة مساء سنسمع من الراديو خبرًا يعلن اسم الحاكم العسكري المصر ، الفيلدمارشال بول - بيير جينفيف. وسيكون أول قراراته هو

تعيين الدكتور خليفة صدقي رئيسا للوزراء ، وتكليفه تشكيل الحكومة الجديدة. في صباح اليوم التالي ، الرابع من مارس 2023 ، ستتصدر جميع الصحف المصرية عناوين متشابهة ، سيصبح أشهرها مانشيت الأهرام: «الدكتور صدقي يُكلف بتشكيل الحكومة الجديدة وأنباء عن إلغاء وزارة الإعلام" (محمد ربيع ، 2015 ، ص30)

4/2 ديستوبيا الحضور الإنساني: تظل مكانة المرأة بنت الوجود الإنساني المبني على الأخلاق والقيم ومكارمها وحين تختل الأخلاق في زمن ما فإن مكانتها تتضآل وكلما زاد هذا الخلل زادت الهوة بين ما كانت عليه وما صارت له ، فإن التاريخ الإنساني شاهد على ذلك ففي العصر الفرعوني القديم وصلت المرأة إلى مرتبة عظيمة ، ولم تكن فقط عند الفراعنة فسيدنا إبراهيم خليل الله استجاب لغيرة زوجه (السيدة سارة) محترمًا رغبتها وانتقل بزوجه السيدة (هاجر) إلى مكان آخر. هذه المكانة للمرأة ظلت حتى أن قبائل كاملة نسبت لها وأن آلهة سميت باسمها إلا أن هذه المكانة اختلت في العصر الجاهلي وتعرضت للوأد والقتل والاعتداء على حقوقها وإن كان هذا على الأكثر وليس على العموم ، وجاء الإسلام ككل الأديان السماوية محافظًا على مكانة المرأة وأنها شريك فاعل في هذه الحياة ولا يتميز عنها الرجل في شيء ، والتاريخ يشهد بما قدمته من دور عظيم في بناء الحضارات.

هذا الحضور على وجود المرأة ليس بالحدث الجديد ، فهي حاضرة منذ القديم ، منذ الإلياذة والأوديسة ، ومع بداية كتابة الرواية في الوطن العربي على يد محمد حسين هيكل جاء عنوانها باسم (زينب) ثم كتب العقاد روايته باسم (سارة) هذا السعي لوجود المرأة في الأعمال الروائية للتعبير عن واقعهم الذي لا يليق بهن ذاك الواقع الذي لا يعبر عن مكانتها في الدين أو مكانتها داخل المجتمع. هذه المكانة اختلت بشكل لا مراء فيه منذ تاريخ طويل بعد أن تحولت النظرة إلى المرأة كونها جسدًا فقط ناسين دورها في خلق مجتمع كامل يعتمد على العقل والنفس ، هذا الأمر ساد مع انتشار الجهل والتخلف ، فمكانة المرأة الحقيقية دومًا وأبدا ترتبط بأمرين مهمين في حياة البشر وهما: أولهما ارتباط المجتمع بالقيم الدينية الصحيحة غير المحرفة التي نادت بالحفاظ على مكانتها ورفعها لأعلى مكانة والثانية التقدم العلمي والحضاري والذي يرى المرأة شريكًا فاعلاً في نهضة أي مجتمع.

إلا أنها في المجتمع الديستوبي كائن ضعيف معتدى على حقوقه بشكل كلي ذلك الكائن الذي يعتبر "المجتمع سجنًا مشحونًا بالتعذيب اليومي له ، يمارس عليه سطوة الإقصاء لحاجاتها ومتطلباتها كامرأة ، ويختزلها ، ويخرج بها عن نواميسها النوعية" (عبد العاطي شلبي ،2005 م ، ص148) فيمارس عليها كل أنواع التعدي لتحيا منكسرة مهزومة ، ففي عمل يوتوبيا ظهر الاعتداء الصارخ على المرأة من خلال ما مورس عليها من اعتداءات متنوعة في المجتمع المعزول المسمى يوتوبيا المتاح له كل ملذات الحياة ، فقد ظهرت بالضعف فهي موضع الشهوة المتنقلة من رجل لرجل دون أي خجل ، هذه الممارسة والسماح بها يعتبر ديستوبيا موجهة ضدها.

لا يختلف الأمر في مجتمع الأغيار فهي المرأة المستضعفة التي تغتصب في عملها من ملوك يوتوبيا دون أن يكون لها حق الاعتراض ، وإن اعترضت فالموت طريقها فعلى لسان امرأة منهن يجسد المؤلف الضمني هذه الحقيقة بقولها:" لا يتوب رجال يوتوبيا أبدًا. لا يشيخون ولا يهرمون ، وشهوتهم للنساء أبدية كآلهة الإغريق ، لكن الكبار لا يجدون فرصتهم إلا مع الأغيار ، لا تستطيع المرأة منا أن تمتنع عن الحمزاوي بك (أحمد خالد توفيق ، 2008 ص76) في مشهد آخر يوضح أنه لديه من الفحولة ما يستطيع أن ينام مع ثلاث نساء معًا. هذه الصورة التي قدمها العمل كانت انعكاسًا لصورة الواقع الذي أظهره المؤلف الحقيقي من خلال تقرير صادر يوضح ارتفاع التعدي على المرأة وتعرضها للعنف بكل أنواعه سواء كان عنفًا لفظيًّا أو جسديًّا حتى زهق الروح ، هذا التقرير جُسد في عطارد حين بدأت الرواية باجتماع الناس حول ذبح عجل ثم ربط الجنس بولائم اللحم ثم الانتقال إلى جريمة قتل بشعة تعرضت فيها أسرة كاملة للفناء على يد الأب وظهر الاعتداء الصارخ على

المرأة وبنتيها حتى بعد الموت في الأكل من جثثهم. ولم يتوقف عند هذا الحد، بل ظهر في التعبير عن البغاء وانتشاره والتعدي على الفتيات الصغار وقتلهن وأنه أمر أصبح غير مستهجن وفي هذا الأمر الغرائبي يحمل صورة أكثر قتامة لصورة المرأة في المجتمع الديستوبي.

في الطابور ظهرت المرأة بشكل مغاير سواء كانت طاعنة في السنة أو يافعة شابة فهي الأم المناضلة، وهي العجوز التي تبحث عن أرغفة الخبز الميري، وهي أيضًا الساعية لعلاج بناتها، وهي المعلمة التي يمارس عليها الجاسوسية فتنكمش على ذاتها وهي الصديقة الوفية المساعدة لصديقها المريض، وهي المناضلة والمقاطعة. فالرواية تُظهر المرأة بشكل إيجابي على طول الخط، فالمؤلف الحقيقي يحاول أن يخبر أن المرأة لا تقل إيجابية في الحياة عن الرجل، وأنها لا تعيش على الهامش بل في مواقف كثيرة قد تقوم بما لا يقوم به الرجل -رغم وجودها في الظروف الصعبة- ويظل دورها دورًا قويًّا واضحًا وظاهرًا رغم الديستوبيا التي تمارس عليها.

قائمة المراجع:

-أحمد خالد توفيق ،2008 يوتوبيا، دار ميريت.
-- بسمة عبدالعزيز ،2013 الطابور. دار التنوير الأولى.
- سعود السنعوسي، 2015 فئران أمي حصة، الدار العربية للعلوم والنشر، منشورات ضفاف.
- صبري موسى، 2014 السيد من حقل السبانخ.
- محمد ربيع، 2015عطارد .دار التنوير للطباعة والنشر
- أمارتيا صن، الهوية والعنف، ترجمة سحر توفيق، عالم المعرفة عدد ٣٥٢، ٢٠٠٨.
-انجيل سمعان، 1982 وجهة النظر في الرواية المصرية ص١٠٣ مجلة فصول العدد ٢/٢.
- برنابي روجروسون ،2010 ورثة محمد، الخلاف السني الشيعي، ترجمة عبدالرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب.
- بول ريكور، 2003 محاضرات في الأيديولوجية واليوتوبيا، تحرير جورج تيلور، ترجمة، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة.
-توماس مور، 1987 يوتوبيا، ترجمة أنجيل بطرس سمعان، المقدمة، ط2، الهيئة المصرية العامة لكتاب.
- جيرار جينت.1987، ط/2، خطاب الحكاية. ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي.
- جبراند برنس، 2003 المصطلح السردي ترجمة عابد خازندا، المجلس الأعلى للثقافة.
- حسن بحراوي، 1990، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي.
- دي لوز، 1994، ميشيل فوكو المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت.
- راسل جاكوبي ،1987 نهاية اليوتوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة، فاروق عبدالقادر، عالم المعرفة، عدد259.
- سعيد علوش ،1985، ط/1 معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- عبد العاطي شلبي:، 2005، فنون الأدب الحديث، بين الأدب الغربي والأدب العربي ،المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.
-فرانسيس فوكوياما، 1993، نهاية التاريخ والرجل الأخير، ترجمة فؤاد شاهين، جميل قاسم، دار الأنماء القومي لبنان
- لايمان تاور سارجنت، 2016 اليوتوبية مقدمة قصيرة جدا، ترجمة ضياء وزّاد مراجعة مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي التعليمية.
- لطيف زيتون، 2002 معجم المصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون.
- مارك بوكانان ،2010 الذرة الاجتماعية لماذا يزداد الأثرياء ثراء ويزداد الفقراء فقرا؟ ترجمة أحمد علي بدوي مكتبة الأسرة.
- نجدي عبدالستار ،2018 العالم السردي في روايات سيد الوكيل رسالة ماجستير، عين شمس.
- نعيمة علي عبدالجواد ،2009 ديستوبيا الواقع واليوتوبيا المأمولة في رواية آلة الزمن، مجلة فكر وإبداع مصر، ج٥١.
- هاني الجزار ،2010 أزمة الهوية والتعصب، هلا للنشر والتوزيع ج.م.ع.
- والاس مارتن 1998، كتابه النظريات السردية الحديثة، ترجمة الدكتورة حياة جاسم المجلس الأعلى للثقافة مصر.
- Marwa Essam: 2015 Post-Independence Drama from Utopia to Dystopia in Selected plays- by Wole Soyinka and Modern Egyptian Dramatists.
- https://media-arabia .com 2019.
-www.literarydevices.net 2019 .

-Four Kinds of Dystopia, 3 January, 2017
-سعيد بنكراد ،2019 http://www.saidbengrad.net/ouv/spn/spn3.htm
-حنا مينا مجلة الرياض 2019 (http://www.alriyadh.com -)
-قاموس المعاني المصطلحات العربية مادة هوى 2019 www.almaany.cr-ar://ا/الهوية/
- موقع موضوع ، مفهوم الهوية الوطنية ، 2019 https://mawdoo3.com
- قاموس المعاني المصطلحات العربية ،2019 https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/الهوية/

القلاع ومخازن الحبوب بمنطقة الأوراس

The Guelaa and granarys of Aurès

د. درية حجاري
جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2- الجزائر

تمهيد

إن الدارس للعمارة الريفية بالأوراس عليه دراسة التركيبة الاجتماعية للمجتمع لأن نوع القبيلة هو الذي يحدد نوع العمارة ، وللتوضيح أكثر فقد وجد بالأوراس في أواخر الفترة العثمانية وبداية الفترة الإستعمارية نوعين من القبائل ، قبائل مستقرة تقطن بقرى ليس بها قلاع أو مخازن حبوب لأن الانسان المستقر لا يتنقل بل يبقى بقريته طوال السنة والفائض من مدخراته يخزنه بمسكنه ، حيث نجد هذا النوع من القبائل بأمنتان ومنعة وطبردقة ، أما النوع الثاني يتمثل في القبائل نصف البدوية وهي تقطن بقرى بها قلاع لكونها قبائل ترتحل وتنتقل من قراها بصفة دوريةوعند رحيلهم يقيمون بالخيام ، وما تدّخره خلال السنة تقوم بتخزينه بهذه القلاع أو بمخازن الحبوب التي يشرف على سلامتها حارس ،ومن هذه القبائل لدينا كل من قبيلة غسيرة ، ومشونش ، وبني فراح وجبل شرشار ، وقد اصطلح عليها بمخازن الحبوب الجماعية لأنه من حق كل عائلة من القبيلة أن تخزن ممتلكاتها بأحد غرف المخزن ، وقد تحتوي بعض القرى على أكثر من قلعة واحدة,Augustin Bernard) (1921, p. 49 ، لكون هذه المعالم لم تستخدم فقط لتخزين المؤونة بل استخدمت كأماكن للمراقبة وللتربص بالعدو ، خصوصا أنه حينها كانت الأراضي الزراعية والمراعي هي مصدر المعيشة مما جعلها عرضة للنزاعات بين العديد القبائل لذا اصطلح عليها بالقلاع أو التيقليعين.

1 الموقع والتأريخ:

اتخذت هذه القلاع مواقع محصنة بواسطة الجبال التي تحيط بها(**الصورة 01**) ونجدها إما بمناطق عالية تشرف على القرية بأكملها أو بالمنحدرات قرب الوديان(Rinn Louis, 1993, p. 312) وأحيانا تأتي نجدها خارج القرية بأماكن منعزلة مثل قلعة سانف بأعالي الواد الأبيض ،أما بالنسبة لتأريخ هذه المنشآت فلا يمكن تحديده تحديدا مطلقا ، لكن حالها حال القرى التي وجدت بها أي تعود إلى أواخر الفترة العثمانية وبداية الفترة الاستعمارية على العموم.

2 نظام القلاع الأوراسية: لقد اتبع في تسيير القلاع أنظمة خاصة تضمن أطول استمرارية لها والحفاظ على أمنها وسلامتها.

2-1 الباب الرئيسي: إن الباب الرئيسي للقلعة لا يفتح إلا في فصل الخريف أي عند بداية موسم الترحال ، لأن السكان يقومون بغلق أبواب مساكنهم ويجلبون إلى القلعة المؤونة ومختلف المدخرات (قمح ، شعير ، تمور مجففة ، زبادي ، لحوم مجففة ، ...) ، وعند انتهاء هذا الموسم تغلق القلعة أبوابها مجددا.

2-2الحارس: يسمى أيضا بالخمّاس وهو يشرف على سلامة القلعة ويبقى بها بصفة دائمة وتختاره المجموعة القائمة على هذا المخزن ، علما أنه عادة ما يكون أجنبي عن القرية وتسند إليه مجموعة من المهام ، كغلق وفتح أبواب القلعة ، وإرسال خبر تسربات المياه لأصحاب الخانات (الغرف) (Faublée Urbain Marcelle ، 1951 ، صفحة 144)، كما له مسؤولية الاحتفاظ بمقاييس وزن الحبوب (من بين هذه المقاييس نذكر على سبيل المثال لا الحصر**الربعي**وهو أداة حديدية ، و**القروي** عبارة عن وعاء فخاري أو خشبي محفور من جذع الشجرة ويحتوي على حلقة لتعليقه ، ويقدر واحد قروي بحوالي 5 لتر ، و**ابنيان** فهي عبارة عن حجرة دائرية يقدر وزنها بحوالي 3.190 كلغ وتساوي 0.5 قروي ، أي أن القروي يساوي حوالي 6.980 كلغ) علما أن هذه المقاييس تبقى في المخزن ، إضافة إلى حمل وتفريغ حمولات مستخدمي المخزن بعد وزنها ، ويتقاضى الحارس أجره المتمثل في نصيب من السلع التي تمتلكها القبائل ، والذي يقدر بواحد قرويمن القمح وخمسة إلى ستة قروي من الشعير(Germain Tillion, 1957, p. 121)، ومنذ تغيّرَ التعاملات الاقتصادية من المقايضة إلى النقد أصبح كل مالك يدفع للحارس مقدار 30 فرنك سنويا منذ 1937م (Françoise verdé de Lisle, 1937, p. 321).

3 الخصائص المعمارية للقلاع:

3-1 الشكل الخارجي: تبدو على شكل حصون عالية ومحصنة ، وتكون محاطة بجدران سميكة مبنية بصفين من الحجارة الصلبة وليس بها نتوءات ولا نوافذ ، وقد تحتوي على مزاغل تستخدم أوقات الحروب والنزاعات ، أما التسقيف الخارجي فهو مسطح ويشبه سقوف المساكن ، كما يحتوي السطح على ميازيب لتسهيل تسرب مياه الأمطار إلى خارج القلعة.

3-2 الشكل الداخلي:

المدخل الرئيسي: للقلعة مدخل واحد يؤدي إلى الداخل ، وهو يتميز بالضخامة والصلابة والمتانة(Françoise verdé de Lisle, 1937, p. 321).

الصحن: لا تحتوي كل القلاع على هذا العنصر بالرغم من دوره رئيسي ، فهو يسمح بالتهوية وتوزيع الفضاءات المكونة للقلعة(Nadji Salima, 2005, p. 207)، كما يستخدم الصحن للاجتماعات وقد يحتوي أيضا على مكان توضع به الماشية والبهائم التي يمتلكها الحارس ، وهذا يبين أن القلاع ذات الصحون تستجيب للحياة الرعوية(Dj Jaque-Meunier, 1949, p. 130).

الأروقة: هي الأخرى لا نجدها بكل القلاع ، وهي عبارة عن ممرات ضيقة قد تكون مسقوفة أو غير مسقوفة وهي تسمح بتسهيل الحركة بين الخانات.

الصهاريج أو خزانات المياه: تحتوي معظم القلاع على مخزنات للمياه يزيد عددها كلما زاد كبر القلعة ، ودور هذه الخزانات هو السماح للقبائل في أوقات الحروب بالصمود لأطول مدة ممكنة بالقلعة (M. Peyron et autres, p. 3218) ، وهذه الخاصية منتشرة بكثرة بالأغادير المغربية.

الخانات (الصورة 02): تعتبر أهم عنصر معماري تقوم عليه القلعة ، وهي عبارة عن غرف فردية صغيرة الحجم تتراوح مقاساتها ما بين 3م × 4م ، ولها أبواب خشبية منخفضة(Clastier Jean, 1936, p. 35)ومزخرفة أحيانا ، ويكون مالكها هو المسؤول الوحيد عن صيانتها ، لأن سوء الحفظ بها يؤثر مباشرة على ممتلكاته وعلى الخانات

المجاورة لها. وتوضع بهذه الغرف سلع مختلفة من قمح ، شعير ، فواكه وخضر مجففة ، لجوم مجففة ، زبادي ، عسل ، ...إلخ ، وذلك إما بجلود الماعز أو بسلال كبيرة من الحلفاء ، كما نشير أن من هذه الخانات ما يخصص فقط للخضر والفواكه المعطرة مثلما وجد بقلعة إنرقب.

وتغلق هذه الخانات إما بواسطة القصب أو بأبواب خشبية أو بالحجارة الصلبة ، ثم توضع بها أقفال حديدية أو خشبية(Faublée Urbain Marcelle, « Sceaux des magasins collectifs(Aurès) », 1955, p. 20)، وأخيراتوضع أختام أو طوابع طينية(**الصورة 03**) دورها التعرف على الخانة الخاصة بكل فرد ، وذلك من خلال زخارفها الهندسية وأحيانا وجدت بها عبارات قرآنية وعلامات بسيطة نقشت بواسطة نواة التمر أو قشور الرمان أو بمفتاح(Faublée Urbain Marcelle, « Sceaux des magasins collectifs(Aurès) », 1955, p. 23).

مسكن الحارس: يقيم الحارس بالقلعة مع عائلته ، حيث أنه يقوم ببناء كوخ من القصب أو مبنى صغير يأويه وعادة ما يكون هذا المبنى قريب من الباب الرئيسي ويسكنه مع عائلته الصغيرة ، ويتكون من غرفتين صغيرتين مسودتين من دخان الكوانين وتحتوي هذه الغرف أيضا على أسِرّة بنائية ، وقربات معلقة بالدعامات الحاملة للجدران (Rozet George ، 1935 ، صفحة 56).

وقد تحتوي بعض القلاع على عناصر معمارية أخرى**كالأبراج** التي تستخدم للمراقبة مثلما وجد بقلعة إنرقب (**الصورة 04**)التي احتوت على برج وسطي ، إضافة إلى هذا قد تحتوي بعض القلاع على **ضريح** يدفن به الولي الصلح للمنطقة ، وهذا ما يزيد المكان قدسية كما وجد بقلعة براید بقبيلة أيث سعدا بواد عبدي ، علما أنها القلعة الوحيدة بكل المنطقة ونظرا لشدة حرمة المكان وأمنه فإن خانات القلعة لا تغلق بالمفاتيح (Faublée Urbain Marcelle, « Sceaux des magasins collectifs(Aurès) », 1955, p. 21).

السلم: يسمح بالوصول إلى الخانات ويكون إما شكل أدراج خشبية أو في شكل بأوتاد متكئة على الجدران ، وقد تؤدي السلالم إلى سطح القلعة الذي يستخدم هو الآخر لتجفيف التين والفرماس(المشمش المجفف).

الطوابق: يختلف عددها من قلعة إلى أخرى وكلما زاد عدد الخانات يزيد عدد الطوابق(**الصورة 05**)، وبما أن القلعة مبنية للفائدة الجماعية للقبيلة فقد قسمت إلى خانات وطوابق متساوية يأخذها المالكين عن طريق القرعة ، لكن نحيط علما أن أفضل طابق بالقلعة هو الطابق الأوسط لأن الطابق العلوي هو الأكثر عرضة لمياه الأمطار أما الطابق السفلي فهو الأكثر عرضة للسرقة(Dj Jaque-Meunier, 1949, p. 110).

4 أنواع القلاع الأوراسية: إن الكم الهائل لعدد القلاع أو مخازن الحبوب بمنطقة الأوراس والذي فاق أربع وستون قلعة يمكننا من تصنيفها إلى الأنواع التالية:

4-1قلاع الأولياء الصالحين: هي القلاع التي يبنى بها أو بجانبها ضريح لأحد الأولياء الصالحين ، مما يكسب القلعة نفس مكانة الضريح مثل قلعة قرية غوفي (ضريح أولاد ميمون وقلعتها سيدي بوزمورت)، وقد انتشر هذا النوع من القلاع بالمناطق السفلية للواد الأبيض بعد تيغانمين مثل الخنق وأولاش وسيدي المصمودي(Faublée Urbain Marcelle, « Sceaux des magasins collectifs(Aurès) », 1955, p. 22).

4-2 قلاع ذات أختام: تستخدم بهذه القلاع أختام عوضا عن الأقفال الخشبية لغلق غرف الخانات(**الصورة 06**)، لكن الجدير بالذكر أنها انتشرت خاصة لدى القبائل الأوراسية ذات الأصول العربية ، ويذكر فوبلي أن هذه القبائل هي في الواقع قبائل بدوية ذات أصول تونسية واستقرت بالأوراس ، ولم يكن لهذه القبائل ثقة لا

بالأبواب ولا بالأقفال التي تفسد بسهولة ، لذا استخدموا أختام أو طوابع يميزون بها خانات القلاع التي بها ممتلكاتهم ، وقد انتشر هذا النوع بالمناطق الشرقية للأوراس بدءً من القبائل التي تشترك في مخازنها مع قبائل أخرى أجنبيةعنها ، لكن نستثني في هذا الصدد قبيلة أولاد عبد الرحمان اللذين لا يضعون أختام بخانات قلاعهم حتى تلك الموجودة خارج أراضيهم ، مثل قبيلة بني بوسليمان اللذين كانوا يتقاسمون جزء من مخازنهم مع قبائل أخرى ، ثم انتقل هذا النوع من القلاع إلى قبائل أخرى مجاورة كقبائل الشرفة والسراحنة وبني ملقم ، لكن الجدير بالذكر هو أن المخازن بهذه المناطق لا تسمى القلاع بل تسمى دار الخزين أو غرفة تماما مثلما تسمى المخازن التونسية (Faublée Urbain Marcelle, « Sceaux des magasins collectifs(Aurès) », 1955, pp. 22-23).

3-4 قلاع ذات أسوار صماء: يكتسب هذا النوع من القلاع الصفة الدفاعية أكثر من الصفة الاقتصادية ، وهي تتميز بأسوارها العالية وانعدام الفتحات بكل واجهاتها مثل قلعة أولاد يحي(**الصورة 07**).

4-4قلاع بها تاسماشت: هي منتشرة لدى القبائل التي تخزن التمور بكمية معتبرة ، حيث تحتوي هذه القلاع بواجهتها الجنوبية على عنصر التاسماشت(Séchoir à datte) الخاص بتجفيف وتعليق التمور والاحتفاظ بها ، كما تحتوي غرف التاسماشت على دعامات خشبية (التايديث) مشكلة فواصل تقسم الغرفة إلى أجزاء ، ووجد هذا النوع من القلاع بقرية أورياش الشرفة أو نحيزة(**الصورة 08**).

5 نماذج من القلاع الأوراسية

5-1 قلعة أث سليمان أو منصور(الصورة09): تقع بقرية غوفي، ويعود تاريخ بناءها إلى حوالي 1850م.

الشكل الخارجي: تقدر مساحتها الإجمالية ب 1275 م^2 ، وهي تتخذ شكل غير منتظم وبها طابقين ، ويتراوح سمك جدارها الخارجي ما بين 50-55 سم ويتخلله جذوع العرعر (التويا) الذي يسمح بتماسكها ، أما حالة حفظها فهي سيئة.

الشكل الداخلي: يتم الدخول إليها عبر مدخل رئيسي واحد يؤدي إلى صحن جاء بشكل حرف T ، وتتوزع من حوله الخانات التي يبلغ عددها 107 خانة تتراوح مساحة كل واحدة منها ما بين 8-10م^2 ، بالإضافة إلى غرفة حارس القلعة ، وتتوزع بين الغرف السفلية أروقة ضيقة أما غرف الطابق العلوي فيتم الصعود إليها عن طريق سلالم خشبية.

5-2 قلعة أث ميمون: هي الأخرى تقع بقرية غوفي ، ويعود تاريخ بنائها إلى سنة 1852 م.

الشكل الخارجي (الصورة 10):

تبلغ مساحتها الإجمالية 684 م^2 وهي ذات شكل شبه منحرف وتتكون من طابقين ، أما سمك الجدران فيتراوح ما بين 50-55 سم ، كما تحتوي هذه الجدران على فتحات تستخدم لتهوية الخانات أو تستخدم كمزاغل في حالة الحروب والصراعات.

الشكل الداخلي (الصورة 11):

يتم الدخول إلى القلعة عبر باب رئيسي يقع بناحيتها الغربية عرضه 3.6م ويؤدي إلى صحن مكشوف تتوزع من حوله الخانات ، وعلى يسار المدخل نجد غرفة حارس القلعة وهي غرفة متوسطة الحجم يتم دخولها عبر باب عرضه 80 سم.

والملاحظ بهذه القلعة وجود ارتفاع حجري يشبه الممشى بجانبها الأيسر يتم الصعود إليه بسلم حجري ويمكننا من الولوج إلى غرف الجهة الشمالية ، علما أن غرف الجهة الجنوبية والشمالية ليست على نفس المستوى لكون القلعة مبنية على هضبة صخرية غير مستوية ، أما غرف الطابق الثاني فيتم الصعود إليها عبر سلم موجود أمام الغرف ، كما نشير أن بعض غرف الطابق الثاني ليس لها نفس تقسيم غرف الطابق الأرضي ، وتحتوي معظم الغرف على دعامة خشبية تقسم الغرفة إلى قسمين لتنظيم توزيع المواد التي توضع بها.

خلاصة

نستنتج أن للقلعة دور أساسي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقبائل الأوراسية ، وبالرغم من أنها مبنية للفائدة الجماعية القائمة على التماسك والوحدة القبلية ، إلا أنها تظهر لنا نمط معيشي يبين أن الحياة لم تكن مستقرة وكثرت بها الحروب والنزاعات ، وقلّت الثقة حتى بين الممتلكين فكل فرد كان يحرص على تأمين ممتلكاته شخصيا. كما أن هذه الظروف المعيشية الصعبة تفسر لنا هجرة وتخلي العديد من القبائل للقلاع بالرغم من تمسكهم الشديد بها ، فالقبائل التي كان نظامها المعيشي قائم على الترحال المستمر استقرت ، وأجرة حارس القلعة لم تعد تكفيه لغلاء المعيشة ، وتصحر معظم المناطق المجاورة للقلاع أثر على نوعية المحاصيل الزراعية التي تحتويها القلعة أيضا.

الملاحق:

الصورة 01: موقع قلعتي أث ميمون وأث سليمان أو منصور

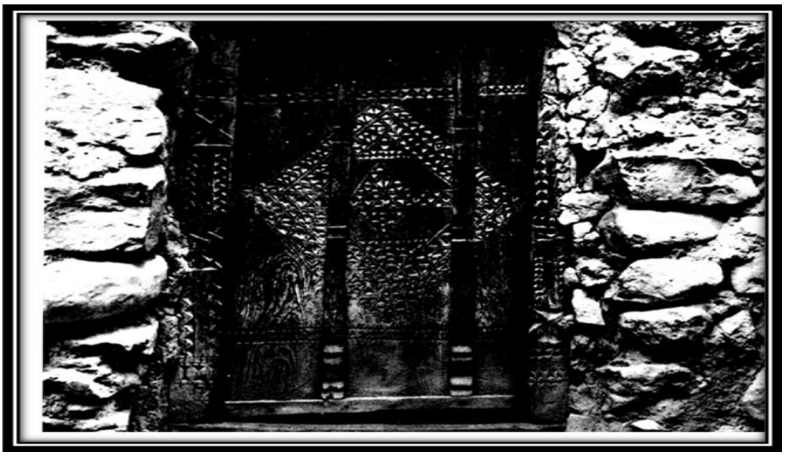

الصورة 02: باب خانة (غرفة) بقلعة غوفي
عن: M Faublée Urbain, Magasins collectifs de l'Oued El Abiod (Aurès), Pl II.

الصورة 03: الأختام التي تقفل بها أبواب القلاع
عن: M Faublée Urbain, Seaux des magasins collectifs (Aurès), Pl I.

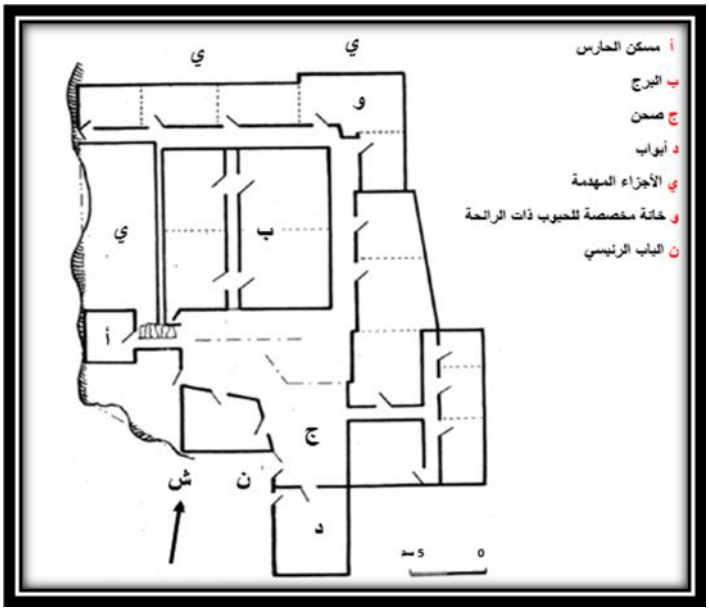

الصورة 04: مخطط قلعة إنرقب
عن: M Faublée Urbain, Magasins collectifs de l'Oued El Abiod (Aurès), p 147.

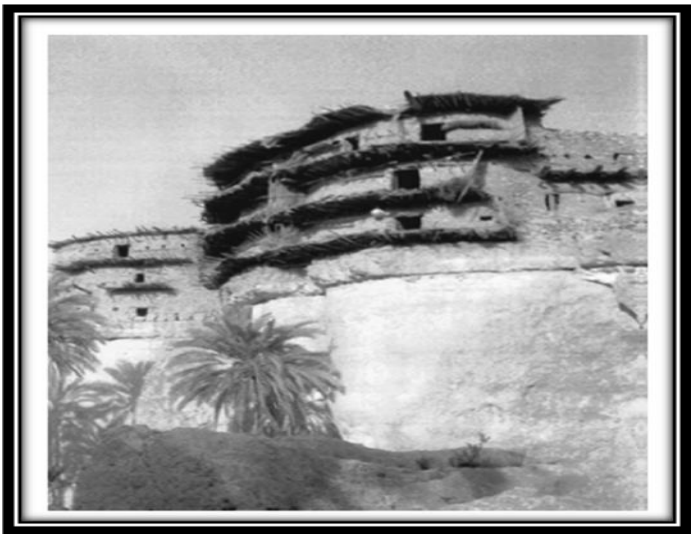

الصورة 05: قلعة بانيان عن (مصلحة الأرشيف)

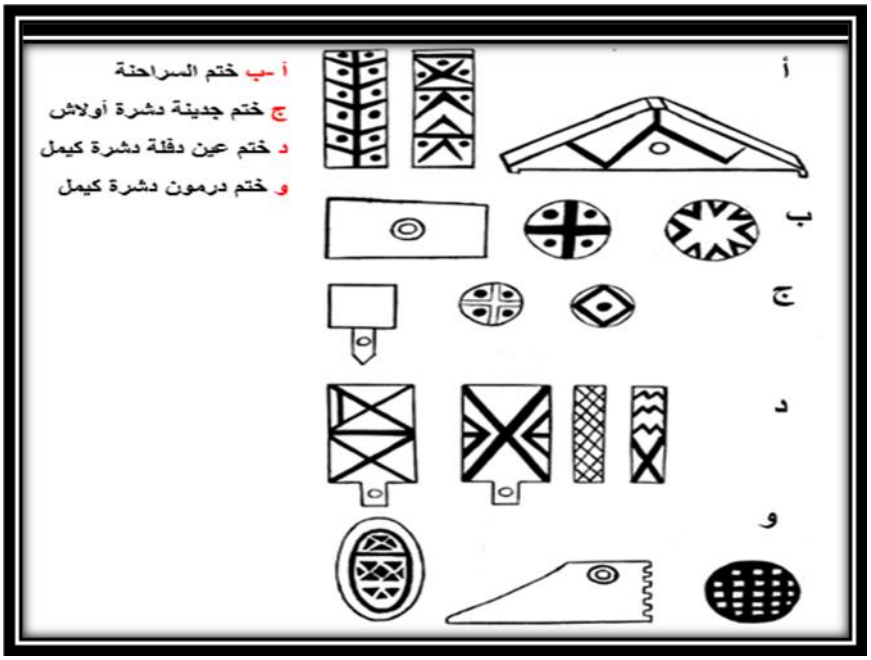

الصورة 06: زخارف الأختام التي تقفل بها أبواب القلاع
عن: M Faublée Urbain, Seaux des magasins collectifs (Aurès), p 21.

الصورة 07: قلعة أولاد يحي عن (مصلحة الأرشيف

الصورة 08: قلعة أورياش (نحيزة)
عن: M Faublée Urbain, Magasins collectifs de l'Oued El Abiod (Aurès), Pl I.

الصورة 09: بقايا قلعة أث سليمان أو منصور بغوفي

الصورة 10: قلعة أث ميمون بغوفي

الصورة 11: مخطط قلعة أث ميمون

قائمة المراجع:

Augustin(Bernard), Enquête sur l'habitation rurale des indigènes de l'Algérie, Imprimerie orientale Fantana frères, Alger, 1921.

Dj (Jaque-Meunier), « Greniers collectifs », In Hespéris, T XXXVI, 1949.

Clastier (Jean), Archives de l'institut pasteur d'Alger, Volume 14, Université de Californie, 1936.

Faublée (Urbain Marcelle), « Magasin collectifs de l'oued el Abiod, Aurès», in : Journal de la société des africanistes, tome 21, fascicule 2, 1951.

Faublée (Urbain Marcelle), « Sceaux des magasins collectifs(Aurès) »,In : Journal de la Société des Africanistes, tome 25, 1955.

Françoise (verdé de Lisle), « Dans l'Aurès (chez les Chaouïa-Sud algérien)», In : revue étude, Aout, 1937.

Germain (Tillion), L'Algérie en 1957, les éditions de minuit, Paris, 1957.

Masqueray (Emyle), Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djurdjura, Chaouïa de l'Arouas, Beni Mezâb), Paris, 1886.

M. Peyron et autres, « Greniers », In : Encyclopédie berbère, T XXI.

Nadji (Salima), Greniers collectifs de l'Atlas (Patrimoine du sud marocain), édition édisud, Belgique, 2005, p 207.

Rozet (George), L'Aurès escaliers du désert, édition baconnier, 1935, Alger.

Rinn (Louis), « Géographie ancienne de l'Algérie », in : Revue Africaine, 1993.